اهداءات ٢٠٠٠
المرحوم ا.د. فريد شافعي
استاذ العمارة الاسلامية

خطط المقريزى

كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
يختص ذلك باخبار إقليم مصر
والنيل وذكر القاهرة
ومايتعلق بها وبإقليميها ..
تأليف سيدنا الشيخ
الإمام علامة الأنام
تقى الدين أحمد بن على
ابن عبد القادر بن محمد
المعروف بالمقريزى
رحمه الله ونفع بعلومه
آمين .

الجزء الثانى

تصدره
دار التحرير للطبع والنشر

عن
طبعة بولاق
سنة ١٢٧٠ هجرية

ذكر ما قيل في مدينة فسطاط مصر

قال ابن رضوان : والمدينة الكبرى اليـوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء : الفسطاط ، والقاهرة ، والجزيرة ، والجيزة .

وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة ، والجبل المقطم فى شرقيها وبينها وبين مقابر المدينة . وقد قالت الأطبـاء : ان أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقيه يعوق ريح الصبا عنه .

وأعظم أجزائهـا هـو الفسـطاط ، ويلى الفسطاط من الغرب النيل ، وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار .

وأعظم أجزاء الفسـطاط موضع فى غور ، فانه يعلوه من المشرق المقطم ، ومن الجنوب الشرف ، ومن الشمال الموضع العالى من عمل فوق ... أعنى الموقف والعسكر وجامع ابن طولون .

ومتى نظرت الى الفسطاط من الشرق ، أو من مكان آخر عال ، رأيت وضعها فى غور . وقد بين أبقراط أن المواضع المتسفلة أسـخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء ، لاحتقـان البخار فيها ، ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها .

وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة ، وأبنيتها عالية ، وقد قال روفس : اذا دخلت مدينـة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء ، فاهرب منها لأنها وبيئة ... أراد أن البخار لا ينحـل منها كما ينبغى لضيق الأزقة وارتفاع البناء .

ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير * والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم وأزقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء .

ومن شأنهم أيضا أن يرموا فى النيـل الذى يشربون منه فضـول حيـواناتهم وجيفها ، وخرارات كنفهم تصب فيه ، وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء .

وفى خلال الفسطاط مسـتوقدات عظيمـة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط .

وهى أيضا كثيرة الغبار لسـخانة أرضها ، حتى انك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ، ويتسـخ الثـوب النظيف فى اليوم الواحد .

واذا مر الانسان فى حاجة لم يرجع الا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثير ، ويعلوها فى العشيات — خاصة فى أيام الصيف — بخار كدر أسود وأغبر ، سيما اذا كان الهواء سليما من الرياح .

واذا كانت هذه الأشياء كما وصفنا ، فمن البين أنه يصير الروح الحيوانى الذى فيهـا حاله كهذه الحال ، فيتولد اذن فى البدن من هذه الأعراض فضول كثيرة واستعدادات نحو العفن ، الا أن الف أهل الفسطاط لهذه الحال وأنسهم بها ، يعوق عنهم أكثر شرها ، وان كانوا على كل حال أسرع أهل مصر وقوعا فى الأمراض .

وما يلى النيل من الفسطاط يجب أن يكون أرطب مما يلى الصحراء ، وأهل الشرق أصلح

(*) ص٣٢٩ ، ج١ ، ط. بولاق .

حالا لتخرق الرياح لدورهم ، وكذلك عمل فوق والحمراء ، الا أن أهل الشرف الذى يشربونه أجود ، لأنه يستقى قبل أن تخالطه عفونة الفسطاط .

فأما القرافة فأجود هذه المواضع ، لأن المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها ، واذا هبت ريح الشمال مرت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط والقاهرة على الشرف فغيرت حاله .

وظاهر أن المواضع المكشوفة فى هذه المدينة هى أصح هواء ، وكذلك حال المواضع المرتفعة . وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى ما يلى النيل والسواحل .

واذا كان فى الشتاء وأول الربيع ، حمل من بحر الملح سمك كثير ، فيصل الى هذه المدينة وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جدا فيباع فى القاهرة ، ويأكله أهلها وأهل الفسطاط فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة ... فلولا اعتدال أمزجتهم ، وصحة أبدانهم فى هذا الزمان ، لكان ذلك يولد فى أبدانهم أمراضا كثيرة قاتلة ، الا أن قوة الاستمرار تعوق عن ذلك .

وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط ، فيعفن بكثرة ما يلقى فيه الى أن يبلغ عفنه الى أن تصير له رائحة منكرة محسوسة . وظاهر أن هذا الماء اذا صار على هذه الحال غير مزاج الناس تغيرا محسوسا .

قال : فمن البين أن أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض ، ما خلا أهل الفيوم فانها أيضا قريبة ، وأردأ ما فى المدينة الموضع الغائر من الفسطاط .

ولذلك غلب على أهلها الجبن وقلة الكرم ، وأنه ليس أحد منهم يغيث ولا يضيف الغريب الا فى النادر ، وصاروا من السعاية والاغتياب على أمر عظيم . ولقد بلغ بهم الجبن الى أن خمسة أعوان تسوق منهم مائة رجل وأكثر ، ويسوق الأعوان المذكورين رجل واحد من أهل البلدان الأخر وممن قد تدرب فى الحرب .

فقد استبان اذن العلة والسبب فى أن صار أهل المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض ، وأضعف أنفسا .

ولعل لهذا السبب اختار القدماء اتخاذ المدينة فى غير هذا الموضع : فمنهم من جعلها بمنف وهى مصر القديمة ، ومنهم من جعلها بالاسكندرية ، ومنهم من جعلها بغير هذه المواضع ، ويدل على ذلك آثارهم .

وقال ابن سعيد عن كتاب « الكمائم » : وأما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس ، وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن ، وعليه نزل عمرو بن العاص ، وضرب فسطاطه ، حيث المسجد الجامع المنسوب اليه .

ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ، ونسبت المدينة اليه ، فقيل فسطاط عمرو ،

وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة ، وتضاعفت عمارتها ، فأقبل الناس من كل جانب اليها ، وقصروا أمانيهم عليها ... الى أن رسخت بها دولة بنى طولون ، فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الي جانب القاهرة .

وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، ولها متنزهات ، وهى فى الاقليم الثالث ، ولا ينزل فيها مطر الا فى النادر ، وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة الا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة .

ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط ، وفرط فى الاغتباط بها بعد الافراط ، وبينهما نحو ميلين .

وأنشد فيها الشريف العقيلى :

أحن الى الفسطاط شوقا واننى
لأدعو لها ألا يحل بها القطر *

وهل فى الحيا من حاجة لجنابها
وفى كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروسا والمقطم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب آخر : فالفسطاط هى قصبة مصر ، والجبل المقطم شرقها وهو متصل بجبل الزمرذ .

(*) ص٣٤٠ ج١ ، ط. بولاق .

وقال عن كتاب ابن حوقل : والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومتنزهات على ممر الأيام خضرة .

وفى الفسطاط قبائل ، وخطط للعرب تنسب اليها كالبصرة والكوفة ، الا أنها أقل من ذلك ، وهى سبخة الأرض ، غير نقية التربة ، وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا ، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ، ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة : بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط ، والآخر على الموقف بناه أحمد بن طولون .

وكان خارج الفسطاط أبنية ، بناها أحمد ابن طولون ميلا فى ميل ، يسكنها جنده تعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان وقادة . وقد خربتا فى وقتنا هذا ، وأخلف الله بدل القطائع — بظاهر مدينة الفسطاط — القاهرة .

قال ابن سعيد : ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط ، فسار معى أحد أصحاب العزمة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها حمارا وأشار الى أن أركب حمارا آخر ، فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى

بلاد المغرب ، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والسادة الظاهرة يركبونها ، فركبت .

وعندما استويت راكبا ، أشار المكارى على الحمار فطار بى ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابى ، وعاينت ما كرهته .

ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى ، وقفت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار
وكوب الحمار وكحل الغبار

وخلفى مكار يفوق الرياح
لا يعرف الرفق بهمى استطار

أناديه مهلا فلا يرعوى
الى أن سجدت سجود العثار

وقد مد فوقى رواق الثرى
وألحد فيه ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته ، وقلت له : احسانك الى أن تتركنى أمشى على رجلى ، ومشيت الى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين القاهرة والفسطاط ، وحققت بعد ذلك نحو الميلين .

ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسوارا مثلمة سوداء ، وآفاقا مغبرة .

ودخلت من بابها وهو دون غلق ، مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف .

فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال ، الى أن سرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق ، والروايا التى على الجمال ، ما لا يفى به الا مشاهدته ومقاساته ، الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده فى جامع اشبيلية وجامع مراكش .

ثم دخلت اليه ، فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء ، غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه ، وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم ، يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا مايحصل لهم منهم رزقا ، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه ، والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة ، الا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ، ما لا تجده فى جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه .

ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن ، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك * ، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب الا بالجاه والتعب .

ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل ، فرأيت ساحلا كدر التربة ، غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض ، الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل ، فانى أقول حقا .

والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته ، قد توسطت الماء ، ومالت الى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر الى البر الغربى — المعروف ببر الجيزة — جسر آخر من الجزيرة اليه . وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الجزيرة والفسطاط راكبا احتراما لموضع السلطان .

وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت :

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل
بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

وقد جمعت فيه المراكب سحرة
كسرب قطا أضحى يزف على ورد

وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى
ويطغو حنانا وهو يلعب النرد

غدا ماؤه كالريق ممن أحبه
فمدت عليه حلية من حلى الخد

وقد كان مثل الزهر من قبل مده
فأصبح لما زاده المد كالورد

قلت هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فاذا كان عباب النيل صار أحمر .

وأنشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة ، فى مدح الفسطاط وأهلها :

حبذا الفسطاط من والدة
جنبت أولادها در الجفا

يرد النيل اليها كدرا
فاذا مازج أهليها صفا

لطفوا فالمزن لا يألفهم
خجلا لما رآهم ألطفا

(*) ص ٢٤١ ج ١ ، ط . بولاق .

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين . وجملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها تجهز الى القاهرة وسائر البلاد .

وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية .

والخراب فى الفسطاط كثير ، والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان اليها ، وسكنى الأجناد فيها .

وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ... يعنى ابن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل .

ذكر ما عليه مدينة مصر الآن وصفتها

قد تقدم من الأخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المبانى وكثرتها ، ثم الأسباب التى أوجبت خرابها . وآخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى رحمه الله ، وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

فذكر من الأخطاط المشهورة بذاتها لعهده اثنين وخمسين خطا ، ومن الحارات ثنتى عشرة حارة ، ومن الأزقة المشهورة ستة وثمانين زقاقا ، ومن الدروب المشهورة ثلاثة وخمسين دربا ، ومن الخوخ المشهور خمسا وعشرين خوخة ، ومن الأسواق المشهورة تسعة عشر سوقا ، ومن الخطط المشهورة بالدور ثلاثة عشر خطا ، ومن الرحاب المشهورة خمس عشرة رحبة ، ومن العقبات المشهورة احدى عشرة عقبة ، ومن الكيمان المسماة ستة كيمان ، ومن الأقباء عشرة أقباء ، ومن البرك خمس برك ، ومن السقائف خمسا وستين سقيفة ، ومن القياسر * سبع قياسر ، ومن مطابخ السكر العامرة ستة وستين مطبخا ، ومن الشوارع ستة شوارع ، ومن المحارس عشرين محرسا ، ومن الجوامع التى تقام فيها الجمعة بمصر وظاهرها من الجزيرة والقرافة أربعة عشر جامعا ، ومن المساجد أربعمائة وثمانين مسجدا ، ومن المدارس سبع

(*) ص٣٤٢ جـ١ ، ط. بولاق .

عشرة مدرسة ، ومن الزوايا ثماني زوايا ، ومن الربط التي بمصر والقرافة بضعا وأربعين رباطا ، ومن الأحباس والأوقافه كثيرا ، ومن الحمامات بضعا وسبعين حماما ، ومن الكنائس وديارات النصارى ثلاثين مابين دير وكنيسة .

وقد باد أكثر ما ذكره ودثر . وسيرد ما قاله من ذلك في مواضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

فأقول : ان مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة :

فحدها الشرقي اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ الى باب القرافة ، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر الى كوم الجارح ، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي الى الرصد حيث أول بركة الحبش ... فهذا طول مصر من جهة المشرق ، وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق .

وحدها الغربي من قناطر السباع خارج القاهرة الى موردة الحلفاء ، وتأخذ على شاطئ النيل الى دير الطين ... فهذا أيضا طولها من جهة المغرب .

وحدها القبلي من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهي الحد الغربي ، الى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقي ... فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي تسميها أهل مصر الجهة القبلية .

وحدها البحري من قناطر السباع ، حيث ابتداء الحد الغربي ، الى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقي ... فهذا عرض مصر من جهة الشمال التي تعرف بمصر بالجهة البحرية .

وما بين هذه الجهات الأربع فانه يطلق عليه الآن مصر ، فيكون أول عرض مصر في الغرب بحر النيل ، وآخر عرضها في الشرق أول القرافة ، وأول طولها من قناطر السباع ، وآخره بركة الحبش .

فاذا عرفت ذلك ، ففي الجهة الغربية خط السبع سقايات ، ويجاوره الخليج ، وعليه من شرقيه حكر أقبغا ، ومن غربيه المريس ومنشأة المهراني ، ويحاذي المنشأة من شرقي الخليج خط قنطرة السد وخط بين الزقاقين وخط موردة الحلفاء وخط الجامع الجديد ، ومن شرقي خط الجامع الجديد خط المراغة ، ويتصل به خط الكبارة وخط المعاريج ، ويجاور خط الجامع الجديد من بحريه الدور التي تطل على النيل ، وهي متصلة الى جسر الأفرم المتصل بدير الطين وما جاوره الى بركة الحبش .

وهذه الجهة هي أعمر ما في مصر الآن .

وأما الجهة الشرقية فليس فيها شيء عامر الا قلعة الجبل وخط المراغة المجاور لباب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة ، ويجاور خط مشهد السيدة نفيسة من قبليه الفضاء الذي كان موضع الموقف والعسكر الى كوم الجارح ، ثم خط كوم الجارح ، وما بين كوم الجارح الى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش تحت الرصد فانه كيمان .

وهي الخطط التي ذكرها القضاعي ، وخربت في الشدة العظمى زمن المستنصر ، وعند حريق شاور لمصر كما تقدم .

وأما عرض مصر الذى من قناطر السباع الى القلعة فانه عامر ، ويشتمل على بركة الفيل الصغرى بجوار خط السبع سقايات ، ويجاور الدور التى على هذه البركة من شرقيها خط الكبش ، ثم خط جامع أحمد بن طولون ، ثم خط القبيبات ، وينتهى الى الفضاء الذى يتصل بقلعة الجبل .

وأما عرض مصر الذى من شاطىء النيل ، يخط دير الطين الى تحت الرصد حيث بركة الحبش ، فليس فيه عمارة سوى خط دير الطين ، وما عدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط ، وكان فيه خط بنى وائل وخط راشدة ، فأما خط السبع سقايات فانه من جملة الحمراء الدنيا ، وسيرد عند ذكر الأخطاط ان شاء الله تعالى ، وما عدا ذلك فانه يتبين من ذكر ساحل مصر .

ذكر ساحل النيل بمدينة مصر

قد تقدم أن مدينة فسطاط مصر اختطها المسلمون حول جامع عمرو بن العاص وقصر الشمع ، وأن بحر النيل كان ينتهى الى باب قصر الشمع الغربى المعروف بالباب الجديد .

ولم يكن عند فتح أرض مصر بين جامع عمرو وبين النيل حائل ... ثم انحسر ماء النيل عن أرض تجاه الجامع وقصر الشمع ، فابتنى فيها عبد العزيز بن مروان ، وحاز منه بشر ابن مروان لما قدم على أخيه عبد العزيز ، ثم حاز منه هشام بن عبد الملك فى خلافته وبنى فيه .

فلما زالت دولة بنى أمية ، قبض ذلك فى الصوافى ، ثم أقطعه الرشيد السرى بن الحكم ، فصار فى يد ورثته من بعده يكترونه ويأخذون حكره . وذلك أنه كان قد اختط فيها المسلمون شيئا بعد شىء ، وصار شاطىء النيل — بعد انحسار ماء النيل عن الأرض المذكورة — حيث الموضع الذى يعرف اليوم بسوق المعاريج .

قال القضاعى : كان ساحل أسفل الأرض بازاء المعاريج * القديم ، وكانت آثار المعاريج قائمة سبع درج حول ساحل البيما الى ساحل البورى اليوم ، فعرف ساحل البورى بالمعاريج الجديد (يعنى بالمعاريج الجديد موضع سوق المعاريج اليوم) .

وكان من جملة خطط مدينة فسطاط مصر الحمراوات الثلاث : فالحمراء الأولى من جملتها سوق وردان ، وكان يشرف بغربيه على النيل ، ويجاوره الحمراء الوسطى ، ومن بعضها الموضع الذى يعرف اليوم بالكبارة . وكانت على النيل أيضا ، وبجانب الكبارة ، الحمراء القصوى ، وهى من بحرى الحمراء الوسطى الى الموضع الذى هو اليوم خط قناطر السباع ، ومن جملة الحمراء القصوى خط خليج مصر من حد قناطر السباع الى تجاه قنطرة السد من شرقيها ، وبآخر الحمراء القصوى الكبش وجبل يشكر .

وكان الكبش يشرف على النيل من غربيه ، وكان الساحل القديم فيما بين سوق المعاريج اليوم الى دار التفاح بمصر وأنت مار الى باب

(*) ص٣٤٣ جـ١ ، ط. بولاق .

مصر بجوار الكبارة ، وموضع الكوم المجاور لباب مصر من شرقيه .

فلما خربت مصر بحريق شاور بن مجير اياها ، صار هذا الكوم من حينئذ وعرف بكوم المشانيق ، فانه كان يشنق بأعلاه أرباب الجرائم ، ثم بنى الناس فوقه دورا فعرفه الى يومنا هذا بكوم الكبارة . وكان يقال لما بين سوق المعاريج وهذا الكوم لما كان ساحل النيل « القالوص » .

قال القضاعى : رأيت بخط جماعة من العلماء « القالوص » بألف ، والذى يكتب فى هذا الزمان « القلوص » بحذف الألف . فأما القلوص بحذف الألف فهى من الابل والنعام الشابة ، وجمعها قلص وقلاص وقلائص . والقلوص من الحبارى الأنثى الصغيرة .

فلعل هذا المكان سمى بالقلوص لأنه فى مقابلة الجمل الذى كان على باب الريحان الذى يأتى ذكره فى عجائب مصر . وأما القالوص بالألف فهى كلمة رومية ، ومعناها بالعربية مرحبا بك ، ولعل الروم كانوا يصفقون لراكب هذا الجمل ، ويقولون هذه الكلمة على عادتهم .

وقال ابن المتوج : والساحل القديم أوله من باب مصر المذكور (يعنى المجاور للكبارة) والى المعاريج جميعه كان بحرا يجرى فيه ماء النيل ، وقيل ان سوق المعاريج كان موردة سوق السمك ... يعنى ما ذكره القضاعى من أنه كان يعرف بساحل البورى ثم عرف بالمعاريج الجديد .

قال ابن المتوج : ونقل أنّ بستان الجرف المقابل لبستان حوض ابن كيسان كان صناعة العمارة . وأدركت أنا فيه بابها ، ورأيت زوبية من ركن المسجد المجاور للحوض من غربيه تتصل الى قبالة مسجد العادل الذى بمراغة الدواب الآن .

قال مؤلفه رحمه الله : بستان الجرف يعرف بذلك الى اليوم ، وهو على يمنة من سلك الى مصر من طريق المراغة ، وهو جار فى وقف الخانقاه ، التى تعرف بالواصلة ، بين الزقاقين .

وحوض ابن كيسان يعرف اليوم بحوض الطواشى تجاه غيط الجرف المذكور ، يجاوره بستان ابن كيسان الذى صار صناعة — وقد ذكر خبر هذه الصناعة عند ذكر مناظر الخلفاء — ويعرف بستان ابن كيسان اليوم ببستان الطواشى أيضا ، وبين بستان الجرف وبستان الطواشى هذا مراغة مصر المسلوك منها الى الكبارة وباب مصر .

قال ابن المتوج : ورأيت من نقلْ عمن نقلْ عمن رأى هذا القلوص يتصل الى آدر الساحل القديم ، وأنه شاهد ما عليه من العمائر المطلة على بحر النيل من الرباع والدور المطلة ، وعد الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على بحر النيل ، فكانت عدتها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر ، مؤبد فيها أطناب ترخى بها وتملأ . أخبرنى بذلك من أثق بنقله ، وقال : انه أخبره من يثق به متصلا بالمشاهد له الموثوق به .

قال : وباب مصر الآن بين البستان الذى قبلى الجامع الجديد (يعنى بستان العالمة) وبين كوم المشانيق (يعنى كوم الكبارة) ، ورأيت السور يتصل به الى دار النحاس ، وجميع ما يظاهره شون .

ولم يزل هذا السور القديم ، الذى هو قبلى بستان العالمة ، موجودا أراه وأعرفه ... الى أن اشترى أرضه من باب مصر الى موقف المكارية بالخشابين القديمة الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، فأجر مكانه للعامة . وصار كل من استأجر قطعة هدم ما بها من البناء بالطوب اللبن ، وقلع الأساس الحجر وبنى به ، فزال السور المذكور ، ثم حدث الساحل الجديد .

قال مؤلفه رحمه الله : وهذا الباب الذى ذكره ابن المتوج ، كان يقال له باب الساحل . وأول حفر ساحل مصر فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وذلك أنه جف النيل عن بر مصر حتى احتاج الناس أن يستقوا من بحر الجيزة الذى هو فيما بين جزيرة مصر — التى تدعى الآن بالروضة — وبين الجيزة ، وصار الناس يمشون هم والدواب الى الجزيرة ، فحفر الأستاذ كافور الاخشيدى — وهو يومئذ مقدم أمراء الدولة لأونوجور بن الاخشيد — خليجا حتى اتصل بخليج بنى وائل ، ودخل الماء الى ساحل مصر .

ثم انه لما كان قبل سنة ستمائة ، تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة ، وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق الى المقياس يبسا .

فلما كان فى سنه ثمان وعشرين وستمائة ، خاف السلطان الملك الكامل * محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر ، فاهتم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر الى صناعة التمر الفاضلية ، وعمل فيه بنفسه ، فوافقه على العمل فى ذلك الجم الغفير ، واستوى فى المساعدة السوقة والأمير ، وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس .

فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان الى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر ، حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائما بعد ما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة ، فاذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهودة بمصر .

فلما كانت أيام الملك الصالح ، وعمر قلعة الروضة ، أراد أن يكون الماء طول السنة كثيرا فيما دار بالروضة ، فأخذ فى الاهتمام بذلك ، وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة فى بر الجيزة — تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيرة الروضة — فانعكس الماء ، وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا ، وتكاثر أولا فأولا فى بر مصر من دار الملك الى قريب المقس ، وقطع المنشأة الفاضلية .

قال ابن المتوج عن موضع الجامع الجديد : وكان فى الدولة الصالحية (يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب) رملة تمرغ الناس فيها الدواب فى زمن احتراق النيل وجفاف البحر

(*) ص٣٤٤ جـ١ ، ط. بولاق .

الذى هو أمامها . فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة ، وصار فى كل سنة يحفر هذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله فى هذه البقعة ، شرع خواص السلطان فى العمارة على شاطىء هذا البحر .

فذكر من عمر على هذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن الى المدرسة المعزية ، وذكر ما وراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد وغيره ، ثم قال : وانما عرف بالعالمة لأنه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة ، فعمرت بجانبه منظرة لها ، وكان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة ، فلما توفيت بقى البستان مدة فى يد ورثتها ثم أخذ منهم .

وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمارته شونا للاتبان السلطانية ، وكذلك ما يجاورها . فلما عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد ، كثرت العمائر من حد موردة الحلفاء على شاطىء النيل حتى اتصلت بدير الطين ، وعمر أيضا ما وراء الجامع من حد باب مصر — الذى كان بحرا كما تقدم — الى حد قنطرة السد .

وأدركنا ذلك كله على غاية العمارة ، وقد اختل منذ الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على الخليج ، ومن شرقيه على بستان الجرف ، ولم يبق به الا قليل من الدور . وموضعه كما تقدم كان فى قديم الزمان غامرا بماء النيل ، ثم ربى جرفا وهو بين الزقاقين المذكور ، فعمر عمارة كبيرة ، ثم خرب الآن ، وخرب أيضا خط موردة الحلفاء ، وكان فى القديم غامرا بالماء .

فلما ربى النيل الجرف المذكور ، وتربت الجزيرة قدام الساحل القديم — الذى هو الآن الكبارة الى المعاريج — وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد ، عمرت موردة الحلفاء هذه ، واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ، ومن قبليها بالأملاك التى تمتد من تجاه الجامع الجديد الى دير الطين ، وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها ، ويملأ منها الناس الروايا .

وكان البحر لا يبرح طول السنة هناك ، ثم صار ينشف فى فصل الربيع والصيف ، واستمر على ذلك الى يومنا هذا ، وخرب ما خلف الجامع الجديد أيضا من الأماكن التى كانت بحرا تجاه الساحل القديم ، ثم لما انحسر الماء صارت مراغة للدواب ، فعرفت اليوم بالمراغة .

وهى من آخر قنطرة السد الى قريب من الكبارة ، ويحصرها من غربيها بستان الجرف المقدم ذكره وعدة دور كانت بستانا وشونا الى باب مصر ، ومن شرقيها بستان ابن كيسان الذى صار صناعة ، وعرف الآن ببستان الطواشى ، ولم يبق الآن بخط المراغة الا مساكن يسيرة حقيرة .

ذكر المنشاة

اعلم أن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الحمراء القصوى ، وكان

فى الجانب الغربى من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ، ثم خرب هذا البستان ، وموضعه الآن يعرف بالمريس .

فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان اللوق — الآتى ذكره فى الأحكار ظاهر القاهرة ان شاء الله تعالى — وبين بستان الخشاب المذكور ، فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل ، لأن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى أنشأ بها بستانا عظيما كان يمير أهل القاهرة من ثماره وأعنابه ، وعمر بجانبه جامعا ، وبنى حوله ، فقيل لتلك الخطة منشأة الفاضل .

وكثرت بها العمارة ، وأنشأ بها موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الديباجى بستانا دفع له فيه ألف دينار فى أيام الظاهر بيبرس ، وكان الصرف قد بلغ * كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصفا .

فاستولى البحر على بستان الفاضل وجامعه ، وعلى سائر ما كان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور ، وقطع ذلك حتى لم يبق لشىء منه أثر .

وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب ، بعد خراب بستان الفاضل هذا ، عدة سنين « رحم الله الفاضل ياعنب » اشارة لكثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها .

وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ستين وستمائة ، وكان الموفق الديباجى المذكور يتولى خطابة جامع الفاضل الذى كان بالمنشأة ، فلما تلف الجامع باستيلاء النيل عليه ، سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وألح عليه — وكان من الزامه — حتى قام فى عمارة الجامع بمنشأة المهرانى .

ومنشأة المهرانى هذه موضعها فيما بين النيل والخليج ، وفيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج انحسر عنها ماء النيل قديما ، وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل أنه كان يعمل فيها أقمنة الطوب .

فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ، ليقوم مقام الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل ، أجابه الى ذلك ، وأنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع .

فأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانى دارا وسكنها ، وبنى مسجدا ، فعرفت هذه الخطة به ، وقيل لها منشأة المهرانى ، فان المهرانى المذكور أول من ابتنى فيها بعد بناء الجامع .

وتتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانى ، وأكثروا من العمائر حتى يقال انه كان بها فوق الأربعين من أمراء الدولة ، سوى من كان هناك من الوزراء وأماثل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس ، ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية فخربت ، وبها الآن بقية يسيرة من الدور .

ويتصل بخط الجامع الجديد خط دار النحاس ، وهو مطل على النيل . ودار النحاس

(*) ص٣٤٥ جـ١ ، ط . بولاق .

هذه من الدور القديمة وقد دثرت ، وصار الخط يعرف بها »

قال القضاعي : دار النحاس اختطها وردان مولى عمرو بن العاص ، فكتب مسلمة بن مخلد — وهو أمير مصر — الى معاوية يسأله أن يجعلها ديوانا ، فكتب معاوية الى وردان يسأله فيها ، وعوضه فيها دار وردان التى بسوقه الآن »

وقال ربيعة : كانت هذه الدار من خطة الحجر من الأزد ، فاشتراها عمر بن مروان وبناها ، فكانت فى يد ولده ، وقبضت عنهم وبيعت فى الصوافى سنة ثمان وثلثمائة ، ثم صارت الى شمول الاخشيدى ، فبناها قيسارية وحماما ، فصارت دار النحاس قيسارية شمول .

وقال ابن المتوج : دار النحاس خط نسب لدار النحاس ، وهو الآن فندق الأشراف ذو البابين : أحدهما من رحبة أمامة ، والثانى شارع بالساحل القديم .

وبآخر هذه الشقة التى تطل على النيل جسر الأفرم ، وهو فى طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار ، كان مطلا على النيل دائما ، والآن ينحسر الماء عنه عند هبوط النيل ، وعرف بالأمير عز الدين أيدمر الأفرم الصالحى النجمى أمير جندار ، وذلك أنه لما استأجر بركة الشعيبية — كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب — جعل منها فدانين من غربيها أذن للناس فى تحكيرها ، فحكرت وبنى عليها عدة دور بلغت الغاية فى اتقان العمارة .

وتنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاوون من الوزراء وأعيان الكتاب فى المساكن بهذا الجسر ، وبنوا وتأنقوا وتفننوا فى بديع الزخرفة ، وبالغوا فى تحسين الرخام ، وخرجوا عن الحد فى كثرة انفاق الأموال العظيمة على ذلك ، بحيث صار خط الجسر خلاصة العامر من اقليم مصر ، وسكانه أرق الناس عيشا وأترف المتنعمين حياة وأوفرهم نعمة ، ثم خرب هذا الجسر بأسره وذهبت دوره .

وأما الجهة الشرقية من مصر ففيها قلعة الجبل ، وقد أفردنا لها خبرا مستقلا يحتوى على فوائد كثيرة تضمنه هذا الكتاب ، فانظره .

ويتصل آخر قلعة الجبل بخط باب القرافة ، وهو من أطراف القطائع والعسكر ، ويلى خط باب القرافة الفضاء الذى كان يعرف بالعسكر ، وقد تقدم ذكره ، وكان بأطراف العسكر مما يلى كوم الجارح .

الموقف ... قال ابن وصيف شاه فى أخبار الريان بن الوليد ، وهو فرعون نبى الله يوسف صلوات الله عليه : ودخل الى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه — وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم — فأوقف الغلام ونودى عليه ، وهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم ، فاشتراه أطفين العزيز .

ويقال ان الذى أخرج يوسف من الجب مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم بن

عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقال القضاعى : كان الموقف فضاء لأم عبد الله بن مسلمة بن مخلد ، فتصدقت به على المسلمين ، فكان موقفا تباع فيه الدواب ، ثم ملك بعد . وقد ذكرته فى الظاهر (يعنى فى خطط أهل الظاهر) فان الموقف من جملة خطط أهل الظاهر .

وقال ابن المتوج « بقعة خط الصفاء » : هذا الخط دثر جميعه ولم يبق له أثر ، وهو قبلى الفسطاط أوله بجوار المصنع . وخط الطحانين * أدركته كان صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفاء الى كوم الجارح ، وأدركت به جماعة من أكابر المصريين أكثرهم عدول ، وكان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه لقوة دوران الطواحين ، وكان من جملتها طاحون واحد فيه سبعة أحجار .... دثر جميع ذلك ولم يبق له أثر .

قال : وبقعة درب الصفاء هو الدرب الذى كان باب مصر ، وقيل انه كان بظاهره سوق يوسف عليه السلام ، وكان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير ، وهو بعتبة كبيرة سفلى من صوان ، وكان بجوار المصنع الخراب الموجود الآن ، وكان حول المصنع عمد رخام بدائره حاملة الساباط يعلوه مسجد معلق ... هدم ذلك جميعه فى ولاية سيف الدين ، المعروف بابن سلار ، والى مصر فى دولة الظاهر بيبرس . وهذا الدرب يسلك منه الى درب الصفاء والطحانين .

قال مؤلفه رحمه الله : كان هذا الباب المذكور أحد أبواب مدينة مصر ، وبابها الآخر من ناحية الساحل الذى موضعه اليوم باب مصر بجوار الكبارة . وأنا أدركت آثار باب الصفاء المذكور والمصنع الخراب ، وكان يصب فيه الماء للسبيل ، وهو قريب من كوم الجارح . وسيأتى ذكر كوم الجارح فى ذكر الكيمان من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وأما الذى يلى كوم الجارح الى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش فانها الخطط القديمة . وأدركتها عامرة لاسيما خط النخالين وخط زقاق القناديل وخط المصاصة ، وقد خرب جميع ذلك ، وبيعت أنقاضه من بعد سنة تسعين وسبعمائة .

وأما الجهة القبلية من مصر ، فان خط دير الطين حدثت العمارة فيه بعد سنة ستمائة ، لما أنشأ الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا الجامع هناك ، وعمر الناس فى جسر الأفرم ، وكان قبل ذلك آخر عمارة مدينة مصر دار الملك التى موضعها الآن بجوار المدرسة المعزية .

وأما موضع الجسر فانه كان بركة ماء تتصل بخط راشدة حيث جامع راشدة ، ومن قبلى هذه البركة البستان الذى كان يعرف ببستان الأمير تميم بن المعز ، ويعرف اليوم بالمعشوق ، وهو وقفه على رباط الآثار ، ويجاور المعشوق بركة الحبش ، وما بين خط

(*) ص ٣٤٦ جـ ١ ط . بولاق .

دير الطين وآخر عرض مصر من الجهة القبلية طرف خط راشدة .

وأما الجهة البحرية من مصر ، فانه يتصل بخط السبع سقايات الدور المطلة على البركة التي يقال لها بركة قارون ، وهى التى تجاور الآن حدرة ابن قميحة ، وهى من جملة الحمراء القصوى ، وبقبلى البركة المذكورة الكوم المعروف بالأسرى ، وهو من جملة العسكر ، وسيرد ان شاء الله تعالى ذكره عند ذكر الكيمان .

ويجاور البركة المذكورة كورة خط الكبش — وقد ذكر فى الجبال ، ويأتى ان شاء الله تعالى له خبر عند ذكر الأخطاط — ويلى خط الكبش خط الجامع الطولونى ، ويلى خط الجامع القبيبات وخط المشهد النفيسى . وجميع ذلك الى قلعة الجبل من جملة القطائع .

ذكر ابواب مدينة مصر

وكان لفسطاط مصر أبواب فى القديم خربت وتجدد لها بعد ذلك أبواب أخر :

باب الصفاء : هذا الباب كان هو فى الحقيقة باب مدينة مصر وهى فى كمالها ، ومنه تخرج العساكر وتعبر القوافل ، وموضعه الآن بالقرب من كوم الجارح ، وهدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس .

باب الساحل : كان يفضى بسالكه الى ساحل النيل القديم ، وموضعه قريب من الكبارة .

باب مصر : هذا الباب هو الذى بناه قراقوش ، ومنه يسلك الآن من دخل الى مدينة مصر من الطريق التى تعرف بالمراغة ، وهو مجاور للكوم الذى يقال له كوم المشانيق ويعرف اليوم بالكبارة .

وكان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل . فلما انحسر الماء عن ساحل مصر ، صار الموضع المعروف بالمراغة ، والموضع المعروف بغيط الجرف الى موردة الحلفاء ، فضاء لا يصل اليه ماء النيل ألبتة .

فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل ، فزاد فى سور القاهرة ، على يد قراقوش ، من باب القنطرة الى باب الشعرية والى باب البحر ... يريد أن يمد السور من باب البحر الى الكوم الأحمر — الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين — ليصل أيضا من الكوم الأحمر الى باب مصر هذا ، فلم يتهيأ له هذا ، وانقطع السور عند جامع المقس .

وزاد فى سور القاهرة أيضا من باب النصر الى قلعة الجبل فلم يكمل له ، ومد السور من قلعة الجبل الى باب القنطرة خارج مصر ، فصار هذا الباب غير متصل بالسور .

باب القنطرة : هذا الباب فى قبلى مدينة مصر . عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك ، وهو أيضا من بناء قراقوش * .

(*) ص٣٤٧ جـ١ ، طـ. بولاق .

ذكر القاهرة .. قاهرة المعز لدين الله

اعلم أن القاهرة المعزية رابع موضع انتقل سرير السلطنة اليه من أرض مصر فى الدولة الاسلامية ، وذلك أن الامارة كانت بمدينة الفسطاط ، ثم صار محلها العسكر خارج الفسطاط ، فلما عمرت القطائع صارت دار الامارة الى أن خربت .

فسكن الأمراء بالعسكر الى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله معد ، فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة ، وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه الى أن انقرضت الدولة الفاطمية .

فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وابنه الملك العزيز عثمان ، وابنه الملك المنصور محمد ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وابنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة الى قلعة الجبل ، فسكنها بحرمه وخواصه ، وسكنها الملوك من بعده الى يومنا هذا .

فصارت القاهرة مدينة سكنى ، بعد ما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ اليها ، فهانت بعد العز ، وابتذلت بعد الاحترام .

وهذا شأن الملوك ، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون ، وكذلك كانوا أيام العجم وفى جاهلية العرب ، وهم على ذلك فى أيام الاسلام ، فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان وهدم الآطام التى كانت بالمدينة ، وقد هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وقد هدم بنو العباس مدن الشام لبنى مروان .

واذا تأملت البقاع وجدتها
تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وسيأتى من أخبار القاهرة ، والكلام على خططها وآثارها ، ما تنتهى اليه قدرتى ، ويصل الى معرفته علمى . وفوق كل ذى علم عليم .

ذكر ما قيل فى نسب الخلفاء الفاطميين بناة القاهرة

اعلم أن القوم كانوا ينسبون الى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما . والناس فريقان فى أمرهم : فريق يثبت صحة ذلك . وفريق يمنعه وينفيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أنهم أدعياء من ولد ديصان البونى الذى ينسب اليه البونة ، وأن ديصان كان له ابن اسمه ميمون القداح كان له مذهب فى الغلو ، فولد ميمون عبد الله .

وكان عبد الله عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه رتب سبع دعوات يندرج الانسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها ، ويصير معطلا اباحيا لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، ويرى أنه وأهل نحلته على هدى وجميع من خالفهم أهل ضلالة ...

وأنه قصد بذلك أن يجعل له أتباعا ، وكان يدعو الى الامام من آل البيت محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه كان من

الأهواز ، واشتهر بالعلم والتشيع ، وصار له دعاة ، وقصـد بالمكروه ، ففر الى البصرة فاشتهر أمره ، وسار منها الى سلمية من أرض الشام ، فولد له ابن بها اسمه أحمد ومات .

فقام من بعـده أحمـد ، وبعث بالحسين الأهوازي داعية الى العراق ، فلقي أحمد بن الأشعث — المعروف بقرمط — فى سـواد الكوفة ، ودعاه الى مذهبـه فأجابه ، وقام هنـاك بالأمر . والى قرمط هـذا تنسـب القرامطة ...

وولد لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبى الشعلع . فلما مات أحمد خلفه ابنه الحسين فى الدعوة حتى مات ، فقام من بعده أخوه أبو الشعلع . وكان لأحمد بن عبد الله ولد اسمه سعيد فصار تحت حجر عمـه ، وبعث أبو الشعلع بداعيين الى المغرب ، وهمـا أبو عبـد الله وأخـوه أبو العباس ، فنزلا فى البربر ودعوها .

واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمـه ، وكثر ماله فطالبه السلطان ، ففر من سلمية الى مصر يريد المغـرب . وكان على مصر عيسى النوشرى ، فورد عليه كتاب الخليفة ببغـداد بالقبض عليه ففاته ، وصار بسلجماسة فى زى التجار . فبعث المعتضد من بغداد فى طلبـه ، فأخذ وحبس حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى من محبسه .

فتسمى حينئـذ بعبيـد الله ، وتكنى بأبى محمد ، وتلقب بالمهدى ، وصار اماما علويا من ولد محمد بن جعفر الصادق ، وانما هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى الأهوازى ، وأصله من المجوس ... فهذا قول من ينكر نسبهم .

وبعض منكرى نسبهم فى العلوية يقول : ان عبيد الله من اليهود ، وان الحسين بن أحمد المذكور تزوج امرأة يهودية من نساء سلمية ، كان لها ابن من يهودي حداد مات وتركه لها ، فرباه الحسين وأدبه وعلمه ، ثم مات عن غير ولد فعهد الى ابن امرأته هذا ، فكان هـو عبيد الله المهدي .

وهذه أقوال ان أنصفت تبين لك أنهـا موضوعة ، فان بنى على بن أبي طالب رضى الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة ، فما الحامل لشـيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن * يهودي ، فهذا مما لايفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف .

وانما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفـاء بنى العباس عند ما غصوا بمكان الفاطميين ، فانهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحـوا من مائتين وسبعين سنة ، وملكوا من بنى العباس بلاد المغرب ومصر والشـام وديار بكر والحرمين واليمن ، وخطب لهم ببغـداد نحـو أربعين خطبة .

وعجزت عساكر بنى العباس عن مقاومتهم فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم باشاعة الطعن فى نسبهم ، وبث ذلك عنهم خلفاؤهم ، وأعجب به أوليـاؤهم وأمراء دولتهـم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين كي يدفعوا بذلك

(*) ص٣٢٨ جـ١ ، ط . بولاق .

عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم ، ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين حتى اشتهر ذلك ببغداد .

وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين ، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة ، منهم الشريفان الرضى والمرتضى وأبو حامد الأسفراينى والقدورى فى عدة وافرة ، عندما جمعوا لذلك ، فى سنة اثنتين وأربعمائة ، أيام القادر .

وكانت شهادة القوم فى ذلك على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد . وأهلها انما هم شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب ، والمتطيرون من بنى على بن أبى طالب ، الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة . فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ، ورووه حسب ما تلقوه من غير تدبر .

والحق من وراء هذا ... وكفاك بكتاب المعتضد من خلائف بنى العباس حجة ، فانه كتب فى شأن عبيد الله الى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد الله .

فتفطن — أعزك الله — لصحة هذا الشاهد ، فان المعتضد لولا صحة نسب عبيد الله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه . اذ القوم حينئذ لا يدعون لدعى ألبتة ، ولا يذعنون له بوجه ، وانما ينقادون لمن كان علويا . فخاف مما وقع ، ولو كان عنده من الأدعياء لما مر له بفكر ، ولا خافه على ضيعة من ضياع الأرض .

وانما كان القوم — أعنى بنى على بن أبى طالب — تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم فى كل وقت ، وقصدهم اياهم دائما بأنواع من العقاب ، فصاروا ما بين طريد شريد وبين خائف يترقب . ومع ذلك فان لشيعتهم الكثيرة المنتشرة فى أقطارهم ، من المحبة لهم والاقبال عليهم ، ما لا مزيد عليه .

وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة ، والطلب عليهم من ورائهم ، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون ، حتى تسمى محمد بن اسماعيل الامام ، جد عبيد الله المهدى ، بالمكتوم ... سماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم .

وكانت الشيعة فرقا : فمنهم من كان يذهب الى أن الامام من ولد جعفر الصادق هو اسماعيل ابنه ، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالاسماعيلية من أجل أنهم يرون أن الامام من بعد جعفر ابنه اسماعيل ، وأن الامام بعد اسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم ، وبعد ابنه محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ، ومن بعد جعفر الصادق ابنه محمد الحبيب . وكانوا أهل غلو فى دعاويهم فى هؤلاء الأئمة ، وكان محمد بن جعفر هذا يؤمل ظهوره ، وأنه يصير له دولة .

وكان باليمن من أهل هذا المذهب كثير ، بعدن وبافريقية وفى كتامة ونفرة ، تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق . فقدم على محمد بن جعفر والد عبيد الله رجل من شيعته باليمن ، فبعث معه الحسن بن حوشب فى سنة ثمان وستين ومائتين ، فأظهرا أمرهما باليمن ،

وأشهرا الدعوة في سنة سبعين ، وصار لابن حوشب دولة بصنعاء ، وبث الدعاة بأقطار الأرض ، وكان من جملة دعاته أبو عبد الله الشيعي ، فسيره الى المغرب فلقى كتامة ودعاهم .

فلما مات محمد بن جعفر عهد لابنه عبيد الله ، فطلبه المكتفي العباسي . وكان يسكن عسكر مكرم ، فسار الى الشام ، ثم سار الى المغرب ، فكان من أمره ما كان .

وكانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب وديار مصر ... . [1] عشر رجلا .

هذه خلاصة أخبارهم في أنسابهم ، فتفطن ولا تغتر بزخرف القول الذي لفقوه من الطعن فيهم . والله يهدي من يشاء .

ذكر الخلفاء الفاطميين

وكان ابتداء الدولة الفاطمية : أن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الشيعي ، سار الى أبي القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي القائم ببلاد اليمن ، وصار من كبار أصحابه وله علم وعنده دهاء ومكر .

فورد على ابن حوشب من المغرب خبر موت الحلواني داعيه في المغرب ورفيقه ، فقال لأبي عبد الله الشيعي : قد خرب الحلواني وأبو يوسف بلاد المغرب وقد ماتا ، وليس للبلاد الا أنت فانها موطأة ممهدة .

(١) هكذا بياض بالأصل . لعله اربعة عشر رجلا ؛ كما يؤخذ من بعض التواريخ . اهـ .

فخرج أبو عبد الله الى مكة ، وقصد حجاج كتامة فجلس قريبا منهم ، وسمعهم يتحدثون بفضائل البيت فحدثهم في معناه ، فمالوا اليه وسألوه أن يأذن لهم في زيارته ، فلما زاروه سألوه عن مقصده ، فلم يخبرهم وأوهمهم أنه يريد مصر ، فسروا بصحبته ورحلوا وهو رفيقهم * ، فشاهدوا من عبادته وزهده ما زادهم رغبة فيه . هذا وهو يسألهم عن أحوالهم وقبائلهم حتى صار يعرف جميع أمورهم .

فلما وصلوا مصر ، هم بمفارقتهم ، فقالوا : أي شيء تطلب من مصر ؟

فقال : أطلب التعليم بها .

فقالوا : اذا كان قصدك هذا فبلادنا أنفع لك . وما زالوا به حتى سار معهم .

فلما وصلوا بلادهم اقترعوا فيمن يضيفه منهم ومن بقية أصحابهم ، ووصلوا به أرض كتامة للنصف من ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكادوا يحتربون عليه أيهم ينزل عنده .

فأبى أن ينزل عندهم ، وقال : أين يكون فج الأخيار ؟

فعجبوا لذلك اذ لم يكونوا ذكروه له قط ، فدلوه عليه .

فسار اليه وقال : هذا فج الأخيار ، وما سمي الأبكم . ولقد جاء في الآثار « للمهدي هجرة عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ... قوم اسمهم مشتق من الكتمان » . وبخروجكم في هذا الفج سمي فج الأخيار .

(*) ص٣٤٩ جـ١ ، طـ بولاق .

فتسامعت به القبائل وأتوه ، فعظم أمره وهو لا يذكر اسم المهدى ألبتة .

فبلغ خبره ابراهيم بن أحمد بن الأغلب أمير أفريقية ، فبعث يسأل عن خبره ، وكانت له معه قصص آلت الى قيام أبى عبد الله ومحاربته لمن خالفه ، فظفر بهم وصارت اليه أموالهم ، وغلب على مدائن ، وهزم جيوش ابن الأغلب ، وقتل كثيرا من أصحابه .

فمات ابراهيم بن الأغلب ، وولى زيادة الله ابن الأغلب ، وكان كثير اللهو ، فقوى أمر أبى عبد الله ، وانتشرت جنوده فى البلاد ، وصار يقول : المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى . ويغرى الناس بزيادة الله بن الأغلب ويعيبه ، وكان أكثر خواص زيادة الله شيعة ، فلم يكن يسوءهم ظفر أبى عبد الله .

وأكثر من ذكر كرامات المهدى والارسال الى أصحاب زيادة الله الى أن تمكن ، فبعث برجال من كتامة الى سلمية من أرض الشام ، فقدموا على عبيد الله وأخبروه بما فتح الله عليه — وكان قد اشتهر هناك وطلبه الخليفة المكتفى — فخرج من سلمية فارا ، ومعه ابنه أبو القاسم نزار ، ومعهما أهلهما ومواليهما فأقاما بمصر مستترين .

فوردت على عيسى النوشرى ، أمير مصر ، الكتب من بغداد بصفة عبيد الله وحليته ، وأنه يأخذ عليه الطريق ويقبضه . فبلغ ذلك عبيد الله فخرج والأعوان فى طلبه . ويقال ان النوشرى ظفر به ، فناشده الله فى أمره ، فخلى عنه ووصله .

فسار الى طرابلس وقد سبق خبره الى زيادة الله ، فسار الى قسطيلية ، فقدم كتاب زيادة الله بن الأغلب الى عامل طرابلس بأخذ عبيد الله وقد فاتهم فلم يدركوه .

فرحل الى سلجماسة وأقام بها ، وقد أقيمت له المراصد بالطرقات ، فتلطفه باليسع ابن مدراو صاحب سلجماسة وأهدى اليه ، فكف عنه . ووافاه كتاب زيادة الله بالقبض على عبيد الله ، فلم يجد بدا من أن قبض عليه وسجنه .

واشتغل زيادة الله بجمع العساكر لمحاربة أبى عبد الله وتجهيزهم اليه ، فغلبهم أبو عبد الله ، وغنم سائر ما معهم ، وقتل أكثرهم . وبلغه ما كان من سجن عبيد الله ، فكتب اليه يبشره ، فوصل اليه الكتاب وهو بالسجن مع قصاب دخل به اليه وهو يبيع اللحم .

وما زال أبو عبد الله يضايق زيادة الله الى أن فر الى مصر ، وقام من بعده ابراهيم بن الأغلب ، فلم يتم له أمر .

وملك أبو عبد الله القيروان ، ونزل برقادة مستهل رجب سنة ست وتسعين ومائتين ، فأمر ونهى ، وبث العمال فى الأعمال ، وقتل من يخاف شره ، وأمر فنقش على السكة فى أحد الوجهين « بلغت حجة الله » ، وفى الآخر « تفرق أعداء الله » ، ونقش على السلاح « عدة فى سبيل الله » ، ووسم الخيل على أفخاذها « الملك لله » ، وأقام على ما كان عليه من لبس الخشن الدون وتناول القليل الغليظ من الطعام .

قلما دخل شهر رمضان سار من رقادة ، في جيوش عظيمة اهتز لهـا المغرب باسره ، يريد سلجماسة ، فحاربه اليسع يوما كاملا الى الليل ، ثم فر في خاصته .

فدخل أبو عبد الله من الغـد الى البلد ، وأخرج عبيد الله وابنه ، ومشى في ركابهمـا بجميع رؤساء القبائل وهو يقول للناس : هذا مولاكم ، وهو يبكي من شدة الفرح ، حتى وصل بهما الى فسطاط ضربه في العسـكر فأنزلهما فيه ، وبعث الخيل في طلب اليسع ، فأدركته وجاءت به فقتله .

وأقام عبيد الله بسلجماسة أربعين يوما ، ثم سار الى أفريقية في ربيع الآخر سـنة سـبع وتسعين ، ونزل برقادة ، وأمر يوم الجمعـة أن يذكر في الخطبـة ، وتلقب بالمهـدى أمير المؤمنين .

فدعى له في جميع البـلاد بذلك ، وجلس بعد الصلاة الدعاة ، ودعوا النـاس كافة الى مذهبهـم . فمن أجاب قبـل منه ، ومن أبى قتل .

وعرض جوارى زيادة الله ، واختار منهن لنفسـه ولولده ، وفرق ما بقي على وجـوه كتامة ، وقسم عليهم أعمال أفريقية ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، ودانت له البلاد .

فشـق ذلك على أبي عبـد الله ، ونافس المهدى ، وحسده من أجل أنه كف يده ويد أخيه أبي العبـاس ، فعظم عليـه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء .

وأقبل أبو العباس يزرى على المهـدى في مجلس أخيه ، ويؤنب أخاه على ما فعل حتى أثر في نفسه ، فسأل المهدى أن يفوض اليه الأمور ويجلس في القصر

وكان قد بلغ المهدى مايجهر به أبوالعباس * من السوء في حقه ، فرد أبا عبد الله ردا لطيفا ، وأسرها في نفسه .

وأكثر أبو العبـاس من قوله حتى أغرى المقدمين بالمهدى ، وقال : ما هذا بالذى كنا نعتقد طاعته وندعو اليه ، لأن المهـدى يأتي بالآيات الباهرة .

فمال اليـه جماعة ، وواجه بعضهم المهدى بذلك ، وقال له : ان كنت المهدى فأظهر لنـا آية ، فقد شككنا فيك .

فبعد ما بين المهدى وبين أبي عبـد الله ، وأوجس كل منهما في نفسه خيفة من الآخر ، وأخذ أبو العباس يدبر في قتـل المهـدى ، والمهدى يحل ما كان يبرمه ، ثم رتب رجالا .

فلما ركب أبو عبـد الله وأخوه الى قصر المهدى ثار بهما الرجال ، فقال أبو عبد الله : لا تفعلوا . فقالوا له : ان الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك .

فقتل هو وأخوه للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمـان وتسعين ومائتين بمدينـة رقادة . فثارت فتنة بسبب قتلهما ، فركب المهدى حتى سكنت ، وتتبع جماعة منهم فقتلهم .

فلما استقام له الأمر ، عهـد الى ابنـه أبي القاسم ، وتتبع بني الأغلب فقتل منهم جماعة .

(*) ص ٣٥٠ جـ١ ، طبولاق

وجهز فى سنة احدى وثلثمائة ابنه أبا القاسم بالعساكر الى مصر ، فأخذ برقة والاسكندرية والفيوم ، وكانت له مع عساكر مصر وعساكر العراق الواردة الى مصر مع مؤنس الخادم عدة حروب ، وعاد الى الغرب .

فجهز المهدى فى سنة اثنتين وثلثمائة حباسة بجيوش الى مصر ، فغلب على الاسكندرية ، وكان من أمره ما تقدم ذكره .

وكان للمهدى ببلاد المغرب عدة حروب .

وكان يوجد فى الكتب خروج أبى يزيد النكارى على دولته . فبنى المهدية ، وأدار عليها سورا جعل فيه أبوابا زنة كل مصراع منها مائة قنطار من حديد ، وكان ابتداء بنائها فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة ، وبنى المصلى بظاهرها وقال : الى هنا يصل صاحب الحمار (يعنى أبا يزيد) فكان كذلك . وأنشأ صناعة فيها تسعمائة شونة ، وقال : انما بنيت هذه لتعتصم الفواطم بها ساعة من نهار ، فكان كذلك .

ثم انه جهز ابنه أبا القاسم فى سنة ست وثلثمائة على جيش الى مصر ، فأخذ الاسكندرية ، وملك جزيرة الأشمونين وكثيرا من صعيد مصر ، وكانت هناك حروب مع عساكر مصر والعراق ، ثم عاد الى المغرب .

وخرج أبو القاسم فى سنة خمس عشرة بالجيوش الى المغرب ، فحارب قوما وعاد .

فمات عبيد الله فى ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، بالمهدية من القيروان عن ثلاث وستين سنة .

وكانت خلافته آربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما . ولما مات أخفى ابنه موته .

وقام من بعد عبيد الله المهدى ولى عهده القائم بأمر الله أبو القاسم محمد — ويقال كان اسمه بالمشرق عبد الرحمن ، فتسمى فى بلاد المغرب بمحمد — وذلك بسلمية فى المحرم سنة ثمانين ومائتين . فلما فرغ من جميع ما يريده وتمكن ، أظهر موت أبيه .

واستقل بالأمر وله سبع وأربعون سنة ، وتبع سيرة أبيه ، وثار عليه جماعة فظفر بهم ، وبث جيوشه فى البر والبحر فسبوا وغنموا من بلد جنوة ، وبعث جيشا الى مصر ، فملكوا الاسكندرية والاخشيد يومئذ أمير مصر .

فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كندار النكارى الخارجى بأفريقية ، واشتدت شوكته ، وكثرت أتباعه ، وهزم جيوش القائم غير مرة ، وكان مذهبه تكفير أهل الملة واراقة دمائهم ديانة ، فملك باجة وحرقها ، وقتل الأطفال وسبى النسوان ، ثم ملك القيروان .

فاضطرب القائم ، وخاف الناس ، وهموا بالنقلة من زويلة .

وقوى أمر أبى يزيد ، ونازل المهدية وحصر القائم بها ، وكاد أن يغلب عليها . فلما بلغ المصلى حيث أشار المهدى أنه يصل ، هزمه أصحاب القائم ، وقتلوا كثيرا من أصحابه .

وكانت له قصص وأنباء ... الى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، عن أربع وخمسين سنة

وتسعة أشهر ، ولم يرق منبرا ، ولا ركب دابة لصيد مدة خلافته حتى مات ، وصلى مرة على جنازة ، وصلى بالناس العيد مرة واحدة .

وكانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ، وترك أبا الظاهر اسماعيل وأبا عبد الله جعفرا وحمزة وعدنان وعدة أخر .

وقام من بعده ، ابنه المنصور بنصر الله ، أبو الظاهر اسماعيل ، وكتم موت أبيه خوفا أن يعلم أبو يزيد فانه كان قريبا منه ، وأبقى الأمور على حالها ، ولم يتسم بالخليفة ، ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود ، وجد فى حرب أبى يزيد حتى ظفر به ، وحمل اليه ، فمات من جراحات كانت به سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلثمائة .

ولم يزل المنصور الى أن مات سلخ شوال سنة احدى وأربعين وثلثمائة ، عن احدى وأربعين سنة وخمسة أشهر . وكانت مدة خلافته ثمان سنين ، وقيل سبع سنين وعشرة أيام . وقد اختلف فى تاريخ ولادته : فقيل ولد أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلثمائة بالمهدية ، وقيل بل ولد فى سنة اثنتين ، وقيل سنة احدى وثلثمائة .

وكان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته ، شجاعا عاقلا .

وقام من بعده ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد وعمره نحو أربع وعشرين سنة ، فانه ولد للنصف من رمضان سنة سبع * عشرة وثلثمائة ، فانقاد اليه البربر وأحسن اليهم ، فعظم أمره .

(*) ص٣٥١ جـ١ ، طـ بولاق .

واختص من مواليه بجوهر ، وكناه بأبى الحسين ، وأعلى قدره ، وصيره فى رتبة الوزارة ، وعقد له على جيش كثيف ، فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى . فدوخ المغرب ، وافتتح مدنا ، وقهر عدة أكابر وأسرهم ، حتى أتى البحر المحيط فأمر باصطياد سمكة منه ، وسيرها فى قلة من ماء الى المعز اشارة الى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط الذى لا عمارة بعده ، ثم قدم غانما مظفرا ، فعظم قدره عند المعز .

ولما كان فى بعض الأيام ، استدعى المعز فى يوم شات عدة من شيوخ كتامة ، فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش باللبود ، وحوله كساء وعليه جبة ، وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب ، فقال :

ياأخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء — وانها الآن بحيث تسمع كلامى — أترى اخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ...

ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وأنى لا أفضلكم فى أحوالكم الا بما لابد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من امامتكم ، وأنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وأنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ، الا بما

يصون أرواحكم ، ويعمر بلادكم ، ويذل أعداءكم ، ويقمع أضدادكم ...

فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ، ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل ...

وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ...

واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم ... فخرجوا عنه .

واستدعى يوما أبا جعفر حسين بن مهذب صاحب بيت المال — وهو فى وسط القصر قد جلس على صندوق ، وبين يديه ألوف صناديق مبددة — فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عنى ترتيبها فانظرها ورتبها .

قال : فأخذت أجمعها الى أن صارت مرتبة ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين ، فأنفذت اليه أعلمه ، فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك . فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وذلك فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، فأنفقها أجمع على العساكر التى سيرها الى مصر من سنة ثمان وخمسين الى سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

ولما أخذ فى تجهيز جوهر بالعساكر الى أخذ ديار مصر ، حتى تهيأ أمره وبرز للمسير ، بعث المعز خفيفا الصقلبى الى شيوخ كتامة يقول : ياالخواننا قد رأينا أن تنفذ رجالا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ، ويحفظونها عليهم فى بلادهم ، فاذا احتجنا اليها أنفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله .

فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك : قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا ، كيف تؤدى كتامة الجزية ، ويصير عليها فى الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان ، وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب ؟!

فعاد خفيف الى المعز بذلك ، فأمر باحضار جماعة كتامة ، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه ، فقال : ما هذا الجواب الذى صدر عنكم ؟

فقالوا : هذا جواب جماعتنا ، ما كنا يامولانا بالذى يؤدى جزية تبقى علينا .

فقام المعز فى ركابه وقال : بارك الله فيكم ، فكهذا أريد أن تكونوا ، وانما أردت أن أختبركم فأنظر كيف أنتم بعدى .

فسار جوهر ، وأخذ مصر كما قد ذكر فى ترجمته عند ذكر سور القاهرة من هذا الكتاب .

فلما ثبتت قدم جوهر بمصر ، كتب اليه المعز جوابا عن كتابه : وأما ما ذكرت ياجوهر من أن جماعة بنى حمدان وصلت اليك كتبهم يبذلون الطاعة ، ويعدون بالمسارعة فى المسير اليك ، فاسمع لما أذكره لك : احذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا له ولا ترغيبا ، ومن كتب اليك كتابا منهم فأجبه بالحسن الجميل ولا تستدعه اليك ، ومن ورد اليك منهم فأحسن اليه ، ولا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف ... فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله ، ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة ... فاحذر كل الحذر من الاستناد الى أحد منهم .

ولما عزم المعز على المسير الى مصر ، أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب ، فوقع اختياره على جعفر بن على الأمير ، فاستدعاه وأسر اليه أنه يريد استخلافه بالمغرب * ،

فقال : تترك معى أحد أولادك أو اخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شىء من الأموال لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الأموال ، واذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره الى .

فغضب المعز وقال : ياجعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال دونى . قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك ... فخرج عنه .

ثم انه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجى وقال له : تأهب لخلافة المغرب .

فأكبر ذلك وقال : يامولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح .

فمازال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ، ويجعل الحيز لمن يثق به ، ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء ، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، ويصير كالخادم بين أولئك ... فأحب المعز ما قال وشكره .

فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز : يامولانا ، وتثق بهذا القول من يوسف ، وأنه يقوم بوفاء ما ذكر ؟

فقال المعز : ياعمنا ، كم بين قول يوسف وقول جعفر ، فاعلم ياعم أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه أمر يوسف ، واذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية ما يفعله .

وكانت أم الأمراء قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر ، فعرضها وكيلها فى مصر للبيع ، وطلب فيها ألف دينار . فحضر اليه

(*) ص٣٥٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية ، فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار ، فاذا هى ابنة الاخشيد محمد بن طغج ، وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها ..

فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ ، وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الاخشيد مع الصبية الى آخره ، فقال المعز : ياأخواننا انهضوا الى مصر ، فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .

فقالوا : السمع والطاعة .

فقال : خذوا فى حوايجكم ، فنحن نقدم الاختيار لمسيرنا ان شاء الله تعالى ..

وكان قيصر ومظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والد المعز ، وكان المظفر يدل على المعز من أجل أنه علمه الخط فى صغره ، فحرد عليه مرة وولى ، فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلبية استراب منها ، ولقنها منه وأنفت نفسه من السؤال عن معناها . فأخذ يحفظ اللغات : فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها ، ثم تعلم الرومية والسودانية حتى أتقنهما ، ثم أخذ يتعلم الصقلبية ، فمرت به تلك الكلمة ، فاذا هى سب قبيح ، فأمر بمظفر فقتل من أجل تلك الكلمة .

وبلغه أمر الحرب التى كانت بين بنى حسن وبنى جعفر بالحجاز ، حتى قتل من بنى حسن أكثر ممن قتل من بنى جعفر ، فأنفذ مالا ورجالا فى السر ما زالوا بالطائفتين حتى اصطلحتا ، وتحمل الرجال عن كل منهما الحمالات ، فجاء الفاضل فى القتلى لبنى حسن عند بنى جعفر نحو سبعين قتيلا ، فأدوا عنهم ، وعقدوا بينهم الصلح فى الحرم تجاه الكعبة ، وتحملوا عنهم الديات من مال المعز ، وكان ذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

فصارت هذه الفعلة يدا عند بنى حسن للمعز . فلما ملك جوهر مصر ، بادر حسن ابن جعفر الحسنى بالدعاء للمعز فى مكة ، وبعث الى جوهر بالخبر ، فسير الى المعز يعرفه باقامة الدعوة له بمكة ، فأنفذ اليه بتقليده الحرم وأعماله .

وسار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجيزة ، فعقد له جوهر جسرا جديدا عند المختار بالجزيرة ، فسار عليه ، وقد زينت له مدينة الفسطاط فلم يشقها ، ودخل الى القاهرة بجميع أولاده واخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدى وبتوابيت آبائه ، وذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

فعندما دخل القصر صلى ركعتين ، فاقتدى به من حضر ، وبات به ، ثم أصبح فجلس للهناء ، وأمر فكتب فى سائر مدينة مصر « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب » ، وأثبت اسم المعز لدين الله واسم أبيه عبد الله الأمير ، وجلس فى القصر على السرير

الذهب ، وصلى بالناس صلاة عيد الفطر فى المصلى ، فسبح فى كل ركعة وفى كل سجدة ثلاثين تسبيحة ، ثم خطب بعد الصلاة .

وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء ، وعمل عيد غدير خم ، ومات بعض بنى عمه فصلى عليه وكبر سبعا ، وكبر على ميت آخر خمسا . وقدمت القرامطة الى مصر ، فسير اليهم الجيوش وهزموهم .

وما زال الى أن توفى من علة اعتلها بعد دخوله الى القاهرة بسنتين وسبعة أشهر وعشرة أيام ، وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا . فان مولده بالمهدية فى حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ووفاته بالقاهرة لأربع عشرة خلت من ربيع * الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكانت مدة خلافته بالمغرب وديار مصر ثلاثا وعشرين سنة وعشرة أيام .

وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر واليه تنسب القاهرة المعزية ، لأن عبده جوهرا القائد بناها حسب ما رسم له كما ذكر فى خبر بنائها .

وكان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة ، منصفا للرعية ، مغرما بالنجوم ، أقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين وبعض أعمال العراق .

وقام من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، فأقام فى الخلافة احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ، ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما ، فى الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة ، بمدينة بلبيس وحمل الى القاهرة .

وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله أبو على المنصور ، وكانت مدة خلافته الى أن فقد خمسا وعشرين سنة وشهرا ، وفقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر فى ليلة السابع والعشرين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة . وقد بسطت خبر العزيز والحاكم عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

وقام من بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن الحاكم بأمر الله . ولد بالقاهرة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وبويع له بالخلافة يوم عيد النحر سنة احدى عشرة وأربعمائة وعمره ست عشرة سنة .

فخرج الى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر ، وصلى بالناس فى المصلى ، وعاد فكتب بخلافته الى الأعمال .

وشرب الخمر ، ورخص فيه للناس وفى سماع الغناء ، وشرب الفقاع ، وأكل الملوخيا وجميع الأسماك ، فأقبل الناس على اللهو .

ووزر له الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد ، وكان يلى ديوان الانشاء وغيره ، واستوزره الحاكم الى أن فقد ، فتولى البيعة للظاهر ، ثم قتل بعد سبعة أشهر فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة .

فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين ، وكان يتولى الشرطة ،

(*) ص٣٥٢ جـ١ ، ط.بولاق .

ثم ولى ديوان الانشـاء بعد ابن حيران ، وصرف عن الوزارة فى المحـرم سـنة ثلاث عشرة ، وقبض عليه فى شوال وقتل ، فوجد له من العين ستمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار .

وولى بعده الوزارة الأمير شـمس الملوك المكين مسعود بن طاهر .

وفى سـنة أربع عشرة قلد منتخب الدولة الدريزى متـولى قيسارية ولاية فلسـطين ، فكانت له مع حسان بن مفـرح بن جراح الطائى حروب .

وفيها نزع السعر بمصر ، وتعذر وجـود الخبز .

وفى المحرم سنة خمس عشرة لقب الخـادم الأسود معضاد ، بالقائد عز الدولة وسنائها أبى الفوارس معضاد الظاهر ، وخلع عليه .

وثار رجل من بنى الحسين ببلاد الصعيـد فقبض عليه ، وأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله ، ووجد معه قطعة من جلد رأسه وقطعـة من الفوطة التى كانت عليه ، فسئل عن سبب قتله اياه ، فقال : غرت لله وللاسلام . ثم قتـل نفسه بسكين كانت معـه ، فقطعت رأسـه وسيرت الى القاهرة .

وفيها اشـتد الغـلاء بمصر ، وكثر نقص النيل .

وفيها قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجراى والشـيخ العميـد محسن بن بدوس مع القائد معضـاد ، ألا يدخـل على الظاهر أحـد غيرهم ، وكانوا يدخلـون كل يـوم خلـوة ، ويخرجـون فيتصرفون فى سائر أمور الدولة والظـاهر مشغول بلذاته .

وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلمة ، وابن حيران صاحب الانشاء ، وداعى لدعاة ، ونقيب نقبـاء الطالبيين ، وقاضى القضـاة ، ربمـا دخلوا على الظاهر فى كل عشرين يوما مرة ، ومن عداهم لا يصل الى القاهرة ألبتة . والثلاثة الأول هم الذين يقضون الأشـغال ، ويمضون الأمور بعد الاجتماع عند القـائد معضاد .

ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها ، وعزت الأقوات بمصر ، وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس البقر بخمسين دينارا .

وكثر الخـوف فى ظـواهر البلد ، وكثر اضطراب الناس ، وتحـدث زعمـاء الدولة بمصـادرة التجـار ، فاختلف بعضـهم على بعض ، وكثر ضجيج طوائف العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا ، وتحاسد زعماء الدولة ، فقبض على العميد محسن وضرب عنقه .

واشتد الغلاء ، وفشت الأمراض ، وكثر الموت فى الناس ، وفقد الحيوان فلم يقـدر على دجاجة ولا فروج ، وعز الماء لقلة الظهر . فعم البلاد من كل جهـة ، وعرض النـاس أمتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها .

وخرج الحاج ، فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب ، وأخذت أموالهم ، وقتل منهم كثير ، وعاد من بقى ، فلم يحج أحد من أهل مصر .

وتفاقم الأمر فى شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر : الجوع ، الجوع ياأمير المؤمنين ، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك ، فالله فى أمرنا .

وطرقت عساكر بن جراح الفرما ، ففر أهلها الى القاهرة .

وأصبح الناس بمصر على أقبح حال من الأمراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الأقوات ، وكثر الخوف من الذعار التى تكبس ... حتى انه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر ، كبس العبيد على السماط وهم يصيحون : الجوع ، ونهبوا سائر ما كان عليه * .

ونهبت الأرياف ، وكثر طمع العبيد ونهبهم ، وجرت أمور من العامة قبيحة .

واحتاج الظاهر الى القرض ، فحمل بعض أهل الدولة اليه مالا ، وامتنع آخرون .

واجتمع نحو الألف عبد لتنهب البلد من الجوع ، فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله ، وندب جماعة لحفظ البلد ، واستعد الناس ، فكانت نهبات بالساحل ، ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى أن خندقوا عليهم خنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع .

وخرج معضاد فى عسكر فطردهم ، وقبض على جماعة منهم ضرب أعناقهم ، وأخذ العبيد فى طلب الجرجراى وغيره من وجوه الدولة ، فحرسوا أنفسهم وامتنعوا فى دورهم .

(*) ص٣٥٤ جـ١ ، ط . بولاق .

وانقضت السنة والناس فى أنواع من البلاء .

وفى سنة ست عشرة ، أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية وغيرهم ، وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وفى سنة سبع عشرة ، ثار بمصر رعاف عظيم بالناس ، وكثرت زيادة النيل عن العادة ، وتصدق الظاهر بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم .

وفى سنة ثمان عشرة ، وقعت الهدنة مع صاحب الروم ، وخطب للظاهر فى بلاده ، وأعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه مؤذنا ، فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس ، وأذن لمن أظهر الاسلام فى أيام الحاكم أن يعود الى النصرانية ، فرجع اليها كثير منهم .

وصرف الظاهر وزيره عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبادى ، وأقام بدله أبا القاسم على بن احمد الجرجراى .

وفى سنة عشرين كانت فتنة بين المغاربة والأتراك قتل فيها كثير .

وفى سنة احدى وعشرين ، بويع لابن الظاهر بولاية العهد وعمره ثمانية أشهر ، وأنفق على ذلك فى خلع لأهل الدولة وطعام ونثار للعامة ما يجل وصفه .

وفى سنة اثنتين وعشرين ، تحرك السعر لنقص ماء النيل ، ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر .

وفي سنة ثلاث وعشرين ، قتل الظاهر أحد الدعاة ، فاضطربت الرعية والجند ، وتحدث الناس بخلعه ، ثم سكنت الفتنة بعد انفاق مال جزيل .

وفي سنة أربع وعشرين ، ركب ولي العهد من القاهرة الى مصر وقد زينت الطرقات ، فكان اذا مر بقوم قبلوا له الأرض ، ونثر يومئذ على العامة مبلغ خمسة آلاف دينار . فكان يوما عظيما .

وفي سنة خمس وعشرين ، بث الظاهر دعاته ببغداد عند اختلاف الأتراك بها ، فكثرت دعاته هناك ، واستجاب لهم خلق كثير .

فلما كان في سنة ست وعشرين ، كثر الوباء بمصر . ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنتين وثلاثين سنة الا أياما ، فكانت مدة خلافته خمس عشر سنة وثمانية أشهر وأياما .

وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء ، فتأنق الناس في أيامه بمصر ، واتخذوا المغنيات والرقاصات ، وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما .

واتخذ حجرا لمماليكه ، وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب ، واتخذ خزانة البنود ، وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع ، وراسل الملوك ، واستكثر من شراء الجواهر ، وكانت مملكته بأفريقية ومصر والشام والحجاز .

وغلب صالح بن مرداس على حلب في أيامه واستولى على ما يليها ، وتغلب حسان ابن جراح على أكثر بلاد الشام ، فتضعضعت الدولة .

وقام من بعده ابنه ولي العهد وبويع له ، وهو المستنصر بالله أبو تميم معد ، ومولده في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة ، وبويع للخلافة للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين ، وعمره يومئذ سبع سنين ، فأقام ستين سنة وأشهرا في الخلافة ، كانت فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر .

منها أن أمه كانت أمة سوداء لتاجر يهودي يقال له أبو سعد سهل بن هارون التستري ، فابتاعها منه الظاهر ، واستولدها المستنصر . فلما أفضت الخلافة اليه استدنت أمه أبا سعد ورقته درجة علية . وكان الوزير يومئذ أبا القاسم الجرجراي ، فلم يتمكن أبو سعد من اظهار ما في نفسه حتى مات الجرجراي .

وتولى أبو منصور صدقة بن يوسف العلاجي الوزارة ، فانبسطت يد أبي سعد ، وصار العلاجي يأتمر بأمره ، فعمل عليه وقتله كما ذكر في خبر خزانة البنود . فحقدت أم المستنصر على العلاجي وصرفته عن الوزارة ، واستقر أبو البركات صفي الدين الحسين بن محمد بن أحمد الجرجراي في الوزارة .

وفي سنة أربعين صار ناصر الدولة الحسين ابن حمدان ، متولي دمشق ، بالعساكر الى حلب ، وحارب متوليها ثمال بن صالح بن مرداس ، ثم رجع بغير طائل . فقلد مظفر الصقلبي دمشق ، وقبض على ابن حمدان وصادره ، واعتقله بصور ثم بالرملة .

وخرج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو الثلاثين ألفا ، بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار ، يريد الشام ومحاربة بني مرداس .

وفي المحرم سنة احدى وأربعين ، صرف قاضي القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء بعد ما باشره ثلاث عشرة سنة وشهرا وأربعة أيام ، وتقلد وظيفة القضاء بعده القاضي الأجل خطير الملك أبو محمد البازوري .

وفيها * حارب رفق بني مرداس ، فظفروا به وأسروه فمات بقلعة حلب ، فأفرج عن ابن حمدان وبقي بالحضرة ، وقبض على الوزير أبي البركات الجرجراى ونفي الى الشام ، وعمل أبو الفضل صاعد بن مسعود واسطة لا وزيرا ، ثم قلد قاضي القضاة أبو محمد البازوري الوزارة مع وظيفة القضاء ، ولقب بسيد الوزراء .

وفي سنة اثنتين وأربعين ، كانت حروب البحيرة ، واخراج بني قرة منها ، وانزال بني سنبس بعدهم بها . وفيها دعا علي بن محمد الصليحي باليمن للمستنصر ، وبعث اليه بمال النجوة والهدن .

وفي سنة أربع وأربعين ، كتب ببغداد محاضر بالقدح في نسب الخلفاء المصريين ، ونفيهم من الانتساب الى علي بن أبي طالب ، وسيرت الى الآفاق .

وقصر مد النيل ، فتحرك السعر بمصر . ثم قصر أيضا مد النيل في سنة ست وأربعين ، فقوي الغلاء ، وكثر الموت في الناس .

(*) ص٣٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وفي سنة ثمان وأربعين ، خرج أبو الحارث البساسيري من بغداد منتميا للمستنصر ، فسيرت اليه الأموال والخلع .

وفي سنة ثمان وأربعين عادت حلب الى مملكة المستنصر .

وفي سنة خمسين قبض على الوزير الناصر للدين أبي محمد البازوري ، وتقلد بعده الوزارة أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ابن عبد الله بن محمد ، وولي القضاء بعد البازوري أبو علي أحمد بن عبد الحكم ، ثم صرف بعبد الحاكم المليجي .

وفيها أخذ البساسيري بغداد ، وأقام فيها الخطبة للمستنصر ، وفر الخليفة القائم بأمر الله العباسي الى قريش بن بدران ، فبعث به الى غانة ، وسيرت ثياب القائم وعمامته وغير ذلك من الأموال الى مصر .

وفيها سار ناصر الدولة الى دمشق أميرا عليها .

وفي سنة احدى وخمسين ، أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الأعمال ، فقدم طغريل الى بغداد ، وأعاد الخليفة القائم بعد ما خطب للمستنصر ببغداد أربعون خطبة ، وقتل البساسيري .

وفيها قطعت خطبة المستنصر أيضا من حلب ، فسار اليها ابن حمدان وحارب أهلها ، فانكسر كسرة شديدة شنيعة ، وعاد الى دمشق .

وفيها صرف أبو الفرج بن المغربي عن الوزارة ، وعبد الحاكم عن القضاء ، وأعيد

الى الوزارة أبو الفرج البابلى ، واستقر فى وظيفة القضاء أحمد بن أبى زكرى .

وفى سنة ثلاث وخمسين ، كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم ، لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الأراذل ، بحيث كان يصل اليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات . فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاعها ، وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر .

الى أن آل الأمر الى حدوث الشدة العظمى كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ست وستين وأربعمائة وقيامه بسلطنة مصر ، ما ذكر فى ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة .

فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ، ملجما عن التصرف الى أن مات فى سنة سبع وثمانين ، فأقام العسكر من بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه ، فباشر الأمور يسيرا .

ومات المستنصر ليلة الخميس لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة سبع وثمانين عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر ، منها فى الخلافة ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام ، مرت فيها أهوال عظيمة ، وشدائد آلت به الى أن جلس على نخ ، وفقد القوت فلم يقدر عليه ، حتى كانت امرأة من الأشراف تتصدق عليه فى كل يوم بقعب فيه فتيت ، فلا يأكل سواه مرة فى كل يوم . وقد مر فى غير موضع من هذا الكتاب كثير من أخباره .

فلما مات المستنصر ، أقام الأفضل بن أمير الجيوش ، فى الخلافة من بعده ، ابنه المستعلى بالله أبا القاسم أحمد . وكان مولده فى العشرين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة ، فخالف عليه أخوه نزار وفر الى الاسكندرية ، وكان القائم بالأمور كلها الأفضل ، فحاربه حتى ظفر به وقتله ، كما تقدم فى خبر أفتكين عند خزائن القصر .

وفى سنة تسعين وقع بمصر غلاء ووباء ، وقطعت الخطبة من دمشق للمستعلى ، وخطب بها للعباسى ، وخرج الفرنج من قسطنطينية لأخذ سواحل الشام وغيرها من أيدى المسلمين ، فملكوا انطاكية .

وفى سنة احدى وتسعين خرج الأفضل بعسكر عظيم من القاهرة ، فأخذ بيت المقدس من الأرمن ، وعاد الى القاهرة .

وفى سنة اثنتين وتسعين ، ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس ، فخرج الأفضل بالعساكر ، وسار الى عسقلان ، فسار اليه الفرنج وقاتلوه ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ، وغنموا منه شيئا كثيرا وحصروه ، فنجا بنفسه فى البحر وصار الى القاهرة .

وفى سنة ثلاث وتسعين ، عم الوباء أكثر البلاد ، فهلك بمصر عالم عظيم .

وفى سنة أربع وتسعين ، خرج عسكر مصر لقتال الفرنج ، وكانت بينهما حروب كثيرة .

وفى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، مات المستعلى بالله لثلاث عشرة بقيت من صفر ، وعمره سبع وعشرون سنة وسبعة وعشرون يوما ، ومدة خلافته سبع سنين وشهران .

وفى أيامه اختلت الدولة * ، وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام ، فانها صارت بين الأتراك والفرنج ، وصارت الاسماعيلية فرقتين : فرقة نزارية تطعن فى امامة المستعلى ، وفرقة ترى صحة خلافته .

ولم يكن للمستعلى مع الأفضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة ، وقيل انه سم ، وقيل بل قتل سرا .

فلما مات ، أقام الأفضل من بعده فى الخلافة ابنه الآمر بأحكام الله أبا على منصورا ، وعمره خمس سنين وشهر وأيام ، فقتل الأفضل فى أيامه ، وأقام فى الخلافة تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصفا . وقد ذكرت ترجمته عند ذكر الجامع الأقمر فى ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

ولما قتل الآمر بأحكام الله ، أقيم من بعده الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ، وكان قد ولد بعسقلان فى المحرم سنة سبع ، وقيل فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيام الشدة ، فلذلك كان يقال له ، فى أيام الآمر بأحكام الله ، الأمير عبد المجيد العسقلانى ابن عم مولانا .

ولما قتل النزارية الخليفة الآمر ، أقام برغش وهزار الملوك الأمير عبد المجيد فى دست الخلافة ، ولقباه بالحافظ لدين الله ، وأنه يكون كفيلا لمنتظر فى بطن أمه من أولاد الآمر ، واستقر هزار الملوك وزيرا . فثار العسكر وأقاموا أبا على بن الأفضل وزيرا ، وقتل هزار الملوك ، ونهب شارع القاهرة ، وذلك كله فى يوم واحد .

فاستبد أبو على بالوزارة يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وقبض على الحافظ وسجنه مقيدا ، فاستمر الى أن قتل أبو على فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين ، فأخرج من معتقله ، وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن يذكر اسمه ، فاتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا سماه عيد النصر ، وصار يعمل كل سنة .

ونهبت القاهرة يومئذ ، وقام يانس صاحب الباب بالوزارة ، الى أن هلك فى ذى الحجة منها بعد تسعة أشهر ، فلم يستوزر الحافظ بعده أحدا ، وتولى الأمور بنفسه الى سنة ثمان وعشرين ، فأقام ابنه سليمان ولى عهده مقام وزير ، فلم تطل أيامه سوى شهرين ومات ، فجعل مكانه ابن حيدرة ، فحنق ابنه حسن وثار بالفتنة ، وكان من أمره ما ذكر فى خبر الحارة اليانسية من هذا الكتاب .

فلما قتل حسن ، قام بهرام الأرمنى وأخذ الوزارة فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ، وكان نصرانيا ، فاشتد ضرر المسلمين من النصارى ، وكثرت أذيتهم .

(*) ص٣٥٦ ج١ ، ط . بولاق .

فسار رضوان بن ولخشي — وهو يومئذ متولى الغربية — وجمع الناس لحرب بهرام ، وسار الى القاهرة ، فانهزم بهرام ، ودخل رضوان القاهرة ، واستولى على الوزارة فى جمادى الأولى سنة احدى وثلاثين ، فأوقع بالنصارى وأذلهم ، فشكره الناس ... الا أنه كان خفيفا عجولا ، فأخذ فى اهانة حواشى الخليفة وهم بخلعه ، وقال : ما هو بامام ، وانما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح .

فتوحش الحافظ منه ، وما زال يدبر عليه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان ، وخرج الى الشام فجمع وعاد فى سنة أربع وثلاثين ، فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته ، فقاتلهم وانهزم منهم الى الصعيد ، فقبض عليه واعتقل ، فلم يستوزر الحافظ أحدا بعده ... الى أن كانت سنة ست وثلاثين ، فغلت الأسعار بمصر ، وكثر الوباء ، وامتد الى سنة سبع وثلاثين فعظم الوباء .

وفى سنة اثنتين وأربعين ، خلص رضوان من معتقله بالقصر ، وخرج من نقب وثار بجماعة ، وكانت فتنة آلت الى قتله .

وفى سنة أربع وأربعين ، ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر ، فمات الحافظ ليلة الخامس من جمادى الآخرة عن سبع وسبعين سنة ، منها مدة خلافته ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما أصابته فيها شدائد كثيرة . وكان حازما سيوسا كثير المداراة ، عارفا جماعا للمال ، مغرى بعلم النجوم ، يغلب عليه الحلم .

فلما مات والفتنة قائمة ، أقيم ابنه الظاهر بأمر الله أبو منصور اسماعيل ، ومولده للنصف من ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فأقام فى الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر الا خمسة أيام ، وكان محكوما عليه من الوزارة .

وفى أيامه أخذت عسقلان ، فظهر الخلل فى الدولة . وقد ذكرت أخباره فى خط الخشيبة عند ذكر الخطط من هذا الكتاب .

فلما قتل ، أقيم من بعده ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى . أقامه فى الخلافة بعد مقتل أبيه الوزير عباس ، وعمره خمس سنين .

فقدم طلائع بن رزيك والى الأشمونين بجموعه الى القاهرة ، ففر عباس ، واستولى طلائع على الوزارة ، وتلقب بالصالح ، وقام بأمر الدولة الى أن مات الفائز لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين عن احدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين ، منها فى الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وأيام لم ير فيها خيرا ، فانه لما أخرج ليقام خليفة رأى أعمامه قتلى وسمع الصراخ ، فاختل عقله وصار يصرخ حتى مات .

فأقام الصالح بن رزيك فى الخلافة بعده العاضد لدين الله أبا محمد عبد الله ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله . ومولده لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين * وخمسمائة ، وكان عمره يوم بويع نحو احدى عشرة سنة .

(*) ص٣٥٧ ، جـ١ ، ط. بولاق .

وقام الصالح بتدبير الأمور الى أن قتل فى رمضان سنة ست وخمسين ، كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع .

فقام من بعده ابنه رزيك بن طلائع وحسنت سيرته ، فعزل شاور بن مجير السعدى عن ولاية قوص ، فلم يقبل العزل ، وحشد وسار على طريق الواحات فى البرية الى تروجة ، فجمع الناس وسار الى القاهرة ، فلم يثبت رزيك وفر ، فقبض عليه بأطفيح .

واستقر شاور فى الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ثمان وخمسين ، فأقام الى أن ثار ضرغام صاحب الباب ، ففر منه الى الشام ، واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة ، وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها .

فقدم الفرنج ونازلوا مدينة بلبيس مدة ، ودافعهم المسلمون عدة مرار حتى عادوا الى بلادهم بالساحل ، ورجع العسكر الى القاهرة وقد قتل منهم كثير .

فوصل شاور بعساكر الشام فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر ، وكانت لهم معه معارك انهزموا فى آخرها ، وغنم شاور ومن معه سائر ما خرجوا به — وكان شيئا جليلا — فسروا بذلك ، وساروا الى القاهرة فكانت بين الفريقين حروب آلت الى هزيمة ضرغام وقتله فى شهر رمضان منها .

فاستولى شاور على الوزارة مرة ثانية ، واختلف مع الغز القادمين معه من الشام ، وكانت له معهم حروب آلت الى أن شاور كتب الى مرى ملك الفرنج يستدعيه الى القاهرة ، ليعينه على محاربة شيركوه ومن معه من الغز ، فحضر وقد صار شيركوه فى مدينة بلبيس .

فخرج شاور من القاهرة ، ونزل هو ومرى على بلبيس ، وحصرا شيركوه ثلاثة أشهر ، ثم وقع الصلح ، فسار شيركوه بالغز الى الشام ، ورحل الفرنج ، وعاد شاور الى القاهرة فى سنة ستين وخمسمائة ، فلم يزل الى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية فى ربيع الآخر .

فخرج شاور من القاهرة الى لقائه ، واستدعى مرى ملك الفرنج ، فسار شيركوه على الشرق وخرج من أطفيح ، فسار اليه شاور بالفرنج ، وكانت له معه الوقعة المشهورة ، فسار شيركوه بعد الوقعة من الأشمونين وأخذ الاسكندرية ، وعاد شاور الى القاهرة .

وخرج شيركوه من الاسكندرية بعد أن استخلف عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يزل يسير من الاسكندرية الى قوص وهو يجبى البلاد . فخرج شاور من القاهرة بالفرنج ، ونازل الاسكندرية ، فبلغ شيركوه ذلك ، فعاد من قوص الى القاهرة وحصرها ، ثم كانت أمور آخرها مسير شيركوه وأصحابه من أرض مصر الى الشام فى شوال .

وقد طمع الفرنج فى البلاد ، وتسلموا أسوار القاهرة ، وأقاموا فيها شحنة معه عدة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من مال البلد ، وفحش أمر شاور وساءت سيرته ، وكثر تجريه على الدماء واتلافه للأموال .

فلما كان فى سنة أربع وستين ، قوى تمكن الفرنج فى القاهرة ، وجاروا فى حكمهم بها ، وركبوا المسلمين بأنواع الاهانة ، فسار مرى يريد أخذ القاهرة ، ونزل على مدينة بلبيس وأخذها عنوة .

فكتب العاضد الى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستصرخه ، ويحثه على نجدة الاسلام وانقاذ المسلمين من الفرنج . فجهز أسد الدين شيركوه فى عسكر كثير ، وجهزهم وسيرهم الى مصر ، وقد أحرق شاور مدينة مصر كما تقدم .

ونزل مرى ملك الفرنج على القاهرة ، وألح فى قتال أهلها حتى كاد أن يأخذها عنوة ، فسير اليه شاور وخادعه حتى رضى بمال يجمعه له ، فشرع فى جبايته واذا بالخبر ورد بقدوم شيركوه فرحل الفرنج عن القاهرة فى سابع ربيع الآخر .

ونزل شيركوه على القاهرة بالغز ثالث مرة ، فخلع عليه العاضد وأكرمه ، فأخذ شاور يفتك بالغز على عادته ، فكان من قتله ما ذكر فى موضعه ، وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر المذكور .

وتقلد شيركوه وزارة العاضد ، وقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ، ومات فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة .

ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، فساس الأمور ودبر لنفسه ، فبذل الأموال ، وأضعف العاضد باستنفاد ماعنده من المال . فلم يزل أمره فى ازدياد ، وأمر العاضد فى نقصان ، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمد نور الدين ، وأقطع أصحابه البلاد ، وأبعد أهل مصر وأضعفهم ، واستبد بالأمور ، ومنع العاضد من التصرف ، حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ، الى أن كان من واقعة العبيد ما ذكر ، فأبادهم وأفناهم .

ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ، ولم يبق له سوى اقامة ذكره فى الخطبة فقط ...

هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه فى كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك ، حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد ، فطلبه منه وألجأه الى ارساله ، وأبطل ركوبه من ذلك الوقت ، وصار لا يخرج من القصر ألبتة .

وتتبع صلاح الدين جند العاضد ، وأخذ دور الأمراء واقطاعاتهم فوهبها لأصحابه ، وبعث الى أبيه واخوته وأهله فقدموا من الشام عليه .

فلما كان فى سنة ست وستين أبطل المكوس من ديار مصر ، وهدم دار المعونة بمصر ، وعمرها * مدرسة للشافعية ، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية ، وعزل قضاة مصر الشيعة ، وقلد القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي ، وجعل اليه الحكم فى اقليم مصر كله . فعزل سائر القضاة ، واستناب قضاة شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعى رضى الله عنهما ، واختفى مذهب الشيعة الى أن نسى من مصر .

(*) ص٣٥٨ جـ٤ ، ط. بولاق .

وأخذ فى غزو الفرنج ، فخـرج الى الرملة وعاد فى ربيـع الأول ، ثم سـار الى أيلة ، ونازل قلعتها حتى أخذها من الفرنج فى ربيع الآخر ، ثم سار الى الاسكندرية ولم شعث سورها وعاد ، وسـير توران شـاه ، فأوقع بأهل الصعيد ، وأخذ منهم ما لا يمكن وصفه كثرة وعاد .

فكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذم العاضد ، وتحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر ، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة وأنزل أصـحابه فى دورهم فى ليلة واحدة ، فأصبح فى البلد من العويل والبكاء ما يذهل ، وتحـكم أصحابه فى البلد بأيديهم ، وأخرج اقطاعات سـائر المصريين لأصحابه ، وقبض على بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده ، وقبض على القصور وسلمها الى الطـواشى بهـاء الدين قراقوش الأسدى ، وجعله زمامها .

فضيق على أهل القصر ، وصار العاضـد معتقلا تحت يده ، وأبطل من الأذان حى على خير العمل ، وأزال شـعار الدولة ، وخرج بالعزم على قطع خطبـة العاضـد ... فمرض ومات وعمره احدى وعشرون سنة الا عشرة أيام ، منها فى الخلافة احدى عشرة سنة وستة أشـهر وسـبعة أيام ، وذلك فى ليلة يـوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعـد قطع اسمه من الخطبـة والدعاء للمسـتنجد العباسى بثلاثة أيام .

وكان كريما لين الجانب ، مرت به مخاوف وشدائد ، وهو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر .

وكانت مدتهم بالمغرب ومصر ، منـذ قام عبيد الله المهدى الى أن مات العاضد ، مائتى سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما ، بالقـاهرة منها مائتان وثمانى سنين ، فسبحان الباقى .

ذكر ما كان عليه موضع القاهرة قبل وضعها

اعلم أن مدينة الاقليم ، منذ كان فتـح مصر على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، كانت مدينة الفسطاط — المعروفة فى زماننا بمدينة مصر — قبلى القاهرة . وبها كان محل الأمراء ومنزل ملكهم ، واليها تجبى ثمرات الأقاليم ، وتأوى الكافة .

وكانت قد بلغت من وفور العمارة ، وكثرة الناس ، وسعة الأرزاق ، والتفنن فى أنواع الحضارة ، والتأنق فى النعيم ، ما أربت به على كل مدينة فى المعمور ... حاشا بغداد ، فانها كانت سوق العالم ، وقد زاحمتها مصر وكادت أن تساميها الا قليلا .

ثم لما انقضت الدولة الاخشيدية من مصر ، واختل حال الاقليم بتوالى الغلوات وتواتر الأوباء والفنوات ، حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين الله أبى تميم معـد أمير المؤمنين ، على يد عبده وكاتبـه القائد جوهر ، فنزل حيث القـاهرة الآن ، وأناخ هناك .

وكانت حينئذ رملة — فيما بين مصر وعين شمس — يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، وكانت فيمـا بين

الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين ، ثم قيل له خليج القاهرة ، ثم هو الآن يعرف بالخليج الكبير وبالخليج الحاكمى ، وبين الخليج المعروف باليحاميم ، وهو الجبل الأحمر .

وكان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة وبين القرية التى يقال لها أم دنين ثم عرفت الآن بالمقس . وكان من يسافر من الفسطاط الى بلاد الشام ينزل بطرف هذه الرملة ، فى الموضع الذى كان يعرف بمنية الأصبغ ، ثم عرف الى يومنا بالخندق .

وتمر العساكر والتجار وغيرهم من منية الأصبغ الى بنى جعفر على غيفة وسلمنت الى بلبيس ، وبينها وبين مدينة الفسطاط أربعة وعشرون ميلا ، ومن بلبيس الى العلاقمة الى الفرما .

ولم يكن الدرب الذى يسلك فى وقتنا من القاهرة الى العريش فى الرمل يعرف فى القديم ، وانما عرف بعد خراب تنيس والفرما ، وازاحة الفرنج عن بلاد الساحل بعد تملكهم له مدة من السنين .

وكان من يسافر فى البر من الفسطاط الى الحجاز ينزل بجب عميرة ، المعروف اليوم ببركة الجب وببركة الحاج .

ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هى بستان الاخشيد محمد بن طغج — المعروف اليوم بالكافورى — من القاهرة ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام ، تزعم النصارى أن فيه بعض من أدرك المسيح عليه السلام ، وبقى الآن بئر هذا الدير ، وتعرف ببئر العظام — والعامة تقول بئر العظمة — وهى بجوار الجامع الأقمر من القاهرة ، ومنها ينقل الماء اليه .

وكان بهذه الرملة أيضا مكان ثالث يعرف بقصير الشوك — بصيغة التصغير — تنزله بنو عذرة فى الجاهلية ، وصار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة ... هذا الذى اطلعت عليه أنه كان فى موضع القاهرة قبل بنائها بعد الفحص والتفتيش .

وكان النيل حينئذ بشاطىء المقس يمر من موضع الساحل القديم بمصر — الذى هو الآن * سوق المعاريج ، وحمام طن ، والمراغة ، وبستان الجرف ، وموردة الحلفاء ، ومنشأة المهرانى — على ساحل الحمراء ، وهى موضع قناطر السباع ، فيمر النيل بساحل الحمراء الى المقس ، موضع جامع المقس الآن ، وفيما بين الخليج وبين ساحل النيل بساتين الفسطاط .

فاذا صار النيل الى المقس ، حيث الجامع الآن ، مر من هناك على طرف الأرض ، التى تعرف اليوم بأرض الطبالة ، من الموضع المعروف اليوم بالجرف ، وصار الى البعل ، ومر على طرف منية الاصبغ من غربى الخليج الى المنية .

وكان فيما بين الخليج والجبل ، مما يلى بحرى موضع القاهرة ، مسجد بنى على رأس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ثم مسجد تبر الاخشيدى ، فعرف بمسجد تبر ، والعامة تقول مسجد التبن .

(*) ص٣٥٩ جـ١ ، ط. بولاق .

ولم يكن الممر من الفسطاط الى عين شمس والى الحوف الشرقى والى البلاد الشامية ، الا بحافة الخليج ، ولا يكاد يمر بالرملة التى فى موضعها الآن مدينة القاهرة كثير جدا ، ولذلك كان بها دير للنصارى ... الا أنه لما عمر الاخشيد البستان المعروف بالكافورى ، أنشأ بجانبه ميدانا وكان كثيرا ما يقيم به ، وكان كافور أيضا يقيم به .

وكان فيما بين موضع القاهرة ومدينة الفسطاط ، مما يلى الخليج المذكور ، أرض تعرف فى القديم منذ فتح مصر بالحمراء القصوى ، وهى موضع قناطر السباع وجبل يشكر ، حيث الجامع الطولونى وما دار به . وفى هذه الحمراء عدة كنائس وديارات للنصارى خربت شيئا بعد شىء ، الى أن خرب آخرها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وجميع ما بين القاهرة ومصر ، مما هو موجود الآن من العمائر ، فانه حادث بعد بناء القاهرة ، ولم يكن هناك قبل بنائها شىء ألبتة سوى كنائس الحمراء . وسيأتى بيان ذلك مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

ذكر حد القاهرة

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : الذى استقر عليه الحال أن حد القاهرة من مصر من السبع سقايات ، وكان قبل ذلك من المجنونة الى مشهد السيدة رقية عرضا اهـ .

والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير الى باب الفتوح وباب النصر ، وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة الى باب البرقية والباب المحروق .

ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر الى أن انتهت العمائر الى الريدانية ، وبنوا خارج باب القنطرة الى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل ، وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطىء الى أن اتصلت بمنشأة المهرانى ، وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق الى سفح الجبل بطول السور ... فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له القاهرة ، والآخر يقال له مصر .

فأما مصر فان حدها — على ما وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه — من حد أول قناطر السباع الى طرف بركة الحبش القبلى مما يلى بساتين الوزير ، وهذا هو طول حد مصر . وحدها فى العرض من شاطىء النيل ، الذى يعرف قديما بالساحل الجديد ، حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد الى أول القرافة الكبرى .

وأما حد القاهرة فان طولها من قناطر السباع الى الريدانية ، وعرضها من شاطىء النيل ببولاق الى الجبل الأحمر ... ويطلق على ذلك كله مصر والقاهرة .

وفى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر ، عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد الى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، انما هى ما دار عليه السور فقط . غير أن السور المذكور الذى أداره القائد جوهر ، تغير وعمل — منذ بنيت الى زمننا هذا — ثلاث مرات ، ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة ، فصار يقال لداخل السور القاهرة ، ولما خرج بن السور ظاهر القاهرة .

وظاهر القاهرة أربع جهات :

الجهة القبلية وفيها الآن معظم العمارة ، وحد هذه الجهة طولا من عتبة باب زويلة الى الجامع الطولونى ، وما بعد الجامع الطولونى فانه من حد مصر . وحدها عرضا من الجامع الطيبرسى بشاطىء النيل غربى المريس الى قلعة الجبل ، وفى الاصطلاح الآن أن القلعة من حكم مصر .

والجهة البحرية وكانت ، قبل السبعمائة من سنى الهجرة وبعدها الى قبيل الوباء الكبير ، فيها أكثر العمائر والمساكن ثم تلاشت من بعد ذلك . وطول هذه الجهة من باب الفتوح وباب النصر الى الريدانية . وعرضها من منية الأمراء ، المعروفة فى زمننا الذى نحن فيه بمنية الشيرج ، الى الجبل الأحمر . ويدخل فى هذا الحد مسجد تبر والريدانية .

والجهة الشرقية فانها حيث ترب أهل القاهرة ، ولم تحدث بها العمائر من التربة الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة . وحد هذه الجهة طولا * من باب القلعة المعروف بباب السلسلة الى ما يحاذى مسجد تبر فى سفح الجبل . وحدها عرضا فيما بين سور القاهرة والجبل .

والجهة الغربية فأكثر العمائر بها لم يحدث أيضا الا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وانما كانت بساتين وبحرا . وحد هذه الجهة طولا من منية الشيرج الى منشأة المهرانى بحافة بحر النيل . وحدها عرضا من باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة الى ساحل النيل .

وهذه الأربع جهات من خارج السور يطلق عليها ظاهر القاهرة .

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا ، والدور العظيمة والمساكن الجليلة ، والمناظر البهجة والقصور الشامخة ، والبساتين النضرة ، والحمامات الفاخرة ، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع ، والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس ، والخانات المشحونة بالواردين ، والفنادق الكاظة بالسكان ، والترب التى تحكى القصور ... ما لا يمكن حصره ، ولا يعرف ما هو قدره . الا أن قدر ذلك — بالتقريب الذى يصدقه الاختبار — طولا بريدا وما يزيد عليه ، وهو من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، وعرضا يكون نصف بريد فما فوقه ، وهو من ساحل النيل الى الجبل .

(*) ص٣٦٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ويدخل فى هذا الطول والعرض بركة الحبش وما دار بها ، وسطح الجرف المسمى بالرصد ، ومدينة الفسطاط التى يقال لها مدينة مصر ، والقرافة الكبرى والصغرى ، وجزيرة الحصن المعروف اليوم بالروضة ، ومنشأة المهرانى ، وقطائع ابن طولون التى تعرف الآن بحدرة ابن قميحة ، وخط جامع ابن طولون ، والرميلة تحت القلعة ، والقبيبات وقلعة الجبل ، والميدان الأسود — الذى هو اليوم مقابر أهل القاهرة — خارج باب البرقية الى قبة النصر ، والقاهرة المعزية وهو ما دار عليه السور الحجر ، والحسينية والريدانية ، والخندق وكوم الريش وجزيرة الفيل ، وبولاق ، والجزيرة الوسطى المعروفة بجزيرة أروى ، وزريبة قوصون ، وحكر ابن الأثير ، ومنشأة الكاتب ، والأحكار التى فيما بين القاهرة وساحل النيل ، وأراضى اللوق ، والخليج الكبير الذى تسميه العامة بالخليج الحاكمى ، والحبانية والصليبية والتبانة ، ومشهد السيدة نفيسة ، وباب القرافة ، وأرض الطبالة ، والخليج الناصرى ، والمقس والدكة ، وغير ذلك مما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وقد أدركنا هذه المواضع وهى عامرة ، والمشيخة تقول هى خراب بالنسبة لما كانت عليه قبل حدوث طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، الذى يسميه أهل مصر الفناء الكبير ، وقد تلاشت هذه الأماكن ، وعمها الخراب منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة . ولله عاقبة الأمور .

ذكر بناء القاهرة وما كانت عليه فى الدولة الفاطمية

وذلك أن القائد جوهر الكاتب ، لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الامام المعز لدين الله أبى تميم معد ، أقبل فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وسارت عساكره بعد زوال الشمس ، وعبرت الجسر أفواجا ، وجوهر فى فرسانه ، الى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن ، فاستقر هناك واختط القصر .

وبات المصريون ، فلما أصبحوا حضروا للهناء ، فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل ، وكانت فيه أزورارات غير معتدلة ، فلما شاهدها جوهر لم يعجبه ، ثم قال : قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة . فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام .

ويقال ان القاهرة اختطها جوهر فى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها : فزويلة بنت الحارة المعروفة بها ، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية ، واختطت الروم حارتين : حارة الروم الآن ، وحارة الروم الجوانية يقرب باب النصر .

وقصد جوهر باختطاط القاهرة حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره ،

واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى القاهرة وما وراءها من المدينة .

وكان مقدار القاهرة حينئذ أقلّ من مقدارها اليوم ، فان أبوابها كانت من الجهات الأربعة :

ففى الجهة القبلية — التى تفضى بالسالك منها الى مدينة مصر — بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة ، وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذى تسميه العامة بسام بن نوح ، ولم يبق الى هذا العهد سوى عقده ، ويعرف بباب القوس . وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التى أسسها القائد جوهر ، وانما هى زيادة حدثت بعد ذلك .

وكان فى جهة القاهرة البحرية — وهى التى يسلك منها الى عين شمس — بابان : أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التى قدام الجامع * الحاكمى الآن ، وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربى من المدرسة القاصدية . وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد فى مقدار القاهرة بعد جوهر .

والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح ، وعقده باق الى يومنا هذا مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفى . وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلى

(*) ص٣٦١ جـ١ ، ط.بولاق .

باب الجامع الحاكمى . وفيما بين هذا العقد وباب الفتوح ، من الزيادات التى زيدت فى القاهرة من بعد جوهر .

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة — وهى الجهة التى يسلك منها الى الجبل — بابان : أحدهما يعرف الآن بالباب المحروق ، والآخر يقال له باب البرقية ، وموضعهما دون مكانهما الآن . ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة « بين السورين » . وأحد البابين القديمين موجود الى الآن أسكفته .

وكان فى الجهة الغربية من القاهرة — وهى المطلة على الخليج الكبير — بابان : أحدهما باب سعادة ، والآخر باب الفرج . وباب ثالث — يعرف بباب الخوخة — أظنه حدث بعد جوهر .

وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع . يقال لأحد القصرين القصر الكبير الشرقى ، وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه ، وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة ، وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك . وهو الذى أسسه القائد جوهر ، وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء .

والآخر تجاه هذا القصر ، ويعرف بالقصر الغربى ، وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول اليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج ، وعلى ما كان اذ ذاك بجانب الخليج الغربى من البركة التى يقال لها بطن البقرة ، ومن البستان المعروف بالبغدادية ،

وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهرى .

وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ، ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر .

فأما القصر الكبير الشرقى ، فانه كان من باب الذهب الذى موضعه الآن محراب المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وكان يعلو عقد باب الذهب منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروفة ، وكان باب الذهب هذا هو أعظم أبواب القصر .

ويسلك من باب الذهب المذكور الى باب البحر ، وهو الباب الذى يعرف اليوم بباب قصر بشتاك مقابل المدرسة الكاملية ، وهو من باب البحر الى الركن المخلق ، ومنه الى باب الريح .

وقد أدركنا منه عضادتيه وأسكفته ، وعليها أسطر بالقلم الكوفى ، وجميع ذلك مبنى بالحجر ، الى أن هدمه الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الأستادار . وفى موضعه الآن قيسارية أنشأها المذكور بجوار مدرسته من رحبة باب العيد .

ويسلك من باب الريح المذكور الى باب الزمرذ — وهو موضع المدرسة الحجازية الآن — ومن باب الزمرذ الى باب العيد ، وعقده باق وفوقه قبة الى الآن فى درب السلامى بخط رحبة باب العيد .

وكان قبالة باب العيد هذا رحبة عظيمة فى غاية الاتساع ، تقف فيها العساكر الكثيرة من الفارس والراجل فى يومى العيدين ، تعرف برحبة العيد ، وهى من باب الريح الى خزانة البنود .

وكان يلى باب العيد السفينة ، وبجوار السفينة خزانة البنود ، ويسلك من خزانة البنود الى باب قصر الشوك .

وأدركت منه قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الأيدمرى ، ثم قيل لها فى زمننا حمام يونس ، بجوار المكان المعروف بخزانة البنود .

وقد عمل موضع هذا الباب زقاق يسلك منه الى المارستان العتيق وقصر الشوك ودرب السلامى وغيره ، ويسلك من باب قصر الشوك الى باب الديلم ، وموضعه الآن المشهد الحسينى .

وكان فيما بين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة ، تعرف برحبة قصر الشوك ، أولها من رحبة خزانة البنود ، وآخرها حيث المشهد الحسينى الآن . وكان قصر الشوك يشرف على اصطبل الطارمة .

ويسلك من باب الديلم الى باب تربة الزعفران — وهى مقبرة أهل القصر من الخلفاء وأولادهم ونسائهم — وموضع باب تربة الزعفران فندق الخليلى فى هذا الوقت ويعرف بخط الزراكشة العتيق .

وكان فيما بين الديلم وباب تربة الزعفران ، الخوخ السبع التى يتوصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات ، فيجلس

بمنظرة الجامع الأزهر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد والجمع . وبجوار الخوخ السبع اصطبل الطارمة ، وهو برسم الخيل الخاص المعدة لركاب الخليفة .

وكان مقابل باب الديلم ، ومن وراء اصطبل الطارمة ، الجامع المعد لصلاة الخليفة بالناس أيام الجمع ، وهو الذى يعرف فى وقتنا هذا بالجامع الأزهر ، ويسمى فى كتب التاريخ بجامع القاهرة ، وقدام هذا الجامع رحبة متسعة من حد اصطبل الطارمة الى الموضع الذى يعرف اليوم بالاكفانيين .

ويسلك من باب تربة الزعفران الى باب الزهومة ، وموضعه الآن باب سر قاعة مدرسة الحنابلة من المدارس الصالحية ، وفيما بين تربة الزعفران وباب الزهومة دراس العلم وخزانة الدرق .

ويسلك * من باب الزهومة الى باب الذهب المذكور أولا ... وهذا هو دور القصر الشرقى الكبير .

وكان بحذاء رحبة باب العيد دار الضيافة ، وهى الدار المعروفة بدار سعيد السعداء — التى هى اليوم خانقاه للصوفية — ويقابلها دار الوزارة ، وهى حيث الزقاق المقابل لباب سعيد السعداء ، والمدرسة القراسنقرية ، وخانقاه بيبرس وما يجاورها الى باب الجوانية .

وما وراء هذه الأماكن ، وبجوار دار الوزارة ، الحجر ، وهى من حذاء دار الوزارة بجوار باب الجوانية الى باب النصر القديم .

ومن وراء دار الوزارة المناخ السعيد ، ويجاوره حارة العطوفية ، وحارة الروم الجوانية .

وكان جامع الخطبة — الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم — خارجا عن القاهرة ، وفى غربيه الزيادة التى هى باقية الى اليوم ، وكانت أهراء لخزن الغلال التى تدخر بالقاهرة كما هى عادة الحصون .

وكان فى غربى الجامع الأزهر حارة الديلم ، وحارة الروم البرانية ، وحارة الأتراك — وهى تعرف اليوم بدرب الأتراك — وحارة الباطلية .

وفيما بين باب الزهومة ، والجامع الأزهر وهذه الحارات ، خزائن القصر وهى خزانة الكتب ، وخزانة الأشربة ، وخزانة السروج ، وخزانة الخيم ، وخزائن الفرش ، وخزائن الكسوات ، وخزائن دار أفتكين ، ودار الفطرة ، ودار التعبية ، وغير ذلك من الخزائن ... هذا ما كان فى الجهة الشرقية من القاهرة .

وأما القصر الصغير الغربى فانه بموضع المارستان الكبير المنصورى الى جوار حارة برجوان . وبين هذا القصر وبين القصر الكبير الشرقى فضاء متسع يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ، ما بين فارس وراجل ، يقال له بين القصرين .

وبجوار القصر الغربى الميدان — وهو الموضع الذى يعرف بالخرنشف — واصطبل الطارمة . وبحذاء الميدان البستان الكافورى المطل من غربيه على الخليج الكبير . ويجاور

(*) ص٣٦٢ جـ١ ، ط. بولاق .

الميدان دار برجوان العزيزى ، وبحذائها رحبة الأفيال ، ودار الضيافة القديمة ، ويقال لهذه المواضع الثلاثة حارة برجوان .

ويقابل دار برجوان المنحر ، وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر ، ويدخل اليه من قبالة خانقاه بيبرس . وفيما بين ظهر المنحر وباب حارة برجوان سوق أمير الجيوش ، وهو من باب حارة برجوان الآن الى باب الجامع الحاكمى .

ويجاور حارة برجوان من بحريها اصطبل الحجرية ، وهو متصل بباب الفتوح الأول ، وموضع باب اصطبل الحجرية يعرف اليوم بخان الوراقة والقيسارية ، تجاه الجملون الصغير وسوق المرحلين . وتجاه اصطبل الحجرية الزيادة ، وفيما بين الزيادة والمنحر درب الفرنجية .

وبجوار البستان الكافورى حارة زويلة ، وهى تتصل بالخليج الكبير من غربيها . وتجاه حارة زويلة اصطبل الجميزة ، وفيه خيول الخليفة أيضا . وفى هذا الاصطبل بئر زويلة ، وموضعها الآن قيسارية معقودة على البئر المذكورة ، يعلوها ربع يعرف بقيسارية يونس من خط البندقانيين .

فكان اصطبل الجميزة المذكور فيما بين القصر الغربى من بحريه وبين حارة زويلة ، وموضعه الآن قبالة باب سر المارستان المنصورى الى البندقانيين .

وبحذاء القصر الغربى من قبليه ، مطبخ القصر تجاه باب الزهومة المذكور ، والمطبخ موضعه الآن الصاغة قبالة المدارس الصالحية .

وبجوار المطبخ الحارة العدوية ، وهى من الموضع الذى يعرف بحمام خشيبة الى حيث الفندق الذى يقال له فندق الزمام . وبجوار العدوية حارة الأمراء ، ويقال لها اليوم سوق الزجاجين وسوق الحريريين الشرابيين .

ويجاور الصاغة القديمة حبس المعونة ، وهو موضع قيسارية العنبر . وتجاه حبس المعونة عقبة الصباغين وسوق القشاشين ، وهو يعرف اليوم بالخراطين . ويجاور حبس المعونة دكة الحسبة ودار العيار ، ويعرف موضع دكة الحسبة الآن بالأبزاريين . وفيما بين دكة الحسبة وحارتى الروم والديلم سوق السراجين ، ويقال له الآن الشوايين . وبطرف سوق السراجين مسجد ابن البناء الذى تسميه العامة سام بن نوح . ويجاور هذا المسجد باب زويلة .

وكان من حذاء حارة زويلة ، من ناحية باب الخوخة ، دار الوزير يعقوب بن كلس ، وصارت بعده دار الديباج ودار الاستعمال ، وموضعها الآن المدرسة الصالحية وماوراءها . ويتصل دار الديباج بالحارة الوزيرية ، والى جانب الوزيرية الميدان الآخر الى باب سعادة وفيما بين باب سعادة وباب زويلة أهراء أيضا وسطاح .

هذا ما كانت عليه صفة القاهرة فى الدولة الفاطمية ، وحدثت هذه الأماكن شيئا بعد شىء . ولم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال ، لا ينزلها الا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرفهم بقربه فقط .

وأما ظاهر القاهرة من جهاتها الأربع ، فانه كان فى الدولة الفاطمية على ما أذكر :

أما الجهة القبلية — وهى التى فيما بين باب زويلة ومصر طولا ، وفيما بين الخليج الكبير والجبل عرضا — فانها كانت قسمين : ما حاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وما حاذى شمالك اذا خرجت منه نحو الجبل .

فأما ما حاذى يمينك — وهى المواضع التى تعرف اليوم بدار التفاح ، وتحت الربع ، والقشاشين ، وقنطرة باب الخرق ، وما على حافتى الخليج من جانبيه * طولا الى الحمراء التى يقال لها اليوم خط قناطر السباع ، ويدخل فى ذلك سويقة عصفور ، وحارة الحمزيين ، وحارة بنى سوس الى الشارع ، وبركة الفيل والهلالية والمحمودية ، الى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة — فان هذه الأماكن كلها كانت بساتين تعرف بجنان الزهرى ، وبستان سيف الاسلام وغير ذلك .

ثم حدث فى الدولة هناك حارات للسودان ، وعمر الباب الجديد — وهو الذى يعرف اليوم بباب القوس — من سوق الطيور فى الشارع عند رأس ... ... [1] ، وحدثت الحارة الهلالية ، والحارة المحمودية .

وأما ما حاذى شمالك — حيث الجامع المعروف بجامع الصالح ، والدرب الأحمر ، الى قطائع ابن طولون التى هى الآن الرميلة والميدان تحت القلعة — فان ذلك كان مقابر أهل القاهرة .

(*) ص٣٦٣ جـ١ ، ط.بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

وأما جهة القاهرة الغربية — وهى التى فيها الخليج الكبير ، وهى من باب القنطرة الى المقس وما جاور ذلك — فانها كانت بساتين من غربيها النيل ، وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن ، فيمر من المقس الى المكان الذى يقال له الجرف ، ويمضى على شمالى أرض الطبالة الى البعل ، وموضع كوم الريش الى المنية .

ومواضع هذه البساتين اليوم أراضى اللوق والزهرى ، وغيرها من الحكورة التى فى بر الخليج الغربى الى بركة قرموط والخور وبولاق . وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه ، والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى وراءها بحر النيل .

ويخرج الناس فيما بين المناظر والخليج للنزهة ، فيجتمع هناك من أرباب البطالة واللهو ما لا يحصى عددهم ، ويمر لهم هنالك من اللذات والمسرات ما لا تسع الأوارق حكايته ، خصوصا فى أيام النيل عندما يتحول الخليفة الى اللؤلؤة ، ويتحول خاصته الى دار الذهب وما جاورها ، فانه يكثر حينئذ الملاذ بسعة الأرزاق وادرار النعم فى تلك المدة ، كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وأما جهة القاهرة البحرية فانها كانت قسمين : خارج باب الفتوح ، وخارج باب النصر .

أما خارج باب الفتوح فانه كان هنالك منظرة من مناظر الخلفاء ، وقدامها البستانان الكبيران : وأولهما من زقاق الكحل ،

وآخرهما منية مطر التى تعرف اليوم بالمطرية . ومن غربى هذه المنظرة — فى جانب الخليج الغربى — منظرة البعل فيما بين أرض الطبالة والخندق ، وبالقرب منها مناظر الخمس وجوه والتاج ذات البساتين الأنيقة المنصوبة لتنزه الخليفة .

وأما خارج باب النصر فكان به مصلى العيد التى عمل من بعضها مصلى الأموات لا غير ، والفضاء من المصلى الى الريدانية وكان بستانا عظيما ، ثم حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالى ، وعمر الناس الترب بالقرب منها ، وحدث فيما خرج عن باب الفتوح عمائر منها الحسينية وغيرها .

وأما جهة القاهرة الشرقية — وهى ما بين السور والجبل — فانه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيول أن تدخل الى القاهرة ، فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية ، ولم تزل هذه الجهة خالية من العمارة الى أن انقرضت الدولة الفاطمية . فسبحان الباقى بعد فناء خلقه .

ذكر ما صارت اليه القاهرة
بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها

قد تقدم أن القاهرة انما وضعت منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ اليها . وأنها ما برحت هكذا حتى كانت السنة العظمى فى خلافة المستنصر .

ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة ، وهى يباب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة . فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة ، بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها .

فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان ، الى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة ، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعض وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده ... فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة .

ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل ، فكان السلطان صلاح الدين يتردد اليها ويقيم بها ، وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر .

فلما كان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب ، تحول من دار الوزارة الى القلعة وسكنها ، ونقل سوق الخيل والجمال والحمير الى الرميلة تحت القلعة .

فلما خرب المشرق والعراق ، بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكز خان فى أعوام بضع عشرة وستمائة ، الى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، كثر قدوم المشارقة * الى مصر ، وعمرت حافتى الخليج الكبير وما دار على بركة الفيل ، وعظمت عمارة الحسينية ...

فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة بعد سنة احدى عشرة وسبعمائة ، واستجد بقلعة الجبل المبانى الكثيرة من القصور وغيرها ، حدثت فيما بين القلعة وقبة النصر عدة ترب ، بعد ما كان ذلك المكان فضاء يعرف بالميدان الأسود وميدان القبق .

وتزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية الى باب الفتوح .

وعمر جميع ما حول بركة الفيل والصليبة الى جامع ابن طولون ، وما جاوره الى المشهد النفيسى ، وحكر الناس أرض الزهرى وما قرب منها ، وهو من قناطر السباع الى منشأة المهرانى ، ومن قناطر السباع الى البركة الناصرية الى اللوق الى المقس .

فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، اتسعت الخطة فيما بين المقس والدكة الى ساحل النيل ، وأنشأ الناس فيها البساتين العظيمة والمساكن الكثيرة والأسواق والجوامع والمساجد والحمامات والشون ، وهى من المواضع التى من باب البحر خارج المقس الى ساحل النيل المسمى

(*) ص٣٦٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ببولاق ، ومن بولاق الى منية الشيرج ، ومنه فى القبلة الى منشأة المهرانى .

وعمر ما خرج عن باب زويلة يمنة ويسرة من قنطرة الخرق الى الخليج ، ومن باب زويلة الى المشهد النفيسى . وعمرت القرافة من باب القرافة الى بركة الحبش طولا ، ومن القرافة الكبرى الى الجبل عرضا ... حتى انه استجد فى أيام الناصر بن قلاوون بضع وستون حكرا ، ولم يبق مكان يحكر .

واتصلت عمائر مصر والقاهرة ، فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات ، متصلا جميع ذلك بعضه ببعض ، من مسجد تبر الى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، ومن شاطىء النيل بالجيزة الى الجبل المقطم .

وما زالت هذه الأماكن ، فى كثرة العمارة وزيادة العدد ، تضيق بأهلها لكثرتهم ، وتختال عجبا بهم لما بالغوا فى تحسينها وتأنقوا فى جودتها وتنميقها ... الى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فخلا كثير من هذه المواضع ، وبقى كثير أدركناه .

فلما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة وقصر جرى النيل فى مده ، وخربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمورلنك وتحريقها

وقتل أهلها ، وارتفاع أسعار الديار المصرية ، وكثرة الغلاء فيها وطول مدته ، وتلاف النقود المتعامل بها وفسادها ، وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة ، وخراب الصعيد وجلاء أهله عنه ، وتداعى أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية الى الخراب ، واتضاع أمور ملوك مصر ، وسوء حال الرعية ، واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور ، وتتبع أرباب الأموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة ، وطرح البضائع مما يتجر فيه السلطان وأصحابه على التجار والباعة بأغلى الأثمان ، الى غير ذلك مما لا يتسع لأحد ضبطه ، ولا تسع الأوراق حكايته ... كثر الخراب بالأماكن التى تقدم ذكرها وعم سائرها ، وصارت كيمانا وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم والرخم ، أو مستهدمة واقعة أو آيلة الى السقوط والدثور ... سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ذكر طرف مما قيل فى القاهرة ومتنزهاتها

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب : ويلى الفسطاط فى العظم وكثرة الناس القاهرة ، وهى فى شمال الفسطاط ، وفى شرقيها أيضا الجبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا ، والنيل منها أبعد قليلا ، وجميعها مكشوف للهواء ، وان كان عمل فوق ربما عاق عن بعض ذلك .

وليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا ، وأزقتها وشوارعها — بالقياس الى أزقة الفسطاط وشوارعها — أنظفه وأقل وسخا وأبعد عن العفن ، وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، واذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئا كثيرا ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل اليها بالرشح من عفونة الكنف شىء ما .

وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلأ من رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب فيها بعض خرارات القاهرة ، ومياه البطائح هذه رديئة وسخة أرضها ، وما يصب فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة والفسطاط زائدا فى رداءة الهواء بهما . ويطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية ، وكذلك يطرح فى وسط حارة * العبيد .

الا أنه اذا تأملنا حال القاهرة كانت — بالاضافة الى الفسطاط — أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة فى أيام دخوله الخليج ، وهذا الماء يستقى بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها .

قال وقد اقتصر أمر الفسطاط والجيزة والجزيرة : فظاهر أن أصح أجزاء المدينة

(*) ص٣٦٥ جـ١ ، طـ بولاق .

الكبرى القرافة ، ثم القاهرة والشرف وغسل فوق مع الحمراء والجيزة ، وشمال القاهرة أصح من جميع هذه لبعده عن بخار الفسطاط وقربه من الشمال ، وأرقى موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق الى ما يلى النيل والسواحل . والى جانب القاهرة من الشمال الخندق ، وهو فى غور ، فهو يتغير أبدا لهذا السبب . فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب .

وقال ابن سعيد فى كتاب « المعرب فى حلى المغرب » عن البيهقى : وأما مدينة القاهرة فهى الحالية الباهرة التى تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا فى بنائها ، واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركزا لأرجائها ، فنسى الفسطاط ، وزهد فيه بعد الاغتباط .

قال : وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وقدروا أن منها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به .

قال ابن سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين . وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط ، وخطب له فى البحرين من جزيرة عند القرامطة ، وفى مكة والمدينة وبلاد اليمن وما جاورها ، وقد علت كلمته ، وسارت مسير الشمس فى كل بلدة ، وهبت هبوب الريح فى البر والبحر ، لا سيما وقد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية التى الى جانب القيروان ، وعاين المهدية مدينة جده عبيد الله المهدى ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهى ناطقة الى الآن بألسن الآثار .

ولله در القائل :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

واهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة فى تلك القصور ، وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن ، وكان يجلس فيه خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار .

وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ، ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة .

والمكان المعروف فى القاهرة بـ « بين القصرين » هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين .

ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه الى أمد ضيق ، وتمر فى ممر كدر حرج بين الذكاكين ، اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ما تضيق منه الصدور ، وتسخن منه العيون .

ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة، وهو فى موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير ، وعظم الازدحام ، وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم .

وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما ، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ، ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى ، ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج الى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها فى أرض النيل الأعظم ، ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس ، وجوها لا يبرح كدرا بما تثيره الأرجل من التراب الأسود .

وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها :

يقولون سافر الى القاهرة
وما لى بها راحة ظاهره

زحام وضيق وكرب وما
تثير بها أرجل السائرة

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا ، فتنقبض نفسه ، ويفر أنسه .

وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أرض القرط والكتان ، فقلت * :

سقى الله أرضا كلما زرت أرضها
كساها وحلاها بزينته القرط

تجلت عروسا والمياه عقودها
وفى كل قطر من جوانبها قط

وفيها خليج لا يزال يضعفه بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى :

ما زالت الأنحال تأخذه
حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نوار الكتان على جانبى هذا الخليج :

انظر الى النهر والكتان يرمقه
من جانبيه بأجفان لها حدق

رأته سيفا عليه للصبا شطب
فقابلته بأحداق بها أرق

وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها
حتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم وزرها ووجه الأفق متضح
أو عند صفرته ان كنت تغتبق

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج

(*) ص٣٦٦ ج١ ، ط. بولاق .

أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

انظرالى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها ، وقد قابلتها الشمس بالغدو ، فقلت :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت
لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة .

والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجل مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم دثارا لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر ، وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء .

الا أن فى هذا الوقت ، لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة ، عظمت عمارة الفسطاط ، وانتقل اليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة ، تنقل اليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

ومعاملة القاهرة والفسطاط بالدراهم المعروفة بالسوداء ، كل درهم منها ثلث من الدرهم الناصرى ، وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ، ومخاصمة مع الفريقين . وكان بها فى القديم الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الى الآن مقطوعة منها .

وهى فى الاقليم الثالث ، وهواؤها ردىء لا سيما اذا هب المريسى من جهة القبلة ، وأيضا رمد العين فيها كثير ، والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة .

وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب . والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم ، واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة .

ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ، ولا تصنع النيدة — وهى حلاوة القمح — الا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طباخات ، أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، لهن فى الطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة .

ومطابخ السكر ، والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى ، مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة .

ويصنع فيها من الأنطاع المستحسنة مايسفر الى الشـام وغيـرها ، ولهـا من الشروب الدمياطية وأنواعها ما اختصت به ، وفيهـا صناع للقسى كثيرون متقدمون ، ولكن قسى دمشق بها يضرب المثل واليها النهاية .

ويسفر من القاهرة الى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات ، وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك .

وهى الآن عظيمة آهلة ، يجبى اليهـا من الشرق والغرب والجنوب والشـمال ، ما لا يحيط بجملته وتفصيله الا خالق الكل جل وعلا .

وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف على طلب زكاة ولا ترسـيما وعذابا ، ولا يطلب برفيق له اذا مات ، فيقـال له : ترك عندك مالا . فربما سـجن فى شـأنه ، أو ضرب وعصر .

والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السمـاعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه * ... يحكم فيها كيف شاء من رقص فى السوق ، أو تجريد ، أو سـكر من حشـيشة أو غيرها ، أو صحبة المردان وما أشبه ذلك ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب .

وسـائر الفقـراء لا يعترضـون بالقبض للأسطول ، الا المغاربة فذلك وقف عليهـم لمعرفتهم بمعـاناة البحر ، فقـد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف ، وهم فى القدوم عليها بين حالين : ان كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيقت عليه أنفاسه حتى يفر منها . وان كان مجردا فقيرا حمـل الى السجن حتى يجيء وقت الأسطول .

وفى القـاهرة أزاهير كثيرة غير منقطعـة الاتصال ، وهـذا الشـان فى الديار المصرية تفضل به كثيرا من البلاد .

وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول :

من فضـل النرجس وهو الذى
يرضى بحـكم الورد اذ يـرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا
وقام فى خدمته النرجس

وأكثر ما فيهـا من الثمـرات والفـواكه الرمان والموز والتفاح ، وأما الأجاص فقليـل غـال ، وكذلك الخـوخ ، وفيهـا الورد والنرجس والنسرين واللينـوفر والبنفسـج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر .

وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه الا القليل ، ومع هذا فشراؤه عندهم فى نهاية الغلاء . وعامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح ، حتى ان القمح يطلع عندهم سعره بسببه فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعـه وكسر أوانيه .

ولا ينـكر فيها اظهار أوانى الخمر ، ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب .

وقد دخلت فى الخليج الذى بين القـاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القـاهرة ،

(*) ص٢٦٧ جـ١ ، ط. بولاق .

فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك فى بعض الأحيان .

وهو ضيق عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمخالعة ، حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب . وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل . وفى ذلك أقول :

لا تركبن فى خليج مصر
الا اذا أسدل الظلام

فقد علمت الذى عليه
من عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظلا
سلاح ما بينهم كلام

ياسيدى لا تسر اليه
الا اذا هوم النيام

والليل ستر على التصابى
عليه من فضله لثام

والسرج قد بددت عليه
منها دنانير لا ترام

وهو قد امتد والمبانى
عليه فى خدمة قيام

لله كم دوحة جنينا
هناك أثمارها الاثام

انتهى . وفيه تحامل كثير .

وقال زكى الدين الحسين من رسالة كتبها من مصر ، فى شهر رجب سنة اثنتين وسبعمائة الى أخيه وهو بدمشق يتشوق اليها ، ويذكر ما فيها من المواضع والمتنزهات ، ويذم من مصر بقوله :

« فكيف يبقى لمن حل فى جنة النعيم ورياضها ، ويرتع فى ميادين المسرات وغياضها ، تلفت الى من سلمته يد الأقدار الى أرض ليست بذات قرار ، وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح ، والورق المتصادح ، والنشر المتقادح ، والماء المطلق المسلسل ، والنسيم الصحيح العليل ... جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، وتقصدتهم يد القضاء فأخذتهم بالبأساء والضراء ، وأوقعتهم بمصر وشموسها وحميمها وغمومها ، وحزونها ووعورها ، وحرورها وزفيرها وسعيرها ، وكيمانها ونيرانها وسودانها ، وفلاحيها وملاحيها ، ومشاربها ومساربها ، ومسالكها ومهالكها ، وصحناتها وعصفورها وبوريها وعقورها ، ومخاوف نوروزها وحرارة تموزها ، ودارس طلولها ورائس أسطولها ، وتعكر مائها وتكدر هوائها ... فلو تراهم فى أرجائها القصوى كالأباعر الهمل ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل » .

فأجابه من دمشق بكتاب من جملته على لسان دمشق كأنها تخاطبه :

« ويا أيها الولد العزيز ، كيف سمحت فطرتك السليمة ، ومروءتك الكريمة ، وسيرتك المستقيمة ، وصبرك المحافظ ، ودينك المراقب الملاحظ ، بذم من جنيت نعمها ، وسكنت حرمها ، وقلت مصر وشموسها ، وسقت عليها القول من كل

جانب ، واستعرت لها التكدير حتى فى المشارب والمسارب ...

« وهلا ذكرتها وقد باكرها نيل نيل النعيم بمغيثه بليل * النسيم بكاس من تسنيمه ، وطما البحر عليها زاخرا فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه ، وعم معظم أرضها ، وعب عبابه فى طولها وعرضها ، حتى كاد يعلو رفيع قصورها ، ويتسور بسورته شامخ سورها . ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها ، قد طبق التهائم والأنجاد ، وغرق الآكام والوهاد ، وعلا أعلى الصعيد والصعاد ، وأعاد البر سلطانه بحرا بالازدياد ...

« فاذا ارتوى أوام أكباد البلاد ، وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد ، وذهب املاق الأرض بكل ملقة وخليج ، وانجاب عنها فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ... بدت روضة نضرة بأملاق مقطعة ، كزمرذة خضراء بلآل مرصعة : فكم من غدير مستدير كبدر منير ، ودقيق مستطيل كسيف صقيل ، وكم من قليب قلاب بماء كجلاب ، وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه ، وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه ، وزهت بزهو نيلوفرها فعرفها بعرفه ، وكم ترى من ملقة لبقة ، عليها عيون النرجس محدقة ، كصحن خد عروس منمقة ...

« والنوار قد دارت بمدام الندى كؤوسه ، وجالت فى مراح الأفراح نفوسه ، ونجم نجمه وابتسم عروسه ، وسامره الرذاذ المنهل ، وباكره الطل فكلله بلؤلؤه وقلده ، وزاره النسيم المعتل فأقامه وأقعده ، ونمق أرضه وروضه فذهبه وفضضه ...

« قد تاهت برياضها الغناء ، وزهت بزخرفها وزينتها الحسناء ، وامتد بساطها الزمردى ، وانبسط مدادها الزبرجدى ، فلا يدرك أقصاه ناظر مسافر ، ولا يحيط بمنتهاه خيال ولا خاطر ...

« فلله درها من روضة مزن ، وكعبة حسن ، ومقطعات بماء غير آسن ، وحرم بحر لحجاج طيره آمن . أتاها حجيج الطير من كل فج عميق ، ملبيا داعى حسنها من كل مكان سحيق ، قد امتطى ركبها متون الرياح ، وعلا جثمانها عالم الأرواح ، ووصلن الادلاج بالصباح ، وقطعن أجناح الليل بخفاق الجناح كأنهن الدرارى السوارى ، أو المنشآت الجوارى ، أو المطايا المهارى ...

تواصل من جو حوائض نيله
صعود على حكم الطريق نزول

« رفاق تعاهدن على الوفاء ، وتحالفن على النعماء والبلاء ، خرجن مهاجرات من الأوطان ألوفا ، وقدمن صافات كالمصلين صفوفا ، يقدمهن دليل كأنه امام ، قد قتل طرق الآفاق خبرا واستوى لديه الاضواء والاظلام ، أبصر من زرقاء اليمامة ، وأطير من الورقاء والهامة ، وأهدى من النجم ، وأشد من السهم ... يتناجين بلغات أعجميات ، مسبحات بألحان مطربات ، فطفن فى حرمها الآمن ، واعتمرن بتلك المحاسن .

« فتراها عند اقبال نوها وحومها فى جوها ، ما تستقيم خطا مستقيما ، وان كانت تصطف صفا عظيما : فمنها ما يستهل هلالا ،

(*) ص٣٦٨ جـ١ ، ط. بولاق .

ومنها ما يحكى بنات نعش حالا ، ومنها ما ينثنى بادلاله دالا ، ومنها ما يخط نونا نونا فيحكى حاجبا مقرونا ، ومنها ما يكتب زينـا فيعيدها عينا ، ومنها ما يصور ميم الهجـاء فيشاهد مبسم السماء ، ومنها ما يأتى زرافات ووحدانا ، فيبدع فى اعجابه حسنا واحسانا .

« فكم من حبل أوز معلق بالسـماء يحلق الى ذلك الماء ، وأوانس عريسـات أنيسـات كيسات ، وصور صور كأمثال حور ، وطير لغلغ مكتس بديباج مصبغ ، وجليـل حبرج كعلج متوج ، وكركى عريض طويل كبعيـر كبير جميل ، وغرير غر مغرر متغير ، وسبيطر شديد شويطر ، وكم ضخم الدسيعة جوال ككوهى بالقوة المنيعة صوال ، ورخام مرزم كذى امرة محتشم ، وجلالة نسر فى الشـائع الذائـع والحـاضر الواقع ، أبهى من النسر الطائر والواقع ، وعظـم عقـاب تم الحسن بحسنه وكل الصـيد فى ضمنـه ، وكم من خضارى وحرمان ، وبلشـون وشـهرمان ، صنوان وغير صنوان ، وكم من بط على شط وخلط ، وقطقط منقط ، وغر وغـرنوق ، وكرسوغ ممشوق ، ونورس مستأنس ...

« وقـد امتـلأت بهن الآفاق ، وتكللت بنجـومهن الأمـلاق ، وشربن من جريالهـا فأسكرهن الاصطباح والاغتبـاق : فكم من مسود كخال بخد ، وأزرق كلازورد ، وأشقر كزهر ورد ، أحمر ناصع ، وأصـفر فاقع ، وأبيض ذى خضاب عندمى ، بلطيف منقـار بقمى ، ومبرقش ومبقع ، ومعمـم ومقنع ، وأشقر منقش ، وأرقش مرشش ، وعـودى وهندى ، وصينى مسنى ، وعينين كياقوتتين قد رصعتا فى لجين ، وكم من طائر أبهى من قمر سائر ، بفرق مثل صبح سافر .

« فتراهن فى الماء صموتا وقوفا ، صفوفا عكوفا ، كصور أصنام ، أو حجارة مبددة فى آكام ، وكم من أطيار طراف ملاح لطـاف ، ذوات ألحان ونضرة وألوان ، وخلق وأخلاق ونطق وأطواق ، وايناس مع شماس ... قـد ازدانت الأرض بأصواتها ، واختلاف لغاتهـا وعجائب صفاتها ، فبرزت بأنواع الأعاجيب ، وتجلت بأجمل الجلابيب ، وأبدعت فى صور الاحسان ، وتصورت فى بدائع الألوان ...

« فاذا بدت زرقاء فى زهر كتانها ، مذهبة بأزهار لبسانها * مفضضة بنجوم أقحوانها ، خلعت السماء عليها خلعة جميل أردانها . واذا فاح نشر نوار قرطها ، شممت المسك الذكى من مرطها ، ورأيت لآلىء سمطها ، مبسوطة على خضر بسطها ، ومغالاتهـا بغاليـة نور فولها ، وهزاتها اذا رفل النسيم فى ذيولها ، قد رصعت أغصانه بفصوص لجينها ، ونقطته من حسنها بسواد عينها : فعيـونه كعيـون غزلانها فى فتكها ، وأحدقه كأحداق ولدانها من تركها .

وكم لها من طرة معتبرة ، وجبهة منورة ، ووجنة مزعفرة ، وملاءة منشورة معصفرة ، وخد مورد ، وطرف مهند ، ولماها صيغ من عقيق الشقيق ، وسكرها من ذلك الريق على التحقيق .

« وأين بزوغ بشنينها ، وامتداد يقطينها ، وأين حلاوة عرائس نخلاتها ، وطلاوة أوانس

(*) ص٢٦٩ ج١ ، ط. بولاق (٥) .

قاماتهـا بمشابهتهـا فى صـفاتها ، وغرائس فسيلاتها ، وأين نضيد طلعها ، وحميد فرعهـا ومديد جذعها ، وفر جمارها عن غرة جمارها واخضرار أكمامها ، واحمرار لثامها ، وبنان بسرها المطـرف ، وبنـان نشرها المشرف ، وانتظام سرورها بابتسام منثورها …

« وورد واديها ومنحنـاها ، وندى ندها وتمر حنـاها ، وآسى آسـها ، وطبيب طيب أنفاسها ، وتبرجها بأترجها وتبهرجها بنارنجها ، وتختمها بمختمها ، وتبسمها عن بلسـمها ، وتشقق أبرادها عن نهود كبادها ، وتضـاعف أرجها بمضعف بنفسجها …

« وجلالة مقدارها اذا فتحت أزرارها عن جل نارها ، وطيب شـميمها من أشـمومها ، ونسيمها ووسميها بأوسيمها ، وجنان قليوبها ، وحرمان قلبيها ، وأحواضها ببهنيها ورياضها ، وطربتها بمطريتها ، ونفيس أنسها بمقسـها ، وغريب غرسها ببلقسها ، وعظيم آسها بمحلق مقياسها …

« وكريم تحيتها من قبل اليمن هبـوب أنفاسها ، واجتمـاع أسـعدها ، وارتفـاع رصدها ، وسواقيها الحنانة فى سجعها ، الهتانة بسكبها من دمعها ، وجنـة لوقها ، ولجـة بولاقها ، وبركة فيلها من بركة نيلها ، وجزيرة ذهبها ، وقلعة الجزيرة بذهبها …

« من عجبـها حـكت فلكها فى بحرها ، وأحكمت مملكتها فى برها ، وعظم جللها بقلعة جبلها ، واعتلاء أعلامها ببناء أهرامها …

« واذا نظرت الى سـعود صـعودها الى سعيـد صعيدها ، واغتباطها بانحطاطها الى صوب سكندريتها ودمياطها ، ألهتك عن حسن الثريا ومناطها …

« ولا تنس الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، التى تسبق عنـد طيـاب الرياح مفوقات السهام ، واعجابها بغربانها البحرية ، وحراقاتها الحربية ، وشوانيها وهول مبانيها ، وجلال شكلها وجمال معانيها : تبدو موشاة بالنضار الأحمر ، منقشة باللون الأفخر ، فهى كالأرقم المنمر ، أو كمتلون النمر ، أو الطاووس الذكر ، أو الناووس البنى الأصفر … معمرة ببأس الحديد والأحجار ، محمولة على سيح الماء التيار ، مشحونة بالرجال ، منصورة عند القتال ، مصونة بالمجن والنبال ، تبرز مذكرة بالآية النوحية ، وتضمن احراز الهمة العليـة الفتحية …

« حصون أمنع من أعز قلاع ، تطيـر اذا فتح لها جناح القلاع ، فتستبق وفد الريح عند الاسراع ، وتفـوق سرعة السـحاب عنـد الاتساع : فهن مع العقبان فى النيق حوم ، وهن مع البنيان فى البحر عوم ، لو أقسم من رآها ، ولو قال مشاهد معناها : ان الله نفخ فيها الروح فأحياها ، لبر فى يمينه التى أقسم وتلاها …

« وكم من مركب ، لحسنه معجب ، وكم من سفين قوى أمين ، وخضـارى جليـل ، وعشارى طويل ، ومسمارى طويل جميـل ، وفستراوى عكاوى ، ولكة ودرمونة ومعدية مكينة ، وسلور دقيق ، وشختور رشـيق ،

وقرقور رقيق ، وزورق ذى زواريق ، وطريدة بخيل الطراد معمورة ، دهماء بحمل الجياد والأجناد مشهورة ، ومخلوف فى الآفاق بالمعروف معروف ...

« وما أحلى بنان رطبها المخضب ، ورشيق قامة قصبها المقصب ، وبهجة فوزها بطلح موزها ، وخضر أعلام أوراقها ، وصفر كرام أعلاقها ... فلا البلاغة تبلغ من احصاء فضلها مراما ، ولا الفصاحة تصوغ لوصف تشبيهها كلاما . فنسأل الله تعالى أن يكنفها بركنه الذى لا يرام ، ويحرسها بعينه التى لا تنام ، بمنه وكرمه » .

وقال الرئيس شهاب الدين أحمد بن محيى الدين يحيى بن فضل الله العمرى كاتب السر :

لمصر فضل باهر
بعيشها الرغد النضر

فى كل سفح يلتقى
ماء الحياة والخضر

وقال ابراهيم بن القاسم الكاتب — الملقب بالرشيق — يتشوق الى مصر ، وقد خرج عنها فى سنة ست وثمانين وثلثمائة ، من قصيدة :

هل الريح ان سارت مشرقة تسرى
تؤدى تحياتى الى ساكنى مصر ؟

فما خطرت الا بكيت صبابة
وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى *

لأنى اذا هبت قبولا بنشرهم
شممت نسيم المسك من ذلك النشر

(*) ص٣٧٠ جـ١ ، ط. بولاق .

فكم لى بالأهرام أو دير نهية
مصايد غزلان المطايد والقفر

الى جيزة الدنيا وما قد تضمنت
جزيرتها ذات المواخر والجسر

وبالمقس والبستان للعين منظر
أنيق الى شاطىء الخليج الى القصر

وفى بئر دوس مستراد وملعب
الى دير مزحنا الى ساحل البحر

فكم بين بستان الأمير وقصره
الى البركة النضراء من زهر نضر

تراها كمرآة بدت فى رفارف
من السندس الموشى تنشر للتجر

وكم ليلة لى بالقرافة خلتها
لما نلت من لذاتها ليلة القدر

وقال أحمد بن رستم بن اسفهسلار الديلمى ، يخاطب الوزير نجم الدين أبا يوسف ابن الحسين المجاور ، وتوفى فى رابع عشر ذى الحجة سنة احدى وعشرين وستمائة :

حى الديار بشاطىء مقياسها
فالمقسم الفياح بين دهاسها

فالروضتين وقد تضوع عرفها
أرج البنفسج فى غضارة آسها

فمنازل العين المنيفة أصبحت
يغنى سناها عن سنا نبراسها

فخليجها لذاته مطلوبة
تسمو محاسنه علا بأناسها

حافاته محفوفة بمنازل
نزلت بها الآرام دون كناسها

وقال العلامة جلال الدين محمد الشيرازى المعروف بامام منكلى بغا :

حيا الحيا مصرا وسكانها
وباكر الوسمى كثبانها

وجاد صوب المزن من أرضها
معاهد الأنس وأوطانها

معاهد بالأنس معمورة
لم أنس مهما عشت احسانها

كم أيقظتنى فى ذرا دوحها
عجماء لا تفقه ألحانها

وكم نعيم قد تخيلته
فيها وكم غازلت غزلانها

وعاينت عينى بها أغيدا
منعس المقلة وسنانها

تسحر بالتفتير ألحاظه
كأن من بابل شيطانها

وكم شجت قلبى بها غادة
قد كحلت بالغنج أجفانها

اذا دعت صبا الى حبها
لا يستطيع الصب عصيانها

وكم ليال لى بها قد مضت
تسحب بالاعجاب أردانها

والهف نفسى كيف شطت بها
حوادث قوضن بنيانها

فارقتها لا عن قلى صدنى
عنها فراق الروح جسمانها

واعتضت عن غزلانها والمها
نعاج جيرون وثيرانها

ياسائلى عن حالتى بعدها
هأنذا أذكر عنوانها

ما حال من فارق أصحابه
وفارق الدنيا وجيرانها

تقلب فوق الجمر أحشاؤه
تؤجج الأشواق نيرانها

والعين لا تنفك من عبرة
ترسل فوق الخد طوفانها

ياسائق النوق يبث الثرى
كمثل بث السحب تهتانها

حى ربا مصر وجناتها
وحورها العين وولدانها

ودورها الزهر وساحاتها
وبين قصريها وميدانها

وأرضها المخصب أرجاؤها
ونيلها الزاهى وخلجانها

والروضة الفيحاء تلك التى
تجلو عن الأنفس أحزانها

ومنية السيرج لا تنسها
وقرطها الأحوى وكتانها *

والتاج والخمس وجوه التى
أضحت من الأعين انسانها

وحى يابرق وجد بالجيا
جزيرة الفيل وغيطانها

وبانها الغض ونسرينها
ووردها البكر وريحانها

وظلها الضافى وأزهارها
وماءها الصافى وغدرانها

(*) ص ٣٧١ جـ١ ، ط • بولاق •

والمعهد المأنوس من ربعها
وحى أهليها وسكانها

لم أنس لا أنسى اصطباحى بها
ولا اغتباقاتى وابانها

ولا أويقات التصابى ولا
تلك الخلاعات وأزمانها

أيام لا أنفك من صبوة
أهوى اللذاذات واعلانها

أخطر تيها فى رياض الصبا
مرنح الأعطاف كسلانها

وخيل لهوى فى ميادينها
تجرجر الصبوة أرسانها

ودحتى ناضرة غضة
تعطف ريح اللهو أغصانها

حاشاى أن أنقض عهدا لها
حاشاى أن أصبح خوانها

حاشاى أن أهجرها قاليا
حاشاى أن أحدث سلوانها

حاشاى أن أرضى بديلا بها
روابى الشام وقيعانها

وماءها الثج وحصباءها
وصخرها الصلد وصوانها

قد تاقت النفس الى الفها
وحنت الأشواق أظعانها

وادكرت فى البعد أحبابها
فهيج التبريح أشجانها

وما لها غيرك من ملتجا
ياأوحد الدنيا وانسانها

ذكر ما قيل فى مدة بقاء القاهرة ووقت خرابها

قال العارف محيى الدين محمد بن العربى الطائى الحاتمى فى الملحمة المنسوبة اليه : قاهرة تعمر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وتخرب سنة ثمانين وسبعمائة .

ووقفت لها على شرح لم أعرف تصنيف من هو ، فانه لم يسم فى النسخة التى وقفت عليها ، وهو شرح لطيف قليل الفائدة ، فانه ترك كلام المصنف فيما مضى على ما هو معروف فى كتب التاريخ ، ولم يبين مراده فيما استقبل ، وكانت الحاجة ماسة الى معرفة ما يستقبل ، أكثر من المعرفة بحال ما مضى ، لكن أخبرنى غير واحد من الثقات أنه وقف لهذه الملحمة على شرح كبير فى مجلدين .

قال هذا الشارح : كانت بداية عمارة القاهرة والنيران فى شرفهما : الشمس فى برج الحمل ، والقمر فى برج الثور وهو برج ثابت ... قال : فعمر القاهرة ومدتها أربعمائة واحدى وستون سنة .

قال فى الأصل : واذا نزل زحل برج الجوزاء ، عزت الأقوات بمصر ، وقل أغنياؤهم ، وكثر فقراؤهم ، ويكون الموت فيهم ، ويخرج أهل برقة عن أوطانهم ، لاسيما اذا قارن زحل الجوزهر ، فان الحال يكون أشد وأقوى .

قال الشارح : كان ذلك فى سنة أربع وستين وستمائة ، فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، فانه نزل زحل برج الجوزاء ،

فوقع الغلاء . وفى آخر سنة أربع وأول سنة خمس وتسعين وستمائة ، فى أيام الملك العادل كتبغا ، حل زحل فى برج الجوزاء وكان معه الجوزهر ، فكانت أشد وأقوى ، وكثر الغلاء والوباء .

قال : سئل المعز عن الترك : ماهم ؟

فقال : قوم مسلمون ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الحدود والواجبات ، ويقاتلون فى سبيل الله أعداء الله .

فقيل له : أنطول مدتهم ؟

قال : لا تطول مدتهم .

قيل : فكيف يكون زوالهم ؟

قال : يكون هكذا .

وكان الى جانبه طبق كيزان ، فحركه حركة شديدة فتكسرت الكيزان ، فقال : هكذا يكون زوالهم ، يقتل بعضهم بعضا .

قال :

احذر بنى من القران العاشر

وارحل بأهلك قبل نقر الناقر

قال الشارح : أول القران العاشر فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، وفيه تكون حالات رديئة بأرض مصر ، وهذا يوافق ما فى القول عن القاهرة ، وتخرب فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ... يعنى بداية انحطاطها من سنة خمس وثمانين وسبعمائة التى فيها القران العاشر ، ويثبت فى عشرين سنة التى هى أيام القران .

وقد ذكر فى الربع * الآخر أربعمائة واحدى وستين سنة ، وقد تخيلت أنها مدة عمر القاهرة ، فاذا زدتها على تاريخ عمارتها ، بلغ ذلك ثمانمائة وتسع عشرة سنة ، وفى ذلك الوقت يكون زوالها ، وهو ما بين سنة ثمانين وسبعمائة الى سنة تسع عشرة وثمانمائة ويكون ذلك سببه قحط عظيم ، وقلة خير ، وكثرة شر حتى تتخرب ويضعف أهلها .

قال : قران زحل والمريخ فى برج الجدى يكون فى سنة سبعين وسبعمائة ، فتعد لكل مائة سنة من سنى الهجرة ثلاث سنين ، فيكون ثلاثا وعشرين سنة ، تزيدها على سبعمائة وسبعين سنة ، تبلغ سبعمائة وثلاثا وتسعين سنة ، ففى مثلها من سنى الهجرة يكون أول أوقات خراب القاهرة . انتهى .

وتهذيب هذا القول أن زحل كلما حل برج الجوزاء ، اتضعت أحوال مصر ، وقلت أموالهم ، وكثر الغلاء والفناء عندهم بحسب الأوضاع الفلكية . وزحل يحل فى برج الجوزاء كل ثلاثين سنة شمسية ، فيقيم فيه نحوا من ثلاثين شهرا .

وأنت اذا اعتبرت أمور العالم ، وجدت الحال كما ذكرنا ، فانه كلما حل زحل برج الجوزاء ، وقع الغلاء بمصر .

وذكر أن القران العاشر تتضع فيه أحوال القاهرة ، ورأينا الأمر كما ذكرنا ، فان القران العاشر كان فى سنة ست وثمانين وسبعمائة ، ومدة سنيه عشرون سنة شمسية ، آخرها سابع عشر رجب سنة سبع وثمانمائة . وفى

(*) ص ٣٧٢ جـ١ ط . بولاق *

هذه المدة اتضح حال القاهرة وأهلها اتضاعا قبيحا .

ومن الأوقات المحذورة لها أيضا اقتران زحل والمريخ فى برج السرطان ، ويكون ذلك فى كل ثلاثين سنة شمسية ، ويقترنان فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وفى مدته تنقضى الأربعمائة والاحدى والستون سنة التى ذكر أنها عمر القاهرة فى سنة تسع عشرة وثمانمائة .

وشواهد الحال اليوم تصدق ذلك ، لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر والفاقة وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة ، وقرب انقضاء مدتهم ، وغلاء سائر الأسعار .

ولقد سمعت عمن يرجع اليه فى مثل ذلك ، أن العمارة تنتقل من القاهرة الى بركة الحبش، فيصير هناك مدينة . والله تعالى أعلم .

ذكر مسالك القاهرة وشوارعها على ما هى عليه الآن

وقبل أن نذكر خطط القاهرة فلنبتدىء بذكر شوارعها ومسالكها ، المسلوك منها الى الأزقة والحارات ، لتعرف بها الحارات والخطط والأزقة والدروب ، وغير ذلك مما ستقف عليه ان شاء الله تعالى .

فالشارع الأعظم (قصبة القاهرة) من باب زويلة الى بين القصرين ، عليه باب الخرنفش أو الخرنشف ، ومن باب الخرنفش ينفرق من هنالك طريقان : ذات اليمين ويسلك منها الى الركن المخلق ورحبة باب العيد الى باب النصر ، وذات اليسار ويسلك منها الى الجامع الأقمر ، والى حارة برجوان الى باب الفتوح .

فاذ ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة ، فانه يجد يمنة الزقاق الضيق الذى يعرف اليوم بسوق الخلعيين ، وكان قديما يعرف بالخشابين ، ويسلك من هذا الزقاق الى حارة البطلية وخوخة حارة الروم البرانية .

ثم يسلك الداخل أمامه فيجد على يسرته سجن متولى القاهرة — المعروف بخزانة شمايل — وقيسارية سنقر الأشقر ودرب الصفيرة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته حمام الفاضل المعدة لدخول الرجال ، وعلى يسرته — تجاه هذه الحمام — قيسارية الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار الناصرى ، الى أن ينتهى بين الحوانيت والرباع فوقها الى باب زويلة الأول ، ولم يبق منهما سوى عقد أحدهما ، ويعرف الآن بباب القوس .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الحدادين والحجارين — المعروف اليوم بسوق الانماطيين وسكن الملاهى — والى المحمودية ، والى سوق الأخفاقيين ، وحارة الجودرية والصوافين والقصارين والفحامين وغير ذلك . ويجد تجاه هذا الزقاق عن يمينه المسجد المعروف قديما بابن البناء — وتسميه العامة الآن بسام بن نوح — وهو فى وسط سوق الغرابليين والمناخليين ومن معهم من الضببيين .

ثم يسلك أمامه فيجد سوق السراجين — ويعرف اليوم بالشوايين — وفى هذا السوق على يمينه الجامع الظافرى ، المعروف بجامع الفكاهين ، وبجانبه الزقاق المسلوك منه الى حارة الديلم وسوق القفاصين وسوق الطيوريين والأكفانيين القديمة المعروفة الآن بسكنى دقاقى الثياب . ويجد على يسرته الزقاق المسلوك منه الى حارة الجودرية ودرب كركامة ودكة الحسبة ، المعروفة قديما بسوق الحدادين ، وسوق الوراقين القديمة ، والى سوق الفاميين ، المعروف اليوم بالأبازرة ، والى غير ذلك .

ثم يسلك أمامه الى سوق الحلاويين الآن ، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الكعكيين ، المعروف قديما بالقطانين وسكنى الأساكفة ، والى بابى قيسارية جهاركس ، وعن يسرته قيسارية الشرب .

ثم يسلك * أمامه الى سوق الشرابشيين ، المعروف قديما بسكن الحالقيين ، وعن يمنته درب قيطون .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الشرابشيين ، فيجد عن يمنته قيسارية أمير على ، ويجد عن يسرته سوق الجملون الكبير ، المسلوك فيه الى قيسارية ابن قريش ، والى سوق العطارين والوراقين ، والى سوق الكفتيين والصيارف والاخفافيين ، والى بئر زويلة والبندقانيين ، والى غير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الفرايين الآن — وكان يعرف اولا بدرب البيضاء — والى درب الأسوانى والى الجامع الأزهر وغير ذلك ، ويجد عن يسرته قيسارية بنى أسامة .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الجوخيين واللجميين ، فيجد عن يمينه قيسارية السروج ، وعن يسرته قيسارية ... ... [1] .

ثم يسلك أمامه الى سوق السقطيين والمهامزيين ، فيجد عن يمينه درب الشمسى ، ويقابله باب قيسارية الأمير علم الدين الخياط ، وتعرف اليوم بقيسارية العصفر .

ثم يسلك أمامه شاقا فى السوق المذكور ، فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق القشاشين وعقبة الصباغين ، المعروف اليوم بالخراطين ، والى سوق الخيميين ، والى الجامع الأزهر وغير ذلك . ويجد قبالة هذا الزقاق عن يسرته قيسارية العنبر ، المعروفة قديما بحبس المعونة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه الى سوق الوراقين وسوق الحريريين الشرابيين ، المعروف قديما بسوق الصاغة القديمة ، والى درب شمس الدولة ، والى سوق الحريريين ، والى بئر زويلة والبندقانيين ، والى سويقة الصاحب والحارة الوزيرية ، والى باب سعادة وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه شاقا فى بعض سوق الحريريين وسوق المتعيشين — وكان قديما سكنى الدجاجين والكعكيين ، وقبل ذلك أولا

(*) ص ٣٧٣ جـ١ ، ط. بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

سكنى السيوفيين — فيجد عن يمينه قيسارية الصنادقيين ، وكانت قديما تعرف بفندق الدبابليين . ويجد عن يسرته مقابلها دار المأمون البطائحى المعروفة بمدرسة الحنفية ، ثم عرفت اليوم بالمدرسة السيوفية ، لأنها كانت فى سوق السيوفيين .

ثم يسلك أمامه فى سوق السيوفيين ، الذى هو الآن سوق المتعيشين ، فيجد عن يمينه خان مسرور وحجرتى الرقيق ، ودكة المماليك بينهما — ولم تزل موضعا لجلوس من يعرض من المماليك الترك والروم ونحوهم للبيع الى أوائل أيام الملك الظاهر برقوق ، ثم بطل ذلك — ويجد عن يسرته قيسارية الرماحين وخان الحجر ، ويعرف اليوم هذا الخط بسوق باب الزهومة .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته الزقاق والساباط المسلوك فيه الى حمام خشيبة ودرب شمس الدولة ، والى حارة العدوية المعروفة اليوم بفندق الزمام ، والى حارة زويلة وغير ذلك . ويجد بعد هذا الزقاق ، قريبا منه فى صفه ، درب السلسلة .

ومن هنا ابتداء خط بين القصرين . وكان قديما ، فى أيام الدولة الفاطمية ، مراحا واسعا ليس فيه عمارة ألبتة يقف فيه عشرة آلاف فارس .

والقصران هما موضع سكنى الخليفة : أحدهما شرقى وهو القصر الكبير ، وكان على يمنة السالك من موضع خان مسرور طالبا باب النصر وباب الفتوح . وموضعه الآن المدارس الصالحية النجمية ، والمدرسة الظاهرية الركنية ، وما فى صفها من الحوانيت والرباع الى رحبة العيد ، وما وراء ذلك الى البرقية .

ويقابل هذا القصر الشرقى القصر الغربى ، وهو القصر الصغير . ومكانه الآن المارستان المنصورى ، وما فى صفه من المدارس والحوانيت الى تجاه باب الجامع الأقمر .

فاذا ابتدأ السالك بدخول بين القصرين من جهة خان مسرور ، فانه يجد على يسرته درب السلسلة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الزقاق المسلوك فيه الى سوق الامشاطيين المقابل لمدرسة الصالحية التى للحنفية والحنابلة ، والى الزقاق الملاصق لسور المدرسة المذكورة ، المسلوك فيه الى خط الوراكشة العتيق حيث خان الخليلى وخان منجك ، والى الخوخ السبع حيث الآن سوق الأبارين ، والى الجامع الأزهر ، والى المشهد الحسينى وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق السيوفيين الآن ، فيجد على يساره دكاكين السيوفيين ، وعلى يمينه دكاكين النقليين ، ظاهر سوق الكتبيين الآن ، وعلى يساره سوق الصيارف برأس باب الصاغة ، وكان قديما مطبخ القصر قبالة باب الزهومة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه باب المدارس الصالحية تجاه باب الصاغة .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه القبة الصالحية ، وبجوارها المدرسة الظاهرية الركنية . ويجد على يساره باب المارستان

المنصورى ، وفى داخله القبة المنصورية التى فيها قبور الملوك ، وتحت شبابيكها دكك القفصيات التى فيها الخواتيم ونحوها فيما بين القبة المذكورة والمدرسة الظاهرية المذكورة ، وفى داخله أيضا المدرسة المنصورية ، وتحت شبابيكها أيضا دكك القفصيات فيما بين شبابيكها وشبابيك المدرسة الصالحية التى للشافعية والمالكية ، وتحتها خيمة الغلمان بجوار قبة الصالح ، وفى داخله أيضا المارستان الكبير المنصورى المتوصل من باب سره الى حارة زويلة ، والى الخرنشف والى الكافورى والى البندقانيين وغير ذلك .

ثم يسلك من باب المارستان ، فيجد على يمنته سوق السلاح والنشابين * الآن تحت الربع المعروف بوقف أمير سعيد ، ويجد على يسرته المدرسة الناصرية الملاصقة لمئذنة القبة المنصورية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته خان بشتاك وفوقه الربع — وعرف الآن هذا الخان بالمستخرج — ويجد على يسرته المدرسة الظاهرية الجديدة بجوار المدرسة الناصرية ، وكانت قبل انشائها مدرسة فندقا يعرف بخان الزكاة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته باب قصر بشتاك ، ويجد على يسرته المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث ، وهى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته الزقاق المسلوك فيه الى بيت أمير سلاح المعروف بقصر أمير سلاح ، وهو الأمير فخر الدين بكتاش الفخرى الصالحى النجمى ، والى دار الأمير سلار نائب السلطنة ، والى دار الطواشى سابق الدين ومدرسته التى يقال لها المدرسة السابقية .

وكان فى داخل هذا الزقاق مكان يتوصل اليه من تحت قبو المدرسة السابقية ، يعرف بالسودوس ، فيه عدة مساكن صارت كلها اليوم دارا واحدة انشاء الأمير جمال الدين الأستادار ، وكان تجاه باب المدرسة السابقية ربع تحته فرن ، ومن ورائه عدة مساكن يعرف مكانها بالحدرة ... فهدم الأمير جمال الدين المذكور الربع وما وراءه ، وحفر فيه صهريجا ، وأنشأ به عدة آدر هى الآن جارية فى أوقافه .

وكان يسلك من باب السابقية ، على باب الربع والفرن المذكورين ، الى دهليز طويل مظلم ينتهى الى باب القصر ، تجاه سور سعيد السعداء ، ومنه يخرج السالك الى رحبة باب العيد ، والى الركن المخلق ... فهدمه الأمير جمال الدين ، وجعل مكانه قيسارية ، وركب على رأس هذا الزقاق — تجاه حمام البيسرى — دربا فى داخله دروب ليصون أمواله ، وانقطع التطرق من هذا الزقاق ، وصار دربا غير نافذ .

ويجد السالك عن يسرته قبالة هذا الزقاق — وصار دربا مدربا — باب قصر البيسرية ، وقد بنى فى وجهه حوانيت بجانبها حمام البيسرى .

ومن هنا ينقسم شارع القاهرة المذكور الى طريقين : احداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات اليسار .

(*) ص ٣٧٤ جـ١ ط. بولاق .

فأما ذات اليسار فانها تتمة القصبة المذكورة . فاذا مر السالك من باب حمام الأمير بيسرى ، فانه يجد على يسرته باب الخرنشف ، المسلوك فيه الى باب سر البيسرية ، والى باب حارة برجوان الذى يقال له أبو تراب ، والى الخرنشف واصطبل القبطية ، والى الكافورى ، والى حارة زويلة ، والى البندقانيين وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد سوقا — يعرف أخيرا بالوزازين والدجاجين — يباع فيه الأوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور ، وأدركناه عامرا سوقا كبيرا ، من جملته دكان لا يباع فيها غير العصافير ، فيشتريها الصغار للعب بها . وفى هذا السوق ، على يمنة السالك ، قيسارية يعلوها ربع كانت مدة سوقا يباع فيه الكتب ، ثم صارت لعمل الجلود ، وكانت من جملة أوقاف المارستان المنصورى ، فهدمها بعض من كان يتحدث فى نظره عن الأمير أيتمش فى سنة احدى وثمانمائة ، وعمرها على ما هى عليه الآن .

وعلى يسرة السالك فى هذا السوق ربع يجرى فى وقف المدرسة الكاملية ، وكان هذا السوق يعرف قديما بالتبانين والقماحين .

ثم يمر سالكا أمامه فيجد سوق الشماعين متصلا بسوق الدجاجين ، وكان سوقا كبيرا فيه صفان عن اليمين والشمال من حوانيت باعة الشمع ... أدركته عامرا ، وقد بقى منه الآن يسير .

وفى آخر هذا السوق ، على يمنة السالك ، الجامع الأقمر ، وكان موضعه قديما سوق القماحين ، وقبالته درب الخضرى . وبجانب الجامع الأقمر من شرقيه الزقاق الذى يعرف بالمحايريين ، ويسلك فيه الى الركن المخلق وغيره ، وقبالة هذا الزقاق بئر الدلاء .

ثم يسلك المار أمامه فيجد على يمنته زقاقا ضيقا ينتهى الى دور ومدرسة تعرف بالشرابشية ، يتوصل من باب سرها الى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس .

ثم يسلك أمامه فى سوق المتعيشين ، فيجد على يسرته باب حارة برجوان .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين . وقد أدركته سوقا عظيما لا يكاد يعدم فيه شىء مما يحتاج اليه من المأكولات وغيرها ، بحيث اذا طلب منه شىء من ذلك فى ليل أو نهار وجد ، وقد خرب الآن ولم يبق منه الا اليسير .

وكان هذا السوق قديما يعرف بسوق أمير الجيوش ، وبآخره خان الرواسين ، وهو زقاق على يمنة السالك غير نافذ .

ويقابل هذا الزقاق على يسرة السالك الى باب الفتوح ، شارع يسلك فيه الى سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش ، وكان قبل اليوم يعرف بسوق الخروقيين ، ويسلك من هذا السوق الى باب القنطرة فى شارع معمور بالحوانيت من جانبيه ، ويعلوها الرباع ، وفيما بين الحوانيت دروب ذات مساكن كثيرة .

ثم يسلك أمامه من رأس سويقة أمير الجيوش ، فيجد على يمينه الجملون الصغير المعروف بجملون ابن صيرم ، وكان مسكنا للبزازين ، فيه عدة حوانيت عامرة بأصناف

الشباب أدركتها عامرة ، وفيه مدرسة ابن صيرم المعروفة بالمدرسة الصيرمية ، وفى آخره باب زيادة الجامع الحاكمى . وكان على بابها عدة حوانيت تعمل فيها الضبب التى * برسم الأبواب .

ويخرج من هذا الجملون الى طريقين : احداهما يسلك فيها الى درب الفرنجية والى دار الوكالة وشارع باب النصر ، والأخرى الى درب الرشيدى النافذ الى درب الجوانية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته شباك المدرسة الصيرمية ، ويقابله باب قيسارية خوند أردكين الأشرفية .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المرحلين ، وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج اليه فى ترحيل الجمال ، وقد خرب وبقى منه قليل . وفى هذا السوق على يسرة السالك زقاق يعرف بحارة الوراقة ، وفيه أحد أبواب قيسارية خوند المذكورة وعدة مساكن . وكان مكانه يعرف قديما باصطبل الحجرية .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته أحد أبواب الجامع الحاكمى وميضأته ، ويجد باب الفتوح القديم ، ولم يبق منه سوى عقدته وشىء من عضادته ، وبجواره شارع على يسرة السالك يتوصل منه الى حارة بهاء الدين وباب القنطرة .

ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين ، فيجد على يمينه بابا آخر من أبواب الجامع الحاكمى . ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته زقاقا بساباط ينفذ الى حارة بهاء الدين ، فيه كثير من المساكن .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه باب الجامع الحاكمى الكبير ، ويجد عن يساره فندق العادل ، ويشق فى سوق عظيم الى باب الفتوح ، وهو آخر قصبة القاهرة .

وأما ذات اليمين من شارع بين القصرين ، فان المار اذا سلك من الدرب الذى يقابل حمام البيسرى طالبا الركن المخلق ، فانه يشق فى سوق القصاصين وسوق الحصريين الى الركن المخلق ، ويباع فيه الآن النعال ، وبه حوض فى ظهر الجامع الأقمر لشرب الدواب تسميه العامة حوض النبى ، ويقابله مسجد يعرف بمراكع موسى .

وينتهى هذا السوق الى طريقين : احداهما الى بئر العظام التى تسميها العامة بئر العظمة ، ومنها ينقل الماء الى الجامع الأقمر والحوض المذكور بالركن المخلق ، ويسلك منه الى المحايريين .

والطريق الأخرى تنتهى الى الفندق المعروف بقيسارية الجلود ، ويعلوها ربع ... أنشأت ذلك خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان بن حسين . وبجوار هذه القيسارية بوابة عظيمة قد سترت بحوانيت يتوصل منها الى ساحة عظيمة هى من حقوق المنحر ، كانت خوند المذكورة قد شرعت فى عمارتها قصرا لها ، فماتت دون اكماله .

ثم يسلك أمامه فيجد الرباع التى تعلو الحوانيت ، والقيسارية المستجدة فى مكان باب القصر الذى كان ينتهى الى مدرسة سابق

(*) ص ٣٧٥ جـ١ ، ط . بولاق .

الدين وبين القصرين ، وكان أحد أبواب القصر ، ويعرف بباب الريح . وهذه الرباع والقيسارية من جملة انشاء الأمير جمال الدين الأستادار ، وكانت قبله حوانيت ورباعا ، فهدمها وأنشأها على ما هى عليه اليوم .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه مدرسة الأمير جمال الدين المذكور ، وكان موضعها خانا وظاهره حوانيت ، فبنى مكانها مدرسة وحوضا للسبيل وغير ذلك . ويقال لهذه الأماكن رحبة باب العيد ، ويسلك منها الى طريقين : احداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات اليسار .

فأما ذات اليمين فانها تنتهى الى المدرسة الحجازية ، والى درب قراصيا ، والى حبس الرحبة ، والى درب السلامى المسلوك منه الى باب العيد الذى تسميه العامة بالقاهرة ، والى المارستان العتيق ، والى قصر الشوك ودار الضرب ، والى باب سر المدارس الصالحية ، والى خزانة البنود .

ويسلك من رأس درب السلامى هذا ، فى رحبة باب العيد ، الى السفينة وخط خزانة البنود ورحبة الأيدمرى والمشهد الحسينى ودرب الملوخيا والجامع الأزهر والحارة الصالحية والحارة البرقية ، الى باب البرقية والباب المحروق والباب الجديد .

وأما ذات اليسار من رحبة باب العيد ، فان المار يسلك من باب مدرسة الأمير جمال الدين الى باب زاوية الخدام ، الى باب الخانقاه المعروفة بدار سعيد السعداء ، فيجد عن يمينه زقاقا بجوار سور دار الوزارة يسلك فيه الى خرائب تتر ، والى خط الفهادين ، والى درب ملوخيا وغير ذلك .

ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه المدرسة القراسنقرية وخانقاه ركن الدين بيبرس ، وهما من جملة دار الوزارة وما جاور الخانقاه الى باب الجوانية .

وتجاه خانقاه بيبرس الدرب الأصفر ، وهو المنحر الذى كانت الخلفاء تنحر فيه الأضاحى .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دار الأمير قزمان بجوار خانقاه بيبرس ، وبجوارهما دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير ، وقد عرفت الآن بدار خوند طولوباى زوجة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وبجوارها حمام الأمير الأعسر المذكور ... وجميع هذا من دار الوزارة . ويجد على يسرته درب الرشيدى تجاه حمام الأعسر المسلوك فيه الى درب الفرنجية وجملون ابن صيرم .

ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الشارع المسلوك فيه الى الجوانية ، والى خط الفهادين ، والى درب ملوخيا والى العطوفية . وقد خربت هذه الأماكن . ويجد على يسرته الوكالة المستجدة من انشاء الملك الظاهر برقوق .

ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته زقاقا ، يسلك فيه الى جملون ابن صيرم والى درب الفرنجية .

ثم يسلك * أمامه فيجد على يمنتـه دار الأمير شـهاب الدين أحمـد ابن خالة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ودار الأمير علم الدين سنجر الجاولى — وهمـا من حقـوق الحجر التى كانت بهـا ممـاليـك الخلفـاء وأجنادهم — ويجد على يسرته وكالة الأمير قوصون .

ثم يسلك من باب الوكالة ، فيجد مقـابل باب قاعة الجاولى خان الجاولى وبعدها باب النصر القديم . وأدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى ، وقد زال .

ويسلك منه الى رحبـة الجامع الحاكمى ، فيجد على يمنته المدرسة القاصـدية ، وعلى يسرته بابى الجامع الحاكمى ، وتجاه أحدهما الشـارع المسلوك فيـه الى حارة العبدانية وحارة العطوفية وغير ذلك . ومن باب الجامع الحـاكمى ينتهى الى باب النصر فيمـا بين حوانيت ورباع ودور .

فهذه صفة القاهرة الآن ، وستقف ان شاء الله تعالى على كيفيـة ابتـداء وضـع هذه الأماكن ، وما صارت اليـه ، وذكر التعريف بمن نسبت اليه أو عرفت به ، على ما التقطت ذلك من كتب التواريخ ومجامع الفضـلاء ، ووقفت عليه بخطوط الثقاة ، وأخبرنى بذلك من أدركته من المشيخة ، وما شاهدته من ذلك سالكا فيه سبيل التوسط فى القول بين الاكثار والاختصار . والله الموفق بمنـه وكرمه لا اله غيره .

(*) ص ٣٧٦ جـ١ ط . بولاق .

ذكر سور القاهرة

اعلم أن القاهرة مذ أسست عمـل سورها ثلاث مرات : الأولى وضـعه القائد جوهر ، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر ، والمرة الثالثـة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسـدى فى سلطنة الملك الناصر صـلاح الدين يوسف ابن أيوب أول ملوك القاهرة .

السور الأول : كان من لبن ، وضعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القـاهرة الآن ، فأداره عـلى القصر والجامع .

وذلك أنه لما سار من الجيزة ، بعـد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، بعساكره وقصد الى مناخه الذى رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واسـتقرت به الدار اختط القصر ، وأصبح المصريون يهنونه فوجدوه قد حفر الأساس فى الليـل ، فأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ... الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ونزل بها ، فسماها القاهرة .

ويقال فى سبب تسميتها ان القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين ، وعرفهـم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأسـاس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا .

فاختاروا طالعا لوضع الأساس وطالعا لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قـوائم خشب

بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : اذا تحركت الأجراس ، فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة .

فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ... فمضى ذلك ، وفاتهم ما قصدوه .

ويقال ان المريخ كان فى الطالع ، عند ابتداء وضع الأساس — وهو قاهر الفلك — فسموها القاهرة ، واقتضى نظرهم أنها لاتزال تحت القهر .

وأدخل فى دائر هذا السور بئر العظام ، وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ، وعمر القصر بترتيب ألقاه اليه المعز .

ويقال ان المعز لما رأى القاهرة لم يعجبه مكانها ، وقال لجوهر : لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغى عمارتها بهذا الجبل ... يعنى سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد المشرف على جامع راشدة .

ورتب فى القصر جميع ما يحتاج اليه الخلفاء بحيث لا تراهم الأعين فى النقلة من مكان الى مكان ، وجعل فى ساحاته البحرة والميدان والبستان ، وتقدم بعمارة المصلى بظاهر القاهرة .

وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا ، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط ، هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة ، فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا ، حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع .

وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان ، وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن ، وبينهما نحو الخمسين ذراعا . وما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبن شىء .

وجوهر هذا مملوك رومى رباه المعز لدين الله أبو تميم معد ، وكناه بأبى الحسن ، وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وصار فى رتبة الوزارة ، فصيره قائد جيوشه .

وبعثه فى صفر منها ومعه عساكر كثيرة ، فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى وغيره من الأكابر ، فسار الى تاهرت وأوقع بعدة أقوام وافتتح مدنا ، وسار الى فاس فنازلها مدة ولم ينل منها شيئا ، فرحل عنها الى سجلماسة وحارب ثائرا فأسره بها .

وانتهى فى مسيره الى * البحر المحيط ، واصطاد منه سمكا ، وبعثه فى قلة ماء الى مولاه المعز ، وأعلمه أنه قد استولى على ما مر به من المدائن والأمم حتى انتهى الى البحر المحيط ، ثم عاد الى فاس فألح عليها بالقتال الى أن أخذها عنوة ، وأسر صاحبها وحمله هو والثائر بسجلماسة فى قفصين مع هدية الى المعز ، وعاد فى أخريات السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته .

(*) ص ٣٧٧ جـ١ ، ط ، بولاق .

ثم لما قوى عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر وتهيأ أمرها ، فقدم عليها القائد جوهرا ، وبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة ألف فارس ، وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال ، وكان المعز يخرج اليه فى كل يوم ويخلو به ، وأطلق يده فى بيوت أمواله ، فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه .

وخرج اليه يوما فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش ، فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا .

وأمر المعز بافراغ الذهب فى هيئة الأرحية ، وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة ، وأمر أولاده واخوته الأمراء وولي العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا فى خدمته وهو راكب ، وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته .

فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله ومشيه فى ركابه بخمسين ألف دينار ذهبا ، فأبى جوهر الا أن يمشي فى ركابه ورد المال ، فمشى .

ولما رحل من القيروان الى مصر ، فى يوم السبت رابع عشر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، أنشد محمد بن هانى فى

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع
وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر اذ ودعت كيف أودع
ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

ألا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

اذا حل فى أرض بناها مدائنا
وان سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت المال حيث محله
وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الفخم حوله
ورق كما رق الصباح الملمع

رحلت الى الفسطاط أول رحلة
بأيمن فال بالذى أنت تجمع

فان يك فى مصر ظماء لمورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويممهم من لا يغار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

ولما دخل الى مصر واختط القاهرة ، وكتب بالبشارة الى المعز ، قال ابن هانى :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر
فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

ولم يزل معظما مطاعا ، وله حكم ما فتح من بلاد الشام حتى ورد المعز من المغرب الى القاهرة .

وكان جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من جوهر ، فلما قدم معه الى مصر سيره جوهر الى بلاد الشام فى العساكر ، فأخذ الرملة وغلب الحسن بن عبد الله بن طغج ، وسار فملك طبرية ودمشق . فلما صارت الشام له ، شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر ، فأنفذ كتبه من دمشق الى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر ، يذكر فيها طاعته ، ويقع فى جوهر ، ويصف ما فتح الله للمعز على يده .

فغضب المعز لذلك ، ورد كتبه كما هى مختومة ، وكتب اليه : قد أخطأت الرأى لنفسك ، نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر فاكتب اليه ، فما وصل منك الينا على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد ، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته وان كنت أهله عندنا ، ولكنا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا .

فزاد غضب جعفر بن فلاح ، وانكشف ذلك لجوهر ، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة خوفا ألا ينجده بعسكر ، وأقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشىء من أمره ، الى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطى ، وكان من أمره ما قد ذكر فى موضعه .

ولما مات المعز ، واستخلف من بعده ابنه العزيز ، وورد الى دمشق هفتكين الشرابى من بغداد ، ندب العزيز بالله جوهرا القائد الى الشام ، فخرج اليها بخزائن السلاح والأموال والعساكر العظيمة ، فنزل على دمشق لثمان بقين من ذى القعدة سنة خمس وستين وثلثمائة ، فأقام عليها وهو يحارب أهلها الى أن قدم الحسن بن أحمد القرمطى من الأحساء * الى الشام .

فرحل جوهر فى ثالث جمادى الأولى سنة ست وستين ، فنزل على الرملة والقرمطى فى أثره فهلك ، وقام من بعده جعفر القرمطى فحارب جوهرا ، واشتد الأمر على جوهر وسار الى عسقلان ، وحصره هفتكين بها حتى بلغ من الجهد مبلغا عظيما ، فصالح هفتكين وخرج من عسقلان الى مصر ، بعد أن أقام بها وبظاهر الرملة نحوا من سبعة عشر شهرا ، فقدم على العزيز وهو يريد الخروج الى الشام .

فلما ظفر العزيز بهفتكين ، واصطنعه فى سنة ثمانين وثلثمائة ، واصطنع منجوتكين التركى أيضا ، أخرجه راكبا من القصر وحده فى سنة احدى وثمانين ، والقائد جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة فى ركابه ، وكانت يد جوهر فى يد ابن عمار ، فزفر ابن عمار زفرة كاد أن ينشق لها وقال : لا حول ولا قوة الا بالله .

فنزع جوهر يده منه ، وقال : قد كنت عندى ياأبا محمد أثبت من هذا ، فظهر منك انكار فى هذا المقام . لأحدثنك حديثا عسى أن يسليك عما أنت فيه ، والله ما وقف على هذا الحديث أحد غيرى ...

لما خرجت الى مصر ، وأنفذت الى مولانا المعز من أسرته ، ثم حصل فى يدى آخرون

(*) ص ٢٧٨ ج١ ، ط . بولاق .

اعتقلتهم ، وهم نيف على ثلثمائة أسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم ، فلما ورد مولانا المعز الى مصر أعلمته بهم ، فقال : اعرضهم على ، واذكر فى كل واحد حاله ...

ففعلت — وكان فى يده كتاب مجلد يقرأ فيه — فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة ، وأقدمه اليه وأقول : هذا فلان ومن حاله وحاله ، فيرفع رأسه وينظر اليه ويقول : يجوز . ويعود الى قراءة مافى الكتاب ، حتى أحضرت له الجماعة ، وكان آخرهم غلاما تركيا ، فنظر اليه وتأمله ، ولما ولى أتبعه بصره ...

فلما لم يبق أحد قبلت الأرض وقلت : يامولانا ، رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركى ما لم تفعله مع من تقدمه ...

فقال : ياجوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى . انه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة فى بلاد كثيرة ، ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره .

وأنا أظن أنه ذاك الذى قال لى مولانا المعز ، ولا علينا اذا فتح الله لموالينا على أيدينا أو على يد من كان ...

ياأبا محمد لكل زمان دولة ورجال ، أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى مولانا المعز ، لما سرت الى مصر ، أولاده واخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك ، وهاأنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين . أعزونا وأعزوا بنا غيرنا ، وبعد هذا فأقول : اللهم قرب أجلى ومدتى ، فقد أنفت على الثمانين أو أنا فيها .

فمات فى تلك السنة . وذلك أنه اعتل ، فركب اليه العزيز بالله عائدا ، وحمل اليه قبل ركوبه خمسة آلاف دينار ومرتبة مثقل ، وبعث اليه الأمير منصور بن العزيز بالله خمسة آلاف دينار .

وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى القعدة سنة احدى وثمانين وثلثمائة . فبعث اليه العزيز بالحنوط والكفن ، وأرسل اليه الأمير منصور بن العزيز أيضا الكفن ، وأرسلت اليه السيدة العزيزية الكفن ، فكفن فى سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشى مذهب ، وصلى عليه العزيز بالله ، وخلع على ابنه الحسين وحمله ، وجعله فى مرتبة أبيه ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه .

وكان جوهر عاقلا ، محسنا الى الناس ، كاتبا بليغا . فمن مستحسن توقيعاته على قصة رفعت اليه بمصر : « سوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الايجاب ، واللازم لكم ملازمة الاحتساب ، لأنكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة الا تقتضى الذم لكم والاعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم » .

ولما مات رثاه كثير من الشعراء .

السور الثانى : بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة ، وزاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة

الكبير ، وفيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن ، وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الآن الى باب النصر ، وجعل السور من لبن ، وأقام الأبواب من حجارة .

وفى نصف جمادى الآخرة سنة ثماني عشرة وثمانمائة ، ابتدىء بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج ، عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه ، فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع .

السور الثالث : ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسمائة ، وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله . فلما كانت سنة تسع وستين وقد استولى على المملكة ، انتدب لعمل السور الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن .

وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا ، فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة الى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية الى باب البحر .

وبنى قلعة المقس وهي برج كبير ، وجعله على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك ، وكان فى أمله مد السور من المقس الى أن يتصل * بسور مصر .

وزاد فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ، ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير ، ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته . والى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور الى جهة القلعة . وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر .

وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع وذراعين بذراع العمل ، وهو الذراع الهاشمى : من ذلك ما بين قلعة المقس على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ، ومن قلعة المقس الى حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ، ومن وراء القلعة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبراجه من النيل الى النيل .

وقلعة المقس المذكورة كانت برجا مطلا على النيل فى شرقى جامع المقس ، ولم تزل الى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسي عندما جدد الجامع المذكور فى سنة سبعين وسبعمائة ، وجعل فى مكان البرج المذكور جنينته وذكر أنه وجد فى البرج مالا ، وأنه انما جدد الجامع منه ، والعامة تقول اليوم جامع المقسى بالاضافة .

وكان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح الى المقس فى المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وكان أيضا

(*) ص ٣٧٩ جـ١ ع ط . بولاق .

من الجهة الشرقية خارج باب النصر الى باب البرقية وما بعده . وشاهدت آثار الخندق باقية ، ومن ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنى بالحجارة ، الا أن الخندق انطم ، وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه .

وهذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه الى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقال : والله يحيى المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فما عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتحلى بغير منطقة نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وأمنوا به من يد تتخطف ، ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف .

ذكر أبواب القاهرة

وكان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة . ومن جهتها البحرية بابان متباعدان : أحدهما باب الفتوح ، والآخر باب النصر . ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة : أحدها يعرف الآن بباب البرقية ، والآخر بالباب الجديد ، والآخر بالباب المحروق . ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب : باب القنطرة ، وباب الفرج ، وباب سعادة ، وباب آخر يعرف بباب الخوخة .

ولم تكن هذه الأبواب على ما هى عليه الآن ، ولا فى مكانها عند ما وضعها جوهر .

باب زويلة

كان باب زويلة ، عندما وضع القائد جوهر القاهرة ، بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح . فلما قدم المعز الى القاهرة دخل من أحدهما — وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه الى اليوم عقد ، ويعرف بباب القوس — فتيامن الناس به ، وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه ، وهجروا الباب المجاور له ، حتى جرى على الألسنة أن من مر به لا تقضى له حاجة .

وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم ، الا أنه يفضى الى الموضع الذى يعرف اليوم بالحجارين ، حيث تباع آلات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوهما ، والى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة ، ويقول بعضهم : من أجل أن هنالك آلات المنكر ، وأهل البطالة من المغنين والمغنيات .

وليس الأمر كما زعم ، فان هذا القول جار على ألسنة أهل القاهرة من حين دخل المعز اليها ، قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف ، وموضعا لجلوس أهل المعاصى .

فلما كان فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، بنى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وزير الخليفة المستنصر بالله ، باب زويلة الكبير الذى هو باق الى الآن وعلى أبراجه ، ولم يعمل له باشورة — كما هى عادة أبواب الحصون من أن يكون فى كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار ،

ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة — لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة ، بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت خوائم الخيل على الصوان .

فلم تزل هذه الزلافة باقية الى أيام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فاتفق مروره من هنالك ، فاختل فرسه وزلق به * وأحسبه سقط عنه ، فأمر بنقضها فنقضت ، وبقى منها شىء يسير ظاهر .

فلما ابتنى الأمير جمال الدين يوسف الأستادار المسجد المقابل لباب زويلة ، وجعله باسم الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، ظهر عند حفره الصهريج الذى به بعض هذه الزلافة ، وأخرج منها حجارة من صوان لا تعمل فيها العدة الماضية ، وأشكالها فى غاية من الكبر لا يستطيع جرها الا أربعة أروس بقر ، فأخذ الأمير جمال الدين منها شيئا . والى الآن حجر منها ملقى تجاه قبو الخرنشف من القاهرة .

ويذكر أن ثلاثة اخوة قدموا من الرها ، بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح ، كل واحد بنى بابا ، وأن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأن باب الفتوح بنى فى سنة ثمانين وأربعمائة .

وقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » أن باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار بن المعز ، وتممه أمير الجيوش . وأنشد لعلى بن محمد النيلى :

ياصاح لو أبصرت باب زويلة
لعلمت قدر محله بنيانا

باب تأزر بالمجرة وارتدى الـ
شعرى ولاث برأسه كيوانا

لو ان فرعونا بناه لم يرد
صرحا ولا أوصى به هامانا

وسمعت غير واحد يذكر أن فردتيه يدوران فى سكرجتين من زجاج .

وذكر جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون ، أن فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة رتب أيدكين — والى القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون — على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر .

وقد أخبرنى من طاف البلاد ، ورأى مدن المشرق ، أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة ، ولا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه .

ومن تأمل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه ، فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه .

وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير . هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة ، وعمر على البدنتين منارتين . ولذلك خبر تجده فى ذكر الجوامع عند ذكر الجامع المؤيدى .

(*) ص٣٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

باب النصر

كان باب النصر أولا دون موضعه اليوم . وأدركت قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة . ولذلك تجد فى أخبار الجامع الحاكمى أنه وضع خارج القاهرة .

فلما كان فى أيام المستنصر ، وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، وتقلد وزارته وعمر سور القاهرة ، نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة أدركت بعضها ... الى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر ، فهدمته وأقامت السبيل مكانه .

وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى فى أعلاه « لا اله الا الله محمد رسول الله ، على ولى الله ، صلوات الله عليهما » .

باب الفتوح

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن ، وبقى منه الى يومنا هذا عقده وعضادته اليسرى ، وعليه أسطر من الكتابة بالكوفى ، وهو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى .

وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح ، فانه من وضع أمير الجيوش ، وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح .

أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى : كان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ، فلذلك عرف بالجمالى ، وما زال يأخذ بالجد من زمن سبيه فيما يباشره ، ويوطن نفسه على قوة العزم ، ويتنقل فى الخدم حتى ولى امارة دمشق ، من قبل المستنصر ، فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة .

ثم سار منها كالهارب فى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الأحد سادس شعبان سنة ثمان وخمسين ، فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان ، فخرج فى شهر رمضان سنة ستين وأربعمائة ، فثار العسكر وأخربوا قصره ، وتقلد نيابة عكا .

فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن ، والأحوال بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد شغبت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لا مطمع فيه ، ولواتة قد ملكت الريف ، والصعيد بأيدى العبيد ، والطرقات قد * انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة .

فلما قتل بلدكوش ناصر الدولة حسين بن حمدان ، كتب المستنصر اليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر ، ولا يبقى أحدا من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر الى ذلك .

(*) ص٣٨١ جـ١ ، ط. بولاق .

فاستخدم معه عسكرا ، وركب البحر من عكا فى أول كانون ، وسار بمائة مركب ، بعد أن قيل له ان العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه وخوف التلف ، فأبى عليهم وأقلع ، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما ، حتى كثر التعجب من ذلك ، وعد من سعادته .

فوصل الى تنيس ودمياط ، واقترض المال من تجارها ومياسيرها . وقام بأمر ضيافته وما يحتاج اليه من الغلال سليمان اللواتى كبير أهل البحيرة . وسار الى قليوب فنزل بها وأرسل الى المستنصر يقول : لا أدخل الى مصر حتى تقبض على بلدكوش — وكان أحد الأمراء ، وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان — فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة البنود .

فقدم بدر عشية الأربعاء ، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس وستين وأربعمائة ، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة .

وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الأمراء علم من استدعائه ، فما منهم الا من أضافه وقدم اليه ... فلما انقضت نوبهم فى ضيافته ، استدعاهم الى منزله فى دعوة صنعها لهم ، وبيت مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فانهم لابد يحتاجون الى الخلاء ، فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هنالك ، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه ، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الأمراء اليه ، وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين ، فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء ، وصارت رؤوسهم بين يديه .

فقويت شوكته ، وعظم أمره ، وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور ، وقلده وزارة السيف والقلم ، فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده ، وزيد فى ألقابه « أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » ، وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحدا حتى قتله ، وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة .

ثم خرج الى الوجه البحرى ، فأسرف فى قتل من هنالك من لواتة ، واستصفى أموالهم ، وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل ، وصار الى البر الشرقى فقتل منه كثيرا من المفسدين .

ونزل الى الاسكندرية ، وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد ، فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

ثم سار الى الصعيد ، فحارب جهينة والثعالبة ، وأفنى أكثرهم بالقتل ، وغنم من الأموال ما لا يعرف قدره كثرة ... فصلح به حال الاقليم بعد فساده .

ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية ، فسارت اليها غير مرة وحاربت أهلها ، ولم يظفر منها بطائل ، واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده .

فلما كان فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، مات فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادى الأولى منها .

وقد تحكم فى مصر تحكم الملوك ، ولم يبق للمستنصر معه أمر ، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط . وكان شديد الهيبة ، وافر الحرمة ، مخوف السطوة .

قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها ، منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف انسان ، الى غير ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر ... الا أنه عمر البلاد ، وأصلحها بعد فسادها وخرابها باتلاف المفسدين من أهلها . وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة .

وكانت له محاسن : منها أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا فى أيامه ، ومنها حضور التجار الى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها فى أيام الشدة ، ومنها كثرة كرمه .

وكانت مدة أيامه بمصر احدى وعشرين سنة ، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر .

ومن آثاره الباقية بالقاهرة : باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر .

وقام من بعده بالأمر ابنه شاهنشاه ، الملقب بالأفضل ابن أمير الجيوش ، وبه وبابنه الأفضل أبهة الخلفاء الفاطمية بعد تلاشى أمرها ، وعمرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها .

وأظنه هو الذى أخبر عنه المعز فيما تقدم من حكاية جوهر عنه ، فانه لم يتفق ذلك لأحد من رجال دولتهم غيره . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

باب القنطرة

عرف بذلك لأن جوهرا القائد بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ، ليمشى عليها الى المقس عند مسير * القرامطة الى مصر فى شوال سنة ستين وثلثمائة .

باب الشعرية

يعرف بطائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية ، هم ومزانة وزيارة وهوارة من أحلاف لواتة الذين نزلوا بالمنوفية .

باب سعادة

عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله ، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القائد جوهر القاهرة نزل بالجيزة ، وخرج جوهر الى لقائه ، فلما عاين سعادة جوهرا ترجل ، وسار الى القاهرة فى رجب سنة ستين وثلثمائة ، فدخل اليها من هذا الباب فعرف به ، وقيل له باب سعادة .

ووافى سعادة هذا القاهرة بجيش كبير معه . فلما كان فى شوال سيره جوهر فى عسكر مجر عند ورود الخبر من دمشق بمجىء

(*) ص٣٨٢ جـ١ ، ط.بولاق .

الحسين بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم ، الى الشام ، وقتل جعفر بن فلاح . فسار سعادة يريد الرملة ، فوجد القرمطي قد قصدها ، فانحاز بمن معه الى يافا ورجع الى مصر .

ثم خرج الى الرملة ، فملكها فى سنة احدى وستين ، فأقبل اليه القرمطي ، ففر منه الى القاهرة ، وبها مات لخمس بقين من المحرم سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وحضر جوهر جنازته ، وصلى عليه الشريف أبو جعفر مسلم ، وكان فيه بر واحسان .

البــاب المحروق

كان يعرف قديما بباب القراطين . فلما زالت دولة بنى أيوب ، واستقل بالملك الملك المعز عز الدين أيبك التركماني ، أول من ملك من المماليك بمملكة مصر فى سنة خمسين وستمائة ، كان حينئذ أكبر الأمراء البحرية — مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب — الفارس أقطاى الجمدار ، وقد استفحل أمره ، وكثرت أتباعه ، ونافس المعز أيبك ، وتزوج بابنة الملك المظفر صاحب حماة ، وبعث الى المعز بأن ينزل من قلعة الجبل ويخليها له حتى يسكنها بامرأته المذكورة .

فقلق المعز منه ، وأهمه شأنه ، وأخذ يدبر عليه ، فقرر مع عدة من مماليكه أن يقفوا بموضع من القلعة عينه لهم ، واذا جاء الفارس أقطاى فتكوا به ، وأرسل اليه وقت القائلة يستدعيه ليشاوره فى أمر مهم . فركب فى قائلة يوم الاثنين حادى عشر شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة فى نفر من مماليكه ، وهو آمن مطمئن بما صار له فى الأنفس من الحرمة والمهابة ، وبما يثق به من شجاعته . فلما صار بقلعة الجبل وانتهى الى قاعة العواميد ، عوق من معه من المماليك عن الدخول معه ، ووثب به المماليك الذين أعدهم المعز ، وتناولوه بالسيوف فهلك لوقته ، وغلقت أبواب القلعة وانتشر الصوت بقتله فى البلد .

فركب أصحابه وخشداشيته — وهم نحو السبعمائة فارس — الى تحت القلعة ، وفى ظنهم أن الفارس أقطاى لم يقتل ، وانما قبض عليه السلطان ، وأنهم يقاتلونه حتى يطلقه لهم ، فلم يشعروا الا برأس الفارس أقطاى وقد ألقيت عليهم من القلعة ، فانفضوا لوقتهم ، وتواعدوا على الخروج من مصر الى الشام . وأكابرهم يومئذ بيبرس البندقدارى ، وقلاوون الألفى ، وسنقر الأشقر ، وبيسرى ، وسكر ، وبرامق .

فخرجوا فى الليل من بيوتهم بالقاهرة الى جهة باب القراطين — ومن العادة أن تغلق أبواب القاهرة بالليل — فألقوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه ، فقيل له من ذلك الوقت « الباب المحروق » ، وعرف به .

وأما القوم فانهم ساروا الى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب الشام ، فقبلهم وأنعم عليهم ، وأقطعهم اقطاعات ، واستكثر بهم .

وأصبح المعز وقد علم بخروجهم الى الشام ، فأوقع الحوطة على جميع أموالهم ونسائهم وأولادهم وعامة تعلقاتهم وسائر

أسبابهم ، وتتبعهم ونادى عليهم فى الأسـواق بطلب البحرية ، وتحذير العامة من اخفائهم ، فصار اليه من أموالهم ما ملأ عينه .

واستمرت البحرية فى الشام الى آن قتـل المعز أيبك ، وخلع ابنه المنصور ، وتسلطن الأمير قطز ، فتراجعوا فى أيامه الى مصر ، وآلت أحوالهم الى أن تسلطن منهم بيبـرس وقلاوون . ولله عاقبة الأمور .

باب البرقيـة

... ... [1] .

ذكر قصور الخلفاء ومناظرهم والالماع بطرف من مآثرهم ، وما صارت اليه احوالهـا من بعدهم

اعلم آنه كان للخلفاء الفـاطميين بالقـاهرة وظواهرها قصور ومناظر : منها القصر الكبير الشرقى الذى وضعه القـائد * جوهر عندما أناخ فى موضع القاهرة ، ومنها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الأقيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشـوك ، وقصر الزمـرذ ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر .

وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ، ويقال لها القصور الزاهرة ، ويسمى مجموعها القصر . وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافورى .

وكان لهم عدة مناظر وآدر سلطانيـة غير هذه القصـور : منها دار الضـيافة ، ودار الوزارة ، ودار الـوزارة القـديمة ، ودار الضرب ، والمنظرة بالجامع الأزهر ، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ، ومنظرة الغزالة ، ودار الذهب ، ومنظـرة المقس ، ومنظـرة الدكة والبعل ، والخمس وجوه والتـاج ، وقبـة الهواء ، والبساتين الجيوشـية ، والبسـتان الكبير ، ومنظرة السكرة ، والمنظرة ظاهر باب الفتوح ، ودار الملك بمدينـة مصر ، ومنازل العز بها ، ومنظرة الصناعة بالساحل ، ومنظرة بجـوار جامع القرافة الـكبرى — المعروف اليوم بجامع الأولياء — والأندلس بالقرافة ، والمنظرة ببركة الحبش .

وسأذكر من أخبـار هذه الأماكن فى مدة الدولة الفاطمية ، وما آل اليـه حالها بحسب ما انتهى الى علمه ان شاء الله تعالى .

القصر الـكبير

هذا القصر كان فى الجهـة الشرقيـة من القـاهرة ، فلذلك يقـال له القصر الـكبير الشرقى ، ويسـمى القصر المعزى لأن المعز لدين الله أبا تميم معدا هو الذى أمر عبـده وكاتبه جوهرا ببنائه حين سيره من رمادة ، أحد بلاد أفريقية ، بالعساكر الى مصر ، وألقى اليه ترتيبه ، فوضعه على الترتيب الذى رسمه له .

ويقال ان جوهرا لما أسسه فى الليلة التى أناخ قبلها فى موضعه ، وأصـبح رأى فيـه أزورارات غير معتدلة لم تعجبه ، فقيل له فى

(١) هكذا بياض فى الأصل .

(*) ص٣٨٢ ج١ ، ط. بولاق .

تغييرها ، فقال : قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة ... فتركه على حاله .

وكان ابتداء وضعه ، مع وضع أساس سور القاهرة ، فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وركب عليه بإبان يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، ثم انه أدار عليه سورا محيطا به فى سنة ستين وثلثمائة .

وهذا القصر كان دار الخلافة ، وبه سكن الخلفاء الى آخر أيامهم . فلما انقرضت الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أخرج أهل القصر منه ، وأسكن فيه الأمراء . ثم خرب أولا فأولا .

وذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » ، عن مرهف بواب باب الزهومة ، أنه قال : اعلم هذا الباب المدة الطويلة ، وما رأيته دخل اليه حطب ، ولا رمى منه تراب .

قال : وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه .

قال : ولما أخذه صلاح الدين ، وأخرج من كان به ، كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ، ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان ، وكانت تعرف بدار الضيافة .

قال : ووجد الى جانب القصر بئر تعرف ببئر الصنم ، كان الخلفاء يرمون فيها القتلى ، فقيل ان فيها مطلبا وقصد تغويرها ، فقيل انها معمورة بالجان ، وقتل عمارها جماعة من أشياعه ، فردمت وتركت ... انتهى .

وكان صلاح الدين لما أزال الدولة أعطى هذا القصر الكبير لأمراء دولته ، وأنزلهم فيه فسكنوه ، وأعطى القصر الصغير الغربى لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فسكنه ، وفيه ولد له ابنه الكامل ناصر الدين محمد .

وكان قد أنزل والده نجم الدين أيوب بن شادى فى منظرة اللؤلؤة .

ولما قبض على الأمير داود ابن الخليفة العاضد — وكان ولى عهد أبيه ، وينعت بالحامد لله — اعتقله وجميع اخوته ، وهم أبو الأمانة جبريل ، وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم ، وسليمان بن داود بن العاضد ، وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد ، واسماعيل ابن العاضد ، وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل ، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة .

فلم يزالوا فى الاعتقال بدار المظفر وغيرها ، الى أن انتقل الكامل محمد بن العادل من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل ، فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه ، واعتقلهم بها ، وفيها مات داود بن العاضد . ولم يزل بقيتهم معتقلين بالقلعة .

الى أن استبد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فأمر فى سنة ستين بالاشهاد على كمال الدين اسماعيل بن العاضد ، وعماد الدين أبى القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد ، وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد : أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير ، والموضع المعروف بالتربة باطنا

وظاهرا بخط الخوخ السبع ، وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعي بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بخزائن السلاح السلطانية وما هو بحطه ، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ * الشيوخ وغيرهم ، من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية ، وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربى ، وجميع الموضع المعروف بدار القنطرة بخط المشهد الحسينى ، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان ، وجميع الموضع المعروف بدار الذهب بظاهر القاهرة ، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة ، وجميع قصر الزمرذ ، وجميع البستان الكافورى ... ملك لبيت المال ، بالنظر المولوى السلطانى الملكى الظاهرى ، من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه ، ولا لواحد منهم فى ذلك ولا فى شيء منه ولاء ولا شبهة ، بسبب يد ولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها ، خلا ما فى ذلك من مسجد لله تعالى ، أو مدفن لآبائهم .

فأشهدوا عليهم بذلك ، وورخوا الاشهاد بالثالث عشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة ، وأثبت على يد قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعى . وتقرر مع المذكورين أنه مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم واتصلوا اليه ، يحاسبوا به من جملة ما تحرر ثمنه عند وكيل بيت المال .

(*) ص٣٨٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة ، وغيرها مما هو منسوب الى آبائهم ، ورسم ببيع ذلك ، فباعه وكيل بيت المال كمال الدين ظافر شيئا بعد شيء . ونقضت تلك المبانى ، وابتنى فى مواضعها على غير تلك الصفة من المساكن وغيرها ، كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها :

قاعة الذهب : وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب ، وهو أحد قاعات القصر الذى هو قصر المعز لدين الله معد .

وبنى قصر الذهب العزيز بالله نزار بن المعز ، وكان يدخل اليه من باب الذهب الذى كان مقابلا للدار القطبية التى هى اليوم المارستان المنصورى ، ويدخل اليه أيضا من باب البحر الذى هو الآن تجاه المدرسة الكاملية . وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

وبهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس فى الموكب يوم الاثنين ويوم الخميس . وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للأمراء وسماط العيدين . وبها كان سرير الملك .

هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك : قال الفقيه أبو محمد الحسن بن ابراهيم بن زولاق فى كتاب « سيرة المعز » : وكان وصول المعز لدين الله الى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين

وثلثمائة . ولما وصل الى قصره خر ساجدا ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل معه .

واستقر فى قصره بأولاده وحشمه وخواص عبيده . والقصر يومئذ يشتمل على ما فيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم ، وبيت المال بحاله بما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك .

وللنصف من رمضان جلس المعز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله عبده القائد جوهر فى الايوان الجديد ، وأذن بدخول الأشراف أولا ، ثم أذن بعدهم للأولياء ولسائر وجوه الناس . وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدم الناس قوما بعد قوم .

ثم مضى القائد جوهر ، وأقبل بهديته التى عباها ظاهرة يراها الناس ، وهى : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر ، واحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق والفرش منها تسعة بديباج مثقل ، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل ، وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلا للنقل ، وتسعون نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها ، وفيها أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاشية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة ما بين سفط وتخت فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر .

وفى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على ايوان قصره ، وسعتها اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها اثنا عشر هلال ذهب ، فى كل هلال أترجة ذهب مسبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرذ أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق ، يراها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصبها عدة فراشين ، وجروها لثقل وزنها .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك » : ان وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال ، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد البازورى من الذهب أيضا ثلاثون ألف مثقال ، وانه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه .

وذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهبا وعشرين ألف درهم مخرقة ، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه ، وأن فى الشمسية التى لم تتم من الذهب * سبعة عشر ألف مثقال .

وقال المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهرى القيسرانى الكاتب المصرى فى كتاب

(*) ص٣٨٥ جـ١ ، ط. بولاق .

« نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » الفاطمية والصلاحية (الفصل العاشر فى ذكر هيئتهم فى الجلوس العام بمجلس الملك) : ولا يتعدى ذلك يومى الاثنين والخميس ، ومن كان أقرب الناس اليهم ، ولهم خدم لا تخرج عنهم ، وينتظر لجلوس الخليفة أحد اليومين المذكورين ، وليس على التوالى بل على التفاريق .

فاذا تهيأ ذلك فى يوم من هذه الأيام ، استدعى الوزير من داره صاحب الرسالة على الرسم المعتاد فى سرعة الحركة ، فيركب فى أبهته وجماعته على الترتيب المقدم ذكره (يعنى فى ذكر الركوب أول العام ، وسيأتى ان شاء الله تعالى فى موضعه من هذا الكتاب) ، فيسير من مكان ترجله عن دابته بدهليز العمود الى مقطع الوزارة ، وبين يديه أجلاء أهل الامارة ... كل ذلك بقاعة الذهب التى كان يسكنها السلطان بالقصر .

وكان الجلوس قبل ذلك بالايوان الكبير — الذى هو خزائن السلاح — فى صدره على سرير الملك ، وهو باق فى مكانه الى الآن من هذا المكان الى آخر أيام المستعلى .

ثم ان الآمر نقل الجلوس الى هذا المكان ، واسمه مكتوب بأعلى باذهنجه الى اليوم .

ويكون المجلس المذكور معلقا فيه ستور الديباج شتاء والديبقى صيفا ، وفرش الشتاء بسط الحرير — عوضا عن الصوف — مطابقا لستور الديباج ، وفرش الصيف مطابقا لستور الديبقى ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل ، وفى صدره المرتبة المؤهلة لجلوسه فى هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبى ، فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه .

فاذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من المقطع الى باب المجلس المذكور — وهو مغلق وعليه ستر — فيقف بحذائه ، وعن يمينه زمام القصر ، وعن يساره زمام بيت المال .

فاذا انتصب الخليفة على المرتبة ، وضع أمين الملك مفلح — أحد الأستاذين المحنكين الخواص — الدواة مكانها من المرتبة ، وخرج من المقطع الذى يقال له « فرد الكم » ، فاذا الوزير واقف أمام باب المجلس ، وحواليه الأمراء المطوقون أرباب الخدم الجليلة وغيرهم ، وفى خلالهم قراء الحضرة .

فيشير صاحب المجلس الى الأستاذين ، فيرفع كل منهم جانب الستر ، فيظهر الخليفة جالسا بمنصبه المذكور ، فتستفتح القراء بقراءة القرآن الكريم ، ويسلم الوزير بعد دخوله اليه ، فيقبل يديه ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن ، وتطرح له مخدة تشريفا .

ويقف الأمراء فى أماكنهم المقررة : فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبى الباب يمينا ويسارا ، ويليهم من خارجه لاصقا بعتبته زمام الامرية والحافظية كذلك ، ثم برتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لا يتعدى مكانه ... هكذا الى آخر الرواق ، وهو الافريز العالى عن أرض القاعة ، ويعلوه الساباط على عقود القناطر التى على العهد هناك .

ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة كذلك ، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة ، ويقف مستندا للصدر الذي يقابل باب المجلس بواب الباب والحجاب . ولصاحب الباب في ذلك المحل الدخول والخروج ، وهو الموصل عن كل قائل ما يقول .

فاذا انتظم ذلك النظام ، واستقر بهم المقام ، فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضي القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام ، فيجيز صاحب الباب القاضي دون من معه ، فيسلم متأدبا ، ويقف قريبا . ومعنى الأدب في السلام أنه يرفع يده اليمنى ، ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام .

ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم ، وهو من الأستاذين المحنكين . وبالأشراف الطالبيين نقيبهم ، وهو من الشهود المعدلين ، وتارة يكون من الأشراف المميزين . فيمضي عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث .

ويخص بالسلام في ذلك الوقت من خلع عليه لقوص أو الشرقية أو الغربية أو الاسكندرية ، فيشرفون بتقبيل القبة .

فان دعت حاجة الوزير الى مخاطبة الخليفة في أمر ، قام من مكانه وقرب منه منحنيا على سيفه ، فيخاطبه مرة أو مرتين .

ثم يؤمر الحاضرون فيخرجون ، حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ، ويخرج فيركب على عادته الى داره وهو مخدوم بأولئك .

ثم يرخى الستر ويغلق باب المجلس الى يوم مثله ، فيكون الحال كما ذكر ، ويدخل الخليفة الى مكانه المستقر فيه ومعه خواص أستاذيه .

وكان أقرب الناس الى الخلفاء الأستاذون المحنكون ، وهم أصحاب الأنس لهم ، ولهم من الخدم ما لا يتطرق اليه سواهم ، ومنهم زمام القصر ، وشاد التاج الشريف ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الدفتر ، وصاحب الرسالة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ، وهم المطلعون على أسرار الخليفة .

وكانت لهم طريقة محمودة في بعضهم بعضا منها أنه متى ترشح أستاذ للتحنيك وحنك ، حمل اليه كل * واحد من المحنكين بدلة من ثياب ومنديلا وفرشا وسيفا ، فيصبح لاحقا بهم وفي يديه مثل ما في أيديهم

وكان لا يركب أحد في القصر الا الخليفة ، ولا ينصرف ليلا ونهارا الا كذلك ، وله في الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الاناث ، للجواز في السراديب القصيرة الأقباء ، والطلوع على الزلاقات الى أعالي المناظر والأماكن .

وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق في الليل .

(*) ص٣٨٦ جـ١ ، ط. بولاق .

كيفية سماط شهر رمضان بهذه القاعة

قال ابن الطوير : فاذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان ، رتب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر الى السادس والعشرين منه ، ويستدعى له قاضي القضاة ليالى الجمع توقيرا له ، فأما الأمراء ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة ، ولا يحرمونهم الافطار مع أولادهم وأهاليهم ، ويكون حضورهم بمسطور يخرج الى صاحب الباب واسفهسلاره ، فيعرف صاحب كل نوبة ليلته فلا يتأخر . ويحضر الوزير فيجلس صدره ، فان تأخر كان ولده أو أخوه ، وان لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب .

ويهتم فيه اهتماما عظيما تاما بحيث لا يفوته شيء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائقة ، وهو مبسوط فى طول القاعة ، ماد من الرواق الى ثلثى القاعة المذكورة . والفراشون قيام لخدمة الحاضرين وحواشى الأستاذين ، يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين .

ويكون انفصالهم العشاء الآخرة ، فيعمهم ذلك ويصل منه شيء الى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ، ويأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة .

فاذا حضر الوزير ، أخرج اليه مما هو بحضرة الخليفة ، وكانت يده فيه ، تشريفا له وتطبيبا لنفسه ، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر .

ثم يتفرق الناس الى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين .

قال : ومبلغ ما ينفق فى شهر رمضان لسماطه ، مدة سبعة وعشرين يوما ، ثلاثة آلاف دينار .

عمل سماط عيد الفطر بهذه القاعة

قال الأمير المختار عز الملك بن عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عبد العزيز المسيحى فى تاريخه الكبير : وفى آخر يوم منه (يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة) حمل يانس الصقلبى ، صاحب الشرطة السفلى ، السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل حلوى ، وحمل أيضا على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر .

وقال ابن الطوير : فأما الأسمطة الباطنة التى يحضرها الخليفة بنفسه ، ففى يوم عيد الفطر اثنان ، ويوم عيد النحر واحد .

فأما الأول من عيد الفطر ، فانه يعبى فى الليل بالايوان قدام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ، فيمد ما مقداره ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، من الخشكنان والفانيذ والبسندود ، المقدم ذكر عمله بدار الفطرة .

فاذا صلى الفجر فى أول الوقت ، حضر اليه الوزير وهو جالس فى الشباك ، ومكن الناس من ذلك الممدود ، فأخذ وحمل ونهب . فيأخذه من يأكله فى يومه ، ومن يدخره لغده ، ومن لا حاجة له به فيبيعه ، ويتسلط عليه أيضا حواشى القصر المقيمون هناك .

فاذا فرغ من ذلك وقد بزغت الشمس ، ركب من باب الملك بالايوان ، وخرج من باب العيد الى المصلى والوزير معه — كما وصفنا فى هيئة ركوب هذا العيد فى فصله — مخليا لقاعة الذهب لسماط الطعام .

فينصب له سرير الملك قدام باب المجلس فى الرواق ، وينصب فيه مائدة من فضة — ويقال لها المدورة — وعليها أوانى الفضيات والذهبيات والصينى الحاوية للأطعمة الخاص ، الفائحة الطيب الشهية ، من غير خضراوات ، سوى الدجاج الفائق المسمن المعمول بالأمزجة الطيبة النافعة .

ثم ينصب السماط أمام السرير الى باب المجلس قبالته — ويعرف بالمحول — طول القاعة ، وهو اليوم الباب الذى يدخل منه اليها من باب البحر ، الذى هو باب القصر اليوم .

والسماط خشب مدهون شبه الدكك اللاطية ، فيصير من جمعه للأوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول وبعرض عشرة أذرع ، فيفرش فوق ذلك الأزهار ، ويرص الخبز على حافتيه سواميذ ، كل واحد ثلاثة أرطال من نقى الدقيق ، ويدهن وجهها عند خبزها بالماء ، فيحصل لها بريق ويحسن منظرها .

ويعمر داخل ذلك السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا : فى كل طبق أحد وعشرون ثنيا سمينا مشويا ، وفى كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلثمائة وخمسون طائرا ، فيبقى طائلا مستطيلا ، فيكون كقامة الرجل الطويل ، ويسور بشرائح الحلواء اليابسة ، ويزين بألوانها المصبغة .

ثم يسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات ، وهى مترعة بالألوان الفائقة من الحلواء * المائعة والطباهجة المشققة ، والطيب غالب على ذلك كله ، فلا يبعد أن تناهز عدة الصحون المذكورة خمسمائة صحن ، ويرتب ذلك أحسن ترتيب من نصف الليل بالقاعة الى حين عود الخليفة من المصلى والوزير معه .

فاذا دخل القاعة ، وقف الوزير على باب دخول الخليفة لينزع عنه الثياب العيدية التى فى عمامتها السمة ، ويلبس سواها من خزائن الكسوات الخاصة التى قدمنا ذكرها .

وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى ، فى كل واحد سبعة عشر قنطارا ، وحملا : فمنهما واحد يمضى به من طريق قصر الشوك الى باب الذهب ، والآخر يشق به بين القصرين يحملهما العتالون ، فينصبان أول السماط وآخره ، وهما شكل مليح ، مدهونان بأوراق الذهب ، وفيهما شخوص ناتئة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحا لوحا .

فاذا عبر الخليفة راكبا ، ونزل على السرير الذى عليه المدورة الفضة وجلس ، قام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين ، وأربعة من خواص الفراشين . ثم يستدعى الوزير فيطلع اليه ، ويجلس عن يمينه ، ويستدعى الأمراء المطوقين ومن يليهم من الأمراء دونهم ، فيجلسون على السماط كقيامهم بين يديه ، فيأكل من أراد من غير الزام ، فان فى الحاضرين من لا يعتقد الفطر فى ذلك اليوم . فيستولى على ذلك المعسول

(*) ص٣٨٧ جـ١ ، ط. بولاق .

الآكلون ، وينقل الى دار أرباب الرسوم ، ويباح فلا يبقى منه الا السماط فقط ، فيعم أهل القاهرة ومصر من ذلك نصيب وافر .

فاذا انقضى ذلك عند صلاة الظهر ، انفض الناس ، وخرج الوزير الى داره مخدوما بالجماعة الحاضرين ، وقد عمل سماطا لأهله وحواشيه ومن يعز عليه ، لا يلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة .

وعلى هذا العمل يكون سماط عيد النحر أول يوم منه ، وركوبه الى المصلى كما ذكرنا ، ولا يخرج عن هذا المنوال ، ولا ينقص عن هذا المثال ، ويكون الناس كلهم مفطرين ، ولا يفوت أحدا منهم شيء كما ذكرنا في عيد الفطر .

قال : ومبلغ ما ينفق في سماطى الفطر والأضحى أربعة آلاف دينار .

وكان يجلس على أسمطة الأعياد في كل سنة رجلان من الأجناد ، يقال لأحدهما ابن فائز والآخر الديلمى ، يأكل كل واحد منهما خروفا مشويا وعشر دجاجات محلاة وجام حلوى عشرة أرطال ، ولهما رسوم تحمل اليهما بعد ذلك من الأسمطة لبيوتهما ، ودنانير وافرة على حكم الهبة .

وكان أحدهما أسر بعسقلان فى تجريدة جرد اليها ، وأقام مدة فى الأسر . فاتفق أنه كان عندهم عجل سمين فيه عدة قناطير لحم ، فقال له الذى أسره وهو يداعبه : ان أكلت هذا العجل أعتقتك .

ثم ذبحه وسوى لحمه وأطعمه حتى أتى على جميعه ، فوفى له وأعتقه ، فقدم على أهله بالقاهرة ، ورأيته يأكل على السماط .

الايوان الكبير

قال القاضي الرئيس محيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر الروحى الكاتب فى كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » : الايوان الكبير بناه العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز لدين الله معد فى سنة تسع وستين وثلثمائة ... انتهى .

وكان الخلفاء أولا يجلسون به فى يومى الاثنين والخميس الى أن نقل الخليفة الآمر بأحكام الله الجلوس منه فى اليومين المذكورين الى قاعة الذهب كما تقدم . وبصدر هذا الايوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة ، وكان يعلو هذا الشباك قبة .

وفى هذا الايوان كان يمد سماط الفطرة بكرة يوم عيد الفطر كما تقدم ، وبه أيضا كان يعمل الاجتماع والخطبة فى يوم عيد الغدير . وكان بجانب هذا الايوان الدواوين . وكان بهذا الإيوان ضلعا سمكة اذا أقيما واريا الفارس بفرسه ، ولم يزالا حتى بعثهما السلطان صلاح الدين يوسف الى بغداد فى هدية .

عيد الغدير : اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا ، ولا عمله أحد من سالف الأمة المقتدى بهم . وأول ما عرف فى الاسلام بالعراق أيام معز الدولة على بن بويه ، فانه أحدثه فى سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا .

وأصلهم فيه ما خرجه الامام أحمد فى مسنده الكبير ، من حديث البراء بن عازب

رضى الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر لنا ، فنزلنا بغدير حم ، ونودى « الصلاة جامعة » ، وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فصلى الظهر ، وأخذ بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا : بلى .

قال : « ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه » ؟

قالوا : بلى .

فقال : من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

قال : فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : هنيئا لك يابن أبى طالب ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة .

وغدير حم على ثلاثة أميال من الحجفة يسرة الطريق ، وتصب فيه عين ، وحوله شجر كثير .

ومن سنتهم فى هذا العيد — وهو أبدا يوم الثامن عشر * من ذى الحجة — أن يحيوا ليلته بالصلاة ، ويصلوا فى صبيحته ركعتين قبل الزوال ، ويلبسوا فيه الجديد ، ويعتقوا الرقاب ، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح .

ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق ، أرادت عوام السنية مضاهاة فعلهم ونكايتهم ، فاتخذوا فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة — بعد عيد الغدير بثمانية أيام — عيدا أكثروا فيه من السرور واللهو ، وقالوا : هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وبالغوا فى هذا اليوم فى اظهار الزينة ونصب القباب وايقاد النيران ، ولهم فى ذلك أعمال مذكورة فى أخبار بغداد .

وقال ابن زولاق : وفى يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وهو يوم الغدير ، تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء لأنه يوم عيد ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فيه واستخلفه ، فأعجب المعز ذلك من فعلهم ، وكان هذا أول ما عمل بمصر .

قال المسبحى : وفى يوم الغدير ، وهو ثامن عشر ذى الحجة ، اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون ، فكان جمعا عظيما أقاموا الى الظهر ، ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة . وذكر أن الحاكم بأمر الله كان قد منع من عمل عيد الغدير .

قال ابن الطوير : اذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة ، اهتم الأمراء والأجناد بركوب عيد الغدير ، وهو فى الثامن عشر منه ، وفيه خطبة وركوب الخليفة بغير مظلة ولا سمة ، ولا خروج عن القاهرة ، ولا يخرج لأحد شىء .

فاذا كان ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة ، فيدخل القصر ، وفى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسى على عادته ، فيخدم ويخرج ويركب من مكانه

(*) ص٣٨٨ جـ١ ، ط. بولاق .

من الدهليز ، ويخرج فيقف قبالة باب القصر ، ويكون ظهره الى دار فخر الدين جهاركس اليوم .

ثم يخرج الخليفة راكبا أيضا ، فيقف فى الباب — ويقال له القوس — وحواليه الأستاذون المحنكون رجالة ، ومن الأمراء المطوقين من يأمره الوزير باشارة خدمة الخليفة على خدمته ، ثم يجوز زى كل من له زى على مقدار همته .

فأول ما يجوز زى الخليفة ، وهو الظاهر فى ركوبه ، فتجد الجنائب الخاص التى قدمنا ذكرها أولا . ثم زى الأمراء المطوقين لأنهم غلمانه ، واحدا فواحدا بعددهم وأسلحتهم وجنائبهم ، الى آخر أرباب القصب والعماريات . ثم طوائف العسكر أزمتها أمامها وأولادهم مكانهم لأنهم فى خدمة الخليفة ، وقوف بالباب طائفة طائفة ، فيكونون أكثر عددا من خمسة آلاف فارس . ثم المترجلة الرماة بالقسى بالأيدى والأرجل ، وتكون عدتهم قريبا من ألف .

ثم الراجل من الطوائف الذين قدمنا ذكرهم فى الركوب ، فتكون عدتهم قريبا من سبعة آلاف ، كل منهم بزمام وبنود ورايات وغيرها ، بترتيب مليح مستحسن .

ثم يأتى زى الوزير مع ولده أو أحد أقاربه ، وفيه جماعته وحاشيته فى جمع عظيم وهيئة هائلة . ثم زى صاحب الباب وهم أصحابه وأجناده ونواب الباب وسائر الحجاب .

ثم يأتى زى اسفهسلار العساكر بأصحابه وأجناده فى عدة وافرة .

ثم يأتى زى والى القاهرة ، وزى والى مصر .

فاذا فرغا خرج الخليفة من الباب ، والوقوف بين يديه مشاة فى ركابه ، خارجا عن صبيان ركابه الخاص . فاذا وصل الى باب الزهومة بالقصر ، انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك ، جائزا على الخوخ .

فاذا وصل الى باب الديلم الذى داخله المشهد الحسينى ، فيجد فى دهليز ذلك الباب قاضى القضاة والشهود ، فاذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه ، فيسلم القاضى كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه ، والشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة .

ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدهليز الى الايوان الكبير ، وقد علق عليه الستور القرقوبية جميعه على سعته وغير القرقوبية سترا فسترا ، ثم يعلق بدائره على سعته ثلاثة صفوف : الأوسط طوارق فارسيات مدهونة ، والأعلى والأسفل درق ، وقد نصب فيه كرسى الدعوة وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد ، فيجلس القاضى والشهود تحته ، والعالم من الأمراء والأجناد والمتشيعين ومن يرى هذا الرأى من الأكابر والأصاغر .

فيدخل الخليفة من باب العيد الى الايوان الى باب الملك ، فيجلس بالشباك وهو ينظر القوم ، ويخدمه الوزير عندما ينزل ، ويأتى هو ومن معه فيجلس بمفرده على يسار منبر

الخطيب ، ويكون قد سير لخطيبه بدلة حرير يخطب فيها ، وثلاثون دينارا ، ويدفع له كراس محرر من ديوان الانشاء يتضمن نص الخلافة من النبى صلى الله عليه وسلم الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ورضى عنه ، بزعمهم .

فاذا فرغ ونزل ، صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين . فاذا قضيت الصلاة ، قام الوزير الى الشباك فيخدم الخليفة ، وينفض الناس بعد التهانى من الاسماعيلية بعضهم بعضا . وهو عندهم أعظم من عيد النحر ، وينحر فيه أكثرهم .

قال : وكان الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ، لما سلم من يد أبى على بن الأفضل — الملقب كتيفات — لما وزر له وخرج عليه * ، عمل عيدا فى ذلك اليوم — وهو السادس عشر من المحرم — من غير ركوب ولا حركة ، بل ان الايوان باق على فرشه وتعليقه من يوم الغدير .

فيفرش المجلس المحول اليوم فى الايوان الذى بابه خورنق — وكان يقابل الايوان الكبير الذى هو اليوم خزائن السلاح — بأحسن فرش ، وينصب له مرتبة هائلة قريبا من باذهنجه ، فيجتمع أرباب الدولة سيفا وقلما ، ويحضرون الى الايوان الى باب الملك المجاور للشباك .

فيخرج الخليفة راكبا الى المجلس ، فيترجل على بابه وبين يديه الخواص ، فيجلس على المرتبة ، ويقفون بين يديه صفين الى باب المجلس ، ثم يجعل قدامه كرسى الدعوة وعليه غشاء قرقوبى ، وحواليه الأمراء الأعيان وأرباب الرتب .

فيصعد قاضى القضاة ، ويخرج من كمه كراسة مسطحة تتضمن فصولا كالفرج بعد الشدة بنظم مليح ، يذكر فيه كل من أصابه من الأنبياء والصالحين والملوك شدة وفرج الله عنه ، واحدا فواحدا ، حتى يصل الى الحافظ ، وتكون هذه الكراسة محمولة من ديوان الانشاء . فاذا تكاملت قراءتها ، نزل عن المنبر ودخل الى الخليفة ، ولا يكون عنده من الثياب أجل مما لبسه ، ويكون قد حمل الى القاضى قبل خطابته بدلة مميزة يلبسها للخطابة ، ويوصل اليه بعد الخطابة خمسون دينارا .

وقال الأمير جمال الدين أبو على موسى بن المأمون أبى عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائحى فى تاريخه : واستهل عيد الغدير (يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة) وهاجر الى باب الأجل (يعنى الوزير المأمون البطائحى) الضعفاء والمساكين من البلاد ، ومن انضم اليهم من العوالى والأدوان ، على عادتهم فى طلب الحلال وتزويج الأيامى ، وصار موسما يرصده كل أحد ، ويرتقبه كل غنى وفقير ... فجرى فى معروفه على رسمه ، وبالغ الشعراء فى مدحه بذلك .

ووصلت كسوة العيد المذكور ، فحمل ما يختص بالخليفة والوزير ، وأمر بتفرقة ما يختص بأزمة العساكر ، فارسها وراجلها ، من عين وكسوة . ومبلغ ما يختص بهم من العين سبعمائة وتسعون دينارا ، ومن الكسوات مائة

(*) ص٣٨٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وأربع وأربعون قطعة . والهيئة المختصة بهذا العيد برسم كبراء الدولة وشيوخها وأمرائها وضيوفها ، والأستاذين المحنكين والمميزين منهم ، خارجا عن أولاد الوزير واخوته . ويفرق من مال الوزير بعد الخلع عليه ألفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارا ، وأمر بتعليق جميع أبواب القصور ، وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد عليها ، وتقدم بأن تكون الأسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أول يوم من عيد النحر .

وفى باكر هذا اليوم ، توجه الخليفة الى الميدان ، وذبح ما جرت به العادة ، وذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة فى عيد النحر ، وأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم .

وجلس الخليفة فى المنظرة ، وخدمت الرهجية ، وتقدم الوزير والأمراء وسلموا ، فلما حان وقت الصلاة والمؤذنون على أبواب القصر يكبرون تكبير العيد ، الى أن دخل الوزير فوجد الخطيب على المنبر قد فرغ ، فتقدم القاضى أبو الحجاج يوسف بن أيوب فصلى به وبالجماعة صلاة العيد ، وطلع الشريف بن أنس الدولة وخطب خطبة العيد .

ثم توجه الوزير الى باب الملك ، فوجد الخليفة قد جلس قاصداً للقائه ، وقد ضربت المقدمة ، فأمره بالمضى اليها ، وخلع عليه خلعة مكملة من بدلات النحر ، وثوبها أحمر بالشدة الدائمية ، وقلده سيفا مرصعا بالياقوت والجوهر ، وعندما نهض ليقبل الأرض ، وجده قد أعد له العقد الجوهر ، وربطه فى عنقه بيده ، وبالغ فى اكرامه .

وخرج من باب الملك ، فتلقاه المقربون ، وسارع الناس الى خدمته ، وخرج من باب العيد وأولاده واخوته والأمراء المميزون بحجبه . وخدمت الرهجية وضربت العربية ، والموكب جميعه بزيه وقد اصطفت العساكر ، وتقدم الى ولده بالجلوس على أسمطته وتفرقتها برسومها .

وتوجه الى القصر واستفتح المقرئون ، فسلم الحاضرون . وجرى الرسم فى السماط الأول والثانى ، وتفرقة الرسوم والموائد ، على حكم أول يوم من عيد النحر .

وتوجه الخليفة بعد ذلك الى السماط الثالث الخاص بالدار الجليلة لأقاربه وجلسائه .

ولما انقضى حكم التعييد ، جلس الوزير فى مجلسه ، واستفتح المقرئون ، وحضر الكبراء وبياض البلدين لتهنىء بالعيد والخلع ، وخرج الرسم ، وتقدم الشعراء فأنشدوا وشرحوا الحال ، وحضر متولى خزائن الكسوة الخاص بالثياب التى كانت على المأمون قبل الخلع ، وقبضوا الرسم الجارى به العادة وهو مائة دينار ، وحضر متولى بيت المال وصحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر والسيف المرصع .

فأمر الوزير المأمون الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست الشريف ، بكتب مطالعة الى الخليفة بما حمل اليه من المال برسم منديل الكم ، وهو ألف دينار ، ورسم الأخوة والأقارب ألف دينار ، وتسلم متولى الدولة بقية المال ليفرق على الأمراء المطوقين والمميزين والضيوف والمستخدمين .

« المحول » : قال ابن عبد الظاهر : المحول هو مجلس الداعى ، ويدخل اليه من باب الريح ، وبابه من باب البحر * ، ويعرف بقصر البحر . وكان فى أوقات الاجتماع يصلى الداعى بالناس فى رواقه .

وقال المسيحى : وفى ربيع الأول (يعنى من سنة خمس وثمانين وثلثمائة) جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب ، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله .

وقال ابن الطوير : وأما داعى الدعاة فانه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ، ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره . ووصفه أنه يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم ، وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا ، وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد ، ويحضر اليه فقهاء الدولة ، ولهم مكان يقال له دار العلم ، ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة .

وكان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة ، فى كل يوم اثنين وخميس ، ويحضر مبيضا الى داعى الدعاة فينفذه اليهم ، ويأخذه منهم ويدخل به الى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين ، فيتلوه عليه ان أمكن ، ويأخذ علامته بظاهره ، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين :

(*) ص ٣٦٠ جـ١ ، ط . بولاق .

للرجال على كرسى الدعوة بالايوان الكبير ، وللنساء بمجلس الداعى وكان من أعظم المبانى وأوسعها .

فاذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا اليه لتقبيل يديه ، فيمسح على رؤوسهم بمكان العلامة ، أعنى خط الخليفة ، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالهما لا سيما الصعيد ، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث ، فيجتمع من ذلك شىء كثير يحمله الى الخليفة بيده بينه وبينه ، وأمانته فى ذلك مع الله تعالى ، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقباء .

وفى الاسماعيلية المولين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار على حكم النجوى ، وصحبة ذلك رقعة مكتوبة باسمه ، فيتميز فى المحول ، فيخرج له عليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » ، فيدخر ذلك ويتفاخر به .

وكانت هذه الخدمة متعلقة بقوم يقال لهم بنو عبد القوى ، أبا عن جد ، آخرهم الجليس . وكان الأفضل بن أمير الجيوش نفاهم الى المغرب ، فولد الجليس بالمغرب وربى به ، وكان يميل الى مذهب أهل السنة ، وولى القضاء مع الدعوة ، وأدركه أسد الدين شيركوه وأكرمه ، وجعله واسطة عند الخليفة العاضد ، وكان قد حجر على العاضد ، ولولاه لم يبق فى الخزائن شىء لكرمه ، وكأنه علم أنه آخر الخلفاء .

قال المسيحى : وكان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء

والدعاوي المتصلة ، فكان يفرد للأولياء مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا ، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا ، وللنساء فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا .

وكان يعمل المجالس فى داره ، ثم ينفذها الى من يختص بخدمة الدولة ، ويتخذ لهذه المجالس كتبا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة . وكان يقبض فى كل مجلس من هذه المجالس ما يتحصل من النجوى من كل من يدفع شيئا من ذلك عينا وورقا من الرجال والنساء ، ويكتب أسماء من يدفع شيئا على ما يدفعه ، وكذلك فى عيد الفطر يكتب ما يدفع عن الفطرة ، ويحصل من ذلك مال جليل يدفع الى بيت المال شيئا بعد شيء ، وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة .

وفى سنة أربعمائة كتب سجل عن الحاكم بأمر الله فيه رفع الخمس والزكاة والفطرة والنجوى التى كانت تحمل ، ويتقرب بها ، وتجرى على أيدى القضاة . وكتب سجل آخر يقطع مجالس الحكمة التى تقرأ على الأولياء يوم الخميس والجمعة ... انتهى .

ووظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية . وقد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت ايراده هنا .

وصف الدعوة وترتيبها : وكانت الدعوة مرتبة على منازل ، دعوة بعد دعوة .

الدعوة الأولى : سؤال الداعى لمن يدعوه الى مذهبه عن المشكلات ، وتأويل الآيات ، ومعانى الأمور الشرعية ، وشيء من الطبيعيات ومن الأمور الغامضة ، فان كان المدعو عارفا سلم له الداعى ، والا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الأسئلة ، وقال له : ياهذا ان الدين لمكتوم ، وان الأكثر له منكرون وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ماخص الله به الأئمة من العلم لم تختلف .

فيتشوق حينئذ المدعو الى معرفة ما عند الداعى من العلم ، فاذا علم منه الاقبال ، أخذ فى ذكر معانى القراءات وشرائع الدين ، وتقرير أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتتت الكلمة ، وأورثت الأهواء المضلة ، ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم ، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها .

غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ، ونظروا فى الأمور بعقولهم ، واتبعوا ما حسن فى رأيهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم ، اتباعا للملوك ، وطلبا للدنيا التى هى أيدى متبعى الاثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء (*) ، ومكايدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وتغيير كتاب الله عز وجل ، وتبديل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة دعوته ، وافساد شريعته ، وسلوك غير طريقته ، ومعاندة الخلفاء الأئمة من بعده

(*) ص٣٩١ جـ١ ، ط . بولاق .

يختر من قبل ذلك ، وصار الناس الى أنواع الضلالات .

فان دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحلى ، ولا بأمانى الرجال ، ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة . ولكنه صعب مستصعب ، وأمر مستقبل ، وعلم خفى غامض ستره الله فى حجبه ، وعظم شأنه عن ابتذال أسراره . فهو سر الله المكتوم ، وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ، ولا ينهض بأعبائه وثقله ، الا ملك مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى ... فاذا ارتبط المدعو على الداعى وأنس له ، نقله الى غير ذلك .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة ، ولِمَ كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر ، وما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ، أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة ، وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا ، والكاتبين الحافظين ، وما لنا لا نراهما ، أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون ، وأقام علينا الشهود ، وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة ؟

وما تبديل الأرض غير الأرض ، وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب ، وما معنى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وما ابليس ، وما الشياطين ، وما وصفوا به وأين مستقرهم ، وما مقدار قدرهم ، وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت ، وأين مستقرهم ، وما سبعة أبواب النار ، وما ثمانية أبواب الجنة ، وما شجرة الزقوم النابتة فى الجحيم ، وما دابة الأرض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة فى القرآن ، والتين والزيتون ؟

وما الخنس الكنس ، وما معنى ألم وألمص ، وما معنى كهيعص وحمعسق ، ولم جعلت السموات سبعا ، والأرضون سبعا ، والمثانى من القرآن سبع آيات ، ولم فجرت العيون اثنتى عشرة عينا ، ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ، وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ، ومعانى الفرائض اللازمة ؟

فكروا أولا فى أنفسكم : أين أرواحكم ، وكيف صورها ، وأين مستقرها ، وما أول أمرها ، والانسان ما هو ، وما حقيقته ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات ، وما الذى بانت به حياة الحشرات من حياة النبات ؟

وما معنى قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم « خلقت حواء من ضلع آدم » ؟

وما معنى قول الفلاسفة : الانسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير ؟

ولم كانت قامة الانسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ، ولم كان فى يديه من الأصابع عشر ، وفى رجليه عشر أصابع ، وفى كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق ، الا الابهام فان فيه شقين فقط ؟

ولم كان فى وجهه سبع ثقب وفى سائر بدنه ثقبان ، ولم كُان فى ظهره اثنتا عشرة عقده وفى عنقه سبع عقد ، ولم جعل عنقه

صورة ميم ، ويداه حاء ، وبطنه ميما ، ورجلاه دالا ، حتى سار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟

ولم جعلت قامته اذا انتصب صورة آلف ، واذا ركع صارت صورة لام ، واذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابا يدل على الله ؟

ولم جعلت أعداد عظام الانسان كذا ، وأعداد أسنانه كذا ، والأعضاء الرئيسة كذا ؟

الى غير ذلك من التشريح والقول فى العروق والأعضاء ووجوه منافع الحيوان .

ثم يقول الداعى : ألا تتفكرون فى حالكم وتعتبرون ، وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق ؟

فكيف يسعكم الاعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فأى شىء رآه الكفار فى أنفسهم وفى الآفاق حتى عرفوا أنه الحق ؟ وأى حق عرفه من جحد الديانة ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله جل اسمه أراد أن يرشدكم الى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ؟

ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها كان حريا ألا يعلم غيرها ؟ أليس الله تعالى يقول : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

ونحو ذلك من تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وايراد أبواب من التجويز والتعليل .

فاذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تعجل فان دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ، ويجعل غرضا للعب . وجرت عادة الله وسنته فى عباده ، عند شرع من نصبه ، أن يأخذ العهد على من يرشده ، ولذلك قال : « واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » .

وقال * عز وجل : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا» .

وقال جل جلاله : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، وقال : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » ، « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » ، وقال : « لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » ، ومن أمثال هذا .

فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه الا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالموكد من أيمانك وعقودك : ألا تفشى لنا

(*) ص ٣٩٢ جـ ١ ، ط . بولاق

سرا ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا .

فاذا أعطى العهد قال له الداعى : أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك اياها — والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى — فان امتنع المدعو أمسك عنه الداعى ، وان أجاب وأعطى نقله الى الدعوة الثانية .

وانما سميت الاسماعيلية بالباطنية ، لأنهم يقولون : لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن ، ولكل تنزيل تأويل .

الدعوة الثانية : لا تكون الا بعد تقدم الدعوة الأولى . فاذا تقرر فى نفس المدعو جميع ما تقدم وأعطى الجعل ، قال له الداعي : ان الله تعالى لم يرض فى اقامة حقه وما شرعه لعباده ، الا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس ، وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراده الله تعالى .

ويسلك فى تقرير هذا ، ويستدل عليه بأمور مقررة فى كتبهم ، حتى يعلم أن اعتقاد الأئمة قد ثبت فى نفس المدعو ، فاذا اعتقد ذلك نقله الى الدعوة الثالثة .

الدعوة الثالثة مرتبة على الثانية ، وذلك أنه اذا علم الداعى ممن دعاه أن ارتباطه على دين الله لا يعلم الا من قبل الأئمة ، قرر حينئذ عنده أن الأئمة سبعة ، قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الأمور الجليلة ، فانه جعل الكواكب السيارة سبعة ، وجعل السموات سبعا ، وجعل الأرضين سبعا ، ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات .

وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان .

وهم — أعنى الشيعة — مختلفون فى هذا القائم : فمنهم من يجعله محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ويسقط اسماعيل بن جعفر ، ومنهم من يعد اسماعيل بن جعفر اماما ، ثم يعد ابنه محمد بن اسماعيل .

فاذا تقرر عند المدعو أن الأئمة سبعة ، انحل عن معتقد الامامية من الشيعة القائلين بامامة اثنى عشر اماما ، وصار الى معتقد الاسماعيلية بأن الامامة انتقلت الى محمد ابن اسماعيل بن جعفر .

فاذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعو ، شرع فى ثلب بقية الأئمة الذين قد اعتقد الامامية فيهم الامامة ، وقرر عند المدعو أن محمد بن اسماعيل عنده علم المستورات وبواطن المعلومات التى لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وأن عنده أيضا علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر الأمور ، وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم ، واتقان دلالته فى كل أمر يسأل عنه فى جميع المعدومات ، وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله ، والتأويلات وتأويل التأويلات .

وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة ، لأنهم أخذوا عنه ، ومن جهته رووا ، وأن أحدا من الناس المخالفين لهم لا يستطيع أن يساويهم ، ولا

يقدر على التحقق بما عندهم الا منهم ... ويحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما لا يسع هذا الكتاب حكايته لطوله . فاذا انقاد المدعو وأذعن لما تقرر ، نقله الى الدعوة الرابعة .

الدعوة الرابعة : لا يشرع الداعى فى تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعو لجميع ما تقدم . فاذا تيقن منه صحة الانقياد ، قرر عنده أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع ، المبدلين لأحكامها ، أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال ، الناطقين بالأمور ، سبعة فقط كعدد الأئمة سواء .

وكل واحد من هؤلاء الأنبياء لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ، ويكون معه ظهيرا له فى حياته ، وخليفة له من بعد وفاته الى أن يبلغ شريعته الى أحد يكون سبيله معه كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه ، ثم كذلك كل مستخلف خليفة ... الى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة أشخاص ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم ، ويسمى الأول من هؤلاء السبعة « السوس » .

وانه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم ، من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله ، وتكون الخلفاء من بعده أمورهم تجرى كأمر من كان قبلهم ، ثم يكون من بعدهم نبى ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت أبدا ... وهكذا حتى يقوم النبى السابع من النطقاء ، فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

فكان أول هؤلاء الأنبياء النطقاء آدم عليه السلام ، وكان صاحبه وسوسه ابنه شيث . وعدوا تمام السبعة الصامتين على شريعة آدم .

وكان الثانى من الأنبياء النطقاء نوح عليه السلام * ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ، وكان صاحبه وسوسه ابنه سام ، وتلاه بقية السبعة الصامتين على شريعة نوح .

ثم كان الثالث من الأنبياء النطقاء ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم عليهما السلام ، وكان صاحبه وسوسه فى حياته ؛ والخليفة القائم من بعده المبلغ شريعته ، ابنه اسماعيل عليه السلام ، ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت على شريعة ابراهيم حتى تم دور السبعة الصمت .

وكان الرابع من الأنبياء النطقاء موسى بن عمران عليه السلام ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ونوح وابراهيم ، وكان صاحبه وسوسه أخوه هارون . ولما مات هارون فى حياة موسى ، قام من بعد موسى يوشع بن نون خليفة له صمت على شريعته وبلغها ، فأخذها عنه واحد بعد واحد الى أن كان آخر الصمت على شريعة موسى يحيى بن زكرياء ، وهو آخر الصمت .

ثم كان الخامس من الأنبياء النطقاء المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، فانه نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله ، وكان

(*) ص٣٩٢ جـ١ ، ط. بولاق .

صاحبه وسوسه شمعون الصفا ، ومن بعده تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح .

الى أن كان السادس من الأنبياء النطقاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء من قبله ، وكان صاحبه وسوسه على ابن أبي طالب رضى الله عنه ، ثم من بعد على ستة صمتوا على الشريعة المحمدية ، وقاموا بميراث أسرارها ، وهم : ابنه الحسن ، ثم ابنه الحسين ، ثم على بن الحسين ، ثم محمد ابن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين .

والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان ، وعند هؤلاء الاسماعيلية أنه محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وأنه الذى انتهى اليه علم الأولين ، وقام بعلم بواطن الأمور وكشفها ، واليه المرجع فى تفسيرها دون غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد اليه والتسليم له ، لأن الهداية فى موافقته واتباعه ، والضلال والحيرة فى العدول عنه . فاذا تقرر ذلك عند المدعو ، انتقل الداعى الى الدعوة الخامسة .

الدعوة الخامسة مترتبة على ما قبلها . وذلك أنه اذا صار المدعو فى الرتبة الرابعة من الاعتقاد ، أخذ الداعى يقرر أنه لابد مع كل امام قائم فى كل عصر حجج متفرقون فى جميع الأرض عليهم تقوم ، وعدة هؤلاء الحجج أبدا اثنا عشر رجلا فى كل زمان ، كما أن عدد الأئمة سبعة .

ويستدل لذلك بأمور : منها أن الله تعالى لم يخلق شيئا عبثا ، ولا بد فى خلق كل شيء من حكمة . والا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة ، وجعل أيضا السموات سبعا ، والأرضين سبعا ، والبروج اثنى عشر ، والشهور اثنى عشر شهرا ، ونقباء بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ، ونقباء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار اثنى عشر نقيبا .

وخلق تعالى فى كف كل انسان أربع أصابع ، وفى كل اصبع ثلاثة شقوق ، تكون جملتها اثنى عشر شقا . على أنه فى ابهام كل يد شقان دلالة على أن الانسان بدنه كالأرض ، وأصابعه كالجزائر الأربع ، والشقوق التى فى الأصابع كالحجج ، والأبهام الذى به قوام جميع الكف وسداد الأصابع ، كالذى يقوم الأرض بقدر ما فيها ، والشقان اللذان فى الابهام اشارة الى أن الامام وسوسه لا يفترقان .

ولذلك صار فى ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة اشارة الى الحجج الاثنى عشر ، وصار فى عنقه سبع ، فكان العنق عاليا على خرزات الظهر ، وذلك اشارة الى الأنبياء النطقاء والأئمة السبعة ، وكذلك الأثقاب السبعة التى فى وجه الانسان العالى على بدنه ... وأشياء من هذا النوع كثيرة . فاذا تمهد عند المدعو ما دعاه اليه الداعى وتقرر ، نقله حينئذ الى الدعوة السادسة .

الدعوة السادسة : لا تكون الا بعد ثبوت جميع ما تقدم فى نفس المدعو . وذلك أنه اذا صار الى الرتبة الخامسة ، أخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الاسلام — من الصلاة

والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض — بأمور مخالفة للظاهر ، بعد تمهيد قواعد تبين فى أزمنة من غير عجلة ، تؤدى الى أن هذه الأشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم ، حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، وتصدهم عن الفساد فى الأرض .. حكمة من الناصبين للشرائع ، وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم ، واتقانا منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك حتى يتمكن هذا الاعتقاد فى نفس المدعو .

فاذا طال الزمان ، وصار المدعو يعتقد أن أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة ، وأن لها معانى أخر غير ما يدل عليه الظاهر ، نقله الداعى الى الكلام فى الفلسفة ، وحضه على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن فى معناهم ، ونهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات ، وزين له الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها .

فاذا استقر ذلك * عنده واعتقده ، نقله بعد ذلك الى الدعوة السابعة ، ويحتاج ذلك الى زمان طويل .

الدعوة السابعة : لا يفصح بها الداعى ما لم يكثر أنسه بمن دعاه ، ويتيقن أنه قد تأهل الى الانتقال الى رتبة أعلى مما هو فيه ، فاذا علم ذلك منه قال : ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولابد له من صاحب معه يعبر عنه ، ليكون أحدهما الأصل والآخر عنه كان وصدر .

وهذا انما هو اشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى ، فان مدبر العالم فى أصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه أول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ عنه ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » اشارة الى الأول فى الرتبة ، والآخر هو القدر الذى قال فيه : « انا كل شىء خلقناه بقدر » وهذا معنى ما نسمعه من أن الله أول ما خلق القلم فقال للقلم « اكتب » فكتب فى اللوح ما هو كائن .

وأشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم ، وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين : الواحد لا يصدر عنه الا واحد وقد أخذ هذا المعنى المتصوفة ، وبسطوه بعبارات أخر فى كتبهم .

فان كنت ممن ارتاض وعرف مقالات الناس ، تبين لك ما ذكرت . ولا يحتمل هذا الكتاب بسط القول فى هذا المعنى .

واذا تقرر ما ذكر فى هذه الدعوة عند المدعو ، نقله الداعى الى الدعوة الثامنة .

الدعوة الثامنة : متوقفة على اعتقاد سائر ما تقدم ، فاذا استقر ذلك عند المدعو دينا له ، قال له الداعى : اعلم أن أحد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه ، انما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول ، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى بترتيب معروف فى بعضهم .

ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد ، فلا يقال هو

(*) ص٣٩٤ جـ١ ، طـ بولاق .

موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك سائر الصفات — فان الاثبات عندهم يقتضى شركة بينه وبين المحدثات ، والنفى يقتضى التعطيل — وقالوا : ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ... كما هو مبسوط فى كتبهم .

فاذا استقر ذلك عند المدعو ، قرر عنده الداعى أن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وأن الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس وحاله سواء . وهكذا تجرى أمور العالم فى أكواره وأدواره .

ولهذا القول بسط كثير ، فاذا اعتقده المدعو قرر عنده الداعى أن معجزة النبى الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معانى فلسفية تنبىء عن حقيقة أنية السماء والأرض ، وما يشتمل العالم عليه بأسره من الجواهر والأعراض : فتارة برموز يعقلها العالمون ، وتارة بافصاح يعرفه كل أحد ، فينتظم بذلك للنبى شريعة يتبعها الناس .

ويقرر عنده أيضا أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن اليه ، وليس هو الا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها ، من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع ، كما قد بسطه الفلاسفة فى كتبهم ، فاذا استقر هذا العقد عند المدعو ، نقله الداعى الى الدعوة التاسعة .

الدعوة التاسعة : هى النتيجة التى يحاول الداعى ، بتقرير جميع ما تقدم ، رسوخها فى نفس من يدعوه . فاذا تيقن أن المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز ، أحاله على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهى ، وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية .

حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك ، كشف الداعى قناعه وقال : ما ذكر من الحدوث والأصول رموز الى معانى المبادى وتقلب الجواهر ، وان الوحى انما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه ما يلقى اليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته ، بحسب ما يراه من المصلحة فى سياسة الكافة .

ولا يجب حينئذ العمل بها الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء ، بخلاف العارف فانه لا يلزمه العمل بها ، ويكفيه معرفته فانها اليقين الذى يجب المصير اليه ، وما عدا المعرفة من سائر المشروعات ، فانما هى أثقال وآصار حملها الكفار أهل الجهالة لمعرفة الأعراض والأسباب .

ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة ، وأن الامام انما وجوده فى العالم الروحانى اذا صرنا بالرياضة فى المعارف اليه ، وظهوره الآن انما

هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه ، ونحو ذلك مما هو مبسوط فى كتبهم . وهذا حاصل علم الداعى ، ولهم فى ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره .

ابتداء هذه الدعوة : اعلم أن هذه الدعوة منسوبة الى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح ، وكان من غلاة الشيعة . فولد ابنا عرف بعبد الله بن ميمون ، اتسع علمه * ، وكثرت معارفه ، وكاد أن يطلع على جميع مقالات الخليقة ، فرتب له مذهبا ، وجعله فى تسع دعوات ، ودعا الناس الى مذهبه ، فاستجاب له خلق ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل ، وظهر من الأهواز ونزل بعسكر مكرم ، فصار له مال واشتهرت دعاته ، فأنكر الناس عليه وهموا به ، ففر الى البصرة ومعه من أصحابه الحسين الأهوازى .

فلما انتشر ذكره بها طلب ، فصار الى بلاد الشام وأقام بسلمية ، وبها ولد له ابنه أحمد ، فقام من بعد أبيه عبد الله بن ميمون ، فسير الحسين الأهوازى داعية له الى العراق ، فلقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط بسواد الكوفة ، فدعاه واستجاب له ، وأنزله عنده . وكان من أمره ما هو مذكور فى أخبار القرامطة من كتابنا هذا ، عند ذكر المعز لدين الله معد .

ثم انه ولد لأحمد بن عبد الله ابنه الحسين ومحمد المعروف بأبى الشلعلع ، فلما هلك أحمد خلفه ابنه الحسين ، ثم قام من بعده أخوه أبو الشلعلع ، وكان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه .

فانتشرت الدعاة فى أقطار الأرض ، وتفقهوا فى الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة ، وصارت علما من العلوم المدونة ، ثم اضمحلت الآن وذهبت بذهاب أهلها ، ولهذا يقال ان أصل دعوة الاسماعيلية مأخوذ من القرامطة ، ونسبوا من أجلها الى الالحاد .

صفة العهد الذى يؤخذ على المدعو : وهو أن الداعى يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله ، وما أخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق ، أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه وعرفته وتعرفه من أمرى وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق ، الامام الذى عرفت اقرارى له ونصحى لمن عقد ذمته ، وأمور اخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ، ومخالصته له من الذكور والاناث والصغار والكبار ... فلا تظهر من ذلك شيئا قليلا ولا كثيرا ، ولا شيئا يدل عليه الا ما أطلقت لك أن تتكلم به ، أو أطلقه لك صاحب الأمر المقيم بهذا البلد ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ، ولا تتعداه ولا تزيد عليه ...

وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك : أن تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وتقيم الصلاة لوقتها ، وتؤتى

(*) ص٣٩٥ جـ١ ، طـ بولاق .

الزكاة لحقها ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده على ما أمر الله به ورسوله ، وتوالى أولياء الله ، وتعادى أعداء الله ، وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ظاهرا وباطنا وعلانية سرا وجهرا .

فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه ، ويثبته ولا يزيله ، ويقربه ولا يباعده ، ويشده ولا يضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ، ويوضحه ولا يعميه . كذلك هو الظاهر والباطن ، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين على الشرائط المبينة فى هذا العهد ... جعلت على نفسك الوفاء بذلك قل نعم . فيقول المدعو : نعم .

ثم يقول الداعى له : والصيانة له بذلك وأداء الأمانة ، على ألا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا ولا بعد وفاتنا ، لا فى غضب ولا على حال رضى ، ولا على رغبة ولا فى حال رهبة ، ولا عند شدة ولا فى حال رخاء ، ولا على طمع ولا على حرمان ... تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له ، على الشرائط المبينة فى هذا العهد .

وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن تمنعنى وجميع من أسميه لك وأثبته عندك مما تمنع منه نفسك ، وتنصح لنا ولوليك ولى الله نصحا ظاهرا وباطنا ، فلا تخن الله ووليه ولا أحدا من اخواننا وأوليائنا ومن تعلم أنه منا ، بسبب فى أهل ولا مال ، ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله .

فان فعلت شيئا من ذلك — وأنت تعلم أنك قد خالفته ، وأنت على ذكر منه — فأنت برىء من الله خالق السموات والأرض الذى سوى خلقك وألف تركيبك وأحسن اليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبيين والروحانيين والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتبرأ من التوراة والانجيل والزبور والذكر الحكيم ، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه ...

وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وخذلك الله خذلانا بينا يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير الى نار جهنم التى ليس لله فيها رحمة ، وأنت برىء من حول الله وقوته ملجأ الى حول نفسك وقوتك ، وعليك لعنة الله التى لعن الله بها ابليس وحرم عليه بها الجنة وخلده فى النار ، ان خالفت شيئا من ذلك ، ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ...

ولله عليك أن تحج الى بيته الحرام ثلاثين حجة حجا واجبا ماشيا حافيا ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بذلك . وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه ، فهو صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ، ولا يدخل عليك بذلك منفعة * . وكل مملوك لك من ذكر أو أنثى فى ملكك ، أو تستفيده الى وقت وفاتك ، ان خالفت شيئا من ذلك ، فهم أحرار لوجه الله عز وجل . وكل امرأة لك أو تتزوجها الى

(*) ص٣٩٦ جـ١ ، طـ بولاق .

وقت وفاتك ، انى خالفت شيئا من ذلك ، فهن طوالق ثلاثا بتة ، طلاق الحرج لا مثوبه لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة . وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما ، فهو عليك حرام ، وكل ظهار فهو لازم لك ...

وأنا المستحلف لك لامامك وحجتك ، وأنت الحالف لهما . وان نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلفك به ، فهذه اليمين من أولها الى آخرها مجددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بها ، والقيام بما عاهدت بينى وبينك ، قل نعم ، فيقول نعم .

ولهم مع ذلك وصايا كثيرة أضربنا عنها خشية الاطالة ، وفيما ذكرناه كفاية لمن عقل .

الدواوين

وكانت دواوين الدولة الفاطمية ، لما قدم المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره فى القاهرة ، محلها بدار الامارة من جوار الجامع الطولونى .

فلما مات المعز ، وقلد العزيز بالله الوزارة ليعقوب بن كلس ، نقل الدواوين الى داره . فلما مات يعقوب نقلها العزيز بعد موته الى القصر ، فلم تزل به الى أن استبد الأفضل بن أمير الجيوش ، وعمر دار الملك بمصر ، فنقل اليها الدواوين ، فلما قتل عادت من بعده الى القصر ، وما زالت هناك حتى زالت الدولة .

قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وحدثنى من أثق به قال : كنت بالقاهرة يوما من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقد استفحل أمر المارقين ، وقويت شوكتهم ، وامتدت أيديهم الى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره .

فرأيت وقد دخل من باب الديلم ، أحد أبواب القصور المعمورة الزاهرة ، المعروف بتاج الملوك شادى ، وفخر العرب على بن ناصر الدولة بن حمدان ، ورضى الدولة بن رضى الدولة ، وأمير الأمراء بختكين بن بسكتكين ، وأمير العرب بن كيغلغ ، والأعز ابن سنان ، وعدة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم ، وصاروا فى الايوان الصغير .

فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم ، وكان معهم أحد الفراشين المستخدمين برسم القصور المعمورة ، فدخلوا الى حيث كان الديوان النظرى فى الديوان المذكور ، وصحبتهم فعلة ، وانتهوا الى حائط مجير ، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه ، فظهرت حنية باب مسدود فأمروا بهدمه ، فتوصلوا منه الى خزانة ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله .

فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر ، ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ، ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن ، عدة رزم أعوادها من الزان الجيد ، ومن السيوف المجوهرة النصول ، ومن النشاب الخلنجى وغيره ، ومن الدرق اللمطى والحجف التينى وغير ذلك ، ومن الدروع المكلل سلاح بعضها ، والمحلى

بعضها بالفضة المركبة عليه ، ومن التخافيف والجواشن والكراعيدات الملبسة ديباجا ، المكوكبة بكواكب فضة ، وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار ... فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب .

ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ، ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة ، ومنهم من يجعل ذلك فى سراويله وعمامته وجيبه ، ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين .

وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عده ، حملوا منها ما قدروا عليه ، وبقى منها ما كسره الركابية ومن يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للمغازليين ولصناع المرادن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة . ولم تعترضهم الدولة ، ولا التفت الى قدر ذلك ولا احتفلت به ، وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظا لما فى منازلهم .

ديوان المجلس

قال ابن الطوير : ديوان المجلس هو أصل الدواوين قديما ، وفيه علوم الدولة بأجمعها ، وفيه عدة كتاب ، ولكل واحد مجلس مفرد ، وعنده معين أو معينان . وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الاقطاعات ، ويلحق بديوان النظر ، ويخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب الى غير ذلك .

قال : ذكر خدمهم الخاصة المتصلة بهم . فأولها دفتر المجلس ، وصاحبه من الأستاذين المحنكين ، ثم يتولاه أجل كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لرأس الدواوين .

ويتضمن ذلك الدفتر — وله مكان ديوان بالقصر — الباطن من الانعام فى العطايا ، والظاهر من الرسوم المعروفة فى غرة السنة ، والضحايا ، والمرتب من الكسوات للأولاد والأقارب والجهات وأرباب الرتب على اختلاف الطبقات ، وما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا ، وما يرسل اليهم من الملاطفات ، ومقادير الصلات * للمترسلين بالمكاتبات ، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحترمات .

ثم يضبط ما ينفق فى الدولة من المهمات ليعلم ما بين كل سنة من التفاوت : فالصرة المنعم بها فى أول العام من الدنانير والرباعية والقراريط تقرب من ثلاثة آلاف دينار ، وثمن الضحايا يقرب من ألفى دينار ، وما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرق على الناس سبعة آلاف دينار ، وما ينفق فى دار الطراز للاستعمالات الخاص وغيرها فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، وما ينفق فى مهم فتح الخليج غير المطاعم ألفا دينار ، وما ينفق فى شهر رمضان فى سماط ثلاثة آلاف دينار ، وما ينفق فى سماطى الفطر والنحر أربعة آلاف دينار .

وهذا خارج عما يطلق للناس أصنافا من خزائنه من المآكل والمشارب والمواصلة من الهبات ، وما تخرج به الخطوط من التشريفات

(*) ص٣٩٧ جـ١ ، طـ. بولاق .

والمسامحـات ، وما يطلـق من الأهراء من الغلات ... حتى لا يفوتهم علم شيء من هـذه المطلقات .

وفي هذه الخـدمة كاتب مستقل بين يدي صاحب ديوانه الأصلي ، ومعه كاتبان آخران لتنزيل ذلك في الدفتر . والدفتر عبـارة عن جرائد مسـطوحات ينزل ذلك فيها في أوقاته من غير فوات .

قال : واذا انقضى عيد النحر من كل سنة ، تقدم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمـام ذي الحجة منها ، فيجتمع كتـاب ديوان الرواتب عند متوليه ، وتحمل العروض اليه .

فاذا تحررت نسخة التحرير بيضت بعد أن يسـتدعى من المجلس أوراق بالادرار الذي يقبض بغير خرج — وفي الادرار ماهو مستقر بالوجهين — فيضاف هذا المبلغ بجهاته الى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب وجهاتهـا ، حتى لا يفوت من الاستيمار شيء من كل ما تقرر شرحه ، ويعلم مقداره عينا وورقا وغلة وغير ذلك .

فيحرز ذلك كله بأسماء المرتزقين ، وأولهم الوزير ومن يلوذ به ، وعلى ذلك الى أن ينتهى الجميع الى أرباب الضر .

فاذا تكمل استدعى له من خزانة الفـرش وطاء حرير لشده ، وشرابة لمسكه اما خضراء أو حمراء ، ويعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده .

وهذا كله خارج عن الكسـوات المطلقـة لأربابها ، والرسوم المعدة في كل سنة ، وما يحمل من دار الفطرة من الأصناف برسم عيد الفطر ، وعما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية والرسوم . وقد انعقد مرة — وأنا أتولى ديوان الرواتب — على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينـار أو قريب من مائتي ألف دينار ، ومن القمح والشعير على عشرة آلاف اردب .

فاذا فرغ من مسكه في الشرابة ، حمـل الى صـاحب ديوان النظـر ان كان ، والا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة ان كان (يعني مستبدا) أو الوزير ، لاستقبال المحرم من السنة الآتيـة في أوقات معلومة ، فيتأخر في العرض ، وربما يسـتوعب المحرم ليحيط العلم بما فيه ، فاذا كمل العرض أخرج الى الديوان وقد شطب على بعضه .

وكانوا يتحرجـون من الاقامات على مال الدولة التي لا أصل لها وعلى غير متوفر ، ويتنجزها أربابها بالمسـتقبلات على الخلفـاء والوزراء ، وينقص قوم للاسـتكثار ، ويزاد قوم للاسـتحقاق ، ويصرف قوم ويسـتخدم آخـرون ، على ما تقتضـيه الآراء في ذلك الوقت ، ثم يسلم لرب هذا الديوان ، فيحمل الأمر على ما شـطب عليـه ، وعلامة الاطلاق خروجه من العرض .

وقيل انه عمل مرة في أيام المستنصر بالله ، فلما استؤذن على عرضه قال : هل وقع أحد بما فيه غيرنا ؟

قيل له : معاذ الله يامولانا ، ما ثم انعام الا لك ، ولا رزق الا من الله على يديك .

فقال : ما ينقض به أمرنا ولا خطنـا وما صرفناه في دلتنا باذننا .

وتقــدم الى ولى الدولة ابن جبران كاتب الانشاء بامضائه للناس من غير عرض ، وحمل الأمر على حكمه ، ووقع عن الخليفة بظاهره : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

ووقع فى خلافة الحـافظ لدين الله على استيمار الرواتب ما نصه : « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير الاعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتســويف والابطاء . ولما انتهى اليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من ايجاباتهم ، وحمل خروجاتهم : قد ضعفت قلوبهــم ، وقنطـت نفوســهم ، وســاءت ظنونهم ... شملهم برحمته ورأفتــه ، وأمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده تأكيدا للانعام والمن ، وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن ...

« فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصــورة اجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وايجابها على سياقها ليكافئهم ، من غير تأول ولا تعنت ، ولااستدراك ولا تعقب . وليجروا فى تسبيباتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهــم ما كان مبرما ، ولا ينسخ من رسمهم ما كان محكما ، كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا ، وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى « انمــا نطعمكم لوجه الله لا نريد منــكم جزاء ولا شكورا » . ولينســخ فى جميــع الدواوين بالحضرة ان شاء الله تعالى » .

وقال فى كتاب « كنز الدرر » : ان فى سنة ست وأربعمائة ، عرض على الحاكم بأمر الله الاســتيمار باســم المتفقهين والقراء والمؤذنين بالقاهرة * ومصر ، وكانت الجملة فى كل سنة أحدا وسبعين ألف دينــار وســبعمائة وثلاثة وثلاثين دينــارا وثلثى دينار وربع دينـــار . فأمضى جميع ذلك .

وقال ابن المأمون : وأما الاستيمار فبلغنى ممن أثق به أنه كان فى الأيام الأفضلية اثنى عشر ألف دينار ، وصــار فى الأيام المأمونيــة لاستقبال سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر ألف دينار . وأما تذكرة الطراز فالحكم فيها مثل الاســتيمار . والشــائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضليــة على أحد وثلاثين ألف دينار ، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى الأيام الآمرية .

وعرض روزنامج بما أنفق عينــا من بيت المال — فى مدة أولها محرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وآخرها سلخ ذى الحجة منها — فى العســاكر المســيرة لجهــاد الفــرنج برا والأساطيل بحرا ، والمنفق فى أرباب النفقــات من الحجرية والمصطيعية والســودان عــلى اختلاف قبوضهم ، وما ينصرف برسم خزانة القصور الزاهرة ، وما يبتــاع من الحيــوان برسم المطابخ ، وما هو برسم منديل الــكم الشريف فى كل سنة مائة دينار ، والمطلق فى الأعياد والمواسم ، وما ينعم به عند الركوبات من الرسوم والصدقات وعند العــود منها ، وثمن الأمتعة المبتــاعة من التجــار على أيدى

(*) ص٣٩٨ جـ١ ، ط. بولاق .

الوكلاء ، والمطلق برسم الرسل والضيوف ومن يصل مستأمنا ودار الطراز ودار الديباج ، والمطلق برسم الصلات والصدقات ومن يهتدى للاسلام ، وما ينعم به على الولاة عند استخدامهم فى الخدم ، ونفقات بيت المال والعمائر ... وهو من العين : اربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا وسبعمائة وسبعة وتسعون دينارا ونصف ، من جملة خمسمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارا ونصف .

يكون الحاصل بعد ذلك ، مما يحمل الى الصناديق الخاص برسم المهمات لما يتجدد من تسفير العساكر ، وما يحمل الى الثغور عند نفاد ما بها : ثمانية وتسعين ألفا ومائة وسبعة وتسعين دينارا وربعا وسدسا . ولم يكن يكتب من بيت المال وصول ولا مجرى ولا تعرف .

وذلك خارج عما يحمل مشاهرة برسم الديوان المأمونى والأجلاء اخوته وأولاده ، وما أنعم به على ما تضمنت اسمه مشاهرة من الأصحاب والحواشى وأرباب الخدم ، والكتاب والأطباء والشعراء ، والفراشين الخاص والجوق والمؤدبين ، والخياطين والرفائين وصبيان بيت المال وبواب الباب ونقباء الرسائل ، وأرباب الرواتب المستقره من ذوى النسب والبيوتات ، والضعفاء ، والصعاليك من الرجال والنساء ، عن مشاهرتهم : ستة عشر ألفا وستمائة واثنان وثمانون دينارا وثلثا دينار ، يكون فى السنة مائتى ألف ومائة دينار .

فتكون الجملة سبعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائتين وأربعة وتسعين دينارا ونصفا .

قال : وفى هذا الوقت (يعنى شوال سنة سبع عشرة وخمسمائة) وقعت مرافعة فى أبى البركات بن أبى الليث ، متولى ديوان المجلس ، صورتها :

« المملوك يقبل الأرض ، وينهى أنه ما واصل انهاء حال هذا الرجل وما يعتمده لأنه أهل أن ينال خدمة ، وانما هى نصيحة تلزمه فى حق سلطانه ، وقد حصل له من الأموال والذخائر ما لا عدد له ولا قيمة عليه ، ويضرب المملوك عن وجوه الجناية التى هى ظاهرة ، لأن السلطان لا يرضى بذكرها فى عالى مجلسه ، ولا سماعها فى دولته ؛ وله ولأهله مستخدمون فى الدولة ست عشرة سنة ، بالجارى الثقيل لكل منهم ...

« ويذكر المملوك ما وصلت قدرته الى علمه ، ما هو باسمه خاصة دون من هو مستخدم فى الدواوين من أهله وأصحابه ، ويبدأ بما باسمه : مياومة ادرارا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب — وهو ما يبين برسم البقولات والتوابل — نصف دينار ، ومن الضأن رأس واحد . ومن الحيوان ثلاثة أطيار . ومن الحطب حملة واحدة ؛ ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ، ومن الخبز عشرون وظيفة ، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة ...

وفى كل اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب : طيفور خاص ، وصحن من الأوائل ، وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز

المواثدي والسميذ . وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة بالدا رالمأمونية مثل ذلك . وفي كل يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات : خروف مشوي ، وجام حلوى ، ورباعي عنبا ...

ويحضر اليه في كل يوم من الاصطبلات : بغلة بمركوب محلي ، وبغلة برسم الراجل ، وفراشين من الجوق برسم خدمته وتبيت على بابه . واذا خرج من بين يدي السلطان في الليل ، كان له شمعة من الموكبيات توصله الى داره ، وزنها سبعة عشر رطلا ، ولا تعود . وبرسم ولده في كل يوم : ثلاثة أرطال لحم ، وعشرة أرطال دقيق ، وفي أيام الركوبات رباعي ...

« والمشاهرة جاري ديوان الخاص والمجلس برسمه مائة وعشرون دينارا ، وبرسم ولده راتبا عشرة دنانير ...

« وأثبت أربعة غلمان نصارى ، ونسبهم للاسلام ، في جملة المستخدمين في الركاب ، ولم يخدموا لا في الليل ولا في النهار ، بما مبلغه سبعة دنانير . ومن السكر خمسة عشر رطلا ، ومن عسل النحل عشرة أرطال ، ومن قلب الفستق ثلاثة * أرطال ، وقلب البندق خمسة أرطال ، وقلب اللوز أربعة أرطال ، وورد مربى رطلان ، زيت طيب عشرة أرطال ، شيرج خمسة أرطال ، زيت حار ثلاثون رطلا ، خل ثلاث جرار ، أرز نصف ويبة ، سماق أربعة أرطال ، حصرم وكشك وحب رمان وقراصيا بالسوية اثنا عشر رطلا ، سدر وأشنان ويبة ، ومن السكيزان عشرون شربة عزيزية وثلجية واحدة ، ومن الشمع ست شمعات : منهن اثنتان منويات ، وأربعة رطليات ...

« والمسانهة في بكور الغرة : برسم الخاصة خمسة دنانير ، وخمس رباعية ، وعشرة قراريط جدد . وبرسم ولده دينار رباعي ، وثلاثة قراريط ، وخروف مقموم ، وخمسة أرؤس ، وربع قنطار خبز بر ماذق ، وصحن أرز بلبن وسكر ...

« ومن السماط بالقصر في اليوم المذكور : خروف شواء ، وزبادي ، وجام حلوى ، والخبز وقطعة منفوخ ، ومن القمح ثلثمائة اردب ، ومن الشعير مائة وخمسون اردبا ، وفي المواليد الأربعة أربع صواني فطرة .

« وكسوة الشتاء : برسمه خاصة منديل حريري ، وشقة ديبقي حرير ، وشقة ديباج ، ورداء أطلس ، وشقة ديباج داري ، وشقتان سقلاطون احداهما اسكندرانية ، وشقتان عتابي ، وشقتان خز مغربي ، وشقتان اسكندراني ، وشقتان دمياطي ، وشقة طلي مرش وفوطة خاص . وبرسم ولده شقة سقلاطون داري ، وشقة عتابي داري ، وشقة خز مغربي ، وشقتان دمياطي ، وشقتان اسكندراني ، وشقة طلي وفوطة . وبرسم من عنده منديلا كم أحدهما خزائني خاص ، ونصفي أردية ديبقي ، وشقة سقلاطون داري ، وشقة عتابي ، وشقة سوسي ، وشقة دمياطي ، وشقتان اسكندراني وفوطة .

وبرسمه أيضا في عيد الفطر : طيفوران فطرة مشورة ، ومائة حبة بوري ، وبدلة

(*) ص٣٩٩ ج١ ، ط. بولاق .

مذهبة مكملة ، ولولده بدلة حرير ، ويرسم من عنده حلة مذهبة . وفى عيد النحر رسمه مثل عيد الفطر ، ويزيد عنه هبة مائة دينار . ولولده مثل عيد الفطر وزيادة عشرة دنانير ، ويساق اليه من الغنم ما لم يكن باسمه ...

« وفى موسم فتح الخليج : أربعون دينارا ، وصينية فطرة ، وطيفور خاص من القصر ، وخروف شواء ، وجام حلواء . ويرسم ولده : خمسة دنانير ...

« ولخاصه فى النوروز : ثلاثون دينارا ، وشقة ديبقى حريرى ، وشقة لاذ ، ومعجر حريرى ، ومنديل كم حريرى ، وفوطة ، ومائة بطيخة ، وسبعمائة حبة رمان ، وأربعة عناقيد موز ، وفرد بسر ، وثلاثة أقفاص تمر قوصى ، وقفصان سفرجل ، وثلاث بكالى هريسة : واحدة بدجاج وأخرى بلحم ضأن ، والثالثة بلحم بقرى ، وأربعو رطلا خبز بر ماذق . ولولده خمسة دنانير ، وحوائج النوروز بما تقدم ذكره ...

« وبرسمه فى الميلاد : جام قاهرية ، ومترد سميذ معتصمى ، وزلابية ، وست قرابات جلاب ، وعشر حبات بورى ...

« وبرسم الغيطاس : خمسمائة حبة ترنج ونارنج وليمون مركب ، وخمسة عشر طن قصب ، وعشر حبات بورى . وباسمه فى عيد الغدير من السماط بالقصر مثل عيد النحر .

« وله هبة عن رسم الخلع من المجلس المأمونى (يعنى مجلس الوزارة) ثلاثون دينارا ، ولولده خمسة دنانير ...

« ومن تكون هذه رسومه ، فى أى وجه تنصرف أمواله ؟

« والذى باسم أخيه نظير ذلك ، وكذلك صهره فى ديوان الوزارة ، وابن أخيه فى الديوان التاجى . ووجوه الأموال من كل جهة واصلة اليهم ، والأمانة مصروفة عنهم .

« وقد اختصر المملوك فيما ذكر . والذى باسمه أكثر . واذا أمر بكشف ذلك من الدواوين ، تبين صحة قول المملوك ، وعلم أنه ممن يتجنب قول المحال ولا يرضاه لنفسه ، سيما ان رفعه الى المقام الكريم » .

وشنع ذلك بكثرة القول فيهم ، وعرض بالقبض عليهم ، وأوجب على نفسه أنه يثبت فى جهاتهم من الأموال التى تخرج عن هذا الانعام ، ما يجده حاضرا مدخورا عند من يعرفه مائة ألف دينار .

فلم يسمع كلامه الى أن ظهر الراهب فى الأيام الآمرية ، فوجد هو وغيره الفرصة فيهم ، وكثر الوقائع عليهم ، فقبض عليهم عن آخرهم ومن يعرفهم ، وأخذ منهم الجملة الكبيرة ، ثم بعد ذلك عادوا الى خدمهم بما كان من أسمائهم ، وتجدد من جاههم وانتقامهم من أعدائهم أكثر مما كان أولا ... انتهى .

فانظر — أعزك الله — الى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها ، يتبين لك — بما تقدم ذكره فى هذه المرافعة — من عظم الشأن وكثرة العطاء ، ما يكون دليلا على باقى أحوال الدولة .

ديوان النظر

قال ابن الطوير : أما دواوين الأموال فان أجلها من يتولى النظر عليهم ، وله العزل والولاية ، ومن يده عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، ولم ير فيه نصرانى الا الأخرم ، ولم نتوصل اليه الا بالضمان . وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ، وتخرج له الدواة بغير كرسى . وهو يندب المترسلين لطلب الحساب ، والحث على طلب الأموال ، ومطالبة أرباب الدولة ، ولا يعترض * فيما يقصده من أحد من الدولة .

ديوان التحقيق

هو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه الا كاتب خبير ، وله الخلع والمرتبة والحاجب ، ويلحق برأس الديوان (يعنى متولى النظر) ، ويفتقر اليه فى أكثر الأوقات .

وقال ابن المأمون : وفى هذه السنة (يعنى سنة احدى وخمسمائة) فتح ديوان المجلس .

قال : ولما كثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان ، رغب فى التبجح على الأفضل بن أمير الجيوش ينهضه ، ويسأله أن يشاهده قبل حمله ، وذكر أنه سبعمائة ألف دينار خارجا عن نفقات الرجال .

فجعلت الدنانير فى صناديق بجانب ، والدراهم فى صناديق بجانب ، وقام ابن أبى الليث بين الصفين . فلما شاهد الأفضل ابن أمير الجيوش ذلك ، قال لابن أبى الليث : ياشيخ ، تفرحنى بالمال ! وتربة أمير الجيوش ان بلغنى أن بئرا معطلة ، أو أرضا بائرة ، أو بلدا خراب ، لأضربن عنقك .

فقال : وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب ، أو بئر معطلة ، أو أرض بور ... فأبى أن يكشف عما ذكر . انتهى .

وقتل ابن أبى الليث فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة .

ديوان الجيوش والرواتب

قال ابن الطوير : أما الخدمة فى ديوان الجيوش فتنقسم قسمين :

الأول ديوان الجيش ، وفيه مستوف أصيل ، ولا يكون الا مسلما ، وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدى الخليفة داخل عتبة باب المجلس ، وله الطراحة والمسند ، وبين يديه الحاجب ، وترد عليه أمور الأجناد ، وله العرض والحلى والثياب .

ولهذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد .

واذا عرض أحد الأجناد ، ورضى به عرض دوابه ، فلا يثبت له الا الفرس الجيد من ذكور الخيل واناثها ، ولا يترك لأحد منهم برذون ولا بغل وان كان عندهم البراذين والبغال ،

(*) ص٤٠٠ ج١ ، ط بولاق .

وليس لهم تغيير أحد من الأجناد الا بمرسوم ، وكذلك اقطاعهم .

ويكون بين يدى هذا المستوفى نقباء الأمراء ينهون اليه متجددات الأجناد من الحياة والموت والمرض والصحة ، وكان قد فسح للأجناد فى مقايضة بعضهم بعضا فى الاقطاع بالتوقيعات بغير علامة ، بل بتخريج صاحب ديوان المجلس .

ومن هذا الديوان تعمل أوراق أرباب الجرايات ، وما كان لأمير — وان علا قدره — بلد مقور الا نادرا .

وأما القسم الثانى من هذا الديوان فهو ديوان الرواتب ، ويشتمل على أسماء كل مرتزق وجار وجارية ، وفيه كاتب أصيل بطراحة ، وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة أنفس . والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر ، ومباشرة من استجد ، وموت من مات ، ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم .

وفى هذا الديوان عدة عروض :

العرض الأول يشتمل على راتب الوزير وهو فى الشهر خمسة آلاف دينار ، ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة دينار الى مائتى دينار ، ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل ، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة الى أربعمائة الى ثلثمائة ... خارجا عن الاقطاعات .

العرض الثانى حواشى الخليفة : وأولهم الأستاذون المحنكون على رتبهم وجوارى خدمهم التى لا يباشرها سواهم . فزمام القصر ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدفتر ، ومشاد التاج ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس : لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر . ومن دونهم ينقص عشرة دنانير ، حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير ، وتزيد عدتهم على ألف نفس . ولطبيبى الخاص ، لكل واحد خمسون دينارا . ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

العرض الثالث يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة : فأوله كاتب الدست الشريف وجاريه مائة وخمسون دينارا ، ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا ، ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون دينارا ، ثم حامل السيف وحامل الرمح لكل منهما سبعون دينارا ، وبقية الأزمة على العساكر والسودان من خمسين الى أربعين دينارا الى ثلاثين دينارا .

العرض الرابع يشتمل على المستقر لقاضى القضاة ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار ، وداعى الدعاة مائة دينارا ، ولكل من قراء الحضرة عشرون دينارا الى خمسة عشر الى عشرة ، ولخطباء الجوامع من عشرين دينارا الى عشرة ، وللشعراء من عشرين دينارا الى عشرة دنانير .

العرض الخامس يشتمل على أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم : وأولهم من يتولى ديوان النظر وجاريه سبعون دينارا ، وديوان التحقيق جاريه خمسون دينارا ،

وديوان المجلس أربعون * ديناراً ، وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون ديناراً ، وكاتبه خمسة دنانير ، وديوان الجيوش وجاريه أربعون ديناراً ، والموقع بالقلم الجليل ثلاثون ديناراً ، ولجميع أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات لكل واحد عشرون ديناراً ، ولكل معين من عشرة دنانير الى سبعة الى خمسة دنانير .

العرض السادس يشتمل على المستخدمين بالقاهرة ومصر : لكل واحد من المستخدمين فى ولاية القاهرة وولاية مصر فى الشهر خمسون ديناراً والحماة بالأهراء ، والمناخات ، والجوالى ، والبساتين ، والأملاك ، وغيرها ، لكل منهم من عشرين ديناراً الى خمسة عشر الى عشرة الى خمسة دنانير .

العرض السابع : الفراشون بالقصور برسم خدمتها وتنظيفها خارجاً وداخلاً ، ونصب الستائر المحتاج اليها ، وخدمة المناظر الخارجة عن القصر . فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة وعدتهم خمسة عشر رجلاً ، منهم صاحب المائدة وحامى المطابخ ، من ثلاثين ديناراً الى ما حولها ، ولهم رسوم متميزة ، ويقربون من الخليفة فى الأسمطة التى يجلس عليها . ويليهم الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء ، ويتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة ، وعدتهم نحو الثلثمائة رجل ، وجاريهم من عشرة دنانير الى خمسة دنانير .

العرض الثامن : صبيان الركاب وعدتهم تزيد على ألفى رجل ، ومقدموهم أصحاب ركاب الخليفة وعدتهم اثنا عشر مقدماً ، منهم مقدم المقدمين وهو صاحب الركاب اليمين ، ولكل من هؤلاء المقدمين فى كل شهر خمسون ديناراً . ولهم نقباء من جهة المذكورين يعرفونهم ، وهم مقررون جوقاً على قدر جواريهم : جوقة لكل منهم خمسة عشر ديناراً ، وجوقة لكل منهم عشرة دنانير ، وجوقة لكل منهم خمسة دنانير . ومنهم من ينتدب فى الخدم السلطانية ، ويكون لهم نصيب فى الأعمال التى يدخلونها ، وهم الذين يحملون الملحقات لركوب الخليفة فى المواسم وغيرها .

وأول من قرر العطاء لغلمانه وخدمه ، وأولادهم الذكور والاناث ولنسائهم ، وقرر لهم أيضاً الكسوة العزيز بالله نزار بن المعز .

ديوان الانشاء والمكاتبات

وكان لا يتولاه الا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف ، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابة عنها للكتاب . والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه ، وهذا أمر لا يصل اليه غيره ، وربما بات عند الخليفة ليالى . وكان جاريه مائة وعشرين ديناراً فى الشهر .

وهو أول أرباب الاقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات ، ولا سبيل أن يدخل الى ديوانه بالقصر ، ولا يجتمع بكتابه أحد الا الخواص ، وله حاجب من الأمراء

(*) ص ٤٠١ جـ ١ ، طـ بولاق .

الشيوخ وفراشون ، وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند ، والدواة لكنها بغير كرسي ، وهي من أخص الدوى ، ويحملها أستاذ من أستاذي الخليفة .

التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم

وكان لابد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله ، وتجويد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء ، فهو يجتمع به فى أكثر الأيام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك فيكون الأستاذ ثالثهما ، ويقرأ على الخليفة ملخص السير ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، وله بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست .

ويكون صحبته للجلوس دواة محلاة ، فاذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدواة كاغد فيه عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة .

وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق ، وله طراحة ومسند وفراش يقدم اليه ما يوقع عليه ، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل اليه أحد الا باذن ، وهو يلى صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم ، والكساوى وغيرها .

التوقيع بالقلم الجليل

وهي رتبة جليلة ، ويقال لها الخدمة الصغرى ، ولها الطراحة والمسند بغير حاجب ، بل الفراش لترتيب ما يوقع فيه .

مجلس النظر فى المظالم

كانت الدولة اذا خلت من وزير صاحب سيف ، جلس صاحب الباب فى باب الذهب بالقصر وبين يديه النقباء * والحجاب ، فينادى المنادى بين يديه : ياأرباب الظلامات ... فيحضرون : فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت الى الولاة والقضاة رسالة بكشفها . ومن تظلم ممن ليس من أهل البلدين أحضر قصة بأمره ، فيتسلمها الحاجب منه .

فاذا جمعها أحضرها الى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها ، ثم تحمل الى الموقع بالقلم الجليل ، فيبسط ما أشار اليه الموقع الأول ، ثم تحمل فى خريطة الى الخليفة ، فيوقع عليها ، ثم تخرج فى الخريطة الى الحاجب ، فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه .

فان كان وزيره صاحب سيف ، جلس للمظالم بنفسه ، وقبالته قاضى القضاة ومن جانبيه شاهدان معتبران ، ومن جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ، ويليه صاحب ديوان المال ، وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر ، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم .

ويكون الجلوس بالقصر فى مجلس المظالم فى يومين من الأسبوع .

وكان الخليفة اذا رفعت اليه القصة وقع عليها « يعتمد ذلك ان شاء الله تعالى » ويوقع

(*) ص٤٠٢ جـ١ ، طـ بولاق .

فى الجانب الأيمن منها ... يوقع بذلك ، فتخرج الى صاحب ديوان المجلس ، فيوقع عليها جليلا . ويخلى مكان العلامة ، فيعلم عليها الخليفه وتثبت .

وكانت علامتهم أبدا « الحمد لله رب العالمين » .

وكان الخليفه يوقع فى المسامحه والتسويغ والتحبيس « قد أنعمنا بذلك ، وقد أمضينا ذلك » . وكان اذا أراد أن يعلم ذلك الشىء الذى آنهى وقع « ليحرج الحال فى ذلك » . فاذا احضر اليه اخراج الحال ، علم عليه .

فان كان حينئذ وزير ، وقع الخليفة بخطه « وزيرنا السيد الأجل — وذكر نعته المعروف به — أمتعنا الله ببقائه ، يتقدم بنجاز ذلك ان شاء الله تعالى » ، فيكتب الوزير تحت خط الخليفة « يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ويثبت فى الدواوين » .

رتب الأمراء

وكان أجل خدم الأمراء أرباب السيوف ، خدمة الباب . ويقال لمتولى هذه الخدمة صاحب الباب ، وينعت أولا بالمعظم .

وأول من خدم بها المعظم خمرتاش فى أيام الخليفة الحافظ ، وكان من العقلاء ، وناب عن الحافظ فى مرضه ، فلما عوفى أراده على الوزارة فامتنع .

وله نائب يقال له النائب ، وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة ، ومقتضاها أنها مميزة ، ولا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمائم ، وينعت أبدا بعدى الملك .

وهو الذى يتلقى الرسل الواصلة من الدول ، ومعه نواب الباب فى خدمته ، ويحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدة لهم ، ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب ، فيكون صاحب الباب يمينا وهو يسار ، ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم ، ولا يمكن من التقصير فى حقوقهم واجتماع الناس بهم ، والاطلاع على ما جاءوا فيه ، ولا من ينقل الأخبار اليهم

ويلى رتبة صاحب الباب الاسفهسلار ، وهو زمام كل زمام ، واليه أمور الأجناد .

ثم يليه حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة ، ثم من يزم طائفتى الحافظية والآمرية وهما وجه الأجناد . وهؤلاء أرباب الأطواق ، ويليهم أرباب القصب والعماريات وهى الأعلام ، ثم زى الطوائف ، ثم من يترشح لذلك من الأماثل .

وكانت الدولة لا تسند ذلك الا الى أرباب الشجاعة والنجدة ، ولهذا دخل فيه أخلاط الناس من الأرمن والروم وغيرهم . وعلى ذلك كان عملهم لا الزينة والتباهى .

قاضى القضاة

وكان من عادة الدولة أنه اذا كان وزير رب سيف ، فانه يقلد القضاء رجلا نيابة عنه ، وهذا انما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالى .

واذا كان الخليفة مستبدا ، قلد القضاء رجلا ونعته بقاضي القضاة ، وتكون رتبته أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، ويكون في بعض الأوقات داعيا ، فيقال له حينئذ قاضي القضاة وداعي الدعاة ، ولا يخرج شيء من الأمور الدينية عنه .

ويجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو ابن العاص بمصر على طراحة ومسند حرير ، فلما ولي ابن عقيل القضاء رفع المرتبة والمسند ، وجلس على طراحات السامان ، فاستمر هذا الرسم .

ويجلس الشهود حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم ، وبين يديه خمسة من الحجاب : اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم اليه .

وله أربعة من الموقعين بين يديه ، اثنان يقابلان اثنين . وله كرسي الدواة ، وهي دواة محلاة بالفضة تحمل اليه من خزائن القصور ، ولها حامل بجامكية في الشهر على الدولة .

ويقدم له من الاصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء ، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة ، وعليها من خزانة السروج سرج محلى ثقيل وراءه دفتر فضة ، ومكان الجلد حرير .

وتأتيه في المواسم الأطواق ، ويخلع عليه * الخلع المذهبة بلا طبل ولا بوق ... الا اذا ولي الدعوة مع الحكم ، فان للدعوة في خلعها الطبل والبوق والبنود الخاص ، وهي نظير البنود التي يشرف بها الوزير صاحب السيف .

واذا كان للحكم خاصة ، كان حواليه القراء رجالة ، وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة والوزير ان كان ثم ، ويحمل بنواب الباب والحجاب ، ولا يتقدم عليه أحد في محضر هو حاضره من رب سيف وقلم ، ولا يحضر لا ملاك ولا جنازة الا باذن ، ولا سبيل الى قيامه لأحد وهو في مجلس الحكم ، ولا يعدل شاهد الا بأمره .

ويجلس بالقصر في يومي الاثنين والخميس أول النهار للسلام على الخليفة ، ونوابه لا يفترون عن الأحكام ، ويحضر اليه وكيل بيت المال .

وكان له النظر في ديوان الضرب لضبط ما يضرب من الدنانير ، فكان يحضر مباشرة التغليق بنفسه ، ويختم عليه ويحضر لفتحه .

وكان القاضي لا يصرف الا بجنحة ، ولا يعدل أحدا الا بتزكية عشرين شاهدا ، عشرة من مصر وعشرة من القاهرة ، ورضى الشهود به ، ولا يحتمي أحد على الشرع ، ومن فعل ذلك أدب .

قاعة الفضة

وهي من جملة قاعات القصر .

قاعة السدرة

كانت بجوار المدرسة والتربة الصالحية ، واشتراها قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور

(*) ص٤٠٢ جـ١ ، ط. بولاق .

المقدسى الحنبلى ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، بألف وخمسة وتسعين دينارا ، فى رابع شهر ربيع الآخر سنة سنين وستمائة ، من كمال الدين ظافر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، ثم باعها شمس الدين المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى ربيع الآخر المذكور . وكان يتوصل اليها من باب البحر .

قاعة الخيم

كانت شرقى قاعة السدرة . وقد دخلت قاعة السدرة وقاعة الخيم فى مكان المدرسة الظاهرية العتيقة .

المناظر الثلاث

استجدهن الوزير المأمون البطائحى ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله : احداهن بين باب الذهب وباب البحر ، والأخرى على قوس باب الذهب ، ومنظرة ثالثة . وكان يقال لها الزاهرة والفاخرة والناضرة . وكان يجلس الخليفة فى احداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير ، ويقف الوزير فى قوس باب الذهب .

قصر الشوك

قال ابن عبد الظاهر : كان منزلا لبنى عذرة قبل القاهرة يعرف بقصر الشوك ، وهو الآن أحد أبواب القصر ... انتهى .

والعامة تقول « قصر الشوق » .

وأدركت مكانه دارا استجدت بعد الدولة الفاطمية ، هدمها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى سنة احدى عشرة وثمانمائة لينشئها دارا ، فمات قبل ذلك .

وموضعه اليوم بالقرب من دار الضرب فيما بينه وبين المارستان العتيق .

قصر أولاد الشيخ

هذا المكان من جملة القصر الكبير ، وكان قاعة ، فسكنها الوزير الصاحب الأمير الكبير معين الدين حسين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعرف به .

وأدركت هذا المكان خطا يعرف بالقصر ، يتوصل اليه من زقاق تجاه حمام بيسرى ، وفيه عدة دور : منها دار الطواشى سابق الدين ، ومدرسته المعروفة بالمدرسة السابقية . وكان يتوصل اليه من الركن المخلق أيضا ، من الباب المظلم تجاه سور سعيد السعداء ، المعروف قديما بباب الريح .

ثم عرف بقصر ابن الشيخ ، وعرف فى زمننا بباب القصر ، الى أن هدمه جمال الدين الأستادار كما يأتى ان شاء الله تعالى .

قصر الزمرذ *

هو من جملة القصر الكبير ، وعرف أخيرا بقصر قوصون ، ثم عرف فى زمننا بقصر الحجازية . وقيل له قصر الزمرذ لأنه كان

(*) ص٤٠٤ جـ١ ، ط . بولاق .

بجوار باب الزمرذ أحد أبواب القصر . ووجد به فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة تحت التراب عمودان عظيمان من الرخام الأبيض ، فعمل لهما ابن عابد رئيس الحراريق السلطانية أساقيل ، وجرهما الى المدرسة التى أنشأها الملك الأشرف شعبان بن حسين ، تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل .

وأدركنا لجر هذين العمودين أوقاتا فى أيام تجمع الناس فيها من كل أوب لمشاهدة ذلك ، ولهجوا بذكرهما زمنا ، وقالوا فيهما شعرا وغناء كثيرا ، وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود .

وكانت الأنفس حينئذ منبسطة ، والقلوب خالية من الهموم ، وللناس اقبال على اللهو لكثرة نعمهم وطول فراغهم .

وكان العمودان المذكوران مما ارتدم من أنقاض القصر ، فسبحان الوارث .

الركن المخلق

موضعه الآن تجاه حوض الجامع الأقمر ، على يمنة من أراد الدخول الى المسجد المعروف الآن بمعبد موسى . وقيل له الركن المخلق لأنه ظهر فى سنة ستين وستمائة فى هذا الموضع حجر مكتوب عليه « هذا مسجد موسى عليه السلام » ، فخلق بالزعفران ، وسمى من ذلك اليوم بالركن المخلق .

وأخبرنى الأمير الوزير أبو المعالى يلبغا السالمى أنه قرأ فى الأسطر المكتوبة بأسكفة باب الجامع الأقمر كلاما من جملته « والحوانيت التى بالركن المخوق » بواو بعد الخاء . فرأيت بعد ذلك فى « الأمالى » للقالى وقال أبو عبيدة ، عن أبى عمرو : الخوقاء الصحراء التى لا ماء بها ، ويقال الواسعة ، وأخوق واسع .

فلعله سمى المخوق بمعنى الاتساع ، فكان ركنا متسعا وفى بناء واسع ، أو يكون المخلق باللام من قولهم قدح مخلق — بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها — أى مستو أملس . وكل ما لين وملس فقد خلق ، فكل مملس مخلق ، وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق عندما خلقوه بالزعفران ، والله أعلم .

السقيفة (١)

وكان من جملة القصر الكبير موضع يعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون . وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين ، فاذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال : لا اله الا الله محمد رسول الله ، على ولى الله . فيسمعه الخليفة فيأمر باحضاره اليه ، أو يفوض أمره الى الوزير أو القاضى أو الوالى .

ومن غريب ما وقع أن الموفق بن الخلال لما كان يتحدث فى أمور الدواوين أيام الخليفة الحافظ لدين الله ، وخرج من اتندب بعد انحطاط النيل من العدول والنصارى

(١) قوله السقيفة ، هكذا هنا فى النسخ ، بالقاف والفاء ، وهو الظاهر المتبادر ، خلافا لما مر من انها سفينة بالفاء والنون . أ هـ . مصححه .

الكتاب الى الأعمال ، لتحرير ما شمله الرى وزرع من الأراضى ، وكتابة المكلفات .

فخرج الى بعض النواحى من يمسحها من شاد وناظر وعدول ، وتأخر الكاتب النصرانى ثم لحقهم وأراد التعدية الى الناحية ، فحمله ضامن تلك المعدية الى البر ، وطلب منه أجرة التعدية ، فنفر فيه النصرانى وسبه وقال : أنا ماسح هذه البلدة ، وتريد منى حق التعدية ؟

فقال له الضامن : ان كان لى زرع خذه . وقلع لجام بغلة النصرانى ، وألقاه فى معديته . فلم يجد النصرانى بدا من دفع الأجرة اليه حين أخذ لجام بغلته .

فلما تمم مساحة البلد ، وبيض مكلفة المساحة ليحملها الى دواوين الباب — وكانت عادتهم حينئذ كتب الجملة بزيادة عشرين فدانا — ترك بياضا فى بعض الأوراق ، وقابل العدول على المكلفة ، وأخذ الخطوط عليها بالصحة ، ثم كتب فى البياض الذى تركه « أرض اللجام باسم ضامن المعدية : عشرين فدانا قطيعة . كل فدان أربعة دنانير ، عن ذلك ثمانون دينارا » . وحمل المكلفة الى ديوان الأصل .

وكانت العادة اذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر ، ندب من الجند من فيه حماسة وشدة ، ومن الكتاب العدول ، وكاتب نصرانى . فيخرجون الى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة ، فينفق فى الأجناد ، فانه لم يكن حينئذ للأجناد اقطاعات كما هو الآن .

وكان من العادة أن يخرج الى كل ناحية ممن ذكر من لم يكن خرج وقت المساحة ، بل ينتدب قوم سواهم . فلما خرج الشاد والكاتب والعدول لاستخراج ثلث مال الناحية ، استدعوا أرباب الزرع على ما تشهد به المكلفة ، ومن جملتهم ضامن المعدية . فلما حضر ألزم بستة وعشرين دينارا وثلثى دينار ، عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا التى تشهد بها المكلفة عن خراج أرض اللجام .

فأنكر الضامن أن تكون له زراعة بالناحية ، وصدقه أهل البلد . فلم يقبل الشاد ذلك — وكان عسوفا — وأمر به فضرب بالمقارع ، واحتج بخط العدول على المكلفة ، وما زال به حتى باع معديته وغيرها ، وأورد ثلث المال الثابت فى المكلفة ★ .

وسار الى القاهرة ، فوقف تحت السقيفة ، وأعلن بما تقدم ذكره ، فأمر الخليفة الحافظ باحضاره . فلما مثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة ، وحكى له ما اتفق منه فى حق النصرانى ، وما كاده به .

فأحضر ابن الخلال وجميع أرباب الدواوين ، وأحضرت المكلفات التى عملت للناحية المذكورة فى عدة سنين ماضية ، وتصفحت بين يديه سنة سنة ، فلم يوجد لأرض اللجام ذكر ألبتة .

فحينئذ أمر الخليفة الحافظ باحضار ذلك النصرانى وسمر فى مركب ، وأقام له من يطعمه ويسقيه ، وتقدم بأن يطاف به سائر الأعمال ، وينادى عليه ... ففعل ذلك .

(★) ص٤٠٥ جـ١ ، ط. بولاق .

وأمر بكف أيدى النصرانية كلها عن الخدم فى سائر المملكة ، فتعطلوا مدة الى أن ساءت أحوالهم .

وكان الحافظ مغرما بعلم النجوم ، وله عدة من المنجمين من جملتهم شخص صار اليه عدة من أكابر كتاب النصارى ، ودفعوا اليه جملة من المال ، ومعهم رجل منهم يعرف بالأخرم بن أبى زكريا ، وسألوه أن يذكر للحافظ فى أحكام تلك السنة حلية هذا الرجل ، فانه ان أقامه فى تدبير دولته زاد النيل ، ونما الارتفاع ، وزكت الزروع ، ونتجت الأغنام ، ودرت الضروع ، وتضاعفت الأسماك ، وورد التجار ، وجرت قوانين المملكة على أجمل الأوضاع .

فطمع ذلك المنجم فى كثرة ما عاينه من الذهب ، وعمل ما قرره النصارى معه .

فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة ، فأمر باحضار الكتاب من النصارى ، وصار يتصفح وجوههم من غير أن يطلع أحدا على ما يريده ، وهم يؤخرون الأخرم عن الحضور اليه — قصدا منهم ، وخشية أن يفطن بمكرهم — الى أن اشتد الزامهم باحضار سائر من بقى منهم ، فأحضروه بعد أن وضعوا من قدره .

فلما رآه الحافظ ، رأى فيه الصفات التى عينها منجمه ، فاستدناه اليه وقربه ، وآل أمره الى أن ولاه أمير الدواوين .

فأعاد كتاب النصارى أوفر ما كانوا عليه ، وشرعوا فى التجبر ، وبالغوا فى اظهار الفخر ، وتظاهروا بالملابس العظيمة ، وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج المحلاة واللجم الثقيلة ، وضايقوا المسلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات .

وصودر بعض كتاب المسلمين فألجأته الضرورة الى بيع أولاده وبناته ، فيقال انه اشتراهم بعض النصارى ، وفى ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى فى الفروج ... وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرا ... وصار الأمر فى أيدى العلوج
فقل للاعور الدجال هذا ... زمانك ان عزمت على الخروج

وموضع السقيفة فيما بين درب السلامى وبين خزانة البنود ، يتوصل اليه من تجاه البئر التى قدام دار كانت تعرف بقاعة ابن كتيلة . ثم استولى عليها جمال الدين الأستادار ، وجعلها مسكنا لأخيه ناصر الدين الخطيب ، وغير بابها .

دار الضرب

هذا المكان ، الذى هو الآن دار الضرب من بعض القصر ، كان خزانة بجوار الايوان الكبير ، سجن بها الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد . [٩٠]

وذلك أن الآمر لما قتل فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة قام العادل برغش وهزار الملوك جوامرد — وكانا أخص غلمان الآمر — بالأمير عبد المجيد، ونصباه خليفة، ونعتاه بالحافظ لدين الله، وهو يومئذ أكبر الأقارب سنا.

وذكر أن الآمر قال قبل أن يقتل بأسبوع عن نفسه: « المسكين المقتول بالسكين »، وأنه أشار الى أن بعض جهاته حامل منه، وأنه رأى أنها ستلد ذكرا وهو الخليفة من بعده، وأن كفالته للامير عبد المجيد. فجلس على أنه كافل للمذكور، وندب هزار الملوك للوزارة، وخلع عليه.

فلم ترض الأجناد به، وثاروا بين القصرين — وكبيرهم رضوان بن ولخشى — وقاموا بأبى على بن الأفضل، الملقب بكتيفات، وقالوا: لا نرضى الا أن يصرف هزار الملوك، وتفوض الوزارة لأحمد بن الأفضل فى سادس عشره.

فكان أول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة وقيده، وهم بخلعه فلم يتأت له ذلك. وكان اماميا، فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة، وصار يدعو للقائم المنتظر، ونقش على السكة « الله الصمد. الامام محمد ».

فلما قتل فى يوم الثلاثاء، سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة، بالميدان خارج باب الفتوح، سارع صبيان الخاص الذين تولوا قتله الى الحافظ، وأخرجوه من الخزانة * المذكورة، وفكوا عنه قيده — وكان كبيرهم يانس — وأجلسوه فى الشباك على منصب الخلافة، وطيف برأس أحمد بن الأفضل، وخلع على يانس خلع الوزارة.

وما زالت الخلافة فى يد الحافظ حتى مات ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، عن سبع وستين سنة: منها خليفة، من حين قتل ابن الأفضل، ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وأيام.

خزائن السلاح

كانت بالايوان الكبير الذى تقدم ذكره، فى صدر الشباك الذى يجلس فيه الخليفة، تحت القبة التى هدمت فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة كما تقدم.

وخزائن السلاح المذكورة هى الآن باقية بجوار دار الضرب خلف المشهد الحسينى، وعقد الايوان باق وقد تشعث.

المارستان العتيق

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة: فى تاسع ذى العقدة أمر السلطان (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) بفتح مارستان للمرضى والضعفاء، فاختير له مكان بالقصر، وأفرد برسمه من

(*) ص٤٠٦ جـ١، ط. بولاق.

أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار ، وغلات جهاتها الفيوم .

واستخدم له أطباء وطبائعيين وجرايحيين ومشارف وعاملا وخداما . ووجد الناس به رفقا ، واليه مستروحا ، وبه نفعا .

وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم ، وأفرد برسمه من ديوان الأحباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارا ، واستخدم له طبيب وعامل ومشارف ، وارتفق به الضعفاء ، وكثر بسبب ذلك الدعاء .

وقال ابن عبد الظاهر : كان قاعة بناها العزيز بالله فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة . وقيل ان القرآن مكتوب فى حيطانها ، ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها .

ولما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه الله قال : هذا يصلح أن يكون مارستانا . وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا : انه صحيح .

وكان قديما المارستان — فيما بلغنى — القشاشين ، وأظنه المكان المعروف بدار الديلم انتهى .

والقشاشين المذكورة تعرف اليوم بالخراطين ، المسلوك فيها الى الخيميين والجامع الأزهر .

التربة المعزية

كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية ، وفيها دفن المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب وهم : الامام المهدى عبيد الله ، وابنه القائم بأمر الله محمد ، وابنه الامام المنصور بنصر الله اسماعيل .

واستقرت مدفنا يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم ، وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وهو مكان كبير من جملتها الموضع الذى يعرف اليوم بخط الزراكشة العتيق ، ومن هناك بابها .

ولما أنشأ الأمير جهاركس الخليلى خانه المعروف به بالخط المذكور ، أخرج ما شاء الله من عظامهم ، فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية . ويمتد من هناك من حيث المدرسة البديرية ، خلف المدارس الصالحية النجمية ، وبها الى اليوم بقايا من قبورهم .

وكان لهذه التربة عوايد ورسوم : منها أن الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد الى القصر ، لابد أن يدخل الى زيارة آبائه بهذه التربة ، وكذلك لابد أن يدخل فى يوم الجمعة دائما ، وفى عيدى الفطر والأضحى ، مع صدقات ورسوم تفرق .

قال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى شوالا سنة ست عشرة وخمسمائة) تنبه ذكر الطائفة النزارية ، وتقرر بين يدى الخليفة الآمر بأحكام الله أن يسير رسول الى صاحب الموق ، بعد أن جمعوا الفقهاء من الاسماعيلية والامامية ، وقال لهم الوزير المأمون البطائحى : ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية ؟

فقال كل منهم : لم يكن لنزار امامة ، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ،

ووجب قتله ... وذكروا حجتهم . فكتب الكتاب .

ووصلت كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قويت شوكتهم ، واشتدت فى البلاد طمعتهم ، وأنهم سيروا الآن ثلاثة آلاف برسم النجوى وبرسم المؤمنين الذين تنزل الرسل عندهم ، ويختفون فى محلهم .

فتقدم الوزير بالفحص عنهم ، والاحتراز التام على الخليفة فى ركوبه ومتنزهاته ، وحفظ الدور والأسواق . ولم يزل البحث فى طلبهم الى أن وجدوا فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال ... فصلبوا .

وأما المال ، وهو ألفا دينار ، فان الخليفة أبى قبوله ، وأمر أن ينفق فى السودان عبيد الشراء . وأحضر من بيت المال نظير المبلغ ، وتقدم بأن يصاغ به قنديلان من ذهب وقنديلان * من فضة ، وأن يحمل منها قنديل ذهب وقنديل فضة الى مشهد الحسين بثغر عسقلان ، وقنديل الى التربة المقدسة ... تربة الأئمة بالقصر . .

وأمر الوزير المأمون باطلاق ألفى دينار من ماله ، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسم المشهد العسقلانى ، وأن يصاغ على المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب بالجامع العتيق بمصر من فوق الفضة ذهب .

وأطلق حاصل الصناديق التى تشتمل على مال النجاوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق فى الجوامع الثلاثة : الأزهر بالقاهرة ، والعتيق بمصر ، وجامع القرافة ، وعلى فقراء المؤمنين على أبواب القصور .

وأطلق من الأهراء ألفى اردب قمحا ، وتصدق على عدة من الجهات بجملة كثيرة ، واشتريت عدة جوار من الحجر ، وكتب عتقهن للوقت ، وأطلق سراحهن .

وقال فى كتاب « الذخائر » : ان الأتراك طلبوا من المستنصر نفقة فى أيام الشدة فماطلهم ، وانهم هجموا على التربة المدفون فيها أجداده فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب . وكانت قيمة ذلك مع ما اجتمع اليه من الآلات الموجودة هنالك — مثل المداخن والمجامر وحلى المحاريب وغير ذلك — خمسين ألف دينار .

القصر النافعى

قال ابن عبد الظاهر : القصر النافعى قرب التربة ، يقرب من جهة السبع خوخ ، كان فيه عجائز من عجائز القصر وأقارب الأشراف ... انتهى .

وموضع هذا القصر اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب ، وما فى قبليه من خان منجك ، ودار خواجا عبد العزيز المجاورة للمسجد الذى بحذاء خان منجك ، وما بجوار دار خواجا من الزقاق المعروف بدرب الحبشى .

وكان حد هذا القصر الغربى ينتهى الى الفندق الذى بالخيميين ، المعروف قديما بخان منكورس ، ويعرف اليوم بخان القاضى .

(*) ص٤٠٧ جـ١ ، ط. بولاق .

واشترى بعض هذا القصر ، لما بيع بعد زوال الدولة ، الأمير ناصر الدين عثمان بن سنقر الكاملى المهمندار ، الذى يعرف بفندق المهمندار ، بعد أن كان اصطبلا له .

واشترى بعضه الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى — المعروف بالدرفيل — دوادار الملك الظاهر بيبرس ، وعمره اصطبلا ودارا ، وهى الدار التى تعرف اليوم بخواجا عبد العزيز على باب دربْ الحبشى ، ثم عمل الاصطبل الخان الذى يعرف اليوم بخان منجك .

وابتنى الناس فى مكان درب الحبشى الدور ، وزال أثر القصر فلم يبق منه شىء ألبتة .

الخزائن التى كانت بالقصر

وكانت بالقصر الكبير عدة خزائن ، منها : خزانة الكتب ، وخزانة البنود ، وخزائن السلاح ، وخزائن الدرق ، وخزائن السروج ، وخزانة الفرش ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الأدم ، وخزائن الشراب ، وخزانة التوابل ، وخزائن الخيم ، ودار التعبية ، وخزائن دار أفتكين ، ودار الفطرة ، ودار العلم ، وخزانة الجوهر والطيب

وكان الخليفة يمضى الى موضع من هذه الخزائن ، وفى كل لخزانة دكة عليها طراحة ، ولها فراش يخدمها وينظفها طول السنة ، وله جار فى كل شهر ... فيطوفها كلها فى السنة .

خزانة الكتب

قال المسيحى : وذكر عند العزيز بالله كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب « العين » منها نسخة بخط الخليل ابن أحمد .

وحمل اليه رجل نسخة من كتاب « تاريخ الطبرى » اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من « تاريخ الطبرى » ، منها نسخة بخطه .

وذكر عنده كتاب « الجمهرة » لابن دريد ، فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها .

وقال فى كتاب « الذخائر » : عدة الخزائن التى برسم الكتب ، فى سائر العلوم بالقصر ، أربعون خزانة : خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وان الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة فى شدة المستنصر ، ألفان وأربعمائة ختمة قرآن فى ربعات بخطوط منسوبة ، زائدة الحسن ، محلاة بذهب وفضة وغيرهما . وان جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم ببعض قيمته ، ولم يبق فى خزائن القصر البرانية منه شىء بالجملة ، دون خزائن القصر الداخلة التى لا يتوصل اليها .

ووجدت صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما .

قـال : وكنت بمصر فى العشر الأول من محرم سنة احدى وستين وأربعمـائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا محمولة الى * دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ، فسـألت عنهـا ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطيـر ابن الموفق فى الدين بايجاب وجبت لهمـا عمـا يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين :

وان حصة الوزير أبى الفرج منها قومت عليـه ، من جارى مماليكه وغلمانه ، بخمسة آلاف دينار . وذكر لى من له خبرة بالـكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار .

ونهب جميعهـا من داره يوم انهزم ناصر الدولة ابن حمدان من مصر فى صفر من السنة المذكورة ، مع غيرها ممـا نهب من دور من سـار معـه من الوزير أبى الفرج وابن أبى كدينة وغيرهما .

هـذا سـوى ما كان فى خزائن دار العلم بالقاهرة ، وسوى ما صار الى عماد الدولة أبى الفضل بن المحترق بالاسكندرية ، ثم انتقـل بعد مقتله الى المغرب .

وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار اليه بالابتياع والغصب فى بحر النيـل الى الاسكندرية ، فى سـنة احدى وسـتين وأربعمـائة وما بعدها ، من الـكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليـد وغرابة ، التى أخـذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسـم عمـل ما يلبسـونه فى أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان — أعز الله أنصاره — وأن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم .

سوى ما غرق وتلف وحمل الى سـائر الأقطار . وبقى منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب ، فصار تلالا باقية الى اليوم فى نواحى آثار تعرف بتلال الكتب .

وقال ابن الطوير : خزانة الـكتب كانت فى أحد مجالس المارستان اليوم (يعنى المارستان العتيق) ، فيجيء الخليفة راكبا ، ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ، ويحضر اليه من يتـولاها — وكان فى ذلك الوقت الجليس بن عبـد القـوى — فيحضر اليـه المصاحف بالخطوط المنسوبة ، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب . فان عنّ له أخـذ شيء منها أخذه ثم يعيده .

وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم ، والرفوف مقطعة بحـواجز ، وعلى كل حـاجز باب مقفـل بمفصلات وقفل .

وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتـاب من المجلـدات ، ويسـير من المجردات : فمنها الفقـه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسـير الملوك ، والنجـامة والروحانيـات والكيمياء ، من كل صنف نسـخ . ومنهـا النواقص التى ما تممت ... كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة ، وما فيها من المصاحف الكريمة ، فى مكان فوقها .

(*) ص٤٠٨ ، جـ١ ، ط. بولاق .

وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره ، وتولى بيعها ابن صورة فى أيام الملك الناصر صلاح الدين .

فاذا أراد الخليفة الانفصال ، مشى فيها مشية لنظرها ، وفيها ناسخان وفراشان : صاحب المكتبة وآخر ، فيعطى الشاهد عشرين دينارا ، ويخرج الى غيرها .

وقال ابن أبى طى ، بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر : ومن جملة ماباعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا .

ويقال انه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من « تاريخ الطبرى » الى غير ذلك .

ويقال انها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب . وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة ... انتهى .

ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على ، لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة ، جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد ، وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدة أعوام ... فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضى الفاضل منها شىء .

وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

خزانة الكسوات

قال ابن أبى طى : وعمل (يعنى المعز لدين الله) دارا وسماها دار الكسوة . كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبز ، ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف ، وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك . وجعل ذلك رسما يتوارثونه فى الأعقاب ، وكتب بذلك كتبا ، وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة .

وقال عند ذكر انقراض الدولة : ومن أخبارهم أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة الى جميع خدمهم وحواشيهم ، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف والشتاء من العمامة الى السراويل ، وما دونه من الملابس والمنديل ، من فاخر الثياب ونفيس الملبوس . ويقومون لهم بجميع ما يحتاجون اليه من نفيس المطعومات والمشروبات .

وسمعت من يقول : انه حضر كسا القصر التى تخرج فى الصيف والشتاء ، فكان مقدارها ستمائة ألف دينار وزيادة .

وكانت خلعهم على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب . وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والأسورة والسيوف المحلاة . وكان يخلع على * الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر .

(*) ص٤٠٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال ابن المأمون : وجلس الأجل (يعنى الوزير المأمون) فى مجلس الوزارة لتنفيذ الأمور وعرض المطالعات ، وحضر الكتاب ومن جملتهم ابن أبى الليث كاتب الدفتر ، ومعه ما كان أمر به من عمل جرائد الكسوة للشتاء بحكم حلوله وأوان تفرقتها ، فكان ما اشتمل عليه المتفق فيها ، لسنة ست عشرة وخمسمائة ، من الأصناف أربعة عشر ألفا وثلثمائة وخمس قطع .

وان أكثر ما أنفق عن مثل ذلك فى الأيام الأفضلية ، فى طول مدتها ، فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة : ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وسبعون قطعة ، يكون الزائد عنها — بحكم ما رسم به فى منفق سنة ست عشرة — خمسة آلاف وستمائة وأربعا وثلاثين قطعة .

ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر الشهر ، وقد تضاعفت عما كانت عليه فى الأيام الأفضلية لهذا الموسم . وهى تشتمل على ذهوب وسلف دون العشرين ألف دينار ، وهو عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحلل ، لأن الحلل فيه تعم الجماعة ، وفى غيره للأعيان خاصة .

فأحضر الأمير افتخار الدولة ، مقدم خزانة الكسوة الخاص ، ليتسلم ما يختص بالخليفة ، وهو برسم الموكب : بدلة [1] خاص جليلة مذهبة ، ثوبها موشح مجاوم مذايل ، عدتها باللفافتين احدى عشرة قطعة : السلف عنها مائة وستة وسبعون دينارا ونصف ، ومن الذهب العالى المغزول ثلثمائة وسبعة وخمسون مثقالا ونصف ، كل مثقال أجرة غزله ثمن دينار ، ومن الذهب العراقى ألفان وتسعمائة وأربع وتسعون قصبة .

تفصيل ذلك : شياشية طميم : السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . منديل بعمود ذهب : السلف سبعون وألفان ومائتان وخمسون قصبة ذهبا عراقيا ... فان كان الذهب نظير المصرى ، كان الذى يرقم فيه ثلثمائة وخمسة وعشرين مثقالا ، لأن كل مثقال نظير تسع قصبات ذهبا عراقيا .

وسط سرب بطانة للمنديل : السلف عشرة دنانير وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . ثوب موشح مجاوم مطرف : السلف خمسون دينارا وثلثمائة وأحد وخمسون مثقالا ونصف ذهبا عاليا ، أجرة كل مثقال ثمن دينار ، تكون جملة مبلغه وقيمة ذهبه ثلثمائة وأربعة وتسعين دينارا ونصفا .

ثوب ديبقى حريرى وسطانى : السلف اثنا عشر دينارا . غلالة ديبقى حريرى : السلف عشرون دينارا . منديل كم أول مذهب : السلف خمسة دنانير ومائتان وأربع قصبات ذهبا عراقيا . منديل كم ثان حريرى : السلف خمسة دنانير . حجرة : السلف أربعة دنانير . عرضى مذهب : السلف خمسة دنانير وخمسة عشر مثقالا ذهبا عاليا . عرضى لفافة للتخت : دينار واحد ونصف .

بدلة ثانية برسم الجلوس على السماط ، عدتها باللفافتين عشر قطع : السلف مائة

(١) قوله « بدلة خاص » الخ .. ماذكره فى هذه البدله ، وما بعدها من الكسوات والحلل ، تفصيله فى الغالب لم يوافق اجماله على مقتضى مابيدى من النسخ ، ولا يخفى مافى عباراته ، فى هذا المقام وأمثاله ، من القلق ومخالفة العربية . اهـ مصححة .

وأربعة عشر دينارا ، ومن الذهب العالى خمسة وخمسون مثقالا ، ومن الذهب العراقى سبعمائة وأربعون قصبة .

تفصيل ذلك : شاشية طميم : السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . منديل : السلف ستون دينارا وستمائة قصبة ذهبا عراقيا . شقة وكم : السلف ستة عشر دينارا وخمسة وخمسون مثقالا ذهبا عاليا ، أجرة كل مثقال ثمن دينار . شقة ديبقى حريرى وسطانى : اثنا عشر دينارا . شقة ديبقى غلالة : ثمانية دنانير . منديل الكم الحريرى : خمسة دنانير . حجرة : أربعة دنانير . عرضى : خمسة دنانير . عرضى برسم التخت : دينار واحد ونصف .

وهذه البدلة لم تكن فيما تقدم فى أيام الأفضل ، لأنه لم يكن ثم سماط يجلس عليه الخليفة ، فانه كان قد نقل ما يعمل فى القصور من الأسمطة والدواوين الى داره فصار يعمل هناك .

ما هو برسم الأجل أبى الفضل جعفر أخى الخليفة الآمر : بدلة مذهبة مبلغها تسعون دينارا ونصف ، وخمسة وعشرون مثقالا ذهبا عاليا ، وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا .

تفصيل ذلك : منديل : السلف خمسون دينارا وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا . شقة ديبقى حريرى وسطانى : السلف عشرة دنانير . شقة غلالة ديبقى : السلف ثمانية دنانير . حجرة : ثلاثة دنانير وثلث . عرضى ديبقى : ثلاثة دنانير .

الجهة العالية بالدار الجديدة التى يقوم بخدمتها جوهر : حلة مذهبة موشح مجاوم مذايل مطرف ، عدتها خمس عشرة قطعة : سلفها ستة آلاف ، وثلثمائة وثلاثون قصبة .

تفصيل ذلك : مذهب مكلف موشح مجاوم السلف خمسة عشر دينارا وستمائة وستون قصبة . سداسى مذهب : السلف ثمانية عشر دينارا ومائتا قصبة ، معجر أول مذهب موشح مجاوم مطرف : السلف خمسون دينارا وألف وتسعمائة قصبة . معجر ثان حريرى : السلف خمسة وثلاثون دينارا ونصف . رداء حريرى أول : السلف عشرة دنانير ونصف . رداء حريرى ثان : السلف تسعة دنانير . ذراعة ذراعة موشح مجاوم مذايل مذهبة : السلف خمسة وتسعون دينارا ، ومن الذهب العراقى ألفان وستمائة وخمس وخمسون قصبة .

شقة ديبقى حريرى وسطانى : السلف عشرون دينارا ونصف . شقة ديبقى بغير رقم برسم عجز التفصيل : ثلاثة دنانير . ملاءة ديبقى : السلف أربعة وعشرون دينارا وستمائة قصبة . منديل * كم أول : السلف ستة دنانير ومائة وستون قصبة . منديل كم ثان : السلف خمسة دنانير ومائة وستون قصبة . منديل كم ثالث : السلف خمسة دنانير . حجرة : ثلاثة دنانير . عرضى ديبقى : ثلاثة دنانير . جهة مكنون القاضى بمثل ذلك على الشرح والعدة .

جهة مرشد : حلة مذهبة عدتها أربع عشرة قطعة : السلف مائة وأحد وأربعون دينار ،

(*) ص٤١٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ومن الذهب العراقى آلف وستمائة وتسع وثمانون قصبة . جهة عنبر مثل ذلك . السيدة جهة ظل مثل ذلك . جهة منجب مثل ذلك .

الأمير أبو القاسم عبد الصمد : بدلة مذهبة . الأمير داود مثله . السيدة العمة : حلة مذهبة . السيدة العايدة العمة مثل ذلك .

الموالى الجلساء من بنى الأعمام ، وهم : أبو الميمون ابن عبد المجيد ، والأمير أبو اليسر ابن الأمير محسن ، والأمير أبو على ابن الأمير جعفر ، والأمير حيدرة ابن الأمير عبد المجيد ، والأمير موسى ابن الأمير عبد الله ، والأمير أبو عبد الله ابن الأمير داود : لكل منهم بدلة مذهبة .

البنون والبنات من بنى الأعمام غير الجلساء : لكل منهم بدلة حريرى .

ست سيدات : لكل منهن حلة حريرى .

جهة المولى أبى الفضل جعفر التى يقوم بخدمتها ريحان : حلة مذهبة .

جهة المولى عبد الصمد : حلة حريرى .

ما يختص بالدار الجيوشية والمظفرية ، فعلى ما كان بأسمائهم .

المستخدمات لخزانة الكسوة الخاص : زين الخزان المقدمة حلة مذهبة . ست خزان لكل منهن حلة حريرى . عشر وقافات لكل منهن كذلك . المعلمة مقدمة المائدة كذلك . رايات مقدمة خزان الشراب كذلك .

المستخدمات من أرباب الصنائع من القصوريات وممن انضاف اليهن من الأفضليات : مائة وسبعون حلة مذهبة وحريرى ، على التفصيل المتقدم .

المستخدمات عند الجهات العالية : جهة جوهر عشرون حلة مذهبة وحريرى . وكذلك المستخدمات عند مكنون .

الأمراء الأستاذون المحنكون : الأمير الثقة زمام القصور : بدلة مذهبة . الأمير نسيب الدولة مرشد ، متولى الدفتر ، كذلك . الأمير خاصة الدولة ريحان ، متولى بيت المال ، كذلك . الأمير عظيم الدولة وسيفها ، حامل المظلة ، كذلك . الأمير صارم الدولة صاف ، متولى الستر ، كذلك . وفىّ الدولة اسعاف ، متولى المائدة ، مثله . الأمير افتخار الدولة جندب : بدلة مذهبة نظير البدلة المختصة بالأمير الثقة .

ولكل من غير هؤلاء المذكورين حلة حريرى أربع قطع ، ولفافة فوطة .

مختار الدولة ظل : بدلة حريرى . ستة أستاذين فى خزانة الكسوة الخاص عند الأمير افتخار الدولة جندب : لكل منهم بدلة مذهبة . جوهر زمام الدار الجديدة : بدلة حريرى . تاج الملك أمين بيت المال مثله . مفلح برسم الخدمة فى المجلس مثله . مكنون متولى خدمة الجهة العالية مثله . فنون متولى خدمة التربة مثله . مرشد الخاص مثله .

النواب عند الأمير الثقة فى زمام القصور — وعدتهم أربعة — لكل منهم بدلة حريرى . خسروانى العظمى ، مقدم خزانة الشراب ،

ورفيقه : لكل منهما بدلة كذلك . الصقالبة أرباب المذاب — وعدتهم أربعة — لكل منهم بدلة حريرى وشقة وفوطة . نائب الستر مثل ذلك .

الأستاذون برسم خدمة المظلة — وعدتهم خمسة — لكل منهم منديل سوسى وشقة دمياطى وشقة اسكندرانى وفوطة . الأستاذون الشدادون برسم الدواب — وعدتهم ستة — كذلك .

ما حمل برسم السيد الأجل المأمون (يعنى الوزير) : بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية ، عدتها احدى عشرة . وما هو برسم جهاته ، وبرسم أولاده : الأجل تاج الرياسة ، وتاج الخلافة ، وسعد الملك محمود ، وشرف الخلافة جمال الملك موسى — وهو صاحب التاريخ — نظير ما كان باسم أولاد الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهم حسن وحسين وأحمد .

الأجل المؤتمن سلطان الملوك (يعنى أخا الوزير) عن تقدمة العساكر وزم الأزمة ، وبرسم الجهة المختصة به . وركن الدولة عز الملوك أبو الفضل جعفر عن حمل السيف الشريف — خارجا عما له من حماية خزانة الكسوات وصناديق النفقات ، وما يحمل أيضا للخزائن المأمونية ، مما ينفق منها على من يحسن فى الرأى من الحاشية المأمونية — ثلاثون بدلة .

الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست الشريف ، بدلة مذهبة عدتها خمس قطع ، وكم وعرضى .

الأمير فخر الخلافة حسام الملك ، متولى حجبيه الباب ، بدلة مذهبة كذلك . القاضى ثقة الملك ابن النائب فى الحكم : بدلة مذهبة عدتها أربع قطع ، وكم وعرضى .

الشيخ الداعى ولى الدولة ابن أبى الحقيق : بدلة مذهبه . الأمير الشريف أبو على أحمد بن عقيل ، نقيب الأشراف ، بدلة حريرى ثلاث قطع ، وفوطة . الشريف أنس الدولة ، متولى ديوان الانشاء ، بدلة كذلك .

ديوان المكاتبات : الشيخ أبو الرضى ابن الشيخ الأجل أبى الحسن ، النائب عن والده فى الديوان المذكور ، بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع ، وكم . أبو المكارم هبة الله أخوه : بدلة مذهبة ثلاث قطع ، وفوطة . أبو محمد حسن أخوهما كذلك . أخوهم أبو الفتح : بدلة حريرى قطعتان وفوطة .

الشيخ أبو الفضل يحيى بن سعيد الندمى ، منشىء ما يصدر عن * ديوان المكاتبات ، ومحرر ما يؤمر به من المهمات : بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع ، وكم ، ومزنر . أبو سعيد الكاتب : بدلة حريرى . أبو الفضل الكاتب كذلك . الحاج موسى المعين فى الالصاق كذلك .

وأما الكتاب بديوان الانشاء فلم يتفق وجود الحساب الذى فيه أسماؤهم فيذكروا ، ومن القياس أن يكونوا قريبا من ذلك .

الشيخ ولى الدين أبو البركات ، متولى ديوان المجلس والخاص ، بدلة مذهبة عدتها

(*) ص٤١١ جـ١ ، ط. بولاق .

تخمس قطع ، وكم ، وعرضى . ولامرأته حلة مذهبة .

الشيخ أبو الفضائل هبة الله بن أبى الليث ، متولى الدفتر وما جمع اليه ، بدلة . أبو المجد ولده : بدلة حريرى . عدى الملك أبو البركات ، متولى دار الضيافة ، بدلة مذهبة . وبعده الضيوف الواردون الى الدولة جميعهم منهم من له بدلة مذهبة ، ومنهم من له بدلة حريرى . وكذلك من يتفق حضوره من الرسل على هذا الحكم .

مقدمو الركاب : عفيف الدولة مقبل : بدلة مذهبة . القائد موفق والقائد تميم مثل ذلك . أربعة من المقدمين برسم الشكيمة : لكل منهم بدلة حريرى . الرواض عدتهم ثلاثة لكل منهم بدلة حريرى . الخاص من الفراشين — وهم اثنان وعشرون رجلا — منهم أربعة مميزون لكل منهم بدلة مذهبة ، وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى .

الأطباء : الشديد أبو الحسن على بن أبى الشديد : بدلة حريرى . أبو الفضل النسطورى : بدلة حريرى . وكذلك الفئة المستخدمون برسم الحمام — وهم ثمانية — مقدمهم : بدلة مذهبة ، وبقيتهم لكل واحد بدلة حريرى .

والى القاهرة ووالى مصر : لكل منهما بدلة مذهبة .

المستخدمون فى المواكب : الأمير كوكب الدولة ، حامل الرمح الشريف وراء الموكب والدرقة المعزية ، بدلة حريرى . حاملا الرمحين المعزية أيضا أمام الموكب بغير درق : لكل منهما منديل وشقة وفوطة .

وهؤلاء الثلاثة رماح ما هى عربية ، بل هى خشوت قدم بها المعز من المغرب .

حاملا لواء الحمد المختصان بالخليفة عن يمينه ويساره : لكل منهما بدلة .

متولى بغل الموكب الذى يحمل عليه جميع العدة المغربية : بدلة حريرى .

متولى حمل المظلة كذلك . عشرة نفر من صبيان الخاص ، برسم حمل العشرة رماح العربية المغشاة بالديباج وراء الموكب ، لكل منهم منديل وشقة وفوطة . حامل السبع وراء الموكب : بدلة حريرى .

المقدمون من صبيان الخاص — وهم عشرون — لكل منهم بدلة . عرفاء الفراشين الذين ينحطون عن فراشى الخاص وفراشى المجلس وفراشى خزائن الكسوة الخاص : لكل منهم بدلة حريرى .

الفراشون فى خزائن الكسوات المستخدمون بالايوان — وهم الذين يشدون ألوية الحمد بين يدى الخليفة ليلة الموسم ، فانها لا تشد الا بين يديه ، ويبدأ هو باللف عليها بيده على سبيل البركة ، ويكمل المستخدمون بقية شدها ، وما سوى ذلك من القضب الفضة وألوية الوزارة وغيرها — وعدتهم سبعة : لكل منهم منديل سوسى وشقتان اسكندرانى .

المستخدمون برسم حمل القضب الفضة ولواءى الوزارة : أربعة عشر كذلك . مشارف خزانة الطيب — وكانت من الخدم

الجليلة ، وكان بها أعلام الجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد ، ويستدعى منها عند الحاجة ، ويعاد اليها عند الغنى عنها ، وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية — مشارف خزانة السروج : بدلة حريرى .

مشارف خزائن الفرش . وكاتب بيت المال ، ومشارف خزائن الشراب ، ومشارف خزائن الكتب : كل منهم بدلة حريرى . بركات الآدمى ، والمستخدمون بالدولة بالباب ، وسنان الدولة مز الكركندى عن زم الرهجية ، والمبيت على أبواب القصور — وكانت من الخدم الجليلة — والصبيان الحجرية المشدون بلواء الموكب بعد المقربين وعدتهم عشرين : لكل منهم الكسوة فى الشتاء والعيدين وغيرهما .

وعدة الذين يقبضون الكسوة فى العيدين من الفراشين أكثر من صبيان الركاب ، وذلك أنهم يتولون الأسمطة ويقفون فى تقدمتها ، وينفرد عنهم المستخدمون فى الركاب بما لهم من المتحصل فى المخلفات فى العيدين ، وهو ما مبلغه ستة آلاف دينار ، ما لأحد معهم فيها نصيب .

وكان يكتب فى كل كسوة هى برسم وجوه الدولة رقعة من ديوان الانشاء ، فمما كتب به من* انشاء ابن الصيرفى ، مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة خمس وثلاثة وخمسمائة :

« ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب ، موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب ، مجزلا حظهم من منائحه ومواهبه ، موصلا اليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه . وانك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه ، وأحراهم باستنشاق نسيمه ، وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه وتقسيمه . اذ كنت فى سماء المسابقة بدرا ، وفى جرائد المناصحة صدرا ، وممن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا ، وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا ..

« ولما آقبل هذا العيد السعيد — والعادة فيه أن يحسن الناس هيئتهم ، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم — ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمع للآمال ، وكنت من * أخص أمراء المقدمين ... » .

قال : ووصلت الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعتيه : برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة . وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر ، بدلة موكبية حريرى مكملة ، منديلها وطيلسانها بياض . وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى .

وما هو برسم أخى الخليفة للغرة خاصة بدلة مذهبة ، ويرسم له مع جهات الخليفة الخليفة أربع حلل مذهبات . وبرسم الوزير للغرة بدلة مذهبة مكملة موكبية ، وبرسم الجمعتين بدلتان حريرى .

ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير فى ذلك شىء فيذكر .

(*) ص٤١٢ جـ١ ، ط. بولاق .

ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج ، وهي برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان : احداهما منديلها وطيلسانها طميم برسم المضى ، والأخرى جميعها حريرى برسم العود . وكذلك ما يختص باخوته وجهاته بدلتان مذهبتان ، وأربع حلل مذهبة . وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة فى تخت . وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة . وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت . وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الرداد فى تخوت : كل تخت عدة بدلات .

وحضر متولى الدفتر ، واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة ، وما يفرق ويفصل برسم الخلع ، وما يخرج من حاصل الخزائن عن الواصل — وهو ما يفصل برسم الخاص من الغلمان — برسم سبعمائة قباء وخمسمائة وشقين سقلاطون دارى ، وبرسم رؤساء العشاريات من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الحمر ، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكلوتات .

وقد تقدم تفصيل الكسوات جميعها وعددها ، وأسماء المستمرين لقبضها .

وقال فى كتاب « الذخائر » : وحدثنى من أثق به ، عن ابن عبد العزيز ، أنه قال : قومنا ما أخرج من خزائن القصر (يعنى فى سنى الشدة أيام المستنصر) من سائر ألوان الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة ، أكثرها مذهب .

وسألت ابن عبد العزيز فقال : أخرج من الخزائن ما حررت قيمته على يدى وبحضرتى أكثر من ألف قطعة .

وحدثنى أبو الفضل يحيى بن ابراهيم البغدادى — أحد أصحاب الدواوين بالحضرة — أن الذى تولى أبو سعيد النهاوندى ، المعروف بالمعتمد ، بيعه خاصة من مخرج القصر ، دون غيره من الأمناء ، فى مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور ، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار الى عشرة دنانير ونيف ، وعشرون ألف قطعة خسروانى .

وحدثنى عميد الملك أبو الحسن على بن عبد الجليل فخر الوزراء بن عبد الحاكم ، أن ناصر الدولة أرسل يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه ، فذكر أنه لم يبق عنده شىء الا ملابسه ، فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة ، فقومت وحملت اليه .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات . وهما خزانتان : فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة اما أستاذ أو غيره . وفيها من الحواصل ما يدل على اسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس الشروب ، والخاص الديبقى الملونة رجالية ونسائية ، والديباج الملونة والسقلاطون . واليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس ودمياط واسكندرية من خاص المستعمل . وبها صاحب المقص ، وهو مقدم الخياطين ، ولأصحابه مكان لخياطتهم . والتفصيل نعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة اليه .

ثم ينقل الى خزانة الكسوة الباطنة ما هو خاص للباس الخليفة . ويتولاها امرأة تنعت بزين الخزان أبدا ، وبين يديها ثلاثون جارية فلا يغير الخليفة أبدا ثيابه الا عندها ، ولباسه خافيا الثياب الدارية ، وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهر . وليس فى جهة من جهاته ثياب أصلا ، ولا يلبس الا من هذه الخزانة .

وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطىء الخليج — يعنى فيه أبدا النسرين والياسمين — فيحمل فى كل يوم منه شىء فى الصيف والشتاء ، لا ينقطع ألبتة ، برسم الثياب والصناديق .

فاذا كان أوان التفرقة الصيفية أو الشتوية ، شد لمن تقدم ذكره من أولاد الخليفة وجهاته وأقاربه وأرباب الرواتب والرسوم : من كل صنف شدة — على ترتيب مفروض — من شقق الديباج الملون والسقلاطون الى السوسى والاسكندرانى ، على مقدار الفصول من الزمان ، ما يقرب من مائتى شدة .

فالخواص فى العراضى الديبقى ، ودونهم فى أوطية حرير ، ودونهم فى فوط اسكندرية . ويدخل فى ذلك كتاب ديوانى الانشاء والمكاتبات دون غيرهم من الكتاب ، على مقدارهم . وذلك يخرج من الجوارى فى الشهر المطلقات .

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعد وفاة العاضد : وكشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل ان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة : من موشى ومرصع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر . وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش *.

خزائن الجوهر والطيب والطرائف

قال ابن المأمون : وكان بها الأعلام والجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد ، ويستدعى منها عند الحاجة ، ويعاد اليها عند الغنى عنها ، وكذلك السيف الخاص والثلاثة رماح المعزية .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وذكر بعض شيوخ دار الجوهر بمصر أنه استدعى يوما ، هو وغيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر ، الى بعض خزائن القصر (يعنى فى أيام الشدة زمن المستنصر) فأخرج صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرذ ، قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار .

وكان هناك جالسا فخر العرب ابن حمدان ، وابن سنان ، وابن أبى كدينة ، وبعض المخالفين . فقال بعض من حضر من الوزراء المعطلين للجوهريين : كم قيمة هذا الزمرذ ؟

فقالوا : انما نعرف قيمة الشىء اذا كان مثله موجودا ، ومثل هذا لا قيمة له ولا مثل .

فاغتاظ وقال ابن أبى كدينة : فخر العرب كثير المؤنة ، وعليه خرج . فالتفت الى كتاب الجيش وبيت المال فقال : يحسب عليه فيه خمسمائة دينار ... فكتب ذلك ، وقبضه .

(*) ص٤١٣ جـ١ ، ط. بولاق .

وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل من ثمانين ألف دينار فصاعدا ، فتحريا فيه ، فقال : يكتب بألفى دينار . وتشاغلوا بنظر ما سواه ، وانقطع سلكه فتناثر حبه ، فأخذ واحد منهم واحدة فجعلها فى جيبه ، وأخذ ابن أبى كدينة أخرى ، وأخذ فخر العرب بعض الحب ، وباقى المخالفين التقطوا ما بقى منه ، وغاض كأن لم يكن .

وأخذ ما كان أنفذه الصليحى من نفيس الدر الرفيع الرائع وكيله — على ما ذكر — سبع ويبات .

وأخذوا ألفا ومائتى خاتم ذهبا وفضة ، فصوصها من سائر أنواع الجوهر المختلف الألوان والقيم والأثمان والأنواع — مما كان لأجداده وله ، وصار اليه من وجوه دولته — منها ثلاثة خواتم ذهب مربعة عليها ثلاثة فصوص ، أحدها زمرذ والاثنان ياقوت سماقى ورمانى ، بيعت باثنى عشر ألف دينار بعد ذلك .

وأحضر خريطة فيها نحو ويبة جوهر ، وأحضر الخبراء من الجوهريين وتقدم اليهم بقيمتها ، فذكروا أن لا قيمة لها ، ولا يشترى مثلها الا الملوك ، فقومت بعشرين ألف دينار . فدخل جوهر الكاتب ، المعروف بالمختار عز الملك ، الى المستنصر وأعلمه أن هذا الجوهر اشتراه جده بسبعمائة ألف دينار واسترخصه ، فتقدم بانفاقه فى الأتراك ، فقبض كل واحد منهم جزءا بقيمة الوقت ، وفرق عليهم .

قال : فأما ما أخذ مما فى خزائن البلور والمحكم والمينا المجرى بالذهب والمجرود والبغدادى والخيارى والمدهون ، والخلنج والعينى والدهيمى والآمدى ، وخزائن الفرش والبسط والستور والتعاليق ، فلا يحصى كثرة .

وحدثنى من أثق به من المستخدمين فى بيت المال أنه أخرج يوما فى جملة ما أخرج من خزائن القصر عدة صناديق ، وأن واحدا منها فتح فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافى البلور المنقوش والمجرود شىء كثير ، وأن جميعها مملوء من ذلك وغيره .

وحدثنى من أثق به أنه رأى قدح بلور بيع مجرودا بمائتين وعشرين دينارا ، ورأى خردادى بلور بيع بثلثمائة وستين دينارا ، وكوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، ورأى صحون مينا كثيرة تباع من المائة دينار الى ما دونها .

وحدثنى من أثق بقوله أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلو الساذج الغاية فى النقاء وحسن الصنعة : احداهما خردادى ، والأخرى باطية ، مكتوب على جانب كل واحدة منهما اسم العزيز بالله ، تسع الباطية سبعة أرطال بالمصرى ماء ، والخردادى تسعة . وأنه عرضهما على جلال الملك أبى الحسن على بن عمار ، فدفع فيهما ثمانمائة دينار . فامتنع من بيعهما ، وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن .

وأن الذى تولى بيعه أبو سعيد النهاوندى من مخرج القصر ، دون غيره من الأمناء ، فى

مديدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور ، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار الى عشرة دنانير .

وأخرج من صوانى الذهب المجراة بالمينا وغير المجراة ، المنقوشة بسائر أنواع النقوش ، المملوء جميعها من سائر أنواعه وألوانه وأجناسه ، شيء كثير جدا .

ووجد فيما وجد غلف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب ، مختلفة الأشكال ، خالية مما فيها من الأوانى ، عدتها سبعة عشر ألف غلاف ، كان فى كل قطعة اما بلور مجرود أو محكم أو ما يشاكله . ووجد أكثر من مائة كأس بادزهر ونصب وأشباهها على أكثرها اسم هارون الرشيد وغيره .

ووجد فى خزائن القصر عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر ، وصناديق كثيرة مملوءة من أنواع الدوى ، المربعة والمدورة والصغار والكبار ، المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس الزنجى والعاج ، وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة ، وسائر الأنواع الغريبة ، والصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها ... فيها ما يساوى الألف دينار والأكثر والأقل ، سوى ما عليها من الجواهر .

وصناديق مملوءة مشارب ذهب وفضة مخرقة بالسواد صغار وكبار ، مصنوعة بأحسن * ما يكون من الصنعة وعدة أزيار صينى كبار مختلفة الألوان ، مملوءة كافورا قيصوريا . وعدة من جماجم العنبر الشحرى ، ونوافج المسك التبتى وقواريره ، وشجر العود وقطعه .

ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز ، حين ماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ما قيمته ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار : من جملته ثلاثون ثوب خز مقطوع ، واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا ، ومائة قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا .

ومما وجد لها معممات بجواهرها ، من أيام المعز وبيت هارون الرشيد ، الخز الأسود الذى مات فيه بطوس . وكان من ولي من الخلفاء ينتظرون وفاتها ، فلم يقض ذلك الا للمستنصر بالله ، فحازه فى خزائنه .

ووجد لعبدة بنت المعز أيضا — وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة — ما لا يحصى ... حدثنى بعض خزان القصر أن خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها وصناديقها ، وما يجب أن يختم عليه ، ذهب من الشمع فى خواتيمه — على الصحة والمشاهدة — أربعون رطلا بالمصرى ، وأن بطائق المتاع الموجود كتبت فى ثلاثين رزمة ورق .

ومما وجد لها أيضا أربعمائة قمطرة ، وألف وثلثمائة قطعة مينا فضة مخرقة ، زنة كل مينا عشرة آلاف درهم ، وأربعمائة سيف محلى بالذهب ، وثلاثون ألف شقة صقلية ، ومن الجوهر ما لا يحد كثرة ، وزمرذ كيله اردب واحد .

وأن سيد الوزراء أبا محمد البازورى وجد فى موجوداتها طستا وأبريقا ، ملفرط

(*) ص٤١٤ جـ١ ، ط. بولاق .

استحسانه لهما سأل المستنصر فيهما ، فوهبهما له . ووجد مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا . وأخرج أيضا تسعون طستا وتسعون أبريقا من صافى البلور .

ووجد فى القصر خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى . منها اجاجين صينى كبار محلاة ، كل أجانة منها على ثلاثة أرجل ، على صورة الوحوش والسباع ، قيمة كل قطعة منها ألف دينار ، معمولة لغسل الثياب .

ووجد عدة أقفاص مملوءة ببيض صينى ، معمول على هيئة البيض فى خلقته وبياضه ، يجعل فيها ماء البيض النيمبرشت يوم الفصاد . ووجد حصير ذهب وزنها ثمانية عشر رطلا ، ذكر أنها الحصير التى جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون .

وأخرج ثمان وعشرون صينية مينا مجرى بالذهب بكعوب ، كان أرسلها ملك الروم الى العزيز بالله ، قومت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار ، أنفذ جميعها الى ناصر الدولة .

ووجد عدة صناديق مملوءة مراءى حديد من صينى ومن زجاج المينا لا يحصى ما فيها كثرة ، جميعها محلى بالذهب المشبك والفضة ، ومنها المكلل بالجوهر فى غلف الكيمخت ، وسائر أنواع الحرير والخيزران وغيره ، مضبب بالذهب والفضة ، ولها المقابض من العقيق وغيره .

وأخرج من المظال وقضبها الفضة والذهب شىء كثير . وأخرج من خزائن الفضة ما يقارب الألف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة ، المجراة بالذهب ، فيها ما زنة القطعة الواحدة منه خمسة آلاف درهم ، الغريبة النقش والصنعة ، التى تساوى خمسة دراهم بدينار . وأن جميعه بيع كل عشرين درهما بدينار ... سوى ما أخذ من العشاريات الموكبية ، وأعمدة الخيام وقضب المظال ، والمتحوقات والأعلام والقناديل والصناديق ، والتوقات والروازين والسروج واللجم ، والمناطق التى للعماريات ، والقباب وغيرها مثل ذلك وأضعافه .

وأخرج من الشطرنج والنرد المعمولة من سائر أنواع الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس ، برقاع الحرير والمذهب ، ما لا يحد كثرة ونفاسة . وأخرج آلات فضة وزنها ثلثمائة ألف ونيف وأربعون ألف درهم ، تساوى ستة دراهم بدينار .

وأخرج أقفاص مملوءة من سائر آلات مصوغة مجراة بالذهب ، عدتها أربعمائة قفص كبار ، سبكت جميعها ، وفرقت على المخالفين . وأخرجت أربعة آلاف نرجسية مجوفة بالذهب يعمل فيها النرجس ، وألفا بنفسجية كذلك .

وأخرج من خزانة الطرائف ستة وثلاثون ألف قطعة من محكم وبلور ، وقوم السكاكين بأقل القيم ، فجاءت قيمتها على ذلك ستة وثلاثين ألف دينار . وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا وأكبره يجاوز تلك ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد ، من جملتها ثمانمائة بطيخة كافور .

وأخرجت الكلوتة المرصعة بالجوهر ، وكانت من غريب ما فى القصر ونفيسه . ذكر أن قيمتها ثلاثون ألف دينار ومائة ألف دينار ، قومت بثمانين ألف دينار ، وكان وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلا . اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك ، فصار الى فخر العرب منها قطعة بلخش وزنها ثلاثة وعشرون مثقالا ، وصار الى تاج الملوك — مما وقع اليه — حبات در ، كل حبة ثلاثة مثاقيل ، عدتها مائة حبة . فلما كانت هزيمتهم من مصر نهبت .

وأخرج من خزائن الطيب خمسة صوارى عود هندى ، كل واحد من تسعة أذرع الى عشرة أذرع . وكافور قيصورى زنة كل حبة من خمسة مثاقيل الى ما دونها . وقطع عنبر وزن القطعة ثلاثة آلاف مثقال .

وأخرج متارد صينى محمولة على ثلاثة أرجل ، ملء كل وعاء منها مائتا رطل من الطعام ، وعدة قطع شب * وبادزهر : منها جام سعته ثلاثة أشبار ونصف وعمقه شبر مليح الصنعة ، وقاطرميز بلور فيه صور ثابتة تسع سبعة عشر رطلا ، وبلوجة بلور مجرور تسع عشرين رطلا وقصرية نصب كبيرة جدا ، وطابع ند فيه ألف مثقال كان فخر الدولة أبو الحسن على بن ركن الدولة بن بويه الديلمى عمله ، مكتوب فى وسطه « فخر الدولة شمس الملة » ، وأبيات منها :

ومن يكن شمس أهل الأرض قاطبة
فنده طابع من ألف مثقال

(*) ص٤١٥ جـ١ ، ط.بولاق .

وطاووس ذهب مرصع بنفيس الجوهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وديك من الذهب له عرف مفروق . كأكبر ما يكون من أعراف الديوك ، من الياقوت الأحمر ، مرصع بسائر الدر والجوهر ، وعيناه ياقوت . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، وبطنه أبيض ، قد نظم من در رائع . ومجمع سكارج من بلور تخرج منه وتعود فيه ، فتحته أربعة أشبار ، مليح الصنعة فى غلاف خيزران . وبطيخة من الكافور فى شباك ذهب مرصعة ، وزنها خالصة سبعون مثقالا من كافور . وقطعة عنبر تسمى الخزوف ، وزنها سوى ما يمسكها من الذهب ثمانون منا . وبطيخة كافور أيضا وجد ما عليها من الذهب ثلاثة آلاف مثقال . ومائدة نصب كبيرة واسعة ، قوائمها منها . وبيضة بلخش ، وزنها سبعة وعشرون مثقالا ، أشد صفاء من الياقوت الأحمر . وقاطرميز بلور مليح التقدير يسع مروقتين ، قوم فى المخرج بثمانمائة دينار ... دفع الى تاج الملوك فيه بعد ذلك ألفا دينار ، فامتنع من بيعه . ومائدة جزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة منها . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر فى أجانة ذهب ، تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته ، من الجواهر لا قيمة لها . وكوز زير بلور يحمل عشرة أرطال ماء . ودارج مرصع بنفيس الجوهر لا قيمة له . ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس .

وقبة العشارى وكارته وكسوة رحله الذى استعمله على بن أحمد الجرجراى ، وفيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة ، وأطلق للصناع عن أجرة صياغتـه ، وثمن ذهب للطلاء ، ألفان وتسعمائة دينار . وكان سعر الفضة حينئذ كل مائة درهم بستة دنانير وربع ، سعر ستة عشر درهما بدينار .

وأخرج العشارى الفضى الذى استعمله على ابن أحمد لأم المستنصر ، وكان فيه مائة ألف وعشرون ألف درهم نقرة ، وصرف أجـرة صياغة وطلاء ألفان وأربعمائة دينار ، وكسوة بمال جليل .

وأخرج جميع كسا العشاريات التى برسم البرية والبحرية ، وعدتها ومناطقها ورؤوس منحرفات وأهلة وصفريات — وكانت أربعمائة ألف دينار لستة وثلاثين عشـاريا — وعدة مياكيم فضة فيها ما وزنه مائة وتسـعة أرطال فضة .

وأخرج بستان أرضه فضة مخرقة ذهبا ، وطينه ند ، وأشجاره فضة مذهبة مصوغة ، وأثماره عنبر وغيره ، وزنه ثلثمـائة وسـتة أرطال . وبطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال . وقطع ياقوت أزرق زنة كل قطعـة سبعون درهما . وقطع زمرذ زنة كل قطعـة ثمانون درهما . ونصـاب مرآة من زمرذ له طول وثخن ... كل ذلك أخذه المخالفون .

خزائن الفرش والأمتعة

قال فى كتاب « الذخائر » : وحدثنى من أثق به ، عن ابن عبد العزيز الأنماطى ، قال :

قومنا ما أخرج من خزائن القصر من سـائر الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة ، أكثرها مذهب .

وسألت ابن عبد العزيز ، فقال : أخرج من الخـزائن ما حـررت قيمتـه على يدى وبحضرتى أكثر من مائة ألف قطعة .

وأخرج مرتبة خسروانى حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، ومرتبة قلمونى بيعت بألفين وأربعمائة دينار ، وثلاثون سندسـية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارا ونيف ، وعشرون ألف قطعـة خسروانى فى هدبه لم يقطع منها شىء .

وكانت قيمة العرض المبيع بأقل القيم وأبرز الأثمان فى مدة خمسـة عشر يوما من صفر سـنة ستين وأربعمـائة — سوى ما نهب وسرق — ثلاثون ألف ألف دينار ، فقبض جميعها الجند والأتراك ... ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق .

وحدثنى الأمير أبو الحسن على بن الحسن — أحد مقـدمى الخيميين بالقصر — أن الفراشـين دخلوا الى بعض خزائن الفرش ، لما اشتدت مطالبة المارقى للمستنصر بالمال ، الى الخـزانة المعـروفة بخـزانة الرفـوف — وسميت بذلك لكثرة رفوفها ، ولكل رف منها سلم مفرد — فأنزلوا منها ألفى عـدل شـقق رميـم بهـدبها ، من سـائر أنواع الخسروانى وغيره ، لم تستعمل بعد ، وجميع ما فيها مذهب معمـول بسـائر الأشـكال والصور . وأنهم فتحوا عدلا منها فوجدوا ما

فيه أجلة معمولة للفيلة من * خسرواني أحمد مذهب كأحسن ما يكون من العمل ، وموضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه ساذجة بغير ذهب .

وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض في هدبها لم يفصل ، من كسا بيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه وعتبه ومقاطعه وستوره ، وكل ما يحتاج اليه فيه .

قال : وأخرج من خزائن الفرش من البيوت الكاملة الفرش ، من القلموني والديبقي من سائر ألوانه وأنواعه ، المخمل والخسرواني والديباج الملكي والخز وسائر الحرير من جميع ألوانه وأنواعه ... ما لا يحصى كثرة ، ولا يعرف قدره نفاسة .

وأخرج من الحصر والأنخاخ الساماني المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة ، والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور ، شيء كثير .

والتمس بعض الأتراك من المستنصر مقرمة (يعني ستارة) سندس أخضر مذهبة ، فأخرج عدل منها مكتوب عليه « مائة وثمانية وثمانون » ، من جملة أعدال فيها من المتاع .

ووجد من الستور الحرير المنسوجة بالذهب ، على اختلاف ألوانها وأطوالها ، عدة مئين تقارب الألف ، فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها ، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله.

وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسرواني مذهب ، في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته ، منسوجة في خيط واحد ، باقية على حالها لم تمس .

وصار الى فخر العرب مقطع من الحرير الأزرق التستوري القرقوبي ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة . فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه جغرافية ، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر . مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ، وفي آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة » ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار .

وصار الى تاج الملوك بيت أرمني أحمر منسوج بالذهب ، عمل للمتوكل على الله ، لا مثل له ولا قيمة ، وبساط خسرواني دفع اليه فيه ألف دينار فامتنع من بيعه .

وقال ابن الطوير : خزانة الفرش — وهي قريبة من باب الملك — يحضر اليها الخليفة من غير جلوس ، ويطوف فيها ويستخبر عن أحوالها ، ويأمر بادامة الاستعمال . وكان من حقوقها استعمال السامان في أماكن خارجها بالقاهرة ومصر ، ويعطى مستخدمها خمسة عشر دينارا (يعني يوم يطوف بها الخليفة) .

(*) ص٤١٦ جـ١ ، ط. بولاق .

خزائن السلاح

قال فى كتاب « الذخائر » : فأما خزائن السيوف والآلات والسلاح ، فان بعضها أخذ وقسم بين العشرة الثائرين على المستنصر ، وهم [1] : ناصر الدولة بن حمدان ، وأخواه ، وبلدقوس ، وابن سبكتكين ، وسلام عليك ، وشاور بن حسين .

حتى صار ذو الفقار الى تاج الملوك ، وصمصامة عمرو بن معدى كرب ، وسيف عبد الله بن وهب الراسى ، وسيف كافور ، وسيف المعز ، وسيف أبى المعز ، الى الأعز بن سنان ، ودرع المعز لدين الله — وكانت تساوى ألف دينار — وسيف الحسين بن على ابن أبى طالب عليهما السلام ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وسيف جعفر الصادق رضى الله عنه .

ومن الخود والدروع والتخافيف ، والسيوف المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف الحديدية ، وصناديق النصول ، وجعاب السهام الخلنج ، وصناديق القسى ، ورزم الرماح الزان الخطية ، وشدات القسى الطوال ، والزرد والبيض ، مئين ألوف وكان كل صنف منها مفردا عشرات ألوف

وقال ابن الطوير : خزانة السلاح يدخل اليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك ، ويتأمل حواصلها لمن الكراغندات المدفونة بالزرد ، المغشاة بالديباج ، المحكمة الصناعة ، والجواشن المبطنة المذهبة ، والزرديات السابلة برؤوسها ، والخود المحلاة بالفضة ، وكذلك أكثر الزرديات والسيوف ، على اختلافها من العربيات والقلجوريات ، والرماح والقنا ، والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأسنة البرصانية ، والقسى لرماية اليد ، المنسوبة الى صناعها مثل الخطوط المنسوبة الى أربابها .

فيحضر اليها منها ما يجربه ، ويتأمل النشاب — وكانت فصوله مثلثة الأركان — على اختلافها ، ثم قسى الرجل والركاب ، وقسى اللولب الذى زنة نصله خمسة أرطال ، ويرمى من كل سهم بين يديه فينظر كيف مجراه . والنشاب الذى يقال له الجراد ، وطوله شبر ، يرمى به عن قسى فى مجار معمولة برنسمه ، فلا يدرى به الفارس أو الراجل الا وقد نفذ .

فاذا فرغ من نظر ذلك كله ، خرج من خزانة الدرق — وكانت فى المكان الذى هو خان مسرور ، وهى برسم الاستعمالات * للأساطيل ، من الكبورة الخرجية والخود الجلودية الى غير ذلك — فيعطى مستخدمها خمسة وعشرون دينارا ، ويخلع على متقدم الاستعمالات جوكانية مزيدة حريرا ، وعمامة لطيفة .

خزائن السروج

قال فى كتاب « الذخائر » : أخرج فيما أخرج صناديق سروج محلاة بفضة مجراة بسواد ممسوحة ، وجد على صندوق منها

(١) قوله « وهم ... الخ » هكذا فى النسخ ولم يستوف العشرة فليحرر . اهـ . مصححه .

(*) ص٤١٧ جـ١ ، ط. بولاق .

« الثامن والتسعون والثلثمائة » ، وعدة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج .

وأخرج المستنصر من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى دخرها له فيها وتقدم بحفظها ، كل سرج منها يساوى من سبعة آلاف دينار الى ألف وأكثرها عال . سبك جميعها وفرق فى الأتراك . كان برسم ركابه منها أربعة آلاف سرج . وأخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج مثلها ودونها ، صنع بها مثل ذلك .

وقال ابن الطوير : خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك ، وهى قاعة كبيرة بدورها مصطبة علوها ذراعان ، ومجالسها كذلك .

وعلى تلك المصطبة متكآت مخاصمة الجانبين ، على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة ، وفوقه فى الحائط وتد مدهون مضروب فى الحائط قبل تبييضه ، وهو بارز بروزا متكئا عليه المركبات . الحلى على لجم تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة أو الفضة خاصة أو الذهب والفضة ، وقلائدها وأطواقها لأعناق الخيل .

وهى لخاص الخليفة وأرباب الرتب ما يزيد على ألف سرج : ومنها لجام هو الخاص ، ومنها الوسط ، ومنها الدون ، وهى خيار غيرها برسم العوارى لأرباب الرتب والخدم ، ومنها ما هو قريب من الخاص ، فيكون عند المستخدم بشداده الدائم ، وجاريه على الخليفة مادام مستخدما . والعلف مطلق من الأهراء .

أما الصاغة فان فيها منهم ومن المركبين والخرازين عددا جما دائمين لا يفترون عن العمل .

وكل مجلس مضبوط بعدد متكآته وما عليها من السروج والأوتاد واللجم . وكل مجلس لذلك عند مستخدميه فى العرض ، فلا يختل عليهم منها شيء . وكذلك وسط قاعتها بعدة متوالية أيضا . والشدادون مطلوبون بالنقائص منها أيام المواسم ، وهم يحضرونها أو قيمتها ، فيعرض ويركب .

ويحضر اليها الخليفة ، ويطوفها من غير جلوس ، ويعطى حاميها للتفرقة فى المستخدمين عشرين دينارا .

ويقال ان الحافظ لدين الله عرضت له فيها حاجة ، فجاء اليها مع الحامى ، فوجد الشاهد غير حاضر وختمه عليها ، فرجع الى مكانه وقال : لا يفك ختم العدل الا هو ونحن نعود فى وقت حضوره ... انتهى .

وكان الخليفة الآمر بأحكام الله تحدثه نفسه بالسفر الى المشرق والغارة على بغداد ، فأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص ، وبطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء ، وجعل لها فما فيه صفارة ، فاذا دعت الحاجة الى الماء شرب منه الفارس ، وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء . وعمل عدة مخال للخيل من ديباج وقال فى ذلك :

دع اللوم عنى لست منى بموثق
فلا بد لى من صدمة المتحقق

واسق جيادى من فرات ودجلة
واجمع شمل الدين بعد تفرق

وأول من ركب المتصرفين فى دولته من جيوله بالمراكب الذهب فى المواسم ، العزيز بالله نزار بن المعز .

خزائن الخيم

قال فى كتاب « الذخائر » : وأخبرنى سماء الرؤساء أبو الحسن على بن أحمد بن مدبر ، وزير ناصر الدولة ، قال : أخرج فيما أخرج من خزائن القصر عدة لم تحص من أعدال الخيم والمضارب والفازات والمسطحات والجركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط ، المعمولة من الديبقى والمخمل والخسروانى والديباج الملكى والأرمنى والبهنساوى والكردوانى والجيد من الحلبى ، وما أشبه ذلك من سائر ألوانه وأنواعه .

ومن السندس والطميم أيضا : منها المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير ، وغير ذلك من سائر الوحوش والطير ، والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة الرائعة . ومنها الساذج والمنقوش فى ظاهره بغرائب النقوش بجميع آلاتها ، من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة ، والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها ، والصفريات الفضة على أقدارها ، والحبال الملبسة القطن والحرير ، والأوتاد وسائر ما يحتاج اليه من جميع آلاتها وعدتها ، المبطن جميعها بالديبقى الطميم المذهب والخسروانى المذهب ، وثياب الحرير الصينى والتسترى والمضبب * والرجيج والشرفى والشعرى والديباج والمريش ، وسائر أنواع الحرير من سائر الألوان وأنواعها كبارا وصغارا ، منها ما يحمل خرقه وأوتاده وعمده وسائر عدته على عشرين بعيرا ودون ذلك وفوقه .

فالمسطح بيت مربع له أربعة حيطان وسقفه بستة أعمدة ، منها عمودان للحائط الواحد المرفوع للدخول والخروج .

والخيمة ظهرها حائط مربع ، وسقيفتها الى الباب حائط مربع ، وأركانها شوارك من الجانبين على قدر القائم ، وفيها أربعة أعمدة : اثنان فى الباب ، واثنان فى وسطها . وكلما زادت زاد عمدها وسقفها ، ولها حدان مشروكان من الجانبين .

والشراع حائط فى الظهر مسقف على الرأس بعمودين ، من أى موضع دارت الشمس حول الى ناحية الشمس . والمشرعة فيه مثل المظلة على عمود واحد تام وشراع سابل خلفها ، من أى موضع دارت الشمس أدير والقبة على حالها .

وحدثنى أبو الحسن على بن الحسن الخيمى قال : أخرجنا فى جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين ، حين اشتدت المطالبة على السلطان ، فسطاطا كبيرا أكبر ما يكون ، يسمى المدورة الكبيرة ، يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا بالكبير

(*) ص٤١٨ جـ١ ، طـ بولاق .

ودائر فلكته عشرون ذراعا ، وقطرها ستة أذرع وثلثا ذراع ، ودائره خمسمائة ذراع ، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة كل قطعة منها تحزم فى عدل واحد ... يجمع بعضه الى بعض بعرى وشراريب حتى ينصب ، يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل .

وفى صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية ، يحملها من داخلها قضبان حديد من سائر نواحيها ، تمتلىء ماء من راوية جمل ... قد صور فى رفرفه كل صورة حيوان فى الأرض ، وكل عقد مليح وشكل ظريف . وفيه باذهنج طوله ثلاثون ذراعا فى أعلاه .

كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازورى أمر بعمله أيام وزارته فعمله الصناع — وعدتهم مائة وخمسون صانعا — فى مدة تسع سنين ، واشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار . وكان عمله على مثال القاتول الذى كان العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته ... الا أن هذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم وأحسن .

وكان الخليفة أنفذ الى متملك الروم فى طلب عمودين للفسطاط طول كل واحد منهما سبعون ذراعا بعد أن غرم عليهما ألف دينار : أحدهما فى هذا الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع ، والآخر حمله ناصر الدولة بن حمدان حين خرج على الخليفة المستنصر بالله الى الاسكندرية ، وما أدرى ما فعل به .

قال : وأقمنا مدة طويلة فى تفصيل بعضه من بعض ، وتقطيعه خرقا وشققا قومت على المذكورين بأقل القيم ، وتفرق فى الآفاق .

وقال لى أيضا : أخرجنا مسطحا قلمونيا مخملا موجها من جانبيه — عمل بتنيس للعزيز بالله — يسمى دار البطيخ . وسطه بكنيس على ستة أعمدة أربعة منها فى أركان الكنيس ، وفى أربعة الأركان أربع قباب ، ومن القبة الى القبة رواق دائر عليه والقباب دونه ، وفى كل قبة أربعة أعمدة ، طول كل عمود من أعمدة الكنيس ثمانية عشر ذراعا وكذلك طول قائم القباب . وفعلنا به مثل ما فعلنا فى الأول .

وقال لى : أخرجنا مسطحا عمل للظاهر لاعزاز دين الله بتنيس . ذهب فى ذهب طميم قائم على عمود ، له ست صفارى بلور ، وستة أعمدة فضة . أنفق عليه أربعة عشر ألف دينار . ومسطحا ديبقيا كبيرا مذهبا بدوائر كردوانى منقوش .

وأخرجنا قصورا تحيط بالخيام ، بشرفات من المخمل والقلمونى والديبقى والديباج الخسروانى ، والحرير من سائر أنواعه وألوانه المذهبة المنقوشة ، بحياضها ودككها ومصاطبها وقدورها وزجاجها وسائر عددها .

وأخرجنا من الخيام الكردوانى شيئا كثيرا . وأخرجنا خيمة كبيرة مدورة كردوانى مليحة النقش والصنعة ، عدتها قطع كثيرة ، طول عمودها خمسة وثلاثون ذراعا ... فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالأول .

وأخرج فى جملتها الفسطاط الكبير المعروف بالمدورة الكبيرة ، المتولى عمله بحلب أبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الأيسر فى سنى نيف وأربعين وأربعمائة ، المنفق على

خرقه ونقشه وعمله وعدته ثلاثون ألف دينار ، الذى عموده أطول ما يكون من صوارى درامين الروم البنادقة أربعون ذراعا ، ودائر فلكة عموده أربعة وعشرون شبرا ، ويحمل على سبعين جملا ، ووزن صفريته الفضة قنطاران ، سوى أنابيب عمده ، ويتولى اتقان عمده ونصبه مائتا رجل من فراش ومعين وهو شبيه بالقاتول العزيزى ، وسمى بالقاتول لأنه ما نصب قط الا وقتل رجلا أو رجلين ممن يتولى اتقانه من فراش وغيره .

قال : ووجد فى خزائن مملوءة من سائر أنواع الصوانى المدهونة ببغداد المذهبة ، التى حشيت كل واحدة منها بما دونها فى السعة الى ما سعته دون الدرهم . ومن سائر أنواع الأطباق الخلع الرازى فى هذه السعة ، وفوق ذلك ودونه ، قد حشيت بطونها بما دونها فى السعة الى ما سعته دون الدينار . ومن الموائد القوائمية ، الصغار والكبار ، ألوف . ومن موائد الكرم وما أشبهها شىء كثير . ومن الجفانى الحور الواسعة التى قد عملت مقابضها من الفضة ، وحليت بأنواع الحلى ، التى لا يقدر الجمل القوى على حمل جفنتين منها لعظمها ، تساوى الواحدة منها مائة دينار وفوقها ودونها ... شىء كثير .

ووجد من الدكك والمحاريب والأسرة ، العود والصندل والعاج والأبنوس والبقم شىء كثير مليح الصنعة .

وقال ابن ميسر : وعمل الأفضل ابن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع ، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل . صرف عليها عشرة آلاف دينار ، ومدحها جماعة من الشعراء .

خزانة الشراب

قال ابن المأمون : ولم يكن فى الايوان فيما تقدم شراب حلو ، بل انها قررت فى استقبال النظر المأمونى ، وأطلق لها من السكر مائة وخمسة عشر قنطارا ، وبرسم الورد المربى خمسة عشر قنطارا . وأما ما يستعمل بالكافورى من الحلو الفانيذ والحامض فالمبلغ فى ذلك — على ما حصره شاهده — فى السنة ستة آلاف وخمسمائة دينار . وما يحمل الكافورى أيضا برسم كرك الماورد ما تستدعيه متولى الشراب .

وقال ابن الطوير : خزانة الشراب — وهى أحد مجالسه أيضا (يعنى القاعه التى هى الان المارستان العتيق) — فاذا جلس الخليفة على السرير عرض عليه ما فيها حاميها وهو من كبار الأستاذين ، وشاهدها ... فيحضر اليه فراشوها بين يدى مستخدمها من عيون الأصناف العالية من المعاجين العجيبة فى الصينى والطيافير الخلنج ، فيذوق ذلك شاهدها بحضرته ، ويستخبر عن أحوالها بحضور أطباء الخاص .

وفيها من الآلات والأزيار الصينى والبرابى عدة عظيمة للورد والبنفسج والمرسين ، وأصناف الأدوية من الراوند الصينى ومايجرى

(*) ص٤١٩ جـ١ ، ط.بولاق .

مجراه مما لا يقدر أحد على مثله الا هناك ، وما يدخل فى الأدوية من آلات العطر الى ذلك .

ويسأل عن الدرياق الفاروق ، ويأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه ، ويؤكد فى ذلك تأكيدا عظيما .

ويستأذن على ما يطلق منها فى رقاع ، أطباء الخاص للجهات وحواشى القصر ، فيأذن فى ذلك ، ويعطى الحامى للتفرقة فى الجماعة ثلاثين دينارا .

خزانة التوابل

وقال ابن المأمون : فأما التوابل ، العالى منها والدون ، فانها جملة كثيرة . ولم يقع لى شاهد بها ، بل اننى اجتمعت بأحد من كان مستخدما فى خزانة التوابل ، فذكر أنها تشتمل على خمسين ألف دينار فى السنة ، وذلك خارج عما يحمل من البقولات — وهى باب مفرد — مع المستخدم فى الكافورى

والذى استقر اطلاقه على حكم الاستيمار من الجرايات المختصة بالقصور والرواتب المستجدة ، والمطلق من الطيب ... ويذكر الطراز وما يبتاع من الثغور ويستعمل بها ، وغير ذلك .

فأولها جراية القصور ، وما يطلق لها من بيت المال ادرارا لاستقبال النظر المأمونى : ستة آلاف وثلثمائة وثلاثة وأربعون دينارا .

تفصيله : منديل الكم الخاص الآمرى فى الشهر ثلاثة آلاف دينار عن مائة دينار كل يوم ، أربع جمع الحمام فى كل جمعة مائة دينار أربعمائة دينار . ويرسم الأخوة والأخوات ، والسيدة الملكة والسيدات ، والأمير أبى على واخوته ، والموالى والمستخدمات ، ومن استجد من الأفضليات : ألفان وتسعمائة وثلاثة وأربعون دينارا .

ولم يكن للقصور فى الأيام الأفضلية من الطيب راتب فيذكر ، بل كان اذا وصلت الهدية والجاوى من البلاد اليمنية تحمل برمتها الى الايوان ، فينقل منها بعد ذلك للأفضل والطيب المطلق للخليفة من جملتها . فانفتح هذا الحكم ، وصار المرتب من الطيب مياومة ومشاهرة على ما يأتى ذكره .

ما هو برسم الخاص الشريف فى كل شهر : ند مثلث ثلاثون مثقالا ، عود صيفى مائة وخمسة دراهم ، كافور قديم خمسة عشر درهما ، عنبر خام عشرة مثاقيل ، زعفران عشرون درهما ، ماء ورد ثلاثون رطلا .

برسم بخور المجلس الشريف فى كل شهر فى أيام السلام : ند مثلث عشرة مثاقيل ، عود صيفى عشرون درهما ، كافور قديم ثمانية دراهم ، زعفران شعر عشرة دراهم .

ما هو برسم بخور الحمام فى كل ليلة جمعة عن أربع جمع فى الشهر : ند مثلث أربعة مثاقيل ، عود صيفى عشرة مثاقيل .

ما هو برسم السيدات والجهات والأخوة فى كل شهر : ند مثلث خمسة وثلاثون مثقالا ، عود صيفى مائة وعشرون درهما ، زعفران

شعر خمسون درهما ، عنبر خام عشرون مثقالا ، كافور قديم عشرون درهما ، مسك خمسة عشر مثقالا ، ماء ورد أربعون رطلا .

ما هو برسم المائدة الشريفة ما تستلمه المعلمة : مسك خمسة عشر مثقالا ، ماء ورد خمسة عشر رطلا .

ما هو برسم خزانة الشراب الخاص : مسك ثلاثة مثاقيل ، ند * مثلث سبعة مثاقيل ، عود صيفى خمسة وثلاثون درهما ، ماء ورد عشرون رطلا .

ما هو برسم بخور المواكب الستة ، وهى الجمعتان الكائنتان فى شهر رمضان برسم الجامعين بالقاهرة (يعنى الجامع الأزهر والجامع الحاكمى) والعيدان ، وعيد الغدير ، وأول السنة بالجوامع والمصلى : ند خاص جملة كثيرة لم تتحقق فتذكر .

ولم يكن للغرتين : غرة السنة ، وغرة شهر رمضان ، وفتح الخليج ، بخور فيذكر .

وعدة المبخرين فى المواكب ستة : ثلاثة عن اليمين ، وثلاثة عن الشمال . وكل منهم مشدود الوسط ، وفى كمه فحم برسم تعجيل المدخنة . والمداخن فضة .

وحامل الدرج الفضة الذى فيه البخور أحد مقدمى بيت المال ، وهو فيما بين المبخرين طول الطريق ، ويضع بيده البخور فى المدخنة .

واذا مات أحد هؤلاء المبخرين لا يخدم عوضا عنه الا من يتبرع بمدخنة فضة ، لأن لهم رسوما كثيرة فى المواسم ، مع قربهم فى المواكب من الخليفة . ومن الوقت الذى يتبرع فيه بالمدخنة يرجع فى حاصل بيت المال . واذا توفى حاملها لا ترجع لورثته .

وعدة ما يبخر فى الجوامع والمصلى غير هؤلاء ، فى مداخن كبار فى صوانى فضة ، ثلاث صوان : فى المحراب احداهن ، وعن يمين المنبر وشماله اثنتان ، وفى الموضع الذى يجلس فيه الخليفة الى أن تقام الصلاة صينية رابعة .

وأما البخور المطلق برسم المأمون فهو فى كل شهر : ند مثلث خمسة عشر مثقالا ، عود صيفى ستون درهما ، عنبر خام ستة مثاقيل ، كافور ثمانية دراهم ، زعفران شعر عشرة دراهم ، ماء ورد خمسة عشر رطلا .

ومنها مقرر المجامع : وما قرر من خزانة التفرقة فى كل يوم اثنا عشر مجمعا ، كل بيت عياره رطل واحد . ولكل مجمع ثلاثة أرطال جبن قريش ، وفاكهة بنصف درهم . والمستقر لهذه المجامع فى كل يوم من اللبن خمسة وثمانون رطلا .

ومنها مقرر الحلوى والفستق ، ومما استجد ما يعمل فى الايوان برسم الخاص فى كل يوم من الحلوى اثنا عشر جاما رطبة ويابسة نصفين . وزن كل جام من الرطب عشرة أرطال ، ومن اليابس ثمانية أرطال .

ومقرر الخشنكانج والبسندود : فى كل ليلة على الاستمرار ، برسم الخاص الآمرى والمأمونى ، قنطار واحد سكر ، ومثقالان

(*) ص٤٢٠ جـ١ ، ط.بولاق .

مسك ، وديناران برسم المؤن لعمل خشكنانج وبسندود فى قعبان ، وسلال صفصاف . ويحمل ثلثا ذلك الى القصر ، والثلث الى الدار المأمونية .

قال : وجرت مفاوضة بين متولى بيت المال ودار الفطرة بسبب الأصناف ، ومن جملتها الفستق وقلة وجوده ، وتزايد سعره الى أن بلغ رطل ونصف بدينار . وقد وقف منه لأرباب الرسوم ما حصل شكواهم بسببه . فجاوبه متولى الديوان بأن قال : ما تم موجب الانفاق لما هو راتب من الديوان .

وطالعا المقام العالى بأنه لما رسم لهما ، ذكرا جميع ما اشتمل عليه ما هو مستقر الانفاق من قلب الفستق .

والذى يطلق من الخزائن من قلب الفستق ادرارا مستقرا بغير استدعاء ولا توقيع ، مياومة كل يوم حسابا فى الشهر التام عن ثلاثين يوما : خمسمائة وخمسة وثمانون رطلا وفى الشهر الناقص عن تسعة وعشرين يوما : خمسمائة وخمسة وستون رطلا ، حسابا عن كل يوم تسعة عشر رطلا ونصف .

من ذلك ما يستلمه الصناع الحلاويون والمستخدمون بالايوان مما يصنع به خاص ، خارجا عما يصنع بالمطابخ الآمرية ، عن اثنى عشر جام حلوى خاص ، وزنها مائة وثمانية أرطال : منها رطب ستون رطلا ، ويابس وغيره ثمانية وأربعون رطلا ... مما يصل فى يومه وساعته : منها ما يحمل مختوما برسم المائدتين الآمريتين بالباذهنج والدار الجديدة ، اللتين ما يحضرهما الا من كبرت منزلته وعظمت وجاهته ، جامان رطبا ويابسا . وما يفرق فى العوالى من الموالى والجهات ، على أوضاع مختلفة ، تسع جامات . وما يحمل الى الدار المأمونية ، برسم المائدة بالدار دون السماط ، جام واحد تتمة المياومة المذكورة .

ما يتسلمه مقدم الفراشين فى خدمة المائدة الشريفة التى تتولاها المعلمة بالقصور الزاهرة ، أربعة أرطال فستق .

ما يتسلمه الشاهد والمشارف على المطابخ الآمرية ، مما يصنع فيها برسم الجامات الحلوى وغيره ، مما يكون على المدورة فى الأسمطة المستمرة بقاعة الذهب فى أيام السلام وفى أيام الركوبات وحلول الركاب بالمناظر : أربعة أرطال .

وما يتسلمه الحاج مقبل الفراش برسم المائدة المأمونية مما يوصله لزمام الدار دون المطابخ الرجالية : رطلان .

الحكم الثانى يطلق مشاهرة — بغير توقيع ولا استدعاء — بأسماء كبراء الجهات والمستخدمين من الأصحاب والحواشى فى الخدم المميزة ، وهو فى الشهر ثلاثة عشر رطلا . والديوان شاهد بأسماء أربابه .

وما يطلق من هذه الخزائن السعيدة بالاستدعاءات والمطالعات ويوقع عليه بالاطلاق من هذا الصنف فى كل سنة على ما يأتى ذكره .

وما يستدعى برسم التوسعة فى الراتب ، عند تحويل الركاب العالى الى اللؤلؤة مدة أيام النيل المبارك ، فى كل يوم رطلان .

وما يستدعى برسم الصيام مدة تسعة وخمسين يوما ، رجب وشعبان ، حسابا عن كل يوم رطلان : مائة وثمانية عشر رطلا * .

وما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة فى كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة وبسندود وجوارشات ونواطف ، ويحمل فى سلال صفصاف لوقته ، عن مدة أولها مستهل رجب وآخرها سلخ رمضان ، عن تسعة وثمانين يوما : مائة وثمانية وسبعون رطلا ، لكل ليلة رطلان . ويسمى ذلك بالتعبية .

وما يستدعيه صاحب بيت المال ومتولى الديوان ، فيما يصنع بالايوان الشريف برسم الموالد الشريفة الأربعة : النبوى ، والعلوى ، والفاطمى ، والآمرى — مما هو برسم الخاص والموالى والجهات بالقصور الزاهرة والدار المأمونية والأصحاب والحواشى — خارجا عما يطلق مما يصنع بدار الوكالة ، ويفرق على الشهود والمتصدرين والفقراء والمساكين مما يكون حسابه من غير هذه الخزائن : عشرون رطلا قلب فستق ، حسابا لكل يوم مؤبد منها خمسة أرطال .

ما يستدعى برسم ليالى الوقود الأربع ، الكائنات فى رجب وشعبان ، مما يعمل بالايوان برسم الخاصين والقصور خاصة : عشرون رطلا ، لكل ليلة خمسة أرطال .

وأما ما ينصرف فى الأسمطة والليالى المذكورات ، فى الجامع الأزهر بالقاهرة والجامع الظاهرى بالقرافة ، فالحكم فى ذلك يخرج عن هذه الخزائن ، ويرجع الى مشارف الدار السعيدة .

وكذلك ما يستدعيه المستخدمون فى المطابخ الآمرية من التوسعة من هذا الصنف المذكور فى جملة غيره ، برسم الأسمطة لمدة تسعة وعشرين يوما من شهر رمضان وسلخه لأسماط فيه ، وفى الأعياد جميعها بقاعة الذهب .

وما يستدعيه النائب برسم ضيافة من يصرف من الأمراء فى الخدم الكبار ويعود الى الباب ، ومن يرد اليه من جميع الضيوف .

وما يستدعيه المستخدمون فى دار الفطرة برسم فتح الخليج ، وهى الجملتان الكبيرتان ... فجميع ذلك لم يكن فى هذه الخزائن محاسبته ولا ذكر جملته . والمعاملة فيه مع مشارف الدار السعيدة .

وأما ما يطلق من هذا الصنف من هذه الخزائن فى هذه الولائم والأفراح وارسال الأنعام ، فهو شىء لم تتحقق أوقاته ولا مبلغ استدعائه ... أنهى المملوكان ذلك . والمجلس فضل السمو والقدرة فيما يأمر به ان شاء الله تعالى .

دار التعبية

قال ابن المأمون : دار التعبية كانت فى الأيام الأفضلية تشتمل على مبلغ يسير ، فانتهى الأمر فيها الى عشرة دنانير كل يوم ، خارجا عما هو موظف على البساتين السلطانية ، وهو النرجس والتينوفران الأصفر

(*) ص٤٢١ جـ١ ، ط. بولاق .

والأحمر ، والنخل الموقوف برسم الخاص ، وما يصل اليه من الفيوم وثغر الاسكندرية

ومن جملتها تعبية القصور للجهات والخاص والسيدات ولدار الوزارة » وتعبية المناظر فى الركوبات الى الجمع فى شهر رمضان ، خارجا عن تعبية الحمامات ، وما يحمل كل يوم من الزهرة ، وبرسم خزانة الكسوة الخاص ، وبرسم المائدة ، وتفرقة الثمرة الصيفية فى كل سنة على الجهات والأمراء والمستخدمين والحواشي والأصحاب ، وما يحصل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة .

خزانة الأدم

قال : وأما الراتب من عند بركات الأدمى ، فانه فى كل شهر ثمان زوجا أوطية . من ذلك : برسم الخاص ثلاثون زوجا ، برسم الجهات أربعون زوجا ، برسم الوزارة عشرة أزواج ... خارجا عن السباعيات ، فانها تستدعى من خزانة الكسوة ، وفى كل موسم تكون مذهبة .

خزائن دار أفتكين

قال ابن الطوير : وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة أفتكين ، الذى رافق نزار بن المستنصر بالاسكندرية ، جعلوها برسم برسم الخزن ، فقيل خزائن دار أفتكين . وتحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الاسكندرية وغيرها ، وجميع القلوب المأكولة من الفستق وغيره ، والأعسال على اختلاف أصنافها ، والسكر والقند والشيرج والزيت .

فيخرج من هذه الخزائن — بيد حاميها وهو من الأستاذين المميزين ، ومشارفها وهو من المعدلين — راتب المطابخ خاصا وعاما ليوم أو لأيام : ينفق منها للمستخدمين ، ثم لأرباب التوقيعات من الجهات ، وأرباب الرسوم فى كل شهر من أرباب الرتب ، حتى لا يخرج عما يحتاجونه فيها الا اللحم والخضراوات ، فهى أبدا معمورة بذلك . انتهى * .

« خبر نزار وأفتكين » : لما مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد ابن الامام الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور ، فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، بادر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى الى القصر ، وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر فى منصب الخلافة ، ولقبه بالمستعلى بالله .

وسير الى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير اسماعيل أولاد المستنصر فجاءوا اليه ، فاذا أخوهم أحمد — وهو أصغرهم — قد جلس على سرير الخلافة ، فامتعضوا لذلك وشق عليهم .

وأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض ، وقال لهم : قبلوا الأرض لمولانا المستعلى بالله وبايعوه ، فهو الذى نص عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده .

(*) ص٤٢٢ ، جـ١ ، ط. بولاق .

فامتنعوا من ذلك وقال كل منهم ان أباه قد وعده بالخلافة .

وقال نزار : لو قطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنا . وخط والدى عندى بأنى ولى عهده وأنا أحضره .

وخرج مسرعا ليحضر الخط ، فمضى لا يدرى به أحد ، وتوجه الى الاسكندرية .

فلما أبطأ مجيئه بعث الأفضل اليه ليحضر بالخط ، فلم يعلم له خبرا ، فانزعج لذلك انزعاجا عظيما .

وكانت نفرة نزار من الأفضل لأمور : منها أنه خرج يوما فاذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب ، فصاح به نزار : انزل ياأرمنى الجنس . فحقدها عليه ، وصار كل منهما يكره الآخر .

ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا فى أيام أبيه ، ويستخف به ، ويضع من حواشيه وأسبابه ، ويبطش بغلمانه . فلما مات المستنصر خافه لأنه كان رجلا كبيرا ، وله حاشية وأعوان ، فقدم لذلك أحمد بن المستنصر بعدما اجتمع بالأمراء وخوفهم من نزار ، وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه .

وكان من جملتهم محمود بن مصال ، فسير خفية الى نزار ، وأعلمه بما كان من اتفاق الأفضل مع الأمراء على اقامة أخيه أحمد وادارته لهم عنه . فاستعد الى المسير الى الاسكندرية هو وابن مصال .

فلما فارق الأفضل ليحضر اليه بخط أبيه ، خرج من القصر متنكرا ، وسار هو وابن مصال الى الاسكندرية وبها الأمير نصر الدولة أفتكين ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، ودخلا عليه ليلا ، وأعلماه بما كان من الأفضل ، وترا ميا عليه ، ووعده نزار بأن يجعله وزيرا مكان الأفضل ... فقبلهما أتم قبول وبايع نزار ، وأحضر أهل الثغر لمبايعته فبايعوه ، ونعته بالمصطفى لدين الله .

فبلغ ذلك الأفضل ، فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج فى آخر المحرم سنة ثمان وثمانين بعساكره ، وسار الى الاسكندرية . فبرز اليه نزار وأفتكين ، وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الأفضل ، ورجع بمن معه منهزما الى القاهرة . فقوى نزار وأفتكين ، وصار اليهما كثير من العرب ، واشتد أمر نزار وعظم ، واستولى على بلاد الوجه البحرى .

وأخذ الأفضل يتجهز ثانيا الى المسير لمحاربة نزار ، ودس الى أكابر العربان ووجوه أصحاب نزار وأفتكين ، وصاروا الى الاسكندرية فنزل الأفضل اليها وحاصرها حصارا شديدا ، وألح فى مقاتلتهم ، وبعث الى أكابر أصحاب نزار ووعدهم .

فلما كان فى ذى القعدة ، وقد اشتد البلاء من الحصار ، جمع ابن مصال ماله وفر فى البحر الى جهة بلاد المغرب . ففت ذلك فى عضد نزار ، وتبين فيه الانكسار .

واشتد الأفضل وتكاثرت جموعه ، فبعث نزار وأفتكين اليه يطلبان الأمان منه فأمنهما ،

ودخل الاسكندرية ، وقبض على نزار وأفتكين ، وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فانه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما ، وأما أفتكين فانه قتله الأفضل بعد قدومه .

ودار أفتكين هذه كانت خارج القصر ، وموضعها الآن حيث مدرسة القاضى الفاضل وآدره بدرب ملوخيا .

خزانة البنود

البنود هى الرايات والأعلام ، ويشبه أن تكون هى التى يقال لها فى زمننا العصائب السلطانية .

وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك وباب العيد . بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله . وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع .

وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة ، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغانى . وفى زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة فى اتخاذ الأغانى والرقاصات ، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة ، واتخذت له حجرة المماليك ، وكانوا يعلمونهم فيها أنواع العلوم ، وأنواع آلة الحرب ، وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة والمسابقة وغير ذلك .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ولما وهب السلطان (يعنى الخليفة المستنصر) لسعد الدولة ، المعروف بسلام عليك ، ما فى خزانة البنود من جميع المتاع والآلات وغير ذلك ، فى اليوم السادس من صفر سنة احدى وستين وأربعمائة ، حمل جميعه ليلا .

وكان فيما وجد * سعد الدولة فيها ألفا وتسعمائة درقة ، الى ما سوى ذلك من آلات الحرب وما سواه ، وغير ذلك من القضب الفضة والذهب والبنود وما سواه . وفى خلال ذلك سقط من بعض الفراشين مقط شمع موقد نارا ، فصادف هناك أعدال كتان ومتاعا كثيرا ، فاحترق جميعه . وكانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق .

وأعلمنى من له خبرة بما كان فى خزانة البنود أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والأمتعة والذخائر لا يعرف له قيمة عظما ، وأن المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار ، من وقت دخول القائد جوهر وبناء القصر من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى هذا الوقت ، وذلك زائد عن مائة سنة ، وأن جميعه باق فيها على الأيام لم يتغير ، وأن جميعه احترق حتى لم يبق منه باقية ولا أثر ، وأنه احترق فى هذه الليلة من قربات النفط عشرات ألوف ، ومن زراقات النفط أمثالها .

فأما الدرق والسيوف والرماح والنشاب فلا تحصى بوجه ولا سبب ، مع ما فيها من قضب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها ، والبنود المجملة ، وسروج ولجم ، وثياب الفرحية

(*) ص٤٢٣ جـ١ ، ط.بولاق .

المصبغات والبنادين وغيرها ، بعد أن أخذوا ما قدروا عليه ، حتى لواء الحمد وسائر البنود وجميع العلامات والألوية .

وحدثني من أثق به أيضا أنه احترق فيهـا من السـيوف عشرات ألوف وما لا يحصى كثرة . وأن السلطان بعد ذلك بمدة طـويلة احتاج الى اخراج شيء من السـلاح لبعض مهماته ، فأخرج من خزانة واحدة — مما بقى وسلم — خمسة عشر ألف سـيف مجوهرة سوى غيرها ... حدثني بجميعه الأجل عظيم الدولة متولى الستر الشريف . انتهى .

وجعلت خزانة البنـود بعـد هذا الحريق حبسا . وفيها يقول القاضي المهذب بن الزبير لما اعتقل بها ، وكتب بها للكامل بن شاور :

أياصـاحبي سجن الخزانة خليا
نسيم الصـبا يرسل الى كبدى نفحا

وقولا لضـوء الصبح هل أنت عائد
الى نظرى أم لا أرى بعدها صبحا ؟

ولا تيأسـا من رحمـة الله أن أرى
سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا

وقال :

أياصـاحبي سجن الخزانة خليـا
من الصـبح ما يبدو سناه لنـاظرى

فوالله ما أدرى أطـرفى سـاهر
على طول هذا الليل أم غير ساهر ؟

ومالى من أشكو اليه أذاكمـا
سوى ملك الدنيا شـجاع بن شاور

واستمرت سجنا للأمراء والوزراء والأعيان الى أن زالت الدولة ، فاتخـذها ملوك بنى أيوب أيضا سجنا تعتقل فيه الأمراء والمماليك.

ومن غريب ما وقع بها أن الوزير أحمـد ابن على الجرجراى لما توفى ، طلب الوزارة الحسن بن على الأنبـارى ، فأجيب اليها ، فتعجل من سوء التدبير قبـل تمامه ما فوته مراده ، وضيع ماله ونفسه .

وذلك أنه كان قد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله أخوان يهـوديان يتصرف أحدهمـا فى التجارة ، والآخر فى الصرف وبيع ما يحمله التجار من العراق ، وهما أبو سعد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنـا سـهل التسترى ، واشتهر من أمرهما فى البيـوع واظهـار ما يحصل عندهما من الودائع الخفية لمن يفقد من التجار فى القرب والبعد ، ما ينشأ به جميـل الذكر فى الآفاق ، فاتسع حالهما لذلك .

واستخدم الخليفة الظـاهر لاعزاز دين الله أبا سعد ابراهيم بن سهل التسترى فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة ، وتقـدم عنده فبـاع له جارية سـوداء ، فتحظى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر . فرعت لأبى سعد ذلك . فلما أفضت الخلافة الى المستنصر ولدها ، قدمت أبا سعـد وتخصصـت به فى خدمتها .

فلما مات الوزير الجرجراى ، وتكلم ابن الأنبارى فى الوزارة ، قصده أبو نصر أخو أبى سعد ، فجبهه أحد أصحابه بكلام مؤلم ، فظن أبو نصر أن الوزير ابن الأنبارى اذا بلغه ذلك ينكر على غلامه ويعتذر اليه ، فجاء منه

خلاف ما ظنه ، وبلغه عنه أضعاف ما سمعه من الغلام ، فشكا ذلك الى أخيه أبى سعد ، وأعلمه بأن الوزير متغير النية لهما .

فلم يفتر أبو سعد عن ابن الأنبارى ، وأغرى به أم المستنصر مولاته ، فتحدثت مع ابنها الخليفة المستنصر فى أمره حتى عزله عن الوزارة . فسعى أبو سعد عند أم المستنصر لأبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى فى الوزارة ، فاستوزره المستنصر ، وتولى أبو سعد الاشراف عليه ، وصار الوزير الفلاحى منقادا لأبى سعد تحت حكمه .

وأخذ الفلاحى يعمل على ابن الأنبارى ويغرى به ، ويصنع عليه ديونا ، ويذكر عنه ما يوجب الغضب عليه حتى تم له ما يريد ، فقبض عليه ، وخرّج عليه من الدواوين أموالا كثيرة مما كان يتولاه قديما ، وألزمه بحملها ، ونوع له أصناف العذاب ، واستصفى أمواله وهو معتقل * بخزانة البنود ، ثم قتله فى يوم الاثنين الخامس من المحرم سنة أربعين وأربعمائة بها .

فاتفق أن الفلاحى لما صرف عن الوزارة . اعتقل بخزانة البنود حيث كان ابن الأنبارى ثم قتل بها . وحفر له ليدفن فظهر فى الحفر رأس ابن الأنبارى ، قبل أن يمضى فيه القتل ، فقال : لا اله الا الله ، هذا رأس ابن الأنبارى أنا قتلته ودفنته ههنا . وأنشد :

رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد

فقتل ودفن فى تلك الحفرة مع ابن الأنبارى فعد ذلك من غرائب الاتفاق .

ثم ان خزانة البنود جعلت منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية أيام كانت محاربة المسلمين لهم . فأنزل بها الملك الناصر محمد بن قلاوون الأسارى بعد حضوره من الكرك ، وأبطل السجن بها .

فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . فصار لهم فيها أفعال قبيحة ، وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر ، والتظاهر بالزنا واللياطة ، وحماية من يدخل اليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم ، فلا يقدر أحد — ولو جل — على أخذ من صار اليهم واحتمى بهم ... والسلطان يغضى عنهم ، لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة ، والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج .

وكان يسكن بالقرب منها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، ويبلغه ما يفعله الفرنج من العظائم الشنيعة فلا يقدر على منعهم .

وفحش أمرهم ، فرفع الخبر الى السلطان ، وأكثر من شكايتهم غير مرة ، والسلطان يتغافل عن ذلك ... الى أن كثرت مفاوضة الحاج آل ملك للسلطان فى أمرهم ، فقال له السلطان : انتقل أنت عنهم ياأمير ..

فلم يسعه الا الاعراض عن ذلك ، وعمر داره التى بالحسينية والاسطبل والجامع المعروف بآل ملك والحمام والفندق ، وانتقل من داره التى كان فيها بجوار خزانة البنود ،

(*) ص٤٢٤ جـ١ ، ط.بولاق .

وسكن بالحسينية الى أن مات السلطان الملك الناصر فى أخريات سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

وتنقل الملك فى أولاده ... الى أن جلس الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وضرب شورى على من يكون نائب السلطنة بالديار المصرية يدبر أحوال المملكة — كما كانت العادة فى ذلك مدة الدولة التركية — فأشير بتولية الأمير بدر الدين جنكل بن البابا ، فتنصل من ذلك وأبى قبوله .

فعرضت النيابة على الأمير الحاج آل ملك ، فاستبشر وقال : لى شروط أشرطها على السلطان ، فان أجابنى اليها فعلت ما يرسم به ، وهى : ألا يفعل شيء فى المملكة الا برأيى ، وأن يمنع الناس من شرب الخمر ، ويقام منار الشرع ، ولا يعترض على أمر من الأمور ... فأجيب الى ما سأل .

وأحضرت التشاريف ، فأفيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل فى يوم الجمعة الثانى عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، وأصبح يوم السبت جالسا فى دار النيابة من القلعة ، وحكم بين الناس .

وأول ما بدأ به أن أمر والى القاهرة بالنزول الى خزانة البنود ، وأن يحتاط على جميع ما فيها من الخمر والفواحش ، ويخرج الأسرى منها ، ويهدمها حتى يجعلها دكا ويسوى بها الأرض .

فنزل اليها ومعه الحاجب فى عدة وافرة ، وهجموا على من فيها وهم آمنون ، وأحاطوا بسائر ما تشتمل عليه — وقد اجتمع من العامة والغوغاء ما لا يقع عليه حصر — فأراقوا منها خمورا كثيرة تتجاوز الحد فى الكثرة ، وأخرج من كان فيها من النساء البغايا وغيرهن من الشباب وأرباب الفساد ، وقبض على الفرنج والأرمن ، وهدمها حتى لم يبق لها أثر .

ونودى فى الناس فحكروها ، وبنوا فيها الدور والطواحين على ما هى عليه الآن . وأمر بالأسرى فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيسى بجوار كيمان مصر فهم هناك الى الآن ، وأنزل من كان منهم أيضا بقلعة الجبل فأسكنوا معهم .

وطهر الله تلك الأرض منهم ، وأراح العباد من شرهم . فانها كانت شر بقعة من بقاع الأرض : يباع فيها لحم الخنزير على الوضم كما يباع لحم الضأن ، ويعصر فيها من الخمور فى كل سنة ما لا يستطيع أحد حصره ... حتى يقال انه كان يعصر بها فى كل سنة اثنان وثلاثون ألف جرة خمر ، ويباع فيها الخمر نحو اثنى عشر رطلا بدرهم ، الى غير ذلك من سائر أنواع الفسوق .

دار الفطرة

قال ابن الطوير : دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله ، وهو أول من بناها ، وقرر فيها ما يعمل مما يحمل الى الناس فى العيد . وهى قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه الى المشهد الحسينى .

ويكون مبدأ الاستعمال فيها ، وتحصيل جميع أصنافها من السكر والعسل والقلوب والزعفران والطيب والدقيق ، لاستقبال النصف الثانى من شهر رجب كل سنة ليلا ونهارا ، من الخشكنانج والبسندود ، وأصناف الفانيذ الذى يقال له كعب * الغزال ، والبرماورد والفستق ، وهو شوابير مثال الصنج .

والمستخدمون يرفعون ذلك الى أماكن وسيعة مصونة ، فيحصل منه فى الحاصل شيء عظيم هائل بيد مائة صانع : للحلاويين مقدم ، وللخشكنانيين آخر . ثم يندب لها مائة فراش لحمل طيافير للتفرقة على أرباب الرسوم ، خارجا عمن هو مرتب لخدمتها من الفراشين الذين يحفظون رسومها ومواعينها الحاصلة بالدائم ، وعدتهم خمسة .

فيحضر اليها الخليفة والوزير معه ، ولا يصحبه فى غيرها من الخزائن لأنها خارج القصر وكلها للتفرقة . فيجلس على سريره بها ، ويجلس الوزير على كرسى ملين على عادته فى النصف الثانى من شهر رمضان ، ويدخل معه قوم من الخواص ، ثم يشاهد ما فيها من تلك الحواصل المعمولة المعباة مثل الجبال من كل صنف ، فيفرقها من ربع قنطار الى عشرة أرطال الى رطل واحد وهو أقلها .

ثم ينصرف الخليفة والوزير بعد أن ينعم على مستخدميها بستين دينارا .

ثم يحضر الى حاميها ومشارفها الأدعية المعمولة المخرجة من دفتر المجلس ، كل دعو لتفريق فريق من خاص وغيره ، حتى لا يبقى أحد من أرباب الرسوم الا واسمه واود فى دعو من تلك الأدعية .

وينـدب صاحب الديوان الكتاب المسلمين فى الديوان ، فيسيرهم الى مستخدميها ، فيسلم كل كاتب دعوا أو دعوين أو ثلاثة ، على كثرة ما يحتويه وقلته ، ويؤمر بالتفرقة من ذلك اليوم .

فيقدمون أبدا مائتى طيفور من العالى والوسط والدون ، فيحملها الفراشون برقاع من كتاب الأدعية باسم صاحب ذلك الطيفور علا أو دنا ، وينزل اسم الفراش بالدعو أو عريفه حتى لا يضيع منها شيء ولا يختلط .

ولا يزال الفراشون يخرجون بالطيافير ملأى ويدخلون بها فارغة ، فبمقدار ماتحمل المائة الأولى عبيت المائة الثانية ، فلا يفتر ذلك طول التفرقة .

فأجل الطيافير ما عدد خشكنانه مائة حبة ، ثم الى سبعين وخمسين . ويكون على صاحب المائة طرحة فوق قوارته ، ثم الى خمسين ، ثم الى ثلاث وثلاثين ، ثم الى خمس وعشرين ، ثم الى عشرين . ونسبة منثور كل واحد على عدد خشكنانه .

ثم العبيد السودان بغير طيافير ، كل طائفة يتسلمه لها عرفاؤها فى افراد الخواص ، لكل طائفة على مقدارها الثلاثة الأفراد والخمسة والسبعة الى العشرة .

فلا يزالون كذلك الى أن ينقضى شهر رمضان ، ولا يفوت أحدا شيء من ذلك ، ويتهاداه الناس فى جميع الاقليم .

(*) ص ٤٢٥ ج ١ ، ط . بولاق *

قال : وما ينفق فى دار الفطرة ، فيما يفرق على الناس منها ، سبعة آلاف دينار .

وقال ابن عبد الظاهر : دار الفطرة بالقاهرة قبالة مشهد الامام الحسين عليه السلام ، وهى الفندق الذى بناه الأمير سيف الدين بهادر الآن فى سنة ست وخمسين وستمائة . أول من رتبها الامام العزيز بالله ، وهو أول من سنها .

وكانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل الى مصر تعمل بالايوان وتفرق منه . وعندما تحول الى مصر نقل الدواوين من القصر اليها ، واستجد لها مكانا قبالة دار الملك بايوانى المكاتبات والانشاء ، فانهما كانا بقرب الدار ، ويتوصل اليهما من القاعة الكبرى التى فيها جلوسه .

ثم استجد للفطرة دارا عملت بعد ذلك وراقة ، وهى الآن دار الأمير عز الدين الأفرم بمصر قبالة دار الوكالة ، وعملت بها الفطرة مدة ، وفرق منها ... الا ما يخص الخليفة والجهات والسيدات والمستخدمات والأستاذين فانه كان يعمل بالايوان على العادة .

ولما توفى الأفضل ، وعادت الدواوين الى مواضعها ، أنهى خاصة الدولة ريحان — وكان يتولى بيت المال — أن المكان بالايوان يضيق بالفطرة ، فأمره المأمون أن يجمع المهندسين ، ويقطع قطعة من اسطبل الطارمة يبنيه دار الفطرة .

فأنشأ الدار المذكورة قبالة مشهد الحسين والباب الذى بمشهد الحسين يعرف بباب الديلم ، وصار يعمل بها ما استجد من رسوم المواليد والوقودات . وعقدت لها جملتان : احداهما وجدت فسطرت ، وهى عشرة آلاف دينار ، خارجا عن جوارى المستخدمين .

والجملة الثانية فصلت فيها الأصناف . وشرحها : دقيق ألف حملة ، سكر سبعمائة قنطار ، قلب فستق ستة قناطير ، قلب لوز ثمانية قناطير ، قلب بندق أربعة قناطير ، تمر أربعمائة اردب ، زبيب ثلثمائة اردب ، خل ثلاثة قناطير ، عسل نحل خمسة عشر قنطارا ، شيرج مائتا قنطار ، حطب ألف ومائتا حملة ، سمسم اردبان ، آنيسون اردبان ، زيت طيب برسم الوقود ثلاثون قنطارا ، ماء ورد خمسون رطلا ، مسك خمس نوافج ، كافور قديم عشرة مثاقيل ، زعفران مطحون مائة وخمسون درهما .

وبيد الوكيل برسم المواعين والبيض والسقائين وغير ذلك من المؤن ، على ما يحاسب به ، وبرفع المحازيم : خمسمائة دينار .

ووجدت بخط ابن ساكن قال : كان المرتب فى دار الفطرة ولها ما يذكر ، وهو : زيت طيب برسم القناديل خمسة عشر قنطارا ، مقاطع سكندرى برسم القوارات ثلثمائة مقطع ، طيافير جدد برسم السماط ثلثمائة طيفور ، شمع برسم السماط وتوديع الأمراء ثلاثون قنطارا ، أجرة الصناع ثلثمائة دينار ، جارى الحامى مائة وعشرون دينارا .

جارى العامل والمشارف مائة * وثمانون دينارا ، وشقة ديبقى بياض حريرى ، ومنديل ديبقى كبير حريرى ، وشقة سقلاطون أندلسى يلبسها قدام الفطرة يوم حملها ، ليفرق طيافير

(*) ص٤٢٦ جـ١ ، ط. بولاق .

الفطرة على الأمراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس ، حتى يعم الكبير والصغير والضعيف والقوى .

ويبدأ بها من أول رجب الى آخر رمضان .

ذكر ما اختص من صفة الطيافير : الأعلى منها طيفور فيه مائة حبة خشكنانج وزنها مائة رطل ، وخمس عشرة قطعة حلاوة زنتها مائة رطل ، سكر سليماني وغيره عشرة أرطال ، قلوبات ستة أرطال ، بسندود عشرون حبة ، كعك وزبيب وتمر قنطار ... جملة الطيفور ثلاثة قناطير وثلث الى ما دون ذلك ، على قدر الطبقات ، الى عشر حبات .

وقال ابن أبى طى : وعمل المعز لدين الله دارا سماها دار الفطرة . فكان يعمل فيها من الخشكنانج والحلواء والبسندود والفانيذ والكعك والتمر والبندق شيء كثير ، من أول رجب الى نصف رمضان ، فيفرق جميع ذلك فى جميع الناس ، الخاص والعام على قدر منازلهم ، فى أوان لا تستعاد . وكان قبل ليلة العيد يفرق على الأمراء الخيول بالمراكب الذهب والخلع النفيسة والطراز الذهب ، والثياب برسم النساء .

المشهد الحسينى

قال الفاضل محمد بن على بن يوسف بن ميسر : وفى شعبان سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، خرج الأفضل بن أمير الجيوش بعساكر جمة الى بيت المقدس ، وبه سكان وأبلغازى ابنا أرتق فى جماعة من أقاربهما ورجالهما وعساكر كثيرة من الأتراك ، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم القدس اليه بغير حرب ، فلم يجيباه لذلك ، فقاتل البلد ، ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانبا ، فلم يجدا بدا من الاذعان له وسلماه اليه ، فخلع عليهما وأطلقهما .

وعاد فى عساكره وقد ملك القدس ، فدخل عسقلان ، وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فأخرجه وعطره ، وحمله فى سفط الى أجل دار بها ، وعمر المشهد ، فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره ، وسعى به ماشيا الى أن أحله فى مقره . وقيل ان المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكمله ابنه الأفضل .

وكان حمل الرأس الى القاهرة من عسقلان ووصوله اليها فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وكان الذى وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها كان ، والقاضى المؤتمن ابن مسكين مشارفها . وحصل فى القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور .

ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان ، وجد دمه لم يجف ، وله ريح كريح المسك . فقدم به الأستاذ مكنون فى عشارى من عشاريات الخدمة ، وأنزل به الى الكافورى ، ثم حمل فى السرداب الى قصر الزمرد ، ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة .

فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الأرض أمام القبر . وكانوا ينحرون فى يوم عاشوراء

عند القبر الابل والبقر والغنم ، ويكثرون النوح والبكاء ، ويسبون من قتل الحسين . ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم .

وقال ابن عبد الظاهر : مشهد الامام الحسين صلوات الله عليه قد ذكرنا أن طلائع ابن رزيك ، المنعوت بالصالح ، كان قد قصد نقل الرأس الشريفه من عسقلان لما خاف عليها من الفرنج ، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار . فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون ذلك الا عندنا ، فعمدوا الى هذا المكان ، وبنوه له ونقلوا الرخام اليه ، وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

وسمعت من يحكي حكاية يستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك ، وهى أن السلطان الملك الناصر رحمه الله لما أخذ هذا القصر ، وشى اليه بخادم له قدر فى الدولة المصرية — وكان زمام القصر — وقيل انه يعرف الأموال التى بالقصر والدفائن ، فأخذ وسئل ، فلم يجب بشيء وتجاهل .

فأمر صلاح الدين نوابه بتعذيبه ، فأخذه متولى العقوبة ، وجعل على رأسه خنافس ، وشد عليها قرمزية — وقيل ان هذه أشد العقوبات ، وان الانسان لا يطيق الصبر عليها ساعة الا تنقب دماغه وتقتله — ففعل ذلك به مرارا وهو لا يتأوه ، وتوجد الخنافس ميتة .

فعجب من ذلك وأحضره ، وقال : هذا سر فيك ، ولا بد أن تعرفني به .

فقال : والله ما سبب هذا الا أنى لما وصلت رأس الامام الحسين حملتها

قال : وأى سر أعظم من هذا ! وراجع فى شأنه ، فعفا عنه .

ولما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء ، وفوضها للفقيه البهاء الدمشقى ، وكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه . فلما وزر معين الدين حسين بن شيخ * الشيوخ بن حمويه ، ورد اليه أمر هذا المشهد بعد اخوته ، جمع من أوقافه ما بنى به ايوان التدريس الآن وبيوت الفقهاء العلوية خاصة .

واحترق هذا المشهد فى الأيام الصالحية فى سنة بضع وأربعين وستمائة ، وكان الأمير جمال الدين بن يعمور نائبا عن الملك الصالح فى القاهرة . وسببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيئا فسقطت منه شعلة ، فوقف الأمير جمال الدين المذكور بنفسه حتى طفىء .

وأنشدته حينئذ فقلت :

قالوا تعصب للحسين ولم يزل
بالنفس للهول المخوف معرضا

حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح ال
مسود من تلك المخاوف أبيضا

أرضى الاله بما أتى فكأنه
بين الأنام بفعله موسى الرضا

قال : ولحفظة الآثار وأصحاب الحديث ونقلة الأخبار ما اذا طولع وقف منه على

(*) ص٤٢٧ جـ١ ، ط. بولاق .

المسطور ، وعلم منــه ما هو غير المشهور . وانما هذه البركات مشــاهدة مرئيــة ، وهى يصحة الدعوى ملية ، والعمل بالنية .

وقال فى كتاب « الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبــد الرحيم » : ومن جملة مبانيه الميضأة قريب مشهد الامام الحســين بالقاهرة والمســجد والساقيــة ، ووقف عليها أراضى قريب الخندق ظاهر القاهرة . ووقفها دار جار ، والانتفاع بهذه المثوبة عظيم . ولما هدم المكان الذى بنى موضعه مئذنة ، وجد فيه شىء من طلسم لم يعلم لأى شىء هو ، فيه اسم الظاهر بن الحاكم واسم أمه رصد .

« خبر الحسين » : هو الحسين بن على بن أبى طالب — واسمه عبد مناف — بن عبــد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ، أبو عبد الله ، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع ، وقيل سنة ثلاث ، وعق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سابعه بكبش ، وحلق رأسه وأمر أن يتصدق بزنته فضة ، وقال : « أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ » .

فقال على بن أبى طالب : حربا .

فقال : « بل هو حسين » .

وكان أشبه الناس بالنبى صلى الله عليــه وسلم ما كان أسفل من صدره ، وكان فاضلا دينا ، كثير الصوم والصلاة والحج .

وقتل يوم الجمعة ، لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء سنة احدى وستين من الهجرة ، بموضع يقال له « كربلاء » من أرض العراق بناحية الكوفة ، ويعــرف الموضــع أيضــا بالطف ... قتله ســنان بن أنس اليحصبى ، وقيل قتله رجــل من مذحج ، وقيــل قتله شمر بن ذى الجوشن وكان أبرص ، وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصــبحى من حمير ... حز رأسه وأتى عبيد الله بن زياد وقال :

أوقر ركابى فضة وذهبا
انى قتلت الملك المحجبا
قتلت خير النــاس أما وأبا
وخيرهم اذ ينسبون نسـبا

وقيل قتله عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، وكان الأمير على الخيل التى أخرجها عبيد الله ابن زياد الى قتل الحسين ، وأمر عليهم عمرو ابن سعد ، ووعده أن يوليــه الرى ان ظفر بالحسين وقتله .

وقال ابن عبــاس رضى الله عنهما : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرى النــائم نصف النهار ، وهو قائم أشعث أغبر بيــده قارورة فيهــا دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى ما هذا ؟ قال : « هذا دم الحســين لم أزل ألتقطه منذ اليوم » . فوجدته قد قتل فى ذلك اليوم .

وهذا البيت زعموا قديما لا يدرى قائله :

أترجو أمة قتلت حســينا
شفاعة جده يوم الحساب !!

وقتل مع الحسين سبعة عشر رجلا ، كلهم من ولد فاطمة ، وقيل قتل معه من أهل بيته واخوته ثلاثة وعشرون رجلا .

وكان سبب قتله أنه لما مات معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فى سنة ستين ، وردت بيعة اليزيد على الوليد بن عقبة بالمدينة ليأخذ البيعة على أهلها . فأرسل الى الحسين بن على والى عبد الله بن الزبير ليلا ، فأتى بهما فقال : بايعا .

فقالا : مثلنا لا يبايع سرا ، ولكنا نبايع على رؤوس الناس اذا أصبحنا .

فرجعا الى بيوتهما وخرجا من ليلهما الى مكة ، وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب . فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة ، وخرج يوم التروية يريد الكوفة بكتب أهل العراق اليه .

فلما بلغ عبيد الله بن زياد مسير الحسين من مكة ، بعث الحصين بن تميم التميمى صاحب شرطته ، فنزل القادسية ونظم الخيل ما بينهما وبين جبل لعلع . فبلغ الحسين الحاجز له عن البلاد ، فكتب الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه مع قيس بن مسهر ، فظفر به الحصين ، وبعث به الى ابن زياد فقتله .

وأقبل الحسين يسير نحو الكوفة ، فأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وخبر قتل أخيه من الرضاعة ، فقام حتى أعلم الناس بذلك ، وقال : قد خذلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ، فليس عليه ذمام منا .

فتفرقوا حتى بقى فى أصحابه الذين * جاءوا معه من مكة ، وسار فأدركته الخيل ، وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى ، ونزل الحسين فوقفوا تجاهه وذلك فى نحر الظهيرة ، فسقى الحسين الخيل .

(*) ص٤٢٨ جـ١ ، طـ بولاق .

وحضرت صلاة الظهر فأذن مؤذنه ، وخرج فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس انها معذرة الى الله واليكم ، انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم : أن أقدم علينا فليس لنا امام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى . وقد جئتكم فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا وكنتم لقدمى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه ... فسكتوا .

وقال للمؤذن : أقم . فأقام .

وقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى أنت بأصحابك ؟

قال : بل صل أنت ونصلى بصلاتك .

فصلى بهم ، ودخل فاجتمع اليه أصحابه ، وانصرف الحر الى مكانه .

ثم صلى بهم العصر ، واستقبلهم فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ياأيها الناس انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله . ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، السائرين فيكم بالجور والعدوان . فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم ، انصرفت عنكم .

فقال الحر : انا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر .

فأخرج خرجين مملوءين صحفا فنشرها بين أيديهم .

فقال الحر : انا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد أمرنا اذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد .

فقال الحسين : الموت أدنى اليك من ذلك .

ثم أمر أصحابه لينصرفوا فركبوا ، فمنعهم الحر من ذلك ، فقال له الحسين : ثكلتك أمك ، ما تريد ؟

فقال له : والله لو كان غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنا من كان . والله ما لى الى ذكر أمك من سبيل الا بأحسن ما نقدر عليه .

فقال له الحسين : ما تريد ؟

قال : أريد أن أنطلق بك الى ابن زياد .

وتراد الكلام ، فقال له الحر : انى لم أومر بقتالك ، وانما أمرت ألا أفارقك حتى أدخلك الكوفة ، فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تزول الى المدينة حتى أكتب الى ابن زياد ، وتكتب أنت الى يزيد أو الى ابن زياد ، فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك .

فتياسر عن طريق العذيب والقادسية ، والحر يسايره .

فلما كان يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة احدى وستين ، قدم عمرو بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف ، وبعث الى الحسين رسولا يسأله : ما الذى جاء به ؟

فقال : كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فاذا كرهونى فأنا أنصرف عنهم .

فكتب عمرو الى ابن زياد يعرفه ذلك . فكتب اليه أن يعرض على الحسين بيعة يزيد ، فان فعل رأينا فيه رأينا ، والا نمنعه ومن معه الماء .

فأرسل عمرو بن سعد خمسمائة فارس ، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء ، وذلك قبل قتله بثلاثة أيام ، ونادى مناد : ياحسين ألا تنظر الماء ، لا ترى منه قطرة حتى تموت عطشا ! .

ثم التقى الحسين بعمرو بن سعد مرارا .

فكتب عمرو بن سعد الى عبيد الله بن زياد : أما بعد ، فان الله قد أطفأ الشائرة وجمع الكلمة . وقد أعطانى الحسين أن يرجع الى المكان الذى أتى منه ، أو أن تسيره الى أى ثغر من الثغور شاء ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده وفى هذا لكم رضى وللأمة صلاح .

فقال ابن زياد لشمر بن ذى الجوشن : اخرج بهذا الكتاب الى عمرو ، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى ، فان فعلوا فليبعث بهم ، وان أبوا فليقاتلهم . فان فعل فاسمع له وأطع ، وان أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه وابعث الى برأسه .

وكتب الى عمرو بن سعد : أما بعد ، فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاوله ولا لتقعد له عندى شافعا . انظر فان نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم الى سلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون ، فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق شاق قاطع ظلوم . فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا ، وخل بين شمر وبين العسكر . والسلام .

فلما أتاه الكتاب ركب والناس معه بعد العصر ، فأرسل اليهم الحسين : ما لكم ؟

فقالوا : جاء أمر الأمير بكذا .

فاستمهلهم الى غدوة .

فلما أمسوا قام الحسين ومن معه الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون . فلما صلى عمرو بن سعد الغداة يوم السبت — وقيل يوم الجمعة يوم عاشوراء — خرج فيمن معه . وعبى الحسين أصحابه ، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، وركب ومعه مصحف بين يديه وضعه أمامه ، واقتتل أصحابه بين يديه .

وأخذ عمرو بن سعد سهما فرمى به وقال : اشهدوا انى أول من رمى الناس . وحمل أصحابه فصرعوا رجالا ، وأحاطوا بالحسين من كل جانب ، وهم يقاتلون قتالا شديدا حتى انتصف النهار ، ولا يقدرون يأتونهم الا من وجه واحد . وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين .

وحضر وقت الصلاة فسأل الحسين أن يكفوا عن القتال حتى يصلى ، ففعلوا . ثم اقتتلوا بعد الظهر أشد قتال ، ووصل الى الحسين وقد صرعت أصحابه ، ومكث طويلا * من النهار كلما انتهى اليه رجل من الناس رجع عنه وكره أن يتولى قتله .

فأقبل عليه رجل من كندة يقال له مالك ، فضربه على رأسه بالسيف قطع البرنس وأدماه ، فأخذ الحسين دمه بيده فصبه فى الأرض ، ثم قال : اللهم ان كنت حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين .

واشتد عطشه فدنا ليشرب ، فرماه حصين ابن تميم بسهم فوقع فى فمه ، فتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء ، ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم انى أشكو اليك ما يصنع يابن بنت نبيك . اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا .

فأقبل شمر فى نحو عشرة الى منزل الحسين ، وحالوا بينه وبين رحله ، وأقدم عليه وهو يحمل عليهم وقد بقى فى ثلاثة ، ومكث طويلا من النهار ، ولو شاءوا أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

فنادى شمر فى الناس : ويحكم ما تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمكم .

فحملوا عليه من كل جانب ، فضرب زرعة ابن شريك التميمى كفه الأيسر ، وضرب عاتقه وهو يقوم ويكبو . فحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس النخعى فطعنه بالرمح فوقع ، وقال لخولى بن يزيد الأصبحى : احتز رأسه . فأرعد وضعف .

فنزل عليه وذبحه ، وأخذ رأسه فدفعه الى خولى ، وسلب الحسين ما كان عليه حتى سراويله ، ومال الناس فانتهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء . ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة .

ونادى عمرو بن سعد فى أصحابه : من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه ؟ فانتدب عشرة

(*) ص٤٢٩ ج١ ، ط. بولاق .

فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره .

وكان عدة من قتل معه اثنين وسبعين رجلا ، ومن أصحاب عمرو بن سعد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحى .

ودفن أهل العاصرية من بنى أسد الحسين بعد قتله بيوم ، وبعد أن أخذ عمرو بن سعد رأسه .ورؤوس أصحابه ، وبعث بها الى ابن زياد ، فأحضر الرؤوس بين يديه ، وجعل ينكث بقضيب ثنايا الحسين وزيد بن أرقم حاضر .

وأقام ابن سعد بعد قتل الحسين يومين ، ثم رحل الى الكوفة ومعه ثياب الحسين واخوانه ومن كان معه من الصبيان ، وعلى ابن الحسين مريض ، فأدخلهم على زياد .

ولما مرت زينب بالحسين صريعا صاحت : يامحمداه هذا حسين بالعراء مزمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يامحمد بناتك سبايا وذريتك مقتلة ! فأبكت كل عدو وصديق .

وطيف برأسه بالكوفة على خشبة ، ثم أرسل بها الى يزيد بن معاوية ، وأرسل النساء والطبيان وفى عنق على بن الحسين ويديه الغل ، وحملوا على الأقتاب .

فدخل بعض بنى أمية على يزيد ، فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ، فقد أمكنك الله من عدو الله وعدوك ، قد قتل ووجه برأسه اليك .

فلم يلبث الا أياما حتى جيء برأس الحسين ، فوضع بين يدى يزيد فى طشت ، فأمر الغلام فرفع الثوب الذى كان عليه ، فحين رآه خمر وجهه بكمه كأنه سم منه رائحة ، وقال : الحمد لله الذى كفانا المؤنة بغير مؤنة ، « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » .

قالت ريا حاضنة يزيد : فدنوت منه فنظرت اليه وبه ردغ من حناء . والذى أذهب نفسه ، وهو قادر على أن يغفر له ، لقد رأيته يقرع ثناياه بقضيب فى يده ، ويقول أبياتا من شعر ابن الزبعرى .

ومكث الرأس مصلوبا بدمشق ثلاثة أيام ثم أنزل فى خزائن السلاح ... حتى ولى سليمان بن عبد الملك فبعث اليه ، فجيء به وقد محل وبقى عظما أبيض ، فجعله فى سفط وطيبه ، وجعل عليه ثوبا ، ودفنه فى مقابر المسلمين .

فلما ولى عمر بن عبد العزيز ، بعث الى خازن بيت السلاح : أن وجه الى برأس الحسين بن على . فكتب اليه أن سليمان أخذه وجعله فى سفط ، وصلى عليه ودفنه .

فلما دخلت المسودة سألوا عن موضع الرأس الكريمة الشريفة ، فنبشوه وأخذوه . والله أعلم ما صنع به .

وقال السري : لما قتل الحسين بن على بكت السماء عليه ، وبكاؤها حمرتها .

وعن عطاء فى قوله تعالى « فما بكت عليهم السماء والأرض » قال : بكاؤها حمرة أطرافها .

وعن على بن مسهر ، قال : حدثتنى جدتى قالت : كنت أيام الحسين جارية شابة ، فكانت السماء أياما كأنها علقة .

وعن الزهرى : بلغنى أنه لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين الا وجد تحته دم عبيط .

ويقال ان الدنيا أظلمت يوم قتل ثلاثا ، ولم يمس أحد من زعفرانهم شيئا فجعله على وجهه الا احترق . وانهم أصابوا ابلا فى عسكر الحسين يوم قتل ، فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم ، فما استطاعوا أن يسيغوا منها شيئا .

وروى أن السماء أمطرت دما ، فأصبح كل شىء لهم ملآن دما .

ما كان يعمل فى يوم عاشوراء

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : فى يوم عاشوراء سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم الى المشهدين قبر كلثوم ونفيسة ، ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم ، بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام ، وكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وشققوا الروايا ، وسبوا من ينفق فى هذا * اليوم ، ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح ، وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل .

فخرج أبو محمد الحسين بن عمار — وكان يسكن هناك فى دار محمد بن أبى بكر — وأغلق الدرب ومنع الفريقين ، ورجع الجميع ، فحسن موقع ذلك عند المعز . ولولا ذلك لعظمت الفتنة ، لأن الناس قد غلقوا الدكاكين وأبواب الدور ، وعطلوا الأسواق .

(*) ص٤٣٠ ج١ ، ط. بولاق .

وانما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر ، وقد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الاخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة . وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة ، وتتعلق السودان فى الطرقات بالناس ويقولون للرجل : من خالك ؟ فان قال معاوية أكرموه ، وان سكت لقى المكروه ، وأخذت ثيابه وما معه ... حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ، ومنع الناس من الخروج .

وقال المسيحى : وفى يوم عاشوراء (يعنى من سنة ست وتسعين وثلثمائة) جرى الأمر فيه على ما يجرى كل سنة من تعطيل الأسواق ، وخروج المنشدين الى جامع القاهرة ، ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد .

ثم جمع بعد هذا اليوم قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد ، وقال لهم : لا تلزموا الناس أخذ شىء منهم اذا وقفتم على حوانيتهم ، ولا تؤذوهم ، ولا تتكسبوا بالنوح والنشيد ، ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء .

ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة فى الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا ، وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا السلف . فقبضوا على رجل ، ونودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم . وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه .

وقال ابن المأمون : وفى يوم عاشوراء (يعنى من سنة خمس عشرة وخمسمائة) عبى

السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التى كان يسكنها الأفضل بن أمير الجيوش. وهو السماط المختص بعاشوراء ، وهو يعبى فى غير المكان الجارى به العادة فى الأعياد ، ولا يعمل مدورة خشب ، بل سفرة كبيرة من أدم ، والسماط يعلوها من غير مرافع نحاس ، وجميع الزبادى أجبان وسلائط ومخللات وجميع الخبز من شعير.

وخرج الأفضل من باب فرد الكم ، وجلس على بساط صوف من غير مشورة ، واستفتح المقرئون ، واستدعى الأشراف على طبقاتهم ، وحمل السماط لهم. وقد عمل فى الصحن الأول الذى بين يدى الأفضل الى آخر السماط عدس أسود ، ثم بعده عدس مصفى الى آخر السماط ، ثم رفع وقدمت صحون جميعها عسل نحل.

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشرة وخمسمائة ، جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب الباذهنج (يعنى من القصر) بعد قتل الأفضل وعود الأسمطة الى القصر ، على كرسى جريد بغير مخدة ، متلثما هو وجميع حاشيته ، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز ، وأذن للقاضى والداعى والأشراف والأمراء بالسلام عليه ، وهم بغير مناديل ملثمون حفاة.

وعبى السماط فى غير موضعه المعتاد ، وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان فى الأيام الأفضلية. وتقدم الى والى مصر والقاهرة بألا يمكنا أحدا من جمع ولا قراءة مصرع الحسين. وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء الخاص والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم.

قال : وفى ليلة عاشوراء من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضى فيها الى التربة الجيوشية ، وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن الى آخر الليل ، وعوده الى داره. واعتمد فى صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك ، وجلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن ، وحضر من شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة.

قال ابن الطوير : اذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس ، فاذا علا النهار ركب قاضى القضاة والشهود وقد غيروا زيهم فيكونون كما هم اليوم ، ثم صاروا الى المشهد الحسينى — وكان قبل ذلك يعمل فى الجامع الأزهر — فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين فى الجوامع ، جاء الوزير فجلس صدرا ، والقاضى والداعى من جانبيه ، والقراء يقرأون نوبة بنوبة ، وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام. فان كان الوزير رافضيا تغالوا ، وان كان سنيا اقتصدوا.

ولا يزالون كذلك الى أن تمضى ثلاث ساعات ، فيستدعون الى القصر بنقباء الرسائل ، فيركب الوزير وهو بمنديل صغير الى داره ، ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما الى باب الذهب ، فيجدون

الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط ، وينصب فى الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ، ويجدون صاحب الباب جالسا هناك . فيجلس القاضى والداعى الى جانبه ، والناس على اختلاف طبقاتهم ، فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضا .

ثم يفرش عليها سماط الحزن مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة والأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد . فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة ، وأدخل * الناس للأكل منه . فيدخل القاضى والداعى ، ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير ، والمذكوران الى جانبه ، وفى الناس من لا يدخل ، ولا يلزم أحد بذلك .

فاذا فرغ القوم انفصلوا الى أماكنهم ركبانا بذلك الزى الذى ظهروا فيه ، وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم ، وأغلق البياعون حوانيتهم الى جواز العصر ، فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون .

ذكر ابواب القصر الكبير الشرقى

وكان لهذا القصر الكبير الشرقى تسعة أبواب : أكبرها وأجلها باب الذهب ، ثم باب البحر ، ثم باب الريح ، ثم باب الزمرذ ، ثم باب العيد ، ثم باب قصر الشوك ، ثم باب الديلم ، ثم باب تربة الزعفران ، ثم باب الزهومة .

(*) ص٤٣١ جـ١ ، ط. بولاق .

باب الذهب : وهو باب القصر الذى تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة ، فى يومى الاثنين والخميس ، للموكب المقدم ذكره بقاعة الذهب .

قال ابن أبى طيىء عن المعز لدين الله : انه لما خرج من بلاد المغرب أخرج أموالا كانت له ببلاد المغرب ، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين ، وأمر بها حين دخل الى مصر فألقيت على باب قصره ، وهى التى كان الناس يسمونها الحشرات .

ولم تزل على باب القصر الى أن كان زمن الغلاء فى أيام الخليفة المستنصر بالله . فلما ضاق بالناس الأمر ، أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد ، فاتخذ الناس مبارد حادة ، وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها ، فأمر بحمل الباقى الى القصر فلم تر بعد ذلك .

وقال ابن ميسر : ان المعز لما قدم الى القاهرة كان معه مائة جمل عليها الطواحين من الذهب . وقال غيره : كانت خمسمائة جمل على كل جمل ثلاثة أرحية ذهبا ، وانه عمل عضادتى الباب من تلك الأرحية ، واحدة فوق أخرى ، فسمى باب الذهب .

جلوس الخليفة فى الموالد بالمنظرة علو باب الذهب : قال ابن المأمون فى أخبار سنة ست عشرة وخمسمائة : وفى الثانى عشر من المحرم كان المولد الآمرى ، واتفق كونه فى هذا الشهر يوم الخميس ، وكان قد تقرر أن يعمل أربعون صينية خشكنانج وحلوى وكعك ، وأطلق برسم المشاهد المحتوية على

الضرائح الشريفة لكل مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج .

وتقدم بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى ، وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء : للمتصدرين ومن معهم فى صحون ، وللفقراء على أرغفة السميذ .

ثم حضر فى الليلة المذكورة القاضى والداعى والشهود ، وجميع المتصدرين وقراء الحضرة ، وفتحت الطاقات التى قبلى باب الذهب ، وجلس الخليفة وسلموا عليه .

ثم خرج متولى بيت المال بصندوق مختوم ، ضمنه عينا مائة دينار وألف وثمانمائة وعشرون درهما برسم أهل القرافة وساكنيها وغيرهم .

وفرقت الصوانى بعد ما حمل منها للخاص ، وزمام القصر ، ومتولى الدفتر خاصة ، والى دار الوزارة ، والأجلاء الأخوة والأولاد ، وكاتب الدست ، ومتولى حجبة الباب ، والقاضى ، والداعى ، ومفتى الدولة ، ومتولى دار العلم ، والمقرئين الخاص ، وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر وبقية الأشراف .

قال : وخرج الأمر (يعنى فى سنة سبع عشرة وخمسمائة) باطلاق ما يخص المولد الآمرى برسم المشاهد الشريفة من سكر وعسل وشيرج ودقيق ، وما يصنع مما يفرق على الساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة قناطير حلوى وألف رطل دقيق ، وما يعمل بدار الفطرة ويحمل للأعيان والمستخدمين من بعد القصور والدار المأمونية صينية خشكنانج .

وحضر القاضى والداعى والمستخدمون بدار العيد والشهود فى عشية اليوم المذكور ، وقطع سلوك الطريق بين القصرين ، وجلس الخليفة فى المنظرة ، وقبلوا الأرض بين يديه ، والمقرئون الخاص جميعهم يقرأون القرآن ، وتقدم الخطيب وخطب خطبة وسع القول فيها ، وذكر الخليفة والوزير ، ثم حضر من أنشد وذكر فضيلة الشهر والمولود فيه . ثم خرج متولى بيت المال ومعه صندوق من مال النجاوى خاصة ، مما يفرق على الحكم المتقدم ذكره .

قال : واستهل ربيع الأول . ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور ، وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لثلاث عشرة منه ، وأطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم ، ومن الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنة للمشاهد الشريفة التى بين الجبل والقرافة التى فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد ، وما يتولى تفرقته سنا الملك بن ميسر أربعمائة رطل حلاوة وألف رطل خبز .

قال : وكان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الموالد الأربعة : النبوى ، والعلوى ، والفاطمى ، والامام الحاضر وما يهتم به ، وقدم العهد به حتى نسى * ذكرها ، فأخذ الأستاذون يجددون ذكرها للخليفة الآمر بأحكام الله ، ويرددون الحديث معه فيها ، ويحسنون له معارضة الوزير بسببها واعادتها

(*) ص ٤٣٢ جـ ١ ، ط . بولاق .

واقامة الجوارى والرســوم فيها . فأجاب الى ذلك ، وعمل ما ذكر .

وقال ابن الطوير : ذكر جلوس الخليفة فى الموالد الستة فى تواريخ مختلفــة ، وما يطلق فيها — وهى : مولد النبى صلى الله عليــه وســلم ، ومــولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد فاطمة عليها السلام ، ومولد الحسن ، ومولد الحســين عليهما الســلام ، ومولد الخليفــة الحــاضر — ويكون هذا الجلوس فى المنظرة التى هى أنزل المنــاظر ، وأقرب الى الأرض ، قبــالة دار فخر الدين جهاركس والفندق المستجد .

فاذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول ، تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها ، وتعبى فى ثلثمائة صينية من النحاس — وهو مولد النبى صلى الله عليــه وسلم — فتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرســوم من أرباب الرتب ، وكل صينية فى قوارة ، من أول النهار الى ظهره .

فأول أرباب الرســوم قاضى القضاة ، ثم داعى الدعاة ، ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة ، والخطباء والمتصــدرون بالجــوامع بالقاهرة وقومة المشاهد . ولا يخرج ذلك مما يتعلق بهذا الجانب بدعو يخرج من دفتر المجلس كما قدمناه .

فاذا صــلى الظهــر ركب قاضى القضــاة والشهود بأجمعهم الى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى ، فيجلسون مقــدار قراءة الختمة الكريمة .

ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه ، فان كانت الدعوة مضافة اليه والا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل ، فيركبون ويسيرون الى أن يصلوا الى آخر المضيق من الســيوفيين ، قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين ، فيقفوا هناك . وقد سلكت الطريق على الســالكين من الركن المخلق ومن سويقــة أمير الجيوش عند الحوض هناك ، وكنست الطريق فيما بين ذلك ، ورشت بالماء رشا خفيفا ، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر .

ثــم يســتدعى صــاحب البــاب من دار الوزارة ، ووالى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة . فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق ، هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم ، فيقربون من المنظــرة ، ويترجلون قبل الوصول اليها بخطوات ، فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشــوف لانتظار الخليفة .

فتفتح احدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليــه من المنديل ، وعلى رأســه عــدة من الأســتاذين المحنــكين وغيرهم من الخواص منهم . ويفتح بعض الأستاذين طاقة ، ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه ، ويشير به قائلا : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ، فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملة جملة من غير تعيين أحد .

فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة ، ويكونون قياما فى الصــدر وجــوههم للحــاضرين ،

وظهورهم الى حائط المنظرة . فيقدم خطيب الجامع الأنور — المعروف بجامع الحاكم — فيخطب كما يخطب فوق المنبر الى أن يصل الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : وان هذا يوم مولده الى ما من الله به على ملة الاسلام من رسالته ، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ، ثم يؤخر . ويقدم خطيب الجامع الأزهر ، فيخطب كذلك ، ثم خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك . والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرأون .

فاذا انتهت خطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ، ورد على الجماعة السلام ، ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس . ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام الى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص ... انتهى .

وهذا الباب صار بعد زوال الدولة الفاطمية يقابل دار الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحى ، التى عرفت بعد ذلك بالدار القطبية ، وهى الآن المارستان المنصورى ، وصار موضع هذا الباب محراب مدرسة الظاهر ركن الدين بيبرس .

باب البحر : هو من انشاء الحاكم بأمر الله أبى على منصور ، وهدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وشوهد فيه أمر عجيب .

قال جامع السيرة الظاهرية : لما كان يوم عاشوراء (يعنى من سنة اثنتين وسبعين وستمائة) رسم بنقض علو أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر ، قبالة المدرسة دار الحديث الكاملية ، لأجل نقل عمد فيه لبعض العمائر السلطانية ، فظهر صندوق فى حائط عليه .

فللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة ، وفتح الصندوق ، فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ ، على كرسى شبه الهرم ارتفاعه قدر شبر ، له أربعة أرجل تحمل الكرسى ، والصنم جالس متوركا ، وله يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا ، يحمل صحيفة دورها قدر ثلاثة أشبار .

وفى هذه الصحيفة أشكال ثابتة ، وفى الوسط صورة رأس بغير جسد ، ودائره مكتوب كتابة بالقبطى وبالقلفطيريات ، والى جانبها فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة ، والى الجانب الآخر * شكل آخر وعلى رأسه صليب ، والآخر فى يده عكاز وعلى رأسه صليب ، وتحت أرجلهم أشكال طيور ، وفوق رؤوس الأشكال كتابة .

ووجد مع هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان التى يكتبون فيها بالمكاتب ، مدهون وجهه الواحد أبيض ، ووجهه الواحد أحمر ، وفيه كتابة قد تكشط أكثرها من طول المدة . وقد بلى اللوح ، وما بقيت الكتابة تلتئم ولا الخط يفهم .

وهذا نص ما فيه ، وأخليت مكان كتابته التى تكشطت ، وأما الوجه الأبيض فهو مكتوب بقلم الصحيفة القبطى . والمكتوب فى الوجه الأحمر على هذه الصورة :

(*) ص٤٣٢ جـ١ ، ط.بولاق .

السطر الأول : بقى منه مكتوبا الاسكندر .

السطر الثانى : الأرض وأهبها له .

السطر الثالث : وجرب لكل .

السطر الرابع : أصحاب .

السطر الخامس : وهو يحرس .

السطر السادس : واحترازه بقوة .

السطر السابع : الملك مرجو وأبواب .

السطر الثامن : غير بيته سبعة .

السطر التاسع : عالم حكيم عالم فى عقله .

السطر العاشر : وصفها فلا تفسد .

السطر الحادى عشر : طارد كل سوء ، والذى صاغها النساء .

السطر الثانى عشر : سد أيضا كل آثار أسدية بيبرس وهى أحد .

السطر الثالث عشر : بيبرس ملك الزمان والحكمة . كلمة الله عز وجل .

هذا صورة ما وجد فى اللوح مما بقى من الكتابة ، والبقية قد تكشط .

وقيل ان هذا اللوح بخط الخليفة الحاكم . وأعجب ما فيه اسم السلطان ، وهو بيبرس .

ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته ، فعرض على قراء الأقلام فقرىء ، وذلك بالقلم القبطى .

ومضمونه طلسم عمل للظاهر بن الحاكم ، واسم أمه رصد ، وفيه أسماء الملائكة وعزائم ورقى وأسماء روحانية وصور ملائكة ، أكثره حرس لديار مصر وثغورها ، وصرف الأعداء عنها وكفهم عن طروقهم اليها ، وابتهال الى الله تعالى بأقسام كثيرة لحماية الديار المصرية ، وصونها من الأعداء ، وحفظها من كل طارق من جميع الأجناس .

وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطيريات وأوفاقا وصورا وخواص لا يعلمها الا الله تعالى . وحمل هذا الطلسم الى السلطان ، وبقى فى ذخائره .

قال : ورأيت فى كتاب عتيق رث سماه مصنفه « وصية الامام العزيز بالله والد الامام الحاكم بأمر الله لولده المذكور » . وقد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر ، ومن جملتها أن أول البروج الحمل ، وهو بيت المريخ وشرف الشمس ، وله القوة على جميع سلطان الفلك لأنه صاحب السيف واسفهسلارية العسكر بين يدى الشمس الملك ، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة ، والمستولى لقوة روحانيته على مدينتنا . وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه ، لقهر الأعداء وذل المنافقين ، فى مكان أحكمناه على اشرافه عليه ، والحصن الجامع لقصر ، مجاورا لأول باب بنيناه ... هذا نص ما رأيته . انتهى .

ولعلّ معنى كتابة بيبرس فى هذا اللوح اشارة الى أن هدم هذا الباب يكون على زمان بيبرس ، فان القوم كانت لهم معارف كثيرة ، وعنايتهم بهذا الفن وافرة كبيرة . والله أعلم .

وموضع باب البحر هذا اليوم يعرف بباب قصر بشتاك قبالة المدرسة الكاملية .

باب الريح : كان على ما أدركته تجاه سور سعيد السعداء ، على يمنة السالك من الركن المخلق الى رحبة باب العيد . وكان بابا مربعا

يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم الى حيث المدرسة السابقية ودار الطواشي سابق الدين وقصر أمير السلاح ، وينتهى الى ما بين القصرين تجاه حمام البيسرى .

وعرف هذا الباب فى الدولة الأيوبية بباب قصر ابن الشيخ . وذلك أن الوزير الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ ، وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كان يسكن بالقصر الذى فى داخل هذا الباب ، ثم قيل له فى زمننا باب القصر .

وكان على حاله له عضادتان من حجارة ، ويعلوه أسكفة حجر مكتوب فيها نقرا فى الحجر عدة أسطر بالقلم الكوفى لم يتهيأ لى قراءة ما فيها ، وكان دهليز هذا الباب عريضا يتجاوز عرضه فيما أقدر العشرة أذرع فى طول كبير جدا ، ويعلو هذا الباب دور للسكنى تشرف على الطريق .

وما زال على ذلك الى أن أنشأ الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الأستادار مدرسته برحبة باب العيد ، واغتصب لها أملاك الناس ، وكان مما اغتصب ما بجوار المدرسة المذكورة من الحوانيت والرباع التى فوقها وما جاور ذلك ، وهدمها ليبنيها على ما يريد .

فهدم هذا الباب فى صفر سنة احدى عشرة وثمانمائة . وبنى فى مكانه ، ومكان الدهليز المظلم الذى كان ينتهى بالسالك فيه من هذا الباب الى المدرسة السابقية ، هذه القيسارية الكبيرة ذات الحوانيت والسقيفة والأبواب الجديدة ، ودخل فيها بعض مما كان بجانبى هذا الباب من الحوانيت وعلوها .

ولما هدم هذا الباب ظهر فى داخل بنيانه شخص . وبلغنى ذلك فسرت الى الأمير المذكور — وكان بينى وبينه صحبة — لأشاهد هذا الشخص المذكور ، والتمست منه احضاره . فأخبرنى أنه أحضر اليه شخص من حجارة ، قصير القامة ، احدى عينيه أصغر من الأخرى .

فقلت : لابد لى من مشاهدته .

فأمر * باحضاره الموكل بالعمارة — وأنا معه اذ ذاك فى موضع الباب ، وقد هدم ما كان فيه من البناء — فذكر أنه رماه بين أحجار العمارة ، وأنه تكسر وصار فيما بينها ، ولا يستطيع تمييزه منها . فأغلظ عليه وبالغ فى الفحص عنه ، فأعياهم احضاره .

فسألت الرجل حينئذ عنه فقال لى : انهم لما انتهوا فى الهدم الى حيث كان هذا الشخص اذا بدائرة فيها كتابة وبوسطها شخص قصير ، صغير احدى العينين ، من حجارة .

وهذه كانت صفة جمال الدين ، فانه كان قصير القامة احدى عينيه أصغر من الأخرى . ويشبه — والله أعلم — أن يكون قد عين فى تلك الكتابة التى كانت حول الشخص أن هذا الباب يهدمه من هذه صفته ، كما وجد فى باب البحر اسم بيبرس الذى هدم على يديه وبأمره .

وقد ظفر جمال الدين هذا بأموال عظيمة ، وجدها فى داخل هذا القصر ، لما أنشأ داره الأولى فى الحدرة من داخل هذا الباب فى سنة ست وتسعين وسبعمائة . وكان لكثرة هذا

(*) ص٤٣٤ جـ١ ، ط.بولاق .

المال لا يستطيع كتمانه . ومن شـدة خوفه يومئذ من الظاهر برقوق أن يظهر عليه لا يقدر أن يصرح به . فكان يقول لأصحابه وخواصه : وجدت فى هذا المكان سبعين قفة من حديد ... أخبرنى اثنان رئيسان من أعيان الدولة عنه أنه قال لهما هذا القول .

وكنت اذ ذاك ، أيام عمارته لهذه القاعة ، أتردد لشيخنا سراج الدين عمر بن الملقن رحمه الله تعالى بالمدرسة السابقية — وبها كان يسكن — فتعرفت بجمال الدين منه .

وكان يومئذ من عرض الجند ، ويعرف بأستادار نحاس ، فاشتهر هناك أنه وجد — حال هدمه وعمارته القاعة والرواق بالحدرة — مكانا مبنيا تحت الأرض مبيض الحيطان فيه مال . فما كان عندى شك أنه من أموال خبايا الفاطميين ، فانه قد ذكر غير واحد من الاخباريين أن السلطان صلاح الدين ، لما استولى على القصر بعد موت العاضد ، لم يظفر بشىء من الخبايا ، وعاقب جماعة فلم يوقفوه على أمرها .

باب الزمرذ : سمى بذلك لأنه كان يتوصل منه الى قصر الزمرذ . وموضعه الآن المدرسة الحجازية بخط رحبة باب العيد .

باب العيد : هذا الباب مكانه اليوم فى داخل درب السلامى بخط رحبة باب العيد . وهو عقد محكم البناء ، ويعلوه قبة قد عملت مسجدا ، وتحتها حانوت يسكنه سقاء ، ويقابله مصطبة .

وأدركت العامة وهم يسمون هذه القبة بالقاهرة ، ويزعمون أن الخليفة كان يجلس بها ويرخى كمه ، فتأتى الناس وتقبله . وهذا غير صحيح .

وقيل لهذا الباب باب العيد ، لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد الى المصلى بظاهر باب النصر ، فيخطب بعد أن يصلى بالناس صلاة العيد ، كما ستقف عليه عند ذكر المصلى ان شاء الله تعالى .

وفى سنة احدى وستين وستمائة ، بنى الملك الظاهر بيبرس خانا للسبيل بظاهر مدينة القدس ، ونقل اليه باب العيد هذا فعمله بابا له . وتم بناؤه فى سنة اثنتين وستين

باب قصر الشوك : وهو الذى كان يتوصل منه الى قصر الشوك . وموضعه الآن تجاه حمام عرفت بحمام الأيدمرى — ويقال لها اليوم حمام يونس — عند موقف المكارية بجوار خزانة البنود ، على يمنة السالك منها الى رحبة الأيدمرى .

وهو الآن زقاق ينتهى الى بئر يسقى منها بالدلاء ، ويتوصل من هناك الى المارستان العتيق وغيره . وأدركت منه قطعة من جانبه الأيسر .

باب الديلم : وكان يدخل منه الى المشهد الحسينى . وموضعه الآن درج ينزل منها الى المشهد تجاه الفندق الذى كان دار الفطرة ، ولم يبق لهذا الباب أثر ألبتة .

باب تربة الزعفران : مكانه الآن بجوار خان الخليلى من بحريه ، مقابل فندق المهمندار الذى يدق فيه ورق الذهب ، وقد بنى بأعلاه طبقة ورواق ، ولا يكاد يعرفه كثير من الناس ، وعليه كتابة بالقلم الكوفى . وهذا

الباب كان يتوصل منه الى تربة القصر المذكورة فيما تقدم .

باب الزهومة : كان في آخر ركن القصر ، مقابل خزانة الدرق التي هي اليوم خان مسرور . وقيل له باب الزهومة لأن اللحوم وحوائج الطعام ، التي كانت تدخل الى مطبخ القصر الذي للحوم ، انما يدخل بها من هذا الباب ، فقيل له باب الزهومة ، يعنى باب الزفر .

وكان تجاهه أيضا درب السلسلة الآتي ذكره ان شاء الله تعالى . وموضعه الآن قاعة الحنابلة من المدارس الصالحية ، تجاه فندق مسرور الصغير ، ومن بعد باب الزهومة المذكور باب الذهب الذي تقدم ذكره .... فهذه أبواب القصر الكبير التسعة .

ذكر المنحر *

وكان بجوار هذا القصر الكبير المنحر ، وهو الموضع الذي اتخذه الخلفاء لنحر الأضاحي في عيد النحر وعيد الغدير ، وكان تجاه رحبة باب العيد .

وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس . وصار موضعه ما في داخل هذا الدرب من الدور والطاحون وغيرها ، وظاهره تجاه رأس حارة برجوان ، يفصل بينه وبين حارة برجوان الحوانيت التي تقابل باب الحارة .

(*) ص٤٣٥ جـ١ ، طـ. بولاق .

ومن جملة المنحر الساحة العظيمة التي عملت لها خوند بركة ، أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، البوابة العظيمة بخط الركن المخلق ، بجوار قيسارية الجلود التي عمل فيها حوانيت الأساكفة .

وكان الخليفة اذا صلى صلاة عيد النحر وخطب ، ينحر بالمصلى ، ثم يأتي المنحر المذكور وخلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير ، ويرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيئا . وتكون الحربة في يد قاضي القضاة وهو بجانب الخليفة ليناوله اياها اذا نحر . وأول من سن منهم اعطاء الضحايا وتفرقتها في أولياء الدولة ، على قدر رتبهم ، العزيز بالله نزار .

ما كان يعمل في عيد النحر

قال المسبحي : وفي يوم عرفة (يعنى من سنة ثمانين وثلثمائة) حمل يانس صاحب الشرطة السماط ، وحمل أيضا على بن سعد المحتسب سماطا آخر . وركب العزيز بالله يوم النحر فصلى وخطب على العادة ، ثم نحر عدة نوق بيده ، وانصرف الى قصره ، فنصب السماط والموائد وأكل ، ونحر بين يديه ، وأمر بتفرقة الضحايا على أهل الدولة . وذكر مثل ذلك في باقي السنين .

وقال ابن المأمون في عيد النحر من سنة خمس عشرة وخمسمائة : وأمر بتفرقة عيد النحر والهبة وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعون دينارا ، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين

المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم من المستخدمين .

وعدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر ، فى هـذا العيد وعيد الغدير ، ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا . تفصيله : نوق مائة وسبعة عشر رأسا ، بقر أربعة وعشرون رأسا ، جاموس عشرون رأسا ... هذا الذى ينحره ويذبحه الخليفة بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط . ويذبح الجزارون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس .

والذى اشتملت عليه نفقات الأسمطة فى الأيام المذكورة — خارجا عما يعمل بالدار المأمونية من الأسمطة ، وخارجا عن أسمطة القصور عند الحرم ، وخارجا عن القصور الحلواء والقصور المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة — ألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار .

ومن السكر برسم القصور والقطع المنفوخ : أربعة وعشرون قنطارا ؛ تفصيله : عن قصرين فى أول يوم خاصة اثنا عشر قنطارا ، المنفوخ عن ثلاثة الأيام اثنا عشر قنطارا .

وقال فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وحضر وقت تفرقة كسوة عيد النحر ، ووصل ما تأخر فيها بالطراز ، وفرقت الرسوم على من جرت عادته — خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته ، وخارجا عما يفرق على سبيل المناخ ، ومن باب الساباط مذبوحا ومنحورا — ستمائة دينار وسبعة عشر دينارا .

وفى التاسع من ذى الحجة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على سرير الملك ، وحضر الوزير وأولاده ، وقاموا بما يجب من السلام ، واستفتح المقرئون ، وتقدم حامل المظلة وعرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التى جميعها مذهب ، وسلم الأمراء على طبقاتهم ، وختم المقرئون ، وعرضت الدواب جميعها والعماريات والوحوش ، وعاد الخليفة الى محله .

فلما أسفر الصبح خرج الخليفة ، وسلم على من جرت عادته بالسلام عليه — ولم يخرج شىء عما جرت به العادة فى الركوب والعود — وغير الخليفة ثيابه ، ولبس مايختص بالنحر — وهى البدلة الحمراء بالشدة التى تسمى بشدة الوقار ، والعلم الجوهر فى وجهه بغير قضيب ملك فى يده — الى أن دخل المنحر . وفرشت الملاءة الديبقى الحمراء ، وثلاث بطائن مصبوغة خمر ليتقى بها الدم ، مع كون كل من الجزارين بيده مكبة صنفصاف مدهونة يلقى بها الدم عن الملاءة ، وكبر المؤذنون ، ونحر الخليفة أربعا وثلاثين ناقة ، وقصد المسجد الذى آخر صف المنحر ، وهو مغلق بالشروب والفاكهة المعبأة فيه ، بمقدار ما غسل يديه ، ثم ركب من فوره .

وجملة ما نحره وذبحه الخليفة خاصة فى المنحر وباب الساباط — دون الأجل الوزير المأمون وأولاده واخوته — فى ثلاثة الأيام ما عدته ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا .

تفصيله : نوق مائة وثلاث عشرة ناقة ... نحر منها فى المصلى عقيب الخطبة ناقة ، وهى التى تهدى وتطلب من آفاق الأرض للتبرك

بلحمها . وتحر فى المناخ مائة ناقة ، وهى التى يحمل منها للوزير وأولاده واخوته والأمراء والضيوف والأجناد والعسكرية والمميزين من الراجل ، وفى كل يوم يتصدق منها على الضعفاء والمساكين بناقة واحدة ، وفى اليوم الثالث من العيد تحمل ناقة منحورة للفقراء فى القرافة .

وينحر فى باب الساباط ما يحمل الى من حوته القصور ، والى دار الوزارة ، والى الأصحاب والحواشى ، اثنتا عشرة ناقة وثمانى عشرة بقرة * وخمس عشرة جاموسة ، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ، ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

وأما مبلغ المنصرف على الأسمطة فى ثلاثة الأيام ، خارجا عن الأسمطة بالدار المأمونية ، فألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار . ومن السكر برسم قصور الحلاوة والقطع المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة خارجا عن المطابخ ، ثمانية وأربعون قنطارا .

وقال ابن الطوير : فاذا انقضى ذو القعدة وأهل ذو الحجة ، اهتم بالركوب فى عيد النحر — وهو يوم عاشره — فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح ، ولا ينخرم منه شىء .

وركوبه ثلاثة أيام متوالية . فأولها يوم الخروج الى المصلى والخطابة كعيد الفطر ، وثانى يوم وثالثه الى المنحر ، وهو المقابل لباب الريح الذى فى ركن القصر ، المقابل لسور دار سعيد السعداء ... الخانقاه اليوم — وكان براحا خاليا لا عمارة فيه — فيخرج من هذا الباب الخليفة بنفسه ، ويكون الوزير واقفا عليه ، فيترجل ويدخل ماشيا بين يديه بقربه ... هذا بعد انفصالهما من المصلى .

ويكون قد قيد الى هذا المنحر أحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة مفروشة يطلع عليها الخليفة والوزير ثم أكابر الدولة ، وهو بين الأستاذين المحنكين ، فيقدم الفراشون له الى المصطبة رأسا ، ويكون بيده حربة من رأسها الذى لا سنان فيه ، ويد قاضى القضاة فى أصل سنانها ، فيجعله القاضى فى نحر النحيرة ، ويطعن بها الخليفة ، وتجر من بين يديه حتى يأتى على العدة المذكورة .

فأول نحيرة هى التى تقدد ، وتسير الى داعى اليمن — وهو الملك فيه — فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم الى ربع درهم .

ثم يعمل ثانى يوم كذلك ، فيكون عدد ما ينحر سبعا وعشرين . ثم يعمل فى اليوم الثالث كذلك ، وعدة ما ينحر ثلاث وعشرون .

هذا وفى مدة هذه الأيام الثلاثة يسير رسم الأضحية الى أرباب الرتب والرسوم — كما سيرت الغرة فى أول السنة — من الدنانير ، بغير رباعية ولا قراريط ، على مثال الغرة من عشرة دنانير الى دينار .

وأما لحم الجزور فانه يفرق فى أرباب الرسوم للتبرك فى أطباق مع أدوان الفراشين . وأكثر ذلك تفرقة قاضى القضاة وداعى الدعاة

(*) ص ٤٣٦ جـ ١ ، ط . بولاق .

للطلبة بدار العلم ، والمتصدرين بجوامع القاهرة ، ونقباء المؤمنين بها من الشيعة للتبرك .

فاذا انقضى ذلك خلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه ، ومنديلا آخر بغير السمة والعقد المنظوم من القصر عند عود الخليفة من المنحر . فيركب الوزير من القصر بالخلع المذكورة شاقا القاهرة ، فاذا خرج من باب زويلة انعطف على يمينه سالكا على الخليج ، فيدخل من باب القنطرة الى دار الوزارة ... وبذلك انفصال عيد النحر .

وقال ابن أبى طى : عدة ما يذبح فى هذا العيد ، فى ثلاثة أيام النحر وفى يوم عيد الغدير ، ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا . تفصيله : نوق مائة وسبعة عشر رأسا ، بقر أربعة وعشرون رأسا ، جاموس عشرون رأسا ... هذا الذى ينحره الخليفة ويذبحه بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط . ويذبح الجزارون بين يديه من الكباش ألفا وأربعمائة رأس .

وقال ابن عبد الظاهر : كان الخليفة ينحر بالمنحر مائة رأس ، ويعود الى خزانة الكسوة ، فيغير قماشه ويتوجه الى الميدان — وهو الخرنشف بباب الساباط — للنحر والذبح ، ويعود بعد ذلك الى الحمام ويغير ثيابه للجلوس على الأسمطة . وعدة ما يذبحه ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا : مائة وثلاث عشرة ناقة ، والباقى بقر وغنم .

قال ابن الطوير : وثمن الضحايا على ما تقرر ما يقرب من ألفى دينار . وكانت تخرج المخلقات الى الأعمال بشائر بركوب الخليفة فى يوم عيد النحر . فمما كتب به الأستاذ البارع أبو القسم على بن منجب بن سليمان الكاتب ، المعروف بابن الصيرفى ، المنعوت بتاج الرياسة :

« أما بعد . فالحمد لله الذى رفع منار الشرع وحفظ نظامه ، ونشر راية هذا الدين وأوجب اعظامه ، وأطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده ، وأظهر للمؤالف والمخالف عزة أحزابه وقوة جنوده ، وجعل فرعه ساميا ناميا وأصله ثابتا راسخا ، وشرفه على الأديان بأسرها ، وكان لعراها فاصما ولأحكامها ناسخا ...

« يحمده أمير المؤمنين أن ألزم طاعته الخليقة ، وجعل كراماته الأسباب الجديرة بالامارة الخليقة . ويرغب اليه فى الصلاة على جده محمد الذى حاز الفخار أجمعه ، وضمن الجنة لمن آمن به واتبع النور الذى أنزل معه ، ورفعه الى أعلى منزلة تخير له منها المحل ، وأرسله بالهدى ودين الحق ، فزهق الباطل وخمدت ناره واضمحل ...

« صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب : خير الأمة وامامها ، وحبر الملة وبدر تمامها ، والموفى يومه فى الطاعات على ماضى أمسه ، ومن أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المباهلة مقام نفسه ، واختصه بأبعد غاية فى سورة براءة فنادى فى الحج بأولها ، ولم يكن غيره ينفذ نفاذه ولا يسد مكانه ، لأنه قال لا يبلغ عنى الا رجل من أهل بيتى عملا فى ذلك بما أمر الله سبحانه ...

« وعلى * الأئمة من ذريتهما خلفاء الله في أرضه ، والقائمين في سياسة خلقه بصريح الايمان ومحضه ، والمحكمين من أمر الدين ما لا وجه لحله ولا سبيل الى نقضه . وسلّم عليهم أجمعين سلاما يتصل دوامه ولا يخشى انصرامه ، ومجّد وكرم ، وشرف وعظم ...

« وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الأحد عيد النحر ، من سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، الذى تبلج فجره عن سيئات محصت ، ونفوس من آثار الذنوب خلصت ، ورحمة امتدت ظلالها وانتشرت ، ومغفرة هنأت ونشرت ...

« وكان من خبر هذا اليوم أن أمير المؤمنين برز لكافة من بحضرته من أوليائه ، متوجها لقضاء حق هذا العيد السعيد وأدائه ، في عترة واسخة قواعدها متمكنة ، وعساكر جمة تضيق عنها ظروف الأمكنة ، ومواكب تتوالى كتوالى السيل ، وتهاب هيبة مجيئه في الليل ، بأسلحة تحسر لها الأبصار وتبرق ، وترتاع الأفئدة منها وتفرق : فمن مشرفى اذا ورد تورد ، ومن سمهرى اذا قصد تقصد ، ومن عمد اذا عمدت تبرأت المغافر من ضمانها ، ومن قسى اذا أرسلت بنانها وصلت الى القلوب بغير استئذانها ...

« ولم يزل سائرا في هدى الامامة وأنوارها ، وسكينة الخلافة ووقارها ، الى أن وصل الى المصلى قدام المحراب ، وأدى الصلاة اذ لم يكن بينه وبين التقبيل حجاب . ثم علا المنبر فاستوى على ذروته ، ثم هلل الله وكبر وأثنى على عظمته ، وأحسن الى الكافة بتبليغ موعظته ، وتوجه الى ما أعد من البدن فنحره تكميلا لقربته ، وانتهى في ذلك الى ما أمر الله عز وجل ، وعاد الى قصوره المكرمة ومنازله المقدسة ... قد رضى الله عمله ، وشكر فعله وتقبله ...

« أعلمك أمير المؤمنين بذلك لتشكر الله على النعمة فيه ، وتذيعه قبلك على الرسم مما تجاريه ، فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى » .

ذكر دار الوزارة الكبرى

وكان بجوار هذا القصر الكبير الشرقى ، تجاه رحبة باب العيد ، دار الوزارة الكبرى . ويقال لها الدار الأفضلية والدار السلطانية .

قال ابن عبد الظاهر : دار الوزارة بناها بدر الجمالى أمير الجيوش ، ثم لم يزل يسكنها من يلى امرة الجيوش الى أن انتقل الأمر عن المصريين وصار الى بنى أيوب . فاستقر سكن الملك الكامل بقلعة الجبل خارج القاهرة ، وسكنها السلطان الملك الصالح ولده ، ثم أرصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة الى هذا الوقت .

وكانت دار الوزارة قديما تعرف بدار القباب ، وأضافها الأفضل الى دور بنى هريسة وعمرها دارا ، وسماها دار الوزارة ... انتهى .

والذى تدل عليه كتب ابتياعات الأملاك القديمة التى بتلك الخطة أنها من بناء الأفضل

(*) ص٤٣٧ ج١ ، ط. بولاق (*)

لا من عمارة أبيه بدر . والدار التى عمرها أمير الجيوش بدر هى داره بحارة برجوان التى قيل لها دار المظفر .

وما زال وراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف ، من عهد الأفضل بن أمير الجيوش ، يسكنون بدار الوزارة هذه الى أن زالت الدولة . فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وابنه من بعده الملك العزيز عثمان ، ثم ابنه الملك المنصور ، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ثم ابنه الملك الكامل ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية .

وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن بالقلعة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وجعلها منزلا للرسل .

فلما ولى قطز سلطنة ديار مصر ، وتلقب بالملك العادل فى سنة سبع وخمسين وستمائة ، وحضر اليه البحرية — وفيهم بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى — من الشام ، خرج الملك العادل قطز الى لقائهم ، وأنزل الأمير ركن الدين بيبرس بدار الوزارة ، فلم يزل بها حتى سافر صحبة قطز الى الشام وقتله ، وعاد الى مصر فتسلطن وسكن بقلعة الجبل .

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون فى واقعة بيدرا ، ثم قتل بيدرا وأجلس الملك الناصر محمد على تخت الملك ، وثارت الأشرفية من المماليك على الأمراء ، وقتل من قتل منهم ... خاف بقية الأمراء من شر المماليك الأشرفية ، فقبض منهم على نحو الستمائة مملوك ، وأنزل بهم من القلعة ، وأسكن منهم نحو الثلثمائة بدار الوزارة ، وأسكن منهم كثير فى مناظر الكبش ، وأجريت عليهم الرواتب ، ومنعوا من الركوب ... الى أن كان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب .

ولما كانت سنة سبعمائة أخذ الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى ، نائب السلطنة فى أيام الملك المنصور حسام الدين لاجين ، قطعة من دار الوزارة ، فبنى بها الربع المقابل خانقاه سعيد السعداء ، ثم بنى المدرسة المعروفة بالقراسنقرية ومكتب الأيتام .

فلما كانت دولة البرجية بنى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية والرباط بجانبها من جملة دار الوزارة ، وذلك فى سنة * تسع وسبعمائة ، ثم استولى الناس على ما بقى من دار الوزارة وبنوا فيها .

فمن حقوقها : الربع تجاه الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء ، والمدرسة القراسنقرية ، وخانقاه ركن الدين بيبرس ، وما بجوارها من دار قزمان ودار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير — المعروفة بدار خوند طولوباى الناصرية ، جهة الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون — وحمام الأعسر التى بجانبها ، والحمام المجاورة لها .

وما وراء هذه الأماكن من الآدر وغيرها ، وهى الفرن والطاحون التى قبلى المدرسة القراسنقرية ، ومن الآدر والخربة التى قبلى ربع قرا سنقر ، وما جاور باب سر المدرسة القراسنقرية من الآدر ، وخربة أخرى هناك ،

(*) ص٤٣٨ جـ١ ، ط. بولاق .

والدار الكبرى المعروفة بدار الأمير سيف الدين برلغى الصغير صهر الملك المظفر بيبرس الجاشنكير — المعروفة اليوم بدار الغزاوى — وفيها السرداب الذى كان رزيك بن الصالح رزيك فتحه فى أيام وزارته من دار الوزارة الى سعيد السعداء ، وهو باق الى الآن فى صدر قاعتها ، وذكر أن فيه حية عظيمة .

ومن حقوق دار الوزارة المناخ المجاور لهذه القاعة .

وكان على دار الوزارة سور مبنى بالحجارة ، وقد بقى الآن منه قطعة فى حد دار الوزارة الغربى وفى حدها القبلى — وهو الجدار الذى فيه باب الطاحون والساقية تجاه باب سعيد السعداء ، من الزقاق الذى يعرف اليوم بخرائب تتر — ومنه قطعة فى حدها الشرقى عند باب الحمام والمستوقد بباب الجوانية .

وكان بدار الوزارة هذا الشباك الكبير المعمول من الحديد ، فى القبة التى دفن تحتها بيبرس الجاشنكير من خانقاهه ، وهو الشباك الذى يقرأ فيه القراء ، وكان موضوعا فى دار الخلافة ببغداد يجلس فيه الخلفاء من بنى العباس .

فلما استولى الأمير أبو الحارث البساسيرى على بغداد ، وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى أربعين جمعة ، وانتهب قصر الخلافة ، وصار الخليفة القائم بأمر الله العباسى الى عانة ، وسير البساسيرى الأموال والتحف من بغداد الى المستنصر بالله بمصر فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ... كان من جملة ما بعث به منديل الخليفة القائم بأمر الله الذى عممه بيده ، فى قالب من رخام قد وضع فيه كما هو حتى لا تتغير شدته ، ومع هذا المنديل رداءه ، والشباك الذى كان يجلس فيه ويتكىء عليه .

فاحتفظ بذلك الى أن عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن أمير الجيوش ، فجعل هذا الشباك بها يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه . وما زال بها الى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية ، وأخذ من دار الوزارة أنقاضا منها هذا الشباك ، فجعله فى القبة . وهو شباك جليل .

وأما العمامة والرداء فما زالا بالقصر حتى مات العاضد ، وتملك السلطان صلاح الدين ديار مصر ، فسيرهما فى جملة ما بعث من مصر الى الخليفة المستضىء بالله العباسى ببغداد ، ومعهما الكتاب الذى كتبه الخليفة القائم على نفسه ، وأشهد عليه العدول فيه أنه لا حق لبنى العباس ، ولا له من جملتهم ، فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام — وكان البساسيرى ألزمه حتى أشهد على نفسه بذلك ، وبعث بالاشهاد الى مصر — فأنفذه صلاح الدين الى بغداد مع ما سير به من التحف التى كانت بالقصر .

وأخبرنى شيخ معمر ، يعرف بالشيخ على السعودى ، ولد فى سنة سبع وسبعمائة ، قال : رأيت مرة وقد سقط من ظهر الرباط المجاور لخانقاه بيبرس ، من جملة ما بقى من سور دار الوزارة ، جانب ظهرت منه علبة فيها رأس انسان كبير .

وعندى أن هذا الرأس من جملة رؤوس الأمراء البرقية الذين قتلهم ضرغام فى أيام وزارته للعاضد بعد شاور . فانه كان عمل الحيلة عليهم بدار الوزارة ، وصار يستدعى واحدا بعد واحد الى خزانة بالدار ، ويوهم أنه يخلع عليهم ، فاذا صار واحد منهم فى الخزانة قتل وقطع رأسه ، وذلك فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .

وكانت دار الوزارة فى الدولة الفاطمية تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان وغيره . وكان فيها مائة وعشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها ونحو ذلك .

ذكر رتبة الوزارة وهيئة خلعهم ومقدار جاريهم وما يتعلق بذلك

أما المعز لدين الله ، أول الخلفاء الفاطميين بديار مصر ، فانه لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه . وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس ، وزير العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز ، واليه تنسب الحارة الوزيرية كما ستقف عليه عند ذكر الحارات من هذا الكتاب . فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحدا ، وانما كان رجل يلى الوساطة والسفارة ، فاستقر فى ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبى على منصور الحاكم بأمر الله .

ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجراى فى أيام الظاهر أبى هاشم على بن * الحاكم

(*) ص٤٣٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وما زال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد — وهم أرباب أقلام — حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى .

قال ابن الطوير : وكان من زى هؤلاء الوزراء أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم مثل العدول الآن ، وينفردون بلبس ثياب قصار يقال لها الذرارىع (واحدها ذراعة) وهى مشقوقة أمام وجهه الى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرة ، ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من أزاره لؤلؤ . وهذه علامة الوزارة .

ويحمل له الدواة المحلاة بالذهب ، ويقف بين يديه الحجاب ، وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الأجناد وأرباب الأقلام . وكان آخرهم الوزير ابن المغربى الذى قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، ووزر للمستنصر وزير سيف ، ولم يتقدمه فى ذلك أحد ... انتهى .

وترتيب وزارته بأن تكون وزارته وزارة صاحب سيف ، بأن تكون الأمور كلها مردودة اليه ومنه الى الخليفة دون سائر خدمه ، فعقد له هذا العقد ، وأنشىء له السجل ، ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش — وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق — وأضيف اليه كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، وجعل القاضى والداعى نائبين عنه ومقلدين من قبله .

وكتب له فى سجله : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره . فباشر ما قلدك أمير

المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومدمرا أهل العناد » .

وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة ، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة . فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ، ويقال لمتوليها أمير الجيوش ، وبطل اسم الوزير .

فلما قام شاهنشاه بن أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر فى الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا .

وأول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى ، عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة .

وفعل ذلك من بعده ، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور ، وتلقب ابنه رزيك بن طلائع بالملك العادل ، وتلقب شاور بالملك المنصور ، وتلقب آخرهم صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالملك الناصر . وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية .

وصار حال الخليفة معه كما هو حال ملوك مصر من الأتراك اذا كان السلطان صغيرا والقائم بأمره من الأمراء ، وهو الذى يتولى تدبير الأمور كما كان الأمير يلبغا الخاصكى مع الأشرف شعبان ، وكما أدركنا الأمير برقوق قبل سلطنته مع ولدى الأشرف ، وكما كان الأمير أيتمش مع الملك الناصر فرج بعد موت الظاهر برقوق .

قال ابن أبى طى : وكانت خلعهم (يعنى الخلفاء الفاطميين) على الأمراء الثياب الديبقى ، والعمائم القصب بالطراز الذهب . وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق الذهب والأسورة والسيوف المحلاة . وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر .

قال ابن الطوير : وخلع عليه (يعنى على أمير الجيوش بدر الجمالى) بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة .

وهذه الخلع تشابه خلع الوزراء وأرباب الأقلام فى زمننا هذا . غير أنه لقصور أحوال الدولة ، جعل عوض العقد الجوهر الذى كان للوزير — ويفك بخمسة آلاف مثقال ذهبا — قلادة من عنبر مغشوش يقال لها العنبرية ، ويتميز بها الوزير خاصة ، ويلبس أيضا الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة ، ويشاركه فيها جميع أرباب العمائم اذا خلع عليهم ، فانه تكون خلعهم بالطرحة .

وترك أيضا اليوم من خلعة الوزير وغيره الذؤابة المرخاة وهى العذبة ، وصارت الآن

من زى القضاة فقط وهجرها الوزراء . ويشبه — والله أعلم — أن يكون وضعها فى الدولة الفاطمية للوزير فى خلعه اشارة الى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام ، فانه كان مع ذلك يتقلد بالسيف . وكذلك ترك فى الدولة التركية من خلع الوزارة تقليد السيف ، لأنه لا حكم له على أرباب السيوف .

ولما قام الأفضل بن أمير الجيوش خلع أيضا عليه بالسيف والطيلسان المقور . وبعد الأفضل لم يخلع على أحد من الوزراء كذلك الى أن قدم طلائع بن رزيك ، ولقب بالملك الصالح عندما خلع عليه للوزارة ، وجعل فى خلعته السيف والطيلسان المقور .

قال ابن المأمون : وفى يوم الجمعة ثانيه (يعنى ثانى ذى الحجة يعنى سنة خمس عشرة وخمسمائة) خلع على القائد ابن فاتك البطائحى من الملابس الخاص الشريفة فى فرد كم مجلس الكعبة ، وطوق بطوق ذهب مرصع * وسيف ذهب كذلك ، وسلم على الخليفة الآمر بأحكام الله . وأمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه ، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل بن أمير الجيوش يركب منه .

ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه ، وخرج بتشريف الوزارة (يعنى من باب الذهب) ، ودخل من باب العيد راكبا ، وجرى الحكم فيه على ما تقدم للأفضل ، ووصل الى داره فضاعف الرسوم ، وأطلق الهبات .

ولما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة ، اجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قررها مستجدة ، واستدعى الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة .

فلما حضر أمر باحضار السجل للأجل الوزير المأمون من يده ، فقبله وسلمه لزمام القصر ، وأمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه .

وقرىء السجل على باب المجلس — وهو أول سجل قرىء فى هذا المكان ، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان — ورسم للشيخ أبى الحسن أن ينقل النسبة للأمراء والمحنكين من الأمراء الى المأمونى للناس أجمع ، ولم يكن أحد منهم يتنسب للأفضل ولا لأمير الجيوش . وقدمت الدواة للمأمون ، فعلم فى مجلس الخليفة ، وتقدمت الأمراء والأجناد ، فقبلوا الأرض وشكروا على هذا الاحسان .

وأمر الخليفة باحضار الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك ، وطوق بطوق ذهب وسيف ذهب ومنطقة ذهب . ثم أمر بالخلع للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة باستمراره على ما بيده من كتابة الدست الشريف ، وشرفه بالدخول الى مجلس الخليفة .

ثم استدعى الشيخ أبا البركات بن أبى الليث ، وخلع عليه بدلة مذهبة ، وكذلك أبو الرضى سالم ابن الشيخ أبى الحسن ، وكذلك أبو المكارم أخوه وأبو محمد أخوهما ، ثم أبو الفضل بن الميدمى ، ووهبه دنانير كثيرة

(*) ص٤٤٠ جـ١ ، ط. بولاق .

يحكم أنه الذى قرأ السجل ، وخلع على الشيخ أبى الفضائل بن أبى الليث صاحب دفتر المجلس .

ثم استدعى عدى الملك سعيد بن عماد الضيف ، متولى أمور الضيافات والرسل الواصلين الى الحضرة من مجلس الأفضل ، ولا يصل لعتبته أحد لا حاجب الحجاب ولا غيره سوى عدى الملك هذا ، فانه كان يقف من داخل العتبة . وكانت هذه الخدمة فى ذلك الوقت من أجل الخدم وأكبرها ، ثم عادت من أهون الخدم وأقلها .

فعند ذلك قال القاضى أبو الفتح بن قادوس يمدح الوزير المأمون عند مثوله بين يديه ، وقد زيد فى نعوته :

قالوا أتاه النعت وهو السيد ال
مأمون حقا والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها
ما زادنا شيئا على ما نعرف

قال : ولما استمر حسن نظر المأمون للدولة وجميل أفعاله ، بلغ الخليفة الآمر بأحكام الله ، فشكره وأثنى عليه ، فقال له المأمون : ثم كلام يحتاج الى خلوة .

فقال الخليفة : تكون فى هذا الوقت . وأمر بخلو المجلس .

فعند ذلك مثل بين يدى الخليفة وقال له : يامولانا امتثالنا الأمر صعب ومخالفته أصعب ، وما يتسع خلافه قدام أمراء دولته وهو فى دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده ، وما فى قواى ما يرومه منى ، ويكفينى هذا المقدار ، وهيهات أن أقوم به ، والأمر كبير .

فعند ذلك تغير الخليفة ، وأقسم ان كان لى وزير غيرك ، وهو فى نفسى من أيام الأفضل .

وهو مستمر على الاستعفاء الى أن بان له التغير فى وجه الخليفة ، وقال : ما اعتقدت أنك تخرج عن أمرى ، ولا تخالفنى .

فقال له المأمون عند ذلك : لى شروط ، وأنا أذكرها .

فقال له : مهما شئت اشترط .

فقال له : قد كنت بالأمس مع الأفضل ، وكان قد اجتهد فى النعوت وحل المنطقة فلم أفعل .

فقال الخليفة : علمت ذلك فى وقته .

قال : وكان أولاده يكتبون اليه بما يعلمه مولاى من كونى قد خنته فى المال والأهل ، وما كان والله العظيم ذلك منى يوما قط ، ثم مع ذلك معاداة الأهل جميعا والأجناد وأرباب الطيالس والأقلام ، وهو يعطينى كل رقعة تصل اليه منهم ، وما سمع كلام أحد منهم فى .

فعند ذلك قال له الخليفة : فاذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته ... ايش يكون فعلى أنا ؟

فقال المأمون : يعرفنى المولى ما يأمر به فأمتثله بشرط ألا يكون عليه زائد .

فأول ما ابتدأ به أن قال : أريد الأموال لا تجبى الا بالقصر ، ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور الا اليه ، ولا تفرق الا منه ، وتكون أسمطة الأعياد فيه ، ويوسع

فى رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رسم منديل الكم .

فعند ذلك قال له المأمون : سمعا وطاعة . أما الكسوات والجباية من الأسمطة فماتكون الا بالقصور ، وأما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الأمر ، وأما زيادة رسم منديل الكم فقد كان الرسم فى كل يوم ثلاثين دينارا ، يكون فى كل يوم مائة دينار . ومولانا — سلام الله عليه — يشاهد ما يعمل بعد ذلك فى الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام .

ففرح الخليفة ، وعظمت مسرته .

ثم قال المأمون : أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين ، ويقسم لى فيه بآبائه الطاهرين ألا يلتفت لحاسد ولا مبغض ، ومهما ذكر * فىّ يطلعنى عليه ، ولا يأمر فى بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسى وانحطاط قدرى . وهذه الأيمان باقية الى وقت وفاتى ، فاذا توفيت تكون لأولادى ولمن أخلفه بعدى .

فحضرت الدواة ، وكتب ذلك جميعه ، وأشهد الله تعالى فى آخرها على نفسه . فعندما حصلّ الخط بيد المأمون ، وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه . وكان الخط بالأيمان نسختين ، احداهما فى قصبة فضة .

قال : فلما قبض على المأمون فى شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أنفذ الخليفة الآمر بأحكام الله يطلب الأيمان ، فنفذ له التى فى القصبة الفضة ، فخرّقها لوقتها ، وبقيت النسخة الأخرى عندى ، فعدمت فى الحركات التى جرت .

وقال ابن ميسر فى حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة : وفيها تشرف القائد أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى — المعروف بابن البطائحى — فى الخامس من ذى الحجة ، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاداره ، وهو الذى قدمه الى هذه المرتبة .

واستقرت نعوته فى سجله المقرر على كافة الأمراء والأجناد : بالأجل المأمون ، تاج الخلافة ، وجيه الملك ، فخر الصنائع ، ذخر أمير المؤمنين . ثم تجدد له من النعوت بعد ذلك : الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين والدنيا . ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل ، وهو : السيد الأجل المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الاسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين .

ولما كان يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة — وهو يوم الهناء بعيد النحر — جلس المأمون فى داره عند أذان الصبح ، وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون والشعراء بعدهم .

فركب الى القصر ، وأتى باب الذهب ، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له فى موضعها الجارى به العادة ، وأغلق الباب الذى عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام . وهذا الباب يعرف بباب السرداب .

(*) ص٤٤١ جـ١ ، ط. بولاق

فعندما شاهد الحال فى المرتبة ، توقف عن الجلوس عليها لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها ، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء الى الجلوس ، فجلس عليها ، وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه ، وأخواه عن يساره ، والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه ، فانه لا يصل أحد الى هذا المكان سواهم . فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب ، وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين .

وخرج اليه الأمير الثقة ، متولى الرسالة وزمام القصور ، فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وقبل الأرض ، وعاد فجلس مكانه ، المرتبة وقال : أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام . فوقف عند ذلك المأمون وقبل الأرض ، وعاد فجلس مكانه . وتأخر الأمير الى أن نزل من المصطبة ، وقبل الأرض وقبل يد المأمون ، ودخل من فوره من الباب ، وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل .

وكان الأفضل يقول : ما أزال أعد نفسى سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة ، والباب يغلق فى وجهى والدخان فى أنفى ، فان الحمام كانت من خلف الباب فى السرداب .

ثم فتح الباب وعاد الثقة ، وأشار بالدخول الى القصر ، فدخل الى المكان الذى هيىء له وعاد لمجلس الوزارة ، وبقى الأمراء بالدهاليز الى أن جلس الخليفة . واستفتح القراء ، واستدعى المأمون فحضر بين يديه ، وسلم عليه أولاده واخوته ، وأحل الأمراء على قدر طبقاتهم : أولهم أرباب الأطواق ، ويليهم أرباب العماريات والأقصاب ، ثم الضيوف والأشراف .

ثم دخل ديوان المكاتبات وسلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، ثم ديوان الانشاء وسلم بهم الشريف ابن أنس الدولة ، ثم بقية الطالبيين من الأشراف ، ثم سلم القاضى ابن الرسعنى بشهوده ، والداعى ابن عبد الحق بالمؤمنين ، ثم سلم القائد مقبل مقدم الركاب الآمرى بجميع المقدمين الآمرية ، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبى الليث متولى ديوان المملكة . ثم دخل الأجناد من باب البحر ، وسلم كل طائفة بمقدمها .

فلما انقضى ذلك دخل والى القاهرة ووالى مصر ، وسلم كل منهما ببياض أهل البلدين ، ثم دخل البطرك بالنصارى وفيهم كتاب الدولة من النصارى ، ورئيس اليهود ومعه الكتاب من اليهود ، ثم سلم المقربون وقد قارب القصر . ودخل الشعراء على طبقاتهم ، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته .

قال : فكان هذا رتبة الوزير المأمون .

قال ابن المأمون : وأما ما قرر للوزارة عينا فى الشهر ، بغير ايجاب بل يقبض من بيت المال ، فهو ثلاثة آلاف دينار .

تفصيلها : ما هو على حكم النيابة فى العلامة ألف دينار ، وما هو على حكم الراتب ألف وخمسمائة دينار ، وما هو عن مائة غلام — برسم مجلسه وخدمته — لكل غلام خمسة دنانير فى الشهر .

فأما الغلمان الركابية ، وغيرهم من الفراشين والطباخين ، فعلى حكم ما يرغب فى اثباته .

وفى السنة : من الاقطاعات خمسون ألف دينار ، منها دهشور وجزيرة الذهب ، وبقية الجملة صفقات . ومن البساتين ثلاثة : بستان * الأمير تميم ، وبستانان بكوم أشفين . ومن القوت (يعنى القمح) ، ومن القضم (يعنى الشعير) والبرسيم فى السنة عشرون ألف اردب قمحا وشعيرا . ومن الغنم برسم مطابخه ساقة من المراحات ثمانية آلاف رأس .

وأما الحيوان والأحطاب وجميع التوابل ، العال منها والدون ، فمهما استدعاه متولى المطابخ يطلق من دار أفتكين وشون الأحطاب وغير ذلك .

وقد تقدم مقرر كسوة الوزارة فى العيدين ، وفصلى الشتاء والصيف ، وموسم عيد الغدير ، وفتح الخليج . وغير ذلك من غرتى شهر رمضان وأول العام وغيره ، كما سيرد فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وقد استقصيت سير الوزراء فى كتابى الذى سميته « تلقيح العقول والآراء فى تنقيح أخبار الجلة الوزراء » فانظره .

ذكر الحجر التى كانت برسم الصبيان الحجرية

وكان بجوار دار الوزارة مكان كبير يعرف بالحجر (جمع حجرة) فيها الغلمان المختصون بالخلفاء ، كما أدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق .

وكانت هذه الحجر من جانب حارة الجوانية ، والى حيث المسجد الذى يعرف بمسجد القاصد ، تجاه باب الجامع الحاكمى الذى يفضى الى باب النصر .

فمن حقوق هذه الحجر : دار الأمير بهادر اليوسفى السلاحدار الناصرى ، التى تجاور المسجد الكائن على يمنة من سلك من باب الجوانية طالبا باب النصر ، ومنها الحوض المجاور لهذه الدار ، ودار الأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاوون ، والمسجد المعروف بالنخلة ، وما يجاوره من القاعتين اللتين تعرف احداهما بقاعة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وما فى جانبها الى مسجد القاصد ، وما وراء هذه الدور .

وكان لهؤلاء الحجرية اصطبل برسم دوابهم سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى . وما زالت هذه الحجر باقية ، بعد انقضاء دولة الخلفاء الفاطميين ، الى ما بعد السبعمائة فهدمت ، وابتنى الناس مكانها الأماكن المذكورة .

قال ابن أبى طى عن المعز لدين الله : وجعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسمهم ، وكذلك فعل بالكتاب والأفاضل ، وشرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فمن كان ذا شهامة وحسن خلقة أرسله ليخدم فى الركاب . فسيروا اليه عالما من أولاد الناس ، فأفرد لهم دورا وسماها الحجر .

(*) ص٤٤٢ جـ١ ، ط . بولاق .

وقال ابن الطوير : وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج . فاهتم للتوجه اليها ، فلم يبق مسكنا من مال وسلاح وخيل ورجال ، واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر بين يدى الخليفة مكانه ، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج ، فوصل الى عسقلان ، وزحف عليها بذلك العسكر ، فخذل من جهة عسكره — وهى نوبة النصة — وعلم أن السبب فى ذلك من جنده . ولما غلب حرق جميع ما كان معه من الآلات .

وكان عند الفرنج شاعر منتجع اليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح
فلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه
بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل الى ذبح هذا الشاعر .

ولم ينتفع بعد هذه النوبة أحد من الأجناد بالأفضل ، وحظر عليهم النعوت ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة .

وأنشأ سبع حجر ، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف راجل ، وقسمهم فى الحجر ، وجعل لكل مائة زماما ونقيبا ، وزم الكل بأمير يقال له الموفق ، وأطلق لكل منهم مايحتاج اليه من خيل وسلاح وغيره ، وعنى بهؤلاء الأجناد . فكان اذا دهمه أمر مهم ، جهزهم اليه مع الزمام الأكبر .

وقال ابن المأمون : وكان من جملة الحجرية الذين يحضرون السماط رجل يعرف بابن زحل . وكان يأكل خروفا كبيرا مشويا ويستوفيه الى آخره ، ثم يقدم له صحن كبير من القصور المعمولة بالسكر ، وجميع صنوف الحيوانات على اختلاف أجناسها ما لم يعمل قط مثله من الأطعمة ، فيأكل معظمه . وكان يقعد فى طرف المدورة حتى يكون بالقرب من نظر الخليفة لألميزته ، وكان من الأجناد وأسر فى أيام الأفضل ، وقيده الفرنجى الذى أسره وعذبه ، وطالت مدته فى الأسر وكان فقيرا .

فاتفق أن ذكر للفرنجى كثرة أكله ، فأراد أن يمتحنه ، فقال له : أحضر لى عجلا ، أكبر عجل عندكم ، آكله الى آخره .

فضحك منه الفرنجى ، ونقص عقله ، وأتاه بعجل كبير ، ويقال بخنزير ، فقال له : اذبحه واشوه ، وائتنى معه بجرة خل . ثم قال : اذا أكلته ما يكون لى عندك ؟

فغلط الفرنجى وقال له : أطلقك تمضى الى أهلك .

فاستحلفه على ذلك ، وغلظ عليه اليمين .

وأحضر الفرنجى عدة من أصحابه ليشاهدوا فعله . فلما استوفى العجل جميعه ، صلب كل من الحاضرين على وجهه * ، وتعجب من فعله ، وأطلقه .

فقال : أخاف من أن يعتقد أننى هربت ، فأرد اليكم .

فأحضر الفرنجى من العربان من سلمه اليهم ولم يشعر به الا بباب عسقلان فطلع منها ، وأعفى بعد ذلك من السفر ، وبقى برسم الأسمطة .

(*) ص٤٤٣ جـ١ ، ط. بولاق .

وقال ابن عبد الظاهر : الحجر قريب من باب النصر ، وهو مكان كبير فى صف دار الوزارة ، الى جانبه باب القوس الذى يسمى باب النصر قديما ، على يمنة الخارج من القاهرة ... كان تربى فيه جماعة من الشباب يسمون صبيان الحجر يكونون فى جهات متعددة ، وهم يناهزون خمسة آلاف نسمة . ولكل حجرة اسم تعرف به ، وهى المنصورة والفتح ، والجديد وغير ذلك ... مفردة لهم ، وعندهم سلاحهم .

فاذا جردوا خرج كل منهم لوقته لا يكون له ما يمنعه ، وكانوا فى ذلك على مثال الذؤابة والأستار ، وكانوا اذا سمي الرجل منهم بعقل وشجاعة خرج من هناك الى الامرة أو التقدمة ، مثل على بن السلار وغيره ، ولا يأوى أحد منهم الا بحجرته بفرسه وعدته وقماسه . وللصبيان الحجرية حجرة مفردة : عليهم أستاذون يبيتون عندهم ، وخدام برسمهم .

ذكر المناخ السعيد

وكان من وراء القصر الكبير ، فيما يلى ظهر دار الوزارة الكبرى والحجر ، المناخ . وهو موضع برسم طواحين القمح التى تطحن جرايات القصور ، وبرسم مخازن الأخشاب والحديد ونحو ذلك .

قال ابن الطوير : وأما المناخات ففيها من الحواصل ما لا يحصره الا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه ، والقنب والكتان والمنجنيقات المعدة ، والطواحين الدائرة برسم الجرايات المقدم ذكرها ، والزفت فى المخازن الذى عليه الأتربة ولا ينقطع الا بالمعاول . وقد أدركت هذه الدولة (يعني دولة بني أيوب) منه شيئا كثيرا فى هذا المكان انتفع به .

واليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم ، وكانت عدتهم كثيرة ، ففيه من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة ، ومن العجانين والطحانين فى تلك الطواحين ، والفرانين فى أفران الجرايات .

وفى هذا المكان مادة أكثر أهل الدولة ، وحاميه أمير من الأمراء ، ومشارفه من العدول . وفيه أيضا شاهد النفقات ، وعامل يتولى التنفيذ مع المشارف ، وعامل برسم نظم الحساب من تعلقاتهما بجار غير جواريهم ، لأن أوقاتهم مستغرقة فى مباشرة الاطلاقات وغيرها .

وذكر ابن الطوير أن المأمون بن البطائحى استجد طواحين برسم الرواتب .

ذكر اصطبل الطارمة

الطارمة بيت من خشب ، وهو دخيل . وكان بجوار القصر الكبير ، تجاه باب الديلم من شرقي الجامع الأزهر ، اصطبل .

قال ابن الطوير : وكان لهم اصطبلان : أحدهما يعرف بالطارمة يقابل قصر الشوك ، والآخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة .

وكان للخليفة الحاضر ما يقرب من ألف رأس — فى كل اصطبل النصف من ذلك — منها ما هو برسم الخاص ، ومنها ما يخرج برسم العوارى لأرباب الرتب والمستخدمين دائما ، ومنها ما يخرج أيام المواسم . وهى التغيرات المتقدم ذكر ارسالها لأرباب الرتب والخدم .

والمرتب لكل اصطبل منهما : لكل ثلاثة أرؤس سائس واحد ملازم ، ولكل واحد منها شداد برسم تسبيرها . وفى كل اصطبل بئر بساقية تدور الى أحواض ، ومخازن فيها الشعير والأقراط اليابسة المحمولة من البلاد اليها ، ولكل عشرين رجلا من السواس عريف يلتزم دركهم بالضمان ، لأنهم الذين يتسلمون من خزائن السروج المركبات بالحلى ، ويعيدونها اليها كما تقدم ذكره فى خزائن السروج .

ولكل من الاصطبلين رائض كأمير اخور ، ولهما ميرة وجامكية متسعة . وللعرفاء على السواس ميرة ، وللجماعات الجرايات من القمح والخبز خارجا عن الجامكيات .

فاذا بقى لأيام المواسم التى يركب فيها الخليفة بالمظلة مدة أسبوع ، أخرج الى كل رائض فى الاصطبل مع أستاذ مظلة ديبقى مركبة على قفطارية مدهونة ، ويختص الرائض على ما يركبه الخليفة اما فرسين أو ثلاثة ، وعليهما المركبات الحلى التى يركبها الخليفة ، فيركبها الرائض بحائل بينه وبين السرج ، ويركب الأستاذ بغلة مظلة ، ويحمل تلك المظلة ويسير فى براح الاصطبل — وفيه سعة عظيمة — مارا وعائدا وحولها البوق والطبل .

فيكرر ذلك عدة دفعات فى كل يوم مدة ذلك الأسبوع ، ليستقر ما يركبه الخليفة من الدواب على ذلك ، ولا ينفر منه فى حال الركوب عليه ، فيعمل كذلك فى كل اصطبل من الاصطبلين .

والدواب والبغلة التى تتهيأ هى التى يركبها الخليفة وصاحب المظلة يوم الموسم ، ولا يختل ذلك . ويقال انه ما راثت داية * ولا بالت والخليفة راكبها ، ولا بغلة صاحب المظلة أيضا الى حين نزولهما عنهما .

وكان فى الساحل بطريق مصر من القاهرة ، فى البساتين المنسوبة الى ملك صارم الدين حللبا ، شونتان مملوءتان تبنا ، معبيتان كتعبيته فى المراكب كالجبلين الشاهقين . ولهما مستخدمون حام ومشارف وعامل بجامكية جيدة .

تصل بذلك المراكب التبانة المؤهلة له من موظف الأتبان بالبلاد الساحلية ، وغيرها مما يدخل اليه فى أيام النيل . ولها رؤساء ، وأمرها جار فى ديوان العمائر والصناعة . والانفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة ، وغيرها من الأواسى الديوانية وعوامل بساتين الملك .

واذا جرى بين المستخدمين خلف فى الشنف التبن المعتبر ، عادوا الى قبضه بالوزن ، فيكون الشنف التبن ثلثمائة وستين رطلا بالمصرى نقيا . واذا أنفقوا دريسا قد تغيرت صورة قتة ، كان عن القتة اثنا عشر رطلا . ولم يزل ذلك كذلك الى آخر وقته .

(*) ص٤٤٤ ج١ ، ط. بولاق .ه

ومما يخبر عنهم أنهم لم يركبوا حصانا أدهم قط ، ولا يرون اضافته الى دوابهم بالاصطبلات .

وقال ابن عبد الظاهر : اصطبل الطارمة كان اصطبلا للخليفة ، فلما زالت تلك الأيام اختط وبنى آدرا .

ذكر دار الضرب وما يتعلق بها

وكان بجوار خزانة الدرق ، التى هى اليوم خان مسرور الكبير ، دار الضرب . وموضعها حينئذ كان بالقشاشين التى تعرف اليوم بالخراطين . وصار مكان دار الضرب اليوم درب يعرف بدرب الشمسى فى وسط سوق السقطيين المهامزيين . وباب هذا الدرب تجاه قيسارية العصفر .

فاذا دخلت هذا الدرب ، فما كان على على يسارك من الدور فهو موضع دار الضرب ، وبجوارها دار الوكالة الحافظية . فجعلت الحوانيت التى على يمينة من سلك من رأس الخراطين تجاه سوق العنبر ، طالبا الجامع الأزهر ، فى ظهر دار الضرب .

وأنشأ هذه الحوانيت وما كان يعلوها من البيوت الأمير المعظم خمرتاش الحافظى ، وجعلها وقفا ، وقال فى كتاب وقفها : وحد هذه الحوانيت الغربى ينتهى الى دار الضرب والى دار الوكالة . وقد صارت هذه الحوانيت الآن من جملة أوقاف المدرسة الجمالية مما اغتصب من الأوقاف .

وما زالت دار الضرب هذه فى الدولة الفاطمية باقية الى أن استبد السلطان صلاح الدين ، فصارت دار الضرب حيث هى اليوم كما تقدم ذكره .

وكان لدار الضرب المذكورة فى أيامهم أعمال ، ويعمل بها دنانير الغرة ودنانير خميس العدس ، ويتولاها قاضى القضاة لجلالة قدرها عندهم .

قال ابن المأمون : وفى شوال منها — وهى سنة ست عشرة وخمسمائة — أمر الأجل ببناء دار الضرب بالقاهرة المحروسة ، لكونها مقر الخلافة وموطن الامامة ، فبنيت بالقشاشين قبالة المارستان ، وسميت بالدار الآمرية ، واستخدم لها العدول ، وصار دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار ... انتهى .

وكانت دار الضرب المذكورة تجاه المارستان فكان المارستان بجوار خزانة الدرق : فما عن يمينك الآن ، اذا سلكت من رأس الخراطين ، فهو موضع دار الضرب ودار الوكالة هكذا الى الحمام التى بالخراطين وما وراءها . وما عن يسارك فهو موضع المارستان .

قال ابن عبد الظاهر : فى أيام المأمون بن البطائحى ، وزير الآمر بأحكام الله ، بنيت دار الضرب فى القشاشين قبالة المارستان الذى هنالك ، وسميت بالدار الآمرية .

دار العلم الجديدة : وكان بجوار القصر الكبير الشرقى دار فى ظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران ، لما أغلق الأفضل بن أمير الجيوش دار العلم التى كان الحاكم بأمر الله

فتحها فى باب التبانين ، اقتضى الحال بعد قتله اعادة دار العلم .

فامتنــع الوزير المأمــون من اعادتهـا فى موضعها ، فأشار الثقة زمام القصور بهــذا الموضع ، فعمل دار العلم فى شهر ربيع الأول سنة ســبع عشرة وخمســمائة ، وولاها لأبى محمد حسن بن آدم ، واستخدم فيها مقرئين . ولم تزل دار العــلم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية .

قال ابن عبــد الظاهر : رأيت فى بعض كتب الأملاك القديمة ما يدل على أنها قريبــة من القصر النافعى . وكذا ذكر لى السيد الشريف الحلبى أنها دار ابن أزدمر ، المجــاورة لدار سكنى الآن ، خلف فنــدق مسرور الكبير . وكذلك قال لى والدى رحمه الله . وقد بناها جمال الدين الأســتادار الحلبى دارا عظيمــة غرم عليها مائة ألف وأكثــر من ذلك على ما ذكره ... انتهى .

وموضع دار العلم هــذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر ، قريبا من خان الخليلى بخط الزراكشة العتيق .

موســم أول العــام : قال ابن المأمون : وأسفرت غرة سنة ســبع عشرة وخمسمائة ، وبادر المستخدمون * فى الخزائن وصــناديق الانفاق بحمل ما يحضر بين يدى الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة ، ورسم جميــع من يختص به من أخــوته وجهــاته وقرابته ، وأرباب الصــنائع والمســتخدمات ، وجميع الأستاذين العوالى والأدوان ، وثنوا

يحمــل ما يختص بالأجــل المأمــون وأولاده واخــوته ، واســتأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشى والأمــراء والضــيوف والأجنــاد ، فأمروا بتفرقته . والذى اشتمل عليه المبلغ فى هــذه السنة نظير ما كان قبلها .

وجلس المأمون باكرا على السماط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الخــدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنتــه الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب الى الدار المأمونية ، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصــفات العساكر وترتيب الأسمطة ، وأصمد كل منهم الى شغله وتوجه لخدمته .

ثم ركب الخليفــة ، واســتدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب وقد نشرت مظلتــه ، وخدمت الرهجيــة ، ورتب الموكب والجنــائب ومصفــات العســاكر عن يمينــه وشــماله ، وجميــع تجــار البلدين — من الجوهريين والصــيارف والصــاغة والبزازين وغيرهم — قد زينــوا الطريق بما تقتضــيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظــر الخليفة .

وخرج من باب الفتوح ، والعساكر فارسها وراجلها بتجملهــا وزيهــا ، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تعم المساكين ، والرسوم تفرق على المستقرين ... الى أن دخل من باب الذهب ، فلقيــه المقرئون بالقرآن الــكريم فى طــول الدهاليز ، الى أن دخل خزانة الكسوة الخاص

(*) ص٤٤٥ ج١ ، طبع بولاق .

وغير ثياب الموكب بغيرها ، وتوجه الى تربة آبائه للترحيم على عادته ، وبعد ذلك الى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة .

وعبيت الأسمطة . وجرى الحال فيها ، وفى جلوس الخليفة ومن جرت عادته ، وتهيئة قصور الخلافة وتفرقة الرسوم ، على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون الى داره ، فوجد الحال فى الأسمطة على ما جرت به العادة ، والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها .

وكذلك الهناء فى صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعادت الأمور فى أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود .

وأحضر كل من المستخدمين فى الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات : مما تحتاج اليه الدولة فى طول السنة ، وينعم به ويتصدق ، ويحمل الى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل فى التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل الى الثغور ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع فى الثغور والبلاد ، والاستيمار وجريدة الأبواب ، وتذكرة الطراز والتوقيع عليها .

وقال ابن الطوير : فاذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى كل سنة ، انتصب كل من المستخدمين بالأماكن لاخراج آلات الموكب من الأسلحة وغيرها ، فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من الأسلحة — وهو الصماصم المصقولة المذهبة مكان السيوف المحدبة ، والدبابيس الكيمخت الأحمر والأسود ورؤوسها مدورة مضرسة ، واللتوت كذلك ورؤوسها مستطيلة مضرسة أيضا ، وآلات يقال لها المستوفيات ، وهى عمد حديد من طول ذراعين مربعة الأشكال ، بمقابض مدورة ، فى أيديهم بعدة معلومة من كل صنف — فيتسلمها نقباؤهم ، وهى فى ضمانهم ، وعليهم اعادتها الى الخزائن بعد تقضى الخدمة بها .

ويخرج للطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب — ويقال لهم أرباب السلاح الصغر ، وهم ثلثمائة عبد — لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين فى شرابة ، وثلثمائة درقة بكوامخ فضة ... يتسلم ذلك عرفاؤهم على ما تقدم ، فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة .

ثم يخرج من خزانة التجمل — وهى من حقوق خزائن السلاح — القصب الفضة برسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الرتب ، وأزمة العساكر والطوائف من الفارس والراجل . وهى رماح ملبسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب الا ذراعين منها ، فيتسد فى ذلك الخالى من الأنابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ، ويترك أطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق ، وبرؤوسها رمامين منفوخة فضة مذهبة وأهلة مجوفة كذلك ، وفيها جلاجل لها حس اذا تحركت ، وتكون عدتها ما يقرب من مائة .

ومن العماريات — وهى شبه الكخاوات — من الديباج الأحمر وهو أجلها والأصفر والقرقوبى والسقلاطون ، مبطنة مضبوطة بزنانير حرير ، وعلى دائر التربيع منها مناطق

بكوامخ فضة مسمورة فى جلد ... نظير عدة القصب : فيسير من القصب عشرة ، ومن العماريات مثلها من الحمر خاصة .

ويخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين ملبسين بمثل تلك الأنابيب ، ونفس اللواء ملفوف غير منشور . وهذا التشريف يسير أمام الوزير ، وهو للأمراء من ورائهم . ثم يسير للأمراء أرباب الرتب فى الخدم — وأولهم صاحب الباب ، وهو أجلهم — خمس قصبات وخمس عماريات ، ويرسل لإسفهسلار * العساكر أربع قصبات وأربع عماريات من عدة ألوان ، ومن سواهما من الأمراء على قدر طبقاتهم ثلاث ثلاث ، واثنتان اثنتان ، وواحدة واحدة .

ثم يخرج من البنود الخاص الديبقى المرقوم الملون عشرة برماح ملبسة بالأنابيب ، وعلى رؤوسها الرمامين والأهلة ، للوزير خاصة . ودون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة ، ورؤوسها ورمامينها من نحاس مجوف مطلى بالذهب . فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين ، من تسعة الى سبعة أذرع برأسها طلعة مصقولة ، وهي من خشب القنطاريات داخلة فى الطلعة وعقبها حديد مدور أسفل ، فهى فى كف حاملها الأيمن ، وهو يفتلها فيه فتلا متدارك الدوران ، وفى يده اليسرى نشابة كبيرة يخطر بها ، وعدتها ستون مع ستين رجلا يسيرون رجالة فى الموكب يسيرون يمنة ويسرة . ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث ، مثل نقارات الكوسات بغير كوسات — يقال لها طبول — فيتسلمها صناعها ، ويسيرون فى الموكب اثنين اثنين ، ولها حس مستحسن ، وكان لها ميزة عندهم فى التشريف .

ثم يخرج لقوم متطوعين — بغير جار ولا جراية — تقرب عدتهم من مائة رجل ، لكل واحد درقة من درق اللمط وهى واسعة وسيف ، ويسيرون أيضا رجالة فى الموكب ... هذا وظيفة خزائن السلاح .

ثم يحضر حامى خزائن السروج — وهو من الأستاذين المحنكين — اليها مع مشارفها — وهو من الشهود المعدلين — فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم ركوبه وما يجنب فى موكبه مائة سرج : منها سبعون على سبعين حصانا ، ومنها ثلاثون على ثلاثين بغلة .

كل مركب مصنوع من ذهب ، أو من ذهب وفضة ، أو من ذهب منزل فيه المينا ، أو من فضة منزلة بالمينا ، وروادفها وقرابيسها من نسبتها ، ومنها ما هو مرصع بالجواهر الفائقة .

وفى أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر ، وربما يكون فى أيدي وأرجل أكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها ، ومكان الجلد من السروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان ، والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير ... قيمة كل دابة وما عليها من العدة ألف دينار »

(*) ص٤٤٦ جـ١ ، ط . بولاق .

فيشرف الوزير من هـذه بعشرة حصـن لركوبه وأولاده واخـوته ومن يعز عليـه من أقاربه .

ويسلم ذلك لعرفاء الاصـطبلات ، بالعرض عليهم من الجرائد التى هى ثابتة فيها علاماتها فى أماكنها وأعدادها ، وعدد كل مركب منقوش عليه مثل أول وثان وثالث الى آخرها — كما هو مسطور فى الجرائد — فيعرف بذلك قطعة قطعة ، ويسلمها العرفاء للشدادين بضمـان عرفائهم الى أن تعود ، وعليهم غرامة ما نقص منها واعادتها برمتها .

ثم يخـرج من الخـزائن المذكورة لأرباب الدواوين المرتبين فى الخدم ، على مقاديرهم ، مركبات أيضا من الحلى — دون ما تقـدم ذكره — ما تقرب عدته من ثلثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال ، يتسلمها العرفاء المتقدم ذكرهم على الوجه المذكور ، وينتـدب حاجب يحضر على التفرقة لفـلان وفلان من أرباب الخدم سيفا وقلما ، فيعرف كل شداد صاحبه ، فيحضر اليـه بالقـاهرة ومصر سـحر يوم الركوب ، ولهم من الركاب رسـوم من دينار الى نصف دينار الى ثلث دينار .

فاذا تكمـل هذا الأمر ، وسـلم أيضـا الجمالون بالمناخات أغشية العمارات ، ويكون اراحة فى ذلك كله الى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجـة ، وأصـبح اليـوم التاسع والعشرين من سلخه على رأى القوم ... عزم الخليفة على الجلوس فى الشباك لعرض دوابه الخاص المقدم ذكرها ، ويقال له يوم عرض الخيل .

فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة — وهو من كبـار الأسـتاذين المحنـكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم — فيمضى الى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دهراج ، امتثالا لأمر الخليفـة بالاسراع ، على خلاف حركته المعتادة . فاذا عاد مثل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعائه الوزير .

فيخرج راكبا من مكانه فى القصر — ولا يركب أحد فى القصر الا الخليفـة — وينزل فى السـد لا بدهليز باب الملك الذى فيـه الشباك ، وعليه من ظاهره للناس ستر . فيقف من جانبه الأيمن زمام القصر ، ومن جانبـه الأيسر صاحب بيت المال ، وهما من الأستاذين المحنكين .

فيركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فاذا وصل الى باب القصر ترجل الأمراء وهو راكب ، ويكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيـد ، ولا يزال راكبـا الى أول باب من الدهاليز الطوال ، فينزل هناك ويمشى فيهـا وحواليه حاشيته وغلمانه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه ، ويصل الى الشباك فيجد تحته كرسيا كبيرا من كراسى البلق الجيد ، فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض .

فاذا استوى جالسا ، رفع كل أستاذ الستر من جانبه ، فيرى الخليفة جالسـا فى المرتبـة الهائلة ، فيقف ويسلم ويخدم بيده الى الأرض ثلاث مرات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسـيه فيجلس ، ويستفتح القراء بالقراءة قبـل كل شيء بآيات لائقة بذلك الحال مقدار نصف ساعة ، ثم يسلم الأمراء .

ويسرع فى عرض الخيل والبغال الخاص المقدم ذكرها دابة دابة ، وهى هادئة كالعرائس بأيدى شداديها ، الى أن يكمل * عرضها ، فيقرأ القراء لختم ذلك الجلوس ، ويرخى الأستاذان الستر ، فيقدم الوزير ويدخل اليه ويقبل يديه ورجليه ، وينصرف عنه الى داره ، فيركب من مكان نزوله والأمراء بين يديه لوداعه الى داره ركبانا ومشاة الى قريب المكان .

فاذا صلى الخليفة الظهر بعد انفضاض ما تقدم ، جلس لعرض ما يلبسه فى عيد تلك الليلة — وهو يوم افتتاح العام — بخزائن الكسوات الخاص ، ويكون لباسه فيه البياض غير الموشح ، فيعين على منديل خاص وبدلة .

فأما المنديل فيسلم لشاد التاج الشريف ، ويقال له شدة الوقار — وهو من الأستاذين المحنكين ، وله ميزة لممارسة ما يعلو تاج الخليفة — فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه ... شكل الاهليجة .

ثم يحضر اليه اليتيمة ، وهى جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة ، فتنظم هى وحواليها مادونها من الجواهر ، وهى موضوعة فى الحافر ، وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا ، فتنظم على خرقة حرير أحسن وضع ، ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة ... فتكون بأعلى جبهة الخليفة — ويقال ان زنة الجوهرة سبعة دراهم ، وزنة الحافر أحد عشر مثقالا — وبدائرها قصبة زمرد ذبابى له قدر عظيم .

(*) ص٤٤٧ جـ١ ، ط. بولاق .

ثم يؤمر بشد المظلة التى تشابهها تلك البدلة المحضرة بين يديه ، وهى مناسبة للثياب ، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة . وهى اثنا عشر شوركا ، عرض سفل كل شورك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخر الشورك من فوق دقيق جدا ، فيجتمع ما بين الشوارك فى رأس عودها بدائرة ، وهو قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض ابهام ، فيشد آخر الشوارك فى حلقة من ذهب ، ويترك متسعا فى رأس الرمح وهو مفروض ، فتلقى تلك الفلكة فتمنع المظلة من الحدور فى العمود المذكور . ولها أضلاع من خشب الخلنج مربعات مكسوة بوزن الذهب ، على عدد الشوارك ، خفاف فى الوزن طولها طول الشوارك ، وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعضا ، وهى تنضم وتنفتح على طريقة شوكات الكيزان ، ولها رأس شبه الرمانة ، ويعلوه رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان ، ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف ، وسفل الرمانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع . فاذا أدخلت الحلقة الذهب الجامعة لآخر شوارك المظلة فى رأس العمود ، ركبت الرمانة عليها ولفت فى عرض ديبقى مذهب ، فلا يكشفها منه الا حاملها عند تسليمها اليه أول وقت ركوبه .

ثم يؤمر بشد لواءى الحمد المختصين بالخليفة ، وهما رمحان طويلان ملبسان بمثل أنابيب عمود المظلة الى حد نصفهما ، وهما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ، وغير

منشورين بل ملفوفين على جسم الرمحين ، فيشدان ليخرجا بخروج المظلة الى أميرين من حاشية الخليفة برسم حملهما .

ويخرج احدى وعشرون راية لطاف من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره ، ونص كتابتهما « نصر من الله وفتح قريب » على رماح مقومة من القنا المنتقى ، طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف ، فى كل واحدة ثلاث طرازات ... فتسلم لأحد وعشرين رجلا من فرسان صبيان الخاص ، ولهم بشارة عود الخليفة سالما عشرون دينارا .

ثم يخرج رمحان رؤوسهما أهلة من ذهب صامتة ، فى كل واحد سبع من ديباج أحمر وأصفر ، وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الريح ، فينفتحان فيظهر شكلهما ، ويتسلمهما فارسان من صبيان الخاص ، فيكونان أمام الرايات .

ثم يخرج السيف الخاص ، وهو من صاعقة وقعت على ما يقال ، وجلبته ذهب مرصعة بالجوهر فى خريطة مرقومة بالذهب ، لا يظهر الا رأسه ليسلم الى حامله وهو أمر عظيم القدر . وهذه عندهم رتبة جليلة المقدار ، وهو أكبر حامل .

ثم يخرج الرمح ، وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ ، وله سنان مختصر بحلية ذهب ، ودرقة بكوامخ ذهب ، فيها سعة منسوبة الى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فى غشاء من حرير ، لتخرج الى حاملها وهو أمير مميز . ولهذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة .

ثم تشعر الناس بطريق الموكب ، وسلوكه لا يتعدى دورتين : احداهما كبرى ، والأخرى صغرى . أما الكبرى فمن باب القصر الى باب النصر ، مارا الى حوض عز الملك نبا — ومسجده هناك وهو أقصاها — ثم ينعطف على يساره طالبا باب الفتوح الى القصر . والأخرى اذا خرج من باب النصر سار حافا بالسور ، ودخل من باب الفتوح .

فيعلم الناس بسلوك احداهما ، فيسيرون اذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب ، ولا تشويش ولا اختلال . فلا يصبح الصبح من يوم الركوب الا وقد اجتمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الرتب وأرباب التميزات من أرباب السيوف والأقلام قياما بين القصرين ، وكان براحا واسعا خاليا من البناء الذى فيه اليوم ، فيسع القوم لانتظار الخليفة .

ويبكر الأمراء الى الوزير الى داره ، فيركب الى القصر من غير استدعاء لأنها خدمة لازمة للخليفة ، فيسير أمامه تشريفه المقدم ذكره ، والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة ، وأمامه أولاده واخوته ★ وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك ، وهو فى أبهة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل وهو بالحنك ، ويتقلد بالسيف المذهب .

فاذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أخص مكان لا يصل الأمراء اليه ، ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين الى دهليز يقال له دهليز العمود ، فيترجل على مصطبة هناك ، ويمشى بقية الدهليز الى القاعة ،

(★) ص٤٤٨ ج١ ، ط. بولاق .

فيدخل مقطع الوزارة هو وأولاده واخوته وخواص حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة على دكك معدة لذلك مكسوة فى الصيف بالحصر السامان وفى الشتاء بالبسط الجهرمية المحفورة .

فاذا أدخلت الدابة لركوب الخليفة ، وأسندت الى الكرسى الذى يركب عليه من باب المجلس ، أخرجت المظلة الى حاملها ، فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية ، فيتسلمها باعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها ، فيركزها فى آلة حديد متخذة شكل القرن ، وهو مشدود فى ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد ، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف . ولم يذكر قط أنها اضطربت فى ريح عاصف .

ثم يخرج بالسيف ، فيتسلمه حامله ، فاذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملا له . ثم تخرج الدواة فتسلم لحاملها وهو من الأستاذين المحنكين ، وكان الوزراء حملوها لقوم من الشهود المعدلين . وهى الدواة التى كانت من أعاجيب الزمان ، وهى فى نفسها من الذهب وحليتها مرجان ، وهى ملفوفة فى منديل شرب بياض مذهب .

وقد قال فيها بعض الشعراء يخاطب الخليفة التى صنعت حلية المرجان فى وقته ، وهذا من أغرب ما يكون ، ذكر ذلك فى بيتين وهما :

ألين لداود الحديد كرامة
فقدر منه السرد كيف يريد

ولان لك المرجان وهو حجارة
ومقطعه صعب المرام شديد

فيخرج الوزير ومن كان معه من المقطع ، وتنضم اليه الأمراء ، ويقفون الى جانب الراية .

فيرفع صاحب المجلس الستر ، فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة منهم ، وفى أثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه : الثياب المعروضة عليه ، والمنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته ، وهو محنك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر ، ويتقلد بالسيف المغربى ، وبيده قضيب الملك وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصع بالدر والجوهر .

فيسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك ، وعلى أهله وعلى الأمراء بعدهم ، ثم يخرج أولئك أولا فأولا ، والوزير يخرج بعد الأمراء فيركب ويقف قبالة باب القصر بهيئته .

ويخرج الخليفة وحواليه الأستاذون ، ودابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من زلقها على الرخام . فاذا قارب الباب وظهر وجهه ، ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوج الرأس — يقال له الغربية — بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات .

فاذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب ، ونشرت المظلة ، وبرز الخليفة من الباب ، ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة ، وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يبالغ ألا يزول عنه ظلها .

ثم يكتنف الخليفة مقدمو صبيان الركاب : منهم اثنان فى الشكيمة ، واثنان فى عنق الدابة

من الجانبين ، واثنان فى ركابه . فالأيمن مقدم المقدمين ، وهو صاحب المقرعة التى يتناولها ويناولها ، وهو المؤدى عن الخليفة مدة ركوبه الأوامر والنواهى .

ويسير الموكب بالحث ، فأوله فروع الأمراء وأولادهم ، وأخلاط بعض العسكر الأماثل ، الى أرباب القصب ، الى أرباب الأطواق ، الى الأستاذين المحنكين ، الى حامل اللواءين من الجانبين ، الى حامل الدواة — وهى بينه وبين قربوس السرج — الى صاحب السيف وهما فى الجانب الأيسر ... كل واحد ممن تقدم ذكره بين عشرة الى عشرين من أصحابه . ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنكين .

ثم يأتى الخليفة وحواليه صبيان الركاب المذكورة تفرقة السلاح فيهم ، وهم أكثر من ألف رجل ، وعليهم المناديل الطبقيات ، ويتقلدون بالسيوف ، وأوساطهم مشدودة بمناديل ، وفى أيديهم السلاح مشهور ، وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادين ، وبينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمذبتين ، وهما مرفوعتان كالنخلتين ، لما يسقط من طائر وغيره . وهو سائر على تؤدة ورفق .

وفى طول الموكب من أوله الى آخره والى القاهرة مار وعائد يفسح الطرقات ويسير الركبان ، فيلقى فى عوده الاسفهسلار كذلك مارا وعائدا تحت الأجناد فى الحركة والانكار على المزاحمين المعترضين ، ويلقى فى عوده صاحب الباب — ومروره فى زمرة الخليفة — الى أن يصل الى الاسفهسلار ، فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة ، وفى يد كل منهم دبوس ، وهو راكب خير دوابه ، وأسرعها ... هذا لمن أمام الموكب .

ثم يسير خلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه ، ثم عشرة يحملون * عشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب غزيرة — يقال لها سيوف الدم — برسم ضرب الأعناق . ثم يسير بعدهم صبيان السلاح الصغير أرباب الفرنجيات المقدم ذكرهم أولا .

ثم يأتى الوزير فى هيبة ، وفى ركابه من أصحابه قوم يقال لهم صبيان الزرد ، من أقوياء الأجناد يختارهم لنفسه ، ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة ، وكأنه على وفز من حراسة الخليفة ، ويجتهد ألا يغيب عن نظره ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ، وهو مع عدة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا .

ثم يأتى حامل الرمح المقدم ذكره ودرقته حمراء ، ثم طوائف الراجل من الركابية والحيوشية وقبلهما المصامدة ، ثم الفرنجية ، ثم الوزيرية زمرة زمرة فى عدة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر وهم أضعاف ذلك ، ثم أصحاب الرايات والسبعين ، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحجرية الكبار والحافظية والحجرية الصغار المنفولين والأفضلية والجيوشية ، ثم الأتراك المصطنعون ثم الديلم ، ثم الأكراد ، ثم الغز المصطنعة .

(*) ص٤٤٩ جـ١ ، ط. بولاق .

وقد كان تقدم هؤلاء الفرسان عدة وافرة من المترجلة أرباب قسى اليد وقسى الرجل فى أكثر من خمسمائة ، وهم المعدون للأساطيل ، ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف . وهذا كله بعض من كل .

فاذا انتهى الموكب الى المكان المحدود عادوا على أدراجهم ، ويدخلون من باب الفتوح ، ويقفون بين القصرين بعد الرجوع كما كانوا قبله .

فاذا وصل الخليفة الى الجامع الأقمر بالقماحين اليوم ، وقف وقفة بجملته فى موكبه ، وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة حتى يدخل بين يديه ، فيمر الخليفة ويسكع له سكعة ظاهرة ، فيشير الخليفة للسلام عليه اشارة خفية — وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ، ولا تكون الا للوزير صاحب السيف — وسبقه الى دخول باب القصر راكبا على عادته الى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب .

فاذا وصل الخليفة الى باب القصر ودخله ، ترجل الوزير ، ودخل قبله الأستاذون المحنكون وأحدقوا به ، والوزير أمام وجه الفرس مكان ترجله الى الكرسى الذى ركب منه ، فينزل عليه ويدخل الى مكانه بعد خدمة المذكورين له .

فيخرج الوزير ويركب من مكانه الجارى به على عادته ، والأمراء بين يديه وأقاربه حواليه ، فيركبون من أماكنهم ويسيرون صحبته الى داره ، فيدخل وينزل أيضا الى مكانه على كرسى ، فتخدمه الجماعة بالوداع .

وينفرق الناس الى أماكنهم ، فيجدون قد أحضر اليهم الغرة . وهو أنه يقدم الخليفة بأن يضرب بدار الضرب فى العشر الأخر من ذى الحجة ، بتاريخ السنة التى ركب أولها فى هذا اليوم ، جملة من الدنانير والرباعية والدراهم المدورة المقسقلة .

فيحمل الى الوزير منها ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون رباعيا وثلثمائة وستون قيراطا ، والى أولاده واخوته من كل صنف من ذلك خمسون ، والى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط الى دينار واحد ورباعى واحد وقيراط واحد ، فيقبلون ذلك على حكم البرمكية من مبلغ الخليفة .

قال : ومبلغ الغرة التى ينعم بها فى أول العام المقدم ذكرها ، من الدنانير والرباعيات والقراريط ، ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار ، والله تعالى أعلم .

ذكر ما كان يضرب فى خميس العدس من خراريب الذهب

قال ابن المأمون : وأحضر الأجل المأمون كاتب الدفتر ، وأمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس من الخراريب الذهب ، وهو خمسمائة دينار عن عشرين ألف خروبة . واستدعى كاتب بيت المال ، ووقع له باطلاق ألف دينار ، وأمره باحضار مشارفه دار الضرب وسلمها اليه .

فاعتمد ذلك ، وضربت عشرون ألف خروبة وأحضرها ، فأمر بحملها الى الخليفة ، فسير

الخليفة منها الى المأمون ثلثمائة دينار . وذكر أنها لم تضرب فى مدة خلافة الحافظ لدين الله غير سنة واحدة ، ثم بطـل حـكمها ونسى ذكرها .

قال : وصار ما يضرب باسم الخليفة (يعنى الآمر بأحكام الله) فى ستة مواضع : القاهرة ، ومصر ، وقـوص ، وعسـقلان ، وصـور ، والاسكندرية .

وقال ابن عبد الظاهر : خميس العدس كان يضرب فيـه خمسـمائة تعمـل عشرة آلاف خروبة كان الأفضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة مائتى دينار ، والبقية برسمه . ثم جعلت فى الأيام المأمونية ألف دينار ، وربما زادت أو نقصت يسيرا .

وقد تقدم أن قاضى القضاة كان يتولى عيار دار الضرب ، ويحضر التعليق بنفسه ويختـم عليه ، ويحضر للموعد الآخر لفتحه .

ذكر دار الوكالة الآمرية *

كانت دار الوكالة المذكورة بجـانب دار الضرب ، وموضعها الآن على يمنة السالك من رأس الخراطين الى سـوق الخيميين والجامع الأزهر .

قال ابن المأمون فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة : ثم أنشـأ (يعنى المأمـون بن البطائحى ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله) دار الوكالة بالقاهرة المحروسة لمن يصـل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار ، ولم يسبق الى ذلك .

(*) ص٤٥٠ جـ١ ، ط. بولاق .

ذكر مصـلى العيـد

وكان فى شرقى القصر الكبير مصلى العيد من خارج باب النصر وهذا المصلى بنـاه القائد جوهر لأجل صـلاة العيـد فى شـهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ثم جدده العزيز بالله . وقد بقى الى الآن بعض هـذا المصلى ، واتخذ فى جانب منه موضـع مصلى الأموات اليوم .

ذكر هيئة صلاة العيد وما يتعلق بها

قال ابن زولاق : وركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد الى مصلى القـاهرة التى بناها القائد جوهر ، وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسنى قد بكر وجلس فى المصـلى تحت القبة فى موضع ، فجاء الخـدم وأقاموه وأقعدوا موضعه أبا جعفر مسلما ، وأقعدوه هو دونه . وكان أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلى

وأقبل المعز فى زيه وبنوده وقبابه ، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة ، قرأ فى الأولى بأم الكتاب و « هل أتاك حديث الغاشية » ، ثم كبر بعد القراءة ، وركع فأطال ، وسـجد فأطال — أنا سبحت خلفه فى كل ركعة وفى كل سجدة نيفا وثلاثين تسـبيحة — وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير .

وقرأ فى الثانيـة بأم الـكتاب وسـورة والضحى ، ثم كبر أيضا بعد القراءة — وهى صلاة جده على بن أبى طالب عليه السلام —

وأطال أيضا فى الثانية الركوع والسجود — أنا سبحت خلفه نيفا وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وفى كل سجدة — وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة .

وأنكر جماعات يتوسمون بالعلم قراءته قبل التكبير لقلة علمهم ، وتقصيرهم فى العلوم ... حدثنا محمد بن أحمد قال : حدثنا عمر بن شيبة ، حدثنا عبد الله ورجاء عن اسرائيل ، عن أبى اسحاق ، عن الحارث عن على عليه السلام ، أنه كان يقرأ فى صلاة العيد قبل التكبير .

فلما فرغ المعز من الصلاة صعد المنبر ، وسلم على الناس يمينا وشمالا ، ثم ستر بالسترين اللذين كانا على المنبر ، فخطب وراءهما على رسمه .

وكان فى أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل ، فجلس عليها بين الخطبتين ، واستفتح الخطبة ببسم الله الرحمن الرحيم — وكان معه على المنبر القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة — ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، واستفتح بذلك ، وخطب وأبلغ وأبكى الناس وكانت خطبة بخشوع وخضوع .

فلما فرغ من خطبته ، انصرف فى عساكره ، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخود على الخيل بأحسن زى ، وساروا بين يديه بالفيلين .

فلما حضر فى قصره أحضر الناس فأكلوا ، وقدمت اليهم السمط ، ونشطهم الى الطعام ، وعتب على من تأخر ، وهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقال المسبحى فى حوادث آخر يوم من رمضان سنة ثمانين وثلثمائة : وبقيت مصاطب ما بين القصور والمصلى الجديدة ظاهر باب النصر عليها المؤذنون ، حتى يتصل التكبير من المصلى الى القصر .

وفيه تقدم أمر القاضي محمد بن النعمان باحضار المتفقهة والمؤمنين (يعنى الشيعة) ، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب ، ولم يزل يرتب الناس ، وكتب رقاعا فيها أسماء الناس ، فكانت تخرج رقعة رقعة ، فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب .

وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية ، والاخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة . وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف .

وقال ابن المأمون : ولما توفى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وانتقل الأمر الى ولده الأفضل ابن أمير الجيوش ، جرى على سنن والده فى صلاة العيد ، ويقف فى قوس باب داره الذى عند باب النصر (يعنى دار الوزارة) .

فلما سكن بمصر ، صار يطلع من مصر باكرا ، ويقف على باب داره على الحالة الأولى حتى تستحق الصلاة ، فيدخل من باب العيد الى الايوان ، ويصلى به القاضي ابن

الرسعنى ، ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة الى أن تنقضى الخطبة ، فيدخل من باب الملك ، ويسلم على الخليفة بحيث لا يراه أحد غيره ، ثم يخلع عليه ، ويتوجه الى داره بمصر ، فيكون * السماط بها مدى الأعياد .

فلما قتل الأفضل ، واستقر بعده المأمون بن البطائحى فى الوزارة ، قال : هذا نقص فى حق العيد ، ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر .

فقال له الخليفة الآمر بأحكام الله : فما تراه أنت ؟

فقال : يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر . فاذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات ، وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب ، وتجوز العساكر فارسها وراجلها ، وتشملها بركة نظر مولانا اليها . فاذا حان وقت الصلاة ، توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الأمراء والأجناد ، واجتاز بأبواب القصر ودخل الايوان .

فاستحسن ذلك منه ، واستصوب رأيه ، وبالغ فى شكره .

ثم عاد المأمون الى مجلسه ، وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات ... يعنى فى عيد النحر سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وجملة العين ثلاثة آلاف وثلثمائة دينار وسبعة دنانير ، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع ، برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم .

قال : ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان (يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة) وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار . وهو عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجماعة ، وفى غيره للأعيان خاصة . وقد تقدم تفصيلها عند ذكر خزانة الكسوة من هذا الكتاب .

قال : ولما كان فى التاسع والعشرين من شهر رمضان ، خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور ، بحكم أنها ليلة ختم الشهر .

وحضر المأمون فى آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون ، وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن .

وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور بلاحى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضي ديبقى ، وجعلت أمام المذكورين ليشملها بركة ختم القرآن ، واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا .

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا فى الصوفيات الى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ورباعيات .

(*) ص٤٥١ جـ١ ، طـ بولاق .

وقدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى ، فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم ، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ، ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين .

ورسم أن تحمل الفطرة الى قاعة الذهب ، وأن تكون التعبية فى مجلس الملك ، وتعبى الطيافير المشورة الكبار من السرير الى باب المجلس ، وتعبى من باب المجلس الى ثلثى القاعة سماطا واحدا مثل سماط الطعام ، ويكون جميعه سدا واحدا من حلاوة الموسم ، ويزين بالقطع المنفوخ ... فامتثل الأمر .

وحضر الخليفة الى الايوان ، واستدعى المأمون وأولاده واخوته ، وعرضت المظال المذهبة المحاومة ، وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل «والله جعل لكم مما خلق ظلالا » الى آخرها .

وجلس الخليفة ، ورفعت الستور ، واستفتح المقرئون ، وجدد المأمون السلام عليه ، وجلس على المرتبة عن يمينه ، وسلم الأمراء جميعهم على حكم منازلهم لا يتعدى أحد منهم مكانه ، والنواب جميعهم يستدعونهم بنعوتهم وترتيب وقوفهم ، وسلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم ، ووقفوا فى آخر الايوان ، وختم المقرئون وسلموا .

وخدمت الرهجية ، وتقدم متولى كل اصطبل من الرواض وغيرهم يقبل الأرض ويقف ، ودخلت الدواب من باب الديلم ، والمستخدمون فى الركاب بالمناديل يتسلمونها من الشدادين ، ويدورون بها حول الايوان . ودواب المظلة متميزة عن غيرها يتسلمها الأستاذون والمستخدمون فى الركاب ، ويعلون بها الى قريب من الشباك الذى فيه الخليفة .

وكلما عرض دواب اصطبل قبل الأرض متوليه وانصرف ، وتقدم متولى غيره على حكمه ، الى أن يعرض جميع ما أحضروه ، وهو ما يزيد على ألف فرس ، خارجا عن البغال وما تأخر من العشاريات والحجور والمهارة .

ولما عرضت الدواب ، أبطلت الرهجية ، وعاد استفتاح المقرئين ، وكانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال ، مثل الآية من آل عمران « زين للناس حب الشهوات » الى آخرها ، ثم بعدها « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء» الى آخرها .

وعرضت الوحوش بالأجلة الديباج والديبقى بقباب الذهب والمناطق والأهلة ، وبعدها النجب والبخاتى بالأقتاب الملبسة بالديبقى الملون المرقوم ، وعرض السلاح وآلات الموكب جميعها ، ونصبت الكسوات على باب العيد ، وضربت طول الليل .

وحملت الفطرة الخاص التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات بالمسك والعود والكافور والزعفران ، والتمور المصبغة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم ، وسلمت للمستخدمين فى القصور ، وعبيت * فى مواعين الذهب المكللة بالجواهر ، وخرجت الأعلام والبنود . وركب المأمون ،

(*) ص٤٥٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فلما حصل بقاعة الذهب ، أخذ فى مشاهدة السماط من سرير الملك الى آخرها .

وخرج الخليفة لوقته من الباذهنج ، وطلع الى سرير ملكه وبين يديه الصوانى المقدم ذكرها ، واستدعى بالمأمون فجلس عن يمينه بعد أداء حق السلام ، وأمر باحضار الأمراء المميزين والقاضى والداعى والضيوف ، وسلم كل منهم على حكم ميزته ، وقدمت الرسل وشرفوا بتقبيل الأرض ، والمقرئون يتلون ، والمؤذنون يهللون ويكبرون .

وكشفت القوارات الشرب المذهبات عما هو بين يدى الخليفة ، فبدأ وكبر ، وأخذ بيده تمرة فأفطر عليها ، وناول مثلها الوزير فأظهر الفطر عليها ، وأخذ الخليفة فى أن يستعمل من جميع ما حضر ، ويناول وزيره منه وهو يقبله ويحمله فى كمه .

وتقدمت الأجلاء اخوة الوزير وأولاده من تحت السرير ، وهو يناولهم من يده ، فيجعلونه فى أكمامهم بعد تقبيله ، وأخذ كل من الحاضرين كذلك ، ويومىء بالفطور ويجعله فى كمه على سبيل البركة . فمن كان رأيه الفطور أفطر ، ومن لم يكن رأيه أوماً وجعله فى كمه ... لا ينتقد على أحد فعله .

ثم قال المأمون بعد ذلك : ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصة ، بل به له الشرف والميزة . ومد يده وأخذ من الطيفور الذى كان بين يديه عود نبات ، وجعله فى كمه بعد تقبيله ، وأشار الى الأمراء فاعتمد كل من الحاضرين ذلك ، وملأوا أكمامهم .

ودخل الناس فأخذوا جميع ذلك .

ثم خرج الوزير الى داره والجماعة فى ركابه ، فوجد التعبية فيها من صدر المجلس الى آخره على ما أمر به ، ولم يعدم مما كان بالقصر غير الصوانى الخاص . فجلس على مرتبته والأجلاء أولاده .

واستدعى بالعوالى من الأمراء والقاضى والداعى والضيوف ، فحضروا وشرفوا بجلوسهم معه ، وحصل من مسرتهم بذلك ما بسطهم ، ورفعوا اليسير مما حضر على سبيل الشرف ، ثم انصرفوا ، وحضرت الطوائف والرسل على طبقاتهم ، الى أن حمل جميع ما كان بالدار بأسره .

وانقضى حكم الفطور ، وعاد للتنفيذ فى غيره ، وضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور والدار المأمونية ، وأحضرت التغايير وفرقت على أربابها من الأجناد والمستخدمين ، وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها ، وندب الحاجب الذى بيده الدعو لترتيب صفوفها من باب القصر الى المصلى .

ثم حضر الى الدار المأمونية الشيوخ المميزون ، وجلس المأمون فى مجلسه وأولاده بهيئة العيد وزينته ، ورفعت الستور ، وابتدأ المقرئون ، وسلم متولى الباب والشيوخ ، ولم يدخل المجلس غير كاتب الدست ومتولى الحجبة ، وبالغ كل منهما فى زيه وملبوسه ، وجروا على رسمهم فى تقبيل الأرض وعتبة المجلس .

ووصل الى الدار المأمونية التجمل الخاص — الذى برسم الخليفة — جميعه : القصب

الفضة ، والأعلام ، والمنجوقات ، والعقبات ، والعماريات ، ولواء الوزارة لركوب الخليفة بالمظلة بالطميم ، والمراكيب الذهب المرصعة بالجوهر ، وغير ذلك من التجملات .

وركب المأمون من داره ، وجميع التشاريف الخاص بين يديه ، وخدمت الرهجية ومن جملتهم الغربية — وهى أبواق لطاف عجيبة غريبة الشكل ، تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة ، ولا تضرب قدام الوزير الا فى المواسم خاصة وفى أيام الخلع عليه — والأمراء مصطفون عن يمينه وعن شماله ، ويليهم اخوته ، وبعدهم أولاده .

ودخل الى الايوان ، وجلس على المرتبة المختصة به ، وعن يمينه جميع الأجلاء والميزون وقوف أمامه ، ومن انحط عنهم من باب الملك الى الايوان قيام .

ويخرج خاصة الدولة ريحان الى المصلى بالفرش الخاص وآلات الصلاة ، وعلق المحراب بالشروب المذهبة ، وفرش فيه ثلاث سجادات متراكبة ، وأعلاها السجادة اللطيفة التى كانت عندهم معظمه — وهى قطعة من حصير ذكر أنها كانت من جملة حصير لجعفر ابن محمد الصادق عليهما السلام يصلى عليها — وفرش الأرض جميعها بالحصر المحاريب .

ثم علق على جانبى المنبر ، وفرش جميع درجه ، وجعل أعلاه المخاد التى يجلس عليها الخليفة ، وعلق اللواءان عليه ، وقعد تحت القبة خاصة الدولة ريحان والقاضى ، وأطلق البخور ، ولم يفتح من أبوابه الا باب واحد وهو الذى يدخل منه الخليفة .

ويقعد الداعى فى الدهليز ونقباء المؤمنين بين يديه ، وكذلك الأمراء والأشراف والشيوخ والشهود ومن سواهم من أرباب الحرف ، ولا يسكن من الدخول الا من يعرفه الداعى ويكون فى ضمانه .

واستفتحت الصلاة ، وأقبل الخليفة من قصوره بغاية زيه ، والعلم الجوهر فى منديله ، وقضيب الملك بيده ، وبنو عمه واخوته وأستاذوه فى ركابه ، وتلقاه المقرئون عند وصوله والخواص ، واستدعى بالمأمون ، فتقدم بمفرده وقبل الأرض ، وأخذ السيف والرمح من مقدمى خزائن الكسوة ، والرهجية تخدم ، وحمل لواء الحمد بين يديه الى أن خرج من باب العيد .

فوجد المظلة قد نشرت عن يمينه ، والذى بيده الدعو فى ترتيب الحجبة لمن شرف بها ... لا يتعدى أحد حكمه . وسائر المواكب بالجنائب * الخاص وخيل التخافيف ومصفات العساكر ، والطوائف جميعها بزيها وراياتها وراء الموكب الى آن وصل الى قريب المصلى ، والعماريات والزرافات . وقد شد على الفيلة بالأسرة مملوءة رجالا مشيكة بالسلاح لايتبين منهم الا الأحداق ، وبأيديهم السيوف المجردة والدرق الحديد الصينى .

والعساكر قد اجتمعت وترادفت صفوفا من الجانبين الى باب المصلى ، والنظارة قد ملأت الفضاء لمشاهدة ما لم يبلغوه ، والموكب سائر بهم . وقد أحاط بالخليفة والوزير صبيان الخاص ، وبعدهم الأجناد بالدروع المسبلة ،

(*) ص٤٥٣ ج١ ، ط. بولاق .

والزرديات بالمغافر ملثمة ، والبروك الحديد بالصماصم والدبابيس .

ولما طلع الموكب من ربوة المصلى ، ترجل متولى الباب والحجاب ، ووقف الخليفة بجمعه بالمظلة الى أن اجتاز المأمون راكبا بمن حول ركابه ، ورد الخليفة السلام عليه بكمه ، وصار أمامه ، وترجل الأمراء المميزون والأستاذون المحنكون بعدهم وجميع الأجلاء ، وصار كل منهم يبدأ بالسلام على الوزير ثم على الخليفة الى أن صار الجميع فى ركابه .

ولم يدخل من باب المصلى راكبا غير الوزير خاصة ، ثم ترجل على بابه الثانى الى أن وصل الخليفة اليه ، فاستدعى به ، فسلم وأخذ الشكيمة بيده الى أن ترجل الخليفة فى الدهليز الآخر ، وقصد المحراب والمؤذنون يكبرون قدامه .

واستفتح الخليفة فى المحراب ، وسامته فيه وزيره والقاضى والداعى عن يمينه وشماله ، ليوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين ، ويتصل منهم التكبير الى مؤذنى مصلى الرجال والنساء الخارجين عن المصلى الكبير ، وكاتب الدست وأهله ومتولى ديوان الانشاء يصلون تحت عقد المنبر ، ولا يمكن غيرهم أن يكونن معهم .

ولما قضى الخليفة الصلاة وهى ركعتان : قرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب و « هل أتاك حديث الغاشية » ، وكبر سبع تكبيرات ، وركع وسجد . وفى الثانية بالفاتحة وسورة «والشمس وضحاها» ، وكبر خمس تكبيرات — وهذه سنة الجميع ومن ينوب عنهم فى صلاة العيدين على الاستمرار — وسلم .

وخرج من المحراب وعطف عن يمينه ، والحرص عليه شديد ، ولا يصل اليه الا من كان خصيصا به ، وصعد المنبر بالخشوع والسكينة ، وجميع من بالمصلى والتربة لا يسأم نظره ، ويكثرون من الدعاء له .

ولما حصل فى أعلى المنبر أشار الى المأمون فقبل الأرض ، وسارع فى الطلوع اليه ، وأدى ما يجب من سلامه وتعظيم مقامه ووقف بأعلى درجة . وأشار الى القاضى ، فتقدم وقبل كل درجة الى أن يصل الى الدرجة الثالثة ، وقف عندها ، وأخرج الدعو من كمه وقبله ووضعه على رأسه ، وأعلى بما تضمنه ، وهو ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد وسنته والدعاء للدولة .

وكانت الحال فى أيام وزراء الأقلام والسيوف اذا حصل الخليفة فى أعلى المنبر بقى الوزير مع غيره ، وأشار الخليفة الى القاضى ، فيقبل الأرض ويطلع الى الدرجة الثالثة ، ويخرج الدعو من كمه ويقبله ويضعه على رأسه ، ويذكر يوم العيد وسنته والدعاء للدولة ، ثم يستدعى بالوزير بعد ذلك ، فيصعد بعد القاضى .

فراعى الخليفة ذلك الأمر فى حق الوزير ، فجعل الاشارة منه اليه أولا ، ورفعه عن أن يكون مأمورا مثل غيره ، وجعلها له ميزة على غيره ممن تقدمه ، واستمرت فيما بعد .

واستفتح الخليفة بالتكبير الجارى به العادة فى الفطر والخطبتين الى آخرهما ، وكبر

المؤذنون ، ورفع اللواءان ، وترجل كل أحد من موضعه ، كما كان ركوبه ، وصار الجميع فى ركاب الخليفة ، وجرى الأمر فى رجوعه على ما تقدم شرحه ، ومضى الى تربة آبائه . وهى سنتهم فى كل ركبة بمظلة ، وفى كل يوم جمعة ، مع صدقات ورسوم تفرق .

وأما الوزير المأمون فانه توجه ، وخرج من باب العيد والأمراء بين يديه الى أن وصل الى باب الذهب ، فدخل منه بعد أن أمر ولده الأكبر بالوصول الى داره ، والجلوس على سماط العيد على عادته .

ولما دخل المأمون بقاعة الذهب ، وجد الشروع قد وقع من المستخدمين بتعبية السماط ، فأمر بتفرقة الرسوم على أربابها ، وهو ما يحمل الى مجلس الوزارة برسم الحاشية .

ولكل من حاشية أولاده واخوته ، وكاتب الدست ، ومتولى حجبة الباب ، ومتولى الديوان ، وكاتب الدفتر ، والنائب ... لكل منهم رسم يصرف قبل جلوس الخليفة ، وعند انقضاء الأسمطة لغير المذكورين على قدر منزلة كل منهم .

ثم حضر أبو الفضائل بن أبى الليث ، واستأذن على طيافير الفطرة الكبار التى فى مجلس الخليفة ، فأمره الوزير بأن يعتمد فى تفرقتها على ما كان يعتمده فى الأيام الأفضلية ، وهو لكل من يصعد المنبر مع الخليفة طيفور .

فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه الى التربة ، جلس على السرير وبين يديه المائدة اللطيفة الذهب بالمينا معباة بالزبادى الذهب ، واستدعى الوزير ، واصطف الناس من المدورة الى آخر السماط من الجانبين على طبقاتهم ، ورفعت الستور واستفتح المقرئون .

ووفى الدولة اسعاف متولى المائدة مشدود الوسط ، ومقدم خزانة الشرب بيده شربة فى مرفع ذهب وغطاء مرصعين بالجوهر والياقوت ، ومتولى خزائن الانفاق بيده خريطة مملوءة دنانير لمن يقف يطلب صدقة وانعاما ، فيؤمر بما يدفع * اليه ، وتفرقة الرسوم الجارى بها العادة . ولعبت المنافقون والتحسارية ، وتناوب القراء والمنشدون .

وأرخيت الستور ، وعبى السماط ثانيا على ما كان عليه أولا ، ثم رفعت الستور ، وجلس على المدورة والسماط من جرت العادة به ، وفرقت الدنانير على المقرئين والمنشدين والتحسارية والمنافقين ، ومن هو معروف بكثرة الأكل ، ونهبت قصور الخليفة ، وفرق من الأصناف ما جرت به العادة .

وأرخيت الستور ، وأحضر متولى خزانة الكسوة الخاص للخليفة بدلة الى أعلى السرير حسبما كان أمره ، فلبسها وخلع الثياب التى كانت عليه على الوزير بعد ما بالغ فى شكره والثناء عليه .

وتوجه الى داره ، فوصل اليه من الخليفة الصوانى الخاص المكللة معباة على ما كانت بين يديه ، وغيرها من الموائد ، وكذلك الى أولاده واخوته صينية صينية ، ولكاتب الدست ومتولى حجبة الباب مثل ذلك .

(*) ص٤٥٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ويكبر الوزير بجلوسه فى داره معلنا ، وتسارع الناس على طبقاتهم بالعيد والخلع ، وبما جرى فى صعود المنبر ، وحضر الشعراء وأسنيت لهم الجوائز .

وجرى الحال يومئذ فى جلوس الخليفة وفى السلام لجميع الشيوخ والقضاة والشهود والأمراء والكتاب ومقدمى الركاب والمتصدرين بالجوامع والفقهاء والقاهريين والمصريين واليهود برئيسهم والنصارى ببطريقهم ، على ما جرت به عادتهم ، وختم المقرئون ، وقدمت الشعراء على طبقاتهم الى آخرهم ، وجدد لكل من الحاضرين سلامه .

وانكفأ الخليفة الى الباذهنج لأداء فريضة الصلاة والراحة بمقدار ما عبيت المائدة الخاص ، واستحضر المأمون وأولاده واخوته على عادتهم ، واستدعى من شرف بحضور المائدة — وهم : الشيخ أبو الحسن كاتب الدست ، وأبو الرضى سالم ابنه ، ومتولى حجبة الباب ، وظهير الدين الكنانى — على ما كان عليه الحال قبل الصيام . وانقضى حكم العيد .

وقال ابن الطوير : اذا قرب آخر العشر الأخر من شهر رمضان ، خرج الزى من أماكنه على ما وصفنا فى ركوب أول العام ، ولكن فيه زيادات يأتى ذكرها ، ويركب فى مستهل شوال بعد تمام شهر رمضان ، وعدته عندهم أبدا ثلاثون يوما .

فاذا تهيأت الأمور من الخليفة والوزير والأمراء وأرباب الرتب على ما تقدم ، وصار الوزير بجماعته الى باب القصر ، ركب الخليفة بهيئة الخلافة من المظلة واليتيمة والآلات المقدم ذكرها ، ولباسه فى هذا اليوم الثياب البياض الموشحة المحومة وهى أجل لباسهم ، والمظلة كذلك فانها أبدا تابعة لثيابه ، كيف كانت الثياب كانت ، ويكون خروجه من باب العيد الى المصلى ، والزيادة ظاهرة فى هذا اليوم فى العساكر ، وقد انتظم القوم له صفين من باب القصر الى باب المصلى .

ويكون صاحب بيت المال قد تقدم على الرسم لفرش المصلى ، فيفرش الطراحات على رسمها فى المحراب مطابقة ، ويعلق سترين يمنة ويسرة : فى الأيمن البسملة والفاتحة و « سبح اسم ربك الأعلى » ، وفى الأيسر مثل ذلك و « هل أتاك حديث الغاشية » ، ثم يركز فى جانب المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة ، وهما مستوران مرخيان .

فيدخل الخليفة من شرقى المصلى الى مكان ليستريح فيه دقيقة ، ثم يخرج محفوظا كما يحفظ فى جامع القاهرة ، فيصير الى المحراب ، ويصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، والوزير وراءه والقاضى ، ويقرأ فى كل ركعة ما هو مرقوم فى السترين .

فاذا فرغ وسلم ، صعد المنبر للخطابة العيدية يوم الفطر ، فاذا جلس فى الذروة — وهناك طراحة سامان أو ديبقى على قدرها ، وباقيه يستر ببياض على مقداره فى تقطيع درجه وهو مضبوط لا يتغير — فيراه أهل ذلك الجمع جالسا فى الذروة .

ويكون قد وقف أسفل المنبر الوزير ، وقاضى القضاة ، وصاحب الباب اسفهسلار

العساكر ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر ، وصاحب دفتر المجلس ، وصاحب المظلة ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيين ، ووجه الوزير اليه ، فيشير اليه فيصعد ويقرب وقوفه منه ، ويكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما بحيث يراه العالم ، ثم يقوم ويقف على يمينه .

فاذا وقف أشار الى قاضي القضاة ، فيصعد الى سابع درجة ، ويتطلع اليه صاغيا لما يقول ، فيشير اليه ، فيخرج من كمه مدرجا قد أحضر اليه أمس من ديوان الانشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونه ، ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثبت بمن شرف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا — وهو عيد الفطر من سنة كذا — من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بعد صعود السيد الأجل ، ونعوته المقررة ودعائه المحرر .

فان أراد الخليفة أن يشرف أحدا من أولاد الوزير واخوته ، استدعاه القاضي بالنعت المذكور ، ثم يتلو ذلك ذكر القاضي — وهو القارىء — فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه ، بل يقول المملوك فلان بن فلان .

وقرأه مرة القاضي ابن أبى عقيل ، فلما وصل الى اسمه قال : العبد الذليل ، المعترف بالصنع الجميل فى المقام الجليل ، أحمد بن عبد الرحمن بن * أبى عقيل . فاستحسن ذلك منه .

ثم حذا حذوه الأعز بن سلامة — وقد استقضى فى آخر الوقت — فقال : المملوك فى محل الكرامة ، الذى عليه من الولاء أصدق علامه ، حسن بن على بن سلامة .

ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم ، وذكر خدمهم ودعائهم على الترتيب . فاذا طلع الجماعة — وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة ويسرة — أشار الوزير اليهم ، فأخذ من هو من كل جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه ، فيستر الخليفة ويسترون ، وينادى فى الناس بأن ينصتوا .

فيخطب الخليفة من المسطور على العادة ، وهى خطبة بليغة موافقة لذلك اليوم . فاذا فرغ ألقى كل من فى يده من اللواء شىء خارج المنبر ، فينكشفون وينزلون أولا فأولا الأقرب فالأقرب الى القهقرى .

فاذا خلا المنبر منهم ، قام الخليفة هابطا ، ودخل الى المكان الذى خرج منه ، فلبث يسيرا وركب فى زيه المفخم ، وعاد من طريقه بعينها الى أن يصل الى قريب القصر ، فيتقدمه الوزير كما شرحنا .

ثم يدخل من باب العيد ، فيجلس فى الشباك وقد نصب منه الى فسقية كانت فى وسط الايوان ، مقدار عشرين قصبة سماط من الخشكنان والبستدود والبرماورد مثل الجبل الشاهق ، وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار الى رطل .

فيدخل ذلك الجمع اليه ، ويفطر منه من يفطر ، وينقل منه من ينقل ، ويباح ولا يحجر

(*) ص٤٥٥ جـ١ ، ط. بولاق .

عليه ، ولا مانع دونه . فيمر ذلك بأيدى الناس ، وليس هو مما يعتد به ولا يعبى ، مما يفرق للناس ويحمل الى دورهم .

ويعمل فى هذا اليوم سماط من الطعام فى القاعة يحضر عليه الخليفة والوزير .

فاذا انقضى ذو القعدة ، وهل هلال ذى الحجة ، اهتم بركوب عيد النحر . فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب الى المصلى ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح ، ولا ينخرم منه شيء ... انتهى .

وصعد مرة الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد المنبر يوم عيد ، فوقف الشريف ابن أنس الدولة بازائه ، وقال مشيرا الى الحاضرين :

خشوعا فان الله هذا مقامه
وهمسا فهذا وجهه وكلامه

وهذا الذى فى كل وقت بروزه
تحياته من ربنا وسلامه

.. فضرب الحافظ الجانب الأيسر من المنبر ، فرقى اليه زمام القصر ، فقال له : قل للشريف حسبك قضيت حاجتك . ولم يدعه يقول شيئا آخر .

وكانت تكتب المخلقات بركوب أمير المؤمنين لصلاة العيد ، ويبعث بها الى الأعمال . فمما كتب به من انشاد ابن الصيرفى :

« أما بعد . فالحمد لله الذى رفع بأمير المؤمنين عماد الايمان وثبت قواعده ، وأعز بخلافته معتقده وأذل بمهابته معانده ، وأظهر من نوره ما انبسط فى الآفاق وزال معه الاظلام ، ونسخ به ما تقدمه من الملل فقال ان الدين عند الله الاسلام ، وجعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره ويباهيه ، وأوجب دخول الجنة وخلودها لمن عمل بأوامره ونواهيه ...

« وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى اصطفى له الدين ، وبعثه الى الأقربين والأبعدين ، وأيده فى الارشاد حتى صار العاصى مطيعا ، ودخل الناس فى التوحيد فرادى وجميعا ، وغدوا بعروته الوثقى متمسكين ، وأنزل عليه « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب امام الأمة ، وكاشف الغمة ، وأوجه الشفعاء لشيعته يوم العرض ، ومن الاخلاص فى ولائه قيام بحق وأداء فرض ، وعلى الأئمة من ذريتهما سادة البرية ، والعادلين فى القضية ، والعاملين بالسيرة المرضية ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ...

« وكتاب أمير المؤمنين هذا اليك يوم الثلاثاء عيد الفطر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وقد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه وأدائه ، وجريه فى ذلك على عادته وعادة من قبله من آبائه ، ما ينبئك به ، ويطلعك على مستوره عنك ومغيبه . وذلك أن دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح ، وعاد المحرم المحظور بما أطلقه المحلل المباح ، توجهت عساكر أمير المؤمنين من مظانها الى بابه ، وأفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام وثوابه ...

« ثم انثنت الى مصافها فى الهيئـات التى يقصر عنها تجريد الصفات ، وتغنى مهابتها عن تجريد المرهفات ، وتشـهد أسلحتها وعددها بالتنافس فى الهمم ، وتقلق مواضيها فى أغمادها شوقا الى الطلى والقمم . وقد امتلأت الأرض بازدحام الرجل والخيل ، وثار العجاج فلم ير أغرب من اجتماع النهار والليل ...

« وبرز أمير المؤمنين من قصوره ، وظهـر للأبصـار على أنه محتجب بضـيائه ونوره ، وتوجه الى المصلى فى هدى جـده وأبيـه ، والوقار الذى ارتفع فيه عن النظير والتشبيه . ولما انتهى اليه قصد المحراب واستقبله ، وأدى الصلاة على وضع رضيه الله وتقبله ، وأجرى أمرها على أفضل المعهود ، ووفاها حقها من القراءة والتكبير والركوع والسجود ...

« وانتهى الى المنبـر فعلا وكبر * الله ، وهلله على ما أولاه ، وذكر الثـواب عـلى اخراج الفطرة وبشر به ، وان المسارعة اليه من وسائل المحافظة على الخير وقربه ، ووعظ وعظا ينتفع قابله فى عاجلته ومنقلبه ...

« ثم عاد الى قصـوره الزاهرة ، مشمولا بالوقاية ، مكنوفا بالكفاية ، منتهيا فى ارشاد عبيده ورعاياه أقصى الغاية ...

« أعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتعلم منه ما تسكن اليه ، وتعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته ويشكروا الله عليـه . فاعلم هذا ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

وكان من أهل برقة طائفة ، تعرف بصبيان الخف ، لهـا اقطاعات وجرايات وكسـوات

(*) ص٤٥٦ جـ١ ، طـ بولاق .

ورسوم . فاذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبلين مسـطوحين من أعلى باب النصر الى الأرض : حبلا عن يمين البـاب ، وحبلا عن شماله .

فاذا عاد الخليفـة من المصـلى ، نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفى أيديهم رايات ، وخلف كل واحد منهم رديف ، وتحت رجليـه آخر معلق بيديه ورجليه . ويعملون أعمالا تذهل العقول .

ويركب منهم جماعة فى الموكب على خيول ، فيركضـون وهم يتقلبـون عليها ، ويخرج الواحد منهـم من تحت ابط الفـرس وهو يركض ، ويعود يركب من الجـانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ، ولا يسقط منه شىء الى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف .

ذكر القصر الصغير الغربى

وكان تجـاه القصر الـكبير الشرقى الذى تقدم ذكره ، فى غربيه ، قصر آخـر صـغير يعرف بالقصر الغربى .

ومكانه الآن حيث المارستان المنصورى وما فى صفه من المدارس ، ودار الأمير بيسرى ، وباب قبو الخرنشف ، وربع الملك الـكامل المطل على سوق الدجاجين اليوم — المعروف قديما بالتبـانين — وما يجـاوزه من الدرب المعروف اليوم بدرب الخضيرى تجاه الجامع الأقمر ، وما وراء هذه الأماكن الى الخليج .

وكان هذا القصر الغربي يعرف أيضا بقصر البحر . والذي بناه العزيز بالله نزار بن المعز

قال المسيحي : ولم يبن مثله في شرق ولا في غرب .

وقال ابن أبي طي في أخبار سنة سبع وخمسين وأربعمائة : ففيها تمم الخليفة المستنصر بناء القصر الغربي وسكنه ، وغرم عليه ألفي ألف دينار ، وكان ابتداء بنيانه في سنة خمسين وأربعمائة .

وكان سبب بنائه أنه عزم على أن يجعله منزلا للخليفة القائم بأمر الله صاحب بغداد ، ويجمع بني العباس اليه ، ويجعله كالمجلس لهم . فخانه أمله ، وتممه في هذه السنة ، وجعله لنفسه وسكنه .

وقال ابن ميسر : ان ست الملك أخت الحاكم، كانت أكبر من أخيها الحاكم ، وان والدها العزيز بالله كان قد أفردها بسكنى القصر الغربي ، وجعل لها طائفة برسمها كانوا يسمون بالقصرية .

وهذا يدلك على أن القصر الغربي كان قد بني قبل المستنصر وهو الصحيح ، وكان هذا القصر يشتمل أيضا على عدة أماكن .

الميدان : وكان بجوار القصر الغربي ومن حقوقه الميدان ، ويعرف هذا الميدان اليوم بالخرنشف واصطبل القطبية .

البستان الكافوري : وكان من حقوق القصر الصغير الغربي البستان الكافوري . وكان بستانا أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الاخشيد أمير مصر ، وكان مطلا على الخليج ، فاعتنى به الاخشيد ، وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام . واهتم بشأنه من بعد الاخشيد ابناه الأمير أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد ، والأمير أبو الحسن على بن الاخشيد في أيام امارتهما بعد أبيهما .

فلما استبد من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي بامارة مصر ، كان كثيرا ما يتنزه به ، ويواصل الركوب الى الميدان الذي كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان .

فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين الله لأخذ ديار مصر ، أناخ بجوار هذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة .

وكان متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم ، وكانوا يتوصلون اليه من سراديب مبنية تحت الأرض ، ينزلون اليها من القصر الكبير الشرقي ، ويسيرون فيها بالدواب الى البستان الكافوري ومناظر اللؤلؤة بحيث لا تراهم الأعين .

وما زال البستان عامرا الى أن زالت الدولة فحكر ، وبنى فيه في سنة احدى وخمسين وستمائة ، كما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى ، عند ذكر الحارات والخطط من هذا الكتاب .

وأما الأقباء والسراديب فانها عملت أسربة للمراحيض ، وهي باقية الى يومنا هذا تصب في الخليج

القاعة : وكان من جملة القصر الغربي قاعة كبيرة — هي الآن المارستان المنصوري حيث المرضى — كانت سكن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ، وكانت أحوالها متسعة جدا .

قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : وأهدت * السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الى أخيها ، يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا ، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور ، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها ، وخمسون خادما منهم عشرة صقالبة ، ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها ، وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبديعه ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر .

قال : وخلفت حين ماتت ، فى مستهل جمادى الآخرة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، ما لا يحصى كثرة ، وكان اقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار ، ووجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية ، منها بنيات ألف وخمسمائة .

وكانت سمحة نبيلة ، كريمة الأخلاق والفعل . وكان فى جملة موجودها نيف وثلاثون زيرا صينيا مملوءا جميعها مسكا مسحوقا ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت ذكر أن فيها عشرة مثاقيل .

قال المسيحى : ولدت بالمغرب فى ذى القعدة سنة خمس وثلثمائة

ولما زالت الدولة عرفت هذه الدار بالأمير فخر الدين جهاركس .... [1] موسك ثم الملك المفضل قطب الدين .... ابن الملك العادل .

(*) ص٤٥٧ جـ١ . ط. بولاق .

(١) هكذا بياض فى الأصل .

فلما كان فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، شرع الملك المنصور قلاوون الألفى فى بنائها مارستانا ومدرسة وتربة ، وتولى عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك . ويقال ان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع .

أبواب القصر الغربى

كان لهذا القصر عدة أبواب : منها باب الساباط ، وباب التبانين ، وباب الزمرذ .

باب الساباط : هذا الباب موضعه الآن باب سر المارستان المنصورى الذى يخرج منه الآن الى الخرنشف . وكان من الرسم أن يذبح فى باب الساباط المذكور مدة أيام النحر ، وفى عيد الغدير ، عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف .

قال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وجملة ما نحره الخليفة الآمر بأحكام الله ، وذبحه خاصة فى المنحر وباب الساباط — دون المأمون وأولاده واخوته — فى ثلاثة الأيام ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا ... فذكر ما كان بالمنحر .

قال : وفى باب الساباط ، مما يحمل الى من حوته القصور والى دار الوزارة والأصحاب والحواشى ، اثنتا عشرة ناقة ، وثمانية عشر رأس بقر ، وخمسة عشر رأس جاموس ، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس . ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

وقال ابن عبد الظاهر : كان فى القصر باب يعرف بباب الساباط ، كان الخليفة فى العيد يخرج منه الى الميدان — وهو الخرنشف الآن — لينحر فيه الضحايا .

باب التبانين : هذا الباب مكان باب الخرنشف الآن ، وجعل فى موضعه دار العلم التى بناها الحاكم ، الآتى ذكرها ان شاء الله تعالى .

باب الزمرذ : كان موضع اصطبل القطبية . قريبا من باب البستان الكافورى الموجود الآن .

ذكر دار العلم

وكان بجوار القصر الغربى من بحريه دار العلم ، ويدخل اليها من باب التبانين — الذى هو الآن يعرف بقبو الخرنشف — وصار مكان دار العلم الآن الدار المعروفة بدار الخضيرى ، الكائنة بدرب الخضيرى المقابل للجامع الأقمر . ودار العلم هذه اتخذها الحاكم بأمر الله ، فاستمرت الى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش .

قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله المسيحى : وفى يوم السبت هذا (يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة) فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة .

ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شىء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها .

وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، من الكتب التى أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . فكان * ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التى لم يسمع بمثلها ، من اجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها ، من فقيه وغيره .

وحضرها الناس على طبقاتهم : فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وهى الدار المعروفة بمختار الصقلبى .

قال : وفى سنة ثلاث وأربعمائة ، أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق ، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى ابن سعيد ، وجماعة من الأطباء ، الى حضرة الحاكم بأمر الله ، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه ، ثم خلع على الجميع ووصلهم .

ووقف الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر على عدة مواضع ، وضمنها كتابا ثبت على

(*) ص٤٥٨ جـ١ ، ط . بولاق .

قاضى القضاة مالك بن سعيد — وقد ذكر عند ذكر الجامع الأزهر — وقال فيه وقد ذكر دار العلم : ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة ، لما يحتاج اليه فى كل سنة ، من العين المغربى مائتان وسبعة وخمسون دينارا .

من ذلك لثمن الحصر العبدانى وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير ، ومن ذلك لورق الكاتب (يعنى الناسخ) تسعون دينارا ، ومن ذلك للخازن بها ثمانية وأربعون دينارا ، ومن ذلك لثمن الماء اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك للفراش خمسة عشر دينارا ، ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك لمرمة الستارة دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها اثنا عشر دينارا ، ومن ذلك لثمن لبود للفرش فى الشتاء خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن طنافس فى الشتاء أربعة دنانير .

وقال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى شهر ذى الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة) جرت نوبة القصار — وهى طويلة وأولها من الأيام الأفضلية ، وكان فيهم رجلان يسمى أحدهما بركات ، والآخر حميد بن مكى الأطفيحى القصار — مع جماعة يعرفون بالبديعية ، وهم على الاسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة ، وكانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة .

فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة ، وأخرجهم عن الصواب — وكان ذلك فى أيام الأفضل — فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور ، فهرب .

وكان من جملة من استفسد عقله بركات المذكور أستاذان من القصر . فلما طلب بركات المذكور واستتر ، دفق الأستاذان الحيلة الى أن أدخلاه عندهما فى زى جارية اشترياها ، وقاما بحقه وجميع ما يحتاج اليه ، وصار أهله يدخلون اليه فى بعض الأوقات .

فمرض بركات عند الأستاذين ، فحارا فى أمره ومداواته ، وتعذر عليهما احضار طبيب له ، واشتد مرضه ومات ، فأعملا الحيلة ، وعرفا زمام القصر أن احدى عجائزهما قد توفيت ، وأن عجائزهما يغسلنها على عادة القصور ، ويشيعنها الى تربة النعمان بالقرافة ، وكتبا عدة من يخرج .

ففسح لهما فى العدة ، وأخذا فى غسله ، وألبساه ما أخذاه من أهله — وهو ثياب معلمة وشاشية ومنديل وطيلسان مقور — وأدرجوه فى الديبقى ، وتوجه مع التابوت الأستاذان المشار اليهما .

فلما قطعوا به بعض الطريق أرادا تكميل الأجر له على قدر عقولهما ، فقالا للحمالين : هو رجل تربيته عندنا ، فنادوا عليه نداء الرجال ، واكتموا الحال ، وهذه أربعة دنانير لكم ، فسر الحمالون بذلك .

فلما عادوا الى صاحب الدكان عرفوه بما جرى ، وقاسموه الدنانير . فخافت نفسه ، وعلم أنها قضية لا تخفى ، فمضى بهم الى

الوالى وشرح له القضية . فأودعهم فى الاعتقال ، وأخذ الذهب منهم ، وكتب مطالعة بالحال .

فمن أول ما سمع القائد أبو عبد الله بن فاتك ، الذى قيل له بعد ذلك المأمون ، بالقضية — وكان مدبر الأمور فى الأيام الأفضلية — قال : هو بركات المطلوب .

وأمر باحضار الأستاذين والكشف عن القضية ، واحضار الحمالين والكشف عن القبر بحضورهم . فاذا تحققوه أمرهم بلعنه : فمن أجاب الى ذلك منهم أطلقوه ، ومن أبى أحضروه ... فحققوا معرفته : فمنهم من بصق فى وجهه وتبرأ منه ، ومنهم من هم بتقبيله ولم يتبرأ منه .

فجلس الأفضل واستدعى الوالى والسياف ، واستدعى من كان تحت الحوطة من أصحابه ، فكل من تبرأ منه ولعنه أطلق سبيله ، وبقى من الجماعة ممن لم يتبرأ منه خمسة نفر وصبى لم يبلغ الحلم ، فأمر بضرب رقابهم ، وطلب الأستاذين فلم يقدر عليهما .

وقال للصبى من لفظه : تبرأ منه وأنعم عليك وأطلق سبيلك .

فقال له : الله يطالبك ان لم تلحقنى بهم ، فانى مشاهد ما هم فيه . وأخذ بسيفه على الأفضل ، فأمر بضرب عنقه .

فلما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى ، باتخاذ دار العلم وفتحها على الأوضاع الشرعية .

ثم عاد حميد القصار المثنى بذكره ، وظهر ، وسكن مصر يدق الثياب بها ، ويطلع الى دار العلم ، وأفسد عقل أستاذ وخياط وجماعة وادعى الربوبية .

فحضر الداعى ابن عبد الحقيق الى الوزير المأمون ، وعرفه بأن هذا قد تعرف بطرف من علم الكلام على مذهب أبى الحسن الأشعرى ، ثم انسلخ عن الاسلام وسلك طريق الحلاج فى التمويه * ، فاستهوى من ضعف عقله وقلت بصيرته .

قان الحلاج فى أول أمره كان يدعى أنه داعية المهدى ، ثم ادعى أنه المهدى ، ثم ادعى الالهية وأن الجن تخدمه ، وأنه أحيا عدة من الطيور .

وكان هذا القصار شيعى الدين ، وجرت له أمور فى الأيام الأفضلية ، ونفى دفعة واعتقل أخرى ، ثم هرب بعد ذلك ، ثم حضر وسار يواصل طلوع الجبل ، واستصحب من استهواه من أصحابه .

فاذا أبعد قال لبعضهم بعد أن يصلى ركعتين : نطلب شيئا تأكله أصحابنا . فيمضى ولا يلبث دون أن يعود ومعه ما كان أعده مع بعض خاصته الذين يطلعون على باطنه .

فكانوا يهابونه ويعظمونه حتى انهم يخافون الاثم فى تأمل صورته ، فلا ينفكون مطرقين بين يديه . وكان قصيرا دميم الخلقة ، وادعى مع ذلك الربوبية .

وكان ممن اختص بحميد رجل خياط وخصى . فرسم المأمون بالقبض على المذكور

(*) ص٤٥٩ جـ١ ، ط . بولاق .

وعلى جميع أصحابه . فهرب الخياط وطلب فلم يوجد ، ونودى عليه ، وبذل لمن يحضر به مال فلم يقدر عليه .

واعتقل القصار وأصحابه ، وقرروا فلم يقروا بشيء من حاله .

وبعد أيام تماوت فى الحبس فلما استؤمر عليه أمر بدفنه ، فلما حمل ليدفن ظهر أنه حى ، فأعيد الى الاعتقال ، وبقى كل من لم يتبرأ منه معتقلا ، ما خلا الخصى فانه لم يتبرأ منه .

وذكر أن القتل لا يصل اليه ، فأمر بقطع لسانه ورمى قدامه وهو مصر على ما فى نفسه ، فأخرج القصار والخصى ومن لم يتبرأ منه من أصحابه ، فصلبوا على الخشب وضربوا بالنشاب ، فماتوا لوقتهم .

ثم نودى على الخياط ثانيا ، فأحضر وفعل به ما فعل بأصحابه بعد أن قيل له : هاأنت تنظره . فلم يتبرأ منه ، وصلب الى جانبه .

وذكر أن بعض أصحاب هذا القصار ممن لم يعرف أنه كان يشترى الكافور ، ويرميه بالقرب من خشبته التى هو مصلوب عليها ، فيستقبل رائحته من سلك تلك الطريق ، ويقصد بذلك أن يربط عقول من كان القصار قد أضله . فأمر المأمون أن يحطوا عن الخشب ، وأن تخلط رممهم ويدفنوا متفرقين حتى لا يعرف قبر القصار من قبورهم .

وكان قتلهم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وابتداء هذه القضية سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

قال : وكان الشريف عبد الله يحدث عن صديق له مأمون القول ، أنه أخبره أنه لما شاع خبر هذا القصار وما ظهر منه ، أراد أن يمتحنه ، فتسبب الى أن خالطه ، وصار فى جملة أصحابه ومن يعظمه ويطلع معه الى الجبل ، فأفسد عقله وغير معتقده ، وأخرجه عن الاسلام .

وأنه لامه على ذلك وردعه ، فحدثه بعجائب منها أنه قال : والله ما من الجماعة الذين يطلعون معه الى الجبل أحد الا ويسأله ويستدعيه ما يريد على سبيل الامتحان ، فيحضره اليه لوقته .

وأن بيده سكينا لا تقطع الا بيده ، واذا أمسك طائرا وقبضه أحد من الحاضرين ، يدفع السكين التى معه له ويقول له : اذبحه ، فلا تمشى فى يده ، فيأخذها هو ويذبحه بها ويجرى دمه ، ثم يعود ويمسكه بيده ويسرحه فيطير ، ويقول ان الحديد لا يعمل فيه ، ويوسع القول فيما يشاهده منه ويسمعه .

فلما اعتقل القصار ، بقى هذا الرجل مصرا على اعتقاده ، فلما قتل وخرج اليه وشاهده وتحقق موته ، علم أن ما كان فيه سحر وزور وافك ، فتصدق بجملة من ماله ، وعاد الى مذهبه وصح معتقده .

وقال ابن عبد الظاهر : دار العلم كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطلها ، وهى بجوار باب التبانين ، وهى متصلة بالقصر الصغير ، وفيها مدفون الداعى المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الأعجمى ، وكان لا

بطالها أمور سببها اجتماع الناس ، والخوض فى المذاهب ، والخوف من الاجتماع على المذهب النزارى .

ولم يزل الخدام يتوصلون الى الخليفة الآمر بأحكام الله حتى تحدث فى ذلك مع الوزير المأمون ، فقال : أين تكون هذه الدار ؟

فقال بعض الخدام : تكون بالدار التى كانت أولا .

فقال المأمون : هذا لا يكون لأنه باب صار من جملة أبواب القصر وبرسم الحوائج ، ولا يمكن الاجتماع ، ولا يؤمن من غريب يتحصل به .

فأشار كل من الأستاذين بشىء ، فأشار بعضهم أن تكون فى بيت المال القديم .

فقال المأمون : ياسبحان الله قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذى هو سكن الخليفة نجعلها ملاصقة !

فقال الثقة زمام القصور : فى جوارى موضع ليس ملاصقا للقصر ولا مخالطا له ، يجوز أن يعمر ويكون دار العلم .

فأجاب المأمون الى ذلك وقال : بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا ، والداعى الناظر فيها ، ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن .

فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم فتولاها ، وشرط عليه ما تقدم ذكره ، واستخدم فيها مقرئون .

ذكر دار الضيافة

خرّج مالك فى الموطأ ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : «كان ابراهيم عليه السلام أول من ضيف الضيف» .

وأول من اتخذ دار ضيافة فى الاسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة * سبع عشرة ، وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره ، وجعل بين مكة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء الى ماء حتى يوصلهم الى البلد .

فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه أقام الضيافة لأبناء السبيل والمتعبدين فى المسجد .

وأول من بنى دار الضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى ، أحد من شهد فتح مصر من الصحابة .

وكان ميدان القصر الغربى — الذى هو الآن الخرنشف — دار الضيافة بحارة برجوان . وكانت هذه الدار أولا تعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن حيث الموضع المعروف بحارة برجوان .

ثم لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر من عكا ، واستبد بأمر الدولة ، أنشأ هناك دارا عظيمة وسكنها ، ولم يسكن بدار الديباج التى كانت دار الوزارة القديمة .

(*) ص ٤٦٠ جـ ١ ، ط . بولاق .

فلما مات أمير الجيوش بدر ، واستولى على سلطنة ديار مصر ابنه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش ، وأنشأ دار القباب — التى عرفت بدار الوزارة الكبرى — قريبا من رحبة باب العيد ، أقر أخاه أبا محمد جعفرا المنعوت بالمظفر بن أمير الجيوش ، بدار أمير الجيوش من حارة برجوان ، فعرفت بدار المظفر ، وما زال بها حتى مات وقبر بها ، والى اليوم قبره بها ، وتسميه العامة جعفرا الصادق .

ولما مات المظفر اتخذت داره المذكورة دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك الى أن انقرضت الدولة ، فأنزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد ، الى أن نقلهم الى قلعة الجبل الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

فلما كان فى سنة تسع وسبعين وستمائة ، تقدم أمر الملك المنصور قلاوون ، لوكيل بيت المال القاضى نجم الدين عيسى بن الخشاب ، ببيع دار المظفر ، فباع القاعة الكبرى وما هو من حقوقها ، وبيعت دار المظفر الصغرى ، وهدمها الناس وبنوا فى مكانها دورا .

وموضعها الآن دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى الحنفى ، وما بجوارها الى الدار التى بها سكنى اليوم ، وهى من حقوق دار المظفر الصغرى ، على ما فى كتبها القديمة . ولما أنشأ قاضى القضاة شمس الدين المذكورة داره فى سنة سبع ، أو سنة ثمان ، وثمانين وسبعمائة ، ظهر من تحت الأرض عند حفر الأساس حجر عظيم ، قيل انه عتبة دار المظفر الكبرى . وكان اذ ذاك الأمير جهاركس الخليلى يتولى عمارة مدرسة الملك الظاهر برقوق التى فى خط بين القصرين ، فلما بلغه خبر هذا الحجر بعث اليه ، وأمر بجره الى العمارة ، فعمل عتبة باب المزملة التى للمدرسة .

وكان من وراء هذه الدار رحبة الأفيال ، أدركتها ساحة ثم عمر فيها .

قال ابن الطوير : الخدمة المعروفة بالنيابة للقاء المرسلين — وهى خدمة جليلة — يقال لمتوليها النائب ، وينعت بعدى الملك ، وهو ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسل الوافدين على مسافة ، وانزال كل واحد فى دار تصلح له ، ويقيم له من يقوم بخدمته ، وله نظير فى دار الضيافة ، وهو يسمى اليوم بمهمندار ، ويرتب لهم ما يحتاجون اليه ، ولا يمكن أحدا من الاجتماع بهم ، ويذكر صاحب الباب بهم ، ويبالغ فى نجاز ما وصلوا فيه .

وهو الذى يسلم بهم أبدا عند الخليفة والوزير ، وينفذ بهم ويستأذن عليهم . ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى ، والنائب بيده اليسرى ، فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ، ويجتهد فى انفصالهم على أحسن الوجوه ، وبين يديه من الفراشين المقدم ذكرهم عدة لاعانته ، واذا غاب أقام عنه نائبا الى أن يعود ، وله من الجارى خمسون دينارا فى كل شهر ، وفى اليوم نصف قنطار خبز ، وقد يهدى اليه المرسلون طرفا فلا يتناولها الا باذن ... انتهى .

وفى هذه الدولة التركية يقال لمتولى هذه الوظيفة مهمندار ، ولا يليها عندهم الا صاحب

سـيف من الأمـراء العشراوات . وكانت فى الدولة الفاطمية ، على ما ذكره ابن الطوير ، لا يليها الا أعيان العدول وأرباب العمـائم ، وينعت أبدا بعدى الملك . وأصل هذه الكلمة بالفارسـية مهمـان دار (ومعنـاها ملتـقى الضيوفه) .

ذكر اصطبل الحجرية

وكان بجوار دار الضيافة اصطبل الصبيان الحجرية المقـدم ذكرهم . وموضـع هـذا الاصطبل اليوم يعرف بخان الوراقة ، داخل باب الفتوح القـديم بسوق المرحلين ، على يسرة من أراد الخـروج من باب الفتـوح القديم ، تجاه زيادة الجامع الحاكمى .

ومن حقوق هذا الاصطبل أيضـا الموضع الذى فيه الآن القيسارية المعروفة بقيسـارية الست ، التى هى اليوم تجاه المدرسة الصيرميه والجملون الصغير . وكانت بهذا الاصطبـل خيـول الصـبيان الحجرية ، احدى طوائف العساكر فى زمن الخلفاء الفاطميين * .

ذكر مطبخ القصر

وكان بجوار القصر الغربى ، قبـالة باب الزهومة من القصر الكبير ، مطبخ القصر وموضعه الآن الصاغة تجاه المدارس الصالحية . ولما كانت مطبخا كان يخرج اليـه من باب الزهـومة . وذكر ابن عبـد الظاهر أنه كان يخرج من المطبخ المذكور ، مدة شهر رمضان ، ألف ومائتا قدر من جميع ألوان الطعـام ، نفرق كل يوم على أرباب الرسوم والضعفاء .

درب السلسلة : وكان بجوار مطبخ القصر درب السلسلة .

قال ابن الطوير : ويبيت خارج باب القصر فى كل ليلة خمسون فارسا . فاذا أذن بالعشاء الآخرة داخل القـاعة ، وصلى الامام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركنـدى ، فاذا علم بفراغ الصـلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق ، ولواحقهما من عدة وافرة ، بطرائق مستحسنة مدة ساعة زمانية .

ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام ، فيصقع ويغرس حربة على الباب ، ثم يرفعها بيده ، فاذا رفعها أغلق البـاب ، وسار حوالى القصر سبع دورات .

فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البيـاتين والفراشين المقدم ذكرهم ، وانصرف المؤذنون الى خزائنهم هنـاك ، وترمى السلسلة عنـد المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين فينقطع المار من ذلك المكان الى أن تضرب النوبة سحرا قرب الفجر ، فتنصرف النـاس من هناك بارتفاع السلسلة .

وقال ابن عبـد الظـاهر : درب السلسلة الذى هو الآن الى جانب السيوفيين ، كانت عنده سلسلة منه الى قبالته تعلق كل يوم من الظهر حتى لا يعبر راكب تحت القصر . وهذا الدرب يعرف بسنان الدولة بن الكركندى . وهذا الدرب هو المختص بالتقفيزة .

(*) ص٤٦١ جـ١ ، ط. بولاق .

وهذه التقفيزة أمرها مستظرف ، لا من قبل الحسن بل من قبل التعجب من العقول ، ولها خمسة أوقات ، وهى : ليالى العيدين ، وغرة السنة ، وغرة شهر رمضان ، ويوم فتح الخليج .

وهو أنه يقف راكبا فى وسط الزلاقة التى لباب الذهب قبالة الدار القطبية ، فيخرج اليه السلام من الخليفة ، ثم يخدم الرهجية ، ثم يصعد على كندرة باب الزهومة وقدامه دواب المظلة يمنة ويسرة ، والرهجية تخدم ، وأرباب الضوء ومستخدمو الطرق على السلسلة .

فاذا كان الطرف وصلوا اليه ، واجتمعت الرهجية كلهم ، وركب فرسا وعليه ثياب حسنة ، وكشف عن راياته وأخذ بيده رمحا ، واجتمعت الرهجية حوله ، ويعبر مشورا وأولئك خلفه بالصراخ والصياح بشعار الامام ، ثم يسير بذاك الجمع وخيل المظلة الى أبواب القصر ، فيقف عند كل باب تندم الرهجية الى أن يعودوا الى باب الذهب ، ثم الى دار الوزارة للهناء .

فلم يزالوا كذلك الى ولاية ابن الكركندى فبطلت هذه السنة فى الأيام الآمرية .

وصاحب التقفيزة ممن وصل آباؤه صحبة المعز لدين الله من بلاد المغرب . فكانت هذه سنتهم .

ذكر الدار المأمونية

وكان بجوار درب السلسلة الدار المأمونية وهى المدرسة السيوفية . وكانت هذه الدار سكن المأمون بن البطائحى ، وعرفت قديما بقوام الدولة حبوب ، ثم جددها المأمون محمد ابن فاتك .

المأمون البطائحى : هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك بن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى . اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش فى شهر شوال سنة احدى وخمسمائة عندما تغير على تاج المعالى مختار الذى كان اصطنعه وفخم أمره وسلم اليه خزائن أمواله وكسواته ، وسلم ما كان بيده من الخدمة لمحمد بن فاتك ، فتصرف فيها .

وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين خاصة دون الاقطاع ، وهو مائة دينار فى كل شهر ، وثلاثون دينارا عن جارى الخزائن ، مضافا الى الأصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهة .

فحسن عند الأفضل موقع خدمته ، فاعتمد عليه ، وسلم له جميع أموره ، وصرفه فى كل أحواله . فلما كثر عليه الشغل ، استعان باخويه أبى تراب حيدرة وأبى الفضل جعفر ، فأطلق الأفضل لهما ما وسع به عليهما من المياومة والمشاهرة والمسانهة . ونعته الأفضل بالقائد ، فصار يخاطب بالقائد ويكاتب به ، وصار عنده بمنزلة الأستادار .

فلما قتل الأفضل ليلة عيد الفطر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، قام القائد أبو عبد الله بن فاتك لخدمة الخليفة الآمر بأحكام الله ، وأطلعه على أموال الأفضل ، وبالغ فى مناصحته حتى لقد اتهم أنه هو الذى دبر فى قتل الأفضل باشارة الخليفة *.

(*) ص٤٦٢ جـ١ ، ط. بولاق .

فخلع عليه الآمر فى مستهل ذى القعدة بمجلس اللعبة من القصر ، وهو المجلس الذى يجلس فيه الخليفة ، ولم يخلع قبله على أحد فيه ، وحل المنطقة من وسطه ، وخلع على ولده وحل منطقته ، وخلع على اخوته .

واستمر تنفيذ الأمور اليه الى أن استهل ذو الحجة . ففى يوم الجمعة ثانيه خلع عليه من الملابس الخاص ، فى فرد كم مجلس اللعبة ، طوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك ، وسلم على الخليفة .

وتقدم الأمر للأمراء وكافة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه ، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل يركب منه ، ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه ، وخرج بتشريف الوزارة ، ودخل من باب العيد راكبا . ووصل الى داره ، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات .

فلما كان يوم الاثنين خامسه ، اجتمع الأمراء بين يدى الخليفة ، وأحضر السجل فى لفافة خاص مذهبة ، فسلمه الخليفة له من يده ، فقبله وسلمه لزمام القصر ، فأمره الخليفة بالجلوس الى جانبه عن يمينه ، وقرىء السجل على باب المجلس . وهو أول سجل قرىء هنالك ، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان .

ورسم للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست ، أن ينقل نسبة الأمراء والمحنكين من الآمرى الى المأمونى ، وكذا الناس أجمع . ولم يكن أحد ينتسب الى الأفضل ولا لأمير الجيوش . وقدمت له الدواة فعلم فى مجلس الخليفة .

ونعت بالسيد الأجل المأمون تاج الخلافة ، ووجيه الملك فخر الصنائع ، ذخر أمير المؤمنين عز الاسلام ، فخر الأنام نظام الدين ، أمير الجيوش ، سيف الاسلام ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين .

وكان يجلس بداره فى يومى الأحد والأربعاء للراحة والنفقة فى العسكر البساطية الى الظهر ، ثم يرفع النفقة ويحط السماط ، ويجلس بعد العصر والكتاب بين يديه ، فينفق فى الراجل الى آخر النهار .

وفى يوم الجمعة يطلق للمقرئين بحضرته خمسة دنانير ، ولكل من هو مستمر القراءة على بابه من الضعفاء والأجراء مما هو ثابت بأسمائهم خمسمائة درهم ، ولبقية الضعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى . فاذا توجه يوم الجمعة الى القرافة يكون المبلغ المذكور مستقرا لأربابه .

ولم يزل الى ليلة السبت الرابع من رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، فقبض الآمر المذكور عليه وعلى اخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله واعتقله ، ثم صلبه مع اخوته فى سنة اثنتين وعشرين .

قيل ان سبب القبض عليه ما بلغ الآمر عنه أنه بعث الى الأمير جعفر بن المستعلى يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه فى الخلافة . وكان الذى بلغ الآمر ذلك الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة . وبلغه أيضا عنه أنه سير نجيب الدولة أبا الحسن الى اليمن ليضرب سكة عليها الامام المختار محمد بن نزار . وذكر عنه أنه سم شيئا ودفعه لقصاد الخليفة فنم عليه القصاد .

وكان مولد المأمون فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول ، كريما واسع الصدر سفاكا للدماء ، كثير التحرز والتطلع الى معرفة أحوال الناس من العامة والجند ، فكثر الوشاة فى أيامه .

حبس المعونة : وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة ، وموضعه اليوم قيسارية العنبر .

قال ابن المأمون : فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تقدم أمر المأمون الى الواليين بمصر والقاهرة باحضار عرفاء السقائين ، وأخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا ، وكذلك يعتمد فى القربيين ، وأن يبيتوا على باب كل معونة ومعهم عشرة من الفعلة بالطوارى والمساحى ، وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما بحكم فقرهم ... انتهى .

وكان حبس المعونة هذا يسجن فيه أرباب الجرائم كما هو اليوم السجن المعروف بخزانة شمائل ، وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود كما تقدم . ولم يزل هذا الموضع سجنا مدة الدولة الفاطمية ومدة دولة بنى أيوب ... الى أن عمره الملك المنصور قلاوون قيسارية ، أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ثمانين وستمائة

ذكر الحسبة ودار العيار

وكان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة ، ومكانها اليوم يعرف بالأبازرة ومكسر الحطب ، بجوار سوق القصارين والفحامين

قال ابن الطوير : وأما الحسبة فان من تسند اليه لا يكون الا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، لأنها خدمة دينية ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم ، وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم .

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره ، وكذلك الطباخون ، ويتتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم * .

ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية — ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا ، كل دلو أربعون رطلا — وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق ، وينذرون معلمى المكاتب بألا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل ، وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ، ويقفون على من يكون سيىء المعاملة فينهونه بالردع والأدب ، وينظرون المكاييل والموازين

وللمحتسب النظر فى دار العيار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة اذا رآها ، والولاة تشد معه اذا احتاج الى ذلك ، وجاريه ثلاثون دينارا فى كل شهر ... انتهى .

(*) ص٤٦٣ جـ١ ، طبعة بولاق .

وكان للعيار مكان يعرف بدار العيار تعير فيه الموازين بأسرها وجميع الصنج . وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانى فيما تحتاج اليه من الأصناف ، كالنحاس والحديد والخشب والزجاج ، وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم . ويحضر المحتسب أو نائبه الى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره ، فان صح ذلك أمضاه ، والا أمر باعادة عمله حتى يصح .

وكان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار ، فلا تباع الصنج والموازين والأكيال الا بهذه الدار ، ويحضر جميع الباعة الى هذه الدار باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم ، فتعير فى كل قليل . فان وجد فيها الناقص استهلك ، وأخذ من صاحبه لهذه الدار ، وألزم بشراء نظيره مما هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنه . ثم سومح الناس ، وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل باصلاح ما فيها من فساد فقط ، والقيام بأجرته فقط .

وما زالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية . فلما استولى صلاح الدين على السلطنة ، أقر هذه الدار ، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار . وما زالت هذه الدار باقية .

اصطبل الجميزة : وكان بجوار القصر الغربى من قبليه اصطبل الجميزة ، من جانب باب الساباط الذى هو الآن باب سر المارستان المنصورى . وقيل له اصطبل الجميزة من أجل أنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة .

وكان موضع هذا الاصطبل تجاه من يخرج من باب الساباط ، فينزل من الحدرة التى هى الآن تجاه باب سر المارستان المتوصل منها الى حارة زويلة ، ويمتد فيما حاذاه يسارك اذا وقفت بأول هذه الحدرة حيث الطاحون الكبيرة التى هى الآن فى أوقاف المارستان وما وراءها ، ويحاذيها الى الموضع المعروف اليوم بالبندقانيين .

وكانت بئره تعرف ببئر زويلة ، وعليها ساقية تنقل الماء لشرب الخيول . وموضع هذه البئر اليوم قيسارية تعرف بقيسارية يونس تجاه درب الأنجب . وقد شاهدت هذه البئر لما أنشأ الأمير يونس الدوادار هذه القيسارية والربع علوها ، فرأيت بئرا كبيرة جدا ، وقد عقد على فوهتها عقد ركب فوقه بعض القيسارية ، وترك منها شىء . ومنها الآن الناس تسقى بالدلاء .

وما زال هذا الاصطبل باقيا الى أن انقرضت الدولة الفاطمية فحكر ، وبنى فى مكانه الآدر التى هى موجودة الآن ، وحكره جار فى أوقاف الصلاح الأزبكى . وقد تقدم ذكر هذا الاصطبل عند ذكر اصطبل الطارمة ، فانظر رسومه هناك .

دار الديباج : وكان بجوار اصطبل الطارمة من غربيه دار الديباج ، وهى حيث المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب ، وما جاورها من جانبها وما خلفها الى الوزيرية ، وكانت هى دار الوزارة القديمة .

وأول من أنشأها الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس وزير العزيز بالله ، ثم سكنها الوزير

الناصر للدين ، قاضي القضاة وداعي الدعاة ، علم المجد أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوری .

وما زالت سكن الوزراء الى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا ، ووزره المستنصر ، وصار وزيرا مستبدا ، فأنشأ داره بحارة برجوان وسكنها ، وسكن من بعده ابنه الأفضل بن أمير الجيوش بدار القباب التى عرفت بدار الوزارة الكبرى .

وصارت هذه الدار تعرف بدار الديباج ، لأنه يعمل فيها الحرير الديباج ، ويتولاها الأماثل والأعيان . فمن وليها أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح وخزائن السروج والصناعات .

فلما انقرضت الدولة الفاطمية ، بنى الناس فى مكان دار الديباج المدرسة السيفية ، وما وراءها من المواضع التى تعرف أماكنها اليوم بدرب الحريرى ، وما جاور هذا الدرب الى المدرسة الصاحبية وما بجوارها وما هو فى ظهرها . فصار يعرف خط دار الديباج فى زمننا بخط سويقة الصاحب .

الأهراء السلطانية : وكانت أهراء الغلال السلطانية ، فى دولة الخلفاء الفاطميين ، حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل ، وما وراءها الى قرب الحارة الوزيرية .

قال ابن الطوير : وأما الأهراء فانها كانت فى عدة * أماكن بالقاهرة هى اليوم اصطبلات ومناخات ، وكانت تحتوى على ثلثمائة ألف اردب من الغلات وأكثر من ذلك . وكان فيها مخازن يسمى أحدها بغداى ، وآخر الفول ، وآخر القرافة .

ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العدول ، والمراكب واصلة اليها بأصناف الغلات الى ساحل مصر وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك اليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية ، وأكثر ذلك من الوجه القبلى .

ومنها اطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد ، وجرايات العبيد السودان بتعريفات ، وما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة . وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو حتى لا تقارب زبل الدواب ، ويحمل دقيقها للخاص ، وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية .

ومن الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول — وفيها ما هو قديم يقطع بالمساحى ، ويخلط فى بعض الجرايات بالجديد بجرايات المذكورين — وجرايات السودان ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة لأخباز الرسل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول .

فلا يفتر مستخدموها من دخل وخرج ، ولهم جامكية مميزة وجرايات برسم أقواتهم وشعير لدوابهم . وما يقبض من الواصلين بالغلال الا ما يماثل العيون المختومة معهم ، والا ذرى وطلب العجز بالنسبة .

(*) ص٤٦٤ جـ١ ، ط. بولاق .

وذكر ابن المأمون أن غلات الوجه القبلي كانت تحمل الى الأهراء . وأما الأعمال البحرية والبحيرة والجزيرتان والغربية والكفور والأعمال الشرقية ، فيحمل منها اليسير ، ويحمل باقيها الى الاسكندرية ودمياط وتنيس ، ليسير الى ثغر عسقلان وثغر صور . وأنه كان يسير اليهما فى كل سنة مائة وعشرون ألف اردب : منها لعسقلان خمسون ألفا ، ولصور سبعون ألفا ، فيصير هناك ذخيرة ، ويباع منها عند الغنى عنها .

قال : وكان متحصل الديوان فى كل سنة ألف ألف اردب .

وذكر جامع السيرة البازورية أن المتجر كان يقام به للديوان من الغلة ، وأن الوزير أبا محمد البازورى قال للخليفة المستنصر — وهو يومئذ يتقلد وظيفة قاضى القضاة ، وقد قصر النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية غلال فاشتدت المسغبة — يأمير المؤمنين ، ان المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين وربما أقحط السعر من مشتراها ، ولا يمكن بيعها ، فتتغير فى المخازن وتتلف . وانه يقام متجر لا كلفة فيه على الناس ، ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغير فى المخازن ولا انحطاط سعر ، وهو الصابون والخشب والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك .

فأمضى الخليفة ما رآه ، واستمر ذلك ، ودام الرخاء على الناس وتوسعوا .

ذكر المناظر التى كانت للخلفاء الفاطميين ومواضع نزههم وما كان لهم فيها من أمور جميلة

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة ، وكانت لهم عدة متنزهات أيضا .

فمن مناظرهم التى بالقاهرة : منظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة التاج والخمس وجوه ، ومنظرة الصناعة بمصر ، ودار الملك ومنازل العز والهودج بالروضة ، ومنظرة بركة الحبش والأندلس بالقرافة ، وقبة الهواء ، ومنظرة السكرة .

وكان من متنزهاتهم : كسر خليج أبى المنجا ، وقصر الورد بالخرقانية ، وبركة الجب .

منظرة الجامع الأزهر : وكان بجوار الجامع الأزهر من قبليه منظرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالى الوقود .

ذكر ليالى الوقود

قال المسيحى فى حوادث شهر رجب من سنة ثمانين وثلثمائة : وفيه خرج الناس فى لياليه ، على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف ، الى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر)

عوضا عن القرافة ، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة ، والأطعمة والحلوى ، والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها .

وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت اليه سلال الحلوى والطعام ، وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والناحة . وأقام الى نصف الليل ، وانصرف الى داره بعد أن قدم الى من معه أطعمة من عنده وبخرهم .

وقال فى شعبان : كان الناس فى كل ليلة جمعة وليلة النصف ، على مثل ما كانوا عليه فى رجب وأزيد . وفى ليلة النصف من شعبان كان * للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين ، وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ، ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء ، وحمل اليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى والبخور ، فكان جمعا عظيما .

قال : وفى شهر رجب سنة اثنتين وأربعمائة ، قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى يقام فى هذه الثلاثة الأشهر لمن يبيت بجامع القاهرة فى ليالى الجمع والأنصاف ، وحضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى الى جامع القاهرة ليلة النصف من رجب ، واجتمع الناس بالقرافة على ما جرت به رسومهم من كثرة اللعب والمزاح .

روى الفاكهى فى كتاب « مكة » أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يصيح فى أهل مكة ويقول : ياأهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم ، فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت الله ، واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا .

وكان الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة ، فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب ، فيحرسوا عمار أهل اليمن ، ففعلوا ذلك فى ولايته ، ثم تركوه بعد . وفى ليلة النصف من رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة ، حضر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله ومعه السيدات ، وخدم الخاصة وغيرهم وسائر العامة والرعايا ، فجلس الخليفة فى المنظرة .

وكان فى ليلة شعبان أيضا اجتماع لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله ، وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد ، وكان مشهدا عظيما بعد عهد الناس بمثله ، لأن الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله .

وقال ابن المأمون : ولما كانت ليلة مستهل رجب (يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة) عملت الأسمطة الجارى بها العادة ، وجلس الخليفة الآمر بأحكام الله عليها ، والأجل المأمون الوزير ومن جرت عادته بين يديه .

وأظهر الخليفة من المسرة والانشراح ما لم تجر به عادته ، وبالغ فى شكر وزيره واطرائه ، وقال : قد أعدت لدولتى بهجتها ، وجددت

(*) ص٤٦٥ جـ١ ، ط . بولاق .

فيها من المحاسن ما لم يكن . وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك ، وبقيت الليالي — وقد كان بها مواسم قد زال حكمها ، وكان فيها توسعة وبر ونفقات — وهي ليالي الوقود الأربع ، وقد آن وقتهن ، فأشتهى نظرهن .

فامتثل الأمر ، وتقدم بأن يحمل الى القاضي خمسون دينارا يصرفها فى ثمن الشمع وأن يعتمد الركوب فى الأربع الليالي — وهي ليلة مستهل رجب ، وليلة نصفه ، وليلة مستهل شعبان ، وليلة نصفه — وأن يتقدم الى جميع الشهود بأن يركبوا صحبته ، وأن يطلق للجوامع والمساجد توسعة فى الزيت برسم الوقود ، ويتقدم الى متولى بيت المال بأن يهتم برسم هذه الليالي من أصناف الحلاوات ، مما يجب برسم القصور ودار الوزارة خاصة .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : وفى الليلة التى صبيحتها مستهل رجب ، حضر القاضي أبو الحجاج يوسف بن أيوب المغربى ، ووقع له بما استجد اطلاقه فى العام الماضى ، وهو خمسون دينارا من بيت المال لابتياع الشمع برسم أول ليلة من رجب .

واستدعى ما هو برسم التعبيتين : احداهما للمقصورة ، والأخرى للدار المأمونية — بحكم الصيام من مستهل رجب الى سلخ رمضان — ما يصنع فى دار الفطرة خشكنانج صغير وبسندود ، فى كل يوم قنطار سكر ومثقالا مسكا وديناران مؤونة .

وكان يطلق فى أربع ليالي الوقود — برسم الجوامع الستة الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولوني والعتيق بمصر وجامع القرافة ، والمشاهد التى تضمنت الأعضاء الشريفة ، وبعض المساجد التى لأربابها وجاهة — جملة كبيرة من الزيت الطيب . ويختص بجامع راشدة ، وجامع ساحل الغلة بمصر ، والجامع بالمقس ، يسير .

قال : ولقد حدثنى القاضي المكين بن حيدرة ، وهو من أعيان الشهود ، أن من جملة الخدم التى كانت بيده مشارفة الجامع العتيق ، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة الى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة ، وأن المطلق برسمه خاصة ، فى كل ليلة برسم وقوده ، أحد عشر قنطارا ونصف قنطار زيت طيب .

وذكر ركوب القاضي والشهود فى الليلة المذكورة على جارى العادة قال : وتوجه الوزير المأمون يوم الجمعة ثانى الشهر بموكبه الى مشهد السيدة نفيسة وما بعده من المشاهد ، ثم الى جامع القرافة ، وبعده الى الجامع العتيق بمصر . وقد عم معروفه جميع الضعفاء وقومة المساجد والمشاهد ، وصلى الجمعة .

وعند انقضاء الصلاة ، أحضر اليه الشريف الخطيب المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فوقع باطلاق ألف دينار من ماله ، وأن يصاغ عليه فوق حلية الفضة حلية ذهب ، وكتب عليه اسمه .

وفى الخامس عشر من الشهر المذكور ليلة الوقود ، جرى الحال فى ركوب القاضي وشهوده على الترتيب الذى تقدم فى أول الشهر . ولما وصل الى الجامع وجده قد

عبى في الرواق الذى عن يمين الخارج منه ، سماط كعك وخشكنانج وحلوى ، فجلس عليه بشهوده * ، ونهبه الفقراء والمساكين . وتوجه بعده الى ما سواه من جامع القرافة وغيره ، فوجد في رواق الجامع المذكور سماطا مثل السماط المذكور ، فاعتمد فيه على ما ذكر . وله أيضا رسم صدقة في هذا النصف للفقراء وأهل الربط ، مما يفرقه القاضى ، عشرة دنانير يفرقها القاضى .

وقال ابن الطوير : اذا مضى النصف من جمادى الآخرة — وكان عدده عندهم تسعة وعشرين يوما — أمر أن يسبك في خزائن دار أفتكين ستون شمعة ، وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى ، وحملت الى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب .

فاذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم ، اهتم الشهود أيضا ، فمنهم من يركب بثلاث شمعات الى ثنتين الى واحدة . ويمضى أهل مصر منهم الى القاهرة ، فيصلون المغرب في الجوامع والمساجد ، ثم ينتظرون ركوب القاضى .

فيركب من داره بهيئته ، وأمامه الشمع المحمول اليه موقودا مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى ، من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ .

وينطب في حجبته ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من الحجاب ، خارجا عن حجاب الحكم المستقرين وعدتهم خمسة في زى الأمراء ، وفي ركابه القراء يطربون بالقراءة ، والشهود وراءه على الترتيب في جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم ، وحوالى كل واحد ما له من شمع .

فيشقون من أول شارع فيه دار القاضى الى بين القصرين . وقد اجتمع من العالم في وقت جوازهم ما لا يحصى كثرة ، رجالا ونساء وصبيانا ، بحيث لا يعرف الرئيس من المرؤوس . وهو مار الى أن يأتى هو والشهود باب الزمرذ من أبواب القصر ، في الرحبة الوسيعة ، تحت المنظرة العالية ، في السعة العظيمة من الرحبة المذكورة ، وهى التى تقابل درب قراصيا .

فيحضر صاحب الباب ووالى القاهرة والقراء والخطباء ، كما شرحنا في المواليد الستة ، ويترجلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ، ويبين شخصه ، ويحضر بين يديه الخطباء الثلاثة ويخطبون كالمواليد ، ويذكرون استهلال رجب ، وأن هذا الركوب علامته ، ثم يسلم الأستاذ من الطاقة الأخرى استفتاحا وانصرافا كما ذكرنا .

ثم يركب الناس الى دار الوزارة ، فيدخل القاضى والشهود الى الوزير ، فيجلس لهم في مجلسه ، ويسلمون عليه ، ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ، ويدعون له ويخرجون عنه . فيشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع بها ويصلى ركعتين .

ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام ، ووالى القاهرة في خدمته اليوم ،

(*) ص٤٦٦ جـ١ ، ط.بولاق .

مستكثرا من الأعوان والحفظة فى الطرقات ، الى جامع ابن طولون ، فيدخل القاضى اليه للصلاة ، فيجد والى مصر عنده للقاء القوم وخدمنهم ، فيدخل المشاهد التى فى طريقه أيضا .

فاذا وصل الى باب مصر ترتب كما ترتب فى القاهرة ، وصار شاقا الشارع الأعظم الى باب الجامع من الزيادة التى يحسكم فيها ، فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقا فيه وكان مليحا فى شكله وتعليقه ، غير منافر فى الطول والعرض ، واسع التدوير ، فيه عشر مناطق فى كل منطقة مائة وعشرون براقة ، وفيه سروات بارزة مثل النخيل ، فى كل واحدة عدة بزاقات ، تقرب عدة ذلك من ثلثمائة ، ومعلق بدائر سفله مائة قنديل نجومية .

ويخرج له الحاكم فان كان ساكنا بمصر استقر بها ، وان كان ساكنا بالقاهرة وقف له والى القاهرة بجامع ابن طولون ، فيودعه والى مصر ، ويسير معه والى القاهرة الى داره .

فاذا مضى من رجب أربعة عشر يوما ، ركب ليلة الخامس عشر كذلك ، وفيه زيادة طلوعه — بعد صلاته بجامع مصر — الى القرافة ليصلى فى جامعها ، والناس يجتمعون له لينظروه ومن معه فى كل مكان ، ولايملون من ذلك .

فاذا انقضت هذه الليلة ، استدعى منه الشمع ليكمل بعضه ، حتى يركب به فى أول شعبان ونصفه على الهيئة المذكورة ... والأسواق معمورة بالحلواء ، ويتفرغ الناس لذلك هذه الأربع الليالى .

منظرة اللؤلؤة : وكان للخلفاء الفاطميين منظرة — تعرف بقصر اللؤلؤة ، وبمنظرة اللؤلؤة — على الخليج بالقرب من باب القنطرة . وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة ، فانه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج .

وكان غربى الخليج اذ ذاك ليس فيه من المبانى شىء ، وانما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة ، فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبليها ، ويرى بحر النيل من وراء البساتين .

قال ابن ميسر : هذه المنظرة بناها العزيز بالله . ولما ولى برجوان وزارة الحاكم بأمر الله ، بعد أمين الدولة ابن عمار الكتامى ، سكن بمنظرة اللؤلؤة فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة الى أن قتل .

وفى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة ، أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها ، فهدمت ونهبت وبيع ما فيها

وقال المسيحى * : وفى سادس عشرى ربيع الآخر (يعنى سنة اثنتين وأربعمائة) أمر الحاكم بأمر الله بهدم الموضع المعروف باللؤلؤة على الخليج موازاة المقس ، وأمر بنهب أنقاضه ، فنهبت كلها ، ثم قبض على من وجد عنده شىء من نهب أنقاض اللؤلؤة واعتقلوا .

(*) ص٦٧، جـ١ ، ط. بولاق .

وقال ابن المأمون : ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة والمقام فيها مدة النيل على الحكم الأول (يعنى قبل وزارة أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل) أمر بازالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء .

ولما بدت زيادة النيل ، وعول الخليفة الآمر بأحكام الله على السكن باللؤلؤة ، أمر الأجل الوزير المأمون بأخذ جماعة الفراشين ، الموقوفين برسم خدمتها ، بالمبيت بها على سبيل الحراسة لا على سبيل السكن بها ، وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر باخراج الخيم .

وعندما قارب النيل الوفاء ، تحول الخليفة فى الليل من قصوره ، بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته ، الى اللؤلؤة ، وتحول المأمون الى دار الذهب ، وأسكن الشيخ أبا الحسن محمد بن أبى أسامة الغزالة على شاطىء الخليج ، وسكن حسام الملك حاجب الباب داره على الخليج .

وأمر متولى المعونة أن يكشف الآدر المطلة على الخليج قبلى اللؤلؤة ، ولا يسكن أحدا من السكن فى شىء منها الا من كان له ملك ، ومن كان ساكنا بالأجرة ينقل ، ويقام بالأجرة لرب الملك ليسكن بها حواشى الخليفة مدة سنة . .

وقرر من التوسعة فى النفقات ، وما يكون برسم المستخدمين فى المبيتات ، ما يختص برواتب القصور مدة المقام فى اللؤلؤة فى أيام النيل ، مياومة من الغنم والحيوان وجميع الأصناف ، وهى جملة كبيرة . وأمر متولى الباب أن ينـدب فى كل يوم خروف شـواء وقنطار خبز .

وكذلك جميع الدروب من يحرسها ، ويطلق لهم برسم الغداء مثل ذلك ، وتكون نوبة دائرة بينهم ، وبقية مستخدمى الركاب ملازمون لأبواب القصر على رسمهم ، وفى يومى الركوب يجتمعون للخدمة الا من هو فى نوبته فيما رسم له .

وأمر متولى زمام المماليك الخاص أن يكونوا بأجمعهم حيث يكون الخليفة ، وفى الليل يبيت منهم عدة برسم الخدمة حتى اللؤلؤة ، ولهم فى كل يوم مثل ما تقدم . والرهجية تقسم قسمين : أحدهما على أبواب القصور ، والآخر على أبواب اللؤلؤة ، وأصحاب الضوء مثل ذلك .

وقرر للجماعة المقدم ذكرها فى الليل ، عن رسم المبيت وعن ثمن الوقود ، ما يخرج اليهم مختوما بأسماء كل منهم . ويعرضهم متولى الباب فى كل ليلة بنفسه عند رواحه وعوده .

وكذلك ما يختص بدار الذهب من الحرس عليها من باب سعادة ومن باب الخوخة ، ولهم رسوم كما تقدم لغيرهم ، والمتفرجون يخرجون كل ليلة للنزهة عليهم ، ويقيمون الى بعض الليل حتى ينصرفوا ، من غير خروج فى شىء من ذلك عما يوجبه الشرع .

وفى يومى السلام يمضى الخليفة من قصوره بحيث لا يراه الا أستاذوه وخواصه ، الى قاعة الذهب من القصر الكبير الشرقى ، ويحضر الوزير على عادته اليه ... فيكون السلام بها على مستمر العادة ، والأسمطة بها

فى يومى الاثنين والخميس ، وتكون الركوبات من اللؤلؤة فى يومى السبت والثلاثاء الى المتنزهات .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : ولما جرى النيل ، وبلغ خمسة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج ، وتحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة بحاشيته .

وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف . وانضاف اليها ما يطلق كل ليلة عينا وورقا وأطعمة للبياتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار والسهر فى طول الليل ، من باب القنطرة بما دار الى مسجد الليمونة ، من التزين من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب ... كل طائفة بنقيبها . والعرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة ، ولا يمكن بعضهم بعضا من المنام ، والرهجية تخدم على الدوام .

وتحول الوزير المأمون الى دار الذهب ، وأطلقت التوسعة ، والحال فى اطلاق الأسمطة لهم فى الليل والنهار مستمر .

وقال ابن عبد الظاهر : المنظرة المعروفة باللؤلؤة على بر الخليج . بناها الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم (يعنى بعد ما هدمها أبوه الحاكم) ، وكانت معدة لنزهة الخلفاء ، وكان التوصل اليها من القصر (يعنى القصر الغربى) من باب مراد وأظنه ، فيما ذكره لى علم الدين بن مماتى الوراق ، أنه شاهد فى كتب دار ابن كوخيا العتيقة أنه بابها .

وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل . ولما حصل التوهم من النزارية والحشيشية قبل تصرفهم — لا سيما لصغر سن الخليفة وقلة حواشيه — أمر بسد باب مراد المذكور ، الذى يتوصل منه الى الكافورى والى اللؤلؤة ، وأسكن فى بعضها فراشين لحفظها .

فاذا كان فى صبيحة كسر الخليج ، استؤذن الأفضل بن أمير الجيوش فى فتح باب مراد ، الذى يتوصل منه الى اللؤلؤة وغيرها ، فيفتح ويروح الخليفة ليتفرج هو وأهله من النساء ، ثم يعود ويسد الباب ... هذا الى آخر أيام الأفضل . فلما راجع الوزير المأمون فى ذلك سارع * اليه ، فأصلحت وأزيل ما كان أنشىء فبالتها على ما سيذكر فى مكانه ان شاء الله تعالى . اهـ .

ومات بقصر اللؤلؤة من خلفاء الفاطميين الآمر باحكام الله ، والحافظ لدين الله ، والفائز وحملوا الى القصر الكبير الشرقى من السراديب

ولما قدم نجم الدين أيوب بن شادى من الشام على ولده صلاح الدين يوسف ، وخرج الخليفة العاضد لدين الله الى لقائه بصحراء الهليلج بآخر الحسينية عند مسجد تبر ، أنزل بمنظرة اللؤلؤة ، فسكنها حتى مات فى سنة سبع وستين وخمسمائة .

واتفق أن حضر يوما عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمنى ، والرضى أبو سالم يحيى

(*) ص٤٦٨ جـ١ ، طـ. بولاق .

الأحدب بن أبى حصيبة الشاعر فى قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد ، فأنشد ابن أبى حصيبة نجم الدين أيوب فقال :

يامالك الأرض لا أرضى له طرفا
منها وما كان منها لم يكن طرفا

قد عجل الله هذى الدار تسكنها
وقد أعد لك الجنات والغرفا

تشرفت بك عمن كان يسكنها
فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا

كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة
وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فقال الفقيه عمارة يرد عليه :

أثمت يامن هجا السادات والخلفا
وقلت ما قلته فى ثلبهم سخفا

جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة
والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا

وانما هى دار حل جوهرهم
فيها وشف فأسناها الذى وصفا

فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها
وكونها حوت الأشراف والشرفا

فهم بسكناهم الآيات اذ سكنوا
فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا

والجوهر الفرد نور ليس يعرفه
من البرية الا كل من عرفا

لولا تجسمهم فيه لكان على
ضعف البصائر للأبصار مختطفا

فالكلب ياكلب أسنى منك مكرمة
لأن فيه حفاظا دائما ووفا

فلله در عمار ، لقد قام بحق الوفاء ، ووفى بحسن الحفاظ كما هى عادته . لا جرم أنه قتل فى واجب من يهوى كما هى سنة المحبين . فالله يرحمه ويتجاوز عنه .

منظرة الغزالة : وكان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة تعرف بالغزالة على شاطىء الخليج ، تقابل حمام ابن قرقة ، وقد خربت هذه المنظرة أيضا ، وموضعها الآن تجاه باب جامع ابن الغربى الذى من ناحية الخليج .

وقد خربت أيضا حمام ابن قرقة ، وصار موضعها فندقا بجوار حمام السلطان التى هناك يعرف بفندق عماد .

وموضع منظرة الغزالة اليوم ربع ، يعرف بربع غزالة ، الى جانب قنطرة الموسكى فى الحد الشرقى .

وكان يسكن بهذه المنظرة الأمير أبو القاسم بن المستنصر والد الحافظ لدين الله ، ثم سكنها أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست ، وكان بعد ذلك ينزلها من يتولى الخدمة فى الطراز أيام الخلفاء .

قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة : وأسكن الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة ، كاتب الدست ، الغزالة التى على شاطىء الخليج ، ولم يسكن

أحد فيها قبله ممن يجرى مجراه ، ولا كانت الا سكن الأمير أبى القاسم ولد المستنصر والد الامام الحافظ .

قال : وأما ما يذكره الطراز فالحكم فيه مثل الاستيمار . والشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد وثلاثين ألف دينار ، فمن ذلك السلف خاصة خمسة عشر ألف دينار ، قيمة الذهب العراقي والمصرى ستة عشر ألف دينار . ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى الأيام الآمرية .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى الطراز ، وينعت بالطراز الشريف ، ولا يتولاه الا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف ، وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما ، وجاريه أمير الجوارى ، وبين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى ، وله عشارى دتماس مجرد معه ، وثلاثة مراكب من الدكاسات ، ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ، ونفقاتهم جارية من مال الديوان .

فاذا وصل بالاستعمالات الخاصة التى منها المظلة وبدلتها والبدنة واللباس الخاص الجمعى وغيره ، هيىء بكرامة عظيمة ، وندب له دابة من مراكب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود الى خدمته ، وينزل فى الغزالة على شاطىء الخليج — وكانت من المناظر السلطانية ، وجددها شعاع بن شاور — ولو كان لصاحب الطراز فى القاهرة عشر دور لا يمكن من نزوله الا بالغزالة ، وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة .

فيتمثل * بين يدى الخليفة بعد حمل الأسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ، ويعرض جميع ما معه ، وهو ينبه على شيء فشيء بيد فراشى الخاص فى دار الخليفة مكان سكنه ، ولهذا حرمة عظيمة ، ولا سيما اذا وافق استعماله غرضهم . فاذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضره ، سلم لمستخدم الكسوات ، وخلع عليه بين يدى الخليفة باطنا ، ولا يخلع على أحد كذلك سواه ، ثم ينكفىء الى مكانه .

وله فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال ، نائب يعمل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون الا ولدا أو أخا ، فان الرتبة عظيمة ، والمطلق له من الجامكية فى الشهر سبعون دينارا ، ولهذا النائب عشرون دينارا ، لأنه يتولى عنه اذا وصل بنفسه ، ويقوم اذا غاب فى الاستعمال مقامه .

ومن أدواته أنه اذا عبى ذلك فى الأسفاط ، استدعى والى ذلك المكان ليشاهده عند ذلك ، ويكون الناس كلهم قياما لحلول نفس المظلة وما يليها من خاص الخليفة فى مجلس دار الطراز ، وهو جالس فى مرتبته ، والوالى واقف على رأسه خدمة لذلك . وهذا من رسوم خدمته وميزتها .

« دار الذهب » : وكان بجوار الغزالة دار الذهب . وموضعها الآن على يسرة الخارج من باب الخوخة فيما بينه وبين باب سعادة ، وكانت مطلة على الخليج ، وفى مكانها اليوم دار تعرف ببهادر الأعسر . ويقى منها عقد

(*) ص٤٦٩ ج١ ، ط. بولاق .

بجوار دار الأعسر ، يعرف الآن بقبو الذهب ، من خطة بين السورين .

قال ابن المأمون لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله الى اللؤلؤة : ثم أحضر الوزير المأمون وكيله أبا البركات محمد بن عثمان ، وأمره أن يمضى الى دارى الفلك والذهب اللتين على شاطىء الخليج . فالدار الأولى التى من حيز باب الخوخة ، بناها فلك الملك — وذكر أنه من الأستاذين الحاكمية — ولم تكن تعرف الا بدار الفلك .

ولما بنى الأفضل بن أمير الجيوش الدار الملاصقة لها التى من حيز باب سعادة ، وسماها دار الذهب ، غلب الاسم على الدارين ويصلح ما فسد منهما ويضيف اليهما دار الشابورة . وذكر أن هذه الدار لم تسم بهذا الاسم الا لأن جزءا منها بيع فى أيام الشدة فى زمن المستنصر بشابورة .

قال : وعندما قارب النيل الوفاء تحول الخليفة فى الليل من قصوره ، بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته ، الى اللؤلؤة ، وتحول الأجل المأمون بالأجلاء أولاده الى دار الذهب وما أضيف اليها .

وقال ابن عبد الظاهر : دار الذهب بناها الأفضل بن أمير الجيوش . وكانت عادة الأفضل أن يستريح بها : اذا كان الخليفة باللؤلؤة يكون هو بدار الذهب ، وكذلك كان المأمون من بعده . وكان حرس دار الذهب يسلم للوزيرية : من باب سعادة يسلم لهم ، ومن باب الخوخة للمصامدة أرباب الشعور وصبيان الخاص .

وكان المقرر لهم فى كل يوم سماطين : أحدهما بقاعة الفلك للمماليك الخاص والحاشية وأرباب الرسوم ، والآخر على باب الدار برسم المصامدة ... حتى انه من اجتاز ورأى أنه يجلس معهم على السماط لا يمنع ، والضعفاء والصعاليك يقعدون بعدهم ، وفى أول الليل بمثل ذلك . ولكل منهم رسم لجميع من يبيت من أرباب الضوء الى الأعلى .

منظرة السكرة : وكان من جملة مناظر الخلفاء ، منظرة تعرف بمنظرة السكرة ، فى بر الخليج الغربى ، يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ، وكان لها بستان عظيم . بناها العزيز بالله بن المعز .

وقد دثرت هذه المنظرة ، ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس قريبا من قنطرة السد .

وكانت السكرة من جنات الدنيا المزخرفة ، وفيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الأستاذين .

ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : وفى ذى القعدة (يعنى من سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة من بلاد المغرب) ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه .

ثم سار على شاطىء النيل حتى بلغ الى بنى وائل ، ومر على سطح الجرف فى موكب

عظيم ، وخلفه وجوه أهلّ الدولة ، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر يسير معه ، ويعرفه بالمواضع التى يجتاز عليها ، ونجعت له الرعية بالدعاء .

ثم عطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء على الخندق الذى حفره القائد جوهر ، ومر على قبر كافور ، وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسنى وعرفه به ، ثم عاد الى قصره .

وذكر الأمير المسيحى فى تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المعز ، وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز ، وركوب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم ، فى كل سنة لفتح الخليج .

وقال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيم ، وأن يضرب الثوب الكبير الأفضلى المعروف بالقاتول . وهو أعظم ما فى الحاصل : بأربعة دهاليز * وأربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة ، ومساحته على ما ذكر ألف ألف ذراع وأربعمائة ذراع بالذراع الكبير خارجا عن سرادقه ، وعمود القاعة الكبيرة منه ارتفاعه خمسون ذراعا .

ولما كمل استعماله فى أيام الأفضل ونصب ، تأذى منه جماعة ومات رجلان ، فسمى بالقاتول لأجل ذلك . ومازال لا يضرب الا بحضور المهندسين ، وتنصب له أساقيل عدة بأخشاب كثيرة ، والمستخدمون يكرهون ضربه ، ويرغبون فى ضرب أحد الثوبين الجيوشيين ، وان كانا عظيمين الا أنهما لا يصلان بجملتهما الى مقايسته ولا مؤونته ولا صنعته .

وأقام هذا الثوب فى الاستعمال عدة سنين مع جمع الصناع عليه ، وما يضرب منه سوى القاعة الكبيرة لا غير وأربعة الدهاليز وبعض السرادق الذى هو سور عليه ، لضيق المكان الذى يضرب فيه ، وكونه لا يسعه بجملته .

قال : ووصلت كسوة موسم فتح الخليج ، وهى ما يختص بالخليفة وأخيه وبعض جهاته والوزير .

فأما ما يختص بالخليفة خاصة فبدلة ، شرحها :

بدلة طميم منديل سلفه مائة وعشرون دينارا ، وأحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا ، والثانى ثلاثة أذرع سلفه أربعة وعشرون دينارا . ثوب طميم سلفه خمسون دينارا ، والذهب الذى فى الثوب والمنديل والحنك ألف دينار وخمسة دنانير . فتكون جملتها بالسلف ألف دينار ومائة وخمسة وسبعين دينارا .

شاشية طميم للسلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا ، فتكون جملة سلفها وقيمة ذهبها ثمانية دنانير . منديل سلام سلفه ديناران وسبعون قصبة ، قيمته كذلك . وسط برسم المنديل بخوص ذهب سلفه اثنا عشر دينارا وسبعون قصبة ، قيمة ذلك عشرون دينارا . شقة ديبقى وسلطانى حريرى السلف اثنا عشر دينارا . غلالة ديبقى حريرى السلف عشرة دنانير .

(*) ص٤٧٠ جـ١ ، طـ بولاق .

منديل كم مذهب السلف خمسة دنانير ومائتا قصبة وأربع قصبات ذهبا عراقيا ، قيمة ذلك خمسة وعشرون دينارا ، منديل كم ثان حريرى خمسة دنانير ، حجره أربعة دنانير ، عرضى لفافة خاص خمسة دنانير وستة عشر مثقالا ذهبا مصرية ، فتكون سلفه وذهبه خمسة وعشرين دينـــارا ، عرضى ثان برســـم تغطية التخت دينار واحد ونصف .

تخت ثان ضمنه بدلة خاص حريرى برسم العود من السكرة ، شرحها :

منديل حريرى سلفه ستون دينارا ، وسط شرب رسمه اثنا عشر دينارا ، شقة ديبـــقى وكم عشرون دينارا ، شقة وسطانى اثنا عشر دينارا ، غلالة خمسة عشر دينارا ، غلالة عشرة دنانير ، منديل سلام ديناران ، منـــديل كم خمسة دنانير ، منديل كم ثان أيضا خمســـة دنانير ، شاشية حريرى ديناران ، حجره أربعة دنانير ، عرضى لفافة خمسة دنانير ، عـــرضى ثان برسم لفافة التخت دينار واحد ونصف .

قال : ورأيت شاهدا أن قيمة كل حلة من هذه الحلل وسلفها اذا كانت حريرى ثلثمائة وستة دنانير ، واذا كانت مذهبة ألف دينار . واختصر ما باسم أبى الفضـــل جعفـــر أخى الخليفة وأربع جهات .

وأما ما يختص بالوزير فبـــدلة مذهبـــة ، شرحها : منـــديل سلفـــه ســـبعون دينـــارا وخمسمائة وســـبعون قصـــبة عراقى ، جملة سلفه وذهبه مائة وأربعة عشر دينارا ، شقة ديبقى وكم السلف ستة عشر دينارا وثمانيـــة وعشرون مثقالا ذهبا عاليا ، تكون جملة ذلك خمسين دينـــارا ، نصف شقة ديبقى وسطانى اثنا عشر دينارا ، ونصف شقة وسطانى برسم العود ثلاثة دنانير ، غلالة ديبقى سبعة دنانير ، ونصف شقة برسم الغلالة ديناران ، ونصف منديل كم سبعة دنانير واثنـــا عشر مثقـــالا ذهبا ، تكون قيمته تسعة عشر دينارا ، حجره ثلاثة دنانير ، عرضى أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا ، تكون سلفه وذهبـــه سبعـــة عشر دينارا .

ثم ذكر بعد ذلك ما يكون لجهة الوزير ، وما يكون برسم صبيان الحمام ، وما يفصل برسم المماليـــك الخـــاص صـــبيان الرايات والرماح : خمسمائة شـــقة سقلاطون دارى تكون قيمتها سبعمائة وخمسين قباء ، يحمل منها برسم غلمان الوزير مائة قباء ، ويفرق جميع ذلك .

قال : ولم يـــكن لأحـــد من الأصـــحاب والحـــواشى وغيرهم فى هـــذا الموسم شىء فيذكر ، بل لهم من الهبات العين والرســـوم الخارجة عن ذلك ما يأتى ذكره فى موضعه .

وفى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن أبى الرداد وعلى رؤساء المراكب وغيرهم ، وحمل الى المقياس — برسم المبيت ، وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه الى الكرة — ما فصله وبينه مما يطول ذكره .

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة : ولما جرى النيل ، وبلغ خمســـة عشر ذراعا ، أمر باخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج ، وتحـــول الخليفـــة الى اللؤلؤة بحاشـــيته ، وتحول المأمون الى دار الذهب .

ووصلت كسوة الموسم المذكور من الطراز ، وان كانت يسيرة العدة فهى كثيرة القيمة ، ولم تكن للعموم من الحاشية والمستخدمين ، بل للخليفة خاصة واخوته وأربع من خواص جهاته والوزير وأولاده وابن أبى الرداد

فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ، ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ، ورميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عديا فى احداها الى المقياس وصليا ، ونزل الثقة صدقة ابن أبى * الرداد منزلته وخلق العمود .

وعاد الخليفة على فوره ، وركب البحر فى العشارى الفضى ، والوزير صحبته ، والرهجية تخدم برا وبحرا ، والعساكر طول البر قبالته الى أن وصل الى المقس .

ورتب الموكب ، وقدم العشارى بالخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون ، وسار الموكب والرهجية تخدم ، والصدقات والرسوم تفرق ، ودخل من باب القنطرة ، وقصد باب العيد ، واعتمد ما جرت به العادة من تقديم الوزير وترجله فى ركابه الى أن دخل من باب العيد الى قصره .

وتقدم بالخلع على ابن أبى الرداد : بدلة مذهبة ، وثوب ديبقى حريرى ، وطيلسان مقور ، وبياض مذهب ، وشقة سقلاطون ، وشقة تحتانى ، وشقة خز ، وشقة ديبقى ، وأربعة أكياس دراهم . ونشرت قدامه الأعلام الخاص الديبقى المحاومة بالألوان المختلفة التى لا ترى الا قدامه لأنها من جملة تجمل الخليفة ، وأطلق له برسم المبيت من البخور والشموع والأغنام والحلاوات كثير .

قال : وهيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه ، وقد وقعت المبالغة فى تعليقها وفرشها وتعبيتها ، وقدم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من همم الجهات ، من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، المعمولة من الذهب والفضة والعنبر ، والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد .

من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة جميعها عنبر معجون كخلقة الفيل ، ونباباه فضة ، وعيناه جوهرتان كبيرتان فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعليه سرير منجور من عود بمتكآت فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان ، وعليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رؤوسهم الخود ، وبأيديهم السيوف المجردة والدرق ، وجميع ذلك فضة .

ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ، وهو على فريسته ، وبقية الوحوش ، وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة .

قال : ومن جملة ما وقع الاهتمام به فى هذا الموسم ما صار يستعمل فى الطراز ، وان لم يتقدم نظيره للولائم التى تتخذ برسم تغطية الصوانى ، عدة من عراضى ديبقى ، ثم قوارات شرب تكون من تحت العراضى على

(*) ص٤٧١ جـ١ ، ط. بولاق .

الصوانى ، مفتح كل قوارة منهن دون أربعة أشبار ، سلف كل واحدة منهن خمسة عشر دينارا ، ورقم فى كل منهن سجف ذهب عراقى ثمنه من أربعين الى ثلاثين دينارا ، تكون الواحدة بخمسين دينارا .

ويستعمل أيضا برسم الطرح ، من فوق القوارات الاسكندرانى التى تشد على الموائد التى تحمل من عند كل جهة ، قوارات ديبقى مقصور من كل لون محاومة بالرقم الحريرى ، مفتح كل قوارة أربعة أذرع ، يكون الثمن عن كل واحدة أربعين دينارا .

ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب ، فسارع التجار العراقيون الى شرائها ، ونهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهن ستة عشر دينارا ، وسافروا بها الى البلاد ، فلم يبع لهم منها سوى اثنتين ، وعادوا بالبقية الى الديار المصرية فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحفظوا منهن شيئا عن السوق فلم يحفظ لهم رأس مالهن .

قال : وكان ما تقدم من الزبادى فى الطيافير من الصينى الى آخر أيام الأفضل بن أمير الجيوش وأيام المأمون ، وانما استجدت الأوانى الذهب فى أواخر الأيام الآمرية . والذى يعبى بين يدى الخليفة قوائمية ضمنها عدة من الطيافير المحمولة بالمرافع الفضة برسم الأطباق الحارة .

وليس فى المواسم مائدة بغير سماط للأمراء ويجلس عليها الخليفة ، غير هذا الموسم . وان كان يجرى مجرى الأعياد ، وله البخور مطلق مثلها ، وينفرد بالجلوس معه الجلساء المميزون والمستخدمون . وعند كمال تعبيتها وبخورها جلس الخليفة عليها ، عن يمينه وزيره ، وعن يساره أخوه ومن شرف بحضوره . وفى آخرها فرق منها ما جرت به العادة على سبيل البركة .

وقال فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة : ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج ، وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان : احداهما منديلها وثوبها طميم برسم المضى ، والأخرى جميعها حريرى برسم العود . وكذلك ما يخص اخوته وجهاته بدلتان مذهبتان ، وأربع حلل مذهبة . وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة فى تخت . وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة . وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت . وهؤلاء المميزون لكل منهم تخت . وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الرداد فى تخوت ، كل تخت فيه عدة بدلات .

وحضر متولى الدفتر ، واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة ، وما يفرق وما يفصل برسم الخلع ، وما يخرج من حاصل الخزائن غير الواصل . وهو ما يفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قباء خمسمائة وشقتان سقلاطون دارى ، وبرسم رؤساء العشارى من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الأحمر ، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكلوتات .

فوقع باتفاق جميع ذلك وتفصيل ما يجب منه . ثم اتبع ذلك بمطالعة ثانية ، برسم ما هو مستمر العموم من النقد العين والورق

للموسم المذكور ، وهو من العين أربعة آلاف وخمسمائة * دينار ، ومن الورق خمسة عشر ألف درهم . فوقع باطلاق ذلك .

وذكر تفصيل الكسوات والهبات بأسماء أربابها .

وحضر متولى المائدة الآمرية بمطالعة يستدعى ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر ، وغير ذلك من الأصناف ، برسم التفرقة والأسمطة . وحضر متولى دار التعبية يستدعى ما يبتاع به الثمرة والزهرة وهيئة المتعينين لتعبية السكرة ، لأجل حلول الركاب بها ومقامه فيها ، وتعبية جميع مقاصيرها التى برسم الأستاذين والأصحاب والحواشى ، وهو مائة دينار ، فوقع باطلاقها .

وفى العاشر من الشهر المذكور (يعنى شهر رجب) وفى النيل ستة عشر ذراعا ، فتوجه المأمون الى صناعة العمائر بمصر ، ورميت العشاريات بين يديه ، وقد جددت وزينت جميعها بالستور الديبقى الملونة والكوامخ والأهلة الذهب والفضة ، وشمل الانعام أرباب الرسوم على عادتهم .

وعدى فى احدى العشاريات الى المقياس ، وخلق العمود بما جرت به عادتهم من الطيب ، وفرقت رسوم الاطلاق ، وانكفأ الى دار الذهب ، وأمر باطلاق ما يخص المبيت فى المقياس بجميع الشهود والمتصدرين وهى العشرات : من الخبز عشرة قناطير ، وعشرة خراف شوى ، وعشر جامات حلوى ، وعشر شمعات .

(*) ص٤٧٢ جـ١ ، ط. بولاق .

وأول من يحضر المبيت الشريف الخطيب سيد المقربين وأمام المتصدرين ، وبه وللجماعة من الدراهم التى تفرق أوفى نصيب .

قال : وخرج الخليفة بزى الخلافة ووقارها وناموسها : بالثياب الطميم التى تذهل الأبصار ، والمنديل بالشدة العربية التى ينفرد بلباسها فى الأعياد والمواسم خاصة لا على الدوام — وكانت تسمى عندهم شدة الوقار — مرصعة بغالى الياقوت والزمرذ والجوهر .

وعند لباسها تخفق لها الأعلام ، ويتجنب الكلام ويهاب ، ولا يكون سلام قريب منه وخليل غير الوزير الا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنو ، ثم بين يديه من مقدمى خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأفخر ما يكون ، ثم المذاب التى كل منها عمودها ذهب وينفرد بحملها الصقالبة .

ويمشى بين الصفين المرتبين راجلا على بسط حرير فرشت له ، وكل من الصفين يتناهى فى مواصلة تقبيل الأرض الى أن وصل الى مجلس خلافته ، وصعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب برسم ركوبه .

وقد صفت الرواض وأزمة الاصطبلات خيل المظلة بعد أن أزالت الأغشية الحرير والشقق الديبقى المذهبة عن السروج ، وبقيت كما وصفها الله تعالى فى كتابه ، فقدم اليه ما وقع اختياره عليه ، وأمر بأن يجنب البقية فى الموكب بين يديه .

ولما علا ماقدم اليه استفتح مقرئو الحضرة ، وتسلم جميع مقدمى الركاب ركابه والرواض

الشكيمة ، *وزال حكم الأستاذين المستخدمين في كب عادت الموالي والأقا ب الى محالهم تدعى بالوزير بجميع نعوته ، فو صل تقبيل الأرض الى أن قبل كابه ، وشرفه بتقبيل يده بحكم خلوها من قضيب الملك في هذه المواسم .

ولما أدى ما يجب من فرض السلام ، أخذ السيف من الأمير افتخار الدولة — أحد الأمراء الأستاذين المميزين المحنكين — متولى خزانة الكسوة الخاص ، وسلمه بعد أن قبله لأخيه الذى يتوله حمله فى الموكب بعد آن أرخيت عذبته تشريفا له مدة حمله خاصة .

وترفع بعد ذلك ، وشد وسطه بالمنطقة الذهب أدبا وتعظيما لما معه ، الرمح والدرقة لمن يتولى حملهما بلواء الموكب . ولم يكن للخدمة المذكورة عذبة مرخاة ولا منطقة . واستدعى ركوب الوزير وأولاده من عند باب قاعة الذهب .

وخرج الخليفة من القاعة المذكورة الى أول دهليز ، فتلقته جماعة سان ركابه عشرة المقدمين أرباب الميمنة والميسرة ، صبيان ور * صبيان الرسائل وصبيان السلام ، كل منهم فى الخدمة المعينة لا يخرج عنه سواها ، وجميعهم بالمناديل الشروب لمعلمة ، وبأوساطهم العراض بسقى لمقسورة ، وليس الجميع عبيدا بشراء ولا ... ، بل مولدة وأولاد أعيان وأهل فهم ولسان .

ثم احتاط بركابه بعدهم من هو على غير زيهم ، بل بالقنابيز المفرجة والمناديل السوسى ، وهم المتولون لحمل السلاح الخاص — الذى لا يكون الا فى موكبة خاصة على الاستمرار — من الصوارى والفرنجيات والدبابيس واللتوت والصماصم بالدرق الصينى واليمنى بالكوامخ الفضة والذهب .

ويحصل الاستدعاء من صبيان السلام فى مسافة الدهاليز ، لكل من هو مستخدم فى الموكب ركوبه من محل حجبته .

الى أن يخرج الخليفة من باب الذهب ، وقد ضربت الغربية وأبواق السلام ، واجتمع الرهج من كل مكان ، ونسرت المظلة ، فاجتمع اليها الزويلبة بالعدد الغريبة ، وظلل بها وسارت بسيره ، والقرآن الكريم عن يمينه ويساره ، والحجرية الصبيان المسدون .

واجتمع الموكب بجملته على ما ذكر أولا ، والترتيب أمامه لمتولى الباب وحجابه وتلوه لمتولى الستر ، وكل منهم على حكم المدارج التى وصلت اليه ، لا سبيل الى الخروج عما رسم فيها .

وسار بجملة موكبه على ترتيب أوضاعه بين حصنين مانعين من طوارق عساكره فارسها وراجلها * كل طائفة تقدمها زمامها ، وقد ازدحموا فى المصفات بالعدد المذهبة الحربية والآلات اللامعة المضيئة ، وليس بينهم طريق لسالك .

وقد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق جميعها ، حوانيتها وآدرها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها ، بأنواع من الستور والديباج والديبقى على اختلاف أجناسها ، ثم بأصناف السلاح .

(*) ص٤٧٣ ج١ ، ط . بولاق .

وملأت النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والربا ، والصدقات والرسوم تعم أهل الجانبين من أرباب الجوامع والمساجد ، وبوابى الأبواب والسقائين والفقراء والمساكين فى طول الطريق ، الى أن أظل على الخيام المنصوبة فوقف بموكبه .

واستدعى الوزير بعده من مقدمى ركابه ، فاجتاز راكبا بمفرده ، وجمع حاشيته بسلاحهم رجالة فى ركابه ، بعد أن بالغ فى الايماء بتقبيل الأرض أمامه ، فرد عليه بكلمة السلام .

وعاد الخليفة فى سيره بالموكب بعد أن حصل الوزير أمامه ، وترجل جميع من شرف بحجبته فى ركابه ، وآخرهم متولى حمل سيفه ورمحه ، وصبيان السلام يستدعون كل منهم الى تقبيل الأرض بجميع نعوته اكبارا له وتمييزا ، واحتاطوا بركابه ، ووصل الى المضارب فى الحرس الشديد على أبوابها وسرادقاتها من كل جانب ، وقد تبين وجاهة من حصل بها ، ومكن من الدخول اليها .

وترجل الوزير فى الدهليز الثالث من دهاليزها ، وتقدم الى الخليفة وأخذ شكيمة الفرس من يد الرواض ، وشق به الخيام التى جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية ، وقد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية والأندلسية الى أن وصل الى القاعة الكبرى فيها .

وترجل على سرير خلافته ، وجلس فى محل عظمته ، وأجلس وزيره على الكرسى الذى أعد له ، واحتاط به المستخدمون حملة السلاح المنتصب جميعه ، وحجبوا العيون عن النظر اليه ، وصف بين يديه الأمراء والضيوف والمشرفون بحجبته ، وختم المقرئون القرآن العظيم ، وقدم عدى الملك النائب شعراء المجلس على طبقاتهم .

وعند انقضاء خدمة آخرهم ، عادت المستخدمون والرواض مقدمة ما أمروا به من الدواب ، فعلاه الخليفة والوزير يمسك الشكيمة بيده ، وانتظم موكبا عظيما ، والقراء عوض الرهجية ، والجماعة فى ركابه رجالة على حكم ما كانوا عليه أولا ، وصعد من القاعة التى فى دهاليز الباب القبلى منها ، فخرج منه ، وانفصلت خدمة جميع الأمراء والضيوف من ركابه بأحسن وداع من تقبيل الأرض .

وصعد الخليفة ووزيره وأولاده واخوته والأصحاب والحواشى الى السكرة ، وهى من جنات الدنيا المزخرفة ، وتلقاه أخوه بعظمة سلامه وتقبيل الأرض بين يديه ، وجلس لوقته ، وفتحت الطاقات التى فى المنظرة ، وعن يمينه وزيره ، وعن يساره أخوه جالسان ، واعتمد الناس جميعهم عند مشاهدته تقبيل الأرض له وادامة النظر نحوه .

والمستخدمون جميعهم على السد مشدودى الأوساط واقفين عليه ، فلما أمرهم الوزير أن يكسروه ، قبلوا الأرض جميعا وانصرفوا عنه ، وتولته الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين ، والقرآن والتكبير من الجانب الغربى حيث الخليفة ، والرهج واللعب من الجانب الشرقى .

ولما كمل فتحه انحدرت العشاريات عن آخرها ، اللطيف منها يقدم الكبير ، والجميع

مزينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ، ورؤساؤهم وخدامهم بالكسوات الجميلة .

وبعد ذلك غلقت الطاقات ، وحل الخليفة بالمقصورة التى لراحته ، وكذلك الوزير وأولاده واخوته ، وجميع الأمراء الأستاذين والأصحاب والحواشى .

واستدعى للوقت والى مصر من البر الشرقى ، وخلع عليه بدلة منديلها وثوبها مذهبان ، وثوبان عتابى وسقلاطون ، وقبل الأرض من تحت المنظرة ، وعدى فى البحر الى حفظ مكانه .

ثم استدعى بعده حامى البساتين ومشارفها ، فخلع عليهما بدلتين حريرى وثوبين سقلاطون وعتابى . ثم متولى ديوان العمائر كذلك ، ثم مقدمى الرؤساء كذلك .

واعتمد كل من سلم اليه الاثباتات المشتملة على أصناف الانعام من العين والورق وصوانى الفطرة ، والموائد التى يهنم بها جميع الجهات ، والخراف المشوية ، والجامات الحلواء ... تفرقة ذلك على ما رسم ، وهو شامل غير مخصص : من أخى الخليفة والوزير ، الى الأصحاب والحواشى من أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأمراء المستخدمين والضيوف المميزين من الأجناد ، وغيرهم من الأدوان ممن يتعلق به خدمة تختص بالموسم من البحارة ، وأرباب اللعب وغيرهم .

وعبيت الأسمطة فى المسطحات المنصوبة لها بالجانب من الباب الغربى من الخيام ، وأمر الوزير أخاه بالمضى اليها والجلوس عليها ، فتوجه وبين يديه متولى حجبة الباب ونوابه والمعروفية والحجاب ، واستدعت الأمراء والضيوف بالسقاة من خيامهم ، وأجلس كل منهم على السماط فى موضعه على عادتهم ، وتلاهم العساكر على طبقاتهم ، ولم يمتنع حضورهم ما يسير لكل منهم من جميع ماذكر على حكم ميزته .

ولما انقضى حكم الأسمطة المختصة بالأمراء الكبار ، عاد أخو الوزير الى حيث مقر الخلافة ، وبقى متولى الباب * جالسا لأسمطة العبيد وجميع المستخدمين من الراجل والسودان ، وعبيت المائدة الخاص بالسكرة التى ما يحضرها الا العوالى الخاص المستخدمون فى الخدم الكبار ، ويجمع له حالتان : حضوره فى أشرف مقام ، وجلوسه فى محل يحصل له به حرمة وذمام .

وجلس الخليفة عليها ، وأخوه على شماله ووزيره على يمينه ، بعد أن أدى كل منهما ما يجب من سلامه وتعظيمه ، وحضر أولاد الوزير واخوته ، والشيخ أبو الحسن كاتب الدست وابنه سالم ، ومن الأستاذين المحنكين أرباب الخدم . .

وجرى الحال فى المائدة الشريفة على ما هو مألوف ، وفرق من جملتها لكل من أرباب الخدم الذين لم يحضروا عليها ما هو لكل منهم على سبيل الشرف .

وتميز فى ذلك اليوم خاصة ما يختص بالقاضى وشهوده والداعى وابن خاله ، الذين يخصصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم فى قاعة الخيمة الكبرى أمام سرير الخلافة

(*) ص٤٧٤ جـ١ ، ط. بولاق .

المنصوب مدة النهار ، مع ما يحمل اليهم من الموائد وغيرها مما هو بأسمائهم فى الاثباتات مذكور .

ولما تكامل وضع المائدة ، وانقضى حكمها ، قبل كل من الحاضرين الأرض ، وانصرف بعد أن استصحب منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف والبركة . ويقضى بعد ذلك الفرائض الواجبة فى وقتها ، ولابد من راحة بعدها .

وحضر مقدما الركاب ، وحاسبا كاتب الدفتر على ما معهما برسم تفرقة الرسوم والصدقات فى مسافة الطريق ، فكمل لهما على ما بقى معهما مثل ما كان أولا .

ولما استحق العود ، عاد كل من المستخدمين الى شغله من ترتيب الموكب ومصفات العساكر ، وترتيب من يشرف بالحضرة من الأمراء والضيوف .

وفرقت الصوانى الخاص التى تكون بين يدى الخليفة مدة النهار ، الجامعة للثروة من كل جهة ، والزينة من كل معنى ، والغرابة من كل صنف .

وقد جمعت ملاذ جميع الحواس ، والعدة منها يسيرة ، وليس ذلك لتقصير من همم الجهات التى تتنوع فيها بالغرائب ، بل للتعب الشديد عليها ، ثم لضيق الزمان ، لأن كلا منها لا مندوحة أن يكون فيه زهرة وثمرة ، وطول المكث كذلك يتلف ما فيها . واذا شملت — مع قلتها — من له الوجاهة العالية من أخى الخليفة والوزير ، لم يكن له غير صينية واحدة .

وأخذ كل من الحاشية أهبة تجمله لموضع ميزته ، وغير الخليفة ثيابه بما يقتضيه الموكب وهو بدلة حريرى بشدة الوقار ، وعلم الجوهر .

وسير الى الوزير ، صحبة مقدم خزانة الكسوة الخاص على يد المستخدمين عنده من الأستاذين ، من جملة بدلات الجمع التى يتوجه منها الى زيه ما يؤمر به من يسعى اليه ، بدلة مكملة حريرى ومنديلها بياض بالشدة الدانية غير العربية .

ولما لبس ما سير اليه ، وحضر بين يديه لشكر نعمته ، أمره بركوب أخيه فى احدى العشاريات ، فامتثل أمره ، وتوجه صحبته من السكرة بجميع خواصه وحواشيه ، وفتح لهم الباب الذى هو منها بشاطىء الخليج ، وقدم له احدى العشاريات الموكبية ، وفيها مقدم رياسة البحرية .

فركب فيها بجمعه ، والوزير واقف راجل على شاطىء الخليج خدمة له ، الى آن انحدرت العشاريات جميعها قدامه ، ومراكب اللعب بغير أحد من أرباب الرهج ، والمستخدمون فى البرين يمنعون من يقاربه ، والمتفرجون لا يصدهم ويردهم ما يحل بهم ، بل يرمون أنفسهم من على الدواب ، ويسيرون بسيره .

وعاد الوزير الى السكرة ، فلما شاهد الخليفة الدواب الخاص التى برسم ركوبه ، أمره بما وقع عليه اختياره منها وعلاه ، فاحتاط بركابه مقدمو الركاب ، واستفتح القراء ، وخرج من باب السكرة ، ودخل من باب الخليفة القبلى ، وشق قاعتها على سرير

مملكته ، وخص بالسلام فيها شيوخ الكتاب العوالي والقاضي والداعي ومن معهما ، ولهم بذلك ميزة عظيمة يختصون بها دون غيرهم .

وخرج منها الى البستان المعروف بنزار ، وسار فى ميدانه ... وجميعه من الجانبين سور معقود من شجر نارنج أصولها مفترقة وفروعها مجتمعة ، وظللت الطريق ، وعليها من الثمرة التى أخرجها من وقته الى هذا اليوم ، وقد خرجت بهجتها عن المعتاد ، وحصل عليها ثمرة سنتين : احداهما انتهت ، والأخرى فى الابتداء .

وهو بهيئته وزيه وترتيب عساكره وأمرائه، وخرج من الباب بعد أن عم من له رسم بانعامه ، وعاد الرهج والموكب على ما كان عليه . فلما وصل الى السد الذى على بركة الحبش كسر بين يديه .

وقال فى كتاب « الذخائر » : ان مما أخرج من القصر فى سنة احدى وستين وأربعمائة ، فى خلافة المستنصر ، قبة العشارى وقاربه وكسوة رحله . وهو مما استعمله الوزير أحمد بن على الجرجراى فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وكان فيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة . وان المطلق لصناع الصاغة من أجرة ذلك ، وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ، ألفان وسبعمائة دينار .

وعمل أبو سهل التسترى لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضى ، وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ، ولزم ذلك أجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار ، واستعمل كسوة برسمه (*) بمال جليل .

وأنفق على العشاريات التى برسم النزه البحرية ، التى عدتها ستة وثلاثون عشاريا بالتقدير ، بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك ، أربعمائة ألف دينار .

وقال ابن الطوير : اذا أذن الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك ، طالع ابن أبى الرداد بما استقر عليه أذرع القاع فى اليوم الخامس والعشرين من بؤونة ، وأرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربى .

فعلم ذلك من مطالعته ، وأخرجت الى ديوان المكاتبات ، فنزلت فى السير المرتب بأصل القاع ، والزيادة بعد ذلك فى كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربى ، وما وافقه من أيام الشهر القبطى ... لا يزال كذلك ، وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير .

فاذا انتهى فى ذراع الوفاء ، وهو السادس عشر ، الى أن يبقى منه أصبع أو اصبعان ، وعلم ذلك من مطالعته ، أمر أن يحمل الى المقياس فى تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ ، وعشرة من الخراف المشوية ، وعشرة من الجامات الحلواء ، وعشر شمعات .

ويؤمر بالمبيت فى تلك الليلة بالمقياس ، فيحضر اليه قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ، ومن يجرى

(*) ص٤٧٥ جـ١ ، ط. بولاق .

مجراهم . فيستعملون ذلك ، ويقدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة ، وهم يتلون القرآن برفق ، ويطربون بمكان التطريب ، فيختمون الختمة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس ، فيوفى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة .

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ، ويبتهجون به ابتهاجا زائدا . وذلك لأنه عمارة الديار ، وبه التئام الخلق على فضل الله ، فيحسن عند الخليفة موقعه ، ويهتم بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل المواسم .

فاذا أصبح الصبح من هذا اليوم ، وحضرت مطالعة ابن أبى الرداد اليه بالوفاء ، ركب الى المقياس لتخليقه ، فيستدعى الوزير على العادة فيحضر الى القصر ، فيركب الخليفة بزى أيام الركوب ، من غير مظلة ولا ما يجرى مجراها بل فى هيئة عظيمة من الثياب ، والوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب .

ويخرج شاقا من باب زويلة ، وسالكا الشارع الى آخر الركن من بستان عباس ، المعروف اليوم بسيف الاسلام ، فيعطف سالكا على جامع ابن طولون — والجسر الأعظم بين الركنين — الى الساحل بمصر ، الى الطريق المسلوكة على طرف الخشابين الشرقى على دار الفاضل الى باب الصاغة بجوارها — وله دهليز ماد بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا وتأزيرا — فيشقها والوزير تابعه ، ويخرج منها منعطفا على الصناعة الأخرى — وكانت برسم المكس — الى السيوفيين ، ثم على منازل العز التى هى اليوم مدرسة ، ثم الى دار الملك ، فيدخل من الباب المقابل لسلوكه ، فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشيا الى المكان المعد له .

ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعشارى الخاص . وهو بيت مثمن من عاج وأبنوس ، عرض كل جزء ثلاثة أذرع ، وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية ، فيصير بيتا دوره أربعة وعشرون ذراعا ، وعليه قبة من خشب محكم الصناعة ، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب ... فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص ، ويركبه على العشارى المختص بالخليفة ، ويجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب فيه الخليفة على الباب الذى يخرج منه للركوب الى المقياس .

فاذا استقر الخليفة بالمنظرة بدار الملك التى يخرج من بابها الى العشارى وأسند اليه ، استدعى الوزير من مكانه ، فيحضر اليه ويخرج بين يديه الى أن يركب فى العشارى . فيدخل البيت المذهب وحده ، ومعه من الأستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة الى أربعة ، ثم يطلع فى العشارى خواص الخليفة خاصة ، ورسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه .

وليس فى العشارى من هو جالس سوى الخليفة باطنا ، والوزير ظاهرا فى رواق من باب البيت الذى هو بعرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب ، وهى مدهونة مذهبة ، وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها .

فاذا اجتمع فى العشارى من جرت عادته بالاجتماع ، اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل ، فيدخل الوزير ومعه الأستاذون بين يدى الخليفة الى الفسقية ، فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده .

فاذا فرغ من صلاته ، أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك ، فيديفها بيده بآلة ، ويتناولها صاحب بيت المال ، فيناولها لابن أبى الرداد ، فيلقى نفسه فى الفسقية وعليه غلالته وعمامته ، والعمود قريب من درج الفسقية ، فيتعلق فيه برجليه ويده اليسرى ، ويخلقه بيده اليمنى ، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرأون القرآن نوبة بنوبة .

ثم يخرج على فوره راكبا فى العشارى المذكور ، وهو بالخيار : اما أن يعود الى دار الملك ويركب منها عائدا الى القاهرة ، أو ينحدر فى العشارى الى المقس . فيتبعه الموكب الى القاهرة .

ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا * بوفاء النيل وبنظر الخليفة .

فاذا استقر بالقصر ، اهتم بركوب فتح الخليج ، وفيه همة عظيمة ظاهرة للابتهاج بذلك .

ثم يصير ابن أبى الرداد ، باكر ثانى ذلك اليوم ، الى القصر بالايوان الكبير الذى فى الشباك الى باب الملك بجواره ، فيجد خلعة معبأة هناك ، فيؤمر بلبسها ، ويخرج من باب العيد شاقا بها بين القصرين من أوله قصدا لاشاعة ذلك — فان ذلك من علامة وفاء النيل ، ولأهل البلاد الى ذلك تطلع — وتكون خلعة مذهبة .

وكان من العدول المحنكين ، فيشرف فى الخلعة بالطيلسان المقسور ، وينـدب له من التغييرات ولمن يريده خمس تغييرات مركبات بالحلى ، ويحمل أمامه على أربع بغال ، مع أربعة من مستخدمى بيت المال ، أربعة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى أكفهم ، وبصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه ، ويندب له الطبل والبوق ، ويكتنف به عدة كثيرة من المتصرفين الرجالة .

فيخرج من باب العيد ، ويركب احدى التغييرات وهى أميزها ، وشرف أمامه بجملين من النقارات التى قدمنا ذكرها (يعنى فى ركوب أول العام) من زى الموكب فيسير شاقا القاهرة ، والأبواق تضرب أمامه كبارا وصغارا ، والطبل وراءه مثل الأمراء ، وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ، ويخرج من باب القصر فيقبله ويركب ... وهكذا يعمل كل من يخلع عليه من كبير وصغير من الأمراء المطوقين الى من دونهم سيفا وقلما .

ويخرج من باب زويلة طالبا مصر من الشارع الأعظم الى مسجد عبد الله الى دار الأنماط ، جائزا على الجامع الى شاطىء البحر ، فيعدى الى المقياس بخلعه وأكياسه . وهذه الأكياس معدة لأرباب الرسوم عليه فى خلعه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان .

(*) ص٤٧٦ جـ١ ، طـ. بولاق .

فاذا انقضى هذا الشأن ، شرع فى الركوب الى فتح الخليج ثانى يوم — وقد كان وقع الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما — فيعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة : منها ما هو ملبس بالعنبر ، ومنها ما هو ملبس بالصندل ، ثم شكل التفاح والأترج اللطيف ، والوحوش مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب الى غير ذلك .

ثم تخرج الخيمة التى يقال لها القاتول ، لأن فراشا سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك ، وطوله سبعون ذراعا ، وأعلاه صفرية فضة تسع راوية ماء ، وعليه الفلكة التى كانت فى الايوان الى قريب الوقت . ثم يعمل فى أول العمود شقة دائرة ، ثم أوسع منها ، ويتوالى ذلك الى احدى عشرة شقة ... فتصير سعة الخيمة ما يزيد على فدانين مستديرة ، وتنصب فى بر الخليج الغربى على حافته مكان بستان الحلى اليوم .

وكانت ثم منظرة ، يقال لها السكرة ، برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم .

وينصب أرباب الرتب من الأمراء من بحرى تلك الخيمة الكبرى خياما كثيرة ، ويتمايزون فيها على قدر هممهم ، وضربهم اياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم .

فاذا تم ذلك ، وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه ، أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقدم ذكرها فى ركوب أول العام آلات الموكب على عادته ، ويزاد فيه اخراج أربعين بوقا ، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ، ويكون بواقوها ركبانا ، وأرباب الأبواق النحاس مشاة ، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة .

فاذا حضر الوزير الى باب القصر ، خرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهمة عالية ، وقد تضاعفت همم الأجناد فى ذلك اليوم فارسها وراجلها ، ويخرج زى الخليفة من المظلة والسيف والرمح والألوية والدواة ، وغير ذلك من الأستاذين المحنكين .

ويركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون ، وهم بالنوبة فى كل سنة ، فيتقدمون الى المنظرة فى مكان لهم صحبة أستاذين لخدمتهم وحفظهم ، ويكون قد لف عمود الخيمة الكبرى المشار اليه اما بديباج أبيض أو أحمر أو أصفر من أعلاه الى أسفله ، وينصب مسندا اليه سرير الملك ، ويغشى بقرقوبى ، وعرانيسه ذهب ظاهرة .

فيخرج الخليفة للركوب ويركب ، فيخرج من باب القصر وعليه ثوب يقال له السدنة — وهو كله ذهب وحرير مرقوم ، والمظلة من شكله ، ولا يلبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم — ويسير الموكب الهائل ، شاقا القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس ، الا أنه لا يدخل طرق مصر من الخشابين ، بل خارجها من طريق الساحل .

فاذا جاز على جامع ابن طولون ، وجد قد ربط من رأس المنارة — من مكان العشارى النحاس — حبل طويل قوى موضوع آخره فى الطريق ، وفيه قوم يقال لهم النحتبارية ،

واحد فى زى فارس على شكل قرس وفى يده رمح وبكتفه درقة ، فينحدر على بكرة ، فى رجليه آخر ممسكها ، وهو يتقلب فى الهواء بطنا وظهرا حتى يصل الى الأرض .

ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا فى باب الجامع من هذه الجهة ، فاذا وزاهم الخليفة — وكانوا قد ركبوا — وقف لهم وقفة ، فيسلم على القاضى ، ثم يدخل فيقبل الرجل التى من جانبه لا غير ، ويدخل بالشهود * فى الفرجة أمام وجه الدابة بمقدار قصبة المساحة ، فيسلم عليهم ، ويرجعون الى دوابهم فيركبون .

ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان : احداهما ديباج أحمر ، والأخرى ديبقى أبيض ، بصفارى فضة لكل واحدة ، فيتم الخليفة بهيئته الى أن يدخل من باب الخيمة ، ويكون الوزير قد تقدمه على العادة ليخدمه ، فيجده راجلا على باب الخيمة ، فيمشى بين يديه الى سرير الملك .

فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه ، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم .

ويوضع للوزير الكرسى الجارى به عادته ، فيجلس عليه ورجلاه تحت الأرض ، ويقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك الى ناحية الخيمة ، والقراء يقرأون القرآن ساعة زمانية . فاذا ختموا قراءتهم ، استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق هذا اليوم ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الانشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب .

وتقدم شاعر ، يقال له ابن جبر ، وأنشأ قصيدة منها :

فتح الخليج فسال منه الماء
وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه
كف الامام فعرفها الاعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر ، يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه
اذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى اذا برز الامام بوجهه
وسطا عليه كل حامل معول
فجرى كأن قد ديف فيه عنبر
يعلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى ، وقالوا : أهلك وجه الامام بسطوات المعاول عليه ، وان كان قصد فتح السد بالمعاول ، لكنه ما نظمه الا قلقا

ثم تقدم له شاعر شاهد ، يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وأنشد قصيدة شهد

(*) ص٤٧٧ جـ ١ ط . بولاق .

له جماعة منهم القاضي الأثير بن سنان ، فانه عملها بحضوره بديها :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد
للنيلّ أم لك يابن بنت محمد

أم لاجتماعكما معا فى موطن
وافيتما فيه لأصدق موعد

ليس اجتماع الخلق الا للذى
حاز الفضيلة منكما فى المولد

شكروا لكل منكما لوفائه
بالسعى لكن ميلهم للأجود

ولمن اذا اعتمد الوفاء فعله
بالقصد ليس له كمن لم يقصد

هذا يفى ويعود ينقص تارة
وتسد أنت النقص ان لم يردد

وقواه ان بلغ النهاية قصرت
واذا بلغت الى النهاية تبتدى

فالآن قد ضاقت مسالك سعيه
بالسد فهو به بحال مقيد

فاذا أردت صلاحه فافتح له
ليرى جنابا مخصبا وترى ندى

وأمر بفصد العرق منه فما شكا
جسم فصح الجسم ان لم يفصد

واسلم الى أمثال يومك هكذا
فى عيش مغبوط وعز مخلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا ، وخلع عليه وزيد فى جاريه .

ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا ، والوزير بين يديه ، حتى يطلع على المنظرة المعروفة بالسكرة ، وقد فرشت بالفرش المعدة لها ، فيجلس فيها ، ويتهيأ أيضا للوزير مكان يجلس فيه ، ويحيط بالسد حامى البساتين ومشارفها لأنه من حقوق خدمتهما ، فتفتح احدى طاقات المنظرة ، ويطل منها الخليفة على الخليج ، وطاقة تقاربها يتطلع منها أستاذ من الخواص ، ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول ، ويخدم بالطبل والبوق من البرين .

فاذا اعتدل الماء فى الخليج ، دخلت العشاريات اللطاف — ويقال لها السماويات — وكأنها خدم بين يدى العشارى الذهبى المقدم ذكره ، ثم العشاريات الخاص الكبار وهى ستة : الذهبى المذكور ، والفضى ، والأحمر ، والأصفر ، واللازوردى ، والصقلى — وكان أنشأه نجار من رؤساء الصناعة صقلى ، وزاد فيه على الانشاء المعتاد فنسب اليه — وهذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوله الى اللؤلؤة للفرجة ... وسارت فى الخليج ، وعلى بيت كل منها الستور الديبقى الملونة ، وبرؤوسها وفى أعناقها الأهلة وقلائد من * الخرز ، فتسند الى البر الذى فيه المنظرة الجالس فيه الخليفة .

فاذا استقر جلوس الخليفة والوزير بالمنظرة ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الديبقى

(*) ص٤٧٨ جـ١ ، ط. بولاق .

البيضاء ، وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج ، على رؤوس الفراشين صحبة صاحب المائدة ، وعدتها مائة شدة فى الطيافير الواسعة ، وعليها القوارات الحرير ، وفوقها الطراحات ، ولها رواء عظيم ومسك فائح ، فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك .

ويحمل للوزير ما هو مستقر له بعادة جارية ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث صوان ، ويخصص منها أيضا لأولاده واخوته خارجا عن ذلك اكراما وافتقادا ، ويحمل الى قاضى القضاة والشهود شدة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرا للشرع ، ويحمل الى كل أمير فى خيمته شدة طعام وصينية تماثيل ، ويصل من ذلك الى الناس شىء كثير .

ولا يزالون كذلك الى أن يؤذن بالظهر ، فيصلون ويقيمون الى العصر ، فاذا أذن به صلى ، وركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة ، فيركب لابسا غير البدنة بل بهيئته ، والمظلة مناسبة لثيابه التى عليه ، واليتيمة والترتيب بأجمعه على حاله .

ويسير فى البر الغربى من الخليج ، شاقا البساتين هناك ، حتى يدخل من باب القنطرة الى القصر ، والوزير تابعه على الرسم المعتاد ، ويمر فيه للقوم أحسن الأيام ، ويمضى الوزير الى داره مخدوما على العادة .

وقال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ان المستعمل من الفضة قبة العشارى المعروف بالمقدم وقاربه وكسوة رحله ، فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة فى وزارة على بن أحمد الجرجراى ، مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة . وان المطلق للصناع عن أجرة الصناعة ، وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ، ألفان وتسعمائة دينار وسبعون . وكانت الفضة فى ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع ، سعر ستة عشر درهما بدينار .

ولما تولى أبو سعيد سهل التسترى الوساطة سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، استعمل لأم المستنصر عشاريا يعرف بالفضى ، وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم ، ولزم ذلك أجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار ، سوى كسوة له بمال جليل .

والمنفق على ستة وثلاثين عشاريا برسم النزه البحرية لآلاتها وحلاها ، من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك ، أربعمائة ألف دينار .

وكانت العادة عندهم اذا حصل وفاء النيل أن يكتب الى العمال . فمما كتب من انشاء تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى :

« أما بعد ، فان أحق ما وجبت به التهنئة والبشرى ، وغدت المسار منتشرة تتوالى وتترى ، وكان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى والنعمة الجسيمة الكبرى ... ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه ، وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه . وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى — وله الحمد — يوم كذا ...

« فانّ هذه العطية تؤدى الى خصب البلاد وعمارتها ، وشمول المصالح وغزارتها ، وتفضى بتضاعف المنافع والخيرات ، وتكاثر الأرزاق والأقوات ، ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد . وتنتهى البركة بها الى كل دان وناء وكل حاضر وباد . فأذع هذه النعمة قبلك ، وانشره فى كل من يتدبر عملك ، رحثهم على مواصلة الشـكر لهذه الألطاف الشاملة لهم ولك . فاعلم هذا ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

وكتب أيضا : « ان أولى ما تضاعف به الابتهاج والجذل ، وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل ، ما عم نفعه صامت الحيوان وناطقه ، وأحدث لـكل أحد اغتباطا لزمه وآلى ألا يفارقه . وذلك ما منّ الله به من وفاء النيـل المبـارك الذى تحيـا به كل أرض موات ، وتكتسى بعد اقشعرارها حلة لنبات ، ويكون سببا لتوافر الأقوات . فانه وفى المقدار الذى يحتاج اليه ... فلتذع هذه المنّة فى القاصى والداني ، لتستعمل الـكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى ، ان شاء الله تعالى » .

وكتب أيضـا : « من لطف الله الـواجب حمده ، اللازم شكره وفضله ، الذى لا يمل بشره ، ولا يسأم ذكره ومنّه ، الذى استبشر به الأنام ، وتضاعف فيه الانعام ، ومثـل الله الحياة به فى قوله تعالى « انما مثـل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعـام » . . أمر النيـل المبـارك الذى يعمّ النجود والتهائم ، وتنتفع به الخـلائق ، وترتع فيمـا يظهـره البهائم ...

« وقد توجه ابن ... بهـذا كتاب بهـذه البشرى فلان ، فأجره على رسمه فى اظهاره مجملا وايصاله الى رسـمه مكملا ، واذاعة هذه النفقة على الكافة ليتساهموا الاغتبـاط بها ، ويبالغوا فى الشكر لله سبحانه وتعـالى بمقتضاها وعلى حسبها . فاعلم ذلك ، واعمل به ان شاء الله تعالى » .

منظرة الدكة : وكان من جمله مناظر الخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بالدكة ، ... بسـتان عظيم بجوار المقس ، فيما بينه وبين أراضى اللوق ، وما زالت باقية حتى زالت الدولة ، وحكر مكان البستان ، و... خطة تعرف الى اليـوم * بخط الدكة ، فخربت المنظرة وزال أثرها .

قال ابن عبد الظاهر . الدكة بالمقس كانت بستانا ، وكان للخليفة ... من كسر الخليج ... السكرة بمطلتـه يسير فى البر الغربى ، ومضرب الناس والأمراء وخيمهم عن يمينه وشماله ، إلى أن يصل الى هذا البستان المعروف بالدكة ... قد غلقت أبوابه ودهاليزه .

فيدخل اليه بمفرده ، ويسقى منه الفرس الذى تحته — وهى ... ذكر المؤرخ ... سيرة المأمونية أنهم كانوا يعتمدونها الى آخر وقت ، ولم يعلم سببه ... يخرج ... الى أن يقف على الترعة الآتى ذكرها ويدخل من باب القنطرة ، وينزل الى القصر .

والدكة الآن آدر وحارات شهرتها تغنى عن وصفها . فسبحان من لا يتغير .

(*) ص٤٧٩ ج١ ، طبعة بولاق .

وقال ابن الطوير عن الظاهر لاعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله : كان بمنظرة يقال لها الدكة بساحل المقس (يعنى أنه مات بها) .

منظرة المقس : وكان من جملة مناظرهم أيضا منظرة بجوار جامع المقس ، الذى تسميه العامة اليوم جامع المقسى . وكانت هذه المنظرة بحرى الجامع المذكور ، وهى مطلة على النيل الأعظم ، وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس .

وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول الى غزو الفرنج . فتحضر رؤساء المراكب بالشوانى وهى مزينة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها فى النيل ، حيث الآن الخليج الناصرى ، تجاه الجامع ، وما وراء الخليج من غربيه .

قال ابن المأمون ، وذكر تجهيز العساكر فى البر عند ورود كتب صاحبى دمشق وحلب ، فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، ما يحص على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك : وركب الخليفة الآمر بأحكام الله ، وتوجه الى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة فى أعلاه ، واستدعى مقدم الأسطول الثانى ، وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة ، واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم .

وعاد الخليفة الى البستان المعروف بالبعل الى آخر النهار ، وتوجه الى قصره بعد تفرقة جميع الرسوم والصدقات والهبات الجارى بها العادة فى الركوبات .

وقال ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس . وكان هناك على شاطىء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه (يعنى الأسطول) ولقائه اذا عاد .

فاذا جلس هو والوزير للوداع ، جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات فى البحر بين يديه ، وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات تلعب ، فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل فى لقاء العدو بالبحر الملح .

ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطى المقدم مائة دينار ، والرئيس عشرين دينارا .

وتنحدر الى دمياط ، وتخرج الى البحر الملح ، فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة . فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح ، وما عدا ذلك فللأسطول .

واتفق مرة أن قدم على الأسطول سيف الملك الجمل ، فكسب بطشة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال ، وقتل منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا ، وحضر الى القاهرة .

ففرح الخليفة وركب الى المقس ، وجلس بالمنظرة للقائهم ، وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر . فاستدعيت الجمال لركوبهم ، وشق بهم القاهرة ومصر ،

وهم كل اثنين على جمل ظهرا لظهر . وعاد الخليفة الى القصر فجلس فى احدى مناظره لنظرهم فى جوازهم .

فلما عادوا بهم من مصر ، صاروا بهم الى المناخات ، فصح منهم ألف رجل ، فانضافوا الى من فى المناخ .

وأما النساء والصبيان فانهم دخلوا بهم الى القصر ، بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر ، وأخذ الجهات والأقارب بقيتهن ، فيستخدمونهن ويعلمونهن الصنائع ، ويتولى الأستاذون تربية الصبيان وتعليمهم الخط والرماية ، ويقال لهم الترابى .

ومن استريب به من الأسرى ، ونبه عليه بقوة ، أوقع به . والشيخ الذى لا ينتفع به يمضى فيه حكم السيف بمكان يقال له بئر المنامة فى الخراب قريب مصر . ولم يسمع على الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال ولا بأسير مثله . وهذه الحال فى كل سنة آخذة فى الزيادة لا النقص .

وقدم على الأسطول مرة أمير يقال له حرب ابن فور ، صاحب الحاجب لؤلؤ ، فكسب بطشه حصل فيها خمسمائة رجل ... انتهى .

وقد خربت هذه المنظرة . وكان موضعها برج كبير ، صار يعرف فى الدولة الأيوبية بقلعة المقس ، مشرف على النيل . فلما جدد الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى جامع المقس ، على ما هو عليه الآن فى سنة سبعين وسبعمائة ، هدم هذا البرج ، وجعل مكانه جنينة شرقى الجامع ، وتحدث الناس أنه وجد فيه مالا . والله أعلم .

منظرة البعل : وكان من مناظرهم بظاهر القاهرة منظرة فى بستان أنيق ، يعرف بالبعل ، أنشأه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى . وموضع هذا البستان الى اليوم يعرف بالبعل ، وصارت أرضه مزرعة * فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطبالة فى كوم الريش مقابل قناطر الأوز .

وقد خربت المنظرة ، وبقى منها آثار أدركتها يعطن بها الكتان ، تدل على عظمها وجلالتها فى حال عمارتها . وكانت منظرة البعل من أجل متنزهاتهم ، وكان لهم بها أوقات عميمة المبرات جليلة الخيرات .

قال ابن المأمون : فأما يوم السبت والثلاثاء فيكون ركوب الوزير من داره بالرهجية ، ويتوجه الى القصر . فيركب الخليفة الى ضواحى القاهرة للنزهة فى مثل الروضة والمشتهى ودار الملك والتاج والبعل وقبة الهواء والخمسة وجوه والبستان الكبير . وكان لكل منظرة منهن فرش معلوم مستقر فيها من الأيام الأفضلية للصيف والشتاء .

وتفرق الرسوم ، ويسلم لمقدمى الركاب اليمين والشمال لكل واحد عشرون دينارا وخمسون رباعيا ، ولتالى مقدم الركاب اليمين مائة كاغدة فى كل كاغدة ثلاثة دراهم ، ومائة كاغدة فى كل كاغدة درهمان ، ولتالى مقدم الشمال مثل ذلك .

أما الدنانير فلكل باب يخرج منه من البلد دينار ، ولكل باب يدخل منه دينار ، ولكل جامع يجتاز عليه دينار ، ما خلا جامع مصر فان

(*) ص٤٨٠ جـ١ ، ط. بولاق .

رسمه خمسة دنانير ، ولكل مسجد يجتاز عليه رباعى ، ولكل من يقف ويتلو القرآن كاغدة ، والفقراء والمساكين من الرجال والنساء لكل من يقف كاغدة ، ولكل من يركب الخليفة ديناران . ويكون مع هذا متولى صناديق الانفاق يحجب الخليفة ، وبيده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يؤمر به .

فاذا حصل فى احدى المناظر المذكورة ، فرق من العين ما مبلغه سبعة وخمسون دينارا ، ومن الرباعية مائة وستة وثمانون دينارا للحواشى والأستاذين وأصحاب الدواوين والشعراء والمؤذنين والمقرئين والمنجمين وغيرهم ، ومن الخراف الشواء خمسون رأسا : منها طبقان حارة مكملة مشورة برسم المائدة الخاص — مضافا لما يحضر من القصور من الموائد الخاص والحلاوات — وطبق واحد برسم مائدة الوزير ، وبقية ذلك بأسماء أربابه ، ورأسا بقر برسم الهرائس .

فاذ جلس الخليفة على المائدة ، استدعى الوزير وخواصه ومن جرت العادة بجلوسه معه . ومن تأخر عن المائدة ممن جرت عادته بحضورها ، حمل اليه من بين يدى الخليفة على سبيل التشريف . وعند عود الخليفة الى القصر ، يحاسب متولى الدفتر مقدمى الركاب على ما أنفق عليه فى مسافة الطريق من جامع ومسجد وباب ودابة وأما تفرقة الصدقات فهم فيها على حكم الأمانة .

قال : واذا وقع الركوب الى الميادين ، جرى الحال فيها على الرسم المستقر من الانعام ، ويؤمر متولى خزائن الخاص وصناديق الانفاق أن يكون معه خريطة فى السرج ديباج ، تسمى خريطة الموكب ، فيها ألف دينار معدة لمن يؤمر بالانعام عليه فى حال الركوب .

منظرة التاج : هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للنزهة ، بناها الأفضل ابن أمير الجيوش ، وكان لها فرش معد لها للشتاء والصيف . وقد خربت ولم يبق لها سوى أثر كوم ، توجد تحته الحجارة الكبار ، وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضى منية الشيرج .

قال ابن عبد الظاهر : وأما التاج فكان حوله البساتين عدة ، وأعظم ما كان حوله قبة الهواء ، وبعدها الخمس وجوه التى هى باقية .

منظرة الخمس وجوه : كانت أيضا من مناظرهم التى يتنزهون فيها ، وهى من انشاء الأفضل بن أمير الجيوش ، وكان لها فرش معد لها ، وبقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة كان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم الوصف البديع الزى البهيج الهيئة . والعامة تقول التاج والسبع وجوه الى الآن .

وموضعها الى وقتنا هذا من أعظم متفرجات القاهرة ، وينبت هناك فى أيام النيل عندما يعم تلك الأراضى البشنين ، فتفتن رؤيته وتبهج النفوس نضارته وزينته ، فاذا نضب ماء النيل زرعت تلك البسطة قرطا وكتانا يقصر الوصف عن تعداد حسنه . وأدركت حول الخمس وجوه غروسا من نخل وغيره تشبه أن تكون من بقايا البستان القديم ، وقد تلاشت الآن .

ثم ان السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى ، جدد عمارة منظرة فوق الخمس وجوه ، ابتدأ بناءها فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

منظرة باب الفتوح : وكان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح ، وكان يومئذ ما خرج عن باب الفتوح براحا فيما بين الباب وبين البساتين الجيوشية . وكانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر ووداعها اذا سارت فى البر الى البلاد الشامية .

قال ابن المأمون : وفى هذا الشهر (يعنى المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة) وصلت رسل ظهير الدين طغدكين صاحب دمشق ، وآق سنقر صاحب حلب ، بكتب * الى الخليفة الآمر بأحكام الله ، والى الوزير المأمون الى القصر ، فاستدعوا لتقبيل الأرض كما جرت العادة من اظهار التجمل .

وكان مضمون الكتب — بعد التصدير والتعظيم والسؤال والضراعة — أن الأخبار تظافرت بقلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية ، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم والله قد أذن بهلاكهم ، وأنهم ينتظرون انعام الدولة العلوية وعوايد أفضالها ، ويستنصرون بقوتها ، ويحثون على نصرة الاسلام ، وقطع دابر الكفر ، وتجهيز العساكر المنصورة والأساطيل المظفرة ، والمساعدة على التوجه نحوهم لئلا يتواصل مددهم ، وتعود الى القوة شوكتهم .

فقوى العزم على النفقة فى العساكر فارسها وراجلها وتجريدها ، وتقدم الى الأزمة باحضار الرجال الأقوياء ، وابتدىء بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب ، وأحضر الوزانون وصناديق المال ، وأفرغت الأكياس على البساط .

واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية ، وتردد الرأى فيمن يتقدم ، فوقع الاتفاق على حسام الملك البرنى ، وأحضر مقدم الأساطيل الثانية لأن الأساطيل توجهت فى الغزو ، وخلع عليه ، وأمر بأن ينزل الى الصناعتين بمصر والجزيرة ، وينفق فى أربعين شينيا ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويكون التوجه بها صحبة العسكر .

وأنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته فكملت النفقة فى الفارس والراجل ، وفى الأمراء السائرين ، وفى الأطباء والمؤذنين والقراء ، وندب من الحجاب عدة ، وجعل لكل منهم خدمة : فمنهم من يتولى خزانة الخيام ، وسير معه من حاصل الخزائن — برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة — خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح .

وأنفق فى عدة من كتاب ديوان الجيش لعرض العساكر ، وفى كتاب العربان . وأحضر مقدمو الحراسين بالخفار ، وتقدم اليها بأنه من تأخر عن العرض بعسقلان وقبض النفقة ، فلا واجب له ولا اقطاع .

وكتبت الكتب الى المستخدمين بالثغور الثلاثة ، الاسكندرية ودمياط وعسقلان ، باطلاق وابتياع ما يستدعى برسم الأسمطة على

(*) ص٨١٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الأصناف والغلال ، ووقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين

وكتبت الأجوبة عن كتبهم ، وجهز المال والخلع المذهبات ، والأطواق والسيوف والمناطق الذهب ، والخيل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات . وخلع على الرسل ، وأطلق لهم التغيير ، وسلمت اليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحبة العسكر .

وركب الخليفة الآمر بأحكام الله الى باب الفتوح ، ونظر بالمنظرة ، واستدعى حسام الملك ، وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة ، وطوقه بطوق دهب ، وقلده ومنطقه مثل ذلك .

ثم قال الوزير المأمون للأمراء بحيث يسمع الخليفة : هذا الأمير مقدمكم ومقدم العساكر كلها ، وما وعد به أنجزته ، وما قرره أمضيته . فقبلوا الأرض ، وخرجوا من بين يديه .

وسلم متولى بيت المال وخزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضمنته الصناديق من المال وأعدال الكسوات ، وحملت قدامه .

وفتحت طاقات المنظرة ، فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الأرض ، فأشار اليهم بالتوجه ، فساروا بأجمعهم .

وركب الخليفة ، وتوجه الى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة ، واستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة .

منظرة الصناعة : وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة بالصناعة ، فى الساحل القديم من مصر ، يجلس بها الخليفة تارة حتى تقدم له العشاريات ، فيركبها ويسير للمقياس حتى يخلق بين يديه عند الوفاء . وكان بهذه الصناعة ديوان العمائر .

وأنشأ هذه المنظرة والصناعة التى هى فيها الوزير المأمون ، ولم تزل الى آخر الدولة ، ودهليزها ماد بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا وتأزيرا . وقد خربت هذه الصناعة والمنظرة ، وصار موضعهما الآن بستانا كان يعرف ببستان ابن كيسان ، ويعرف فى زمننا هذا الذى نحن فيه الآن ببستان الطواشى ، وهو بأول مراغة مصر تجاه غيط الجرف ، على يسرة من يسلك من المراغة يريد الكبارة وباب مصر

قال ابن المأمون : وكانت جميع مراكب الأساطيل ما تنشأ الا بالصناعة التى بالجزيرة . فأنكر الوزير المأمون ذلك ، وأمر بأن يكون انشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر ، وأضاف اليه دار الزبيب ، وأنشأ المنظرة بها ، وسماها ... الى الآن عليها . وقصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمة الأساطيل ورميه بالمنظرة المذكورة ، وأن يكون ما ينشأ من الجرانى والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة .

قال : ولما وفى النيل ستة عشر ذراعا ، ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ، ورميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عديا فى احداها الى المقياس .

وقال ابن الطوير : الخدمة فى ديوان الجهاد — ويقال له ديوان العمائر — وكان محله بصناعة الانشاء بمصر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها ،

وكانت تزيد على خمسين عشاريا ، ويليهـا عشرون ديماسا * ، منها عشرة برسم خـاص الخليفـة أيام الخليج وغيرها . ولـكل منها رئيس ونواتى لا يبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان .

وبقية العشـاريات الدواميس برسـم ولاة الأعمال المميزة ، فهى تجر لهم ، وينفـق فى رؤسائها ورجالها أينمـا كانوا من مال هـذا الديوان ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فاذا صرف عاد فيه ، وخرج المتـولى الجـديد فى العشـارى المرسى بالصـناعة ، ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه والانفاق فيـه . وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه .

وفى هذا الديوان ، برسم خدمة ما يجرى فى الأساطيل ، نائبان من قبل مقدم الأسطول . وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شىء كثير . واذا لم يفه ارتفاعه بما يحتاج اليه اسـتدعى له من بيت المال ما يسد خلله .

قال : وكان من أهم أمـورهم احتفـالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسـطحات ، الى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكا وعسقلان .

وكانت جريدة قواده أكثر من خمسة آلاف مدونة : منهم عشرة أعيان تصـل جامكية كل منهم الى عشرين دينارا ، ثم الى خمسة عشر ، ثم الى عشرة دنانير ، ثم الى ثمانية ، ثم الى دينـارين وهى أقلهـا . ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة الى نصف دينار وحواليه

ويعين من هؤلاء القواد العشرة من يقـع الاجماع عليه لرياسة الأسطول المتوجه للغزو ، فيكون معه الفانوس ، وكلهم يهتـدون به ، ويقلعون باقلاعه ، ويرسون بارسائه . ويقـدم على الأسـطول أمير كبير من أعيـان الأمراء وأقواهم جنانا ، ويتـولى النفقـة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير .

فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة — وكانت آخر وقت تزيد على خمسة وسـبعين شـينيا ، وعشر مسطحات ، وعشر حمالة — فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال ، ويسمع بذلك من هو خارج مصر والقاهرة ، فيدخـل اليهـا . ولهم المشـاهرة والجرايات المتقررة مدة أيام السفر ، وهم معروفون عند عشرين نقيبا ، ولا يعترض أحد أحدا الا من رغب فى ذلك من نفسه .

فاذا اجتمعت العـدة المغلقـة للمـراكب المطلوبة ، أعلم المقدم بذلك الوزير ، فطـالع الخليفة بالحال ، وفرز يوم للنفقـة ، فحضر الوزير بالاسـتدعاء عـلى العـادة . فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلس ، ويجلس الوزير فى مكانه ، ويحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفى ، وهو أميرهما ، ويجلس داخل عتبة المجلس — وهذه رتبـة له مميزة — وكاتب الجيش الأصل ويجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة . ولا يخلو المستوفى أن يكون عدلا ، أو من أعيان الكتاب المسلمين . وأما كاتب الجيش فيهودى فى الأغلب .

(*) ص٤٨٢ جـ١ ، ط. بولاق .

ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ، ويحضر الوزانون ببيت المال بذلك . فاذا تهيأ الانفاق أدخل القابضون مائة مائة ، ويقفون فى آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة .

ويستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق واحدا واحدا ، فاذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه الى الجانب الخالى ، فاذا تكمل عشرة رجال وزن الوزانون لهم النفقة — وكانت لكل واحد خمسة دنانير ، صرف كل دينار ستة وثلاثون درهما — فيتسلمها النقيب ، وتكتب بيده وباسمه ، وتمضى النفقة كذلك الى آخرها .

فاذا تم ذلك أليوم ، ركب الوزير من بين يدى الخليفة ، وانفض ذلك الجمع ، فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها غداء الوزير ، وهى سبع مجيفات أوساط ، احداها بلحم دجاج وفستق والبقية من شواء ، وهى مكمورة بالأزهار ، فتكون هذه عدة أيام تارة متوالية وتارة متفرقة

فاذا تكملت النفقة ، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس .

وذكر ابن أبى طى أن المعز لدين الله أنشا ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مدينة ، وعمل دار صناعة بالمقس .

« دار الملك » : وكان من جملة مناظرهم دار الملك بمصر ، وهى من انشاء الأفضل بن أمير الجيوش . ابتدأ فى بنائها وانشائها فى سنة احدى وخمسمائة ، فلما كملت تحول اليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها ، وحول اليها الدواوين من القصر فصارت بها ، وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه .

فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة الى أن انقرضت الدولة ، فجعلها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة . وموضع دار الملك ما وراء حبة الخروب بجوار المدرسة المعزية ، وبقى منها جدار يجلس تحته بياعو الحناء .

قال ابن المأمون : ومن جملة ما قرره القائد أبو عبد الله من تعظيم المملكة ، وتفخيم أمر السلطنة ، أن * المجلس الذى يجلس فيه الأفضل بدار الملك يسمى مجلس العطايا ، فقال القائد : محلس يدعى بهذا الاسم ما يشاهد فيه دينار يدفع لمن يسأل !

وأمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس من كل لون اثنين ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار ، فى كل ظرف خمسة آلاف دينار سكب ، وبطاقة بوزنه وعدده وشرابة حرير كبيرة : من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية عن اليمين والشمال فى مجلس العطايا الذى برسم الجلوس ، وعند مرتبة الأفضل بقاعة اللؤلؤة ظرفان : أحدهما دنانير ، والآخر دراهم جدد .

(*) ص٤٨٣ جـ١ ، ط. بولاق

فالذى فى اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الأفضل اذا كان عنـد الحرم . وأما الذى هى مجلس العطايا فان جميـع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعـر جار . وانما كان لهم ، اذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشـعر من أنشد منهم ، ما يسهله الله على حكم الجائزة . فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف . وكذلك من يتضرع ويسأل فى طلب صدقة أو ينعم عليـه ابتداء بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف . واذا انصرف الحاضرون نزل القائد المبلغ بخطه فى البطاقة ، ويكتب عليـه الأفضـل بخطه « صح » ، ويعاد الى الظرف ويختم عليه .

فلمـا اسـتهل رجب من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وجلس الأفضل فى مجلس العطايا على عادته ، وحضر الأجل المظفر أخوه للهناء وجلس بين يديه ، وشـاهد الظروف والقائد وولده وأخوه قيام على رأسـه ، وتقـدمت الشـعراء على طبقـاتهم ... أمر لـكل منهم بجائزة .

وشاع خبر الظروف ، وكثر القول فيها ، واستعظم أمرها ، وضوعف مبلغها . واتسع هذا الانعام بالصدقات الجارى بها العادة فى مثل هذا الشهر لفقهاء مصر والرباطات بالقرافة وفقرائها .

وقال ابن الطوير ، وقد ذكر ركوب الخليفة فى أول العام وحضور الغرة : وينقطع الركوب بعد هذا اليوم الذى هو أول العام ، فيركبون فى آحاد الأيام الى أن يكمل شهر ، ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء .

فاذا عزم الخليفة على الركوب فى أحد هذه الأيام أعلم بذلك — وعلامته انفاق الأسلحة فى صبيان الركاب من خزانه السلاح خاصـة دون ما سـواها ، وأكثر ذلك الى مصر — ويركب الوزير صحبته من ورائه على أخصر من النظام المتقدم (يعنى فى ركوب أول العام) وأقل جمع فيخرج شاقا القاهرة وشوارعها على الجامع الطولونى على المشاهد الى درب الصفاء — ويقال له الشارع الأعظم — الى دار الأنماط الى الجامع العتيق .

فاذا وصل الى بابه ، وجد الشريف الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب ، مفروشه بحصر معلق عليها سجادة ، وفى يده المصحف المنسوب خطه الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو من حاصله . فاذا وازاه وقف فى موضعه ، وناوله المصحف من يده ، فيتسلمه منه ويقبله ويتبرك به مرارا . ويعطيه صاحب الخريطة المرسـومة للصـلات ثلاثين دينارا ، وهى رسمه متى اجتاز به ، فيوصلها الشريف الى مشارف الجامع ، فيكون نصيبهما منها خمسة عشر دينارا ، والبـاقى للقـومة والمؤذنين دون غيرهم .

ويسير الى أن يصـل دار الملك ، فينزلهـا والوزير معه . ومنذ يخرج من باب القصر الى أن يصل الى دار الملك ، لا يمر بمسجد الا أعطى قيمه من الخريطة دينارا .

فلا يزال بدار الملك نهاره ، فتأتيه المـائدة من القصر ، وعدتها خمسون شدة على رؤوس الفراشين مع صاحب المائدة — وهو أسـتاذ جليل غير محنك — وكل شدة فيها طيفـور فيها الأوانى الخـاص ، وفيها من الأطعمـة

الخاص من كل نوع شـــهى وكلّ صـــنف من المطاعم العالية ، ولها رواء ورائحة المســك فائحة منها ، وعلى كل شدة طرحة حرير تعلو القوارة التى هى الشدة . فيحمل الى ... منها جزء وافر ، ولمن صحبه وللأمراء ولكافة الحاضرين فى الخدمة ، ويصل منها الى الناس بمصر ... بعضهم بعضا شىء كثير .

ولا يزال الى أن يؤذن عليه بالعصر فيصلى ، ويتحرك الى العود الى القاهرة ، ... فى طريقه لنظره ، ... يركب

وزيه فى هذه الأيام أنه يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة ، والمنديل من ... ، وهو مشـــدود شـــدة مفردة عن شـــدات ... ، وذؤ ...ـه مرخاة من ... الأيسر ، ويتقلد بالسيف ... مجوهر ... ولا مظلة ولا يتيمة ، فان ذلك فى أوقات مخصوصه .

ولا يمر أيضا بمسجد فى سلوكه فى هذه الطريق بالساحل الا ويعطى قيمه دينارا أيضا كما جرى فى ... ، وينعطف ... ويدخل من باب زويلة شاقا القاهرة حتى يدخل القصر ، فيـــكون ذلك من ... شـــهر رمضان اما أربع مرات أو خمس مرات .

ومن شعر الأســعد أســعد بن مهذب بن زكرى بن أبى مليح مما فى دار الملك هذه :

حللت بدار الملك والنيـــل آخذ
بأطرافها الموج بوسعها ضربا

فخيلته قد غار لما وطئتهـــا
عليها فأضـــحى عند ذلك لهـــا حربا

منـــازل العز *

بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز ، ولم يكن بمصر أحسن منها ... كانت مطلة على النيل لا يحجبه شىء عن نظرها ... ما زالت الخلفاء من بعد المعز ... ، كانت معدة لنزهتهم ، وكان بجوارها حمام . ولها منهـــا باب ، وموضعه الآن مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقى الدين عمرو ابن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى .

الهودج : وكان من متنزهاتهـــم العظيمـــة البناء ، العجيبة البديعة الزى ، بناء فى جزيرة الفسطاط ـــ التى تعرف اليوم بالروضـــة ـــ يقال له الهودج . بنـــاه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية التى غلب عليـــه حبـــها بجوار البســـتان المختـــار ، وكان يتردد اليه كثيرا ، وقتل وهو مـــوجه اليـــه ، وما زال متنزها للخلفاء من بعده .

قال ابن سعيد فى كتاب «المحلى بالأشعار» : قال القرشى فى تاريخه : تذكر النـــاس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها ، وما يتعلـــق بذلك من ذكر الآمر ، حتى صـــارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك .

والاختصار منه أن يقـــال ان الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات ، وصـــارت له عيون بالبوادى . فبلغه أن جارية بالصعيد من أكمل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة ، فيقال انه تزيا بزى بداة الأعـــراب ، وكان يجول فى

(*) س٤٨٤ جـ١ ، ط. بولاق .

الأحياء الى أن انتهى الى حيها ، وبات هناك في ضائفة ، وتحيل حتى عاينها هنالك ، فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه ، وأرسل الى أهلها يخطبها وتزوجها .

فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة . فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل ، على شط النيل .

وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح ، فكتبت اليه من قصر الآمر :

يابن مياح اليك المشتكى
مالك من بعدكم قد ملكا

كنت في حيى مطاعا آمرا
نائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مرصد
لا أرى الا خبيثا ممسكا

كم تثنينا كأغصان اللوا
حيث لا نخشى علينا دركا

فأجابها :

بنت عمي والتي غذيتها
بالهوى حتى علا واحتبكا

بحت بالشكوى وعندي ضعفها
لو غدا ينفع منا المشتكى

مالك الأمر اليه أشتكى
مالك وهو الذى قد ملكا

قال : وللناس في طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول . وكان من عرب طى في قصر الآمر طراد بن مهلهل السنبسى ، فبلغته هذه القضية فقال :

ألا بلغوا الآمر المصطفى
مقال طراد ونعم المقال

قطعت الأليفين عن ألفة
بها سمر الحى بين الرجال

كذا كان آباؤك الأكرمون
سألت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الأبيات : جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله .

وطلب في أحياء العرب فلم يوجد ، فقالت العرب : ما أخسر صفقة طراد ، باع أبيات الحى بثلاثة أبيات !

وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ، له مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ... مدحه ظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت وغيرهما .

وكان له بستان ينفرج فيه به جرن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ، وينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره . وكان يجد في نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعيم والمباهاة في عصره .

فوشى به للبدوية محبوبة الآمر ، فسألت الخليفة الآمر في حمل الجرن اليها ، فأرسل الى ابن حديد باحضار الجرن ، فلم يجد بدا

من حمله من البستان . فلما صار الى الآمر ، أمر بعمله فى الهودج .

فقلق ابن حديد ، وصارت فى قلبه حرارة من أخذ الجون ، فأخذ يخدم البدوية ومن يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة ، حتى قالت البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا .

فلما قيل له هذا القول عنها قال : ما لى حاجة ، بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز ، غير رد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها * فى أيامهم من نعمتهم ، ترد الى مكانها .

فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك الى قطعة حجر !

فقال : أنا أعرف بنفسى ، ما كان لها أمل سوى ألا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله أملها .

وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها فى أيام الآمر ، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة ، أخا الوزير المأمون بن البطائحى ، لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وأضاف اليه الأعمال البحرية ، ووصل الى الثغر ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور ، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن شمع .

(*) ص٤٨٥ جـ١ ، ط . بولاق .

فما كان أكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما فك عنه ، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب . ولم يكن فيه شىء مصنوع لوقته .

فعندما أحضره الرسول ، تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته . فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر انعامه ، وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه . فكان جواب المؤتمن : قد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولا لنظر فى قيمته ، بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها . وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار .

فانظر — رحمك الله — الى من يكون دهن الشمع عنده فى اناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه ألبتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات .

وهذا انما هو حال قاضى الاسكندرية ، ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة الى أعيان الدولة بالحضرة ، وما نسبة أعيان الدولة — وان عظمت أحوالهم — الى أمر الخلافة وأبهتها الا يسير حقير .

وما زال الخليفة الآمر يتردد الى الهودج المذكور . الى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة يريد الهودج ، وقد كمن له عدة من النزارية فى فرن عند رأس الجسر من ناحية الروضة ، فوثبوا

عليه وأثخنوه بالجراحة حتى هلك ، وحمل فى العشارى الى اللؤلؤة فمات بها ، وقيل قبل أن يصل اليها .

وقد خرب هذا الهودج ، وجهل مكانه من الروضة ، ولله عاقبة الأمور .

قصر القرافة : وكان لهم بالقرافة قصر بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز فى سنة ست وستين وثلثمائة ، على يد الحسين بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، هو والحمام الذى فى غربيه ، وبنت البئر والبستان وجامع القرافة .

وكان هذا القصر نزهة من النزه من أحسن الآثار فى اتقان بنيانه وصحة أركانه ، وله منظرة مليحة كبيرة محمولة على قبو ماد تجوز المارة من تحته ، ويقيل المسافرون فى أيام القيظ هناك ، ويركب الراكب اليه على زلاقة . وكان كأحسن ما يكون من البناء ، وتحته حوض لسقى الدواب يوم الحلول فيه ، وكان مكانه بالقرب من مسجد الفتح .

ولما كان فى سنة عشرين وأربعمائة ، جدده الخليفة الآمر ، وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية ، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ وشهى من الأطعمة والحلوى أصنافا مصنفة .

فاتفق أن تواجد الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى الواعظ ، ومزق مرقعته ، وفرقت على العادة خرقا ، وسأل الشيخ أبو اسحاق ابراهيم — المعروف بالقارح المقرى — خرقة منها ووضعها فى رأسه . فلما فرغ التمزيق قال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : ياشيخ أبا اسحاق . قال : لبيك يامولانا . قال : أين خرقتى ! فقال مجيبا فى الحال : هاهى على رأسى ياأمير المؤمنين .

فاستحسن الآمر ذلك ، وأعجبه موقعه . فأمر فى الساعة والوقت من أحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية ، ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار . فتخاطفها الحاضرون ، وتعاهد المغربلون الأرض التى هناك أياما لأخذ ما يواريه التراب .

وما برح قصر الأندلس بالقرافة حتى زالت الدولة ، فهدم فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة .

المنظرة ببركة الحبش : وكانت لهم منظرة تشرف على بركة الحبش .

قال الشريف أبو عبد الله محمد الجوانى فى كتاب « النقط على الخطط » : ان الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الخركة ، منظرة من خشب مدهونة ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش ، وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر الخركاة ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة * كل منهم رف لطيف مذهب .

(*) ص٤٨٦ ج١ ، ط . بولاق .

فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ففعلوا ذلك وأخذوا صررهم ، وكانوا عدة شعراء .

بساتين : وكان للخلفاء عدة بساتين يتنزهون بها ، منها البساتين الجيوشية ، وهما بستانان كبيران : أحدهما من عند زقاق الكحل خارج باب الفتوح الى المطرية ، والآخر يمتد من خارج باب القنطرة الى الخندق . وكان لهما شأن عظيم .

ومن شدة غرام الأفضل بالبستان الذى كان يجاور بستان البعل ، عمل له سورا مثل سور القاهرة ، وعمل فيه بحرا كبيرا وقبة عشارى تحمل ثمانية أرادب ، وبنى فى وسط البحر منظرة محمولة على أربع عواميد من أحسن الرخام ، وحفها بشجر النارنج ، فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط ، وسلط على هذا البحر أربع سواق ، وجعل له معبرا من نحاس مخروط زنته قنطار ، وكان يملأ فى عدة أيام . وجلب اليه من الطيور المسموعة شيئا كثيرا ، واستخدم للحمام الذى كان به عدة مطيرين ، وعمر به أبراجا عدة للحمام والطيور المسموعة ، وسرح فيه كثيرا من الطاووس .

وكان البستانان اللذان على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخندق ، لكل منهما أربعة أبواب من الأربع جهات ، على كل منها عدة من الأرمن . وجميع الدهاليز مؤزرة بالحصر العبدانى ، وعلى أبوابها سلاسل كثيرة من حديد ، ولا يدخل منها الا السلطان وأولاده وأقاربه .

قال ابن عبد الظاهر : واتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما فى السنة ، من زهر وثمر ، نيف وثلاثون ألف دينار ، وأنهما لا تقوم بمؤنهما على حكم اليقين لا الشك . وكان الحاصل بالبستان الكبير والمحصن الى آخر الأيام الآمرية — وهى سنة أربع وعشرين وخمسمائة — ثمانمائة وأحد عشر رأسا من البقر ، ومن الجمال مائة وثلاثة رؤوس ، ومن العمال وغيرهم ألف رجل .

وذكر أن الذى دار سور البستانين ، من سنط وجميز وأثل ، من أول حدهما الشرقى — وهو ركن بركة الأرمن — مع حدهما البحرى والغربى جميعا ، الى آخر زقاق الكحل ... فى هذه المسافة الطويلة سبعة عشر ألف ألف ومائتا شجرة ، وبقى قبليهما جميعا لم يحصن .

وأن السنط تغصن حتى لحق بالجميز فى العظم ، وأن معظم قرظه يسقط الى الطريق فيأخذه الناس ، وبعد ذلك يباع بأربعمائة دينار .

وكان به كل ثمرة لها دويرة مفردة ، وعليها سياج ، وفيها نخل منقوش فى ألواح عليها برسم الخاص لا تجنى الا بحضور المشارف ، وكان فيهما ليمون تفاحى يؤكل بقشره بغير سكر .

وأقام هذان البستانان بيد الورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم ، مدة أيام الوزير المأمون ، لم تخرج عنهم . وكشف ذلك فى أيام الخليفة الحافظ ، فكان فيهما ستمائة رأس من البقر ،

وثمانون جملا . وقــوم ما عليهما من الأثل والجميز ، فكانت قيمته مائتى ألف دينار .

وطلب الأميــر شرف الدين — وكانت له حرمة عظيمة — من الخليفــة الحــافظ قطع شجرة واحدة من سنط ، فأبى عليه ، فيتشفع اليه وقومت بسبعين دينارا ، فرسم الخليفــة ان كانت وسط البستان تقطع ، والا فلا .

ولما جرى فى آخر أيام الحافظ ما جرى من الخلف ، ذبحت أبقاره وجماله ، ونهب ما فيه من الآلات والأنقاض ، ولم يبق الا الجميــز والسنط والأثل لعدم من يشتريه ... انتهى .

وكان هذان البســتانان من جملة الحبس الجيوشى . وهو أن أميــر الجيــوش بدرا الجمالى حبس عدة بلاد وغيرها — منها فى البر الشرقى ناحية بهتيت والأميرية والمنيــة ، وفى البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم — مع هذين البستانين المذكورين ، على عقبه .

فاستأجر هذا الحبس الوزراء مدة ســنين بأجرة يسيرة ، وصار يزرع فى الشرقى منــه الكتان ، ومنــه ما تبلغ قطيعتــه ثلاثة دنانير ونصفا وربعا عن كل فدان ، فيتناولون فيــه ربحا جزيلا لأنفسهم .

فلما بعد العهد انقرضت أعقابه ، ولم يبق من ذريته ســوى امرأة كبيرة . فأفتى الفقهاء بأن هــذا الحبس باطــل ، فصــار للديوان السلطانى يتصرف فيه ، ويحمــل متحصله مع أموال بيت المال .

وتلاشت البساتين ، وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وبنى العزيز بالله بستانا بناحية سردوس .

« قبة الهواء » : وكان من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الهواء . وهى مستشرف بهج بديع فيما بين التاج والخمس وجــوه ، يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم ، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف ، ويركب اليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء .

« بحر أبى المنجا » : وكان من متنــزهات الخلفاء يوم فتح بحر أبى المنجا .

قال ابن المأمون : وكان الماء لا يصل الى الشرقية الا من السردوسى ومن الصماصم ومن المواضع البعيدة ، فكان أكثرها يشرق فى أكثر السنين . وكان أبو المنجا اليهودى مشــارف الأعمال المذكورة ، فتضرر المزارعون اليــه ، وسألوا فى فتح ترعة يصل الماء منها فى ابتدائه اليهم ، فابتدأ بحفر خليج أبى المنجــا فى يوم الثلاثاء السادس من شعبــان ســنة ســت وخمسمائة .

وركب الأفضل بن أمير * الجيوش ضحى ، وصحبته القــائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى وجميع اخوته والعساكر تحاذيه فى البر ، وجمعت شــيوخ البــلاد وأولادها ، وركبوا فى المراكب ومعهم حزم البــوص فى البحر ، وصار العشارى والمراكب تتبعها الى أن رماها الموج الى الموضع الذى حفروا فيه البحر ، وأقام الحفر فيه سنتين ، وفى كل سنة تتبين الفائدة فيه ، ويتضــاعف من ارتفــاع البلاد ما يهــون الغرامة عليه .

(*) ص٤٨٧ جـ١ ، ط . بولاق .

ولما عرض على الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه ، وقال : غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبى المنجا . فغير اسمه ودعى بالبحر الأفضلى . فلم يتم ذلك ، ولم يعرف الا بأبى المنجا .

ثم جرى بين أبى المنجا وبين ابن أبى الليث صاحب الديوان ، بسبب الذى أنفق ، خطوب أدت الى اعتقال أبى المنجا عدة سنين ، ثم نفى الى الاسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف ، ولم يزل القائد أبو عبد الله بن فاتك يتلطف بحاله الى تضاعف من عبرة البلاد ما سهل أمر النفقة فيه .

ورأيت بخط ابن عبد الظاهر : وهذا أبو المنجا هو جد بنى صفير الحكماء اليهود ، والذين أسلموا منهم .

ولما طال اعتقال أبى المنجا فى الاسكندرية فى مكان بمفرده مضيقا عليه ، تحيل فى تحصيل مصحف وكتب ختمة ، وكتب فى آخرها « كتبها أبو المنجا اليهودى » ، وبعثها الى السوق ليبيعها .

فقامت قيامة أهل الثغر ، وطولع بأمره الى الخليفة ، فأخرج وقيل له : ما حملك على هذا ؟

فقال : طلب الخلاص بالقتل . فأدب ، وأطلق سبيله .

وقيل انه كان فى محبسة حية عظيمة ، فأحضر اليه فى بعض الأيام لبن ، فرأى الحية وقد شربت منه ودخلت حجرها ، فصار فى كل يوم يحضر لها لبنا ، فتخرج وتشرب منه وتدخل مكانها ولم تؤذه .

ولما ولى المأمون البطائحى وزارة الآمر بأحكام الله ، بعد الأفضل بن أمير الجيوش ، تحدث الآمر معه فى رؤية فتح هذا الخليج ، وأن يكون له يوم كخليج القاهرة . فندب الآمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله ، وأمره بأن يبنى على مكان السد منظرة متسعة تكون من بحرى السد ، وشرع فى عمارتها بعد كمال النيل .

وما زال يوم فتح سد هذا البحر يوما مشهودا الى أن زالت الدولة الفاطمية . فلما استولى بنو أيوب من بعدهم على مملكة مصر أجروا الحال فيه على ما كان .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة : وركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لفتح بحر أبى المنجا وعاد .

قال : وفى سنة تسعين وخمسمائة ، كسر بحر أبى المنجا بعد أن تأخر كسره عن عيد الصليب بسبعة أيام ، وكان ذلك لقصور النيل فى هذه السنة ، ولم يباشر السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين بنفسه ، وركب أخوه شرف الدين يعقوب الطواشى لكسره .

وبدت فى هذا اليوم من مخايل القبوط ما يوجبه سوء الأفعال ، من المجاهرة بالمنكرات ، والاعلان بالفواحش . وقد أفرط هذا الأمر ، واشترك فيه الآمر والمأمور ، ولم ينسلخ شهر رمضان الا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الاسلام .

وبدا عقاب الله فى الماء الذى كانت المعاصى على ظهره . فان المراكب كان يركب فيها فى رمضان الرجال والنساء مختلطين مكشفات الوجوه ، وأيدى الرجال تنال منها ما تنال فى الخلوات ، والطبول والعيدان مرتفعات الأصوات والصنجات ، واستنابوا فى الليل عن الخمر بالماء والجلاب ظاهرا ، وقيل انهم شربوا الخمر مستورا ، وقربت المراكب بعضها من بعض ، وعجز المنكر عن الانكار الا بقلبه .

ورفع الأمر الى السلطان ، فندب حاجبه فى بعض الليالى ، ففرق منهم من وجده فى الحالة الحاضرة ، ثم عادوا بعد عوده . وذكر أنه وجد فى بعض المعادى خمرا فأراقه .

ولما استهل شوال ، وهو مطموع فيه ، تضاعف هذا المنكر ، وفشت هذه الفاحشة . ونسأل الله العفو والعافية عن الكبائر ، والتجاوز عما تسقط فيه المعاذر .

وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : كسر بحر أبى المنجا ، وباشر العزيز كسره ، وزاد النيل فيه أصبعا وهى الأصبع الثامنة عشرة من ثمانى عشر ذراعا . وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى .

وقد تلاشى فى زمننا أمر الاجتماع فى يوم فتح سد بحر أبى المنجا ، وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة .

« قصر الورد بالخاقانية » : وكان من أيام متنزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية . وهى قرية من قرى قليوب كانت من خاص الخليفة ، وبها جنان كثيرة للخليفة ، وكانت من أحسن المتنزهات المصرية ، وكان بها عدة دويرات يزرع فيها الورد . فيسير اليها الخليفة يوما ، ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ، ويخدم بضيافة عظيمة .

قال ابن الطوير عن الخليفة الامر بأحكام الله : وعمل له بالخاقانية — وكانت من خاص الخليفة — قصر من ورد ، فسار اليها يوما ، وخدم بضيافة عظيمة .

فلما استقر هناك خرج اليه أمير — يقال له حسام الملك — من الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن أخى المأمون البطائحى وتخاذلوا عنه ، فوصل الى الخاقانية وهو لابس لامة حربه *، والتمس المثول بين يديه (يعنى الخليفة) .

فاستقل ما جاء به فى ذلك الوقت ، مما ينافى ما فيه الخليفة من الراحة والنزهة ، وحيل بينه وبين مقصوده ، فقال لجماعة من حواشى الخليفة : أنتم منافقون على الخليفة ، ان لم أصل اليه فانه يعاقبكم بذلك .

فأطلعوا الخليفة على أمره وحليته بالسلاح وقوله ، فأمر باحضاره . فلما وقعت عينه عليه قال : يامولانا لمن تركت أعداءك (يعنى الوزير المأمون البطائحى وأخاه ، وكان الآمر قد قبض عليهما واعتقلهما) هذا والعهد قريب غير بعيد ، أأمنت الغدر ؟

فما أجابه الا وهو على الرهاويج من الخيل . فلم تمض ساعة الا وهو بالقصر ، فمضى الى مكان اعتقال المأمون وأخيه ، فزادهما وثاقا وحراسة .

وفى أثناء ذلك وصل ابن نجيب الدولة الذى كان سيره المأمون فى وزارته الى

(*) ص٤٨٨ جـ١ ، طـ. بولاق .

اليمن ، لتحقيق نسبه أنه ولد من جارية نزار ابن المستنصر لما خرجت من القصر وهى به حامل ، ويدعو اليه بقية الناس . وأحضر الى القاهرة على جمل مشوه ، فأدخل خزانة البنود ، وقتل هو والمأمون وجماعة فى تلك الليلة ، وصلبوا ظاهر القاهرة .

« بركة الجب » : بظاهر القاهرة من بحريها ، وتسميها العامة فى زمننا هذا الذى نحن فيه بركة الحاج ، لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة الى الحج فى كل سنة ، ونزولهم عند العود بها ، ومنها يدخلون الى القاهرة .

ومن الناس من يقول : جب يوسف . وهو خطأ ، وانما هى أرض جب عميرة . وعميرة هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء ، نسبت هذه الأرض اليه ، فقيل لها أرض جب عميرة ... ذكره ابن يونس .

وكان من عادة الخليفة المستنصر بالله ، أبى تميم معد بن الظاهر بن الحاكم ، فى كل سنة أن يركب على النجيب مع النساء والحشم الى جب عميرة هذا — وهو موضع نزهة — بهيئة أنه خارج الى الحج على سبيل اللعب والمجانة ، وربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ، ويسقيه من معه .

وأنشده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء
ولا تضح ضحى الا بصهباء

وادرك حجيج الندامى قبل نفرهم
الى منى قصفهم مع كل هيفاء

وعج على مكة الروحاء مبتكرا
فطف بها حول ركن العود والنائى

قال ابن دحية : فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداه الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق . وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين ، حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين ، وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين .

وقال ابن ميسر : فلما كان فى جمادى الآخرة من سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، خرج المستنصر على عادته الى بركة الجب ، فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفا فى سكر منه على بعض عبيد الشراء ، فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه .

فاجتمع الأتراك بالمستنصر ، وقالوا : ان كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة ، وان كان عن غير رضاك فلا نرضى بذلك .

فأنكر المستنصر ما وقع ، وتبرأ مما فعله العبيد . فتجمع الأتراك لحرب العبيد ، وبرز بعضهم الى بعض . وكان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك انهزم فيه العبيد ، وقتل منهم عدد كبير .

وكانت أم المستنصر تعين العبيد ، وتمدهم بالأموال والأسلحة . فاتفق فى بعض الأيام أن بعض الأتراك ظفر بشىء مما تبعث به أم المستنصر الى العبيد ، فأعلم بذلك أصحابه — وقد قويت شوكتهم بانهزام العبيد —

فاجتمعوا بأسرهم ، ودخلوا على المستنصر ، وخاطبوه فى ذلك . وأغلظوا فى القول ، وجهروا بما لا ينبغى . وصار السيف قائما ، والحروب متتابعة ، الى أن كان من خراب مصر بالغلاء والفتن ما كان . وكان من قبل المستنصر يترددون الى بركة الجب .

قال المسيحى : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، عرض العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب ، فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب بصفرية فضة ، ونصبت له فازة مثقل وقبة مثقل بالجوهر ، وضرب لابنه الأمير أبى على منصور مضرب آخر .

وعرضت العساكر ، وكان عدتها مائة عسكرى ، وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون ، فطيف بهم . وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار الى صلاة المغرب .

وما زالت بركة الجب متنزها للخلفاء والملوك من بنى أيوب . وكان السلطان صلاح الدين يبرز اليها للصيد ، ويقيم فيها الأيام ، وفعل ذلك الملوك من بعده . واعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبنى بها أحواشا وميدانا كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وبركة الجب وما يليها فى درك بنى صبرة . وهم ينسبون الى صبرة * بن بطيح بن مغالة ابن دعجان بن عنب بن الكليب بن أبى عمرو ابن دمية بن جدس بن أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم . فهم أحد بطون لخم ، وفيهم بنو جذام بن صبيرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم .

« المشتهى » : وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهى .

(*) ص٤٨٩ جـ١ ، ط . بولاق ه

ذكر الأيام التى كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم تتسع بها أحوال الرعيه وتكثر نعمهم

وكان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم ، وهى : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين عليهما السلام ، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس ، وأيام الركوبات .

موسم رأس السنة : وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة أول المحرم فى كل عام لأنها أول ليالى السنة وابتداء أوقاتها . وكان من رسومهم فى ليلة رأس السنة أن يعمل بمطبخ القصر عدة كثيرة من الخراف المقموم ،

والكثير من الرؤوس المقمـوم ، وتفرق على جميع أرباب الرتب وأصحاب الدواوين من العوالى والأدوان أرباب السيوف والأقلام ، مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلوى . فيعم ذلك سائر الناس من خاص الخليفة وجهاته والأستاذين المحنكين الى أرباب الضـوء وهم المشاعلية ، ويتنقل ذلك فى أيدى أهل القاهرة ومصر .

موسم أول العام : وكان لهم بأول العـام عناية كبيرة . فيه يركب الخليفة بزيه المفخـم وهيئته العظيمة كما تقدم ، ويفرق فيه دنانير الغرة التى مر ذكرها عند ذكر دار الضرب ، ويفرق من السماط الذى يعمل بالقصر ، لأعيان أرباب الخدم من أرباب السيوف والأقلام ، بتقرير مرتب : خرفان شواء ، وزبادى طعام ، وجامات حلواء وخبز ، وقطع منفـوخة من سكر ، وأرز بلبن وسكر . فيتناول النـاس من ذلك ما يجل وصفه ، ويتبسطون بما يصل اليهم من دنانير الغرة من رسوم الركوب كما شرح فيما تقدم .

يوم عاشوراء : كانوا يتخـذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق ، ويعمل فيه السـماط العظيم المسمى سماط الحزن . وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسينى فانظره . وكان يصـل الى الناس منه شىء كثير .

فلما زالت الدولة ، اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيـالهم ، ويتبسـطون فى المطـاعم ، ويصـنعون الحلاوات ، ويتخـذون الأوانى الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمـام ، جريا على عادة أهل الشـام التى سـنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن مروان ، ليرغموا بذلك آناف شيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيـه على الحسين بن على لأنه قتـل فيه . وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط . وكلا الفعلين غير جيـد ، والصـواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط .

وما أحسن قول أبى الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء ، وكتب بها اليه ليلة عاشوراء عندما أخر عنـه ما كان من جاريه فى الأهراء :

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندى
والسـيد بن السـيد بـن السـيد
أقسـم بالفرد العلى الصمـد
ان لم يبادر لنجـاز موعـدى
لأحضرن للهنـاء فى غـد
مـكحل العينين مخضوب اليـد

يعرض للشريف بما يرمى به الأشراف من التشيع ، وأنه اذا جاءه بهيئة السرور فى يوم عاشوراء غاظه ذلك ، لأنه من أفعال الغضب . وهو من أحسن ما سمعتـه فى التعريض فلله دره .

عيد النصر : وهو السادس عشر من المحرم . عمله الخليفة الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذى ظهر فيه من محبسه ، ويفعـل فيه ما يفعل فى الأعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة فى النفقة .

وكتب فيه أبو القاسم على بن الصيرفى الى بعض الخطباء : « عيد النصر ، وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدلها على تقصير الواصف * اذا بلغ وتناهى . ونحن نأمرك أن تبرز فى يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التى جرت العادة بمثلها فى الأعياد ، وتوعد بأن تقرأ على الناس الخطبة التى سيرناها اليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله ، وتعتمد فى ذلك ما جرى الرسم فيه فى كل عيد ، وتنتهى فيه الى الغاية التى ليس عليها مزيد . فاعلم هذا واعمل به ان شاء الله تعالى » .

المواليد الستة : كانت مواسم جليلة يعمل الناس فيها ميزات من ذهب وفضة وخشكنانج وحلواء كما مر ذلك .

ليالى الوقود الأربع : كانت من أبهج الليالى وأحسنها . يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب ، وتصل الى الناس فيها أنواع من البر ، وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد . فانظره فى موضعه تجده .

موسم شهر رمضان : وكان لهم فى شهر رمضان عدة أنواع من البر ، منها كشف المساجد .

قال الشريف الجوانى فى كتاب «النقط» : كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام ، طافوا يوما على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر ، فيبدأون بجامع المقس ، ثم بجوامع القاهرة ، ثم بالمشاهد ، ثم بالقرافة ، ثم بجامع مصر ، ثم بمشهد الرأس ... لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وازالة شعثه . وكان أكثر الناس ، ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليون ، يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط .

ابطال المسكرات : قال ابن المأمون : وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية ، فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة ، أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم ، ويحذر من بيع الخمر . فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل بن أمير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة . فكتب به الى جميع ولاة الأعمال ، وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شىء من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهرا ، فقد عرض نفسه لتلافها ، وبرئت الذمة من هلاكها .

ومنها غرة رمضان : وكان فى أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الأمراء ، وغيرهم من أرباب الرتب والخدم ، لكل واحد طبق ، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق ، فيه حلواء وبوسطه صرة من ذهب . فيعم ذلك سائر أهل الدولة ، ويقال لذلك غرة رمضان .

ومنها ركوب الخليفة فى أول شهر رمضان : قال ابن الطوير : فاذا انقضى شعبان ، اهتم بركوب أول شهر رمضان — وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين — فيجرى أمره فى اللباس والآلات والأسلحة والعرض والركوب والترتيب والموكب والطريق المسلوكة ، كما وصفناه فى أول العام ، لا يختل بوجه . ويكتب الى الولاة والنواب والأعمال بمساطير مخلقة يذكر فيها ركوب الخليفة .

(*) ص٤٩٠ جـ١ ، طـ بولاق .

ومنها سماط شهر رمضان : وقد تقدم ذكر السماط فى قاعة الذهب من القصر

سحور الخليفة : قال ابن المأمون — وقد ذكر أسمطة رمضان ، وجلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن الى وقت السحور، والمقرئون تحته يتلون عشرا ويطربون بحيث يشاهدهم الخليفة — ثم حضر بعدهم المؤذنون ، وأخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور ، وختموا بالدعاء ، وقدمت المخاد للوعاظ ، فذكروا فضائل الشهر ومدح الخليفة والصوفيات ، وقام كل من الجماعة للرقص .

ولم يزالوا الى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه ، فحضر بين يدى الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين ، وأحضرت جفان القطائف وجرار الجلاب برسمهم ، فأكلوا وملأوا أكمامهم ، وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون .

ثم جلس الخليفة فى السدلا التى كان بها عند الفطور ، وبين يديه المائدة معبأة جميعها من جميع الحيوان وغيره ، والقعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة ، وحضر الجلساء واستعمل كل منهم ما اقتدر عليه ، وأومأ الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم أجمعين . وكل من تناول شيئا قام وقبل الأرض ، وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله — لأن ذلك كان مستفاضا عندهم غير معيب على فاعله — ثم قدمت الصحون الصينى مملوءة قطائف ، فأخذ منها الجماعة الكفاية .

وقام الخليفة وجلس بالباذهنج ، وبين يديه السحورات المطيبات من لبثين رطب ومخض ، وعدة أنواع عصارات وافطلوات ، وسويق ناعم وجريش ... جميع ذلك بقلوبات وموز ، ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا . وحضر الجلساء ، وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه منه . فتناوله المستخدمون والأستاذون * وفرقوه ، فأخذه القوم فى أكمامهم ، ثم سلم الجميع وانصرفوا

ومنها الختم فى آخر رمضان : وكان يعمل فى التاسع والعشرين منه ... قال ابن المأمون : ولما كان التاسع والعشرين من شهر رمضان ، خرج الأمر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور ، بحكم أنها ليلة ختم الشهر .

وحضر الأجل الوزير المأمون فى آخر النهار الى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر اخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم ، وجلسوا تحت الروشن .

وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور ثلاجى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى ، وجعلها امام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم ، واستفتح المقرئون من الحمد الى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا .

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ، ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا

(*) ص٤٩١ جـ١ ، ط. بولاق .

فى الصوفيات الى أن تثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات ، وقدمت جفان القطائف على الرسم مع البسندود والحلواء ، فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم .

ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ، ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين .

ذكر مذاهبهم فى أول الشهور

اعلم أن القوم كانوا شيعة ، ثم غلوا حتى عدوا من غلاة أهل الرفض . وللشيعة فى أثناء الشهور عمل أحسن ما رأيت فيه ما حكاه أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » قال [1] :

وفى سنين من الهجرة نجمت ناجمة لأجل أخذهم بالتأويل الى اليهود والنصارى ، فاذا لهم جداول وحسبانات يستخرجون بها شهورهم ، ويعرفون منها صيامهم — والمسلمون مضطرون الى رؤية الهلال ، وتفقد ما اكتساه القمر من النور — وجدوهم شاكين فى ذلك ، مختلفين فيه ، مقلدين بعضهم بعضا فى عمل رؤية الهلال بطريق الزيجات .

فرجعوا الى أصحاب علم الهيئة ، فألفوا زيجاتهم مفتتحة بمعرفة أوائل ما يراد من شهور العرب بصنوف الحسبانات ، فظنوا أنها معمولة لرؤية الأهلة ، فأخذوا بعضها

ونسبوه الى جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، وزعموا أنه سر من أسرار النبوة .

وتلك الحسبانات مبنية على حركات التدبير الوسطى دون المعدلة ، أو معمولة على سنة القمر التى هى ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدس يوم ، وأن ستة أشهر من السنة تامة ، وستة أشهر ناقصة ، وأن كل ناقص منها فهو تال لتام .

فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر بها ، خرجت قبل الواجب بيوم فى أغلب الأحوال ، فأولوا قوله عليه السلام « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » وقالوا : معنى صوموا لرؤيته ، أى صوموا اليوم الذى يرى فى عشيته ، كما يقال تهيأوا لاستقباله ، فيقدم التهيؤ على الاستقبال .

قال : ورمضان لا ينقص عن ثلاثين يوما أبدا .

قافلة الحاج : قال فى كتاب « الذخائر والتحف » : ان المنفق على الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار : منها ثمن الطيب والحلواء والشمع راتبا فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصلين الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها فى ثمن الحمايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار . وان النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنة ، وبلغت الى مائتى ألف دينار ، ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول .

(1) قوله « وفى سنين ... الخ » . هكذا هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ التى بيدى . ولا يخفى ما فيها من الركاكة والسقامة . فلتحرر بمراجعة أصلها . اهـ . مصححه .

موسم عيد الفطر : وكان لهم فى موسم عيد الفطر عدة وجوه من الخيرات : منها تفرقة الفطرة ، وتفرقة الكسوة ، وعمل السماط ، وركوب الخليفة لصلاة العيد . وقد تقدم ذكر ذلك كله فيما سبق .

عيد النحر : فيه تفرقة الرسوم من الذهب والفضة ، وتفرقة الكسوة لأرباب الخدم من أهل السيف والقلم ، وفيه ركوب الخليفة لصلاة العيد ، وفيه تفرقة الأضاحى ... كما مر ذلك مبينا فى موضعه من هذا الكتاب .

عيد الغدير : فيه تزويج الأيامى ، وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها والأستاذين المحنكين والمميزين ، وفيه النحر أيضا وتفرقة النحائر على أرباب الرسوم ، وعتق * الرقاب وغير ذلك ... كما سبق بيانه فيما تقدم .

كسوة الشتاء والصيف : وكان لهم فى كل من فصلى الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم . وقد مر ذكر ذلك .

موسم فتح الخليج : وكانت لهم فى موسم فتح الخليج وجوه من البر : منها الركوب لتخليق المقياس ، ومبيت القراء بجامع المقياس ، وتشريف ابن أبى الرداد بالخلع وغيرها ، وركوب الخليفة الى فتح الخليج ، وتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين والمآكل والتحف . وقد تقدم تفصيل ذلك .

(*) ص٤٦٢ جـ١ ، ط. بولاق .

ذكر النوروز

وكان النوروز القبطى فى أيامهم من جملة المواسم . فتتعطل فيه الأسواق ، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النوروز .

قال ابن زولاق : وفى هذه السنة (يعنى سنة ثلاث وستين وثلثمائة) منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ، ومن صب الماء يوم النوروز .

وقال فى سنة أربع وستين وثلثمائة : وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيلة وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وألا توقد نار ، ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال .

وقال ابن ميسر فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : وفيها أراد الآمر بأحكام الله أن يحضر الى دار الملك فى النوروز الكائن فى جمادى الآخرة فى المراكب ، على ما كان عليه الأفضل بن أمير الجيوش ، فأعاد المأمون عليه أنه لا يمكن ، فان الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة ، وحمل اليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ما له قيمة جليلة .

وقال ابن المأمون : وحل موسم النوروز فى التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ، ووصلت الكسوة المختصة به من الطراز وثغر

الاسكندرية ، مع ما يبتاع من المذاب المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق ، وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها .

وأصناف النوروز : البطيخ ، والرمان ، وعراجين الموز ، وأفراد البسر ، وأقفاص التمر القوصى ، وأقفاص السفرجل ، وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر ، من كل لون بكلة مع خبز بر مارق .

قال : وأحضر كاتب الدفتر الاثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها فى يوم النوروز ، وغير ذلك من جميع الأصناف ، وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة ، والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقى مذهبات وحريريات ومعاجر وعصائب مشاومات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى ومشفع ، وفوط ديبقى حريرى .

فأما العين والورق والكسوات ، فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب والحواشى والمستخدمين ورؤساء العشاريات وبحارتها ، ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب .

وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها ، فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ، ويشركهم فى ذلك جميع الأمراء أرباب الأطواق والأنصاف وسائر الأماثل ، وقد تقدم شرح ذلك ، فوقع الوزير المأمون على جميع ذلك بالاتفاق .

وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة : يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى ، وهو مستهل توت — وتوت أول سنتهم — وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية (يعنى دولة الخلفاء الفاطميين) من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم . فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه .

ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويندب مترسمين ... كل ذلك يخرج مخرج الطير ، ويقنع بالميسور من الهبات .

ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهى ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالأقذار .

فان غلط مستور وخرج من داره ، لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فاما فدى نفسه واما فضح . ولم يجر * الحال فى هذا النوروز على هذا ، ولكن قد رش الماء فى الحارات ، وأحيا المنكر فى الدور أرباب الخسارات .

(*) ص٤٩٣ جـ١ ، ط . بولاق .

وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء ، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة وخرق به .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : ان أول من اتخذ النوروز جمشيد — ويقال فى اسمه أيضا جمشاد — أحد ملوك الفرس الأول . ومعناه اليوم الجديد . وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم ، غير أنه فى غير هذا اليوم .

وقد صنف على بن حميرة الأصفهانى كتابا مفيدا فى أعياد الفرس .

وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، من طريق حماد بن سلمة ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة قال : كان اليوم الذى رد الله فيه الى سليمان بن داود خاتمه يوم النوروز ، فجاءت اليه الشياطين بالتحف ، وكانت تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء فى مناقيرها فرشته بين يدى سليمان . فاتخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم .

وعن مقاتل بن سليمان قال : سمى ذلك اليوم نيروزا ، وذلك أنه وافق هذا اليوم الذى يسمونه النيروز ، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم ، واتخذوه عيدا ، وكانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم ويهدون كفعل الخطاف ، ويتيمنون بذلك .

ولله در القائل :

كيف ابتهاجك بالنوروز ياسكنى
وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى
وماؤه كتوالى دمعتى فيه

وقال آخر :

نورز الناس ونورز ت ولكن بدموعى
وذكت نارهم والنار ما بين ضلوعى

وقال غيره :

ولما أتى النوروز ياغاية المنى
وأنت على الاعراض والهجر والصد
بعثت بنار الشوق ليلا الى الحشى
فنورزت صبحا بالدموع على الخد

الميلاد : وهو اليوم الذى ولد فيه عبد الله ورسوله المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيدا ، وتعمله قبط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك . وما برح لأهل مصر به اعتناء .

وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية والبورى . فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام ، بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون فى تاريخه .

الغطاس : ومن مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس فى اليوم الحادى عشر من طوبة .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » : ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة احدى عشرة من طوبة .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل ، والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفه مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع .

وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزواريق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط . لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف .

وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء .

وقال المسيحى فى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة : كان غطاس النصارى ، فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع على شاطىء النيل ، فنصبت أسرة للرئيس فهد ابن ابراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملهون ، وجلس مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس ، فغطس وانصرف .

وقال فى سنة خمس عشرة وأربعمائة : وفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة ، كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه والضأن وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جده العزيز بالله بمصر ، لنظر الغطاس ومعه الحرم .

ونودى ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم الى البحر فى الليل ، وضرب بدر الدولة الخادم الأسود ، متولى الشرطتين ، خيمة عند الجسر * وجلس فيها .

وأمر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بأن توقد المشاعل والنار فى الليل ، فكان وقيدا كثيرا ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ، فقسسوا هناك طويلا الى أن غطسوا .

وقال ابن المأمون: انه كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والنارنج والليمون المراكبى ، وأطنان القصب والسمك والبورى ، برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام .

خميس العهد : ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ، ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ، ويتهادون فيه . وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهبا عشرة آلاف خروبة ، وتفرقتها على جميع أرباب الرسوم كما تقدم .

أيام الركوبات : وكان الخليفة يركب فى كل يوم سبت وثلاثاء الى متنزهاته بالبساتين والتاج وقبة الهواء والخمس وجوه وبستان البعل ودار الملك ومنازل العز والروضة ، فيعم الناس فى هذه الأيام من الصدقات أنواع ما بين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات ، وغير

(*) ص٤٩٤ جـ١ ، ط. بولاق .

ذلك كما تقدم بيانه فى موضعه من هذا الكتاب .

صلاة الجمعة : وكان الخليفة يركب فى كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس : فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرة ، وفى جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمى مرة ، وفى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى . فينال الناس منه فى هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر الجامع الأزهر .

ولله در الفقيه عمارة اليمنى ، فقد ضمن مرثيته أهل القصر جملا مما ذكر . وهى القصيدة التى قال ابن سعد فيها : « ولم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها » :

رميت يادهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فان
قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا
ينفك مابين قرع السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سعيت مهلا أما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حين سما
رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش مكرمة
وخلة حرست من عارض الخلل
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة
لك الملامة ان قصرت فى عذلى
بالله در ساحة القصرين وابك معى
عليهما لا على صفين والجمل
وقل لأهليهما والله ما التحمت
فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل
ماذا عسى كانت الافرنج فاعلة
فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شئ غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبى والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم
محمد وأبوكم غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم اذ أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منهـا جديد عنـدهم وبلى

وموسم كان فى يوم الخليـج لـكم
يأتى تجملـكم فيـه على الجمـل

وأول العـام والعيـدين كم لـكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشـل *

والأرض تهتز فى يوم الغـدير كمـا
يهتـز ما بين قصريكم من الأسـل

والخيـل تعرض فى وشى وفى شـية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل

ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتـاف والعجـل

وما خصصتم ببر أهل ملتـكم
حتى عممتـم به الأقصى من الملـل

كانت رواتبـكم للذمتين ولل
ضيف المقيم وللطارى من الرسل

ثم الطـراز بتنيس الذى عظمت
منه الصـلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من احسانكم نعـم
لمن تصـدر فى علم وفى عمل

وربمـا عادت الدنيا فمعقلها
منكم وأضـحت بكم محلولة العقل

والله لا فاز يوم الحشر مبغضـكم
ولا نجـا من عذاب الله غيـر ولى

ولا سـقى الماء من حر ومن ظمـأ
من كف خيـر البـرايا خاتم الرسل

ولا رأى جنـة الله التى خلقت
من خان عهد الامام العاضد بن على

أئمتى وهـداتى والذخيـرة لى
اذا ارتهنت بما قدمت من عملى

تالله لم أوفهم فى المدح حقهم
لأن فضلهم كالوابل الهطـل

ولو تضاعفت الأقوال واتسعت
ما كنت فيهم بحمـد الله بالخجل

باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل

نور الهـدى ومصابيح الدجى ومحـ
ل الغيث ان ربت الأنواء فى المحـل

أئمـة خلقـوا نورا فنورهم
من محض خالص نور الله لم يغل

والله ما زلت عن حبى لهـم أبـدا
ما أخـر الله لى فى مـدة الأجـل

ويسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله ، وتمحلت له الذنوب ... انتهى ما ذكره رحمه الله تعالى .

ذكر ما كان من أمراء القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية

ولما مات العاضد لدين الله فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده — فكانت عـدة الأشراف فى القصـور مائة وثلاثين ، والأطفال خمسة وسبعين — وجعلهم فى مكان أفرد لهم خـارج القصر ، وجمـع عمومتـه وعشـيرته فى ايوان بالقصر واحترز عليهم ، وفرق بين الرجال والنسـاء لئـلا يتناسلوا ، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم .

(*) ص٤٩٥ جـ١ ، طـ بولاق .

وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس ، وكانت عظيمة الوصف ، واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد ، فأطلق من كان حرا ، ووهب واستخدم باقيهم ، وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق ، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين .

وأخلى القصور من سكانها ، وأغلق أبوابها ، ثم ملكها أمراءه وضرب الألواح علي ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع ، وأقطع خواصه منها وباع بعضها ، ثم قسم القصور : فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب ابن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب الى الدولة الفاطمية . فكان الرجل اذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها .

قال القاضى الفاضل : وفى ثالث عشريه (يعنى ربيعا الآخر سنة سبع وستين) كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ، فقيل ان الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر . وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش وبيان .

وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك ، والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز ، وملئت المناظر المصونة عن الناظر ، والمتنزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر . فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها .

قال : ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، ما لا يفى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر علي حسابه الا من يقدر علي حساب الخلق فى الآخرة .

وقال الحافظ جمال الدين يوسف اليغمورى : وجدت بخط المهذب أبى طالب محمد بن على بن الخيمى * ، حدثنى الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ ، أن القصر أغلق علي ثمانية عشر ألف نسمة : عشرة آلاف شريف وشريفة ، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية .

وقال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين وأخرج من به : كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، ولما أخرجوا منه أسكنوا فى دار المظفر .

وقبض أيضا صلاح الدين على الأمير داود ابن العاضد — وكان ولي العهد ، وينعت بالحامد لله — واعتقل معه جميع اخوته الأمير أبو الأمانة جبريل ، وأبو الفتوح ، وابنه أبو القاسم ، وسليمان بن داود ، وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد ، وعبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد ، واسماعيل بن العاضد ،

(*) ص٤٩٦ جـ١ ، طـ بولاق .

وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل ، وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ ، وجماعة من بنى أعمامه .

فلم يزالوا فى الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان ، الى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة الى قلعة الجبل ، فنقل معه ولد العاضد واخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة ، وبها مات العاضد . واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية .

وملك الأتراك الى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما كان فى سنة ستين وستمائة ، أشهد على من بقى منهم — وهم كمال الدين اسماعيل بن العاضد ، وعماد الدين أبو القاسم بن الأمير أبى الفتوح ابن العاضد ، وبدر الدين عبد الوهاب بن ابراهيم بن العاضد — أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير ، والموضع المعروف بالتربة ظاهرا وباطنا بخط الخوخ السبع ، وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعى بالخط المذكور ، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية ، وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربى ، وجميع الموضع المعروف بدار الفطرة بخط المشهد الحسينى ، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان ، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة ، وجميع قصر الزمرذ ، وجميع البستان الكافورى ... ملك لبيت المال المولوى السلطانى الملكى الظاهرى ، من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه ، ولا لواحد منهم فى ذلك ولا فى شىء منه ، ولا مثوبة بسبب يد ولا ملك ولا وجه من الوجوه كلها ، خلا ما فى ذلك من مسجد لله تبارك وتعالى أو مدفن لآبائهم .

وورخ ذلك الاشهاد بثالث عشر ربيع الأول سنة ستين وستمائة ، وأثبت على قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعى رحمه الله تعالى . وتقرر مع المذكورين أن مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم ، واتصلوا اليه ، يحاسبوا به من جملة ما يحرز ثمنه عند وكيل بيت المال .

وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة وغيرها ورسم ببيعها . فباعها وكيل بيت المال كمال الدين ظافر أولا فأولا ، ونقضت شيئا فشيئا ، وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

واشترى قاعة السدرة بجوار المدرسة والتربة الصالحية قاضى القضاة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد بن على بن مسرور المقدسى الحنبلى ، مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، بألف وخمسة وسبعين دينارا ، فى رابع جمادى الآخرة سنة ستين وستمائة ، من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال ، ثم باعها المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى جمادى الآخرة المذكور .

وقاعة السدرة هذه ، قد صارت هى وقاعة الخيم أصل المدرسة الظاهرية الركنية البيبرسية البندقدارية .

قال القاضي الفاضل : وفي يوم الاثنين سادس شهر رجب (يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة) ظهر تسحب رجلين من المعتقلين في القصر : أحدهما من أقارب المستنصر ، والآخر من أقارب الحافظ .

وأكبرهما سنا كان معتقلا بالايوان . حدث به مرض وأثخن فيه ، ففك حديده ونقل الى القصر الغربي في أوائل سنة ثلاث وثمانين ، واستمر لما به ولم يستقل من المرض ، وطلب ففقد ، واسمه موسى بن عبد الرحمن أبي حمزة بن حيدرة بن أبي الحسن أخي الحافظ .

واسم الآخر موسى بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي اليسر بن محسن بن المستنصر ، وكان طفلا في وقت الكائنة بأهله ، وأقام بالقصر الغربي مع من أسر به الى أن كبر وشب .

قال : وذكر أن القصر الغربي قد استولى عليه الخراب ، وعلا على جدرانه التشعث والهدم ، وأنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين ، وربما تسلق اليه للتطرق للنساء المعتقلات . والمتسلق منه اذا قويت نفسه على التسحب لم تكن عقلته في القصر المذكور مانعة من التسحب .

قال : وعدد من بقي من هذه الذرية ، بدار المظفر والقصر الغربي والايوان ، مائتان واثنان وخمسون شخصا . ذكور ثمانية وتسعون ، واناث مائة وأربعة وخمسون ... تفصيله :

المقيمون بدار المظفر أحد وثلاثون * ذكور أحد عشر كلهم أولاد العاضد لصلبه . اناث عشرون بنات العاضد ، خمسة اخوته ، أربع جهات العاضد ، أربع بنات الحافظ ، ثلاث جهات يوسف ابنه ، وجبريل ابن عمه أربع .

المعتقلون بالايوان خمسة وخمسون رجلا ، منهم الأمير أبو الظاهر بن جبريل بن الحافظ .

المقيمون بالقصر الغربي مائة وستة وستون شخصا : ذكور اثنان وثلاثون ، أكبرهم عمره عشرون سنة ، وأصغرهم عمره سبع عشرة سنة . اناث مائة وأربع وثلاثون : بنات أربع وستون ، أخوات وعمات وزوجات سبعون .

قال : وفي جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، كانت عدة من في دار المظفر بحارة برجوان ، والقصر الغربي والايوان ، من أولاد العاضد وأقاربه ومن معهم مضافا اليهم ، ثلثمائة واثنتين وسبعين نفسا : دار المظفر أحرار ومماليك مائة وست وستون نفسا . القصر الغربي أحرار مائة وأربعون نفسا . الايوان تسعة وسبعون رجلا بالعون .

وأما منازل العز فاشتراها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ابن شادي في نصف شعبان سنة ست وستين وخمسمائة ، وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية واشترى الروضة وجعلها وقفا على المدرسة المذكورة . والله تعالى أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم * .

(*) ص٤٩٧ جـ١ ، ط. بولاق .

(*) ص٤٩٨ جـ١ ، ط. بولاق ، وهي نهاية الجزء الاول .

قال ابن سيده : والحارة كل محلة دنت منازلها . قال : والمحلة منزل القوم .

وبالقاهرة وظواهرها عدة حارات ، وهي :

« حارة بهاء الدين » : هذه الحارة كانت قديما خارج باب الفتوح الذي وضعه القائد جوهر عندما اختط أساس القاهرة من الطوب النيىء . وقد بقي من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين .

وصارت هذه الحارة اليوم من داخل باب الفتوح الذي وضعه أمير الجيوش بدر الجمالي ، وهو الموجود الآن .

وحد هذه الحارة عرضا من خط باب الفتوح الآن الى خط حارة الوراقة بسوق المرحلين ، وحدها طولا فيما وراء ذلك الى خط باب القنطرة .

وكانت هذه الحارة تعرف بحارة الريحانية والوزيرية — وهما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين — فآن بها كانت مساكنهم ، وكان فيها لهاتين الطائفتين دور عظيمة وحوانيت عديدة . وقيل لها أيضا بين الحارتين ، واتصلت العمارة الى السور .

ولم تزل الريحانية والوزيرية بهذه الحارة الى أن كانت واقعة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالعبيد .

وسببها أن مؤتمن الخلافة جوهرا — أحد الأستاذين المحنكين [1] بالقصر — تحدث في ازالة صلاح الدين يوسف بن أيوب من وزارة الخليفة العاضد لدين الله عندما ضايق أهل القصر ، وشدد عليهم ، واستبد بأمور الدولة ، وأضعف جانب الخلافة ، وقبض على أكابر أهل الدولة .

فصار مع جوهر عدة من الأمراء المصريين والجند ، واتفق رأيهم أن يبعثوا الى الفرنج ببلاد الساحل يستدعونهم الى القاهرة ، حتى اذا خرج صلاح الدين الى قتالهم بعسكره ، ثاروا وهم بالقاهرة ، واجتمعوا مع الفرنج على اخراجه من مصر .

فسيروا رجلا الى الفرنج ، وجعلوا كتبهم التي معه في نعل ، وحفظت بالجلد مخافة أن يفطن بها . فسار الرجل الى البير البيضاء قريبا من بلبيس ، فاذ بعض أصحاب صلاح الدين هناك ، فأنكر أمر الرجل من أجل أنه جعل النعلين في يده ، ورآهما وليس فيهما أثر المشي والرجل رث الهيئة ، فارتاب وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب ببطنهما .

فحمل الرجل والكتب الى صلاح الدين ، فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت ، فاذا الذي كتبها من اليهود الكتاب ، فأمر بقتله ، فاعتصم بالاسلام وأسلم ، وحدثه الخبر .

(1) المحنكين : الحافظين . كذا يؤخذ من «القاموس» .

فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة ، فاستشعر الشر ، وخاف على نفسه ، ولزم القصر ، وامتنع من الخروج منه . فأعرض صلاح الدين * عن ذلك جملة .

وطال الأمد ، فظن الخصى أنه قد أهمل أمره ، وشرع يخرج من القصر ، وكانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية فى بستان ، فخرج اليها فى جماعة . وبلغ ذلك صلاح الدين ، فأنهض اليه عدة هجموا عليه ، وقتلوه فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة ، واحتزوا رأسه وأتوا بها الى صلاح الدين

فاشتهر ذلك بالقاهرة وأشيع ، فغضب العسكر المصرى ، وثاروا بأجمعهم فى سادس عشريه ، وقد انضم اليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتى صاروا ما ينيف على خمسين ألفا ، وساروا الى دار الوزارة ، وفيها يومئذ ساكنا بها صلاح الدين ، وقد استعدوا بالأسلحة .

فبادر شمس الدولة فخر الدين توران شاه أخو صلاح الدين ، وصرخ فى عساكر الغز ، وركب صلاح الدين وقد اجتمع اليه طوائف من أهله وأقاربه وجميع الغز ، ورتبهم . ووقفت الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية والطائفة الفرحية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم اليهم بين القصرين .

فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين وأصحابه . فعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على السودان ، فقتل فيها أحد مقدميهم ، فانكف بأسهم قليلا ، وعظمت حملة الغز عليهم ، فانكسروا الى باب الذهب ثم الى باب الزهومة ، وقتل حينئذ عدة من الأمراء المصريين وكثير ممن عداهم .

وكان العاضد فى هذه الوقعة يشرف من المنظرة . فلما رأى أهل القصر كسرة السودان وعساكر مصر ، رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم ، وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فأمر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة ، فأحضر شمس الدولة النفاطين ، وأخذوا فى تطبيب قارورة النفط ، وصوبوا بها على المنظرة التى فيها العاضد .

فخاف العاضد على نفسه ، وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة أحد الأستاذين ، وقال بصوت عال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ، ويقول دونكم والعبيد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم .

فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا ، فحمل عليهم الغز فانكسروا ، وركب القوم أقفيتهم الى أن وصلوا الى السيوفيين ، فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير ، وامتنعوا هناك على الغز بمكان فأحرق عليهم .

وكان فى دار الأرمن التى كانت قريبا من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن كلهم رماة ، ولهم جار فى الدولة يجرى عليهم ، فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة ، حتى امتنعوا عن أن يسيروا الى العبيد ،

(*) ص٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

فأحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقا وقتلا ، ومروا الى العبيد .

فصـــاروا كلما دخلوا مكانا أحرق عليهم ، وقتلوا فيه ، الى أن وصلوا الى باب زويلة ، فاذا هو مغلوق ، فحصروا هناك ، واســـتمر فيهم القتل مدة يومين ، ثم بلغهم أن صـــلاح الدين أحـــرق المنصـــورة التى كانت أعظم حاراتهم .

وأخذت عليهم أفواه السكك ، فأيقنـــوا أنهم قد أخذوا لا محالة ، فصاحوا : الأمان ، فأمنوا ، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، وفتح لهم باب زويلة ، فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شـــمس الدولة فى العســـكر — وقـــد قووا بأمـــوال المهزومين وأسلحتهم — وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد ، وتلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد .

وكان من غـــرائب الاتفـــاقات أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر وبنى القاهرة جوهر القـــائد ، والذى كان سببا فى ازالة الدولة وخراب القاهرة جوهر المنعـــوت بمؤتمن الخلافة هذا .

ثم لما استبد صلاح الدين يوسف بسلطنة الديار المصرية ، بعد موت الخليفة العاضـــد لدين الله ، سكن هذه الحارة الأمير الطواشى الخصى بهـــاء الدين قـــراقوش بن عبـــد الله الأسدى ، فعرفت به .

« حارة برجوان » : منسوبة الى الأســـتاذ أبى الفتوح برجوان الخادم . وكان خصـــيا أبيض تام الخلقة ، ربى فى دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ، فلما حضرته الوفاة وصاه على ابنه الأمير أبى على منصور .

فلما مات العزيز بالله ، أقيم ابنه منصور فى الخلافة من بعده ، وقام بتـــدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتامى ، فدبر الأمور ويرجوان يناكده فيما يصدر عنه ، ويختص بطوائف من العسكر دونه ، الى أن أفسد أمر ابن عمار . فنظر برجوان فى تدبير الأمور يوم الجمعة لثلاث بقين من رمضان ســـنة ســـبع وثمانين وثلثمائة ، وصار الواسطة بين الحاكم وبين الناس ، فأمر بجمع الغلمان ، ونهاهم عن التعرض لأحد من الكتاميين والمغاربة .

ووجه الى دار ابن عمار ، فمنع الناس عنها بعد أن كانوا قد أحاطوا بها وانتهبوا منها ، وأمر أن يجرى لأصـــحاب الرسوم والرواتب جميع ما كان ابن عمار قطعـــه ، وأجرى لابن عمار ما كان يجرى له فى أيام العزيز بالله من الجرايات لنفسه ولأهله وحرمه .

ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل خمسمائة دينار فى كل شهر ، يزيد عن ذلك أو ينقص عنـــه على قدر الأســـعار ، مع ما كان له من الفاكهة وهو فى كل يوم سلة بدينار ، وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف ، وحمل بلح .

وجعل كاتبـــه أبا العلاء * فهد بن ابراهيم النصرانى يوقع عنه ، وينظر فى قصص الرافعين وظلاماتهم . فجلس لذلك فى القصر ، وصار يطالعه بجميع ما يحتاج اليه .

ورتب الغلمان فى القصر ، وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم ، وأزال علل أوليـــاء

(*) ص٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

الدولة ، وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم، ومنع الناس كافة من الترجل له .

فكان الناس يلقونه فى داره ، فاذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه الى القصر ، ما عدا الحسين بن جوهر والقاضى ابن النعمان فقط ، فانهما كانا يتقدمانه من دورهما الى القصر أو يلحقانه ، ويكون سلامهما عليه فى القصر ، حتى أنه لقب كاتبه فهدا بالرئيس ، فصار يخاطب بذلك ويكاتب به .

وكان برجوان يجلس فى دهاليز القصر ، ويجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقع وينظر ، ويطالع برجوان ما يحتاج اليه مما يطالع به الحاكم ، فيخرج الأمر بما يكون العمل به .

وترقت أحوال برجوان الى أن بلغ النهاية ، فقصر عن الخدمة ، وتشاغل بلذاته ، وأقبل على سماع الغناء ، وأكثر من الطرب . وكان شديد المحبة فى الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره ، فيكون معهم كأحدهم .

ثم يجلس فى داره حتى يمضى صدر النهار ، ويتكامل جميع أهل الدولة وأرباب الأشغال على بابه . فيخرج راكبا ، ويمضى الى القصر فيمشى من الأمور ما يختار بغير مشاورة .

فلما تزايد الأمر وكثر استبداده ، تحرد له الحاكم ، ونقم عليه أشياء من تجريه عليه ومعاملته له بالاذلال وعدم الامتثال ، منها أنه استدعاه يوما وهو راكب معه ، فصار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم ، ونحو ذلك من سوء الأدب .

فلما كان يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة ، أنفذ اليه الحاكم عشية للركوب معه الى المقياس ، فجاء بعد ما تباطأ وقد ضاق الوقت ، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم باكيا يصيح : قتل مولاى . وكان هذا الخادم عينا لبرجوان فى القصر .

فاضطرب الناس ، وأشرف عليهم الحاكم ، وقام زيدان صاحب المظلة فصاح بهم : من كان فى الطاعة فلينصرف الى منزله ، ويبكر الى القصر المعمور ... فانصرف الجميع .

فكان من خبر قتل برجوان أنه لما دخل الى القصر ، كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين والعناب ومعه زيدان ، فوافاه برجوان بها وهو قائم فسلم ووقف ، فسار الحاكم الى أن خرج من باب الدويرة ، فوثب زيدان على برجوان وضربه بسكين كانت معه فى عنقه ، وابتدره قوم كانوا قد أعدوا للفتك به ، فأثخنوه جراحة بالخناجر ، واحتزوا رأسه ودفنوه هناك .

ثم ان الحاكم أحضر اليه الرئيس فهدا بعد العشاء الأخيرة ، وقال له : أنت كاتبى . وأمنه وطمنه .

فكانت مدة نظر برجوان فى الوساطة سنتين وثمانية أشهر تنقص يوما واحدا .

ووجد الحاكم فى تركته مائة منديل — يعنى عمامة — كلها شروب ملونة معممة على مائة شاشية ، وألف سراويل دبيقية بألف تكة حرير أرمنى ، ومن الثياب المخيطة والصحاح والحلى والمصاغ والطيب والفرش

والصياغات الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثين ألف دينار ، ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرسا وخمسين بغلة ، ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ، ومائة وخمسين سرجا منها عشرون ذهبا ، ومن الكتب شيء كثير . وحمل لجاريته من مصر الى القاهرة رحل على ثمانين حمارا .

قال ابن خلكان : ويرجوان بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون ... هكذا وجدته مقيدا بخط بعض الفضلاء .

وقال ابن عبد الظاهر : ويسمى الوزغ ، سماه به الحاكم .

« حارة زويلة » : قال ابن عبد الظاهر : لما نزل القائد جوهر بالقاهرة ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها . فزويلة بنت الحارة المعروفة بها . والبئر التى تعرف ببئر زويلة فى المكان الذى يعمل فيه الآن الروايا ، والبابان المعروفان ببابى زويلة .

وقال ياقوت : زويلة — بفتح الزاى وكسر الواو وياء ساكنة وفتح اللام — أربعة مواضع :

الأول : زويلة السودان ، وهى قصبة من أعمال فزان فى جنوب أفريقية ، مدينة كثيرة النخل والزرع .

الثانى : زويلة المهدية ، بلد كالربض للمهدية ، اختطه عبد الله الملقب بالمهدى ، وأسكنه الرعية ، وسكن هو بالمهدية التى استجدها . فكانت دكاكين الرعية وأمتعتهم بالمهدية ، ومنازلهم وحرمهم بزويلة ، فكانوا يظلون بالنهار فى المهدية ، ويبيتون ليلا بزويلة . وزعم المهدى أنه فعل بهم ذلك ليأمن غائلتهم ... قال : أحول بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبينهم وبين نسائهم نهارا .

الثالث : باب زويلة بالقاهرة من جهة الفسطاط .

الرابع : حارة زويلة ، محلة كبيرة بالقاهرة بينها وبين باب زويلة عدة محال ، سميت بذلك لأن جوهرا غلام المعز لما اختط محله بالقاهرة ، أنزل أهل زويلة بهذا المكان فتسمى بهم .

« الحارة المحمودية » : الصواب فى هذه الحارة أن يقال حارة المحمودية على الاضافة ، فانها عرفت بطائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية .

وقد ذكرها المسيحى * فى تاريخه مرارا ... قال فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة : وفيها اقتتلت الطائفة المحمودية واليانسية .

واشتبه أمر هذه الحارة على ابن عبد الظاهر ، فلم يعرفه نسبتها لمن ، وقال : لا أعلم فى الدولة المصرية من اسمه محمود الا ركن الاسلام محمود بن أخت الصالح بن رزيك صاحب التربة بالقرافة ، اللهم الا أن يكون محمود بن مصال الملكى الوزير ، فقد ذكر ابن القفطى أن اسمه محمود ، ومحمود صاحب المسجد بالقرافة ، وكان فى زمن السرى بن الحكم قبل ذلك .

(*) ص٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وهـذا وهم آخر ، فان ابن مصال الوزير اسمه سليمان ، وينعت بنجم الدين .

ووقعت فى هـذه الحـارة نكتة ... قال القاضى الفاضل فى متجـددات سـنة أربـع وتسعين وخمسمائة ، والسلطان يومئذ بمصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين : وكان فى شعبان قد تتابع أهل مصر والقـاهرة فى اظهار المنكرات وترك الانكار لها ، واباحـة أهل الأمر والنهى فعلها ، وتفاحش الأمر فيها الى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره .

وأقيمت طاحون بالمحمودية لطحن حشيشة المزر وأفردت برسمه ، وحميت بيـوت المزر وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة ، فمنهـا ما انتهى أمره فى كل يوم الى ستة عشر دينارا ، ومنع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من مواضع الحمى ، وحملت أوانى الخمـر على رؤوس الأشهاد وفى الأسواق من غير منكر ، وظهر من عاجل عقوبة الله تعالى وقوف زيادة النيل عن معتـادها ، وزيادة سـعر الغلة فى وقت ميسورها .

« حارة الجودرية » : هذه الحارة عرفت أيضـا بالطائفـة الجودرية ، احدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر الله ، على ما ذكره المسبحى .

وقال ابن عبد الظاهر : الجودرية منسوبة الى جمـاعة تعرف بالجـودرية اختطوها ، وكانوا أربعمـائة . منهم أبو على منصـور الجودرى الذى كان فى أيام العـزيز بالله ، وزادت مكانته فى الأيام الحاكمية ، فأضيفت اليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيـق والسواحل وغير ذلك .

ولها حكاية سمعت جماعة يحكونها . وهى أنها كانت سكن اليهود والمعروفة بهم ، فبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها فى وأقات خلواتهم ويغنون :

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل

قال لهم نبيهم نعم الأدام الخل

ويسخرون من هذا القول ، ويتعرضون الى ما لا ينبغى سـاعة . فأتى الى أبوابها وسدها عليهم ليلا وأحرقها . فالى هـذا الوقت لا بيت بها يهودى ، ولا يسكنها أبدا .

وقد كان فى الأيام العزيزية جودر الصقلبى أيضا ... ضرب عنقه ، ونهب ماله فى سنة ست وثمانين وثلثمائة .

« حارة الوزيرية » : هى أيضا تنسب الى طائفـة يقـال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر . وكانت أولا تعرف بحـارة بستان المصمودى ، وعرفت أيضا بحارة الأكراد .

قال ابن عبد الظاهر : الوزيرية منسوبة الى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلش .

وقال ابن الصـيرفى : والطائفـة المنعوتة بالوزيرية الى الآن منسـوبة اليـه ... يعنى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس أبو الفرج . كان يهوديا من أهل بغداد ، فخرج منها الى بلاد الشام ، ونزل بمدينة الرملة وأقام بها ، فصار فيها وكيلا للتجار بها ، واجتمـع فى قبله مال عجز عن أدائه .

ففر الى مصر في أيام كافور الاخشيدى ، فتعلق بخدمته ، ووثب اليه بالمتجر ، فباع اليه أمتعة أحيل بثمنها على ضياع مصر ، فكثر لذلك تردده على الريف ، وعرف أخبار القرى .

وكان صاحب حيل ودهاء ومكر ومعرفة ، مع ذكاء مفرط وفطنة ، فمهر في معرفة الضياع حتى كان اذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها وسائر أحوالها الظاهرة والباطنة ، أتى من ذلك بالغرض .

فكثرت أمواله ، واتسعت أحواله . وأعجب به كافور لما خبر فيه من الفطنة وحسن السياسة ، فقال : لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا .

فلما بلغه هذا عن كافور ، تاقت نفسه الى الولاية ، وأحضر من علمه شرائع الاسلام سرا .

فلما كان في شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة ، دخل الى الجامع بمصر وصلى صلاة الصبح ، وركب الى كافور ومعه محمد بن عبد الله بن الخازن في خلق كثير . فخلع* عليه كافور ، ونزل الى داره ومعه جمع كثير ، وركب اليه أهل الدولة يهنونه ، ولم يتأخر عن الحضور اليه أحد .

فغص بمكانه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وقلق بسببه ، وأخذ في التدبير عليه ونصب الحبائل له حتى خافه يعقوب ، فخرج من مصر فارا منه يريد بلاد المغرب في شوال سنة سبع وخمسين ، وقد مات كافور .

فلحق بالمعز لدين الله أبي تميم معد ، فوقع منه موقعا حسنا ، وشاهد منه معرفة وتدبيرا .

فلم يزل في خدمته حتى قدم من المغرب الى القاهرة في شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فقلده في رابع عشر المحرم سنة ثلاث وستين الخراج ، وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والأحباس والمواريث والشرطتين ، وجميع ما يضاف الى ذلك ، وما يطرأ في مصر وسائر الأعمال . وأشرك معه في ذلك كله عسلوج بن الحسن ، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء في يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون .

فقبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين ، وجلس يعقوب وعسلوج في دار الامارة في جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس للقبالات ، وطالبا بالبقايا من الأموال مما على الناس من المالكين والمتقبلين والعمال ، واستقصيا في الطلب ، ونظرا في المظالم .

فتوفرت الأموال ، وزيد في الضياع ، وتزايد الناس وتكاشفوا ، وامتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا ، فاتضع الدينار الراضى وانحط ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار ، فخسر الناس كثيرا من أموالهم في الدينار الأبيض والدينار الراضى . وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصفا .

واشتد الاستخراج ، فكان يستخرج في اليوم نيف وخمسون ألف دينار معزية ،

(*) ص٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

واستخرج فى يوم واحد مائة وعشرون ألف دينار معزية ، وحصل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار ... وهذا شىء لم يسمع قط بمثله فى بلد .

فاستمر الأمر على ذلك الى المحرم سنة خمس وستين وثلثمائة ، فتشاغل يعقوب عن حضور ديوان الخراج ، وانفرد بالنظر فى أمور المعز لدين الله فى قصره وفى الدور الموافق عليها .

وبعد ذلك بقليل مات المعز لدين الله فى شهر ربيع الآخر منها ، وقام من بعده فى الخلافة ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، ففوض ليعقوب النظر فى سائر أموره ، وجعله وزيرا له فى أول المحرم سنة سبع وستين وثلثمائة .

وفى شهر رمضان سنة ثمان وستين لقبه بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه الا به ، وخلع عليه وحمل ، ورسم له فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة أن يبدأ له فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة عنه ، وخرج توقيع العزيز بذلك .

وفى هذه السنة اعتقل فى القصر ، ورد الأمر الى خير بن القاسم . فأقام معتقلا عدة شهور ، ثم أطلق فى سنة أربع وسبعين ، وحمل على عدة خيول ، وقرىء سجل برده الى تدبير الدولة ، ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ملكه العزيز رقابهم .

فكان يعقوب أول وزراء الخلفاء الفاطميين بديار مصر ، فدبر أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب ، وأعمال هذه الأقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء والتدبير ، وعمل له اقطاعا فى كل سنة بمصر والشام مبلغها ثلثمائة ألف دينار ، واتسعت دائرته ، وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب .

وكان يجلس كل يوم فى داره يأمر وينهى ، ولا يرفع اليه رقعة الا وقع فيها ، ولا يسأل فى حاجة الا قضاها . ورتب فى داره الحجاب نوبا ، وأجلسهم على مراتب ، وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف ، وجعل لهم المناطق ، ورتب فرسين فى داره للنوبة لا تبرح واقفة بسروجها ولجمها لهم برد .

ونصب فى داره الدواوين : فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب ، وديوانا للجيش فيه عدة كتاب ، وديوانا للأموال فيه عدة كتاب وعدة جهابذة ، وديوانا للخراج ، وديوانا للسجلات والانشاء ، وديوانا للمستغلات ، وأقام على هذه الدواوين زمانا . وجعل فى داره خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأشربة ، وعمل على كل خزانة ناظرا .

وكان يجلس عنده فى كل يوم الأطباء لينظروا فى حال الغلمان ، ومن يحتاج منهم الى علاج أو اعطاء دواء ، ورتب فى داره الكتاب والأطباء يقفون بين يديه ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع ، لكل طائفة مكان مفرد ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق .

وألف كتبا فى الفقه والقراءات ، ونصب له مجلسا فى داره يحضره فى كل يوم ثلاثاء ،

ويحضر اليه الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل يتناظرون بين يديه .

فمن تآليفه كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان — وهو كتاب الفقه واختصره — وكتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها فى ألف ورقة ، وكتاب فى الفقه مما سمعه من الامام المعز لدين الله والامام العزيز بالله .

وكان يجلس فى يوم الجمعة أيضا ، ويقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ، وفى حضرته القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود . فاذا فرغ من قراءة ما يقرأ من مصنفاته ، قام الشعراء ينشدون مدائحهم فيه .

وكان فى داره عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم ، فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت ، وجعل فى داره قراء وأئمة يصلون فى مسجد داره ، وأقام بداره عدة مطابخ لنفسه ولجلسائه ولغلمانه وحواشيه .

وكان ينصب مائدة لخاصته يأكل هو وخواصه من أهل العلم ووجوه كتابه وخواص غلمانه ومن يستدعيه عليها ، وينصب عدة موائد لبقية الحجاب والكتاب والحواشى .

وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من المعز والعزيز ، لا يمنع أحد من مجلسه ، فيجتمع عنده الخاص والعام . ورتب عند العزيز بالله جماعة لا يخاطبون الا بالقائد ، وأنشأ عدة مساجد ومساكن بمصر والقاهرة .

وكان يقيم فى شهر رمضان الأطعمة للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف ، ولجماعة كثيرة من الفقراء . وكان اذا فرغ الفقهاء والوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطيب .

ومرض مرة من علة أصابت يده ، فقال فيه عبد الله بن محمد بن أبى الجرع * :

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت
رأيت فى كل شىء ذلك الألما

تأمل الملك وانظر فرط علته
من أجله ، واسأل القرطاس والقلما

وشاهد البيض فى الأغماد حائمة
الى العدا ، وكثيرا ما روين دما

وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت
كأنما أشعرت من أجله سقما

هل ينهض المجد الا أن يؤيده
ساق يقدم فى انهاضه قدما ؟

لولا العزيز وآراء الوزير معا
تحيفتنا خطوب تشعب الأمما

فقل لهذا وهذا أنتما شرف
لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما

كلاكما لم يزل فى الصالحات يدا
مبسوطة ولسانا ناطقا وفما

ولا أصابكما أحداث دهركما
ولا طوى لكما ما عشتما علما

ولا انمحت عنك يامولاى عافية
فقد محوت بما أوليتنى العدما

(*) ص٦ ج٢ ، ط. بولاق .

وكان الناس يفتون بكتابه في الفقه، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأجرى العزيز بالله لجماعة فقهاء يحضرون مجلس الوزير أرزاقا في كل شهر تكفيهم .

وكان للوزير مجلس في داره للنظر في رقاع المرافعين والمتظلمين ، ويوقع بيده في الرقاع ، ويخاطب الخصوم بنفسه .

وأراد العزيز بالله أن يسافر الى الشام في زمن ابتداء الفاكهة ، فأمر الوزير أن يأخذ الأهبة لذلك ، فقال : يامولاى لكل سفر أهبة على مقداره ، فما الغرض من السفر ؟

فقال : انى أريد التفرج بدمشق لأكل القراصيا .

فقال : السمع والطاعة .

وخرج فاستدعى جميع أرباب الحمام ، وسألهم عما بدمشق من طيور مصر وأسماء من هي عنده — وكانت مائة ونيفا وعشرين طائرا — ثم التمس من طيور دمشق التي هي في مصر عدة ، فأحضرها ، وكتب الى نائبه بدمشق يقول : ان بدمشق كذا وكذا طائرا ، وعرفه أسماء من هي عنده ، وأمره باحضارها اليه جميعها ، وأن يصيب من القراصيا في كل كاغدة ، ويشدها على كل طائر منها ، ويسرحها في يوم واحد .

فلم يمض الا ثلاثة أيام أو أربعة حتى وصلت الحمائم كلها ، ولم يتأخر منها الا نحو عشر ، وعلى جناحها القراصيا . فاستخرجها من الكواغد ، وعملها في طبق من ذهب وغطاها ، وبعث بها الى العزيز بالله مع خادم ، وركب اليه وقدم ذلك ، وقال : ياأمير المؤمنين قد حضرنا قبالك القراصيا ههنا ، فان أغناك هذا القدر والا استدعينا شيئا آخر .

فعجب العزيز بالوزير ، وقال : مثلك يخدم الملوك ياوزير .

واتفق أنه سابق العزيز بين الطيور ، فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز . فشق ذلك على العزيز ، ووجد أعداء الوزير سبيلا الى الطعن فيه ، فكتبوا الى العزيز « انه قد اختار من كل صنف أعلاه ، ولم يترك لأمير المؤمنين الا أدناه حتى الحمام » .

فبلغ ذلك الوزير ، فكتب الى العزيز :

قل لأمير المؤمنين الذى
له العلى والمثل الثاقب

طائرك السابق لكنه
لم يأت الا وله حاجب

فأعجب العزيز ذلك ، وأعرض عما وشى به .

ولم يزل على حال رفيعة ، وكلمة نافذة الى أن ابتدأت به علته يوم الأحد الحادى والعشرين من شوال سنة ثمانين وثلثمائة ، ونزل اليه العزيز بالله يعوده ، وقال له : وددت أنك تباع فأبتاعك بمالى ، أو تفدى فأفديك بولدى ، فهل من حاجة توصى بها يايعقوب ؟

فبكى وقبل يده ، وقال : أما فيما يخصنى فأنت أرعى بحقى من أن أسترعيك اياه ، وأرأف على من أن أوصيك به . ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بك وبدولتك : سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية

بالدعوة والشكر ، ولا تبق على مفرج بن دعقل ان عرضت لك فيه فرصة .

وانصرف العزيز ، فأخذته السكتة . وكان فى سياق الموت يقول : لا يغلب الله غالب .

ثم قضى نحبه ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجة ، فأرسل العزيز بالله الى داره الكفن والحنوط ، وتولى غسله القاضى محمد ابن النعمان ، وقال : كنت والله أغسل لحيته وأنا أرفق به خوفا أن يفتح عينه فى وجهى .

وكفن فى خمسين ثوبا ثلاثين مثقلا — يعنى منسوجا بالذهب — ووشى مذهبا وشرب ديبقى مذهبا وحقة كافورا وقارورتى مسك ، وخمسين منا ماء ورد . وبلغت قيمة الكفن والحنوط عشرة آلاف دينار .

وخرج مختار الصقلبى وعلى بن عمر العداس والرجال بين أيديهم ينادون : لا يتكلم أحد ولا ينطق . وقد اجتمع الناس فيما بين القصر ودار الوزير التى عرفت بدار الديباج .

ثم خرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه ، حتى وصل الى داره ، فنزل وصلى عليه وقد طرح على تابوته ثوب مثقل ، ووقف حتى دفن بالقبة التى كان بناها وهو يبكى ، ثم انصرف .

وسمع العزيز وهو يقول : واطول * أسفى عليك ياوزير ، والله لو قدرت أفديك بجميع ما أملك لفعلت .

(*) ص٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأمر باجراء غلمانه على عادتهم ، وعتق جميع مماليكه ، وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ، ولا يحضرها من عادته الحضور .

وعمل على قبره ثوبان مثقلان ، وأقام الناس عند قبره شهرا ، وغدا الشعراء الى قبره ، فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلهم .

وبلغ العزيز أن عليه ستة عشر ألف دينار دينا ، فأرسل بها الى قبره ، فوضعت عليه ، وفرقت على أرباب الديون ، وألزم القراء بالمقام على قبره ، وأجرى عليهم الطعام .

وكانت الموائد تحضر الى قبره كل يوم مدة شهر . يحضر نساء الخاصة كل يوم ومعهن نساء العامة ، فتقوم الجوارى بأقداح الفضة والبلور وملاعق الفضة ، فيسقين النساء الأشربة والسويق بالسكر ، ولم تتأخر نائحة ولا لاعبة عن حضور القبر مدة الشهر .

وخلف أملاكا وضياعا قياسير ورباعا ، وعينا وورقا ، وأوانى ذهبا وفضة وجوهرا وعنبرا وطيبا وثيابا ، وفرشا ومصاحف وكتبا ، وجوارى وعبيدا ، وخيلا وبغالا ونوقا وحمرا وابلا وغلالا ، وخزائن مابين أشربة وأطعمة ... قومت بأربعة آلاف ألف دينار ، سوى ما جهز به ابنته وهو ما قيمته مائتا ألف دينار . وخلف ثمانمائة حظية سوى جوارى الخدمة .

فلم يتعرض العزيز لشىء مما يملكه أهله وجواريه وغلمانه ، وأمر بحفظ جهاز ابنته الى أن زوجها ، وأجرى لمن فى داره كل شهر ستمائة دينار للنفقة ، سوى الكسوة

والجرايات وما يحمل اليهم من الأطعمـة من القصر ، وأمر بنقل ما خلفه الى القصر . فلما تم له من يوم وفاته شهر ، قطع الأمير منصور ابن العزيز جميع مستغلاته .

وأقر العزيز جميع ما فعله الوزير وما ولاه من العمال على حاله ، وأجرى الرسـوم التى كان يجريها ، وأقر غلمانه على حالهم وقال : هؤلاء صنائعى — وكانت عدة غلمان الوزير أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية — وزاد العزيز أرزاقهم عما كانت عليه وأدناهم . واليـهم تنسـب الـوزيرية ، فانهـا كانت مساكنهم .

واتفق أن الوزير عمر قبة أنفق عليها خمسة عشر ألف دينار . وآخر ما قال : لقد طال آمر هذه القبة ... ما هذه قبة ، هذه تربة ! فكانت كذلك ، ودفن تحتها . وموضع قبره اليـوم المدرسة الصاحبية .

واتفق أنه وجد فى داره رقعـة مكتـوب فيها :

احذروا من حوادث الأزمان
وتوقوا طوارق الحدثان

قد أمنتم ريب الزمان ونمتم
رب خوف مكمن فى الأمان

فلما قرأها قال : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيـم . ولم يلبث بعـدها الا أياما يسيرة ومرض فمات .

« حارة الباطلية » : عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية . قال ابن عبد الظاهر : وكان المعز لما قسم العطاء فى الناس ، جاءت طائفة فسألت عطاء ، فقيل لها فرغ ما كان حاضرا ولم يبق شىء ، فقالوا : رحنا نحن فى الباطل ... فسموا الباطلية ، وعرفت هذه الحارة بهم .

وفى سنة ثلاث وستين وستمائة احتـرقت حارة الباطلية ، عندما كثر الحريق فى القاهرة ومصر ، واتهم النصارى بفعل ذلك . فجمعهم الملك الظاهر بيبرس ، وحملت لهم الأحطاب الكثيرة والحلفاء ، وقدموا ليحرقوا بالنار . فتشفع لهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العسـاكر ، على أن يلتـزموا بالأموال التى احترقت ، وأن يحملوا الى بيت المال خمسين ألف دينار ... فتركوا .

وجرى فى ذلك ما تستحسن حكايته . وهو أنه قد جمع مع النصارى سائر اليهود ، وركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة ، وقد اجتمع الناس من كل مكان للتشفى بحريقهم لما نالهم من البلاء فيما دهوا به من حريق الأماكن ، لا سيما الباطلية فانها أتت النـار عليها حتى حرقت بأسرها .

فلمـا حضر السلطـان ، وقدم اليهـود والنصـارى ليحرقوا ، برز ابن الـكازرونى اليهودى — وكان صيرفيا — وقال للسلطان : سألتك بالله لا تحرقنـا مع هؤلاء الـكلاب الملاعين أعدائنا وأعدائكم ، أحرقنـا ناحيـة وحدنا .

فضحك السلطان والأمراء ، وحينئذ تقرر الأمر على ما ذكر . فندب لاستـخراج المال منهم الأمير سـيف الدين بلبـان المهرانى ، فاستخلص بعض ذلك فى عدة سنين . وتطاول

الحال فدخل كتاب الأمراء مع مضادىهم ، وتحيلوا فى ابطال ما بقى ، فبطل فى أيام السعيد بن الظاهر .

وكان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حنقهم لما أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف وقيسارية وطرابلس ويافا وانطاكية .

وما زالت الباطلية خرابا ، والناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون : كأن فى باطنه حريق الباطلية .

ولما عمر الطواشى بهادر المقدم داره بالباطلية ، عمر فيها مواضع بعد سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

« حارة الروم » : قال ابن عبد الظاهر : واختطت الروم حارتين : حارة الروم الآن ، وحارة الروم الجوانية . فلما ثقل ذلك عليهم قالوا : الجوانية لا غير .

والوراقون الى هذا الوقت يكتبون حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا المعروفة اليوم بالجوانية .

وفى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم ، فهدمت ونهبت .

« حارة الديلم » : عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى ، حين قدم ومعه أولاد * مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك ، فى سنة ثمان وستين وثلثمائة ، فسكنوا بها فعرفت بهم .

وهفتكين هذا يقال له ألفتكين أبو منصور التركى الشرابى ، غلام معز الدولة أحمد بن بويه ، ترقى فى الخدم حتى غلب فى بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة ، وكان فيه شجاعة وثبات فى الحرب .

فلما سارت الأتراك من بغداد لحرب الديلم ، جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين ، الا أن أصحابه انهزموا عنه وصار فى طائفة قليلة ، فولى بمن معه من الأتراك وهم نحو الأربعمائة ، فسار الى الرحبة ، واخذ منها على البر الى أن قرب من حوشبة احدى قرى الشام ، وقد وقع فى قلوب العربان منه مهابة .

فخرج اليه ظالم بن مرهوب العقيلى من بعلبك ، وبعث الى أبى محمود ابراهيم بن جعفر ، أمير دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله ، يعلمه بقدوم هفتكين من بغداد لاقامة الخطبة العباسية وخوفه منه . فأنفذ اليه عسكرا وسار الى ناحية حوشبة يريد هفتكين ، وسار بشارة الخادم من قبل أبى المعالى بن حمدان عونا لهفتكين ، فرد ظالم الى بعلبك من غير حرب ، وسار بشارة بهفتكين الى حمص ، فحمل اليه أبو المعالى ، وتلقاه وأكرمه .

وكان قد ثار بدمشق جماعة من أهل الدعارة والفساد ، وحاربوا عمال السلطان ، واشتد أمرهم ، وكان كبيرهم يعرف بابن الماورد . فلما بلغهم خبر هفتكين بعثوا اليه من دمشق الى حمص يستدعونه ، ووعدوه بالقيام معه على عساكر المعز واخراجهم من

(*) ص٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

دمشق ليلى عليهم . فوقع ذلك منه بالموافقة ، وصار حتى نزل بثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع وستين وثلثمائة .

فبلغ عسكر المعز خبر الفرنج ، وأنهم قد قصدوا طرابلس ، فساروا بأجمعهم الى لقاء العدو . ونزل هفتكين على دمشق من غير حرب فأقام أياما ، ثم سار يريد محاربة ظالم ففر منه ، ودخل هفتكين بعلبك . فطرقه العدو من الروم والفرنج ، وانتهبوا بعلبك ، وأحرقوا وذلك فى شهر رمضان ، وانتشروا فى أعمال بعلبك والبقاع يقتلون ويأسرون ويحرقون ، وقصدوا دمشق وقد التحق بها هفتكين ، فخرج اليهم أهل دمشق ، وسألوهم الكف عن البلد والتزموا بمال .

فخرج اليهم هفتكين وأهدى اليهم ، وتكلم معهم فى أنه لا يستطيع جباية المال لقوة ابن الماورد وأصحابه ، وأمر ملك الروم به فقبض عليه وقيده ، وعاد فجبى المال من دمشق بالعنف ، وحمل الى ملك الروم ثلاثين ألف دينار ، ورحل الى بيروت ، ثم الى طرابلس . فتمكن هفتكين من دمشق ، وأقام بها الدعوة لأبى بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسى ، وسير الى العرب السرايا فظفرت ، وعادت اليه بعدة ممن أسرته من رجال العرب فقتلهم صبرا .

وكان قد تخوف من المعز ، فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعز ، وما زال بهم حتى وافوا دمشق فى سنة خمس وستين ، ونزلوا على ظاهرها ومعهم كثير من أصحاب هفتكين الذين كانوا قد تشتتوا فى البلاد . فقوى بهم ، ولقى القرامطة وحمل اليهم وسر بهم ، فأقاموا على دمشق أياما ، ثم رحلوا نحو الرملة وبها أبو محمود فلحق بيافا ، ونزل القرامطة الرملة ، ونصبوا القتال على يافا حتى كلّ الفريقان ، وسئموا جميعا من طول الحرب .

وسار هفتكين على الساحل ، ونزل صيدا وبها ظالم بن مرهوب العقيلى وابن الشيخ من قبل المعز ، فقاتلهم قتالا شديدا انهزم منه ظالم الى صور ، وقتل بين الفريقين نحو أربعة آلاف رجل ، فقطع أيدى القتلى من عسكر المعز ، وسيرها الى دمشق فطيف بها ، ثم سار عن صيدا يريد عكا وبها عسكر المعز . وكان قد مات المعز فى شهر ربيع الآخر ، وقام من بعده ابنه العزيز بالله ، وسير جوهر القائد فى عسكر عظيم الى قتال هفتكين والقرامطة .

فبلغ ذلك القرامطة وهم على الرملة ، ووصل الخبر بمسيره الى هفتكين وهو على عكا ، فخاف القرامطة وفروا عنها ، فنزلها جوهر . وسار من القرامطة الى الأحساء التى هى بلادهم جماعة ، وتأخر عدة ، وسار هفتكين من عكا الى طبرية ، وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم ، فاجتمع بهم فى طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والثنية وأدخلها الى دمشق ، وسار اليها فتحصن بها . ونزل جوهر على ظاهر دمشق لثمان بقين من ذى القعدة ، فبنى على معسكره سورا ، وحفر خندقا عظيما وجعل له أبوابا . وجمع هفتكين الناس للقتال ، وكان قد بقى بعد ابن الماورد رجل يعرف بقسام التراب ، وصار فى عدة وافرة من الدعار ،

فأعانه هفتكين وقواه وأمده بالسلاح وغيره . ووقعت بينهم وبين جوهر حروب عظيمة طويلة الى يوم الحادى عشر من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فاختل أمر هفتكين وهمّ بالفرار ، ثم انه استظهر .

ووردت الأخبار بقدوم الحسن بن أحمد القرمطى الى دمشق ، فطلب جوهر الصلح على أن يرحل عن دمشق من غير أن يتبعه أحد . وذلك أنه رأى أمواله قد قلت ، وهلك كثير مما كان فى عسكره حتى صار أكثر عسكره رجالة وأعوزهم العلف ، وخشى قدوم القرامطة . فأجابه هفتكين وقد عظم فرحه واشتد سروره . فرحل فى ثالث جمادى الأولى ، وجد فى المسير وقد قرب القرامطة فأناخ بطبرية .

فبلغ ذلك القرمطى * ، فقصده وقد سار عنها الى الرملة ، فبعث اليه بسرية كانت لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب ، وأدركه القرمطى وسار فى أثره هفتكين . فمات الحسن بن أحمد القرمطى بالرملة ، وقام من بعده بأمر القرامطة ابن عمه جعفر ، ففسد ما بينه وبين هفتكين ، ورجع عن الرملة الى الأحساء ، وناصب هفتكين القتال ، وألح فيه على جوهر حتى انهزم عنه وسار الى عسقلان . وقد غنم هفتكين مما كان معه شيئا يجل عن الوصف ، ونزل على البلد محاصرا لها . وبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير الى بلاد الشام .

فلما طال الأمر على جوهر ، راسل هفتكين حتى يقرر الصلح على مال يحمله اليه ، وأن يخرج من تحت سيف هفتكين ، فعلق سيفه على باب عسقلان ، وخرج جوهر ومن معه من تحته ، وساروا الى القاهرة ، فوجد العزيز قد برز يريد المسير فسار معه . وكان مدة قتال هفتكين لجوهر على ظاهر الرملة وفى عسقلان سبعة عشر شهرا .

وسار العزيز بالله حتى نزل الرملة . وكان هفتكين بطبرية ، فسار الى لقاء العزيز ومعه أبو اسحاق وأبو طاهر أخو عز الدولة بن بختيار بن أحمد بن بويه ، وأبو اللحاد مرزبان عز الدولة بن بختيار بن عز الدولة بن بويه ، فحاربوه فلم يكن غير ساعة حتى هزمت عساكر العزيز عساكر هفتكين ، وملكوه فى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وستين وثلثمائة .

واستأمن أبو اسحاق ومرزبان بن بختيار ، وقتل أبو طاهر أخو عز الدولة بن بختيار ، وأخذ أكثر أصحابه أسرى ، وطلب هفتكين فى القتلى فلم يوجد ، وكان قد فر وقت الهزيمة على فرس بمفرده ، فأخذه بعض العرب أسيرا ، فقدم به على مفرج بن دعقل ابن الجراح الطائى وعمامته فى عنقه ، فبعث به الى العزيز ، فأمر به فشهر فى العسكر ، وطيف به على جمل ، فأخذ الناس يلطمونه ويهزون لحيته حتى رأى فى نفسه العبر .

ثم سار العزيز بهفتكين والأسرى الى القاهرة ، فاصطنعه ومن معه ، وأحسن اليه غاية الاحسان ، وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع ، حتى قال : لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطوفى اليه ، بما غمرنى من فضله واحسانه .

(*) ص ٩ جـ ٢ ، ط . بولاق .

فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة : ياعم ، والله انى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى .

وبلغ العزيز أن الناس من العامة يقولون : ماهذا التركى ؟ فأمر به فشهر فى أجمل حال . ولما رجع من تطوفه ، وهب له مالا جزيلا ، وخلع عليه ، وأمر سائر الأولياء بأن يدعوه الى دورهم . فما منهم الا من عمل له دعوة ، وقدم اليه ، وقاد بين يديه الخيول .

ثم ان العزيز قال له بعد ذلك : كيف رأيت دعوات أصحابنا ؟

فقال : يامولانا حسنة فى الغاية ، وما فيهم الا من أنعم وأكرم .

فصار يركب للصيد والتفرج ، وجمع اليه العزيز بالله أصحابه من الأتراك والديلم ، واستحجبه واختص به . وما زال على ذلك الى أن توفى فى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة . فاتهم العزيز وزيره يعقوب بن كلس أنه سمه لأنه (هفتكين) كان يترفع عليه ، فاعتقله مدة ثم أخرجه .

« حارة الأتراك » : هذه الحارة تجاه الجامع الأزهر ، وتعرف اليوم بدرب الأتراك ، وكان نافذا الى حارة الديلم . والوراقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم ، وتارة يضيفونها اليها ويجعلونها من حقوقها . فيقولون تارة : حارة الديلم والأتراك ، وتارة يقولون : حارتى الديلم والأتراك .

وقيل لها حارة الأتراك لأن هفتكين لما غلب ببغداد ، سار معه من جنسه أربعمائة من الأتراك ، وتلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدة من أصحابه ، فلما جمع لحرب العزيز بالله كان أصحابه ما بين ترك وديلم .

فلما قبض عليه العزيز ، ودخل به الى القاهرة فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين وثلثمائة كما تقدم ، نزل الديلم مع أصحابهم فى موضع حارة الديلم ، ونزل هفتكين بأتراكه فى هذا المكان فصار يعرف بحارة الأتراك .

وكانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة ، الا أن كل جنس على حدة لتخالفهما فى الجنسية ، ثم قيل بعد ذلك درب الأتراك .

« حارة كتامة » : هذه الحارة مجاورة لحارة الباطلية ، وقد صارت الآن من جملتها . كانت منازل كتامة بها عندما قدموا من المغرب مع القائد جوهر ثم مع العزيز . وموضع هذه الحارة اليوم حمام كواى وما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام — حيث الموضع المعروف بدرب ابن الأعسر الى رأس الباطلية — وكانت كتامة هى أصل دولة الخلفاء الفاطميين .

ذكر أبى عبد الله الشيعى

هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى ، من أهل صنعاء اليمن ، ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد ، ثم سار الى ابن حوشب باليمن ، وصار من كبار أصحابه ، وكان له علم وفهم ، وعنده دهاء ومكر .

فورد على ابن حوشب موت الحلواني داعي المغرب ورفيقه ، فقال لأبي عبد الله الشيعي : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد خربها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك .

فخرج من اليمن الى مكة ، وقد زوده ابن حوشب بمال * ، فسأل عن حجاج كتامة فأرشد اليهم ، واجتمع بهم وأخفى عنهم قصده . وذلك أنه جلس قريبا منهم فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فحدثهم فى ذلك وأطال ، ثم نهض ليقوم ، فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فأذن لهم ، فصاروا يترددون اليه لما رأوا من علمه وعقله .

ثم انهم سألوه : أين يقصد ؟

فقال : أريد مصر .

فسروا بصحبته ورحلوا من مكة ، وهو لا يخبرهم شيئا من خبره وما هو عليه من القصد ، وشاهدوا منه عبادة وورعا وتحرجا وزهادة . فقويت رغبتهم فيه ، واشتملوا على محبته ، واجتمعوا على اعتقاده ، وساروا بأسرهم خدما له .

وهو فى أثناء ذلك يستخبرهم عن بلادهم ، ويعلم أحوالهم ، ويفحص عن قبائلهم ، وكيف طاعتهم للسلطان بأفريقية . فقالوا له : ليس له علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام .

قال : أفتحملون السلاح ؟

قالوا : هو شغلنا .

وما برح حتى عرف جميع ما هم عليه .

فلما وصلوا الى مصر أخذ يودعهم . فشق عليهم فراقه ، وسألوه عن حاجته بمصر ، فقال : ما لى بها من حاجة الا أنى أطلب التعليم بها .

قالوا : فأما اذا كنت تقصد هذا ، فان بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك . وما زالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم .

فساروا به الى أن قاربوا بلادهم ، وخرج الى لقائهم أصحابهم — وكان عندهم حس كبير من التشيع ، واعتقاد عظيم فى محبة أهل البيت كما قرره الحلوانى — فعرفهم القوم خبر أبى عبد الله ، فقاموا بحق تعظيمه واجلاله ، ورغبوا فى نزوله عندهم ، واقترعوا فيمن يضيفه .

ثم ارتحلوا الى أرض كتامة ، فوصلوا اليها منتصف الربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فما منهم الا من سأله أن يكون منزله عنده ، فلم يوافق أحدا منهم وقال : أين يكون فج الأخيار ؟

فعجبوا من ذلك ، ولم يكونوا قط ذكروه له منذ صحبوه ، فدلوه عليه فقصده وقال : اذا حللنا به صرنا نأتى كل قوم منكم فى ديارهم ، ونزورهم فى بيوتهم . فرضوا جميعا بذلك .

وسار الى جبل أيلجان وفيه فج الأخيار ، فقال : هذا فج الأخيار وما سمى الا بكم ، ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ولخروجكم فى هذا الفج سمى فج الأخيار .

(*) ص١٠ ج٢ ، ط. بولاق .

فتسامعت به القبائل ، وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره حتى أن كتامة اقتتلت عليه مع قبائل البربر ، وهو لا يذكر اسم المهدى ولا يعرج عليه . فبلغ خبره ابراهيم بن الأغلب أمير افريقية ، فقال أبو عبد الله لكتامة : أنا صاحب البذر الذى قال لكم أبو سفيان والحلوانى .

فازدادت محبتهم له ، وعظم أمره فيهم ، وأتته القبائل من كل مكان . وسار الى مدينة ناصروق ، وجمع الخيل ، وصير أمرها للحسن ابن هارون كبير كتامة ، وخرج للحرب فظفر وغنم ، وعمل على ناصروق خندقا . فرجعت اليه قبائل من البربر وحاربوه ، فظفر بهم وصارت اليه أموالهم ، ووالى الغزو فيهم حتى استقام له أمرهم ، فسار وأخذ مدائن عدة .

فبعث اليه ابن الأغلب بعساكر كانت له معهم حروب عظيمة وخطوب عديدة ، وأنباء كثيرة آلت الى غلب أبى عبد الله وانتشار أصحابه من كتامة فى البلاد ، فصار يقول : المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر الى وأطاعنى .

وأخذ يغرى الناس بابن الأغلب ، ويذكر كرامات المهدى وما يفتح الله له ، ويعدهم بأنهم يملكون الأرض كلها .

وسير الى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له ، وأنه ينتظره فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص ، وكان قد اشتهر بها ، وطلبه الخليفة المكتفى ، ففر منه بابنه أبى القاسم وسار الى مصر ،

وكان لهما قصص مع النوشرى عامل مصر حتى خلصا منه ، ولحقا ببلاد المغرب .

وبلغ ابن الأغلب زيادة الله خبر مسير عبيد الله ، فأزكى له العيون ، وأقام له الأعوان حتى قبض عليه بسلجماسة — وكان عليها اليسع ابن مدرار — وحبس بها هو وابنه أبو القاسم .

وبلغ ذلك أبا عبد الله ، وقد عظم أمره ، فسار وضايق زيادة الله بن الأغلب ، وأخذ مدائنه شيئا بعد شىء ، وصار فيما ينيف على مائتى ألف ، وألح على القيروان حتى فر زيادة الله الى مصر ، وملكها أبو عبد الله ، ثم سار الى رفادة فدخلها أول رجب سنة ست وتسعين ومائتين ، وفرق الدور على كتامة ، وبعث العمال الى البلاد ، وجمع الأموال ، ولم يخطب باسم أحد .

فلما دخل شهر رمضان سار من رفادة ، فاهتز لرحيله المغرب بأسره ، وخافته زناتة وغيرها وبعثوا اليه بطاعتهم ، وسار الى سلجماسة ، ففر منه اليسع بن مدرار واليها ، ودخل البلد فأخرج عبيد الله وابنه من السجن ، وقال : هذا المهدى الذى كنت أدعوكم اليه .

وأركبه هو وابنه ، ومشى بسائر رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يقول : هذا مولاكم ، ويبكى من شدة الفرح حتى وصل الى فسطاط ضرب له فأنزل فيه ، وبعث فى طلب اليسع ، فأدركه ، وحمل اليه فضربه بالسياط وقتله .

ثم سار المهدى الى رفادة ، فصار بها فى آخر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين .

ولما تمكن قتل أبا عبد الله وأخاه فى يوم الاثنين للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فكان هذا ابتداء أمر الخلفاء الفاطميين * .

وما زالت كتامة هى أهل الدولة مدة خلافة المهدى عبيد الله ، وخلافة ابنه القاسم القائم بأمر الله ، وخلافة المنصور بنصر الله اسماعيل ابن القاسم ، وخلافة معد المعز لدين الله ابن المنصور . وبهم أخذ ديار مصر لما سيرهم اليها مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وهم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من المغرب فى سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

فلما كان فى أيام ولده العزيز بالله نزار ، اصطنع الديلم والأتراك ، وقدمهم وجعلهم خاصته ، فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد . الى أن مات العزيز بالله ، وقام من بعده أبو على المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله ، فقدم ابن عمار الكتامى ، وولاه الوساطة — وهى فى معنى رتبة الوزارة — فاستبد بأمور الدولة ، وقدم كتامة وأعطاهم ، وحط من الغلمان الأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز .

فاجتمعوا الى برجوان — وكان صقلبيا وقد تاقت نفسه الى الولاية — فأغرى المصطنعة بابن عمار حتى وضعوا منه واعتزل عن الأمر ، وتقلد برجوان الوساطة ، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر ، وزاد فى عطاياهم وقواهم . ثم قتل الحاكم ابن عمار وكثيرا من رجال دولة أبيه وجده ، فضعفت كتامة ، وقويت الغلمان .

فلما مات الحاكم ، وقام من بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله على ، أكثر من اللهو ، ومال الى الأتراك والمشارقة ، فانحط جانب كتامة ، وما زال ينقص قدرهم ويتلاشى أمرهم ... حتى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر ، فاستكثرت أمه من العبيد حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود ، واستكثر هو من الأتراك ، وتنافس كل منهما مع الآخر ، فكانت الحرب التى آلت الى خراب مصر وزوال بهجتها .

الى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، وقتل رجال الدولة ، وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن ، فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن ، وذهبت كتامة ، وصاروا من جملة الرعية ، بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها .

« حارة الصالحية » : عرفت بغلمان الصالح طلائع بن رزيك ، وهى موضعان : الصالحية الكبرى ، والصالحية الصغرى . وموضعهما فيما بين المشهد الحسينى ورحبة الأيدمرى وبين البرقية . وكانت من الحارات العظيمة ، وقد خربت الآن ، وباقيها متداع الى الخراب .

قال ابن عبد الظاهر : الحارة الصالحية منسوبة الى الصالح طلائع بن رزيك ، لأن غلمانه كانوا يسكنونها ، وهى مكانان . وللصالح دار بحارة الديلم كان يسكنه قبل الوزارة ، وهى باقية الى الآن ، وبها بعض ذريته . والمكان المعروف بخوخة الصالح نسبة اليه .

(*) ص ١١ جـ ٢ ، ط . بولاق .

« حارة البرقية » : هذه الحارة عرفت بطائفة من طوائف العسكر فى الدولة الفاطمية يقال لها الطائفة البرقية ... ذكرها المسيحى .

قال ابن عبد الظاهر : ولما نزل بالقاهرة (يعنى المعز لدين الله) اختطت كل طائفة خطة عرفت بها . قال : واختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية . انتهى .

والى هذه الحارة تنسب الأمراء البرقية .

ذكر الأمراء البرقية ووزارة ضرغام

وذلك أن الصالح طلائع بن رزيك كان قد أنشأ فى وزارته أمراء يقال لهم البرقية ، وجعل ضرغاما مقدمهم . فترقى حتى صار صاحب الباب ، وطمع فى شاور السعدى لما ولى الوزارة بعد رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، فجمع رفقته ، وتخوف شاور منه ، وصار العسكر فرقتين : فرقة مع ضرغام ، وفرقة مع شاور .

فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارة شاور ، ثار ضرغام فى رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وصاح على شاور فأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده الأكبر المسمى بطى ، وبقى شجاع المنعوت بالكامل . وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل الوزير رضوان بن ولخشى ، فانه كان رفيقا له فى تلك الكرة .

واستقر ضرغام فى وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور ، وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته ، فانه كان فارس عصره ، وكان كاتبا جميل الصورة ، فكه المحاضرة ، عاقلا كريما ، لا يضع كرمه الا فى سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه . الا أنه كان أذنا مستحيلا على أصحابه ، واذا ظن فى أحد شرا جعل الشك يقينا ، وعجل له العقوبة .

وغلب عليه مع ذلك فى وزارته أخواه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام ، وأخذ يتنكر لرفقته البرقية الذين قاموا بنصرته ، وأعانوه على اخراج شاور وتقليده للوزارة ، من أجل أنه بلغه عنهم أنهم يحسدونه ويضعون منه ، وأن منهم من كاتب شاور وحثه على القدوم الى القاهرة ووعده بالمعاونة له .

فأظلم الجو بينه وبينهم ، وتجرد للايقاع بهم على عادته فى أسرع العقوبة ، وأحضرهم اليه فى دار الوزارة ليلا ، وقتلهم بالسيف صبرا ، وهم : صبح بن شاهنشاه ، والطهر مرتفع المعروف بالجلواص ، وعين الزمان ، وعلى بن الزبد ، وأسد الفازى ، وأقاربهم وهم نحو من سبعين أميرا سوى أتباعهم ، فذهبت لذلك رجال الدولة ، واختلت أحوالها وضعفت بذهاب أكابرها ، وفقد أصحاب الرأى والتدبير .

وقصد الفرنج ديار مصر ، فخرج اليهم همام أخو ضرغام وانهزم منهم ، وقتل منهم عدة ، ونزلوا * على حصن بلبيس ، وملكوا بعض السور ثم ساروا . وعاد همام عودا رديئا ، فبعث به ضرغام الى الاسكندرية وبها الأمير مرتفع الجلواص ، فأخذه العرب ، وقاده همام الى أخيه فضرب عنقه وصلبه على باب زويلة .

(*) ص١٢ جـ٢ ، ط.بولاق .

فما هو الا أن قدم رسل الفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقرر فى كل سنة ، وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، واذا بالخبر قد ورد بقدوم شاور من الشام ، ومعه أسد الدين شيركوه فى كثير من الغز . فأزعجه ذلك ، وأصبح الناس يوم التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة خائفين على أنفسهم وأموالهم ، فجمعوا الأقوات والماء وتحولوا من مساكنهم .

وخرج همام بالعسكر أول يوم من جمادى الآخرة ، فسار الى بلبيس ، وكانت له وقعة مع شاور انهزم فيها ، وصار الى شاور وأصحابه جميع ما كان مع عسكر همام وأسروا عدة . ونزل شاور بمن معه الى التاج ظاهر القاهرة فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة . فجمع ضرغام الناس ، وضم اليه طائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة ، وشاور مقيم بالتاج مدة أيام وطوالعه من العربان ، فطارد عسكر ضرغام بأرض الطبالة خارج القاهرة .

ثم سار شاور ونزل بالمقس ، فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربوه ، فانهزم هزيمة قبيحة ، وسار الى بركة الحبش ، ونزل بالشرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، وملك مدينة مصر ، وأقام بها أياما . فأخذ ضرغام مال الأيتام الذى كان بمودع الحكم ، فكرهه الناس واستعجزوه ، ومالوا مع شاور . فتنكر منهم ضرغام ، وتحدث بايقاع العقوبة بهم ، فزاد بغضهم له .

ونزل شاور فى أرض اللوق خارج باب زويلة ، وطارد رجال ضرغام ، وقد حلت المنصورة والهلالية ، وثبت أهل اليانسية بها ، وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة ، وطرح النار فى اللؤلؤة وما حولها من الدور . وعظمت الحروب بينه وبين أصحاب ضرغام ، وفنى كثير من الطائفة الريحانية ، فبعثوا الى شاور ووعدوه بأنهم عون له ، فانحل أمر ضرغام ، فأرسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمى ، فخرج الرجال الى شاور ، وصاروا من جملته .

وفترت همة أهل القاهرة ، وأخذ كل منهم يعمل الحيلة فى الخروج الى شاور . فأمر ضرغام بضرب الأبواق لتجتمع الناس ، فضربت الأبواق والطبول ما شاء الله من فوق الأسوار ، فلم يخرج اليه أحد ، وانفك عنه الناس ، فسار الى باب الذهب من أبواب القصر ومعه خمسمائة فارس ، فوقف وطلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق ، وتضرع اليه وأقسم عليه بآبائه ، فلم يجبه أحد . واستمر واقفا الى العصر ، والناس تنحل عنه حتى بقى فى نحو ثلاثين فارسا ، فوردت عليه رقعة فيها « خذ نفسك وانج بها » .

واذا بالأبواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور ، فمر ضرغام الى باب زويلة ، فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه ، وأدركه القوم فأردوه عن فرسه قريبا من الجسر الأعظم فيما بين القاهرة ومصر ، واحتزوا رأسه فى سلخ جمادى الآخرة ، وفر منهم أخوه الى جهة المطرية ، فأدركه الطلب ، وقتل عند مسجد تبر خارج

القاهرة ، وقتل أخوه الآخر عند بركة الفيل ، فصار حينئذ ضرغام ملقى يومين ، ثم حمل الى القرافة ودفن بها .

وكانت وزارته تسعة أشهر ، وكان من أجل أعيان الأمراء ، وأشجع فرسانهم وأجودهم لعبا بالكرة ، وأشدهم رميا بالسهام ، ويكتب مع ذلك كتابة ابن مقلة ، وينظم الموشحات الجيدة .

ولما جيء برأسه الى شاور ، رفع على قناة وطيف به ، فقال الفقيه عمارة :

أرى جنـك الوزارة صار سيفا
يجز بحده جيد الرقاب

كأنك رائد البلوى والا
بشير بالمنية والمصاب

فكان كما قال عمارة ، فان البلايا والمنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتى لم يبق منهم عين تطرف . ولله عاقبة الأمور .

« حارة العطوفية » : هذه الحارة تنسب الى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية .

وقال ابن عبد الظاهر : العطوفية منسوبة لعطوف ، أحد خدام القصر ، وهو عطوف غلام الطويلة ، وكان قد خدم ست الملك أخت الحاكم .

قال : وسكنت (يعنى الطائفة الجيوشية) بحارة العطوفية بالقاهرة .

ولله در الأديب ابراهيم المعمار اذ يقول مواليا يشتمل على ذكر حارات القاهرة ، وفيها تورية :

فى الجودرية رأيت صورة هلاليه
للباطلية تميل لا للعطوفيه

لها من اللؤلؤة ثغرين منشيه
ان حركوا وجهها بنت الحسينيه

وكانت العطوفية من أجل مساكن القاهرة ، وفيها من الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد ما لا يدخل تحت حصر ، وقد خربت كلها ، وبيعت أنقاضها وبيوتها ومنازلها ، وأضحت أوحش من وتد عير فى قاع .

وعطوف هذا كان خادما أسود . قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهليز القصر ، واحتزوا رأسه فى يوم الأحد لاحدى * عشرة خلت من صفر سنة احدى وأربعمائة ... قاله المسيحى .

« حارة الجوانية » : كان يقال لهذه الحارة أولا حارة الروم الجوانية ، ثم ثقل على الألسنة ذلك ، فقال الناس : الجوانية . وكان أيضا يقال لها حارة الروم العليا المعروفة بالجوانية .

وقال المسيحى ، وقد ذكر ما كتبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الأمانات فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وذكر أنه كتب أمانا للعرافة الجوانية . فدل أنه كان من جملة الطوائف قوم يعرفون بالجوانية .

قال ابن عبد الظاهر : قال لى مؤلفه القاضى زين الدين وفقه الله : ان الجوانية منسوبة للأشراف الجوانيين . منهم الشريف النسابة الجوانى .

(*) ص١٢ جـ٢ ، طـ بولاق .

قال مؤلفه رحمه الله : فعلى هـذا يكون بفتح الجيم . فان الجوانى — بفتح الجيم وتشديد الواو وفتحها وبعد الواو ألف ساكنة ثم نون — نسبة الى جوان على وزن حران ، وهى قرية من عمل مدينة طيبة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وعلى القول الأول تكون الجوانية بفتح الجيم أيضا مع فتح الواو وتشديدها . فان أهل مصر يقولون لما خرج عن المدينة أو الدار « برا » ولما دخل « جوا » بضم الجيم ، وهو خطأ . ولهذا كان الوراقون يكتبون حارة الروم البرانية لأنها من خارج القصر ، ويكتبون حارة الروم الجوانية لأنها من داخل القاهرة ، ولا يصار اليها الا بعد المرور على القصر . وكان موضعها اذ ذاك من وراء القصر خلف دار الوزارة والحجر ، فكأنها فى داخل البلد .

ولذلك أصل ... قال ابن سيده فى مادة « ج و » من كتاب المحكم : « وجوا البيت داخله ... لفظة شامية » فتعين فتح الجيم من الجوانية ، ولا عبرة بما تقوله العامة عن ضمها .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى ابن الحسن بن محمد الجوانى ابن عبيد الله الجوانى ابن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب : وقيل لمحمد بن عبد الله « الجوانى » بسبب ضيعة من ضياع المدينة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، يقال لها الجوانية .

وكانت تسمى البصرة الصغرى لخيراتها وغلالها ، لا يطلب شيء الا وجد بها ، وهى قريبة من « صرار » ضيعة الامام أبى جعفر محمد بن على الرضى .

وكانت الجوانية ضيعة لعبيد الله فتوفى عنها ، فورثها بعده ولده وأزواجه ، فاشترى محمد الجوانى ولده — بما حصل له بالميراث — الباقى من الورثة ، فحصلت له كاملة فعرف بها ، فقيل الجوانى .

قال : ولم تزل أجداد مؤلفه ببغداد الى حين قدوم ولده أسعد النحوى مع أبيه من بغداد الى مصر . ومولده بالموصل فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

« حارة البستان » : ويقال لها حارة بستان المصمودى ، وحارة الأكراد أيضا ، وهى الآن من جملة الوزيرية التى تقدم ذكرها .

« حارة المرتاحية » : هذه الحارة عرفت بالطائفة المرتاحية احدى طوائف العسكر . قال ابن عبد الظاهر : خط باب القنطرة يعرف فى كتب الأملاك القديمة بالمرتاحية .

« حارة الفرحية » بالحاء المهملة : كانت سكن الطائفة الفرحية ، وهى بجوار حارة المرتاحية . فالى يومنا هذا ، فيما بين سويقة أمير الجيوش وباب القنطرة ، زقاق يعرف بدرب الفرحية .

والفرحية كانت طائفة من جملة عبيد الشراء ، وكانت عبيد الشراء عدة طوائف ، وهم : الفرحية ، والحسينية ، والميمونية ، ينسبون الى ميمون ، وهو أحد الخدام .

« حارة فرج » بالجيم : كانت تعرف قديما بدرب النميرى ، ثم عرفت بالأمير جمال الدين

فرج من أمراء بنى أيوب ، وهى الآن داخلة فى درب الطفل من خط قصر الشوك .

« حارة قائد القواد » : هذا الحارة تعرف الآن بدرب ملوخيا ، وكانت أولا تعرف بحارة قائد القواد ، لأن حسين بن جوهر — الملقب قائد القواد — كان يسكن بها فعرفت به .

وهو حسين بن القائد جوهر أبو عبد الله الملقب بقائد القواد . لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه ، وجعله فى رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، ولم يتعرض لشيء مما تركه جوهر .

فلما مات العزيز ، وقام من بعده ابنه الحاكم ، استدناه ، ثم انه قلده البريد والانشاء فى شوال سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وخلع عليه ، وحمله على فرس بموكب ، وقاد بين يديه عدة أفراس ، وحمل معه ثيابا كثيرة . فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد الله بن سورين الكاتب النصرانى على كتابة الانشاء ، واستخلف على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم أمير الدولة الموصلى .

ولما تقلد برجوان النظر فى تدبير الأمور ، وجلس للوساطة بعد ابن عمار ، كان الكافة يلقونه فى داره ، ويركبون جميعا بين يديه من داره الى القصر . ما خلا القائد حسين ومحمد ابن النعمان القاضى ، فانهما كانا يسلمان عليه بالقصر فقط .

فلما قتل الحاكم الأستاذ برجوان كما تقدم ، خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة تسعين وثلثمائة ثوبا أحمر وعمامة زرقاء مذهبة ، وقلده سيفا محلى بذهب ، وحمله على فرس بسرج ولجام من ذهب ، وقاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها ، وحمل معه خمسين ثوبا صحاحا من كل نوع ، ورد اليه التوقيعات والنظر فى أمور الناس ، وتدبير المملكة كما كان برجوان ، ولم يطلق عليه اسم وزير .

فكان يبكر الى القصر ، ومعه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى كاتب برجوان * ، فينظران فى الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة ، فيكون القائد جالسا ، وفهد من خلفه قائما .

ومنع القائد الناس أن يلقوه فى الطريق ، أو يركبوا اليه فى داره ، وان من كان له حاجة فليبلغه اياها بالقصر ، ومنع الناس من مخاطبته فى الرقاع بسيدنا ، وأمر ألا يخاطب ولا يكاتب الا بالقائد فقط ، وتشدد فى ذلك لخوفه من غيرة الحاكم .

حتى انه رأى جماعة من القواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه ، فأمسك عنان فرسه ، ووقف وقال لهم : كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه ، ولست والله أبرح من موضعى أو تنصرفوا عنى ، ولا يلقانى أحد الا فى القصر . فانصرفوا .

وأقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرادين على الطريق بالنوبة ، لمنع الناس المجيء الى داره ومن لقائه الا فى القصر ، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم الى الحاكم ، وألا يمنع أحدا عنه .

(*) ص١٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما كان فى سابع عشر جمادى الآخرة ، قرىء سجل على سائر المنابر بتلقيب القائد حسين بقائد القواد ، وخلع عليه .

وما زال الى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة . فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعدما طلبوا ، وخرج الأمر اليهم ألا يقام لأحد ، وخرج خادم من عند الخليفة فأسر الى صاحب الستر كلاما ، فصاح : صالح بن على .

فقام صالح بن على الروذباذى ، متقلد ديوان الشام ، فأخذ صاحب الستر بيده وهو لا يعلم هو ولا أحد ما يراد به ، فأدخل الى بيت المال ، وأخرج وعليه دراعة مصمتة وعمامة مذهبة ومعه مسعود ، فأجلسه بحضرة قائد القواد ، وأخرج سجلا قرآه ابن عبد السميع الخطيب ، فاذا فيه رد سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر اليه ، فعندما سمع من السجل ذكره قام وقبل الأرض ، فلما انتهت قراءة السجل قام قائد القواد ، وقبل خد صالح وهناه وانصرف .

فكان يركب الى القصر ، ويحضر الأسمطة الى اليوم الثالث من شوال ، أمره الحاكم أن يلزم داره هو وصهره قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وألا يركبا هما وسائر أولادهما . فلبسا الصوف ، ومنع الناس من الاجتماع بهما ، وصاروا يجلسون على حصر .

فلما كان فى تاسع عشر ذى القعدة ، عفا عنهما الحاكم ، وأذن لهما فى الركوب . فركبا الى القصر بزيهما من غير حلق شعر ولا تغيير حال الحزن .

فلما كان فى حادى عشر جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، قبض على عبد العزيز ابن النعمان ، وطلب حسين بن جوهر ففر هو وابنه فى جماعة ، وكثر الصياح بدار عبد العزيز ، وغلقت حوانيت القاهرة وأسواقها ، فأفرج عنه ونودى : ألا يغلق أحد .

فرد حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه ، وتمثلوا بحضرة الحاكم ، فعفا عنهم ، وأمرهم بالمسير الى دورهم بعد أن خلع على حسين وعلى صهره عبد العزيز وعلى أولادهما ، وكتب لهما أمانان . ثم أعيد عبد العزيز فى شهر رمضان الى ما كان يتقلده من النظر فى المظالم .

ثم رد الحاكم ، فى شهر ربيع الأول سنة أربعمائة ، على حسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز ما كان لهم من الاقطاعات ، وقرىء لهم سجل بذلك .

فلما كان ليلة التاسع من ذى القعدة ، فر حسين بأولاده وصهره وجميع أموالهم وسلاحهم . فسير الحاكم الخيل فى طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم ، وأوقع الحوطة على سائر دورهم ، وجعلت للديوان المفرد — وهو ديوان أحدثه الحاكم يتعلق بما يقبض من أموال من يسخط عليه — وحمل سائر ما وجد لهم بعد ما ضبط .

وخرجت العساكر فى طلب حسين ومن معه ، وأشيع أنه قد صار الى بنى قرة بالبحيرة ، فأنفذت اليه الكتب بتأمينه واستدعائه الى الحضور ، فأعاد الجواب : بأنه لا يدخل

مادام أبو نصر بن عبدون النصرانى الملقب بالكافى ، ينظر فى الوساطة ، ويوقع عن الخليفة ، فانى أحسنت اليه أيام نظرى ، فسعى بى الى أمير المؤمنين ، ونال منى كل منال ، ولا أعود أبدا وهو وزير .

فصرف ابن عبدون فى رابع المحرم سنة احدى وأربعمائة ، وقدم حسين بن جوهر ومعه عبد العزيز بن النعمان وسائر من خرج معهما . فخرج جميع أهل الدولة الى لقائه ، وتلقته الخلع فأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره ، وقيد بين أيديهم الدواب . فلما وصلوا الى باب القاهرة ترجلوا ومشوا ، ومشى الناس بأسرهم الى القصر فصاروا بحضرة الحاكم .

ثم خرجوا وقد عفا عنهم ، وأذن لحسين أن يكاتب بقائد القواد ، ويكون اسمه تاليا للقبه ، وأن يخاطب بذلك . وانصرف الى داره ، فكان يوما عظيما ، وحمل اليه جميع ما قبض له من مال وعقار وغيره ، وأنعم عليه ، وواصل الركوب هو وعبد العزيز بن النعمان الى القصر .

ثم قبض عليه وعلى عبد العزيز ، واعتقلا ثلاثة أيام ، ثم حلفا أنهما لا يغيبان عن الحضرة ، وأشهدا على أنفسهما بذلك ، وأفرج عنهما ، وحلف لهما الحاكم فى أمان كتبه لهما .

فلما كان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة احدى وأربعمائة ، ركب حسين وعبد العزيز على رسمهما الى القصر . فلما خرج للسلام على الناس قيل للحسين وعبد العزيز وأبى على أخى الفضل اجلسوا لأمر تريده الحضرة منكم .

فجلس الثلاثة ، وانصرف الناس * ، فقبض عليهم وقتلوا فى وقت واحد ، وأحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم ، وأخذت الأمانات والسجلات التى كتبت لهم ، واستدعى أولاد عبد العزيز بن النعمان وأولاد حسين بن جوهر ، ووعدوا بالجميل وخلع عليهم وجملوا . والله يفعل ما يشاء .

« حارة الأمراء » : ويقال لها أيضا حارة الأمراء الأشراف الأقارب ، وموضعها يعرف بدرب شمس الدولة ، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

« حارة الطوارق » : ويقال لها أيضا حارة صبيان الطوارق ، وهم من جملة طوائف العسكر ، كانوا معدين لحمل الطوارق . وموضع هذه الحارة فى طريق من سلك من الرقيق سوق الخلعيين داخل باب زويلة طالبا الباطلية ، بالزقاق الطويل الضيق الذى يقال له اليوم حلق الجمل ، السالك الى درب أرقطاى .

« حارة الشرابية » : عرفت بذلك لأنها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية احدى طوائف العسكر ، وكانت فيما بين الباطلية وحارة الطوارق .

« حارة الدميرى وحارة الشاميين » : هما من جملة العطوفية .

(*) ص١٥ ج٢ ، ط بولاق .

« حارة المهاجرين » : وموضعها الآن من جملة المكان الذى يعرف بالرقيق المعد لسوق الخلعيين بجوار باب زويلة ، وكان بعد ذلك سوق الخشابين ، ثم هو الآن سوق الخلعيين .

وموضع هذه الحارة بجوار الخوخة التى كانت تعرف بالشيخ السعيد بن فشيرة النصرانى الكاتب ، وهى الخوخة التى يسلك اليها من الزقاق المقابل لحمام الفاضل المعد لدخول النساء ، ويتوصل منها الى درب كوز الزير بحارة الروم . وقد صارت هذه الحارة تعرف بدرب ابن المجندار ، وسيأتى ذكره ان شاء الله .

« حارة العدوية » : قال ابن عبد الظاهر : العدوية هى من باب الخشيبة الى أول حارة زويلة ، عند حمام الحسام الجلدكى الآن ، منسوبة لجماعة عدويين نزلوا هناك ، وهذا المكان اليوم هو عبارة عن الموضع الذى تلقاه عند خروجك من زقاق حمام خشيبة ، الذى يتوصل اليه من سوق باب الزهومة ، فاذا انتهيت الى آخر هذا الزقاق وأخذت على يمينك ، صرت فى حارة العدوية . وموضعها الآن من فندق بلال المغيثى الى باب سر المارستان .

وتدخل فى العدوية رحبة بيبرس التى فيها الآن فندق الرخام ، عن يمينك اذا خرجت فى الرحبة المذكورة — التى صارت الآن دربا — الى باب سر المارستان ، وما عن يسارك الى حمام الكريك وحمام الجوينى — الذى تقول له العامة الجهينى — والى سوق الزجاجين . وكل هذه المواضع هى من حقوق العدوية .

وكانت العدوية قديما واقعة فيما بين الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف وحارة زويلة وبين سقيفة العداس والصاغة القديمة ، التى صار موضعها الآن سوق الحريريين الشرابشيين برأس الوراقين وسوق الزجاجين .

« حارة العيدانية » : كانت تعرف أولا بحارة البديعيين ، ثم قيل لها بعد ذلك الحبانية ، من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية ، الجارى فى وقف الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء . ويتوصل الى هذه الحارة من تجاه قنطرة آق سنقر ، وبعض دورها الآن يشرف على بستان الحبانية ، وبعضها يطل على بركة الفيل .

« حارة الحمزيين » : كانت أولا تعرف بالحبانية ، ثم قيل لها حارة الحمزيين من أجل أن جماعة من الحمزيين نزلوا بها : منهم الحاج يوسف بن فاتن الحمزى — والحمزيون أيضا ينسبون الى حمزة بن أدركة السارى . خرج بخراسان فى أيام هارون بن محمد الرشيد ، فعاث وأفسد ، وفض جموع عيسى ابن على عامل خراسان ، وقتل منهم خلقا ، وانهزم عيسى الى بابل ، ثم غرق حمزة بواد فى كرمان ، فعرفت طائفته بالحمزية — وأخوه ضرغام بن فاتن بن ساعد الحمزى ، والحاج عونى الطحان ابن يونس بن فاتن الحمزى ،

ورضوان بن يوسف بن فاتن الحمزى الحمامى ، وأخوه سالم بن يوسف بن فاتن الحمزى ، وكان هؤلاء بعد سنة ستمائة .

وهذه الحارة خارج باب زويلة .

ومن بلاد افريقية قرية يقال لها حمزى ، ينسب اليها محمد بن حمد بن خلف القيسى الحمزى من أهل القرية ، وقاضيها توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، ولا يبعد أن تكون هذه الحارة نسبت الى أهل قرية حمزة هذه لنزولهم بها ، كنزول بنى سوس وكتامة وغيرهم فى المواضع التى نسبت اليهم .

« حارة بنى سوس » : عرفت بطائفة من المصامدة يقال لهم بنو سوس كانوا يسكنون بها .

« حارة اليانسية » : تعرف بطائفة من طوائف العسكر يقال لها اليانسية ، منسوبة لخادم خصى من خدام العزيز بالله ، يقال له أبو الحسن يانس الصقلى ، خلفه على القاهرة ، فلما مات العزيز أقره ابنه الحاكم بأمر الله على خلافة القصور ، وخلع عليه وحمله على فرسين .

فلما كان فى المحرم سنة ثمان وثمانين وثلثمائة سار لولاية برقة بعدما خلع عليه ، وأعطى خمسة آلاف دينار ، وعدة من الخيل والثياب .

قال ابن عبد الظاهر : اليانسية خارج باب زويلة . أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ لدين الله ، الملقب بأمير الجيوش سيف الاسلام ، ويعرف بيانس الفاصد ، وكان أرمنى الجنس ، وسمى الفاصد لأنه(*) فصد الأمير حسن بن الحافظ ، وتركه محلولا فصاده حتى مات .

وله خبر غريب فى وفاته . كان الحافظ قد نقم عليه أشياء طلب قتله بها باطنا ، فقال لطبيبه : اكفنى أمره بمأكل أو مشرب . فأبى الطبيب ذلك خوفا أن يصير عند الحافظ بهذه العين وربما قتله بها ، والحافظ يحثه عنى ذلك .

فاتفق ليانس الوزير المذكور أنه مرض بزحير ، وأن الحافظ خاطب الطبيب بذلك ، فقال : يامولاى قد أمكنتك الفرصة ، وبلغت مقصودك . ولو أن مولانا عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن أحدوثة .

وهذه المرضة ليس دواؤه منها الا الدعة والسكون ، ولا شىء أضر عليه من الانزعاج والحركة . فبمجرد ما سمع بقصد مولانا له تحرك ، واهتم بلقاء مولانا وانزعج ، وفى ذلك تلاف نفسه . ففعل الخليفة ذلك ، وأطال الجلوس عنده ... فمات .

وهذا الخبر فيه أوهام : منها أنه جعل اليانسية منسوبة ليانس الوزير ، وقد كانت اليانسية قبل يانس هذا بمدة طويلة . ومنها أنه ادعى أن حسن بن الحافظ مات من فصادة ، وليس كذلك ، وانما مات مسموما . ومنها أنه زعم أن يانس تولى فصده ، وليس كذلك ، بل الذى تولى قتله بالسم أبو سعيد بن قرقة . ومنها أن الذى نقم عليه الحافظ من

(*) ص١٦ ج٢ ، ط. بولاق .

الأمراء فخانه في ابنه حسن ، انما هو الأمير المعظم جلال الدين محمد المعروف بجلب راغب .

وهذا نص الخبر ، فنزه بالك ، والله تعالى أعلم .

ذكر وزارة ابى الفتح ناصر الجيوش يانس الأرمنى

وكان من خبر ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله أبا على منصورا لما قتله النزارية ، في ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، أقام هزبر الملوك جوامرد العادل برغش الأمير أبا الميمون عبد المجيد فى الخلافة كفيلا للحمل الذى تركه الآمر ، ولقب بالحافظ لدين الله ، ولبس هزبر الملوك خلع الوزارة .

فثار الجند ، وأقاموا أبا على أحمد الملقب بكتيفات ، ولد الأفضل بن أمير الجيوش ، فى الوزارة . وقتل هزبر الملوك ، واستولى كتيفات على الآمر ، وقبض على الحافظ ، وسجنه بالقصر مقيدا الى أن قتل كتيفات فى المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة .

وبادر صبيان الخاص الذين تولوا قتله الى القصر ، ودخلوا ومعهم الأمير يانس متولى الباب الى الخزانة التى فيها الحافظ ، وأخرجوه الى الشباك ، وأجلسوه فى منصب الخلافة ، وقالوا له : والله ما حركنا على هذا الا الأمير يانس .

فجازاه الحافظ بأن فوض اليه الوزارة فى الحال وخلع عليه ، فباشرها مباشرة جيدة .

وكان عاقلا مهابا متمسكا متحفظا لقوانين الدولة . فلم يحدث شيئا ، ولا خرج عما يعينه الخليفة له . الا أنه بلغه عن أستاذ من خواص الخليفة شيء يكرهه ، فقبض عليه من القصر من غير مشاورة الخليفة ، وضرب عنقه بخزانة البنود . فاستوحش منه الخليفة وخشى من زيادة معناه ، وكانت هذه الفعلة غلطة منه .

ثم انه خاف من صبيان الخاص أن يفتكوا به كما فتكوا بكتيفات ، فتنكر لهم ، وتخوفوه أيضا . فركب في خاصته وأركب العسكر ، وركب صبيان الخاص ، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبانين بين القصرين ، قوى فيها يانس ، وقتل من صبيان الخاص ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم فيهم قتلة أبى على كتيفات ، وكانوا نحو الخمسمائة فارس ، فانكسرت شوكتهم ، وضعف جانبهم .

واشتد بأس يانس وعظم شأنه ، فثقل على الخليفة وتحيل منه ، فأحس بذلك ، فأخذ كل منهما فى التدبير على الآخر ، فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة ، ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس ، وقتلهما .

فاشتد ذلك على الحافظ ، ودعا طبيبه وقال : اكفنى أمر يانس . فيقال انه سمه في ماء المستراح ، فانفتح دبره ، واتسع حتى ما بقى يقدر على الجلوس

فقال الطبيب : ياأمير المؤمنين قد أمكنتك الفرصة ، وبلغت مقصودك . فلو أن مولانا

عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة ، فان هــذا المــرض ليس له دواء الا الدعــة والسكون ، ولا شيء عليه أضر من الحركة والانزعاج . وهو اذا سمع بقصد مولانا له تحرك ، واهتم للقاء وانزعج ، وفى ذلك تلاف نفسه . فنهض لعيادته .

وعندما بلغ ذلك يانس قام ليلقاه ، ونزل عن الفــراش وجلس بين يدى الخليفــة . فأطال الخليفة جلوسه عنده وهو يحادثه ، فلم يقم حتى سقطت أمعاء يانس ، ومات من ليلته فى سادس عشر ذى الحجة ســنة ست وعشرين وخمسمائة .

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما ، وترك ولدين كفلهما الحافظ وأحسن اليهما .

وكان يانس هذا مولى أرمنيا لباديس جد عباس الوزير ، فأهداه الى الأفضل بن أمير الجيوش ، وترقى فى خدمته الى أن تأمر ، ثم ولى الباب — وهى أعظم رتب الأمراء — وكنى بأبى الفتــح ، ولقب بالأمير السعيد . ثم لما ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الاسلام ، وكان عظيم الهمة ، بعيد الغــور ، كثير الشر ، شديد الهيبة .

ذكر الأمير حسن بن الخليفة الحافظ

ولمــا مات الوزير يانس ، تولى الخليفــة الحافظ الأمور بنفسه ولم يســتوزر أحدا ، وأحسن السيرة .

فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عهد الى ولده سليمان — وكان أسن أولاده وأحبهم اليه — وأقامه مقام الوزير ، فمات بعد * شهرين من ولاية العهد ، فجعل مكانه أخاه حيدرة فى ولاية العهد ، ونصبه للنظر فى المظالم .

فشق ذلك على أخيه الأمير حسن — وكان كثير المال متسع الحال ، له عدة بلاد ومواش وحاشــية وديوان مفرد — فسعى فى نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشــية والطائفــة الريحانيــة ، وكانت الريحانية قوية الشوكة مهابة مخوفة الجانب .

فاشــتعلت نيران الحــرب بين الفريقين ، وصاح الجند : ياحسن يامنصور ياللحسينية . والتقى الفريقان فقتــل بينهمــا ما يزيد على خمسة آلاف نفس ، فكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها ونقص عساكرها ، فلم يبق من الطائفة الريحانية الا من نجا بنفسه من ناحية المقس ، وألقى نفسه فى بحر النيل .

واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر ، وانضم اليه أوباش الناس ودعارهم ، ففرق فيــهم الزرد ، وســماهم صــبيان الزرد ، وجعلهم خاصته . فاحتفوا به وصاروا لا يفارقونه ، فان ركب أحاطوا به ، وان نزل لازموا داره ، فقامت قيامة الناس منهم .

وشرع فى تتبــع الأكابر ، فقبض على ابن العساف وقتله ، وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدرة بالضرر حتى خافا منه وتغيبا ، فجد فى طلب أخيه حيدرة ، وهتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر ، وخرق ناموسه ،

(*) ص١٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

وسلطهم يفتشون القصر فى طلب الخليفة الحافظ وابنه حيدرة ، واشتد بأسهم ، وحسنوا له كل رذيلة ، وجروه على الأذى .

فلم يجد الحافظ بدا من مداراة حسن وتلافى أمره عساه ينصلح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله اليه فقرئ على الناس . فما زاده ذلك الا جراءة عليه وافسادا له ، وشدد فى التضييق على أبيه ، وأخذ بأنفاسه . فبعث حينئذ الخليفة بالأستاذ ابن اسعاف الى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من الريحانية ، فمضى واستصرخ الناس لنصرة الخليفة على ولده حسن ، وجمع أمما لا يحصيها الا الله وسار بهم .

فبلغ ذلك حسنا ، فزج عسكرا للقاء اسعاف فالتقيا ، وكانت بينهما وقعة هبت فيها ريح سوداء على عسكر اسعاف حتى هزمتهم ، وركبهم عسكر حسن فلم ينج منهم الا القليل ، وغرق أكثرهم فى البحر ، وأخذ اسعاف أسيرا ، فحمل الى القاهرة على جمل وفى رأسه طرطور لبد أحمر ، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب حتى هلك ، ورمى من القصر الغربى بأستاذ آخر فقتل ، وقتل الأمير شرف الدين .

فاشتد ذلك على الحافظ وخاف على نفسه فكتب ورقة ، وكاد ابنه بأن ألقى اليه تلك الورقة وفيها : ياولدى أنت على كل حال ولدى ، ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه ، ولا يحملنى قلبى ، وقد انتهى الأمر الى أمراء الدولة — وهم فلان وفلان — وقد شددت وطأتك عليهم وخافوك ، وهم معولون على قتلك ، فخذ حذرك ياولدى .

فعندما وقف حسن على الورقة ، غضب ولم يتأن ، وبعث الى أولئك ، فلما صاروا اليه أمر صبيان الزرد بقتلهم ، فقتلوا عن آخرهم — وكانوا عدة من أعيان الأمراء — وأحاط بدورهم وأخذ سائر ما فيها .

فاشتدت المصيبة ، وعظمت الرزية ، وتخوف من بقى من الجند ونفروا منه . فانه كان جريا مفسدا ، شديد الفحص عن أحوال الناس والاستقصاء لأخبارهم ، يريد اقلاب الدولة وتغييرها ليقدم أوباشه ، وأكثر من مصادرة الناس ، وقتل قاضى القضاة أبا الثريا نجم لأنه كان من خواص أبيه ، وقتل جماعة من الأعيان ، ورد اقتضاء لابن ميسر .

وتفاقم أمره وعظم خطبه ، واشتدت الوحشة بينه وبين الأمراء والأجناد ، وهموا بخلع الحافظ ومحاربة ابنه حسن ، وصاروا يدا واحدة ، واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، وسيروا الى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه حسن ، ويطلبون منه أن يزيله من ولاية العهد .

فعجز حسن عن مقاومتهم ، فانه لم يبق معه سوى الراجل من الطائفة الجيوشية ، ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء ، فتحير وخاف على نفسه ، فالتجأ الى القصر ، وصار الى أبيه الحافظ . فما هو الا أن تمكن منه أبوه ، فقبض عليه وقيده ، وبعث الى الأمراء

يخبرهم بذلك ، فأجمعوا على قتله ، فرد عليهم أنه قد صرفه عنهم ، ولا يمكنه أبدا من التصرف ، ووعدهم بالزيادة فى الأرزاق والاقطاعات ، وأن يكفوا عن طلب قتله .

فألحوا فى قتله ، وقالوا : اما نحن ، واما هو ... اشتد طلبهم اياه حتى أحضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر ، وبالغوا فى التجرى على الخليفة ، فلم يجد بدا من اجابتهم الى قتله ، وسألهم أن يمهلوه ثلاثا ، فأناخوا بين القصرين ، وأقاموا على حالهم حتى تنقضى الثلاث .

فما وسع الحافظ الا أن استدعى طبيبيه — وهما أبو منصور اليهودى ، وابن قرقة النصرانى — وبدأ بأبى منصور ، وفاوضه فى عمله سقية قاتلة ، فامتنع من ذلك ، وحلف بالتوراة أنه لا يعرف عمل شىء من ذلك . فتركه وأحضر ابن قرقة ، وكلمه فى هذا ، فقال : الساعة ، ولا يتقطع منها جسده ، بل تفيض النفس لا غير .

فأحضر السقية من يومه ، فبعثها الى حسن مع عدة من الصقالبة ، وما زالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ، ومات فى العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

فبعث الحافظ الى القوم سرا يقول : قد كان ما أردتم ، فامضوا الى دوركم . فقالوا : لابد أن يشاهده منا من نثق به * .

وندبوا منهم أميرا معروفا بالجراءة والشر يقال له المعظم جلال الدين محمد — ويعرف بجلب راغب الآمرى — فدخل الى القصر ، وسار جنب حسن ، فاذا به قد سجى بثوب ، فكشف عن وجهه ، وأخرج من وسطه آله من حديد ، وغرزه بها فى عدة مواضع من بدنه الى أن تيقن أنه قد مات ، وعاد الى القوم وأخبرهم ، فتفرقوا .

وعندما سكنت الدهماء ، حقد الحافظ لابن قرقة وقتله بخزانة البنود ، وأنعم بجميع ما كان له على أبى منصور اليهودى ، وجعله رئيس الأطباء ... فهذا ما كان من خبر يانس وكيفية موته ، وخبر حسن والخبر عن قتله .

« حارة المنتجبية » : قال ابن عبد الظاهر : بلغنى أن رجلا كان يتحجب لشمس الدين قاضى زادة ، كان يقول : ان هذه الخطة منسوبة لجده منتجب الدولة .

« الحارة المنصورية » : هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جدا فيها عدة مساكن السودان . فلما كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة ، كما تقدم فى ذكر حارة بهاء الدين ، أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتعفية أثرها ، فخربها خطلبا بن موسى الملقب صارم الدين ، وعملها بستانا .

وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة ، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أفناهم ، بعد أن كان لهم بديار مصر فى كل قرية ومحلة وضيعة ، مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره احتراما لهم . وقد كانوا يزيدون

(*) ص١٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

على خمسين ألفا ، واذا ثاروا على وزير قتلوه ، وكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم الى أموال الناس وأهاليهم . فلما كثر بغيهم ، وزاد تعديهم ، أهلكهم الله بذنوبهم .

وفى واقعة السودان وتخريب المنصورة ، وقتل مؤتمن الخلافة الذى تقدم ذكره ، يقول العماد الأصفهانى الكاتب ، يخاطب بهاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب :

بالملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل

يوسف مصر الذى اليه
تشد آمالنا الرواحل

وأيك فى الدهر عن رزايا
جلى مهماته الجلائل

أجرت نيلين فى ثراها
نيل نجيع ونيل نائل

كم كرم من نداك جار
وكم دم من عداك سائل

وكم معاد بلا معاد
ومستطيل بغير طائل

وحاسد كاسد المساعى
وسائد نافق الوسائل

أقررت عين الاسلام حتى
لم يبق فيها قذى لباطل

وكيف يزهى بملك مصر
من يستقل دنيا لنائل

وما نفت السودان حتى
حكمت البيض فى المقاتل

صيرت رحب الفضا مضيقا
عليهم كفه لجائل

وكل رأى منهم كرا
وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغانى
وأقفرت منهم المنازل

وما أصيبوا الا بطل
فكيف لو أمطروا بوابل

وقد تجلى الحق ما بال
باطل فى مصر كان عاجل

والسود بالبيض قد تنحوا
فهى بواديهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى
عالته من شره الغوائل

عاملكم بالخنا فأضحى
ورأسه فوق رأس عامل

وحالف الذل بعد عز
والدهر أحواله حوائل

يامخجل البحر بالأيادى
قد آن أن تفتح السواحل

تقدس القدس من خباث
أرجاس كفر غتم أراذل

وكان موضع المنصورة على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة .

قال ابن عبد الظاهر : كانت للسودان حارة تعرف بهم تسمى المنصورة . خربها صلاح الدين ، وأخذها خطلبا فعمرها بستانا وحوضا . وهى الى جانب الباب الجديد (يعنى الذى يعرف اليوم بالقوس) عند رأس المنتجبية فيما بينها وبين الهلالية . وقد حكر هذا البستان فى الأيام الظاهرية .

وبعضها (يعنى المنصورة) من جهة بركة الفيل الى جانب بستان سيف الاسلام ، ويسمى الآن بحكر * الغتمى ، لأن الغتمى هذا كان شرع بستان سيف الاسلام ، فحكر هذه الجهة ، وهى الآن أحكار الديوان السلطانى .

وحكر الغتمى ، الذى كان بستان سيف الاسلام ، يعرف اليوم بدرب ابن البابا تجاه البندقدارية بجوار حمام الفارقانى ، قريب من صليبة جامع ابن طولون .

« حارة المصامدة » : هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة ، احدى طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين ، واختطت فى وزارة المأمون البطايحى وخلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة خمس عشرة وخمسمائة .

قال ابن عبد الظاهر : حارة المصامدة ... مقدمهم عبد الله المصمودى . وكان المأمون البطايحى ، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله ، قدمه ونوه بذكره ، وسلم له أبوابه للمبيت عليها ، وأضاف اليه جماعة من أصحابه . فلما استخلص المصامدة وقربهم ، سير أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة . فتوجه بالجماعة الى اليانسية بالشارع ، فلم يجد بها مكانا ، ووجدها تضيق عنهم .

فسير المهندسين لاختيار حارة لهم . فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد ، على يمنة الخارج على شاطىء بركة الفيل ، فقال : بل تكون على يسرة الخارج والفسح قدامها الى بركة الفيل . فبنيت الحارة على يسرة الخارج من الباب المذكور ، وبنى بجانبها مسجد على زلاقة الباب المذكور ، وبنى أبوبكر المصمودى مسجدا أيضا — وهذه فيما أعتقد هى الهلالية — وحذر من بناء شىء قبالتها ، فى الفضاء الذى بينها وبين بركة الفيل ، لانتفاع الناس بها .

وصار ساحل بركة الفيل من المسجد قبالة هذه الحارة الى آخر حصن دويرة مسعود الى الباب الحديد . ولم يزل ذلك الى بعض أيام الخليفة الحافظ لدين الله .

قال : وبنى فى صف هذه الحارة من قبليها عدة دور بحوانيت تحتها ، الى أن اتصل البناء بالمساجد الثلاثة الحاكمية المعلقة ، والقنطرة المعروفة بدار ابن طولون ، وبعدها بستان ذكر أنه كان فى جملة قاعات الدار المذكورة .

قال : وأظن المساجد هى التى قبالة حوض الجاولى ... قال : وبنى المأمون ظاهره حوضا ، وأجرى الماء له ، وذلك قبالة مشهد محمد الأصغر ومشهد السيدة سكينة .

قال : وأظن هذا البستان ، هو الذى بنته شجر الدر بستانا ودارا وحمامات قريب من مشهد السيدة نفيسة .

(*) ص١٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال : وأمر المأمون بالنداء فى القاهرة مع مصر ثلاثة أيام ، بأن من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمره ، ومن عجز عن أن يعمره فليؤجره من غير نقل شيء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شيء منـه ولا حكر يلزمه . وأباح تعمير ذلك جميعـه بغير طلب بحق فيه .

فطلب الناس كافة ما هو جار فى الديوان السلطانى وغيره ، وعمروه حتى صار البلدان لا يتخللهما داثر ولا دارس . وبنى فى الشارع (يعنى خارج باب زويلة) من الباب الجديد الى الجبل عرضا ، وهو القلعة الآن .

قال : وكان الخـراب استـولى على تلك الأماكن فى زمن المستـنصر ، فى أيام وزارة البازورى ، حتى انه كان بنى حائطا يستر الخراب عن نظر الخليفة اذا توجه من القاهرة الى مصر ، وبنى حائطا آخر عنـد جامع ابن طولون .

قال : وعمر ذلك حتى صـار المتعيشـون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الأخيرة بالقـاهرة ، ويتوجهـون الى مسـاكنهم فى مصر ... لا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود الى باب الصفا ، وهو المعاصر الآن ، وذلك أنه يخرج من الباب الجديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل الى بستان سيف الاسلام وعدة بساتين ، وقبالة جميع ذلك حـوانيت مسكونة عامر بالمتعيشين الى مصر ، والمعاش مستمر الليل والنهار .

« حارة الهلالية » : ذكر ابن عبد الظاهر أنها على يسرة الخـارج من البـاب الجديد الحاكمى .

« حارة البيازرة » : هذه الحـارة خارج باب القنطرة على شاطئ الخليج من شرقيه ، فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة ، حيث المواضـع التى تعرف اليـوم ببركة جنـاق والـكداشين ، والى قريب من حارة بهـاء الدين .

واختطت هذه الحـارة فى الأيام الآمرية . وذلك أن زمام البيازرة شـكا ضـيق دار الطيور بمصر ، وسأل أن يفسح للبيازرة فى عمارة حارة على شاطئ الخليج بظاهر القاهرة لحاجة الطيور والوحوش الى الماء ، فأذن له فى ذلك . فاختطوا هـذه الحـارة ، وجعلوا منازلهم مناظر على الخليج ، وفى كل دار باب سر ينزل منه الى الخليج .

واتصل بناء هذه الحارة بزقاق الكحل ، فعرفت بهم وسميت بحارة البيازرة (واحدهم بازيار) . ثم ان المختار الصقلبى زمام القصر أنشأ بجوارها بستانا ، وبنى فيـه منظـرة عظيمة . وهذا البستان يعرف اليوم بموضعـه ببستان ابن صيرم خارج باب الفتوح .

فلما كثرت العماير فى حارة البيازرة ، أمر الوزير المأمون بعمل الأقمنة لشى الطوب على شـاطئ الخليج الـكبير ، الى حيث كان البستان الكبير الجيوشى الذى تقدم ذكره فى ذكر مناظر الخلفاء ومتنزهاتهم .

« حارة الحسينية » : عرفت بطائفـة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية .

قال المسيحى فى حوادث سنة خمس وتسعين وثلثمائة : وأمر بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فابتدىء بعملها فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثلثمائة الى شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين ... فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل * من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم . ثم قويت الاشاعات ، وتحدث العوام فى الطرقات أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم .

فاجتمع سائر الكتاب ، وخرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأول ، ومعهم سائر المتصرفين فى الدواوين من المسلمين والنصارى ، الى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ويضجون ويسألون العفو عنهم — ومعهم رقعة قد كتبت عن جميعهم — الى أن دخلوا باب القصر الكبير ، وسألوا أن يعفى عنهم ، ولا يسمع فيهم قول ساع يسعى بهم .

وسلموا رقعتهم الى قائد القواد الحسين ابن جوهر ، فأوصلها الى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، فأجيبوا الى ما سألو ، وخرج اليهم قائد القواد فأمرهم بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم ، فانصرفوا بعد العصر .

وقرىء من الغد سجل كتب منه نسخة للمسلمين ، ونسخة للنصارى ، ونسخة لليهود ، بأمان لهم والعفو عنهم .

(*) ص٢٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

وقال فى ربيع الآخر : واشتد خوف الناس من أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، فكتب ما شاء الله من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصة وزمامهم ، وأمرائهم من الحمدانية والكجورية والغلمان العرفاء ، والمماليك وصبيان الدار ، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة ، والغلمان الحاكمية القدم على اختلاف أصنافهم .

وكتب أمان لجماعة من خدم القصر ، الموسومين بخدمة الحضرة ، بعدما تجمعوا ، وصاروا الى تربة العزيز بالله ، وضجوا بالبكاء ، وكشفوا رؤوسهم . وكتبت سجلات عدة بأمانات للديلم والجبل والغلمان الشرابية والغلمان الريحانية والغلمان البشارية والغلمان المفرقة العجم وغيرهم ، والنقباء والروم المرتزقة .

وكتبت عدة أمانات للزويليين والبنادين والطبالين والبرقيين والعطوفيين ، وللعرافة الجوانية ، والجودرية ، وللمظفرية ، وللصنهاجيين ، ولعبيد الشراء الحسينية ، وللميمونة ، وللفرحية ، وأمان لمؤذنى أبواب القصر ، وأمانات لسائر البيازرة والفهادين والحجالين ، وأمانات أخر لعدة أقوام ... كل ذلك بعد سؤالهم وتضرعهم .

وقال فى جمادى الآخرة : وخرج أهل الأسواق على طبقاتهم : كل يلتمس كتب أمان يكون لهم . فكتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طبقاتهم نسخة واحدة ، وكان يقرأ جميعها فى القصر أبو على أحمد ابن عبد السميع العباسى ، وتسلم أهل كل سوق ما كتب لهم .

وهذه نسخة احداها بعد البسملة :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، لأهل مسجد عبد الله : أنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين . وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال : لا خوف عليكم ، ولا تمتد يد بسوء اليكم ، الا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه . فليوثق بذلك ، وليعول عليه ان شاء الله تعالى . وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة ، وسلم تسليما كثيرا » .

وقال ابن عبد الظاهر : فأما الحارات التى من باب الفتوح ميمنة وميسرة للخارج منه . فالميمنة الى الهليلجة والميسرة الى بركة الأرمن برسم الريحانيـة — وهى الحسينية الآن — وكانت برسم الريحانيـة الغزاوية والمولدة والعجمان وعبيد الشراء . وكانت ثمان حارات وهى : حارة حامد ، بين الحارتين ، المنشية الكبيرة ، الحارة الكبيرة ، الحارة الوسطى ، سوق الكبير ، الوزيرية . وللأجناد بظاهر القاهرة حارات ، وهى حارة البيازرة ، والحسينية ... جميع ذلك سكن الريحانية .

وسكن الجيوشيـة والعطوفيـة بالقاهرة وبظاهرها الهلالية والشوبك وحلب والحبانية والمأمونية وحارة الروم وحبارة المصامدة والحارة الكبيرة والمنصورة الصغيرة واليانسية وحـارة أبى بـكر والمقس ورأس التبـان والشارع . ولم يكن للأجناد فى هـذا الوجه غير حارة عنتر للمؤمنين المترجلة .

وكانت كل حـارة من هـذه بلدة كبيرة بالبزازين والعطـارين والجزارين وغيرهم ، والولاة لا يحكمون عليها ، ولا يحـكم فيها الا الأزمة ونوابهم . وأعظم الجميع الحـارة الحسينية التى هى آخر صـف الميمنـة الى الهليلجة — وهى الحسينيـة الآن — لأنهـا كانت سكن الأرمن فارسهم وراجلهم ، وكان يجتمع بها قريب من سبعة آلاف نفس وأكثر من ذلك ، وبها أسواق عدة .

وقال فى موضع آخر : الحسينية منسوبة لجمـاعة من الأشراف الحسـينيين كانوا فى الأيام الكاملية . قدموا من الحجاز ، فنزلوا خارج باب النصر بهذه الأمكنة واستوطنوها ، وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشـبه بالطائفى ، فسميت بالحسينيـة . ثم سـكنها الأجناد بعد ذلك ، وابتنوا بهـا هذه الأبنية العظيمة .

وهـذا وهم . فانه تقـدم أن من جملة الطـوائف فى الأيـام الحاكميـة الطائفـة الحسينية ، وتقدم — فيما نقله ابن عبد الظاهر أيضا — أن الحسـينية كانت عدة حارات ، والأيام الكاملية انما كانت بعد الستمائة ، وقد كانت الحسينية قبل ذلك بما ينيف عن مائتى سنة ... فتدبره .

واعلم أن الحسينية شقتان : احداهما * ما خرج عن باب الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى الخندق ، وهذه الشقة هي التي كانت مساكن الجند في أيام الخلفاء الفاطميين ، وبها كانت الحارات المذكورة . والشقة الأخرى ماخرج عن باب النصر وامتد في الطول الى الريدانيـة ، وهذه الشقة لم يكن بها في أيام الخلفاء الفـاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر ، وما بين المصلى الى الريدانية فضاء لا بنـاء فيـه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك .

فلما كان بعد الخمسين وأربعمائة ، رقدم بدر الجمالى أمير الجيوش ، وقام بتدبير أمر الدولة الخليفة المنتصر بالله ... أنشـأ بحرى مصـلى العيـد ، خارج باب النصر ، تربة عظيمة ، وفيها قبره هو وولده الأفضـل بن أمير الجيوش وأبو على كتيفات بن الأفضل وغيره ، وهى باقية الى يومنا هذا ، ثم تتابع الناس فى انشاء الترب هنـاك حتى كثرت . ولم تزل هذه الشقة مواضع للترب ومقـابر أهل الحسينية والقاهرة الى بعد السبعمائة .

ولقد حدثت عن المشيخة ممن أدرك بأن ما بين مصلى الأموات التى خارج باب النصر ، وبين دار كهرداش التى تعرف اليـوم بدار الحاجب ، مكانا يعرف بالمراغة معدا لتمريغ الدواب به ، وأن ما فى صـف المصـلى من بحريها الترب فقط .

ولم تعمر هذه الشقة الا فى الدولة التركية لا سيما لما تغلب التتر على ممـالك الشرق والعراق ، وجفـل الناس الى مصر ، فنزلوا بهذه الشقة وبالشقة الأخرى ، وعمروا بهـا المساكن ، ونزل بهـا أيضـا أمراء الدولة . فصـارت من أعظم عمـائر مصر والقاهرة ، واتخذ الأمراء بها — من بحريها فيمـا بين الريدانية الى الخنـدق — منـاخات الجمال واصطبلات الخيل ، ومن ورائهـا الأسـواق والمساكن العظيمة فى الكثرة ، وصار أهلهـا يوصـفون بالحسن خصوصـا لمـا قدمت الأويراتية .

ذكر قدوم الأويراتية

وكان من خبر هذه الطائفة أن بيـدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة سنة أربع تسعين وسبعمائة ، وقام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خربنده ابن ابغانى ، تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالأويرانيـة ، وفـروا عن بلاده الى نواحى بغداد ، فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى .

وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحـاق بالفرات ، فأقاموا بها هنالك ، وبعثـوا الى نائب حلب يستأذنونه فى قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام ، فأذن لهم ، وعدوا الفرات الى مدينة بهنسا ، فأكرمهم نائبها ، وقام لهم بما ينبغى من العلوفات والضيافات .

وطولع الملك العـادل زين الدين كتبغـا — وهو يومئـذ سلطان مصر والشـام — بأمرهم . فاستشار الأمراء فيما يعمـل بهم ، فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم الى الديار المصرية ، وتفريق باقيهم فى البلاد الساحلية

(*) ص٢١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وغيرها من بلاد الشام . وخرج اليهم الأمير علم الدين سنجر الدواداري والأمير شمس الدين سنقر الأعسر الى دمشق ، فجهزا من أكابر الأويراتية نحو الثلثمائة للقدوم على السلطان ، وفرقا من بقى منهم بالبقاع العزيزة وبلاد الساحل . »

ولما قرب الجماعة من القاهرة ، خرج الأمراء بالعسكر الى لقائهم ، واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر اليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم ، وصاروا الى قلعة الجبل ، فأنعم السلطان على طرغاى مقدمهم بامرة طبلخانة ، وعلى اللوص بامرة عشرة ، وأعطى البقية تقادم فى الحلقة واقطاعات ، وأجرى عليهم الرواتب ، وأنزلوا بالحسينية .

وكانوا على غير الملة الاسلامية ، فشق ذلك على الناس ، وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ، ونفرة نفوسهم ، وشدة جبروتهم .

وكان اذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير وفناء عظيم ، فتضاعفت المضرة ، واشتد الأمر على الناس ، وقال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار :

ربنا اكشف عنا العذاب فانا
قد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانسلقنا
وانطبخنا فى الدولة المغلية

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة ، لم يصم أحد من الأويراتية . وقيل للسلطان ذلك ، فأبى أن يكرههم على الاسلام ، ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، وأظهر العناية بهم . وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم ، فبالغ فى اكرامهم حتى أثر فى قلوب أمراء الدولة منه احناً ، وخشوا ايقاعه بهم .

فان الأويرانية كانوا أهل جنس كتبغا ، وكانوا مع ذلك صورا جميلة ، فافتتن بهم الأمراء ، وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والاناث ، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم ، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته .

ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا الى البلاد الشامية ، واستدعوا منهم طائفة كبيرة . فتكاثر نسلهم فى القاهرة ، واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم ، على اختلاف الآراء فى الاناث والذكور ، فوقع * التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة ... الى أن آل الأمر بسببهم ، وبأسباب أخر ، الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة .

فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين ، قبض على طرغاى مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم ، وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها وقتلهم ، وفرق جميع الأويراتية على الأمراء ، فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم ، فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع . وأدركنا من ذلك طرفا

(*) ص٢٢ ج٢ ، ط. بولاق .

جيدا ، وكان الناس فى نكاح نسائهم رغبة ، ولآخرين شغف بأولادهم .

ولله در الشيخ تقى الدين السروجى اذ يقول من أبيات :

ياساعى الشوق الذى مذ جرى
جرت دموعى فهى أعوانه

خذ لى جوابا عن كتابى الذى
الى الحسينية عنوانه

فهى كما قد قيل وادى الحمى
وأهلها فى الحسن غزلانه

امشى قليلا وانعطف يسرة
يلقاك درب طال بنيانه

واقصد بصدر الدرب ذاك الذى
بحسنه تحسن جيرانه

سلم وقل يخشى مسن أى مسن
أشت حديثا طال كتمانه

وسل لى الوصل فان قال بق
فقل أوت قد طال هجرانه

وما برحوا يوصفون بالزعارة والشجاعة ، وكان يقال لهم البدورة : فيقال البدر فلان ، والبدر فلان ، ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ، ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وأخبار جمة .

وكانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة ، حتى لقد قال لى ثقة ممن أدركت من الشيخة : انه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور ، وسائر شوارعها كاظة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش ، وأصحاب اللهو والملعوب . فيما بين الريدانية — محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة — والى باب الفتوح ، لا يستطيع الانسان أن يمر فى هذا الشارع الطويل العريض ، طول هذه المسافة الكبيرة ، الا بمشقة من الزحام ... كما كنا نعرف شارع بين القصرين فيما أدركنا .

وما زال أمر الحسينية متماسكا الى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة وثمانمائة وما بعدها ، فخربت حاراتها ، ونقضت مبانيها ، وبيع ما فيها من الأخشاب وغيرها ، وباد أهلها .

ثم حدث بها ، بعد سنة عشرين وثمانمائة ، آية من آيات الله تعالى . وذلك أن فى أعوام بضع وستين وسبعمائة ، بدا بناحية برج الزيات — فيما بين المطرية وسرياقوس — فساد الأرضة التى من شأنها العبث فى الكتب والثياب ، فأكلت لشخص نحو ألف وخمسمائة قتة دريس . فكنا لا نزال نتعجب من ذلك .

ثم فشت هناك ، وشنع عبثها فى سقوف الدور ، وسرت حتى عاثت فى أخشاب بسقوف الحسينية وغلات أهلها وسائر أمتعتهم ، حتى أتلفت شيئا كثيرا ، وقويت حتى صارت تأكل الجدران . فبادر أهل تلك الجهة الى هدم ما قد بقى من الدور ، خوفا عليها من الأرضة ، شيئا بعد شىء حتى قاربوا باب الفتوح وباب النصر .

وقد بقى منها اليوم قليل من كثير يخاف ان استمرت أحوال الاقليم على ما هى عليه

من الفساد أن تدثر وتمحى آثارها ، كما دثر سواها ، ولله در القائل :

والله ان لم يداركها وقد رحلت
بلمحة أو بلطف من لديه خفى

ولم يجد بتلافيها على عجل
ما أمرها صائر الا الى تلف

« حارة حلب » : هذه الحارة خارج باب زويلة ، تعرف اليوم بزقاق حلب ، وكانت قديما من جملة مساكن الأجناد .

قال ياقوت فى باب حلب : الأول حلب المدينة المشهورة بالشام ، وهى قصبة نواحى قنسرين والعواصم اليوم . الثانى حلب الساجود من نواحى حلب أيضا . الثالث كفر حلب من قراها أيضا . الرابع محلة بظاهر القاهرة بالشارع من جهة الفسطاط . والله تعالى أعلم .

ذكر أخطاط القاهرة وظواهرها

قد تقدم ذكر ما يطلق عليه حارة من الأخطاط . ونريد أن نذكر من الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة ولا درب ، وهى كثيرة ، وكل قليل تتغير أسماؤها ، ولابد من ايراد ما تيسر منها .

« خط خان الوراقة » : هذا الخط فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش ، وفى شرقيه سوق المرجلين ، وهو يشتمل على عدة مساكن ، وبه طاحون ، وكان موضعه قديما اصطبل الصبيان الحجرية لموقف خيولهم كما تقدم . فلما زالت الدولة الفاطمية اختط مواضع المساكنى ، وقد شمله الخراب * .

« خط باب القنطرة » : هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية وحارة الفرحية والرماحين . وكان ما بين الرماحين — الذى يعرف اليوم بباب القوس داخل باب القنطرة — وبين الخليج فضاء لا عمارة فيه ، بطول ما بين باب الرماحين الى باب الخوخة والى باب سعادة والى باب الفرج . ولم يكن اذ ذاك على حافة الخليج عمائر ألبتة ، وانما العمائر من جانب الكافورى — وهى مناظر اللؤلؤة — وما جاورها من قبليها الى باب الفرج . وتخرج العامة عصريات كل يوم الى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرج ، فان بر الخليج الغربى كان فضاء ما بين بساتين وبرك ، كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وثمانين وخمسمائة : فى شوال قطع النيل الجسور ، واقتلع الشجر ، وغرق النواحى ، وهدم المساكن ، وأتلف كثيرا من النساء والأطفال . وكثر الرخاء بمصر : فالقمح كل مائة اردب بثلاثين دينارا ، والخبز البايت ستة أرطال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم ، والموز ستة أرطال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم ، والحمل الخيار بدرهمين ، والتين ثمانية أرطال بدرهم ، والعنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين ، والياسمين خمسة أرطال بدرهم .

(*) ص٢٣ ، جـ٢ ، ط ، بولاق .

وآل أمر أصحاب البساتين الى ألا يجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن أجرة جمعه ، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم ، والبسر عشرة أرطال بدرهم من جيده ، والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم . وما فى مصر الا متسخط بهذه النعمة .

قال : ولقد كنت فى خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه ، فرأيت الماء مملوءا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا ، والنخل مملوءا تمرا ، والمكشوف من الأرض مملوءا ريحانا وبقولا . ثم نزلت فوصلت الى المقس ، فوجدت من القلعة التى بالمقس الى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الأرض ، فلا يدرى الماشى أين يضع رجله متصلا عرض ذلك الى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة من مراكب الغلة ما قد ستر سواحله وأرضه .

قال : ودخلت البلد فرأيت فى السوق من الأخباز واللحوم والألبان والفواكه ما قد ملأها ، وهجمت منه العين على منظر ما رأيت قبله مثله .

قال : وفى البلد من البغى ، ومن المعاصى ومن الجهر بها ، ومن الفسق بالزنا واللواط ، ومن شهادة الزور ، ومن مظالم الأمراء والفقهاء ، ومن استحلال الفطر فى نهار رمضان وشرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الاسلام ، ومن عدم النكير على ذلك جميعه ... ما لم يسمع ولم يعهد مثله ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وظفر بجماعة مجتمعين فى حارة الروم يتغدون فى قاعة فى نهار رمضان فما كلموا ، وبقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب خمر فى ليل رمضان فما أقيم فيهم حد .

وخط باب القنطرة فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش ، وينتهى من قبليه الى خط بين السورين .

« خط بين السورين » : هذا الخط من حد باب الكافورى فى الغرب الى باب سعادة ، وبه الآن صفان من الأملاك : أحدهما مشرف على الخليج ، والآخر مشرف على الشارع المسلوك فيه من باب القنطرة الي باب سعادة . ويقال لهذا الشارع بين السورين ... تسميه العامة بها ، فاشتهر بذلك .

وكان فى القديم بهذا الخط البستان الكافورى . يشرف عليه بحده الغربى ثمة مناظر اللؤلؤة ، وقد بقيت منها عقود مبنية بالآجر يمر السالك فى هذا الشارع من تحتها ، ثم مناظر دار الذهب ، وموضعها الآن دار تعرف بدار بهادر الأعسر ، وعلى بابها بئر يستقى منها الماء فى حوض يشرب منه الدواب ، ويجاورها قبو معقود يعرف بقبو الذهب هو من بقية مناظر دار الذهب .

وبحد دار الذهب منظرة الغزالة ، وهى بجوار قنطرة الموسكى . وقد بنى فى مكانها ربع يعرف الى اليوم بربع غزالة ، ودار ابن قرقة — وقد صار موضعها جامع ابن المغربى — وحمام ابن قرقة ، وبقى منها البئر التى يستقى منها الى اليوم بحمام السلطان ، وعدة دور كلها فيما يلى شقة القاهرة من صف باب الخوخة .

وكانَ ما بين المناظر والخليج براحا ، ولم يكن شيء من هذه العمائر التى بحافة الخليج اليوم ألبتة . وكان الحاكم بأمر الله ، فى سنة احدى وأربعمائة ، منع من الركوب فى المراكب بالخليج ، وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج ، وأبواب الدور التى هناك والطاقات المطلة عليه ... على ما حكاه المسيحى .

وقال ابن المأمون فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة ، والمقام بها مدة النيل على الحكم الأول (يعنى قبل أيام أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل) وازالة ما لم تكن العادة جارية عليه من مضايقة اللؤلؤة بالبناء ، وأنها صارت حارات تعرف بالفرحية والسودان وغيرهما ... أمر حسام الملك متولى بابه باحضار عرفاء الفرحية ، والانكار عليهم فى تجاسرهم على ما استجدوه وأقدموا عليه .

فاعتذروا بكثرة الرجال وضيق الأمكنة عليهم ، فبنوا لهم قبابا يسيرة . فتقدم (يعنى أمر الوزير المأمون) الى متولى الباب بالانعام عليهم ، وعلى جميع من بنى فى هذه الحارة بثلاثة آلاف درهم ، وأن يقسم بينهم بالسوية ويأمرهم بنقل قسمهم ، وأن يبنوا لهم حارة قبالة بستان الوزير (يعنى * ابن المغربى) خارج الباب الجديد من الشارع خارج باب زويلة .

قال : وتحول الخليفة الى اللؤلؤة بحاشيته ، وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف ، وانضاف اليها ما يطلق كل ليلة عينا وورقا وأطعمة للبائتين بالنوبة — برسم الحرس بالنهار والسهر فى طول الليل ، من باب قنطرة بهادر الى مسجد الليمونة من البرين — من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب ... كل طائفة بنقيبها . والعرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة ، ولا يمكن بعضهم بعضا من المنام . والرهجية تخدم على الدوام .

« خط الكافورى » : هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر . أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الملقب بالاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول ، وله أبواب من حديد . فلما قدم جوهر القائد الى مصر ، جعل هذا البستان من داخل القاهرة ، وعرف ببستان كافور ، وقيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى ، ثم اختط مساكن بعد ذلك .

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة الاخشيد » : ولست خلون من شوال سنة ثلاثين وثلثمائة ، سار الاخشيد الى الشام فى عساكره ، واستخلف أخاه أبا المظفر بن طغج .

قال : وكان يكره سفك الدماء ، ولقد شرع فى الخروج الى الشام فى آخر سفراته وسار العسكر — وكان نازلا فى بستانه فى موضع القاهرة اليوم — فركب للمسير . فساعة خرج من باب البستان اعترضه شيخ يعرف بمسعود الصابونى يتظلم اليه ، فنظر له فتطير به وقال : خذوه ابطحوه .

(*) ص٢٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

فبطح ، وضرب خمس عشرة مقرعة وهو ساكت ، فقال الاخشيد : هو ذا يتشاطر :

فقال له كافور : قد مات .

فانزعج واستقال سفرته وعاد لبستانه ، وأحضر أهل الرجل واستحلهم ، وأطلق لهم ثلثمائة دينار ، وحمل الرجل الى منزله ميتا ، وكانت جنازته عظيمة . وسافر الاخشيد فلم يرجع الى مصر ، ومات بدمشق .

وقال فى كتاب « تتمة كتاب أمراء مصر » للكندى : وكان كافور الاخشيدى أمير مصر يواصل الركوب الى الميدان والى بستانه فى يوم الجمعة ويوم الأحد ويوم الثلاثاء .

قال : وفى غد هذا اليوم (يعنى يوم الثلاثاء) مات الأستاذ كافور الاخشيدى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة . ويوم مات الأستاذ كافور الاخشيدى ، خرج الغلمان والجند الى المنظرة ، وخربوا بستان كافور ، ونهبوا دوابه ، وطلبوا مال البيعة .

وقال ابن عبد الظاهر : البستان الكافورى هو الذى كان بستانا لكافور الاخشيدى ، وكان كثيرا ما يتنزه به ، وبنيت القاهرة عنده ، ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستمائة ، فاختطت البحرية والعزيزية به اصطبلات ، وأزيلت أشجاره .

قال : ولعمرى ان خرابه كان بحق . فانه كان عرف بالحشيشة التى يتناولها الفقراء والتى تطلع به ... يضرب بها المثل فى الحسن . قال شاعرهم نور الدين أبو الحسن على ابن عبد الله بن على الينبعى لنفسه :

رب ليل قطعته ونديمى
شاهدى وهو مسمعى وسميرى

مجلسى مسجد وشربى من خضـ
ـراء تزهو بحسن لون نضير

قال لى صاحبى وقد فاح منها
نشرها مزريا بنشر العبير :

أمن المسك ؟ قلت ليست من المسـ
ـك ، ولكنها من الكافورى

وقال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود بن أحمد بن محمد الأسدى الدمشقى المعروف باليغمورى : أنشدنى الامام العالم ، المعروف بجموع الفضائل ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الحنفى لنفسه ، وهو أول من عمل فيها :

وخضراء كافورية بات فعلها
بألبابنا فعل الرحيق المعتق

اذا نفحتنا من شذاها بنفحة
تدب لنا فى كل عضو ومنطق

غنيت بها عن شرب خمر معتق
وبالدلق عن لبس الجديد المزوق

وأنشدنى الحافظ جلال الدين أبو المعز ابن أبى الحسن بن أحمد بن الصائغ المغربى لنفسه :

عاطنى خضراء كافورية
يكتب الخمر لها من جندها

أسكرتنا فوق ما تسكرنا
وربحنا أنفسا من حدها

وأنشدنى لنفسه :

قم عاطنى خضراء كافورية
قامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير اذا تناول درهما
منها له تيه على الأمراء *

وتراه من أقوى الورى فاذا خلا
منها عددناه من الضعفاء

وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضا :

عاطيت من أهوى وقد زارنى
كالبدر وافى ليلة البدر

والبحر قد مد على متنه
شعاعه جسرا من التبر

خضراء كافورية رنحت
أعطافه من شدة السكر

يفعل منها درهم فوق ما
تفعل أرطال من الخمر

فراح نشوانا بها غافلا
لا يعرف الحلو من المر

قال وقد نال بها أمره
فبات مردودا الى أمرى

تتلتنى قلت نعم سيدى
قتلين بالسكر وبالبحر

قال : وأمر السلطان الملك الصالح (يعنى نجم الدين أيوب) الأمير جمال الدين أبا الفتح موسى بن يغمور ، أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئا . فدخل ذات يوم ، فرأى فيه منها شيئا كثيرا ، فأمر بأن يجمع فجمع وأحرق .

فأنشدنى فى الواقعة الشيخ الأديب الفاضل شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف لنفسه ، وذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

صرف الزمان وحادث المقدور
تركا نكير الخطب غير نكير

ما سالما حيا ولا ميتا ولا
طودا سما بل دكدكا بالطور

لهفى وهل يجدى التلهف فى ردى
طرب الغنى وأنس كل فقير

أخت المذلة لارتكاب محرم
قطب السرور بأيسر الميسور

جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها
من كل شىء كان فى المعمور

منها طعام والشراب كلاهما
والبقل والريحان وقت حضور

هى روضة ان شئتها ورياضة
يغنى بها عن روضة وخمور

ما فى المدامة كلها منها سوى
اثم المدام وصحبة المخمور

كلا ونكهة خمرة هى شاهد
عدل على حد وجلد ظهور

أسفا لدهر غالها ، ولربما
ظل الكريم بذلة المأسور

جمعت له الأشهاد كرما أخضرا
كعروسة تجلى بخضر حرير

زفوا لها نارا فخلنا جنة
برزت لنا قد زوجت بالنور

(*) ص٢٥ جـ٢ ، ط. بولاق (ع)

ثم اكتست منها غلالة صفرة
في خضرة مقرونة بزفير
فكأنها لهب اللظى في خضرة
منها وطرف رمادها المشور
جارى النضر على مذاب زمرذ
تركا فتيت المسك في الكافوري
لله درك حية أو ميتة
من منظر بهج بغير نظير
أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا
تربا تضمن منك ذوب عبير
عندي لذكرك ما بقيت مخلدا
سح الدموع ونفثة المصدور

ذكر كافور الأخشيدي

كان عبدا أسود خصيا ، مثقوب الشفة السفلى ، بطينا قبيح القدمين ثقيل البدن . جلب الى مصر ، وعمره عشر سنين فما فوقها ، في سنة عشر وثلثمائة . فلما دخل الى مصر تمنى أن يكون أميرها ، فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم ، أحد المتقبلين للضياع ، فباعه لابن عباس الكاتب .

فمر يوما بمصر على منجم ، فنظر له في نجومه وقال له : أنت تصير الى رجل جليل القدر ، وتبلغ معه مبلغا عظيما .

فدفع اليه درهمين لم يكن معه سواهما ، فرمى بهما اليه وقال : أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين .

ثم قال له : وأزيدك ، أنت تملك هذه البلد وأكثر منه ، فاذكرني .

واتفق أن ابن عباس الكاتب أرسله بهدية يوما الى الأمير أبي بكر محمد بن طغج الاخشيدي — وهو يومئذ أحد قواد تكين أمير مصر — فأخذ كافورا ورد الهدية ، فترقى عنده في الخدم حتى صار من أخص خدمه .

ولما مات الاخشيد بدمشق ضبط كافور * الأمور ، وداري الناس ووعدهم ، الى أن سكنت الدهماء بعد أن اضطرب الناس ، وجهز أستاذه وحمله الى بيت المقدس ، وسار الى مصر فدخلها .

وقد انعقد الأمر بعد الاخشيد لابنه أبي القاسم أونوجور ، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من دمشق بأن سيف الدولة علي بن حمدان أخذها وسار الى الرملة . فخرج كافور بالعساكر ، وضرب الدباديب — وهي الطبول — على باب مضربه في وقت كل صلاة ، وسار فظفر وغنم . ثم قدم الى مصر وقد عظم أمره ، فقام بخلافة أونوجور ، فخاطبه القواد بالأستاذ ، وصار القواد يجتمعون عنده في داره ، فيخلع عليهم ويحملهم ويعطيهم ... حتى انه وقع لجانك — أحد القواد الاخشيدية — في يوم بأربعة عشر ألف دينار ، فما زال عبدا له حتى مات .

وانبسطت يده في الدولة ، فعزل وولى وأعطى وحرم ، ودعى له على المنابر كلها الا منبر مصر والرملة وطبرية ، ثم دعى له بها في سنة أربعين وثلثمائة ، وصار يجلس للمظالم في كل سبت ، ويحضر مجلسه القضاة

(*) ص٢٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

والوزراء والشهود ووجوه البلد . فوقع بينه وبين الأمير أونوجور ، وتحرز كل منهما من الآخر ، وقويت الوحشة بينهما ، وافترق الجند فصار مع كل واحد طائفة .

واتفق موت أونوجور فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة — ويقال انه سمه — فأقام أخاه أبا الحسن على بن الاخشيد من بعده ، واستبد بالأمر دونه ، وأطلق له فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ، واستقل بسائر أحوال مصر والشام .

ففسد ما بينه وبين الأمير أبى الحسن على ، فضيق عليه كافور ، ومنع أن يدخل عليه أحد ، فاعتل بعلة أخيه ومات — وقد طالت به — فى محرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة . فبقيت مصر بغير أمير أياما ، لا يدعى فيها سوى للخليفة المطيع فقط ، وكافور يدبر أمر مصر والشام فى الخراج والرجال .

فلما كان لأربع بقين من المحرم المذكور ، أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الاخشيد . فلم يغير لقبه بالأستاذ ، ودعى له على المنبر بعد الخليفة .

وكانت له فى أيامه قصص عظام . وقدم عسكر من المعز لدين الله أبى تميم معد من المغرب الى الواحات ، فجهز اليه جيشا أخرجوا العسكر وقتلوا منهم ، وصارت الطبول تضرب على بابه خمس مرات فى اليوم والليلة ، وعدتها مائة طبلة من نحاس .

وقدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه الى طاعته فلاطفهم ، وكان أكثر الاخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز .

وقصر مد النيل فى أيامه ، فلم يبلغ تلك السنة سوى اثنى عشر ذراعا وأصابع . فاشتد الغلاء ، وفحش الموت فى الناس حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم .

وأرجف بمسير القرامطة الى الشام ، وبدت غلمانه تتنكر له ، وكانوا ألفا وسبعين غلاما تركيا سوى الروم والمولدين ، فمات لعشر بقين من جمادى الأول سنة سبع وخمسين وثلثمائة عن ستين سنة .

فوجد له من العين سبعمائة ألف دينار ، ومن الورق والحلى والجوهر والعنبر والطيب والثياب والآلات والفرش والخيام والعبيد والجوارى والدواب ما قوم بستمائة ألف ألف دينار .

وكانت مدة تدبيره أمر مصر والشام والحرمين احدى وعشرين سنة وشهرين وعشرين يوما ، منها منفردا بالولاية بعد أولاد أستاذه سنتان وأربعة أشهر وتسعة أيام . ومات عن غير وصية ولا صدقة ولا مأثرة يذكر بها ، ودعى له على المنابر بالكنية التى كناه بها الخليفة ، وهى أبو المسك ، أربع عشرة جمعة .

وبعده اختلت مصر ، وكادت تدمر ، حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر ، فصارت مصر دار خلافة .

ووجد على قبره مكتوب :

ما بال قبرك ياكافور منفردا
بصائح الموت بعد العسكر اللجب

يدوس قبرك من أدنى الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

ووجد أيضا مكتوب :

انظر الى غير الأيام ما صنعت
أفنت أناسا بها كانوا وما فنيت

دنياهم أضحكت أيام دولتهم
حتى اذا فنيت ناحت لهم وبكت

« خط الخرشتف » : هذا الخط فيما بين حارة برجوان والكافورى ، ويتوصل اليه من بين القصرين ، فيدخل له من قبو يعرف بقبو الخرشتف — وهو الذى كان يعرف قديما بباب التبانين — ويسلك من الخرشتف الى خط باب سر المارستان ، والى حارة زويلة .

وكان موضع الخرشتف ، فى أيام الخلفاء الفاطميين ، ميدانا بجوار القصر الغربى والبستان الكافورى . فلما زالت الدولة اختط ، وصار فيه عدة مساكن ، وبه أيضا سوق .

وانما سمى بالخرشتف لأن المعز أول من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف ، وهو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها .

قال ابن عبد الظاهر : الحارة المعروفة بالخرشتف كانت قديما ميدانا للخلفاء . فلما ورد المعز بنوا به اصطبلات ، وكذلك القصر الغربى . وقد كان النساء اللاتى أخرجن من القصر يسكن بالقصر النافعى ، فامتدت الأيدى الى طوبه * وأخشابه وبيعت ، وتلاشى حاله ، وبنى به وبالميدان اصطبلات ودويرات بالخرشتف فسمى بذلك ، ثم بنى به الآدر والطواحين وغيرها ، وذلك بعد الستمائة . وأكثر أراضى الميدان حكر للآدر القطبية .

« خط اصطبل القطبية » : هذا الخط أيضا من جملة أراضى الميدان . ولما انتقلت القاعة التى كانت سكن أخت الحاكم بأمر الله بعد زوال الدولة الفاطمية ، صارت الى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فاستقر بها هو وذريته ، فصار يقال لها الدار القطبية . واتخذ هذا المكان اصطبلا لهذه القاعة ، فعرف باصطبل القطبية .

ثم لما أخذ الملك المنصور قلاوون القاعة القطبية من مؤنسة خاتون ، المعروفة بدار اقبال ، ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، أخت المفضل قطب الدين أحمد المعروفة بخاتون القطبية ، وعملها المارستان المنصورى ، بنى فى هذا الاصطبل المساكن ، وصارت من جملة الخطط المشهورة ، ويتوصل اليه من وسط سوق الخرشتف ، ويسلك فيه من آخره الى المدرسة الناصرية والمدرسة الظاهرية المستجدة ، وعمل على أوله دربا يغلق . وهو خط عامر .

« خط باب سر المارستان » : هذا الخط يسلك اليه من الخرشتف ، ويصير السالك فيه الى البندقانيين . وبعض هذا الخط ،

(*) ص٢٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

وهو جله ومعظمه ، من جملة اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الدولة الفاطمية ، وقد تقدم ذكره . وموضع باب سر المارستان المنصورى هو باب الساباط . فلما زالت الدولة واختط الكافورى والخرشتف واصطبل القطبية ، صار هذا الخط واقعا بين هذه الأخطاط ، ونسب الى باب سر المارستان لأنه من هنالك . وأدركت بعض هذه الخطة وهى خراب .

ثم أنشأ فيه القاضى جمال الدين محمود القيصرى ، محتسب القاهرة ، فى أيام ولايته نظر المارستان فى سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، الطاحون العظيمة ذات الأحجار والفرن والربع علوه فى المكان الخراب ، وجعل ذلك جاريا فى جملة أوقاف المارستان المنصورى .

« خط بين القصرين » : هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها . وقد كان فى الدولة الفاطمية فضاء كبيرا وبراحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل ويكون به طرادهم ووقوفهم للخدمة كما هو الحال اليوم فى الرميلة تحت قلعة الجبل . »

فلما انقضت أيام الدولة الفاطمية ، وخلت القصور من أهاليها ، ونزل بها أمراء الدولة الأيوبية وغيروا معالمها ... صار هذا الموضع سوقا مبتذلا بعد ما كان ملاذا مبجلا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحمان المتنوعة والحلاوات المصنعة والفاكهة وغيرها : فصار متنزها تمر فيه أعيان الناس وأماثلهم فى الليل مشاة لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة ، ولرؤية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس .

وكانت تعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار وانشاد الأشعار والتفنن فى أنواع اللعب واللهو ، فيصير مجمعا لا يقدر قدره ، ولا يمكن حكاية وصفه . وسأتلو عليك من أنباء ذلك ما لا تجده مجموعا فى كتاب .

قال المسيحى فى حوادث جمادى الآخر سنة خمس وسبعين وثلثمائة : وفيه منع كل أحد ممن يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبا ، ولا المكارين أيضا بحميرهم ، ولا يجلس أحد على باب الزهومة من التجار وغيرهم ، ولا يمشى أحد ملاصق القصر من باب الزهومة الى أقصى باب الزمرذ . ثم عفى عن المكاريين بعد ذلك ، وكتب لهم أمان قرىء .

وقال ابن الطوير : ويبيت خارج باب القصر كل ليلة خمسون فارسا . فاذا أذن العشاء الآخرة داخل القاعة ، وصلى الامام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة بن الكركندى . فاذا علم بفراغ الصلاة ، أمر بضرب النوبات من الطبل والنوق وتوابعهما من عدة وافرة بطريق مستحسنة ساعة زمانية .

ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام ، فيصقع ويغرس حربة على الباب ، ثم يرفعها بيده ، فاذا رفعها أغلق الباب ، وسار الى حوالى القصر سبع دورات . فاذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم

ذكرهم ، وأفضى المؤذنون الى خزانتهم هناك ، ورميت السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين ، فينقطع المار من ذلك المكان الى أن تضرب النوبة سحرا قريب الفجر ، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة . انتهى .

وأخبرنى المشيخة أنه ما زال الرسم الى قريب : أنه لا يمر بشارع بين القصرين حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يستطيع حد أن يسوق فرسا فيه ، فان ساق أحد أنكر عليه وخرق به .

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » : والمكان الذى كان يعرف فى القاهرة « بين القصرين » هو من الترتيب السلطانى ، لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك ، كانت عظيمة القدر ، كاملة الهمة السلطانية .

وقال ياقوت : وبين القصرين كان ببغداد بباب الطاق ، يراد به قصر أسماء بنت المنصور وقصر عبد الله بن المهدى ، وكان يقال لهما أيضا بين القصرين . وبين * القصرين بمصر والقاهرة ، وهما قصران متقابلان بينهما طريق العامة والسوق ، عمرهما ملوك مصر المغاربة المتعلونة الذين ادعوا أنهم علوية .

وحدثنى الفاضل الرئيس تقى الدين عبد الوهاب ، ناظر الخواص الشريفة ، ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن أبى شاكر : أنه كان يشترى فى كل ليلة من بين القصرين بعد العشاء الآخرة — برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن خصيب — من الدجاج المطجن والقطا وفراخ الحمام والعصافير المقلاة بمبلغ مائتى درهم وخمسين درهما فضة ، يكون عنها يومئذ نحو من اثنى عشر مثقالا من الذهب ، وأن هذا كان دأبه فى كل ليلة . ولا يكاد مثل هذا ، مع كثرته لرخاء الأسعار ، يؤثر نقصه فيما كان هنالك من هذا الصنف ، لعظم ما كان يوضع فى بين القصرين من هذا النوع وغيره .

ولقد أدركنا ، فى كل ليلة من بعد العصر ، يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التى تقلى صفا من باب المدرسة الكاملية الى باب المدرسة الناصرية ، وذلك قبل بناء المدرسة الظاهرية المستجدة ، فيباع لحم الدجاج المطجن ولحم الأوز المطجن كل رطل بدرهم ، وتارة بدرهم وربع ، وتباع العصافير المقلوة كل عصفور بفلس ، حسابا عن كل أربعة وعشرين بدرهم . والمشيخة تقول : أنا حينئذ فى غلاء لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق ورخاء الأسعار فى الزمن الذى أدركوه قبل الفناء الكبير .

ومع ذلك فلقد وقع فى سنة ست وثمانين شىء لا يكاد يصدقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان . وهو أنه كان لنا ، من جيراننا بحارة برجوان ، شخص يعانى الجندية ويركب الخيل . فبلغنى عن غلامه أنه خرج فى ليلة من ليالى رمضان — وكان رمضان اذ ذاك فى فصل الصيف — ومعه رفيق له من غلمان الخيل ، وأنهما سرقا من شارع بين القصرين وما قرب منه بضعا وعشرين بطيخة خضراء ، وبضعا وثلاثين شقفة جبن . والشقفة أبدا من نصف رطل الى رطل .

(*) ص٢٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

فما منا الا من تعجب من ذلك ، وكيف تهيأ لاثنين فعل هذا ، وحمل هذا القدر يحتاج الى دابتين ... الى أن قدر الله تعالى لى بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين وسألته عن ذلك فاعترف لى به .

قلت : صف لى كيف عملتما .

فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان أو مقعد البطيخى — وكان اذ ذاك يعمل من البطيخ فى بين القصرين مرصات كثيرة جدا ، فى كل مرص ما شاء الله من البطيخ — قال : فاذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة ، وقلب الآخر أخرى ، فلشدة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد وصناعة ، ويقوم فلا يفطن به ، أو يقلب أحدنا ورفيقه قائم من ورائه ، والبياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين وما فى ذلك الشارع من غزير الناس ، فيحذفها من تحته وهو جالس القرفصاء ، فاذا أحس بها رفيقه تناولها ومر ، وكذلك كان فعلهم مع الجبانين وكانوا كثيرا . فانظر — أعزك الله — الى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ، ولا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع ولعظم الخلق .

ولقد حدثنى غير واحد ، ممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى ، أنه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين . وقال لى ابنه محب الدين محمد : أول ما شاهدت بين القصرين حسبت أن زفة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك ، فلما لم ينقطع المارة سألت : ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا ؟ فقيل لى هذا دأب البلد دائما .

ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة ، عند التمشى بعد العشاء بين القصرين ، ويجامع حتى يقضى وطره وهما ماشيان من غير أن يدركهما أحد ، لشدة الزحام واشتغال كل أحد بلهوه .

وما برحت أجد من الازدحام مشقة ، حتى آفادنى بعض من أدركت أن من الرأى فى المشى أن يأخذ الانسان فى مشيه نحو شماله ، فانه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام . فاعتبرت ذلك آلاف مرات فى عدة سنين فما أخطأ معى ، ولقد كنت أكثر من تأمل المارة بين القصرين ، فاذا هم صفان كل صف يمر من صوب شماله كالسيل اذا اندفع . وعلل هذا الذى آفادنى أن القلب من يسار كل أحد ، والناس تميل الى جهة قلوبهم ، فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم ، وكذا صح لى مع طول الاعتياد .

ولما حدثت هذه المحن بعد سنة ست وثمانين وثمانمائة ، تلاشى أمر بين القصرين ، وذهب ما هناك . وما أخوفنى أن يكون أمر القاهرة كما قيل :

هذه بلدة قضى الله ياصا
ح عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفة وابك من كا
ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها
فهى كانت منازل الأحباب

« خط الخشبية » : هذا الخط يتوصل اليه من وسط سوق باب الزهومة ، ويسلك

فيه الى الحارة العدوية ، حيث فندق الرخام برحبة بيبرس ، والى درب شمس الدولة .

وقيل له خط الخشيبة من أجل أن الخليفة الظافر لما قتله نصر بن عباس * ، وبنى على مكانه الذى دفنه فيه المسجد الذى يعرف اليوم بمسجد الخلعيين ، ويعرف أيضا بمسجد الخلفاء ... نصبت هناك خشبة حتى لايمر أحد من هذا الموضع راكبا ، فعرف بخشيبة تصغير خشبة .

وما زالت هناك حتى زالت الدولة الفاطمية وقام السلطان صلاح الدين بسلطنة مصر ، فأزال الخشيبة ، وعرف هذا الخط بها الى اليوم . ويقال له خط حمام خشيبة من أجل الحمام التى هناك .

ولمقتل الظافر خبر يحسن ذكره هنا .

ذكر مقتل الخليفة الظاهر

وكان من خبر الظافر أنه لما مات الخليفة الحافظ لدين الله ، أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر ، فى ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، بويع ابنه أبو المنصور اسماعيل ، ولقب بالظافر بأمر الله بوصية من أبيه له بالخلافة ، وقام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال .

فلم يرض الأمير المظفر على بن السلار — والى الاسكندرية والبحيرة يومئذ — بوزارة ابن مصال ، وحشد وسار الى القاهرة . ففر ابن مصال ، واستقر ابن السلار فى الوزارة ، وتلقب بالعادل . فجهز العساكر لمحاربة ابن مصال فحاربته وقتل .

فقوى واستوحش منه الظافر ، وخاف منه ابن السلار واحترز منه على نفسه ، وجعل له رجالا يمشون فى ركابه بالزرد والخود — وعددهم ستمائة رجل بالنوبة — ونقل جلوس الظافر من القاعة الى الايوان فى البراح والسعة ، حتى اذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه .

ثم تأكدت النفرة بينهما ، فقبض على صبيان الخاص وقتل أكثرهم ، وفرق باقيهم وكانوا خمسمائة رجل . وما زال الأمر على ذلك الى أن قتله ربيبه عباس بن تميم بيد ولده نصر ، واستقر بعده فى وزارة الظافر .

وكان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير وبين الظافر مودة أكيدة ومخالطة ، بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد ، ويخرج من قصره الى دار نصر بن عباس التى هى اليوم المدرسة السيوفية .

فخاف عباس من جراءة ابنه ، وخشى أن يحمله الظافر على قتله ، فيقتله كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدته أم عباس . فنهاه عن ذلك ، وألحف فى تأنيبه وأفرط فى لومه ، لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس ، وكارهين منه تقريبه أسامة بن منقذ لما علموه من أنه هو الذى حسن لعباس قتل ابن السلار كما هو مذكور فى خبره ، رهموا بقتله ، وتحدثوا مع الخليفة الظافر فى ذلك .

(*) ص٢٩ جـ٢ ، ط.بولاق .

فبلغ أسامة ما هم عليه — وكان غريبا من الدولة — فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر ، ويبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر ، الى أن قال له مرة : كيف تصبر على ما يقولُ الناس فى حق ولدك من أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء ؟ فأثر ذلك فى قلب عباس .

واتفق أن الظافر أنعم بمدينة قليوب على نصر بن عباس . فلما حضر الى أبيه ، وأعلمه بذلك ، وأسامة حاضر فقال له : ياناصر الدين ما هى بمهرك غالية ... يعرض له بالفحش .

فأخذ عباس من ذلك ما أخذه ، وتحدث مع أسامة لثقته به فى كيفية الخلاص من هذا ، فأشار عليه بقتل الظافر اذا جاء الى دار نصر على عادته فى الليل ، فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك . فاغتنمها أسامة ، وما زال بنصر يشنع عليه ، ويحرضه على قتل الظافر حتى وعده بذلك .

فلما كان ليلة الخميس آخر المحرم من سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، خرج الظافر من قصره متنكرا ومعه خادمان كما هى عادته ، ومشى الى دار نصر بن عباس ، فاذا به قد أعد له قوما ، فعندما صار فى داخل داره وثبوا عليه ، وقتلوه هو وأحد الخادمين ، وتوارى عنهم الخادم الآخر ولحق بعد ذلك بالقصر ، ثم دفنوا الظافر والخادم تحت الأرض فى الموضع الذى فيه الآن المسجد .

وكان سنه يوم قتل احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ونصف ، منها فى الخلافة بعد أبيه أربع سنين وثمانية أشهر تنقص خمسة أيام ، وكان محكوما عليه فى خلافته . وفى أيامه ملك الفرنج مدينة عسقلان ، وظهر الوهن فى الدولة ، وكان كثير اللهو واللعب ، وهو الذى أنشأ الجامع المعروف بجامع الفاكهيين .

وبلغ أهل القصر ما عمله نصر ابن عباس من قتل الظافر ، فكاتبوا طلائع بن رزيك — وكان على الأشمونين — وبعثوا اليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه . فقدم بالجموع ، وفر عباس وأسامة ونصر . ودخل طلائع وعليه ثياب سود ، وأعلامه وبنوده كلها سود ، وشعور النساء التى أرسلت اليه من القصر على الرماح ... فكان فألا عجيبا . فانه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد الى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك ديار مصر .

وكان أول ما بدأ به طلائع أن مضى ماشيا الى دار نصر ، وأخرج الظافر والخادم وغسلهما وكفنهما ، وحمل الظافر فى تابوت مغشى ، ومشى طلائع حافيا والناس كلهم حتى وصلوا الى القصر ، فصلى عليه ابنه الخليفة الفائز ، ودفن فى تربة القصر .

« خط سقيفة العداس » : هذا الخط فيما بين درب شمس الدولة والبندقانيين . كان يقال له أولا سقيفة العداس ، ثم عرف بالصاغة القديمة *، ثم عرف بالأساكفة ، ثم هو الآن يعرف بالحريريين الشرابيين ، وبسوق الزجاجين ، وفيه يباع الزجاج ، وهو خط عامر .

(*) ص٣٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

وهذا العداس هو على بن عمر بن العداس أبو الحسن . ضمن فى أيام المعز لدين الله كورة بوصير ، فخلع عليه وجمله ، وسار خليفته بالبنود والطبول فى جمادى الأولى سنة أربع وستين وثلثمائة فلما كان فى أول خلافة العزيز بالله بن المعز لدين الله ، ولاه الوساطة — وهى رتبة الوزارة — بعد موت الوزير يعقوب بن كلس ، ولم يلقبه بالوزير .

فجلس فى القصر لتسع عشرة خلت من ذى الحجة سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، وأمر ونهى ، ونظر فى الأموال ، ورتب العمال ، وأمر ألا يطلق شىء الا بتوقيعه ، ولا ينفذ الا ما أمر به وقرره . وأمره العزيز بالله ألا يرتفق ، أى يرتشى ، ولا يرتزق — يعنى أنه لا يقبل هدية — ولا يضيع دينارا ولا درهما .

فأقام سنة ، وصرف فى أول المحرم من سنة ثلاث وثمانين ، فقرر فى ديوان الاستيفاء .

الى أن كان جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، حسّن لأبى طاهر محمود النحوى الكاتب — وكان منقطعا اليه — أن يلقى الحاكم بأمر الله ، ويبلغه ما تشكوه الناس من تظافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم ، وأن فهد بن ابراهيم هو الذى يقوى نفوسهم ، ويفوض أمر الأموال والدواوين اليهم ، وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى .

فوقف أبو طاهر للحاكم ليلا فى وقت طوافه فى الليل وبلغه ذلك ، ثم قال : يامولانا ان كنت تؤثر جمع الأموال واعزاز الاسلام ، فأرنى رأس فهد بن ابراهيم فى طشت ، والا لم يتم من هذا شىء !

فقال له الحاكم : ويحك ، ومن يقوم بهذا الأمر الذى تذكره ويضمنه ؟

فقال : عبدك على بن عمر بن العداس .

فقال : ويحك ، أويفعل هذا ؟!

قال : نعم ياأمير المؤمنين .

قال : قل له يلقانى ههنا فى غد .

ومضى الحاكم . فجاء أبو طاهر الى ابن العداس وأعلمه بما جرى ، فقال : ويحك قتلتنى وقتلت نفسك .

فقال : معاذ الله ! أفنصبر لهذا الكلب الكافر على ما يفعل بالاسلام والمسلمين ، ويتحكم فيهم من اللعب بالأموال ؟ والله ان لم تسع فى قتله ليسعين فى قتلك .

فلما كان فى الليلة القابلة ، وقف على بن عمر العداس للحاكم ووافقه على ما يحتاج اليه . فوعده بانجاز ما اتفقا عليه ، وأمره بالكتمان . وانصرف الحاكم .

فلما أصبح ركب العداس الى دار قائد القواد حسين بن جوهر القائد ، فلقى عنده فهد ابن ابراهيم ، فقال له فهد : ياهذا ، كم تؤذينى وتقدح فىّ عند سلطانى ؟

فقال العداس : والله ما يقدح ولا يؤذينى عند سلطانى ، ويسعى على غيرك .

فقال فهد : سلط الله على من يؤذى صاحبه فينا ويسعى به سيف هذا الامام الحاكم بأمر الله .

فقال العداس : آمين ، وعجل ذلك ولا تمهله .

فقتل فهد فى ثامن جمادى الآخرة وضربت عنقه ، وكان له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنى عشر يوما ، وقتل العداس بعده بتسعة وعشرين يوما . واستجيب دعاء كل منهما فى الآخر ، وذهبا جميعا ، ولا يظلم ربك أحدا .

وذلك أن الحاكم خلع على العداس فى رابع عشره وجعله مكان فهد ، وخلع على ابنه محمد بن على . فهناه الناس ، واستمر الى خامس عشرى رجب منها . فضربت رقبة أبى طاهر محمود بن النحوى — وكان ينظر فى أعمال الشام — لكثرة ما رفع عليه من التجبر والعسف . ثم قتل العداس فى سادس شعبان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، وأحرق بالنار .

« خط البندقانيين » : هذا الخط كان قديما اصطبل الجميزة ، أحد اصطبلات الخلفاء الفاطميين ، فلما زالت الدولة اختط ، وصارت فيه مساكن ، وسوق من جملته عدة دكاكين لعمل قسى البندق ، فعرف الخط بالبندقانيين لذلك .

ثم انه احترق يوم الجمعة للنصف من صفر سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، والناس فى صلاة الجمعة ، فما قضى الناس الصلاة الا وقد عظم أمره . فركب اليه والى القاهرة والنيران قد ارتفع لهبها ، واجتمع الناس فلم يعرف من أين كان ابتداء الحريق .

واتفق هبوب رياح عاصفة ، فحملت شرر النار الى أمد بعيد ، ووصلت أشعتها الى أن رؤيت من القلعة . فركب الوزير منجك بمماليك الأمراء ، وجمعت السقاؤون لطفى النار ، فعجزوا عن اطفائها .

واشتد الأمر فركب الأمير شيخو والأمير طاز والأمير مغلطاى أميرأخور ، وترجلوا عن خيولهم ، ومنعوا النهابة من التعرض الى نهب البيوت التى احترقت

وعم الحريق دكاكين البندقانيين ودكاكين الرسامين وحوانيت الفقاعين والفندق المجاور لها والربع علوه ، وعملت الى الجانب الذى يلى بيت بيبرس ركن الدين ، الملقب بالملك المظفر ، والربع المجاور لعالى زقاق الكنيسة . فما زال الأمير شيخو واقفا بنفسه ومماليكه ومعه الأمراء الى أن هدم ما هنالك .

والنار تأكل ما تمر به الى أن وصلت الى بئر الدلاء — التى كانت تعرف قديما ببئر زويلة ، ومنها كان يستقى لاصطبل الجميزة — فأحرقت ما جاور البئر من الأماكن الى حوانيت الفكاه والطباخ وما يجاورهما من الحوانيت والربع المجاور لدار الجوكندار ، وكادت أن تصل الى دار القاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر ، المجاورة لحمام الشيخ نجم الدين بن عبود .

ولم يبق أحد فى ذلك الخط حتى حول متاعه خوفا من الحريق . فكان أهل البيت * بينما هم فى نقل ثيابهم ، واذا بالنار قد أحاطت بهم ، فيتركون ما فى الدار وينجون بأنفسهم ... والأمر يعظم ، والهدم واقع فى الدور المجاورة لأماكن الحريق خشية من تعلق

(*) ص٣١ جـ١ ، ط. بولاق .

النار بها ، فسرى الى جميع البلد الى أن أتى الهدم على سائر ما كان هنالك .

فأقام الأمر كذلك يومين وليلتين والأمراء وقوف . فلما خف انصرف الأمراء ، ووقف والى القاهرة ومعه عدة من الأمراء لطفى ما بقى ، فاستمروا فى طفئه ثلاثة أيام أخر .

وكان المصاب بهذا الحريق عظيما ... تلف فيه للناس من المال والثياب والمصاغ وغيره بالحريق والنهب ما لا يعلم قدره الا الله . هذا مع ما كان فيه الأمراء من منع النهابة ، وكفهم عن أموال الناس ، الا أن الأمر كان قد تجاوز الحد ، وعطب بالنار جماعة كثيرة ، ووصل حريق النار الى قيسارية طشتمر وربع بكتمر الساقى .

فلما كفى الله أمر هذا الحريق ، وأعان على طفئه ، بعد أن هدمت عدة أماكن جليلة ما بين رباع وحوانيت ، وقع الحريق فى أماكن من داخل القاهرة وخارج باب زويلة . ووجد فى بعض المواضع التى بها الحريق كعكات بزيت وقطران ، فعلم أن هذا من فعل النصارى ، كما وقع فى الحريق الذى كان فى أيام الملك الناصر ، وقد ذكر فى خبر السيرة الناصرية

فنودى فى الناس أن يحترسوا على مساكنهم . فلم يبق أحد من الناس ، أعلاهم وأدناهم ، حتى أعد فى داره أوعية ملآنة بالماء ما بين أحواض وأزيار ، وصاروا يتناوبون السهر فى الليل ، ومع ذلك فلا يدرى أهل البيت الا والنار قد وقعت فى بيتهم ، فيتداركون طفئها لئلا تشتعل ويصعب أمرها .

وترك جماعة من الناس الطبخ فى الدور ، وتمادى ذلك فى الناس من نصف صفر الى عاشر ربيع الأول . فأحضر الأمير سيف الدين تشتمر شاد الدواوين نشابة فى وسطها نفط قد وجدها فى سطح داره ، فأراها للأمراء وهى محروقة النصل .

فصدر أمر الوزير منجك للأمير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة بالقبض على الحرافيش ، وتقييدهم وسجنهم خوفا من غائلتهم ونهبهم الناس عند وقوع الحريق . فتتبعهم وقبض عليهم فى الليل من بيوتهم ومن الحوانيت حتى خلت السكك منهم .

ثم ان الأمراء كلموا الوزير فى أمرهم ، فأمر باطلاقهم ، ونودى فى البلد ألا يقيم فيها غريب ، وطلبوا الخفراء وولاة المراكز ، وأمروا بالاحتفاظ وتتبع الناس ، وأخذ من تتوهم فيه ريبة أو يذكر بشىء من أمر . هذا والحريق أمره فى تزايد ، وصار والى القاهرة من ذلك فى تعب كبير ، لا ينام هو ولا أعوانه فى الليل ألبتة لكثرة الضجات فى الليل .

ووقع حريق فى شونة حلفاء بمصر مجاورة لمطابخ السكر السلطانية . فركب القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص فى جماعة ، وخرج عامة أهل مصر ، وتكاثروا على الشونة حتى طفئت . ووقع الحريق فى عدة أماكن بمصر ، واستمر الحريق بمصر والقاهرة مدة شهر من ابتدائه بالبندقانيين ولم يعلم له سبب .

واستمر أكثر خط البندقانيين خرابا الى أن عمر الأمير يونس النوروزى ، دوادار الملك

الظاهر برقوق ، الربع فوق بئر الدلاء التي كانت تعرف ببئر زويلة ، وأنشأ بجوار درب الأنجب الحوانيت والرباع والقيسارية في سنة تسع وثمانين وسبعمائة .

ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب ، ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، داره بجوار حمام ابن عبود ، فاتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين ، فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك حيث الحوض الذي أنشأه تجاه دار بيبرس .

ولقد أدركنا في خط البندقانيين عدة كثيرة من الحوانيت التي يباع فيها الفقاع يبلغ نحو العشرين حانوتا . وكانت من أنزه ما يرى ، فانها كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملون ، وبها مصانع من ماء تجرى الى فوارات تقذف بالماء على ذلك الرخام حيث كيزان الفقاع مرصوصة ، فيستحسن منظرها الى الغاية ، لأنها من الجانبين والناس يمرون بينهما .

وكان بهذا الخط عدة حوانيت تعمل قسى البندق ، وعدة حوانيت لرسم أشكال ما يطرز بالذهب والحرير ، وقد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة . وهو من أخطاط القاهرة الجسيمة .

« خط دار الديباج » : هذا الخط هو فيما بين خط البندقانيين والوزيرية . وكان أولا يعرف بخط دار الديباج ، لأن دار الوزير يعقوب بن كلس — التي من جملتها اليوم المدرسة الصاحبية ودرب الحريري والمدرسة السيفية — عملت دارا ينسج فيها الديباج والحرير برسم الخلفاء الفاطميين ، وصارت تعرف بدار الديباج ، فنسب اليها الخط . الى أن سكن هناك الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر ، في أيام العادل أبي بكر بن أيوب ، فصار يعرف بخط سويقة الصاحب . وهو خط جسيم به مساكن جليلة وسوق ومدرسة .

« خط الملحيين » : هذا الخط فيما بين الوزيرية والبندقانيين من وراء دار الديباج ، وتسميه العامة خط طواحين الملوحيين — بواو بعد اللام وقبل الحاء المهملة — وهو تحريف .(*) وانما هو خط الملحيين ، عرف بطائفة من طوائف العسكر في أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية ، وهم الذين قاموا بالفتنة في أيام المستنصر الى أن كان من الغلاء ما أوجب خراب البلاد ، ونهب خزائن الخليفة المستنصر .

فلما قدم أمير ★ الجيوش بدر الجمالي الى القاهرة ، وتقلد وزارة المستنصر ، وتجرد لاصلاح اقليم مصر ، وتتبع المفسدين وقتلهم ، وسار في سنة سبع وستين وأربعمائة الى الوجه البحري ، وقتل لواتة وقتل مقدمهم سليمان اللواتي وولده ، واستصفى أموالهم ، ثم توجه الى دمياط وقتل فيها عدة من المفسدين .

فلما أصلح جميع البر الشرقي ، عدى الى البر الغربي ، وقتل جماعة من الملحية وأتباعهم بثغر الاسكندرية بعدما أقام أياما محاصر البلد وهم يمتنعون عليه ويقاتلونه ... الى أن أخذها عنوة ، فقتل منهم عدة كثير .

(*) ص٣٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

وكان بهذا الخط عدة من الطواحين ، فسمى بخط طواحين الملحيين ، ...ه الى الآن يسير من الطواحين .

« خط المسطاح » . هذا الخط فيما بين خط الملحيين وخط سويقة الصاحب . وفيه اليوم سوق الرقيق — الذى يعرف بسوق الجوار — والمدرسة الحسامية ، وما دار به ويعرف المسطاح . وبخارج باب القنطرة ، قريب من باب الشعرية أيضا ، خط يعرف بالمسطاح .

« خط قصر أمير سلاح » ... الخط تجاه حمام البيسرى بين القصرين . يسلك فيه الى مدرسة الطواشى سابق الدين المعروفة بالسابقية ، وكان يخرج ... الى رحبة باب العيد من باب القصر .. الى أن هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، وبنى فى مكانه القيسارية المستجدة بجوار مدرسته من رحبة باب العيد ، فصار هذا الخط غير نافذ . وكان شارعا مسلوكا يمر فيه الناس والدواب بالأحمال ، فركب عليه جمال الدين المذكور دروبا لحفظ أمواله

وكان هذا الخط من أخص أماكن القصر الكبير الشرقى . فلما زالت الدولة الفاطمية ، وتفرق أمراء صلاح الدين يوسف القصر ، عرف هذا المكان بقصر شيخ الشيوخ ابن حمويه الوزير لسكنه فيه ، ثم عرف بعد ذلك بقصر أمير سلاح وبقصر سابق الدين ، وهو الى الآن يعرف بذلك . وسبب شهرته بأمير سلاح أنه اتخذ به عمائر جليلة هى بيد ورثته الى الآن .

وأمير سلاح هذا هو « بكتاش الفخرى » الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى . كان أولا مملوكا لفخر الدين ابن الشيخ ، فصار الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وتقدم عنده من جملة من قدمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية .

وتأمر فى أيام الملك الصالح ، وتقدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستمر أميرا ما ينيف على الستين سنة لم ينكب فيها قط .

وعظم فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى ... بحيث أن الأمير حسام الدين طرنطاى ، نائب السلطنة بديار مصر فى أيام قلاوون ، تجارى مرة مع السلطان فى حديث الأمراء . فقال له السلطان المنصور : أما اليوم فما بقى فى الأمراء غير أمير سلاح : اذا قلت فارس خيل شجاع ما يرد وجهه من عدوه ، واذا حلف ما يخون ، واذا قال صدق .

فقال طرنطاى : والله ياخوند له اقطاع عظيم ما كان يصلح الا لى .

فاحمر وجه السلطان وغضب ، وقال له : ويلك ! اياك أن تتكلم بهذا . والله مكان يصل فيه سيف أمير سلاح ما يصل نشابك ولا نشاب غيرك .

وكان كريما شجاعا ، يسافر كل سنة مجردا بالعسكر ، فيصل الى حلب للغارة ومحاصرة قلاع العدو ، فاشتهر بذلك فى بلاد العدو ، وعظم صيته ، واشتدت مهابته . وكانت له رغبة فى شراء المماليك والخيول بأغلى القيم ،

وكان يبعث للأمراء المجردين معه النفقة ، ويقوم لهم بالشعير والأغنام . وبلغت مماليكه الغاية فى الحشمة ، وكان اقطاع كل منهم فى السنة عشرين ألف درهم فضة ، عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب . ولكل من جنده خبز مبلغه فى السنة عشرة آلاف درهم ، سوى كلفهم من الشعير واللحم .

ومع ذلك فكان خيرا دينا ، له صدقات ومعروف واحسان كثير . ومات بعدما ترك امرته فى مرضه الذى مات فيه للنصف من ربيع الآخر سنة ست وسبعمائة ، رحمه الله .

وبهذا الخط عدة دور جليلة . يأتى ذكرها عند ذكر الدور من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

« أولاد شيخ الشيوخ » : جماعة أصلهم الذى ينتسبون اليه حمويه بن على . يقال انه من ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنو شروان ، وولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته ، وهو جد شيخ الاسلام محمد وأخيه أبى سعد بنى حمويه بن محمد ابن حمويه .

وكان محمد وأبو سعد من ملوك خراسان ، فتركا الدنيا وأقبلا على طريق الآخرة ، ومات ركن الاسلام أبو سعد بنجران من قرى جوين فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، ومات أخوه شيخ الاسلام محمد بها فى سنة ثلاثين وخمسمائة .

وترك أبو سعد زين الدين أحمد وبنات ، وترك شيخ الاسلام محمد ولدا واحدا وهو أبو الحسن على . فتزوج على بن محمد بابنة عمه أبى سعد ، ورزق منها سعد الدين ومعين الدين حسنا وعماد الدين عمر . وترك زين الدين أحمد بن أبى سعد ركن الدين أبا سعد وعزيز الدين وزين الدين القاسم .

فقدم عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه الى دمشق ، وصار شيخ الشيوخ بها ، وقدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين على .

فلما مات عمر فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة بدمشق ، أقر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده صدر الدين محمدا موضعه ، وصار شيخ الشيوخ بدمشق . فتزوج بابنة القاضى * شهاب الدين ابن أبى عصرون ، ورزق منها عشرة بنين : منهم عماد الدين عمر ، وفخر الدين يوسف ، وكمال الدين أحمد ، ومعين الدين حسين .

فأرضعت أمهم — بنت أبى عصرون — السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فصار أخا لأولاد صدر الدين شيخ الشيوخ من الرضاعة . وقدم صدر الدين الى القاهرة ، وولى تدريس الشافعى بالقرافة ومشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعدا ، ثم سافر فمات بالموصل فى رابع عشر جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة .

واستبد الملك الكامل بمملكة مصر بعد أبيه . فرقى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ محمد بن حمويه الأربعة ، وبعث عماد الدين عمر فى الرسالة الى الخليفة ببغداد ، وجمع له

(*) ص٣٣ ج٢ ، ط. بولاق .

بين رياسة العلم والقلم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه .

وما زال على ذلك الى أن مات الملك الكامل ، وقام من بعده فى سلطنة مصر ابنه الملك العادل أبو بكر بن الكامل . فخرج الى دمشق ليحضر اليه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مردود بن العادل أبى بكر بن أيوب نائب السلطنة بدمشق ، فدس عليه من قتله على باب الجامع فى سادس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة .

وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين . فان الملك الكامل جعله أحد الأمراء ، وألبسه الشربوش والقباء ونادمه ، وبعثه فى الرسالة عنه الى ملك الفرنج ، ثم الى أخيه المعظم بدمشق ثم الى الخليفة ببغداد ، وأقامه يتحدث بمصر فى تدبير المملكة وتحصيل الأموال ، ثم بعثه حتى تسلم حران والرها ، وجهزه الى مكة على عسكره . فقاتل صاحبها الأمير راجح الدين بن قتادة ، وأخذها بالسيف ، وقتل عسكر اليمن .

وما زال مكرما محترما حتى مات الملك الكامل ، فقبض عليه العادل ابن الكامل واعتقله . فلما خلع العادل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أطلقه وأمّره وبالغ فى الاحسان اليه ، وبعثه على العساكر الى الكرك . فأوقع بالخوارزمية وبدد شملهم ، وكانوا قد قدموا من المشرق الى غزة ، وأقام الدعوة للصالح فى بلاد الشام وعاد .

ثم قدمه على العساكر . فأخذ طبرية من الفرنج وهدمها ، وأخذ عسقلان من الفرنج وهدم حصونها ، ونازل حمص حتى أشرف على أخذها . ثم تقدم على العساكر بقتال الفرنج بدمياط ، فمات السلطان عند المنصورة وقام بتدبير الدولة بعده خمسة وسبعين يوما الى أن استشهد فى رابع ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة ، فحمل من المنصورة الى القرافة فدفن بها .

وأما كمال الدين أحمد . فان الملك الكامل استنابه بحران والجزيرة ، وولى تدريس المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وتدريس الشافعى بالقرافة ، ومشيخة الشيوخ بديار مصر ، وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على العساكر غير مرة ، ومات بغزة فى صفر سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وأما معين الدين حسن فانه ولى مشيخة الشيوخ بديار مصر ، وبعثه الملك الكامل فى الرسالة عنه الى بغداد ، ثم أقامه نائب الوزارة الى أن مات . فاستوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وجهزه على العساكر فى هيئة الملوك الى دمشق ، فقاتل الصالح اسماعيل بن العادل حتى ملكها ، ومات بها فى ثانى عشرى رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

وقد ذكرت أولاد شيخ الشيوخ فى كتاب « تاريخ مصر الكبير » ، واستقصيت فيه أخبارهم . والله تعالى أعلم .

« خط قصر بشتاك » : هذا الخط من جملة القصر الكبير ، ويتوصل اليه من تجاه المدرسة الكاملية ، حيث كان باب القصر المعروف بباب البحر ، وهدمه الملك الظاهر بيبرس كما تقدم

فى ذكر أبواب القصر ، وصار اليوم فى داخل هذا الباب حارة كبيرة ، فيها عدة دور جليلة منها قصر الأمير بشتاك ، وبه عرف هذا الخط .

و « بشتاك » هذا هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى . قربه الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأعلى محله ، وكان يسميه — بعد موت الأمير بكتمر الساقى — بالأمير فى غيبته . وكان زائد التيه ، لايكلم أستاداره وكاتبه الا بترجمان ، ويعرف بالعربى ولا يتكلم به ، وكان اقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من اقطاع قوصون .

ولما مات بكتمر الساقى ، ورثه فى جميع أحواله واصطبله الذى على بركة الفيل وفى امرأته أم أحمد ، واشترى جاريته جوبى بستة آلاف دينار ، ودخل معها ما قيمته عشرة آلاف دينار ، وأخذ ابن بكتمر عنده . وزاد أمره ، وعظم محله ، فثقل على السلطان ، وأراد الفتك به فما تمكن .

وتوجه الى الحجاز ، وأنفق فى الأمراء وأهل الركب والفقراء والمجاورين بمكة والمدينة شيئا كثيرا الى الغاية ، وأعطى من الألف دينار الى المائة دينار الى الدينار ... بحسب مراتب الناس وطبقاتهم .

فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان الا وقد حضر فى نفر قليل من مماليكه ، وقال : ان أردت امساكى فهاأنا قد جئت اليك برقبتى . فغالطه السلطان ، وطيب خاطره . وكان يرمى بأوابد ودواهى من أمر الزنا .

وجرده السلطان لامساك تنكز نائب الشام . فحضر الى دمشق بعد امساكه هو وعشرة من الأمراء ، فنزلوا القصر الأبلق ، وحلف الأمراء كلهم للسلطان ولذريته ، واستخرج ودائع تنكز ، وعرض حواصله ومماليكه وجواريه وخيله * وسائر ما يتعلق به ، ووسط طغاى وحفاى مملوكى تنكز فى سوق الخيل ، ووسط دران أيضا بحضوره يوم المركب . وأقام بدمشق خمسة عشر يوما ، وعاد الى القلعة ، وبقى فى نفسه من دمشق ، وما تجاسر يفاتح السلطان فى ذلك .

فلما مرض السلطان وأشرف على الموت ، ألبس الأمير قوصون مماليكه ، فدخل بشتاك ، فعرف السلطان ذلك ، فجمع بينهما وتصالحا قدامه ، ونص السلطان على أن الملك بعده لولده أبى بكر . فلم يوافق بشتاك ، وقال : لا أريد الا سيدى أحمد .

فلما مات السلطان ، قام قوصون الى الشباك وطلب بشتاك ، وقال له : ياأمير المؤمنين أنا ما يجىء منى سلطان ، لأنى كنت أبيع الطسما والبرغالى والكشاتوين ، وأنت اشتريت منى وأهل البلاد يعرفون ذلك . وأنت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع الكوزا ، وأنا اشتريت منك وأهل البلاد يعرفون ذلك . وهذا أستاذنا هو الذى وصى لمن هو أخبر به من أولاده ، وما يسعنا الا امتثال أمره حيا وميتا ، وأنا ما أخالفك ان أردت أحمد أو غيره ، ولو أردت أن تعمل كل يوم سلطانا ما خالفتك .

فقال بشتاك : هذا كله صحيح ، والأمر أمرك .

(*) ص٣٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وأحضر المصحف وحلفا عليه وتعانقا ، ثم قاما الى رجلى السلطان فقبلاهما ، ووضعا أبا بكر بن السلطان على الكرسى ، وقبلا له الأرض وحلفا له ، وتلقب بالملك المنصور .

ثم ان بشتاكا طلب من السلطان الملك المنصور نيابة دمشق . فأمر له بذلك وكتب تقليده . وبرز الى ظاهر القاهرة وأقام يومين ، ثم طلع فى اليوم الثالث الى السلطان ليودعه . فوثب عليه الأمير قطلوبغا الفخرى وأمسك سيفه ، وتكاثروا عليه فأمسكوه ، وجهزوه الى الاسكندرية فاعتقل بها ، ثم قتل فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة لأول سلطنة الملك الأشرف كجك .

وكان شابا أبيض اللون ظريفا ، مديد القامة نحيفا ، خفيف اللحية كأنها عذار ، على حركاته رشاقة ، حسن العمة يتعمم الناس على مثالها . وكان يشبه بأبى سعيد ملك العراق ، الا أنه كان غير عفيف الفرج ، زائد الهرج والمرج ، لم يعف عن مليحة ولا قبيحة ، ولم يدع أحدا يفوته ، حتى يمسك نساء الفلاحين وزوجات الملاحين ، واشتهر بذلك ورمى فيه بأوابد .

وكان زائد البذخ ، منهمكا على ما يقتضيه عنفوان الشبيبة ، كثير الصلف والتيه ، لا يظهر الرأفة ولا الرحمة فى تأنيه . ولما توجه بأولاد السلطان ليفرجهم فى دمياط ، كان يذبح لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم وفرسا لابد منه ، خارجا عن الأوز والدجاج . وكان راتبه دائما كل يوم من الفحم برسم المشوى مبلغ عشرين درهما عنها مثقال ذهب ، وذلك سوى الطوارىء .

وأطلق له السلطان كل يوم بقجة قماش من اللفافة الى الخف الى القميص واللباس والملوطة والبغلطاق والقباء الفوقانى بوجه اسكندرانى على سنجاب طرى مطرز مزركش رقيق وكلوتة وشاش ، ولم يزل يأخذ ذلك كل يوم الى أن مات السلطان . وأطلق له فى يوم واحد ، عن ثمن قرية تبنى بساحل الرملة ، مبلغ ألف ألف درهم فضة ، عنها يومئذ خمسون ألف مثقال من الذهب . وهو أول من أمسك بعد موت الملك الناصر .

وقال الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، ومن كتابه نقلت ترجمة بشتاك :

قال الزمان وما سمعنا قوله
والناس فيه رهائن الأشراك

من ينصر المنصور من كيدى وقد
صاد الردى بشتاك لى بشراك

« خط باب الزهومة » : هذا الخط عرف بباب الزهومة ، أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الذى تقدم ذكره ، فانه كان هناك . وقد صار الآن فى هذا الخط سوق وفندق وعدة آدر ، يأتى ذكر ذلك كله فى موضعه ان شاء الله تعالى .

« خط الزراكشة العتيق » : هذا الخط فيما بين خط باب الزهومة وخط السبع خوخ ، وبعضه من دار العلم الجديدة ، وبعضه من جملة القصر النافعى ، وبعضه من تربة الزعفران وفيه اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب ، وخان الخليلى ، وخان

منجك ، ودار خواجا ، ودرب الحبش ، وغير ذلك كما ستقف عليه ان شاء الله .

« خط السبع خوخ العتيق » : هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة وخط الزراكشة العتيق . كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ يتوصل منها الى الجامع الأزهر . فلما انقضت أيامهم ، اختط مساكن وسوقا يباع فيه الابر التى يخاط بها وغير ذلك ، فعرف بالأبارين .

« خط اصطبل الطارمة » : هذا الخط كان اصطبلا لخاص الخليفة يشرف عليه قصر الشوك والقصر النافعى ، وقد تقدم الكلام عليه . وكانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها ، فعرف بذلك ، ثم هو الآن حارة كبيرة فيها عدة من المساكن ، وبه سوق وحمام ومساجد . وهذا الخط فيما بين رحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى فى ذكر الرحاب .

« خط الأكفانيين » : هذا الخط كان يعرف بخط الخرقيين : جمع خرقة .

« خط المناخ » : هذا الخط فيما بين البرقية والعطوفية . كان مواضع طواحين القصر ، وقد تقدم ذكره . ثم اختط * بعد ذلك ، وصار حارة كبيرة ، وهو الآن متداع للخراب .

« خط سويقة أمير الجيوش » : كان حارة الفرحية ، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى فى الأسواق . وهذا الخط فيما بين حارة برجوان وخط خان الوراقة .

(*) ص٣٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

« خط بركة الحسبة » : هذا الخط يعرف اليوم بمكسر الحطب ، وفيه سوق الأبازرة ، وهو فيما بين البندقانيين والمحمودية ، وفيه عدة أسواق ودور .

« خط الفهادين » : هذا الخط فيما بين الجوانية والمناخ .

« خط خزانة البنود » : هذا الخط فيما بين رحبة باب العيد ورحبة المشهد الحسينى ، وكان موضعه خزانة تعرف بخزانة البنود ، وكان أولا يعمل فيها السلاح ، ثم صارت سجنا لأمراء الدولة وأعيانها ، ثم أسكن فيها الفرنج الى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك ، وحكر مكانها ، فبنى فيه الطاحون والمساكن كما تقدم .

«خط السقيفة» : هذا الخط فيما بين درب السلامى من رحبة باب العيد وبين خزانة البنود . كان يقف فيه المتظلمون للخليفة كما تقدم ذكره ، ثم اختط فصار فيه مساكن ، وهو خط صغير .

« خط خان السبيل » : هذا الخط خارج باب الفتوح ، وهو من جملة أخطاط الحسينية .

قال ابن عبد الظاهر : خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين قراقوش ، وأرصده لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة ، وبه بئر ساقية وحوض . انتهى .

وأدركنا هذا الخط فى غاية العمارة يعمل فيه عرصة تباع بها الغلال ، وكان فيه سوق يباع فيه الخشب ، ويجتمع الناس هناك بكرة

كل يوم جمعة ، فيباع فيه من الأوز والدجاج ما لا يقدر قدره ، وكانت فيه أيضا عدة مساكن ما بين دور وحوانيت وغيرها . وقد اختل هذا الخط .

« خط بستان ابن صيرم » : هذا الخط أيضا خارج باب الفتوح مما يلى الخليج وزقاق الكحل . كان من جملة حارة البيازرة ، فأنشأه زمام القصر المختار الصقلبى بستانا ، وبنى فيه منظرة عظيمة . فلما زالت الدولة الفاطمية ، استولى عليه الأمير جمال الدين سويح بن صيرم ، أحد أمراء الملك الكامل ، فعرف به . ثم اختط وصار من أجل الأخطاط عمارة تسكنه الأمراء والأعيان من الجند ، ثم هو الآن آيل الى الدثور .

« خط قصر ابن عمار » : هذا الخط من جملة حارة كتامة ، وهو اليوم درب يعرف بالقماحين ، وفيه حمام كرائى ودار خوند شقرا ... يسلك اليه من خط مدرسة الوزير كريم الدين بن غنام ، ويسلك منه الى درب المنصورى .

وابن عمار هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن على بن أبى الحسن الكلبى ، من بنى أبى الحسن أحد أمراء صقلية وأحد شيوخ كتامة . وصاه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله لما احتضر ، هو والقاضى محمد بن النعمان ، على ولده أبى على منصور .

فلما مات العزيز بالله ، واستخلف من بعده ابنه الحاكم بأمر الله ، اشترط الكتاميون — وهم يومئذ أهل الدولة — ألا ينظر فى أمورهم غير أبى محمد بن عمار ... بعدما تجمعوا ، وخرج منهم طائفة نحو المصلى ، وسألوا صرف عيسى بن مشطورس ، وأن تكون الوساطة لابن عمار .

فندب لذلك ، وخلع عليه فى ثالث شوال سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وقلد بسيف من سيوف العزيز بالله ، وحمل على فرس بسرج ذهب ، ولقب بأمين الدولة — وهو أول من لقب فى الدولة الفاطمية من رجال الدولة — وقيد بين يديه عدة دواب ، وحمل معه خمسون ثوبا من سائر البز الرفيع ، وانصرف الى داره فى موكب عظيم .

وقرىء سجله ، فتولى قراءته القاضى محمد ابن النعمان بجلوسه للوساطة ، وتلقيبه بأمين الدولة . وألزم سائر الناس بالترجل اليه ، فترجل الناس بأسرهم له من أهل الدولة ، وصار يدخل القصر راكبا ، ويشق الدواوين ، ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة ، ثم يعدل الى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم ، فينزل على بابها ويركب من هناك .

وكان الناس من الشيوخ والرؤساء على طبقاتهم يبكرون الى داره ، فيجلسون فى الدهاليز بغير ترتيب والباب مغلق ، ثم يفتح فيدخل اليه جماعة من الوجوه ، ويجلسون فى قاعة الدار على حصير وهو جالس فى مجلسه ، ولا يدخل له أحد ساعة ، ثم يأذن لوجوه من حضر — كالقاضى ووجوه شيوخ كتامة والقواد — فتدخل أعيانهم .

ثم يأذن لسائر الناس ، فيزدحمون عليه بحيث لا يقدر أحد أن يصل اليه ، فمنهم من

يومىء بتقبيل الأرض ، ولا يرد السلام على أحد .

ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم ، الا أنهم يومئون الى تقبيل الأرض ، وشرف أكابر الناس بتقبيل ركابه ، وأجل الناس من يقبل ركبته .

وقرب كتامة ، وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول ، وباع ما كان بالاصطبلات من الخيل والبغال والنجب وغيرها وكانت شيئا كثيرا ، وقطع أكثر الرسوم التى كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك ، وقطع أكثر ما كان فى المطابخ ، وقطع أرزاق جماعة ، وفرق كثيرا من جوارى القصر — وكان به من الجوارى والخدم عشرة آلاف جارية وخادم — فباع من اختار البيع ، وأعتق من سأل العتق طلبا للتوفير .

واصطنع أحداث المغاربة ، فكثر عتيهم ، وامتدت أيديهم الى الحرام فى الطرقات ، وشلحوا الناس ثيابهم . فضج الناس منهم ، واستغاثوا اليه بشكايتهم ، فلم يبد منه كبير نكير . فأفرط الأمر حتى تعرض جماعة منهم للغلمان الأتراك وأرادوا * أخذ ثيابهم ، فثار بسبب ذلك شر قتل فيه غلام من الترك وحدث من المغاربة ، فتجمع شيوخ الفريقين ، واقتتلوا يومين آخرهما يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة سبع وثمانين وثلثمائة .

فلما كان يوم الخميس ركب ابن عمار لابسا آلة الحرب وحوله المغاربة ، فاجتمع الأتراك ، واشتدت الحرب ، وقتل جماعة وجرح كثير ، فعاد الى داره . وقام برجوان بنصرة الأتراك ، فامتدت الأيدى الى دار ابن عمار واصطبلاته ودار رشا غلامه ، فنهبوا منها ما لا يحصى كثرة فصار الى داره بمصر فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان ، واعتزل عن الأمر . فكانت مدة نظره أحد عشر شهرا الا خمسة أيام ، فأقام بداره فى مصر سبعة وعشرين يوما .

ثم خرج اليه الأمر بعوده الى القاهرة ، فعاد الى قصره هذا ليلة الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، فأقام به لا يركب ولا يدخل اليه أحد الا أتباعه وخدمه . وأطلقت له رسومه وجراياته التى كانت فى أيام العزيز بالله ، ومبلغها عن اللحم والتوابل والفواكه خمسمائة دينار فى كل شهر ، وفى اليوم سلة فاكهة بدينار وعشرة أرطال شمع ونصف حمل ثلج .

فلم يزل بداره الى يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين وثلثمائة . فأذن له الحاكم فى الركوب الى القصر ، وأن ينزل موضع نزول الناس ، فواصل الركوب الى يوم الاثنين رابع عشره . فحضر عشية الى القصر وجلس مع من حضر ، فخرج اليه الأمر بالانصراف ، فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك وقفوا له ، فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه مكانه ، وحمل الرأس الى الحاكم ، ثم نقل الى تربته بالقرافة فدفن فيها .

وكانت مدة حياته ، بعد عزله الى أن قتل ، ثلاث سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما . وهو من جملة وزراء الدولة المصرية . وولى بعده برجوان ، وقد مر ذكره .

(*) ص٣٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر الدروب والأزقة

قد اشتملت القاهرة وظواهرها من الدروب والأزقة على شيء كثير . والغرض ذكر ماتيسر لى من ذلك .

« درب الأتراك » : هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم ، وهو من الدروب القديمة ، وقد تقدم ذكره فى الحارات ، ويتوصل اليه من خطة الجامع الأزهر ، وقد كان فيما أدركناه من أعمر الأماكن .

أخبرنى خادمنا محمد بن السعودى قال : كنت أسكن فى أعوام بضع وستين وسبعمائة بدرب الأتراك ، وكنت أعانى صناعة الخياطة ، فجاءنى فى موسم عيد الفطر من لجيران أطباق الكعك والخشكنانج — على عادة أهل مصر فى ذلك — فملأت زيرا كبيرا كان عندى مما جاءنى من الخشكنانج خاصة لكثرة ما جاءنى من ذلك ... اذ كان هذا الخط خاصا بكثرة الأكابر والأعيان . وقد خرب اليوم منه عدة مواضع .

« درب الاسوانى » : ينسب الى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة الله الأسوانى ، المعروف بابن عتاب .

« درب شمس الدولة » : هذا الدرب كان قديما يعرف بحارة الأمراء كما تقدم . فلما كان مجيء المعز الى مصر ، واستيلاء صلاح الدين يوسف على مملكة مصر ، سكن فى هذا المكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب فعرف به ، وسمى من حينئذ درب شمس الدولة ، وبه يعرف الى اليوم .

«توران شاه» : الملقب بالملك المعظم شمس الدولة بن نجم الدين أيوب بن سادى بن مروان . قدم الى القاهرة مع أهله من بلاد الشام ، فى سنة أربع وستين وخمسمائة ، عندما تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارة الخليفة العاضد لدين الله ، بعد موت عمه أسد الدين شيركوه .

وكانت له أعمال فى واقعة السودان تولاها بنفسه ، واقتحم الهول ، فكان أعظم الأسباب فى نصرة أخيه صلاح الدين وهزيمة السودان ، ثم خرج اليهم بعد انهزامهم الى الجيزة ، فأفناهم بالسيف حتى أبادهم . وأعطاه صلاح الدين قوص وأسوان وعيذاب ، وجعلها له اقطاعا ، فكانت عبرتها فى تلك السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار .

ثم خرج الى غزو بلاد النوبة فى سنة ثمان وستين ، وفتح قلعة ابريم ، وسبى وغنم ، ثم عاد بعد ما أقطع أبريم بعض أصحابه .

وخرج الى بلاد اليمن فى سنة تسع وستين وكان بها عبد النبى أبو الحسن على بن مهدى قد ملك زبيد وخطب لنفسه . وكان الفقيه عمارة قد انقطع الى شمس الدولة ، وصار يصف له بلاد اليمن ، ويرغبه فى كثرة أموالها ، ويغريه بأهلها ، وقال فيه قصيدته المشهورة التى أولها :

العلم مذ كان محتاج الى القلم
وشفرة السيف تستغنى عن القلم

فبعثه ذلك على المسير الى بلاد اليمن . فسار اليها فى مستهل رجب ، ودخل مكة معتمرا ، وسار منها فنزل على زبيد فى سابع

شوال . وفى نهار الاثنين ثامن شوال فتحها بالسيف ، وقبض على على بن المهدى واخوته وأقاربه ، واستولى على ما كان فى خزائنه من مال ، وتسلم الحصون التى كانت بيده .

وفى مستهل ذى القعدة توجه قاصدا عدن ، وبذل لياسر بن بلال فى كل سنة ثلاثين ألف دينار ، وسلمها اليه ، فما رغب فى ذلك ، وكان قصده أن يقيم بها نائبا عن المجلس * الفخرى ، فلما أبى ذلك نزل عليها فى يوم الجمعة تاسع عشرى ذى القعدة ، وملكها فى ساعة بالسيف ، وقبض على ياسر واخوته وولدى الداعى ، فاحتوى على ما فيها ، وقبض على عبد النبى . واستولى أيضا على تعز وتفكر وصنعا وظفار وغيرها من مدن اليمن وحصونها ، وتلقب بالملك المعظم ، وخطب لنفسه بعد الخليفة العباسى .

وما زال بها الى سنة احدى وسبعين . فسار منها الى لقاء أخيه صلاح الدين ووصل اليه ، وملكه دمشق فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ، فأقام بها الى أن خرج السلطان صلاح الدين مرة من القاهرة الى بلاد الشام ، فجهزه فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين الى مصر ، وكان قد عمله نائبا ببعلبك ، فاستناب عنه فيها ، ودخل الى القاهرة ، وأنعم عليه صلاح الدين بالاسكندرية ، فسار اليها وأقام بها الى أن توفى فى مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بالاسكندرية فدفن بها .

وكان كريما واسع العطاء ، كثير الانفاق . مات وعليه مائتا ألف دينار مصرية دينا ، فقضاها عنه أخوه صلاح الدين . وكان سبب خروجه من اليمن أنه التاث بدنه بزبيد ، فارتجل له سيف الدولة مبارك بن منقذ :

واذا أراد الله سوءا بامرىء
وأراد أن يحيبه غير سعيد

أغراه بالترحال من مصر بلا
سبب وأسكنه بصقع زبيد

فخرج من اليمن كما تقدم .

وحكى الأديب الفاضل مهذب الدين أبو طالب محمد بن على الحلى ، المعروف بابن الخيمى ، قال : رأيت فى النوم المعظم شمس الدولة وقد مدحته وهو فى القبر ميت ، فلف كفنه ورماه الى وأنشدنى :

لا تستقلن معروفا سمحت به
ميتا ، وأمسيت عنه عاريا بدنى

ولا تظنن جودى شابه بخل
من بعد بذلى بملك الشام واليمن

انى خرجت عن الدنيا وليس معى
من كل ماملكت كفى سوى كفنى

وهذا الدرب من أعمر أخطاط القاهرة ، به دار عباس الوزير وجماعة ، كما تراه ان شاء الله تعالى .

« درب ملوخيا » : هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القواد كما تقدم ، وعرف الآن بدرب ملوخيا — وملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويعرف بملوخيا الفراش ، وقتله الحاكم وباشر قتله — وفى هذا الدرب مدرسة القاضى الفاضل ، وقد اتصل به الآن الخراب .

(*) ص٣٧ جـ٢ ، ط . بولاق .

« درب السلسلة » : هذا الدرب تجاه باب الزهومة . يعرف بالسلسلة التى كانت تمد كل ليلة بعد العشاء الآخرة كما تقدم ، وكان يعرف بدرب افتخار الدولة الأسعد ، وعرف بستان الدولة بن الكركندى ، وهو الآن درب عامر .

« درب الشمسى » : هذا الدرب بسوق المهامزيين تجاه قيسارية العصفر . عرف بالأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقتل على عكا فى سنة تسعين وستمائة بيد الفرنج شهيدا .

وكان هذا الدرب فى القديم موضعه دار الضرب ، ثم صار من حقوق درب ابن طلائع بسوق الفرايين . وقد هدم بعض هذا الدرب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما اغتصب الحوانيت التى كانت على يمنة السالك من الخراطين الى سوق الخيميين ، وكانت فى وقف المعظم تمرتاش الحافظى ، كما سيأتى ذكره عند ذكر مدرسته ان شاء الله تعالى .

« درب ابن طلائع » : هذا الدرب على يسرة من سلك من سوق الفرايين الآن ، الذى كان يعرف قديما بالخرقيين ، طالبا الى الجامع الأزهر . ويسلك فى هذا الدرب الى قيسارية السروج وباب سر حمام الخراطين ودار الأمير ألدمر .

وعرف هذا الدرب أولا بالأمير نوز الدولة أبى الحسن على بن نجا بن راجح بن طلائع ، ثم عرف بدرب الجاولى الكبير — وهو الأمير عز الدين جاولى الأسدى مملوك أسد الدين شيركوه بن شادى — ثم عرف بدرب العماد سنينات ، ثم عرف بدرب ألدمر ، وبه يعرف الى الآن .

« ألدمر أمير جان دار سيف الدين » : أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون . خرج الى الحج فى سنة ثلاثين وسبعمائة . وكان أمير حاج الركب العراقى تلك السنة يقال له محمد الحويج من أهل توريز . بعثه أبو سعيد ملك العراق الى مصر ، وخف على قلب الملك الناصر ، ثم بلغه عنه ما يكرهه فأخرجه من مصر .

ولما بلغه أن حويج فى هذه السنة أمير الركب العراقى ، كتب الى الشريف عطيفة أمير مكة أن يعمل الحيلة فى قتله بكل ما يمكن . فأطلع على ذلك ابنه مباركا وخواص قواده ، فاستعدوا لذلك .

فلما وقف الناس بعرفة ، وعادوا يوم النحر الى مكة ، قصد العبيد اثارة فتنة ، وشرعوا فى النهب لينالوا غرضهم من قتل أمير الركب العراقى ، فوقع الصارخ — وليس عند المصريين خبر مما كتبه السلطان — فنهض أمير الركب الأمير سيف الدين خاص ترك ، والأمير أحمد قريب السلطان ، والأمير ألدمر أمير جان دار فى مماليكهم .

وأخذ ألدمر يسب الشريف رميثة ، وأمسك بعض قواده وأحدق به . فقام اليه الشريف عطيفة ولاطفه ، فلم يرجع . وكان حديد النفس شجاعا * ، فأقدم اليهم — وقد اجتمع قواده

(*) ص٢٨ ج٢ ، ط.بولاق .

مكة وأشرافها وهم ملبسون يريدون الركب العراقى — وضرب مبارك بن عطيفة بدبوس فأخطأه ، وضربه مبارك بحربة نفذت من صدره ، فسقط عن فرسه الى الأرض . فارتج الناس ووقع القتال ، فخرج أمير الركب العراقى واحترس على نفسه فسلم . وسقط فى يد أمير مكة اذ فات مقصوده ، وحصل ما لم يكن بإرادته . ثم سكنت الفتنة ، ودفن ألدمر .

وكان قتله يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة ، فكأنما نادى مناد فى القاهرة والقلعة ، والناس فى صلاة العيد ، بقتل ألدمر ووقوع الفتنة بمكة ، ولم يبق أحد حتى تحدث بذلك ، وبلغ السلطان فلم يكترث بالخبر ، وقال : أين مكة من مصر ، ومن أتى بهذا الخبر ؟

واستفيض هذا الخبر بقتل ألدمر حتى انتشر فى اقليم مصر كله . فما هو الا أن حضر مبشر الحاج فى يوم الثلاثاء ثانى المحرم سنة احدى وثلاثين وسبعمائة ، فأخبروا بالخبر مثل ما أشيع . فكان هذا من أغرب ما سمع به .

ولما بلغ السلطان خبر قتل ألدمر ، غضب غضبا شديدا ، وصار يقوم ويقعد ، وأبطل السماط . وأمر فجرد من العسكر ألف فارس ، كل منهم بخودة وجوشن ومائة فردة نشاب وفاس برأسين أحدهما للقطع والآخر للهدم ، ومع كل منهم جملان وفرسان وهجين . ورسم لأمير هذا العسكر أنه اذا وصل الى ينبع وعداه ، لا يرفع رأسه الى السماء بل ينظر الى الأرض ، ويقتل كل من يلقاه من العريان ، الا من علم أنه أمير عرب فانه يقيده ويسجنه معه . وجرد من دمشق ستمائة فارس على هذا الحكم .

وطلب الأمير أيتمش أمير هذا الجيش ومن معه من الأمراء والمقدمين ، وقال له بدار العدل يوم الخدمة : واذا وصلت الى مكة لا تدع أحدا من الأشراف ولا من القواد ولا من عبيدهم يسكن مكة ، وناد فيها من أقام بمكة حل دمه ، ولا تدع شيئا من النخل حتى تحرقه جميعه ، ولا تترك بالحجاز دمنة عامرة ، وأخرب المساكن كلها ، وأقم فى مكة بمن معك حتى أبعث اليك بعسكر ثان .

وكان القضاة حاضرين ، فقال قاضى القضاة جلال الدين القزوينى : يامولانا السلطان هذا حرم قد أخبر الله عنه أن من دخله كان آمنا وشرفه . فرد عليه جوابا فى غضب .

فقال الأمير أيتمش : ياخوند ، فان حضر رميثة للطاعة وسأل الأمان ؟

فقال : أمنه .

ثم لما سكن عنه الغضب ، كتب باستقرار أهل مكة وتأمينهم ، وكتب أمانا نسخته :

« هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأماننا ، للمجلس العالى الأسدى رميثة بن الشريف نجم الدين محمد بن أبى نمى ، بأن يحضر الى خدمة الصنجق الشريف ، صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى ، آمنا على نفسه وأهله وماله وولده وما يتعلق به ... لا يخشى حلول سطوة قاصمة ، ولا يخاف مؤاخذة حاسمة ، ولا يتوقع خديعة ولا مكرا ، ولا

يحذر سوءا ولا ضررا ، ولا يستشعر مخافة ولا ضرارا ، ولا يتوقع وجلا ، ولا يرهب بأسا . وكيف يرهب من أحسن عملا ؟

« بل يحضر الى خدمة الصنجق آمنا على نفسه وماله وآله ، مطمئنا واثقا بالله ورسوله ، وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب ، المبيض الوجه ، الكريم الأحساب . وكلما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور ، ولله عاقبة الأمور . وله منا الاقبال والتقديم ، وقد صفحنا الصفح الجميل ، وان ربك هو الخلاق العليم ...

« فليثق بهذا الأمان الشريف ، ولا يسيء به الظنون ، ولا يصغى الى قول الذين لا يعلمون ، ولا يستشير فى هذا الأمر الا نفسه . فيومه عندنا ناسخ لأمسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى خيرا » ...

« فتمسك بعروة هذا الأمان فانها وثقى ، واعمل عمل من لا يضل ولا يشقى . ونحن قد أمناك فلاتخف ، ورعينا لك الطاعة والشرف ، وعفا الله عما سلف ، ومن أمناه فقد فاز ، فطب نفسا وقر عينا فأنت أمير الحجاز . والحمد لله وحده » .

وكان ألدمر فيه شهامة وشجاعة ، وله سعادة طائلة ضخمة ، ومتاجر وزراعات اقتنى بها أموالا جزيلة ، وزوج ابنه بابنة قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

« درب قيطون » : هذا الدرب بين قيسارية جهاركس وقيسارية أمير على ، وهو نافذ الى خلف مستوقد حمام القاضى ، وكان من حقوق درب الأسوانى .

« درب السراج » : هذا الدرب على يسرة من سلك من الجامع الأزهر طالبا درب الأسوانى وخط الأكفانيين . وكان من جملة خط درب الأسوانى ، ثم أفرد فصار من خط الجامع الأزهر . وكان يعرف أولا بدرب السراج ، ثم عرف بدرب الشامى ، وهو الآن يعرف بدرب ابن الصدر عمر .

« درب القاضى » : هذا الدرب يقابل مستوقد حمام القاضى ، على يمنة من سلك من درب الأسوانى الى الجامع الأزهر ، وهو من حقوق درب الأسوانى . كان يعرف أولا بزقاق عزاز غلام أمير الجيوش شاور السعدى وزير العاضد ، ثم عرف بالقاضى السعيد أبى المعالى هبة الله بن فارس ، ثم عرف بزقاق ابن الامام ، وعرف أخيرا بدرب ابن لؤلؤ ، وهو شمس الدين محمد بن لؤلؤ التاجر بقيسارية جهاركس .

« درب البيضاء » : هو من جملة خط الاكفانيين الآن ، المسلوك اليه من الجامع الأزهر وسوق الفرايين . وعرف بذلك لأنه كان به دار تعرف * بالدار البيضاء .

« درب المنقدى » : هذا الدرب بين سوق الخيميين وسوق الخراطين ، على يمنة من سلك من الخراطين الى الجامع الأزهر . كان يعرف قديما بزقاق غزال — وهو صنيعة الدولة أبو الظاهر اسماعيل بن مفضل بن

(*) ص٣٩ ج٢ ، ط. بولاق .

غزال — ثم عرف بدرب المنقدى ، وهو الآن يعرف بدرب الأمير بكتمر أستادار العلاى .

« درب خرابة صالح » : هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين الى الجامع الأزهر . كان موضعه فى القديم مارستانا ، ثم صار مساكن وعرف بخرابة صالح . وفيه الآن دار الأمير طينال التى صارت بيد ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر ، وفيه أيضا باب سوق الصنادقيين .

« درب الحسام » : هذا الدرب على يمنة من سلك من آخر سويقة الباطلية الى الجامع الأزهر . عرف بحسام الدين لاجين الصفدى أستادار الأمير منجك .

« درب المنصورى » : هذا الدرب بأول الحارة الصالحية تجاه درب أمير حسين . عرف أولا بدرب الجوهرى — وهو شهاب الدين أحمد بن منصور الجوهرى ، كان حيا فى سنة ثمانين وستمائة — وعرف أخيرا بدرب المنصورى . وهو الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان ابن حسين .

« درب أمير حسين » : هذا الدرب فى طريق من سلك من خط خان الدميرى طالبا الى حارة الصالحية وحارة البرقية . استجده الأمير حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ومات فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وسبعمائة ، وكان آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون : وهو والد الملك الأشرف شعبان بن حسين .

« درب القماحين » : هذا الدرب كان يعرف بخط قصر ابن عمار من جملة حارة كتامة قريبا من الحارة الصالحية . وفيه اليوم دار خوند شقرا ، وحمام كراى وراء مدرسة ابن الغنام .

« درب العسل » : هذا الدرب على يمنة من خرج من خط السبع خوخ يريد المشهد الحسينى . كان يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل ابن الخليفة المعز لدين الله أبى تميم معد أول خلفاء الفاطميين بالقاهرة ، ومات فى سنة أربع وسبعين وثلثمائة هو وأخوه الأمير تميم بن المعز بالقاهرة ، ودفنا بتربة القصر .

« درب الجباسة » : هذا الدرب تجاه من يخرج من سوق الأباريين الى المشهد الحسينى . وهو من جملة القصر الكبير ، وبه دار خوخى التى تعرف اليوم بدار بهادر .

« درب ابن عبد الظاهر » : هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخط الزراكشة العتيق وفى صفه . وهو من حقوق دار العلم التى استجدت فى خلافة الآمر ووزارة المأمون البطايحى . فلما زالت الدولة اختط مساكن ، وسكن هناك القاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر فعرف به .

« درب الخازن » : هذا الدرب ملاصق لسور المدرسة الصالحية التى للحنابلة ، ومجاور لباب سر قاعة مدرسة الحنابلة والسبيل الذى على باب فندق مسرور الصغير . استجده الأمير علم الدين سنجر الخازن الأشرفى . والى القاهرة ، المنسوب اليه حكر الخازن بخط الصليبة .

وسنجر هذا كانت فيه حشمة ، وله ثروة زائدة ، ويحب أهل العلم . تنقل فى المباشرات الى أن صار والى القاهرة ، فاشتهر بدقة الفهم وصدق الحدس الذى لا يكاد يخطىء ، مع عقل وسياسة واحسان الى الناس ، وعزل بالأمير قديدار ، ومات عن تسعين سنة فى ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

« درب الحبيشى » : هذا الدرب على يمنة من سلك من خط الزراكشة العتيق طالبا سوق الأبارين ، وهو بجوار دار خواجا المجاورة لخان منجك . أصله من جملة القصر النافعى ، وكان يعرف بخط القصر النافعى ، ثم عرف بخط سوق الوراقين ، وهو الآن يعرف بدرب الحبيشى . وهو الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى ، أحد الأمراء الظاهرية بيبرس .

« درب يقولا » الصفار : بحارة الروم . كان يعرف بدرب الرومى الجزار .

« درب دعمش » : هذا الدرب ينفذ الى الخوخة التى تخرج قبالة حمام الفاضل المرسوم لدخول النساء . كان يعرف قديما بدرب دغمش — ويقال طغمش — ثم عرف بدرب كوز الزير — ويقال كوز الزيت — ويعرف بدرب القضاة بنى غنم من حقوق حارة الروم .

« درب أرقطاى » : هذا الدرب بحارة الروم . كان يعرف بدرب الشماع ، ثم عرف بدرب شمخ — وهو تاج العرب شمخ الحلبى — ثم عرف بدرب المعظم . وهو الأمير عز الملك المعظم ابن قوام الدولة جبر — بجيم وباء موحدة — ثم عرف بدرب أرسل ، وهو الأمير عز الدين أرسل بن قرأ رسلان الكاملى والد الأمير جاولى المعظمى المعروف بجاولى الصغير ، ثم عرف بدرب الباسعردى ، وهو الأمير علم الدين سنجر الباسعردى ، أحد أكابر المماليك البحرية الصالحية النجمية ، وولى نيابة حلب .

ثم عرف الى الآن بدرب ابن أرقطاى — والعامة تقول رقطاى بغير همز — وهو أرقطاى الأمير سيف الدين الحاج أرقطاى ، أحد مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وصار الى أخيه الملك الناصر محمد فجعله جمدارا .

وكان هو والأمير أيتمش نائب الكرك بينهما اخوة ، ولهما معرفة بلسان الترك القيجاقى ، ويرجع اليهما فى « الياسة » التى هى شريعة جنكز خان * ، التى تقول العامة وأهل الجهل فى زماننا : هذا حكم السياسة ... يريدون حكم الياسة .

ثم ان الملك الناصر أخرجه مع الأمير تنكز الى دمشق ، ثم استقر فى نيابة حمص لسبع مضين من رجب سنة عشر وسبعمائة ، فباشرها مدة . ثم نقله الى نيابة صفد فى سنة ثمان عشرة ، فأقام بها وعمر فيها أملاكا وتربة .

فلما كان فى سنة ست وثلاثين ، طلب الى مصر ، وجهز الأمير أيتمش أخوه مكانه ، وعمل أمير ماية بمصر . فلما توجه العسكر الى اياس خرج معهم وعاد ، فكان يعمل نيابة الغيبة اذا خرج السلطان للصيد . ثم أخرج

(*) ص٤٠ جـ٢ ، ط. بولاق

الى نيابة طرابلس عوضا عن طينال ، فأقام بها الى أن توجه الطنبغا الى طشطمر نائب حلب ، وكان معه بعسكر طرابلس .

فلما جرى من هروب الطنبغا ما جرى كان أرقطاى معه ، فأمسك واعتقل بسكندرية . ثم أفرج عن أرقطاى فى أول سلطنة الملك الصالح اسماعيل بوساطة الأمير ملكتمر الحجازى ، وجعل أميرا الى أن مات الصالح ، وقام من بعده الملك الكامل شعبان ، ورسم له بنيابة حلب عوضا عن الأمير يلبغا اليحياوى ، فحضر اليها فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين ، فأقام بها نحو خمسة أشهر .

ثم طلب الى مصر فحضر اليها ، فلم يكن غير قليل حتى خلع الكامل وتسلطن المظفر حاجى ، وولاه نيابة السلطنة بمصر . فباشرها الى أن خلع المظفر ، وأقيم فى السلطنة الملك الناصر ، استعفى من النيابة وسأل نيابة حلب ، فأجيب وولى نيابة حلب ، وخرج اليها .

وما زال فيها الى أن نقل منها الى نيابة دمشق ، ففرح أهلها به وساروا الى حلب . فرحل عنها فنزل به مرض ، وسار وهو مريض ، فمات بعين مباركة ظاهر حلب يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة ، وقد أناف عن السبعين . فعاد أهل دمشق خائبين .

وكان ذكيا فطنا ، محجاجا لسنا ، مع عجمة فى لسانه ، وله تشبيب مطبوع ، وميل الى الصور الجميلة ، ما يكاد يملك نفسه اذا شاهدها ، مع كرم فى المأكول .

« درب البنادين » بحارة الروم : يعرف بالبنادين من جملة طوائف العساكر فى الدولة الفاطمية ، ثم عرف بدرب أمير جاندار ، وهو ينفذ الى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال . وأمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحى المعروف بأمير جاندار .

« درب المكرم » بحارة الروم : يعرف بالقاضى المكرم جلال الدين حسين بن ياقوت البزار نسيب ابن سنا الملك .

« درب الضيف » بحارة الديلم : عرف بالقاضى ثقة الملك أبى منصور نصر بن القاضى الموفق أمير الملك أبى الظاهر اسماعيل بن القاضى أمين الدولة أبى محمد الحسن بن على ابن نصر ابن الضيف ... كان موجودا فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وبه أيضا رحبة تعرف برحبة الضيف منسوبة اليه .

« درب الرصاصى » بحارة الديلم : هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء ، صهر بنى رزيك من وزراء الدولة الفاطمية ، ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور ، ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى .

« درب ابن المجاور » : هذا الدرب على يسرة من دخل من أول حارة الديلم . كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور ، وزير الملك العزيز عثمان ، عرف به . وهو يوسف ابن الحسين بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسى الشيرازى المعروف بابن المجاور .

كان والده صوفيا من أهل فارس ثم من شيراز . قدم دمشق وأقام فى دويرة الصوفية بها ، وكان من الزهد والدين بمكان ، وأقام بمكة وبها مات فى رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة . وكان أخوه أبو عبد الله قد سمع الحديث وحدث ، وقدم الى القاهرة ، ومات بدمشق أول رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة .

«درب الكهارية» : هذا الدرب فيه المدرسة الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك اليه من القماحين ، ويتوصل منه الى المدرسة الشريفية .

« درب الصفيرة » بتشديد الفاء : هذا الدرب بجوار باب زويلة ، وهو من حقوق حارة المحمودية ، وكان نافذا الى المحمودية ، وهو الآن غير نافذ .

وأصله درب الصفيراء — تصغير صفراء ، هكذا يوجد فى الكتب القديمة — وقد دخل بجميع ما كان فيه من الدور الجليلة بالجامع المؤيدى .

« درب الأنجب » : هذا الدرب تجاه بئر زويلة التى من فوق فوهتها اليوم ربع يونس من خط البندقانيين . يعرف بالقاضى الأنجب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن نصر بن على أحد الشهود فى أيام قاضى القضاة سنان الملك أبى عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر ، وكان حيا فى سنة بضع وعشرين وخمسمائة . وينسب الى الحسين بن الأنجب المقدسى أحد الشهود المعدلين ، وكان موجودا فى سنة ستمائة . ثم عرف هذا الدرب بأولاد العميد الدمشقى فانه كان مسكنهم . ثم عرف بالبساطى ، وهو قاضى القضاة جمال الدين يوسف .

« درب كنيسة جدة » بضم الجيم : هذا الدرب بالبندقانيين .كان يعرف بدرب بنت جدة ، ثم عرف بدرب الشيخ السديد الموفق .

« درب ابن قطز » : هذا الدرب بجوار مستوقد حمام الصاحب ورباط الصاحب من خط سويقة الصاحب . عرف بناصر الدين ابن بلغاق بن الأمير * سيف الدين قطز المنصورى ، ومات بعد سنة ثمان وتسعين وستمائة .

« درب الحريرى » : هذا الدرب من جملة دار الديباج هو ودرب ابن قطز المذكور قبله ، ويتوصل اليه اليوم من أول سويقة الصاحب ، وفيه المدرسة القطبية . عرف بالقاضى نجم الدين محمد بن القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريرى ، فانه كان ساكنا فيه .

« درب ابن عرب » : هذا الدرب بخط سويقة الصاحب . كان يعرف بدرب بنى أسامة الكتاب أهل الانشاء فى الدولة الفاطمية ، ثم عرف بدرب بنى الزبير الأكابر الرؤساء فى الدولة الفاطمية . ثم سكنه القاضى علاء الدين على بن عرب ، محتسب القاهرة فى أيام الأمير بليغاق وكيل بيت المال ، فعرف به الى اليوم.

وابن عرب هذا هو علاء الدين أبو الحسن على بن عبد الوهاب بن عثمان بن على بن محمد ، عرف بابن عرب ، ولى الحسبة

(*) ص١٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

بالقاهرة فى آخر صفر سنة خمس وستين وسبعمائة ، وولى وكالة بيت المال أيضا وتوفى .

« درب ابن مغشل » : هذا الدرب تجاه المدرسة الصاحبية . عرف أخيرا بتاج الدين موسى كاتب السعدى وناظر الخاص فى الأيام الظاهرية برقوق ، وله به دار مليحة . وكان ماجنا متهتكا يرمى بالسوء ، وأما الديانة فانه قبطى ، وعنه أخذ سعد الدين ابراهيم بن غراب وظيفة ناظر الخاص وعاقبه بين يديه ، ثم صار يتردد بعد ذلك الى مجلسه . وهلك فى واقعة تيمور لنك بدمشق فى شعبان سنة ثلاث وثمانمائة ، بعد ما احترق بالنار لما احترقت دمشق ، وأكل الكلاب بعضه .

« درب مشترك » : هذا الدرب يقرب من درب العداس ، تجاه الخط الذى كان يعرف بالمسطاح ، وفيه الآن سوق الجوارى . عرف أولا بدرب الأخناى قاضى القضاة برهان الدين المالكى فانه كان يسكن فيه ، ثم هو الآن يقال له درب مشترك .

وهذه كلمة تركية أصلها بلسانهم «أج‌ترك» — بضم الهمزة واشمامها ثم جيم بين الجيم والشين — ومعنى ذلك ثلاث ، وترك — بتاء مثناة من فوق ثم راء مهملة وكاف — ومعناها النخل . ومعنى هذا الاسم ثلاث نخيل ، وعربته العامة فقالت : مشترك . وهو مشترك السلاح دار الظاهر برقوق ، فانه سكن بها ومات فى سنة ... ...

« درب العداس » : هذا الدرب فيما بين دار الديباج والوزيرية . عرف بعلى بن عمر العداس صاحب سقيفة العداس .

« درب كاتب سيدى » : هذا الدرب من جملة خط الملحيين . كان يعرف بدرب تقى الدين الأطريانى ، أحد موقعى الحكم عند قاضى القضاة تقى الدين الاخناوى ، ثم عرف بالوزير الصاحب علم الدين عبد الوهاب القبطى الشهير بكاتب سيدى .

« الوزير كاتب سيدى » : تسمى لما أسلم بعبد الوهاب بن القسيس ، وتلقب علم الدين ، وعرف بين الكتاب الأقباط بكاتب سيدى ، وترقى فى الخدم الديوانية حتى ولى ديوان المرتجع ، وتخصص بالوزير الصاحب شمس الدين ابراهيم كاتب أرلان ، فلما أشرف من مرضه على الموت عين للوزارة من بعده علم الدين هذا .

فولاه الملك الظاهر وظيفة الوزارة بعد موت الوزير شمس الدين ، فى سادس عشرى شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، فباشر الوزارة الى يوم السبت رابع عشرى رمضان سنة تسعين وسبعمائة . ثم قبض عليه ، وأقيم فى منصب الوزارة بدله الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام ، وسلمه اليه .

وكان قد أراد مصادرة كريم الدين . فاتفق استقراره فى الوزارة وتمكنه منه ، فألزمه بحمل مال قرره عليه . فيقال انه حمل فى هذا اليوم ثلثمائة ألف درهم ، عنها اذ ذاك نحو العشرة آلاف مثقال ذهبا ، ومات بعد ذلك من هذه السنة . وكان كاتبا بليغا ، كتب بيده بضعا وأربعين رزمة من الورق . وكانت أيامه ساكنة ، والأحوال متمشية ، وفيه لين .

« درب مخلص » : هـذا الدرب بحارة زويلة . عرف بمخلص الدولة أبى الحياء مطرف المستنصرى ، ثم عرف بدرب الرايض ، وهو الأمير طراز الدولة الرايض باصطبل الخلافة .

« درب كوكب » : هذا الدرب هو الآن زقاق شارع يسلك فيه من حارة زويلة الى درب الصقالبة . عرف أولا بالقائد الأعز مسعود المستنصر ، ثم عرف بكوكب الدولة ابن الحناكى .

« درب الوشاقى » بحارة زويلة : عرف بالأمير حسام الدين سنقر الوشاقى ، المعروف بالأعسر السلاح دار ، أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

« درب الصقالبة » بحارة زويلة : عرف بطائفة الصقالبة ، احدى طوائف العساكر فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وهم جماعة .

« درب الكنجى » بحارة زويلة : كان يعرف بدرب حليلة ، ثم عرف بالأمير شمس الدين سنقر شاه الكنجى الحاجب الظاهرى ... قتله قلاوون أول سلطنته .

« درب رومية » : هـذا الدرب كان فى القديم فيما بين زقاق القابلة ودرب الزراق . فزقاق القابلة فيه اليوم كنيسة اليهود بحارة زويلة ، ويتوصل منه الى السبع سقايات ودار بيبرس التى عرفت بدار كاتب السر ابن فضل الله تجاه حمام ابن عبود . ودرب الزراق هو اليوم من جملة خط سويقة الصاحب . وبينهما الآن دور لا يوصل اليه الا بعد قطع مسافة .

ودرب رومية كان يعرف أولا بزقاق حسين ابن ادريس العزيزى ، أحد أتباع الخليفة العزيز بالله * نزار بن المعز لدين الله ، ثم عرف بدرب رومية . وهو بجوار زقاق القابلة الذى عرف بزقاق العسل ، ثم عرف بزقاق المعصرة ، وعرف اليوم بزقاق الكنيسة .

« درب الخضيرى » : هذا الدرب يقابل باب الجامع الأقمر البحرى ، وهو من جملة حقوق القصر الصغير الغربى . عرف بالأمير عز الدين أيدمر الخضيرى ، أحد أمراء الملك المنصور قلاوون .

« درب شعلة » : هو الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيا الى خط الفهادين والعطوفية . وقد خرب .

« درب نادر » : هذا الدرب بجوار المدرسة الجمالية ، فيما بين درب راشد ودرب ملوخيا . عرف بسيف الدولة نادر الصقلبى ، وتوفى لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة . فبعث اليه الخليفة العزيز بالله لكفنه خمسين قطعة من ديباج مثقل . وخلف ثلثمائة ألف دينار عينا وآنية من فضة وذهب وعبيدا وخيلا ، وغير ذلك مما بلغت قيمته نحو ثمانين ألف دينار . وكان أحد الخدام ... ذكره المسيحى فى تاريخه .

وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن بالسويقة التى دون باب القنطرة دربا يعرف بدرب نادر ، فلعله نسب اليه درب كان هناك فى القديم أيضا .

(*) ص٤٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

« درب راشد » : هذا الدرب تجاه خزانة البنود . عرف بيمين الدولة راشد العزيزى .

« درب النميرى » : عرف بالأمير سيف المجاهدين محمد بن النميرى ، أحد أمراء الخليفة الحافظ لدين الله ، وولى عسقلان فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت ولايتها أكبر من ولاية دمشق .

وهذا الدرب كان ينفذ الى درب راشد ، وهو الآن غير نافذ . وفى داخله درب يعرف بأولاد الداية طاهر وقاسم الأفضلين أحد أتباع الأفضل بن أمير الجيوش ، وعرف الآن بدرب الطفل . وهو من جملة خطة قصر الشوك ، فانه قبالة باب قصر الشوك ، وبينهما سويقة رحبة الأيدمرى .

« درب قراصيا » : هذا الدرب من جملة الدروب القديمة ، وكان تجاه باب قصر الزمرذ الذى فى مكانه اليوم المدرسة الحجازية .

وهذا الدرب اليوم من جملة خطه رحبة باب العيد بجوار سجن الرحبة . وقد هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، وهدم كثيرا من دوره وعملها وكالة ، فمات ولم تكمل ، وهى الى الآن بغير تكملة . ثم كمله الملك المؤيد شيخ ، وجعله وقفا على جامعه ، وهو الى الآن خان عامر .

« درب السلامى » : هذا الدرب من جملة خط رحبة باب العيد ، وفيه الى اليوم أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد ، والعامة تسميه القاهرة . وهذا الدرب يسلك منه الى خط قصر الشوك ، والى المارستان العتيق الصلاحى ، والى دار الضرب وغير ذلك .

عرف بخواجا « مجد الدين السلامى » اسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى ، تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يدخل الى باب الطظر ، ويتجر ويعود بالرقيق وغيره ، واجتهد مع جوبان الى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر وبين القان أبى سعيد ، فانتظم ذلك بسفارته وحسن سعيه ، فازدادت وجاهته عند الملكين .

وكان الملك الناصر يسفره ويقرر معه أمورا ، فيتوجه ويقضيها على وفق مراده بزيادات . فأحبه وقربه ، ورتب له الرواتب الوافرة فى كل يوم من الدراهم واللحم والعليق والسكر والحلواء والكماج والرقاق ، مما يبلغ فى اليوم مائة وخمسين درهما : عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من الذهب ، وأعطاه قرية أرالك ببعلبك ، وأعطى مماليكه اقطاعات فى الحلقة .

وكان يتوجه الى الأردن ، ويقيم فيه الثلاث سنين والأربع والبريد لا ينقطع عنه ، وتجهز اليه التحف والأقمشة ليفرقها على من يراه من خواص أبى سعيد وأعيان الأردن ... ثقة بمعرفته ودرايته . وكان النشو ناظر الخاص لا يفارقه ، ولا يصبر عنه . ومن أملاكه ببلاد المشرق : السلامية ، والمأخوذة ، والمراوزة ، والمناصف . ولما مات الملك الناصر ، تغير عليه الأمير قوصون ، وأخذ منه مبلغا يسيرا .

وكان ذا عقل وافر وفكر مصيب ، وخبرة بأخلاق الملوك وما يليق بخواطرها ، ودراية بما

يتحفها به من الرقيق والجواهر ، ونطق سعيد ، وخلق رضى ، وشكالة حسنة ، وطلعة بهية . ومات فى داره من درب السلامى هذا يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ودفن بتربته خارج باب النصر .

ومولده فى سنة احدى وسبعين وستمائة بالسلامية — بلدة من أعمال الموصل على يوم منها بالجانب الشرقى — وهى بفتح السين المهملة وتشديد اللام وبعد الميم ياء مثناة من تحت مشددة ثم تاء التأنيث .

« درب خاص ترك » : هذا الدرب برحبة باب العيد . عرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس — المعروف بخاص الترك الكبير — أحد الأمراء الصالحية النجمية ، أو بالأمير عز الدين أيبك المعروف بخاص الترك الصغير ، سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

« درب شاطى » : هذا الدرب يتوصل منه الى قصر الشوك . عرف بالأمير شرف الدين شاطى ، السلاح دار فى أيام الملك المنصور قلاوون . وكان أميرا كبيرا مقدما بالديار المصرية ، وأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الشام فأقام بدمشق ، وكانت له حرمة وافرة وديانة وفيه خير ، ومات بها فى الحادى والعشرين * من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة .

« درب الرشيدى » : هذا الدرب مقابل باب الجوانية . عرف بالأمير عز الدين ايدمر الرشيدى ، مملوك الأمير بلبان الرشيدى خوش داش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .

وولى الأمير أيدمر هذا أستادارا لأستاذه بلبان ، ثم ولى أستادارا للأمير سلار ، ومات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وسبعمائة . وكان سكنه فى هذا الدرب ، وكان عاقلا ذا ثروة وجاه . وكان فى القديم موضع هذا الدرب براحا قدام الحجر .

« درب الفريحية » : هذا الدرب على يمنة من خرج من الجملون الصغير طالبا درب الرشيدى المذكور ، وهو من الدروب التى كانت فى أيام الخلفاء .

« درب الأصفر » : هذا الدرب تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وموضع هذا الدرب هو المنحر الذى تقدم ذكره .

« درب الطاووس » : هذا الدرب فى الحدرة التى عند باب سر المارستان المنصورى ، على يمنة من ابتدأ الخراج منه ، وكان موضعه بجوار باب الساباط أحد أبواب القصر الصغير وقد تقدم ذكره .

ودرب الطاووس أيضا بالقرب من درب العداس فيما بين باب الخوخة والوزيرية .

« دربماينجار » : : هذا الدرب بجوار جامع أمير حسين من حكر جوهر النوبى خارج القاهرة . عرف بالأمير ماينجار الرومى الواقدى أيام الملك الظاهر بيبرس . وقد خربت تلك الديار فى سلطنة الملك المؤيد شيخ .

(*) ص٤٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

« درب كوسا » : هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين الى قنطرة الموسكي . عرف بحسام الدين كوسا ، أحد مقدمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، مات بعد سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وهذا الموضع تجاه دار الذهب التى تعرف اليوم بدار الأمير حسين الططرى ، السلاح دار الناصرى ، وقد خربت أيضا .

« درب الجاكى » : هذا الدرب بالحكر . عرف بالأمير شرف الدين ابراهيم بن على ابن الجنيد الجاكى المهمندار المنصورى . وقد دثر فى أيام المؤيد على يد الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأستادار لما خرب ما هناك .

« درب الحرامى » بالحكر : عرف بسعد الدين حسين بن عمر بن محمد الحرامى وابنه محيى الدين يوسف ، وكانا من أجناد الحلقة .

« درب الزراق » بالحكر : عرف بالأمير عز الدين أيدمر الزراق أحد الأمراء . ولاه الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون نيابة غزة فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فأقام بها مدة ، ثم استعفى بعد موت الملك الصالح وعاد الى القاهرة ، ثم توجه الى دمشق للحوطة على موجود الخاصكية يلبغا اليحياوى فى الأيام المظفرية وعاد .

فلما ركب العسكر على الملك المظفر ، لم يكن معه سوى الزراق وآق سنقر وأيدمر الشمسى . فنقم الخاصكية عليهم ذلك ، وأخرجوهم الى الشام ، فوصلوا اليها فى أول شوال سنة ثمان وأربعين ، فأقام الزراق بدمشق . ثم ورد مرسوم السلطان حسن بتوجيههم الى حلب ، فتوجه اليها على اقطاع وبها مات . وكان دينا لينا فيه خير .

وكان هذا الدرب عامرا ، وفيه دار الزراق الدار العظيمة . وقد خرب هذا الدرب وما حوله منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة ، ثم نقضت الدار فى أيام المؤيد شيخ على يد ابن أبى الفرج .

« زقاق طريف » بالطاء المهملة : هذا الزقاق من أزمة البرقية . عرف بالأمير فخر الدين طريف بن بكتوت ، وكان يعرف بزقاق منار ابن ميمون بن منار . توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

« زقاق منعم » بحارة الديلم : كان يعرف بمساطب الديلم والأتراك ، ثم عرف بالأمير منعم الدولة باتكين البوسحاقى ، ثم عرف بزقاق جمال الدولة ، ثم بزقاق الجلاطى ، ثم بزقاق الصهرجتى . وهو القاضى المنتخب ثقة الدولة أبو الفضل محمد بن الحسين بن هبة الله بن وهيب الصهرجتى ، وكان حيا فى سنة ستين وخمسمائة .

« زقاق الحمام » بحارة الديلم : عرف قديما بخوخة المنقدى ، ثم عرف بخوخة سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء صهر بنى رزيك ، ثم عرف بزقاق حمام الرصاصى ، ثم عرف بزقاق المزار .

« زقاق الحرون » بحارة الديلم : عرف بالأمير الأوحد سلطان الجيوش زرى الحرون

رفيق العادل بن السلار ، وزير مصر فى أيام الخليفة الظافر بأمر الله ، ثم عرف بابن مسافر عين القضاة ، ثم عرف بزقاق القبة .

« زقاق الغراب » بالجودرية : كان يعرفه بزقاق أبى المعز ، ثم عرف بزقاق ابن أبى الحسن العقيلى ، ثم قيل له زقاق الغراب نسبة الى أبى عبد الله محمد بن رضوان الملقب بغراب .

« زقاق عامر » بالوزيرية : عرف بعامر القماح فى حارة الأقانصة .

« زقاق فرج » بالجيم : من جملة أزقة درب ملوخيا . عرف بفرج مهتار الطشتخاناه للملك المنصور قلاوون . كان حيا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

« زقاق حدرة » الزاهدى بحارة برجوان : عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الزاهدى الرماح الأحدب أحد الأمراء ، وممن له عدة غزوات فى الفرنج . ولما تمالأ الأمراء على الملك السعيد ابن الظاهر وسبقهم الى القلعة ، كان قدامه بيبرس الزاهدى هذا ، فسقط عن فرسه ، وخرجت له حدبة فى ظهره ، ومات فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة * .

وكان مكان هذه الحدرة أخصاصا ، وهى الآن مساكن بينها زقاق يسلك فيه من رأس الحارة الى رحبة الأفيال .

(*) ص٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر الخوخ

والقصد ايراد ما هو مشهور من الخوخ أو لذكره فائدة . والا فالخوخ والدروب والأزقة كثيرة جدا .

« الخوخ السبع » : كانت سبع خوخ ، فيما يقال ، متصلة باصطبل الطارمة . يتوصل منها الخلفاء اذا أرادوا الجامع الأزهر ، فيخرجون من باب الديلم — الذى هو اليوم باب المشهد الحسينى — الى الخوخ ، ويعبرون منها الى الجامع الأزهر . فانه كان حينئذ فيما بين الخوخ والجامع رحبة كما يأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

وكان هذا الخط يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل ، ولم يكن فيه مساكن . ثم عرف بعد انقضاء دولة الفاطميين بخط الخوخ السبع ، وليس لهذه الخوخ اليوم أثر ألبتة . ويعرف اليوم بالأبارين .

« باب الخوخة » : هو أحد أبواب القاهرة مما يلى الخليج ، فى حد القاهرة البحرى ، يسلك اليه من سويقة الصاحب ومن سويقة المسعودى . وكان هذا الباب يعرف أولا بخوخة ميمون دبه ، ويخرج منه الى الخليج الكبير . وميمون دبه يكنى بأبى سعيد ، أحد خدام العزيز بالله ، كان خصيا .

« خوخة أيدغمش » : هذه الخوخة فى حكم أبواب القاهرة . يخرج منها الى ظاهر القاهرة عند غلق الأبواب فى الليل وأوقات الفتن اذا غلقت الأبواب ، فينتهى الخارج منها

الى الدرب الأحمر واليانسية ، ويسلك من هناك الى باب زويلة ، ويصار اليها من داخل القاهرة اما من سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى . وهذه الخوخة بجوار حمام أيدغمش .

وهو « أيدغمش الناصرى » الأمير علاء الدين . أصله من مماليك الأمير سيف الدولة بلبان الصالحى ، ثم صار الى الملك الناصر محمد بن قلاوون . فلما قدم من الكرك جعله أميراخور عوضا عن الأمير بيبرس الحاجب ، ولم يزل حتى مات الملك الناصر ، فقام مع قوصون ، ووافقه على خلع الملك المنصور أبى بكر ابن الملك الناصر .

ثم لما هرب الطنبغا الفخرى ، اتفق الأمراء مع أيدغمش على الأمير قوصون ، فوافقهم على محاربته ، وقبض على قوصون وجماعته ، وجهزهم الى الاسكندرية ، وجهز من أمسك الطنبغا ومن معه ، وأرسلهم أيضا الى الاسكندرية .

وصار أيدغمش فى هذه النوبة هو المشار اليه فى الحلّ والعقد ، فأرسل ابنه فى جماعة من الأمراء والمشايخ الى الكرك بسبب احضار أحمد ابن الملك الناصر محمد . فلما حضر أحمد من الكرك ، وتلقب بالملك الناصر ، واستقر أمره بمصر ، أخرج أيدغمش نائبا بحلب .

فسار الى عين جالوت ، واذا بالفخرى قد صار اليه مستجيرا به ، فآمنه وأنزله فى خيمة . فلما ألقى عنه سلاحه واطمأن ، قبض عليه وجهزه الى الملك الناصر أحمد ، وتوجه الى حلب فأقام بها ... الى أن استقر الملك الصالح اسماعيل بن محمد فى السلطنة ، نقله عن نيابة حلب الى نيابة دمشق . فدخلها فى يوم العشرين من صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وما زال بها الى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة منها .

فعاد من مطعم طيوره ، وجلس بدار السعادة حتى انقضت الخدمة ، وأكل الطارى وتحدث ، ثم دخل الى داره فاذا جواريه يختصمن ، فضرب واحدة منهن ضربتين ، وشرع فى الضربة الثالثة فسقط ميتا ، ودفن من الغد فى تربته خارج ميدان الحصى ظاهر دمشق .

وكان جوادا كريما ، وله مكانة عند الملك الناصر الكبير بحيث انه أمر أولاده الثلاثة . وكان قد بعث الملك الصالح بالقبض عليه ، فبلغ القاصد موته فى قطيا فعاد .

« خوخة الأرقى » بحارة الباطلية : يخرج منها الى سوق الغنم وغيره ، وهى بجوار داره .

«خوخة عسيلة» : هذه الخوخة من الخوخ القديمة الفاطمية ، وهى بحارة الباطلية مما يلى حارة الديلم ، فى ظهر الزقاق المعروف بخرابة العجيل ، بجوار دار الست حدق .

« خوخة الصالحية » : هذه الخوخة بجوار حبس الديلم ، قريبة من دار الصالح طلائع بن رزيك التى هدمها ابن قايماز وعمرها . وكانت تعرف هذه الخوخة أولا بخوخة بحتكين — وهو الأمير جمال الدولة بحتكين الظاهرى — ثم عرفت بخوخة الصالح طلائع

ابن رزيك ، لأن داره كانت هناك ، وبها كان سكنه قبل أن يلى وزارة الظافر

« خوخة المطوع » : هذه الخوخة بحارة كتامة ، فى أولها مما يلى الجامع الأزهر ، عند اصطبل الحسام الصفدى . عرفت بالمطوع الشيرازى .

« خوخة حسين » : هذه الخوخة فى الزقاق الضيق المقابل لمن يخرج من درب الأسوانى ، ويسلك فيه الى حكر الرصاصى بحارة الديلم . ويعرف هذا الزقاق بزقاق المزار ، وفيه قبر تزعم العامة ومن لا علم عنده أنه قبر يحيى بن عقب ، وأنه كان مؤدبا للحسين ابن على بن أبى طالب .

وهو كذب مختلق وافك مفترى . كقولهم فى القبر الذى بحارة برجوان انه قبر جعفر الصادق ، وفى القبر الآخر انه قبر أبى تراب النخشبى ، وفى القبر * الذى على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة انه قبر زارع النوى وانه صحابى ، وغير ذلك من أكاذيبهم التى اتخذها لهم شياطينهم أنصابا ليكونوا لهم عزا .

وسيأتى الكلام على هذه المزارات فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

و « حسين » هذا هو الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء ، صهر بنى رزيك وزوج ابنة الصالح بن رزيك ، وكان كرديا .

قدمه الصالح بن رزيك ابن الصالح لما ولى الوزارة ونوه به . فلما مات ، وقام من بعده رزيك بن الصالح فى الوزارة ، كان حسين

(*) ص٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

هذا هو مدبر أمره بوصية الصالح . واستشار حسينا فى صرف شاور عن ولاية قوص ، فأشار عليه بابقائه ، فأبى وولى الأمير أبى الرفعة مكانه .

وبلغ ذلك شاور ، فخرج من قوص الى طريق الواحات . فلما سمع زريك بمسيره ، رأى فى النوم مناما عجيبا ، فأخبر حسينا بأنه رأى مناما . فقال : ان بمصر رجلا يقال له أبو الحسن على بن نصر الأرتاجى ، وهو حاذق فى التعبير .

فأحضره وقال : رأيت كأن القمر قد أحاط به حنش ، وكأننى رواس فى حانوت .

فغالطه الأرتاجى فى تعبير الرؤيا ، وظهر ذلك لحسين ، فأمسك حتى خرج وقال له : ما أعجبنى كلامك ، والله لابد أن تصدقنى ولا بأس عليك .

فقال : يامولاى ، القمر عندنا هو الوزير ، كما أن الشمس الخليفة ، والحنش المستدير عليه حبس مصحف ، وكونه رواس اقلبها تجدها شاور مصحفا ، وما وقع لى غير هذا .

فقال حسين : اكتم هذا عن الناس .

وأخذ حسين فى الاهتمام بأمره ، ووطأ أنه يريد التوجه الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قد أحسن الى أهلها ، وحمل اليها مالا وقماشا وأودعه عند من يثق به .

هذا وأمر شاور يقوى ويتزايد ، ويصل الارجاف به الى أن قرب من القاهرة . فصاح الصائح فى بنى رزيك — وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس — فأول من نجا بنفسه حسين وسار .

فسأل عنه رزيك ، فقالوا : خرج . فانقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة مشهورا بها ، وله تقدم فى الدولة ومكانة وممارسة للحروب وخبرة بها . ولم يثبت بعد خروج حسين ، بل انهزم الى ظاهر أطفيح . فقبض عليه ابن النيض مقدم العرب ، وأحضره الى شاور فحبسه ، وصدقت رؤياه .

ومات حسين فى سنة ... ...

« خوخة الحلبى » : هذه الخوخة فى آخر اصطبل الطارمة بجوار حمام الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، وفى ظهر داره .

« سنجر الحلبى » : أحد المماليك الصالحية . ترقى فى الخدم الى أن ولاه الملك المظفر سيف الدين قطز نيابة دمشق . فلما قتل قطز على عين جالوت ، وقام من بعده فى السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس ، ثار سنجر بدمشق فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ودعا الى نفسه ، وتلقب بالملك المجاهد . وبقى أشهر والملك الظاهر يكاتب أمراء دمشق الى أن خامروا على سنجر ، وحاصروه بقلعة دمشق أياما .

فلما خشى أن يقبض عليه ، فر من القلعة الى بعلبك . فجهز اليه الظاهر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى ، وما زال يحاصره حتى أخذه أسيرا ، وبعث به الى الديار المصرية ، فاعتقله الظاهر . وما زال فى الاعتقال من سنة تسع وخمسين الى سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، مدة تنيف على ثلاثين سنة ، مدة أيام الملك الظاهر وولديه وأيام الملك المنصور قلاوون .

فلما ولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، أخرجه من السجن ، وخلع عليه ، وجعله أحد الأمراء الأكابر على عادته . فلم يزل أميرا بمصر الى أن مات على فراشه فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، وقد جاوز تسعين سنة ، وانحنى ظهره وتقوس .

« خوخة الجوهرة » : هذه الخوخة بآخر حارة زويلة . عرفت اليوم بخوخة الوالى لقربها من دار الأمير علاء الدين الكورانى والى القاهرة ، وكان من خير الولاة يحفظ كتاب الحاوى فى الفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وأقام فى ولاية القاهرة من محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة بعد أستدمر القلنجى والى القاهرة الى ....

« خوخة مصطفى » : هذه الخوخة بآخر زقاق الكنيسة من حارة زويلة . يخرج منها الى القبو الذى عند حمام طاب الزمان ، المسلوك منه الى قبو منظرة اللؤلؤة على الخليج . عرفت بالأمير فارس المسكين مصطفى أحد أمراء بنى أيوب الملوك ، وهو أيضا صاحب هذا الحمام .

« خوخة ابن المأمون » : هذه الخوخة فى حارة زويلة ، بالدرب الذى بقرب حمام الكويك ، ويقال لهذه الخوخة اليوم باب حارة زويلة ، وأصلها خوخة فى درب ابن المأمون البطايحى .

« خوخة كوتية آق سنقر » : هذه الخوخة فى الزقاق الذى بظهر المدرسة الفخرية بآخر سويقة الصاحب . كان يسلك منها الى الخليج من جوار باب الذهب ، وموضعها بحذاء بيت القاضى أمين الدين ناظر الدولة . ولم تزل الى

أن بنى المهتار عبد الرحمن البابا داره بجوارها فى سنى بضع وتسعين وسبعمائة ، فسدها .

وعرفت هـذه الخـوخة أخيرا بخـوخة المسـيرى . وهو قمـر الدين بن السعيـد المسيرى .

« خوخة أمير حسين » : هـذه الخوخة من جملة الوزيرية ، يخرج منها الى تجـاه قنطـرة أمير حسين . فتحهـا الأمير شرف الدين * حسين بن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدرة بيك الرومى ، حين بنى القنطرة على الخليج الكبير ، وأنشأ الجامع بحكر جوهر النوبى .

وجرى فى فتح هذه الخوخة أمر لا بأس بايراده . وهو أن الأمير حسين قصد أن يفتح فى السور خوخة لتمر الناس من أهل القاهرة فيها الى شارع بين السورين ليعمر جامعـه . فمنعه الأمير علم الدين سنجر الخـازن والى القاهرة من ذلك ، الا بمشاورة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان للأمير حسين أقدام على السلطان ، وله به مؤانسة . فعرفه أنه أنشأ جامعا ، وسأله أن يفسح له فى فتح مكان من السور ليصير طريقـا نافذا يمر فيـه الناس من القـاهرة ويخرجون اليه . فأذن له فى ذلك وسمح به ، فنزل الى السور وخرق منه قدر باب كبير ، ودهن عليه رنكه بعد ما ركب هناك بابا ، ومر الناس منه .

واتفق أنه اجتمع بالخازن والى القاهرة ، وقال له على سبيل المداعبة : كم كنت تقول ما أخليك تفتح فى السور بابا حتى تشـاور السلطان . هاأنا قد شاورته ، وفتحت بابا على رغم أنفك .

فحنق الخازن من هذا القول ، وصعد الى القلعة ، ودخل على السلطان وقال : ياخوند ، أنت رسمت للأمير شرف الدين أن يفتـح فى السور بابا ، وهو سور حصين على البلد ؟

فقـال السلطان : انمـا شاورنى أن يفتح خوخة لأجل حضور الناس للصلاة فى جامعه .

فقال الخازن : ياخوند ، ما فتـح الا بابا يعادل باب زويلة ، وعمل عليه رنكه ، وقصد يعمل سلطانا على البارد ، وما جرت عادة أحد بفتح سور البلد .

فأثر هذا الـكلام من الخـازن فى نفس السلطان أثرا قبيحا ، وغضب غضبا شديدا ، وبعث الى النائب — وقد اشتد حنقه — بأن يسفر حسين بن حيدر الى دمشـق بحيث لا يبيت فى المدينـة . فخرج من يومه من البلد بسبب ما تقدم ذكره .

ذكر الرحاب

الرحبة — باسكان الحـاء وفتحهـا — الموضع الواسع ، وجمعها رحاب .

اعلم أن الرحاب كثيرة لا تتغير الا بأن يبنى فيها فتـذهب ويبقى اسمها ، أو يبنى فيهـا ويذهب اسمها ويجهل ، وربما انهدم بنيـان وصار موضعه رحبة أو دارا أو مسـجدا . والغرض ذكر ما فيه فائدة .

« رحبة باب العيد » : هذه الرحبـة كان أولها من باب الريح — أحد أبواب القصر ،

(*) ص٤٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

الذى أدركنا هدمه على يد الأمير جمال الدين الأستادار فى سنة احدى عشرة وثمانمائة — والى خزانة البنود .

وكانت رحبة عظيمة فى الطول والعرض ، غاية فى الاتســاع . يقف فيهــا العســاكر ، فارسـها وراجلهــا ، فى أيام مواكب الأعياد ينتظرون ركوب الخليفــة وخروجه من باب العيد ، ويذهبون فى خدمته لصـلاة العيـد بالمصلى خارج باب النصر ، ثم يعودون الى أن يدخل من الباب المذكور الى القصر . وقد تقدم ذكر ذلك .

ولم تزل هذه الرحبة خالية من البناء الى ما بعد الستمائة من الهجرة . فاختلط فيهـا الناس ، وعمروا فيها الدور والمساجد وغيرها ، فصارت خطة كبيرة من أجل أخطاط القاهرة ، وبقي اسم رحبة باب العيد باقيا عليها لاتعرف الا به .

« رحبة قصر الشوك » : هذه الرحبة كانت قبلى القصر الكبير الشرقى فى غاية الاتســاع كبيرة المقدار . وموضعها من حيث دار الأمير الحاج آل ملك ، بجــوار المشــهد الحسينى والمدرسة الملكية ، الى باب قصر الشوك عند خزانة البنود . وبينها وبين رحبة باب العيــد خزانة البنود والسقيفة .

وكان السالك من باب الديلم — الذى هو اليوم المشهد الحسينى — الى خزانة البنود يمر في هذه الرحبة ، ويصير سور القصر على يساره ، والمناخ ودار أفتكين على يمينه ، ولا يتصل بالقصر بنيان ألبتة .

وما زالت هذه الرحبة باقية الى أن خرب القصر بفناء أهله ، فاختلط الناس فيهــا شيئا بعد شيء ، حتى لم يبق منها ســوى قطعــة صغيرة تعرف برحبة الأيدمرى .

« رحبة الجامع الأزهر » : هذه الرحبــة كانت أمام الجامع الأزهر ، وكانت كبيرة جدا تبتدىء من خط اصطبل الطارمة الى الموضع الذى فيه مقعد الأكفانيين اليوم ، ومن باب الجامع البحرى الى حيث الخراطين ، ليس بين هذه الرحبة ورحبة قصر الشوك سوى اصطبل الطارمة .

فكان الخلفاء حين يصلون بالناس بالجامع الأزهر ، تترجل العساكر كلها ، وتقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفــة الى الجــامع . وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر الجوامع .

ولم تزل هذه الرحبة باقية الى أثناء الدولة الأيوبية ، فشرع الناس فى العمارة بها الى أن بقى منها ، قدام باب الجامع البحرى ، هذا القدر اليسير .

« رحبة الحلى » : هذه الرحبــة الآن من خط الجامع الأزهر ، ومن بقية رحبة الجامع التى تقدم ذكرها . عرفت بالقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين على بن نصر الله بن مظفر الحلى التــاجر العادل لأنها تجاه داره .

« رحبة البانياسى » : هذه الرحبــة بدرب الأتراك ، تجاه دار الأمير طيدمر الجمــدار الناصري ، وعرفت بالأمير نجم الدين محمود ابن موسى البانياسي لأن داره كانت فيــها ، ومســجده المعلق هناك . ومات بعــد ســنة خمسمائة .

« رحبة الأيدمرى » : هذه الرحبة من جملة رحبة باب قصر * الشوك ، وعرفت بالأيدمرى لأن داره هناك .

و « الأيدمرى » هذا مملوك عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس . ترقى فى الخدم حتى تأمر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، وعلت منزلته فى أيام الملك المنصور قلاوون ، ومات سنة سبع وثمانين وستمائة ، ودفن بتربته فى القرافة بجوار الشافعى رضى الله عنه .

« رحبة البدرى » : هذه الرحبة يدخل اليها من رحبة الأيدمرى من باب قصر الشوك ومن جهة المارستان العتيق ، وهى من جملة القصر الكبير . عرفت بالأمير بيدمر البدرى صاحب المدرسة البدرية ، فان داره هناك .

« رحبة ضروط » : هذه الرحبة بجوار دار آل ملك ، وهى من جملة رحبة قصر الشوك . عرفت بالأمير ضروط الحاجب فانه كان يسكن هناك .

« رحبة أقبغا » : هذه الرحبة هى الآن سوق الخيميين ، وهى من جملة رحبة الجامع الأزهر التى مر ذكرها . عرفت بالأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر ، وصاحب المدرسة الأقبغاوية .

« رحبة مقبل » : هذه الرحبة كانت تعرف بخط بين المسجدين ، لأن هناك مسجدين أحدهما يقابل الآخر ، ويسلك من هذه الرحبة الى سويقة الباطلية والى زقاق تريده . وعرفت أخيرا بالأمير زين الدين مقبل الرومى أمير جاندار الملك الظاهر برقوق .

« رحبة آلدمر » : هذه الرحبة فى الدرب أول سوق الفرايين مما يلى الأكفانيين . عرفت بالأمير سيف الدين آلدمر الناصرى المقتول بمكة .

« رحبة قردية » : هذه الرحبة بخط الأكفانيين تجاه دار الأمير قردية الجمدار الناصرى . وكانت هذه الدار تعرف قديما بالأمير سنجر الشكارى ، وله أيضا مسجد معلق يدخل من تحته الى الرحبة المذكورة . وهناك اليوم قاعة الذهب التى فيها الذهب الشريط لعمل المزركش .

« رحبة المنصورى » قبالة دار المنصورى : عرفت بالأمير قطلوبغا المنصورى المقدم ذكره .

« رحبة المشهد » : هذه الرحبة تجاه المشهد الحسينى . كانت رحبة فيما بين باب الديلم أحد أبواب القصر — الذى هو الآن المشهد الحسينى — وبين اصطبل الطارمة .

« رحبة أبى البقاء » : هذه الرحبة من جملة رحبة باب العيد تجاه باب قاعة ابن كتيلة بخط السقيفة . عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى ابن على بن تمام السبكى الشافعى ، ومولده فى سنة سبع وسبعمائة ، أحد العلماء الأكابر . تقلد قضاء القضاة بديار مصر والشام ، ومات فى ... ...

« رحبة الحجازية » : هذه الرحبة تجاه المدرسة الحجازية ، وهى من جملة رحبة باب العيد . عرفت برحبة الحجازية .

(*) ص٤٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

« رحبة قصر بشتاك » : هذه الرحبة تجاه قصر بشتاك ، وهى من جملة الفضاء الذى بين القصرين .

« رحبة سلار » : تجاه حمام البيسرى ودار الأمير سلار نائب السلطنة . هى أيضا من جملة الفضاء الذى كان بين القصرين .

« رحبة الفخرى » : هذه الرحبة بخط الكافورى ، تجاه دار الأمير سيف الدين قطلوبغا الطويل الفخرى السلاح دار الأشرف ، أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون .

« رحبة الأكز » بخط الكافورى : هذه الرحبة تجاه دار الأمير سيف الدين الأكز الناصرى الوزير ، وتعرف أيضا برحبة الأبوبكرى لأنها تجاه دار الأمير سيف الدين الأبوبكرى السلاح دار الناصرى . وهى شارعة فى الطريق : يسلك اليها من دار الأمير تنكز ، ويتوصل منها الى دار الأمير مسعود وبقية الكافورى .

« رحبة جعفر » : هذه الرحبة تجاه حارة برجوان ، ويشرف عليها شباك مسجد تزعم العوام أن فيه قبر جعفر الصادق . وهو كذب مختلق وافك مفترى ... ما اختلف أحد من أهل العلم بالحديث والآثار والتاريخ والسير أن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مات قبل بناء القاهرة بدهر ، وذلك أنه مات سنة ثمان وأربعين ومائة ، والقاهرة بلا خلاف اختطت فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة بعد موت جعفر الصادق بنحو مائتى سنة وعشر سنين .

والذى أظنه أن هذا موضع قبر جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، المكنى بأبى محمد الملقب بالمظفر . ولما ولى أخوه الأفضل ابن أمير الجيوش الوزارة من بعد أبيه ، جعل أخاه المظفر جعفرا يلى العلامة عنه . ونعت بالأجل المظفر ، سيف الامام ، جلال الاسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين خليل ، أمير المؤمنين أبى محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى .

وتوفى ليلة الخميس لسبع خلون من جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة مقتولا ... يقال قتله خادمه جوهر بمباطنة من القائد أبى عبد الله محمد بن فاتك البطايحى . ويقال بل كان يخرج فى الليل يشرب ، فجاء ليلة وهو سكران ، فمازحه دراب حارة برجوان ، وتراميا بالحجارة ، فوقعت ضربة فى جنبه آلت به الى الموت .

والذى نقل أنه دفن بتربة أبيه أمير الجيوش . فاما أن يكون دفن هنا أولا ثم نقل ، أو لم يدفن هنا ولكنه من جملة ما ينسب اليه . فانه بجوار دار المظفر التى من جملتها دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى وما قاربها ، كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى عند ذكر دار المظفر .

« رحبة الأفيال » : هذه * الرحبة من جملة حارة برجوان . يتوصل اليها من رأس الحارة ، ويسلك فى حدرة الزاهدى اليها . وأدركتها ساحة كبيرة والمشيخة تسميها رحبة

(*) ص٤٨ جـ٢ ، طـ بولاق .

الأفيال ، وكذا يوجد فى مكاتيب الدور القديمة . ويقال ان الفيلة فى أيام الخلفاء كانت تربط بهذه الرحبة أمام دار الضيافة .

ولم تزل خربة الى ما بعد سنة سبعين وسبعمائة ، فعمر بها دويرات ، ووجد فيها بئر متسعة ذات وجهين تشبه أن تكون البئر التى كانت سواس الفيلة يستقون منها ، ثم طمت هذه البئر بالتراب .

« رحبة مازن » : هذه الرحبة بحارة برجوان ، تجاه باب دار مازن التى خربت ، وفيها المسجد المعروف بمسجد بنى الكويك .

« رحبة أقوش » : هذه الرحبة بحارة برجوان ، تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى ، التى حلّ وقفها بهاء الدين محمد بن البرجى ، ثم بيعت من بعده . ومات أقوش سنة خمس وسبعمائة .

« رحبة برلغى » : هذه الرحبة عند باب سر المدرسة القراسنقرية ، تجاه دار الأمير سيف الدين برلغى الصغير ، صهر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير . وهذه الرحبة من جملة خط دار الوزارة .

« رحبة لؤلؤ » : هذه الرحبة بحارة الديلم فى الدرب الذى بخط ابن الزلابى . وهى تجاه دار الأمير بدر الدين لؤلؤ الزدكاش الناصرى . وهو من جملة من فر مع الأمير قراسنقر وأقوش الأفرم الى ملك التتر بوسعيد .

« رحبة كوكاى » : هذه الرحبة بحارة زويلة . عرفت بالأمير سيف الدين كوكاى السلاح دار الناصرى ، وفيها المدرسة القطبيه الجديدة .

« رحبة ابن أبى ذكرى » : هذه الرحبة بحارة زويلة ، وهى التى فيها البئر السائلة بالقرب من المدرسة العاشورية . عرفت بالأمير ابن أبى ذكرى ، وهى من الرحاب القديمة التى كانت أيام الخلفاء ، وبها الآن سوق حارة اليهود القرايين .

« رحبة بيبرس » : هذه الرحبة يتوصل اليها من سويقة المسعودى ومن حمام ابن عبود . عرفت بالملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فان بصدرها داره التى كانت سكنه قبل أن يتقلد سلطنة ديار مصر ، وقد حل وقفها وبيعت .

« رحبة بيبرس الحاجب » : هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة . عرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره بها . وبيبرس هذا هو الذى ينسب اليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب .

وبهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى ، زمام الدور السلطانية ، زين الدين مقبل . وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيبرس الحاجب .

« رحبة الموفق » : تعرف هذه الرحبة بحارة زويلة ، تجاه دار الصاحب الوزير موفق الدين أبى البقاء هبة الله بن ابراهيم المعروف بالموفق الكبير ، وهى بالقرب من خوخة الموفق المتوصل منها الى الكافورى من حارة زويلة .

« رحبة أبى تراب » : هذه الرحبة فيما بين الخرشتف وحارة برجوان تشبه أن تكون من جملة الميدان ... أدركتها رحبة بها كيمان تراب .

وسبب نسبتها الى أبى تراب أن هناك مسجدا من مساجد الخلفاء الفاطميين تزعم العامة ، ومن لا خلاق له ، أن به قبر أبى تراب النخشبى .

وهذا القول من أبطل الباطل وأقبح شىء فى الكذب . فان أبا تراب النخشبى هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى ، صاحب حاتما الأصم وغيره ، وهو من مشايخ الرسالة ، ومات بالبادية ... نهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين قبل بناء القاهرة بنحو مائة وثلاث سنين .

وقد أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، خال أبى رحمه الله ، قبل أن يختلط ... قال : أخبرنى مؤدبى الذى قرأت عليه القرآن ، أن هذا المكان كان كوما ، وأن شخصا حفر فيه ليبنى عليه دارا فظهرت له شرافات ، فما زال يتبع الحفر حتى ظهر هذا المسجد ، فقال الناس : هذا أبو تراب من حينئذ .

ويؤيد ما قال أنى أدركت هذا المسجد محفوفا بالكيمان من جهاته ، وهو نازل فى الأرض ينزل اليه بنحو عشر درج . وما برح كذلك الى ما بعد سنة ثمانى وسبعمائة ، فنقلت الكيمان التراب التى كانت هناك حوله ، وعمر مكانها ما هنالك من دور ، وعمل عليها درب من بعد سنة تسعين وسبعمائة ، وزالت الرحبة والمسجد على حاله . وأنا قرأت على بابه — فى رخامة قد نقش عليها بالقلم الكوفى — عدة أسطر تتضمن أن هذا قبر أبى تراب حيدرة بن المستنصر بالله أحد الخلفاء الفاطميين . وتاريخ ذلك — فيما أظن — بعد الأربعمائة .

ثم لما كان فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، سولت نفس بعض السفهاء من العامة له أن يتقرب — بزعمه — الى الله تعالى بهدم هذا المسجد ، ويعيد بناءه . فجبى من الناس مالا شحذه منهم ، وهدم المسجد — وكان بناء حسنا — وردمه بالتراب نحو سبعة أذرع حتى ساوى الأرض التى تسلك المارة منها ، وبناه هذا البناء الموجود الآن . وبلغنى أن الرخامة التى كانت على الباب نصبوها على شكل قبر أحدثوه فى هذا المسجد .

وبالله ان الفتنة بهذا المكان ، وبالمكان الآخر من حارة برجوان الذى يعرف بجعفر الصادق ، لعظيمة . فانهما * صارا كالأنصاب التى كانت تتخذها مشركو العرب ... يلجأ اليهما سفهاء العامة والنساء فى أوقات الشدائد ، وينزلون بهذين الموضعين كربهم وشدائدهم التى لا ينزلها العبد الا بالله ربه ، ويسألون فى هذين الموضعين ما لا يقدر عليه الا الله تعالى وحده من وفاء الدين من غير جهة معينة وطلب الولد ونحو ذلك ، ويحملون النذور من الزيت وغيره اليهما ظنا أن ذلك ينجيهم من المكاره ، ويجلب اليهم المنافع . ولعمرى ان هى الا كرة خاسرة ، ولله الحمد على السلامة .

(*) ص٤٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

« رحبة أرقطاى » : هذه الرحبة بحارة الروم ، قدام دار الأمير الحاج أرقطاى نائب السلطنة بالديار المصرية .

« رحبة ابن الضيف » : هذه الرحبة بحارة الديلم ، وهى من الرحاب القديمة . عرفت بالقاضى أمين الملك اسماعيل بن أمين الدولة الحسن بن على بن نصر بن الضيف ، وفى هذه الرحبة الدار المعروفة بأولاد الأمير طنبغا الطويل بجوار حكر الرصاصى . وتعرف هذه الرحبة بحمدان البزاز ، وبابن المخزومى .

« رحبة وزير بغداد » : هذه الرحبة بدرب ملوخيا . عرفت بالأمير الوزير نجم الدين محمود بن على بن شردين المعروف بوزير بغداد . قدم الى مصر يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، هو وحسام الدين حسن بن محمد بن محمد الغورى الحنفى ، فارين من العراق بعد قتل موسى ملك التتر . فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون باقطاع امرة تقدمة ألف مكان الأمير طاز بغا ، عند وفاته فى ليلة السبت ثامن عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة .

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقام فى الملك من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر بن محمد ، قلد الوزارة بالديار المصرية للأمير نجم الدين محمود وزير بغداد فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وبنى له دار الوزارة بقلعة الجبل — وأدركناها دار النيابة — وعمل له فيها شباك يجلس فيه . وكان هذا قد أبطله الملك الناصر محمد ، وخربت قاعة الصاحب .

فلم يزل الى أن صرف فى أيام الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون عن الوزارة بالأمير ملكتمر السرجوانى فى مستهل رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ثم أعيد فى آخر ذى الحجة بعد تمنع منه ، واشترط أن يكون جمال الكفاة ناظر الخاص معه صفة مشير ، فأجيب الى ذلك .

فلما قبض على جمال الكفاة ، صرف وزير بغداد ، وولى بعده الوزارة الأمير سيف الدين أيتمش الناصرى ، فى يوم الأربعاء ثانى عشرى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ، بحكم استعفائه منها . فباشرها أيتمش قليلا ، وسأل أن يعفى من المباشرة ، فأعفى وذلك لقلة المتحصل وكثرة المصروف فى الانعام على الجوارى والخدام وحواشيهم .

وكانت الكلف فى كل سنة ثلاثين ألف ألف دينار ، والمتحصل خمسة عشر ألف ألف نحو النصف . ومرتب السكر فى شهر رمضان كان ألف قنطار ، فبلغ ثلاثة آلاف قنطار .

« رحبة الجامع الحاكمى » : هذه الرحبة من غير قاهرة المعز التى وضعها القائد جوهر ، وكانت من جملة الفضاء الذى كان بين باب النصر والمصلى . فلما زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فى مقدار السور ، صارت من داخل باب النصر الآن .

وكانت كبيرة فيما بين الحجر والجامع الحاكمى ، وفيما بين باب النصر القديم وباب النصر الموجود الآن ، ثم بنى فيها المدرسة القاصدية التى هى تجاه الجامع وما فى صفها الى حمام الجاولى . وبنى فيها الشيخ قطب

الدين الهرماس دارا ملاصقة لجدار الجامع ، ثم هدمت كما سيأتى فى خبرها ان شاء الله تعالى عند ذكر الدور .

وفى موضعها الآن الربع والحوانيت سفله ، والقاعة الجارى ذلك فى أملاك ابن الحاجب ، وأدركت انشاءها فيما بعد سنة ثلاثين . وهذه الرحبة تؤخذ أجرتها لجهة وقف الجامع .

« رحبة كتبغا » : هذه الرحبة من جملة اصطبل الجميزة ، وهى الآن من خط الصيارف ، يسلك اليها من الجملون الكبير بسوق الشرابشيين ومن خط طواحين الملحيين وغيره . عرفت بالملك العادل زين الدين كتبغا ، فانها تجاه داره التى كان يسكنها وهو أمير قبل أن يستقر فى السلطنة ، وسكنها بنوه من بعده فعرفت به ، ثم حل وقفها فى زمننا وبيعت .

« رحبة خوند » : هذه الرحبة بآخر حارة زويلة ، فيما بينها وبين سويقة المسعودى ، يتوصل اليها من درب الصقالبة ومن سويقة المسعودى ، وهى من الرحاب القديمة . كانت تعرف فى أيام الخلفاء برحبة ياقوت ، وهو الأمير ناصر الدولة ياقوت والى قوص ، أحد أجلاء الأمراء .

ولما قام طلائع بن رزيك بالوزارة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، هم ناصر الدولة ياقوت بالقيام عليه . فبلغ طلائع الملقب بالصالح بن رزيك ذلك ، فقبض عليه وعلى أولاده ، واعتقلهم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة . فلم يزل فى الاعتقال الى أن مات فيه يوم السبت سابع عشر رجب سنة ثلاث وخمسين . فأخرج الصالح أولاده من الاعتقال ، وأمرهم وأحسن اليهم .

ثم عرفت هذه الرحبة من بعده بولده الأمير ربيع الاسلام محمد بن ياقوت . ثم عرفت فى الدولة * الأيوبية برحبة ابن منقذ ، وهو الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ . ثم عرفت برحبة الفلك المسيرى ، وهو الوزير فلك الدين عبد الرحمن المسيرى وزير الملك العادل أبى بكر بن الملك العادل ابن أيوب .

ثم عرفت الآن برحبة خوند . وهى الست الجليلة أردوتكين ابنة نوغيه السلاح دار ، زوج الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وامرأة أخيه من بعده الملك الناصر محمد ، وهى صاحبة تربة الست خارج باب القرافة . وكانت خيرة ، وماتت أيّما فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

« رحبة قراسنقر » : هذه الرحبة برأس حارة بهاء الدين تجاه دار الأمير قراسنقر ، وبها الآن حوض تشرب منه الدواب .

« رحبة بيغرا » بدرب ملوخيا : عرفت بالأمير سيف الدين بيغرا لأنها تجاه داره .

« رحبة الفخرى » بدرب ملوخيا : عرفت بالأمير منكلى بغا الفخرى ، صاحب التربة بظاهر باب النصر ، لأنها تجاه داره .

« رحبة سنجر » : هذه الرحبة بحارة الصالحية فى آخر درب المنصورى . عرفت

(*) ص٥٠ ج٢ ، ط. بولاق .

بالأمير سنجر الجمقدار علم الدين الناصري لأنها تجاه داره . ثم عرفت برحبة ابن طرغاى وهو الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير ، نائب طرابلس .

« رحبة ابن علكان » : هذه الرحبة بالجودرية فى الدرب المجاور للمدرسة الشريفية . عرفت بالأمير شجاع الدين عثمان ابن علكان الكردى زوج ابنة الأمير يازكوج الأسدى ، وبابنه منها الأمير أبو عبد الله سيف الدين محمد بن عثمان . وكان خيرا استشهد على غزة بيد الفرنج فى غرة شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت داره ودار أبيه بهذه الرحبة .

ثم عرفت بعد ذلك برحبة الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى .

« رحبة أزدمر » بالجودرية : هذه الرحبة بالدرب المذكور أعلاه . عرفت بالأمير عز الدين أزدمر الأعمى الكاشف لأنها كانت أمام داره .

« رحبة الأخناى » : هذه الرحبة فيما بين دار الديباج والوزيرية بالقرب من خوخة أمير حسين . عرفت بقاضى القضاة برهان الدين ابراهيم ابن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الأخناى المالكى لأنها تجاه داره . وقد عمر عليها درب فى أعوام بضع وتسعين وسبعمائة .

« رحبة باب اللوق » : رحاب باب اللوق خمس رحاب ينطلق عليها كلها الآن رحبة باب اللوق . وبها تجتمع أصحاب الحلق وأرباب الملاعب والحرف ، كالمشعبذين والمخايلين والحواة والمتأففين وغير ذلك ، فيحشر هنالك من الخلائق للفرجة ولعمل الفساد ما لاينحصر كثرة .

وكان قبل ذلك ، فى حدود ما قبل الثمانين وسبعمائة من سنى الهجرة ، انما تجتمع الناس لذلك فى الطريق الشارع المسلوك من جامع الطباخ بالخط المذكور الى قنطرة قدادار .

« رحبة التبن » : هذه الرحبة قريبة من رحبة باب اللوق ، فى بحرى منشاة الجوانية ، شارعة فى الطريق العظمى المسلوك فيها من رحبة باب اللوق الى قنطرة الدكة ، ويتوصل اليها السالك من عدة جهات .

وكانت هذه الرحبة قديما تقف بها الجمال بأحمال التبن لتباع هناك ، ثم اختطت وعمرت ، وصارت بها سويقة كبيرة عامرة بأصناف المأكولات . والخط انما يعرف برحبة التبن ، وقد خرب بعد سنة ست وثمانمائة .

« رحبة الناصرية » : هذه الرحبة كانت فيما بين الميدان السلطانى والبركة الناصرية أيام كانت تلك الخطة عامرة . وكان ينفق فى ليالى أيام ركوب السلطان الى الميدان فى كل سنة من الاجتماع والأنس ما ستقف على بعض وصفه عند ذكر المتنزهات ان شاء الله تعالى . وقد خربت الأماكن التى كانت هناك ، وجهلت هذه الرحبة الا عند القليل من الناس .

«رحبة أرغون أزكه» : والعامة تقول رحبة أزكى بياء . وهى رحبة كبيرة بالقرب من

البركة الناصرية . وهذه الرحبة وما حولها من جملة بستان الزهرى الآتى ذكره ان شاء الله فى الأحكار ، وعرفت بالأمير أرغون أزكى .

ذكر الدور

قال ابن سيده : الدار المحل يجمع البناء والعرصة التى هى من دار يدور لكثرة حركات الناس فيها ، والجمع أدور وأدؤر وديار وديارة وديارات وديران ودور ودورات ، والدارة لغة فى الدار ، والدار البلد .

والبيت من الشعر ما زاد على طريقة واحدة ، وهو مذكر يقع على الصغير والكبير ، وقد يقال للمبنى . والبيت أخص من غير الأبنية التى هى الأخبية بيت . وجمع البيت أبيات وأبابيت وبيوت وبيوتات . والبيت أخص من الدار ، فكل دار بيت ولا ينعكس .

ولم تكن العرب تعرف البيت الا الخباء . ثم لما سكنوا القرى والأمصار ، وبنوا بالمدر واللبن ، سموا منازلهم التى سكنوها دورا وبيوتا .

وكانت الفرس لا تبيح شريف البنيان ، كما لا تبيح شريف الأسماء ، الا لأهل البيوتات ، كصنيعهم فى النواويس والحمامات والقباب الخضر والشرف على حيطان الدار ، وكالعقد على الدهليز .

« دار الأحمدى » : هذه الدار من جملة حارة بها الدين ، وبها مشترف عال فوق بدنة من بدنات سور القاهرة ، ينظر منه أرض الطبالة * وخارج باب الفتوح ، وهى احدى الدور الشهيرة . عرفت بالأمير بيبرس الأحمدى .

« بيبرس الأحمدى » ركن الدين أمير جاندار : تنقل فى الخدم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون الى أن صار أمير جاندار أحد المقدمين . فلما مات الملك الناصر ، قوى عزم قوصون على اقامة الملك المنصور أبى بكر بعد أبيه وخالف بشتاك . فلما نسب المنصور الى اللعب ، حضر الى باب القصر بقلعة الجبل وقال : أى شىء هذا اللعب !

فلما ولى الناصر أحمد أخرجه لنيابة صفد ، فأقام بها مدة . ثم أحس من الناصر أحمد بسوء ، فخرج من صفد بعسكره الى دمشق وليس بها نائب ، فهم الأمراء بامساكه ، ثم أخروا ذلك وأرسلوا اليه الاقامة ، فقدم البريد من الغد بامساكه . فكتب الأمراء من دمشق الى السلطان يشفعون فيه ، فعاد الجواب بأنه لابد من القبض عليه ونهب ماله وقطع رأسه وارساله ، فأبوا من ذلك ، وخلعوا الطاعة ، وشقوا العصا جميعا .

فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من مصر بخلع الناصر أحمد ، واقامة الصالح اسماعيل فى الملك بدله ، والأحمدى مقيم بقصر تنكز من دمشق . فورد عليه مرسوم بنيابة طرابلس فتوجه اليها وأقام بها نحو الشهرين ، ثم طلب الى مصر فسار اليها ، وأخرج لمحاصرة أحمد بالكرك ، فحصره مدة ولم ينل منه شيئا ، ثم عاد الى القاهرة ، فأقام بها حتى مات فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وله من العمر نحو الثمانين سنة .

(*) ص٥١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان أحد الأبطال الموصوفين بقوة النفس ، وشدة العزم ، ومحبة الفقراء ، وايثار الصالحين ، وله مماليك قد عرفوا بالشجاعة والنجدة ، وكان ممن يقتدى برأيه ، وتتبع آثاره لمعرفته بالأيام والوقائع . وما برحت ذريته بهذه الدار الى الآن ، وأظنها موقوفة عليهم .

« دار قراسنقر » : هذه الدار برأس حارة بهاء الدين . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر ، وبها كان سكنه ، وهى احدى الدور الجليلة ، ووجد بها فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة لما أحيط بها اثنان وثلاثون ألف ألف دينار ، ومائة ألف وخمسون ألف درهم فضة ، وسروج مذهبة وغير ذلك . فحمل الجميع الى بيت المال .

ولم تزل جارية فى أوقاف المدرسة القراسنقرية . الى أن اغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما اغتصب من الأوقاف ، وجعلها وقفا على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد . فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق ، ارتجع جميع ما خلفه ، وصار فى جملة الأموال السلطانية .

ثم أفرد من الأوقاف التى جعلها جمال الدين على مدرسته شيئا ، وجعل باقيها لأولاده وعلى تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق بالصحراء تحت الجبل خارج باب النصر . فلما قتل الملك الناصر فرج ، صارت هذه الدار بيد الأمير طوغان الداودار . وكانوا كسارق من سارق .

وما من قتيل يقتل الا وعلى ابن آدم الأول كفل منه ، لأنه أول من سن القتل .

« دار البلقينى » : هذه الدار تجاه مدرسة شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى من حارة بهاء الدين . أنشأها قاضى قضاة العساكر بدر الدين محمد بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى الشافعى ، ومات فى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة ولم تكمل . فاشتراها أخوه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الاسلام وكملها ، وبها الآن سكنه ، وهى من أجل دور القاهرة صورة ومعنى .

وقد ذكرت الأخوين وأباهما فى كتابى المنعوت بـ « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » فانظر هناك أخبارهم .

« دار منكوتمر » : هذه الدار بحارة بهاء الدين بجوار المدرسة المنكوتمرية . أنشأها الأمير منكوتمر نائب السلطنة بجوار مدرسته الآتى ذكرها عند ذكر المدارس ان شاء الله تعالى ، وهى من الدور الجليلة ، وبها الى اليوم بعض ذريته ، وهى وقف .

« دار المظفر » : هذه الدار كانت بحارة برجوان . أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالى الى أن مات . فلما ولى الوزارة من بعده ابنه الأفضل بن أمير الجيوش ، وسكن دار القباب التى عرفت بدار الوزارة — وقد تقدم ذكرها — صار أخوه المظفر أبو محمد جعفر ابن أمير الجيوش بهذه الدار ، فعرفت به ، وقيل لها دار المظفر ، وصارت من بعده دار الضيافة كما مر فى هذا الكتاب .

وآخر ما أعرفه أنها كانت ربعا وحماما وخرائب ، فسقط الربع بعد سنة سبعين

وسبعمائة ، وكانت الحمام قد خربت قبل ذلك ، فلم تزل خرابا الى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . فشرع قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي في عمارتها ، فلما حفر أساس جداره القبلي ، ظهر تحت الردم عتبة عظيمة من حجر صوان ماتع يشبه أن يكون عتبة دار المظفر .

وكان الأمير جهاركس الخليلي اذ ذاك يتولى عمارة المدرسة التي أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين ، فبعث بالرجال لهذه العتبة ، وتكاثروا على جرها الى العمارة ، فجعلها في المزملة التي تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية . *

وكمل قاضي القضاة شمس الدين بناء داره حيث كانت دار المظفر ، فجاءت من أحسن دور القاهرة ، وتحول اليها بأهله ، وما زال فيها حتى مات بها — وهو متقلد وظيفة قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية — في ليلة السبت الثامن عشر من ذي الحجة سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، وله من العمر سبعون سنة وأشهر .

ومولده بطرابلس الشام ، وأخذ الفقه على مذهب أبي حنيفة رحمه الله عن جماعة من أهل طرابلس ، ثم خرج منها الى دمشق ، فقرأ على صدر الدين محمد بن منصور الحنفي ، ووصل الى القاهرة وقاضي الحنفية بها قاضي القضاة جمال الدين عبد الله التركماني ، فلازمه وولاه العقود ، وأجلسه ببعض حوانيت الشهود ، فتكسب ممن تحمل الشهادة مدة ، وقرأ على قاضي القضاة سراج الهدى ولازمه ، فولاه نيابة القضاء بالشارع ، فباشرها مباشرة مشكورة ، وأجازه العلامة شمس الدين محمد ابن الصائغ الحنفي بالافتاء والتدريس .

فلما مات صدر الدين بن منصور ، قلده الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة مكانه في يوم الاثنين ثاني عشري شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وسبعمائة . فباشر القضاء بعفة وصيانة وقوة في الأحكام لها النهاية ، ومهابة وحرمة وصولة تذعن لها الخاصة والعامة . الى أن صرف في سابع عشر رمضان سنة احدى وتسعين وسبعمائة بشيخنا قاضي القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم التركماني .

فلم يزل الى أن عزل مجد الدين ، وولى من بعده قاضي القضاة وناظر الجيوش جمال الدين محمود القيصري ، وهو ملازم داره وما بيده من التدريس ، وهو على حال حسنة وتجلد من الكافة ... الى أن استدعاه السلطان في يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، فقلده وظيفة القضاء عوضا عن محمود القيصري ، فلم يزل حتى مات من عامه رحمه الله تعالى .

وهذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان طالبا المسجد المسمى بجعفر . وأما الحمام فانها في مكانها اليوم ساحة بجوار دار قاضي القضاة شمس الدين . ومن جملة حقوق دار المظفر رحبة الأفيال وحدرة الزاهداي ، الى الدار المعروفة يسكنى قريبا من حمام الرومي .

(*) ص٥٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

« دار ابن عبد العزيز » : هذه الدار بحارة برجوان ، على يمنة من سلك من باب الحارة طالبا حمام الرومى ، هى أيضا من جملة دار المظفر . كانت طاحونا ثم خربت ، فابتدأ عمارتها فخر الدين أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف بن الكويك ناظر الأحباس ، ومات ولم تكمل .

فصارت لامرأته وابنة عمه خديجة ، فماتت فى رجب سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، وقد تزوجت من بعده بالقاضى الرئيس بدر الدين حسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن سيدهم النجمى السيراونى ، فانتقلت اليه ، ومات فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة فى العشرين من جمادى الأولى .

وورثه من بعد موته كريم الدين ابن أخيه — وهو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ابن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن سيدهم ، ومات آخر ربيع الأول سنة سبع وثمانمائة عن سبعين سنة ، وولى نظر الجيوش بديار مصر للظاهر برقوق — فباعها لقريبه شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد العزيز ، وكملها وسكنها مدة طويلة الى أن باعها فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة بألفى دينار ذهبا لخوند فاطمة ابنة الأمير منجك ، فوقفتها على عتقائها ، وهى الى اليوم بيدهم .

وتعرف ببيت ابن عبد العزيز المذكور لطول سكنه بها . وكان خيرا عارفا بلى كتابة ديوان الجيش وعدة مباشرات ، ومات ليلة الثانى عشر من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة .

« دار الجمقدار » : هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى . عرفت بالأمير علم الدين سنجر الجمقدار من الأمراء البرجية ، وقدمه الملك الناصر محمد تقدمة ألف بعد مجيئه من الكرك الى مصر ، ثم أخرجه الى الشام ، فأقام بها الى أن حضر قطلوبغا الفخرى فى نوبة أحمد بالكرك ، فحضر معهم واستقر من الأمراء بالديار المصرية الى أن مات يوم الجمعة تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وقد كبر وارتعش ، وكان روميا ألثغ .

ثم صارت لخالد بن الزراد المقدم . فلما قبض عليه ، ومات فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة تحت المقارع ، ارتجعت عنه لديوان السلطان حسن ، فصارت فى يد ورثته الى أن باع بعض أولاده أسهما منها ، فاشتراها الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة . ثم تنقلت — وبعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون — الى أن ملك ما تملك منها بالشراء قاضى القضاة عماد الدين أحمد ابن عيسى الكركى ، وسكنها الى أن سافر ، فصارت من بعده لورثته ، فباعوها للشيخ زين الدين أبى بكر القمنى ، وهى بيده الآن .

« دار أقوش » الرومى بحارة برجوان : هذه الدار من أجل دور القاهرة ، وبابها من نحاس بديع الصنعة يشبه باب المارستان المنصورى ، وكان تجاهها اصطبل كبير يعلوه ربع فيه عدة مساكن . عرفت بالأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى ،

وتوفى سنة سبع وسبعمائة ، وهى مما وقفه على تربته بالقرافة ، وقد خرب اصطبلها وعلوه وبيع نقض ذلك ، وتداعت الدار أيضا للسقوط فبيعت أنقاضا ، وصارت من جملة الأملاك .

« دار بنت السعيدى » : هذه * الدار بحارة برجوان . عرفت بقاعة حنيفة بنت السعيدى الى أن اشتراها شهاب الدين أحمد ابن طوغان دوادار الأمير سودون الشيخونى نائب السلطان ، فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة ، فأخذ عدة مساكن مما حولها وهدمها وصيرها ساحة بها .

فصارت من أعظم الدور اتساعا وزخرفة ، وفيها آبار سبعة معينة ، وفسقية ينقل اليها الماء بساقية على فوهة بئر . وما زال صاحبها شهاب الدين فيها الى أن سافر الى الاسكندرية فى محرم سنة ثمان وثمانمائة ، فمات رحمه الله ، وانتقلت من بعده لغير واحد بالبيع .

« دار الحاجب » : هذه الدار فيما بين الخرشتف وحارة برجوان . كان مكانها من جملة الميدان ، وكان يسلك من حارة برجوان فى طريق شارعة الى باب الكافورى . فلما عمر الأمير بكتمر هذه الدار ، جعل اصطبلها حيث كانت الطريق ، وركب بابا بخوخة مما يلى حارة برجوان ، واشترط عليه الناس ألا يمنع المارة من سلوك هذا المكان ، فوفى بما اشترط .

وما برح الناس يمرون من هذا الطريق فى وسط الاصطبل على باب داره ، سالكين من حارة برجوان الى الكافورى والخرشتف ومنه الى حارة برجوان . وأنا سلكت من هذه الطريق غير مرة ، وكان يقال لها خوخة الحاجب . ثم لما طال الأمد ، وذهبت المشيخة نسيت هذه الطريق ، وقفل الباب ، وانقطع سلوك الناس منه ، وصارت تلك الطريق من جملة حقوق الدار .

وما برحت هذه الدار ينصب على بابها الطوارق دائما كما كانت عادة دور الأمراء فى الزمن القديم . فلما تغيرت الرسوم ، وبطل ذلك ، قلعت الطوارق من جانبى الباب وأعلى أسكفته .

وباب هذه الدار تجاه باب الكافورى ، وعرفت بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب صاحب الدار خارج باب النصر والمدرسة بجواره ، ثم حل وقفها سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، وبيعت كما بيع غيرها من الأوقاف . وهنالك ترى ترجمته .

« دار تنكز » : هذه الدار بخط الكافورى كانت للأمير أيبك البغدادى ، وهى من أجل دور القاهرة وأعظمها . أنشأها الأمير تنكز نائب الشام ، وأظنه أوقفها فى جملة ما أوقف ، وكان بها ولده .

وسكنها قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم ابن جماعة ، فأنفق فى زخرفتها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم ، عنها يومئذ ما ينيف عن سبعمائة دينار مصرية . ولم تزل هذه الدار وقفا الى أن بيعت ، على أنها ملك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة بدون ألف دينار ،

(*) ص٥٣ ج٢ ، ط. بولاق .

لزين الدين عبد الباسط بن خليل ، فجدد بناءها ، وبنى تجاهها جامعه .

« تنكز الأشرفى » : سيف الدين أبو سعيد خليل . جلبه الى مصر وهو صغير الخواجا علاء الدين السوسى ، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون .

فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أمره امرة عشرة قبل توجهه الى الكرك ، وسافر معه الى الكرك ، وترسل عنه منها الى الأفرم ، فاتهمه أن معه كتبا الى الأمراء بالشام وعرض عليه العقوبة ، فأرجف منه وعاد الى الناصر ، فقال له : ان عدت الى الملك فأنت نائب دمشق .

فلما عاد الى الملك جهزه الى دمشق فوصلها فى العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، فباشر النيابة وتمكن فيها ، وسار بالعساكر الى ملطية ، وافتتحها فى محرم سنة خمس عشرة ، وعظم شأنه ، وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميا ، فضلا عن مسلم ، خوفا من بطشه وشدة عقوبته .

وكان السلطان لا يفعل شيئا بمصر الا ويشاوره فيه وهو بالشام ، وقدم غير مرة على السلطان ، فأكرمه وأجله بحيث أنه أنعم عليه فى قدومه الى مصر سنة ثلاث وثلاثين بما مبلغه ألف ألف درهم وخمسون ألف درهم ، عنها خمسون ألف دينار ونيف ، سوى الخيل . وزادت أملاكه وسعادته ، وأنشأ جامعا بدمشق بديع الوصف بهج الزى وعدة مواضع .

وكان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء ... الا أنه كان يتخيل خيالا ، فيحتد خلقه ويشتد غضبه ، فهلك بذلك كثير من الناس ، ولايقدر أحد أن يوضح له الصواب لشدة هيبته . وكان اذا غضب لا يرضى ألبتة بوجه ، واذا بطش كان بطشه بطش الجبارين ، ويكون الذنب صغيرا فلا يزال يكبره حتى يخرج فى عقوبة فاعله عن الحد .

ولم يزل الى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور الى بلاد الططر . فبلغ ذلك السلطان ، فتنكر له ، وجهز اليه من قبض عليه فى ثالث عشرى ذى الحجة سنة أربعين ، وأحيط بماله .

وقدم الأمير بشتاك الى دمشق لقبضه ، وخرج الى القصر ومعه من مال تنكز . وهو من الذهب العين ثلثمائة ألف وستة وثلاثون ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ، ومن الجوهر واللؤلؤ والزركش والقماش ثمانمائة حمل . ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعون ألف دينار ، وألف ألف ومائة ألف درهم .

فلما وصل تنكز الى قلعة الجبل جهز الى الاسكندرية ، واعتقل فيها نحو الشهر ، وقتل فى محبسه ، ودفن بها فى يوم الثلاثاء حادى عشرى المحرم سنة احدى وأربعين وسبعمائة .

ومن الغريب أنه أمسك يوم الثلاثاء ، ودخل مصر يوم الثلاثاء ، ودخل الاسكندرية يوم الثلاثاء ، وقتل يوم الثلاثاء . ثم نقل الى دمشق فدفن بتربته جوار * جامعه ليلة الخامس من رجب سنة أربع وأربعين

(*) ص٥٤ جـ٢ ، ط. بولاق

وسبعمائة ، بعد ثلاث سنتين ونصف ، بشفاعة ابنته .

« دار أمير مسعود » : هذه الدار بآخر خط السكافورى . عرفت بالأمير بدر الدين مسعود بن خطير الرومى أحد الأمراء بمصر . أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة الى نيابة غزة ، ثم نقل منها الى امرة دمشق ، وولى نيابة طرابلس ، ثم أعيد الى دمشق .

وأصله من أتباع الأمير تنكز ، فشكره عند الملك الناصر ، وقدمه حتى صار أميرا حاجبا . فلما قتل تنكز أخرجه لنيابة غزة ، وتنقل فى نيابة طرابلس ثلاث مرات الى أن استعفى من النيابة ، فأنعم عليه بامرة فى دمشق ، وعلى ولديه بامرة طبلخاناة .

وما زال مقيما بها حتى مات فى سابع شوال سنة أربع وخمسين وسبعمائة بدمشق . ومولده بها ليلة السبت سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

« دار نائب الكرك » : هذه الدار فيما بين خط الخرشتف وخط باب سر المارستان المنصورى ، وهى من جملة أرض الميدان . عرفت بالأمير أقوش الأشرفى ، المعروف بنائب الكرك ، صاحب الجامع .

« أقوش الأشرفى » جمال الدين : ولاه الملك الناصر محمد بن قلاوون نيابة دمشق بعد مجيئه من الكرك ، وعزله تنكز بعد قليل ، واعتقله الى شهر رجب سنة خمس عشرة وسبعمائة ، ثم أفرج عنه وجعله رأس الميمنة ، وصار يقوم له اذا قدم مميزا له عن غيره من الأمراء .

وكان لا يلبس مصقولا ، ويمشى من داره هذه الى الحمام وهو حامل المئزر والطاسة وحده ، فيدخل الحمام ويخرج عريانا . فاتفق مرة أن رجلا رآه فعرفه ، وأخذ الحجر وحك رجله وغسله ، وهو لا يكلمه كلمة واحدة . فلما خرج وصار الى داره ، طلب الرجل وضربه ، وقال له : أنا مالى مملوك ، ما عندى غلام ، ما لى طاسة حتى تتجرأ على أنت .

وكان يتوجه الى معبد له فى الجبل الأحمر، وينفرد فيه وحده اليومين والثلاثة ، ويدخل منه الى القاهرة وهو ماش وذيله على كتفه حتى يصل الى داره . وباشر نظر المارستان المنصورى مباشرة جيدة .

ثم أخرجه السلطان الى نيابة طرابلس فى أول سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فأقام بها ، ثم طلب الاقالة ، فأعفى وقبض عليه واعتقل بقلعة دمشق ، ثم نقل منها الى صفد فحبس بها فى برج ، ثم أخرج منها الى الاسكندرية فمات بها معتقلا فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة .

وكان عسوفا جبارا فى بطشه ، مات عدة من الناس تحت الضرب قدامه ، وكان كريما سمحا الى الغاية . وعرف بنائب الكرك لأنه أقام فى نيابتها من سنة تسعين وستمائة الى سنة تسع وسبعمائة .

« دار ابن صغير » : هذه الدار من جملة الميدان ، وهى اليوم من خط باب سر المارستان المنصورى . أنشأها علاء الدين على

ابن نجم الدين عبد الواحد بن شرف الدين محمد بن صغير رئيس الأطباء ، ومات بحلب عندما توجه اليها فى خدمة الملك الظاهر برقوق فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة ودفن بها ، ثم نقلته ابنته الى القاهرة ودفنته بظاهرها .

« دار بيبرس الحاجب » : هذه الدار بخط حارة العدوية ، وهى الآن من خط باب سر المارستان . عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف .

« بيبرس الحاجب » الأمير ركن الدين ، ترقى فى الخدم الى أن صار أميراخور . فلما حضر الملك الناصر من الكرك ، عزله بالأمير أيدغمش ، وعمله حاجبا ، وناب فى الغيبة عن الأمير تنكز بدمشق لما حج .

ثم تجرد الى اليمن وعاد ، فتنكر عليه السلطان ، وحبسه فى ذى القعدة سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وأفرج عنه فى رجب سنة خمس وثلاثين ، وجهزه من الاسكندرية الى حلب ، فصار بها أميرا من أمرائها .

ثم تنقل منها الى امرة بدمشق بعد عزل تنكز . فلم يزل بها الى أن توجه الفخرى وطشتمر الى مصر ، فأقره على نيابة الغيبة بدمشق ، وكان قد أسن ، ومات فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

وأدركنا له حفيدا يعرف بعلاء الدين أمير على بن شهاب الدين أحمد بن بيبرس الحاجب . قرأ القراءات السبع على ولده ، وكان حسن الأداء للقراءة ، مشهورا بالعلاج يعالج بمائة وعشرة أرطال . مات وهو سائح فى سابع ربيع الآخر سنة احدى وثمانمائة .

« دار عباس » : هذه الدار كانت فى درب شمس الدولة . عرفت بالوزير عباس بن يحيى ابن تميم بن المعز ابن باديس . أصله من المغرب ، وترقى فى الخدم حتى ولى الغربية ، ولقب بالأمير ركن الاسلام .

وكانت أمه تحت الأمير المظفر على بن السلار والى البحيراء والاسكندرية . فلما رحل على بن السلار الى القاهرة ، وأزال الوزير نجم الدين سليمان بن مصال من الوزارة ، واستقر مكانه فى وزارة الخليفة الظافر بأمر الله ، وتلقب بالعادل ، قدمه لمحاربة ابن مصال فلم ينل غرضا ، فخرج اليه عباس حتى ظفر به .

وولى ناصر الدين نصير بن عباس ولاية مصر بشفاعة جدته أم عباس . فاختص به الخليفة الظافر ، واشتغل به عمن سواه — وكان جريا مقداما — فخرج اليه أمر عباس بالعسكر لحفظ عسقلان من الفرنج ، ومعه من * الأمراء ملهم والضرغام وأسامة ابن منقذ ، وكان أسامة خصيصا بعباس .

فلما نزلوا بلبيس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها ، وما هم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة لذاته بمصر ، وأخذ يثرب على العادل بن السلار ، فقال له أسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لى بذلك ؟

(*) ص٥٥ جـ٢ ، ط . بولاق .

قال : هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمك ، فانه يحبك ويكرهه ، فاذا أجابك فاقتله وصر فى منزلته .

فأعجب عباس ذلك ، وجهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة ، فسار الى القاهرة ودخلها على حين غفلة من العادل ، واجتمع بالخليفة وفاوضه فيما تقرر ، فأجابه اليه ، ونزل الى دار جدته . وكان من قتله للعادل على بن سلار ما كان .

فماج الناس ، وسرح الطائر من القصر الى عباس وهو على بلبيس فى الانتظار ، فقام من فوره ودخل القاهرة سحر يوم الأحد ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، فوجد عدة من الأتراك قد نفروا وخرجوا يدا واحدة الى الشام ، فصار الى القصر ، وخلع عليه خلع الوزارة ، فباشر الأمور ، وضبط الأحوال ، وأكرم الأمراء ، وأحسن الى الأجناد .

وازدادت مخالطة ولده للخليفة ، فخاف أن يقتله كما قتل ابن السلار ، فما زال به حتى قتل الخليفة الظافر كما تقدم ذكره ، وصار الى القصر على العادة . فلما جلس فى مقطع الوزارة سأل الاجتماع على الخليفة ، فدخل الزمام الى دور الحرم فلم يجد الخليفة ، فلما عاد اليه أحضر أخوى الظافر واتهمهما بقتله وقتلهما قدامه ، واستدعى بولد الظافر عيسى ولقبه بالفائز بنصر الله .

وكثرت النياحة على الظافر ، وبحث أهل القصر على كيفية قتله ، فكتبوا الى طلائع بن رزيك — وهو والى الأشمونين — يستدعونه فحشد وسار . فاضطرب عباس ، وكثرت مناكدة أهل القاهرة له ، حتى انه مر يوما فرمى من طاقة تشرف على شارع بقدر مملوء طعاما حارا ، فعول على الفرار ، وخرج ومعه ابنه وأسامة بن منقذ وجميع ما لهم من أتباع ومال وسلاح .

ودخل طلائع الى القاهرة ، واستقر فى وزارة الخليفة الفائز ، فسير أهل القصر الى الفرنج البريد بطلب عباس ، فخرجوا اليه . وكانت بينهم وبينه وقعة فر فيها أسامة فى جماعة الى الشام ، فظفر به الفرنج وقتلوه ، وأخذوا ابنه فى قفص من حديد ، وجهزوه الى القاهرة ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فلما وصل ابنه الى القصر قتل ، وصلب على باب زويلة ، وأحرق بعد ذلك .

ثم عرفت هذه الدار بعد ذلك بدار تقى الدين صاحب حماة ، ثم خربت ، وحكر مكانها ، فصار يعرف بحكر صاحب حماة ، وبنى فيه عدة دور . وموضعها الآن بداخل درب شمس الدولة بالقرب من حمام عباس ، التى تعرف اليوم بحمام الكويك .

« دار ابن فضل الله » : هذه الدار فيما بين حارة زويلة والبندقانيين ، كان موضعهما من جملة اصطبل الجميزة ، عرفت بابن فضل الله .

وبنو فضل الله جماعة : أولهم بمصر شرف الدين عبد الوهاب بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل الله ابن الأمير عز الدين الحلى بن دعجان العمرى . ولى كتابة السر

للملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم صرفه عنها وولاه كتابة السر بدمشق . فلم يزل بها حتى مات فى ثالث شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة .

وقد عمر وبلغ أربعا وتسعين سنة ، وخلف أموالا جمة . ورثاه الشهاب محمود وقد ولى بعده ، ورثاه علاء الدين على بن غانم والجمال ابن نباتة . وكان فاضلا بارعا أديبا ، عاقلا وقورا ناهضا ، ثقة أمينا مشكورا ، مليح الخط جيد الانشاء . حدث عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وغيره .

ومنهم « محيى الدين » يحيى بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل الله بن مجلى ابن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن على بن محمد بن أبى بكر عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى العمرى . ولى كتابة السر بالديار المصرية عن الملك الناصر ، نقل اليها من كتابة سر دمشق لما مرض علاء الدين باستدعائه الى مصر ، وأقيم بدله فى كتابة سر دمشق شرف الدين أبو بكر بن الشهاب محمود .

وكان استقراره فى محرم سنة ثلاثين وسبعمائة ، فباشرها الى ثانى عشر شعبان سنة ثنتين وثلاثين ، ونقل منها الى كتابة السر بدمشق ، وطلب شرف الدين ابن الشهاب محمود ، فاستقر فى كتابة السر بمصر الى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين ، وطلب محيى الدين من دمشق هو وابنه شهاب الدين أحمد ، فوصلا الى القاهرة غرة جمادى الأولى ، وخلع عليهما ورسم لهما بكتابة السر ، ونقل ابن شهاب محمود الى كتابة السر بدمشق .

فلم يزل محيى الدين يباشر كتابة السر هو وابنه الى أن كان من تنكز السلطان لولده شهاب الدين ما كان . وذلك أنه كان إستعفى من الوظيفة لثقل سمعه وكبر سنه ، فأذن له أن يقيم ابنه القاضى شهاب الدين يباشر عنه ، فصار الاسم لمحيى الدين ، والمباشر ابنه شهاب الدين ... الى أن حضر الأمير تنكز نائب الشام الى القلعة ، وسأل السلطان فى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل — المعروف بابن القطب — أن يوليه (*) كتابة السر بدمشق .

وكان السلطان لا يمنع تنكز شيئا يسأله ، فخلع عليه ، وأقره فى ذلك عوضا عن جمال الدين عبد الله بن الأثير . فأخذ شهاب الدين ينقصه عند السلطان بأنه نصرانى الأصل ، وليس من أهل صناعة الأنشاء ونحو ذلك ، والسلطان مغض عنه غير ملتفت الى ما يرمى به رعاية لتنكز .

فلما كتب توقيع ابن القطب ، أراد تكثير الألقاب والزيادة له فى المعلوم . فامتنع شهاب الدين من كتابة ذلك . وكان حاد المزاج ، قوى النفس ، شرس الأخلاق ، ففاجأ السلطان بغلظة ومخاشنة فى القول .

وكان من كلامه : كيف تعمل قبطيا أسلميا كاتب السر وتزيد فى معلومه ؟ وبالغ فى الجراءة حتى قال : ما يفلح من يخدمك ،

(*) ص٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

وخدمتك على حرام . ونهض قائما لشدة حنقه . وكان هذا منه بحضرة الأمراء ، فغضبوا لذلك وهموا بضرب عنقه ، فأغضى السلطان عنه .

وبلغ محيى الدين ما كان من ابنه . فبادر الى السلطان ، وقبل الأرض ، واعترف بخطأ ابنه ، واعتذر عن تأخره بثقل سمعه . فرسم له أن يكون ابنه علاء الدين على يدخل ويقرأ البريد ، فاعتذر بأنه صغير لا يقوم بالوظيفة . فقال السلطان : أنا أربيه مثل ما أعرف . فصار يخلف أباه كما كان شهاب الدين .

وانقطع شهاب الدين فى منزله مدة سنين الى أن مات أبوه محيى الدين فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة ، عن ثلاث وتسعين سنة ، وهو متمتع بحواسه . فدفن ظاهر القاهرة ، ثم نقل الى تربتهم من سفح قاسيون بدمشق .

وكان صدرا معظما ، رزينا كامل السؤدد ، حركا كاتبا بارعا . دبر الأقاليم بكفايته وحسن سياسته ووفور عقله وأمانته وشدة تحرزه ، وله النظم والنثر البديع الرايق . فمن شعره :

تضاحكنى ليلى فأحسب ثغرها
سنا البرق لكن أين منه سنا البرق

وأخفت نجوم الصبح حين تبسمت
فقمت بفرعيها أشد على الشرق

وقلت سواء جنح ليل وشعرها
ولم أدر أن الصبح من جهة الفرق

« علاء الدين » على بن يحيى بن فضل الله العمرى . استقل بوظيفة كتابة السر قبل موت أبيه محيى الدين ، وخلع عليه يوم الاثنين رابع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وله من العمر أربع وعشرون سنة . فخرج وفى خدمته الصاحب والدوادار ، وتقدم أمر السلطان للموقعين بامتثال ما يأمرهم به عن السلطان . فشق ذلك على أخيه شهاب الدين وحسده ، وربما قيل انه سمه ، فكان يعتريه دم منه الى أن مات .

ثم انه كتب قصة يسأل فيها السفر الى الشام ، وشكا كثرة التكلفة — وكان قبل ذلك جرى ذكره فى مجلس السلطان ، فذمه وتهدده — فعندما قرئت عليه قصته تحرك ما كان ساكنا من غضبه ، ورسم بايقاع الحوطة عليه . فحمل من داره الى قاعة الصاحب من قلعة الجبل فى رابع عشرى شعبان سنة تسع وثلاثين ، وخرج اليه الأمير طاجار الدوادار ، وأمر به فعرى من ثيابه ليضرب بالمقارع ، فرفق به ولم يضربه ، واستكتبه خطه بحمل عشرة آلاف . فأحيط بداره ، وأخرج سائر ما وجد له وبيع عليه ، وأرسل مملوكه الى بلاد الشام ، فباع كل ما له فيها ، واقترض خمسين ألف درهم حتى حمل من ذلك كله مائة وأربعين ألف درهم ، عنها سبعة آلاف دينار .

فسكن أمره ، وخف الطلب عنه ، وأقام الى ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعين مدة سبعة أشهر وثمانية عشر يوما ... ففرج الله عنه بأمر عجيب . وهو أنه لما كان يباشر عن أبيه ، وقع شخص من الكتاب بشىء زور ،

فرسم السلطان بقطع يده ، وأمر به فسجن طول هذه السنين الى أن قدر الله سبحانه أنه رفع قصة يسأل فيها العفو عنه .

فلما قرئت على السلطان لم يعرفه ، فسأل عن خبره وشأنه ، فقيل له لا يعرف خبر هذا الا شهاب الدين بن فضل الله ، فبعث اليه بقاعة الصاحب يستخبره عنه ، فطالعه بقصته وما كان منه ، فألان الله له قلب السلطان ، ورسم بالافراج عن الرجل وعن شهاب الدين وعن مملوكه ، ففرج الله عن الثلاثة .

ونزل شهاب الدين الى داره ، وأقام الى أن قبض السلطان على الأمير تنكز نائب الشام ، فاستدعى شهاب الدين الى حضرته وحلفه ، وولاه كتابة السر بدمشق عوضا عن شرف الدين خالد بن عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن خالد بن نصر المخزومى ، المعروف بابن القيسرانى ، فباشرها حتى مات دمشق .

وانفرد أخوه علاء الدين بكتابة السر الى أن مات ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شهر رمضان ، سنة تسع وستين وسبعمائة ، بمنزله من القاهرة عن سبع وخمسين سنة ، وترك ستة بنين وأربع بنات .

« بدر الدين » محمد بن على بن يحيى ابن فضل الله . ولاه الملك الأشرف شعبان بن حسين كتابة السر ، وأبوه فى مرض موته ، يوم الخميس ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة ، وله من العمر تسع عشرة سنة ، وجعل أخاه عز الدين حمزة نائبا عنه .

فباشر الى شوال سنة أربع وثمانين وسبعمائة . فصرف بأوحد الدين عبد الواحد * ابن اسماعيل بن يس ، ولزم داره فلم يره أحد ألبتة الى أن مات أوحد الدين ، فنزل اليه الأمير يونس الدوادار واستدعاه ، فركب بثياب جلوسه من غير خف ولا فرجية ولا شاش ، وصعد الى القلعة ، فخلع عليه فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ست وثمانين .

فلما ثار الأمير يلبغا الناصرى على الملك الظاهر وخلعه من الملك ، وأقام الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين ولقبه بالملك المنصور ، ثم خرج الملك الظاهر برقوق من محبسه بالكرك ، وصار الى محاربة الأمير تمربغا منطاش ومعه المنصور حاجى ، فخرج ابن فضل الله .

فلما انهزم منطاش على شقحب ، واستولى برقوق على المنصور والخليفة والقضاة والخزائن ، وكان ابن فضل الله وأخوه عز الدين فى من فر مع منطاش الى دمشق ، فأقام بها ، واستولى برقوق على تخت الملك بقلعة الجبل ، فولى علاء الدين على بن عيسى الكركى كتابة السر .

وأخذ ابن فضل الله يتحيل فى الخروج من دمشق ، وسير الى السلطان مطالعة فيها من شعره :

يقبل الأرض عبد بعد خدمتكم
قد مسه ضرر ما مثله ضرر

(*) ص٥٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

حصر وحبس وترسيم أقام به
وفرقة الأهل والأولاد والفكر

لكنه والورى مستبشرون بكم
يرجو بكم فرجا يأتى وينتظر

والشغل يقضى لأن الناس قد ندموا
اذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر

جوزوا كما فرطوا فى حقكم ورأوا
ظلما عظيما به الأكباد تنفطر

والله ان جاءهم من بابكم أحد
قاموا له معكم بالروح وانتصروا

الله ينصركم طول المدى أبدا
يامن زمانهم من دهرنا غرر

قدم الى القاهرة ، ومعه أخوه عز الدين حمزة ، وجمال الدين محمود القيصرى ناظر الجيش ، وتاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر ، وشمس الدين محمد بن الصاحب . فما زال فى داره الى أن سافر الملك الظاهر الى بلاد الشام فى سنة ثلاث وتسعين . فتقدم أمره اليه بالمسير مع العسكر فسار بطالا ، وقدر الله تعالى ضعف علاء الدين الكركى ، فولاه كتابة السر ، وصرف الكركى فى شوال .

وكانت هذه ولاية ثالثة . فباشر وتمكن هذه المرة من سلطانه تمكنا زائدا ، الى أن سافر السلطان الى البلاد الشامية فى سنة ست وتسعين ، فمات بدمشق يوم الثلاثاء لعشرين من شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ، ومات أخوه حمزة بدمشق أيضا فى أوائل المحرم سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بها .

وانقطع بموتهما هذا البيت ، فلم يبق من بعدهما الا كما قال الله سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

ومن شعر البدر محمد بن فضل الله ماكتبه عنوانا لكتاب الملك الظاهر برقوق ، جوابا عن كتاب تمرلنك الوارد الى مصر فى سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وعنوانه :

سلام واهداء السلام من البعد
دليل على حفظ المودة والعهد

فافتتح البدر العنوان بقوله :

طويل حياة المرء كاليوم فى العد
فخبرته ألا يزيد على العد

فلا بد من نقص لكل زيادة
لأن شديد البطش يقتص للعبد

وكتب فيه من شعره أيضا جوابا عن كثرة تهديد تمرلنك وافتخاره :

السيف والرمح والنشاب قد علمت
منا الحروب فسل منها تلبيكا

اذا التقينا تجد هذا مشاهدة
فى الحرب فاثبت فأمر الله آتيكا

بخدمة الحرمين الله شرفنا
فضلا وملكنا الأمصار تمليكا

وبالجميل وحلو النصر عودنا
خذ التواريخ واقرأها فتنبيكا

والأنبياء لنا الركن الشديد وكم
بجاههم من عدو راح مفكوكا

ومن يكن ربه الفتاح ناصره
ممن يخاف وهذا القول يكفيكا

وقال :

اذا المرء لم يعرف قبيح خطيئـة
ولا الذنب منـه مع عظيم بليته
فذلك عين الجهـل منه مع الخطا
وسوف يرى عقباه عنـد منيتـه
وليس يجـازى المرء الا بفعـله
وما يرجع الصياد الا بنيته *

وهذه الدار كانت موجودة قبل بنى فضل الله ، وتعرف بدار بيبرس ، فعمر فيها محيى الدين وابنه علاء الدين ، وكانت من أبهـج دور القاهرة وأعظمها .

وما زالت بيـد أولاد بدر الدين وأخيـه عز الدين حمزة الى أن تغلب الأمير جمـال الدين على أموال الخلق . فأخـذ ابن أخيـه الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب — المعروف بسيدى أحمد — ابن أخت جمال الدين دار بنى فضل الله منهم ، كما أخذ خاله دور الناس وأوقافهم ، وعوض أولاد ابن فضل الله عنها ، وغير كثيرا من معالمها .

وشرع فى الازدياد من العمارة اقتداء بخاله ، فأخذ دورا كانت بجوار مسـتوقد حمام ابن عبود المقابلة لدار ابن فضل الله ، واغتصب لها الرخام والأحجار والأخشاب ، وهدم عدة دور وكثيرا من الترب بالقرافة — منها تربة الشيخ عز الدين بن عبد السـلام ، وكانت عجيبـة البناء — وأدخل ذلك فى عمارته المذكورة ، ووسع فيها من جهة البندقانيين ما كان خرابا منذ الحريق الذى تقدم ذكره ، وأنشـأ من هناك حوض ماء يشرب منه الدواب .

فلما قارب اكمالها ، قبض الملك الناصر فرج على خاله جمال الدين يوسف أستادار وقتله ، وكان أحمد هذا ممن قبض عليه معه . فوضع الأمير تغرى بردى — وهو يومئذ أجل أمراء الناصر — يده على هـذه الدار ، وما رضى بأخذها حتى طلب كتابها ، فاذا به قد تضمن أن أحمد قد وقف هذه الدار ، فلم يزل بقضاة العصر حتى حكموا له بهذه الدار ، وجعلوها له بطريق من طرقهم ، فأقام فيها حتى أخرجه الناصر لنيـابة دمشق فى سـنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فنزل بها الأمير دمرداش .

فلما قتـل الناصر ، وقام من بعده الملك المؤيد شيخ وقبض على الأمير دمرداس ، ثارت ابنة جمال الدين — وهى امرأة أحمد المذكور ولها منه أولاد — وأرادت اسـترجاع الدار كما فعلت فى مدرسة أبيها ، وكان لها ولورثة تغرى بردى مخاصـمات ، واسـتقرت لبنى تغرى بردى .

« دار بيبرس » : هذه الدار فيما بين دار ابن فضل الله والسبع قاعات ، فى ظهر حـارة زويلة وقريبـة من سويقة المسعودى ، تشبه أن تكون من جملة اصطبل الجميزة . كانت دار الشريف بن تغلب صاحب المدرسة الشريفية برأس حارة الجودرية .

ثم عـرفت بالأميـر ركن الدين بيبـرس الجاشنكير ، فانه كان يسكنها وهو أمير قبل أن يلى السلطنة ، وجـدد رخامها من الرخام الذى دل عليه الأمير ناصر الدين محمد ، ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ،

(*) ص٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

بالقصر الذى عرف بقصر أمير سلاح من جملة قصر الخلفاء ... كما سيأتى خبر ذلك عند ذكر الخانقاه الركنية بيبرس ، فان بيبرس هذا هو الذى أنشأها .

ولم تزل الى أن هدمها ناصر الدين محمد ابن البارزى الحموى كاتب السر بعد ما اشتراها نقضا ، كما إشترى غيرها من الأوقاف وذلك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة .

« السبع قاعات » : هذه الدار عرفت بالسبع قاعات ، وهى يتوصل اليها من جوار دار بيبرس المذكورة ومن سويقة الصاحب ، وقد صارت عدة مساكن جليلة ، ومكانها من جملة اصطبل الجميزة . أنشأها الوزير الصاحب علم الدين بن زنبور ، ووقفها من جملة ما وقف . فلما قبض عليه الأمير صرغتمش حل أوقافه ، ووعد بالسبع قاعات خوند قطلوبك ابنة الأمير تنكز الحسامى نائب الشام ، أم السلطان الملك الصالح صالح ابن الناصر محمد بن قلاوون .

ولقنه الشريفان شرف الدين على بن حسين ابن محمد نقيب الأشراف وأبو العباس الصفراوى : أن الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير ، بعث الى كريم الدين من شهد عليه أن جميع ما صار بيده من الأملاك — وقفها وطلقها — انما هو من مال السلطان دون ماله ، وشهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى أملاك السلطان فأقر السلطان ما وقفه كريم الدين منها على حاله ، وسماه الوقف الناصرى .

فلما جلس السلطان الملك الصالح بدار العدل ، وحضر قاضى القضاة والأمراء وغيرهم من أهل الدولة على العادة ، تكلم الأمير صرغتمش مع قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة فى حل أوقاف ابن زنبور ، فانها ملك السلطان ومن ماله اشتراها ، وذكر قضية كريم الدين .

فأجابه بأن تلك القضية كانت صحتها مشهورة . وذلك أن خزائن السلطان وحواصله وأمواله كلها كانت بيد كريم الدين وفى داره يتصرف فيها على ما يختاره ... جعل له السلطان بتوكيله والاذن له فى التصرف . بخلاف ابن زنبور فانه كان يتصرف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر وغيره ، فما وقفه وثبت وقفه وحكم قضاة الاسلام بصحته ، لا سبيل الى حله . وساعده فى ذلك القاضى موفق الدين عبد الله الحنبلى .

وتردد الكلام بينهما فى ذلك ، فاحتج عليهما الأمير صرغتمش بما لقنه الشريفان من مشاطرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عماله ، وأخذه من كل عامل نصف ماله ، وأن مال الوزير جميعه من مال السلطان .

فقال له ابن جماعة : ياأمير ان كنت تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك ، وان كان أحد قد ذكرها لك فليحضر حتى نبحث معه فيها ، فان الذى ذكر لك هذه المسألة انما قصد أن تصادر الناس وتأخذ أموالهم . فوافقه رفقته الثلاثة قضاة على قوله .

وأراد ابن جماعة بقوله هذا التعريض بالشريفين * — وكان اختصاصهما بالأمير صرغتمش وقيامها على ابن زنبور مشهورا — فشق هذا على الأمير صرغتمش ، وانفض المجلس وقد اشتد حنقه لما رد عليه من كلامه ، وعورض فيه من مراده .

فبعثت خوند أم السلطان الى ابن جماعة تعزفه ما وعدت به من مصير السبع قاعات اليها ، وأكدت عليه فى ألا يعارضها فى حل أوقاف ابن زنبور . فأجابها بتقبيح هذا ، وخوفها سوء عاقبته . فكفت عنه .

ولقوة غيظ الأمير صرغتمش مرض مرضا شديدا من انفتاح صدره ، ونفثه الدم حتى خيف عليه الموت ، ثم عوفى بعد ذلك بأيام ، وذلك كله فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

واستمرت السبع قاعات وقفا بيد ذرية ابن زنبور الى يومنا هذا ... الا أن الأمير صرغتمش المذكور أخذ رخامها ، ووجد فيها شيئا كثيرا من صينى ونحاس وقماش وغير ذلك قد أخفى فى زواياها .

« علم الدين » عبد الله بن تاج الدين أحمد ابن ابراهيم ، المعروف بابن زنبور ، أول ما باشر به استيفاء الوجه القبلى شريكا لوهب بن سنجر ، وطلع صحبته الأمير علم الدين عبد الرزاق كاشف الوجه القبلى ونهض فيه . فلما كانت مصادرة ابن الجيعان كاتب الاصطبل ، طلب السلطان سائر الكتاب — وكان منهم ابن زنبور — فعرضهم ليختار منهم ، فشكر الفخر ناظر الجيش منه ، وقال : هو ولد تاج الدين رفيقه . وشكره الأكوز .

قلما انفض المجلس طلبه وخلع عليه . فباشر نظر الاصطبل فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، ونال فيه سعادة طائلة ، واستمر الى أن مات السلطان الملك الناصر محمد ، وحكم الأمير أيدغمش ، فباشر استيفاء الصحبة .

فلما قبض على حمال الكفاة ، ناظر الخاص وناظر الجيش ، وعلى الموفق ناظر الدولة ، وعلى الصفى ناظر البيوت — المعروف بكاتب قوصون — فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ومات حمال الكفاة فى العقوبة يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول ... عين ابن زنبور لوظيفة ناظر الخاص ، ثم قرر فيها القاضى موفق الدين هبة الله بن ابراهيم ناظر الدولة .

وكان ابن زنبور وهو مستوفى الصحبة ، قد سيره حمال الكفاة قبل القبض عليه لكشف القلاع الشامية ، ومعه جاراكتمر الصاحب ابعادا له ، وكان الأمير أرغون العلائى يعنى به . فلما قبض على حمال الكفاة ، تحدث له العلائى مع السلطان الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون فى نظر الخاص ، فبعث فى طلبه ، ثم لم يحضر الا بعد شهر ، فتحدث الوزير نجم الدين محمود بن على — المعروف بوزير بغداد — مع السلطان فى ولاية الموفق نظر الخاص ، فخلع عليه .

وحضر ابن زنبور من الشام ، فباشر نظر الدولة علم الدين بن سهلوك ، وابن زنبور على ما هى عادته فى استيفاء الصحبة ، ونهض فى المباشرة ، وحصل الأموال ، ودخل هو

(*) ص٥٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

والوزير نجم الدين ، وشكيا توقف الدولة من كثرة الانعامات والاطلاقات للخدم والجواري ومن يلوذ بهم .

فتقرر الحال مع الأمراء على كتابة أوراق بكلفة الدولة . فلما قرئت بمحضر من الأمراء ، بلغت الكلف ثلاثين ألف ألف درهم ، والمتحصل خمسة عشر ألف درهم . فأبطل ما استجد بعد موت الملك الناصر بأسره ، فلم يستمر غير شهر واحد حتى عاد الأمر على ما كان عليه ، بحيث بلغ مصروف الحوائج خاناه في كل يوم اثنين وعشرين ألف درهم ، بعدما كانت في أيام الناصر محمد ثلاثة عشر ألف درهم .

فلما مات الملك الصالح اسماعيل ، وأقيم في الملك من بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد ، صرف الموفق عن نظر الخاص ، ونقل ابن زنبور من استيفاء الصحبة اليها ، واستقر فخر الدين السعيد في استيفاء الصحبة ، وذلك في ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة . فباشر ذلك الى أخريات رجب نيفا وثمانين يوما . فولى الملك الكامل نظر الخاص لفخر الدين ابن السعيد مستوفى الدولة ، وأعاد ابن زنبور من نظر الخاص الى استيفاء الدولة .

فلما كان في المحرم سنة سبع وأربعين ، * أعيد نجم الدين وزير بغداد الى الوزارة ، وقرر ابن زنبور في نظر الدولة . فاستمر الى أن قتل الكامل شعبان ، وأقيم في الملك من بعده أخوه الملك المظفر حاجى في مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ، فطلب ابن زنبور ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقبض على فخر الدين بن السعيد وطولب بالحمل ، وأضيف اليه نظر الجيش ، فباشر ذلك الى سنة احدى وخمسين ، فأضيف اليه الوزارة في يوم الخميس سابع عشرى ذى القعدة ، وخلع عليه ، وكان له يوم عظيم جدا .

فلما كان يوم السبت ، جلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة في دست الوزارة ، واستدعى جميع المباشرين ، وطلب المقدم ابن يوسف ، وشد وسطه على ما كان عليه ، وطلب المعاملين وسلفهم على اللحم وغيره ، واستكتب المباشرين أنه لم يكن في بيت المال ولا الأهراء من الدراهم والغلال شيء ألبتة ، ودخل بها وقرأها على السلطان والأمراء .

وشرع في عرض أرباب الوظائف كلهم ، وطلب حساب الأقاليم بأسرها ، وولى صهره فخر الدين ماجد فرويته نظر البيوت ، وأنفق جامكية شهر ، وحمل الرواتب الى الدور السلطانية ، والأسمطة من السكر والزيت والقلوبات وغير ذلك ، وأقام بكتمر المومنى في وظيفة شد الدواوين ، وألزم نفسه في المجلس السلطاني بحضرة الأمراء أنه يباشر الوزارة بغير معلوم ، وقرر * ابنه في ديوان المماليك والتزم أنه لا يتناول معلوما بل يوفر المعلومين للسلطان .

وأبطل رمى الشعير والبرسيم من بلاد مصر — وكان يحصل برميها ضرر كبير ، فان ذلك كان يحصل من سائر البلاد ، فيغرم على كل اردب أكثر من ثمنه — والتزم بتكفية بيت المال من الشعير والبرسيم بغير ذلك ، فبطل

(*) ص٦٠ جـ٢ ، ط.بولاق .

على يديه ، وكتب به مرسوم . وكتب نقشا على حجر فى جانب باب القلة من قلعة الجبل ، وأمر بقياس أراضى الجيزة ، فجاء زيادتها عن الارتفاع الذى مضى ثلثمائة ألف درهم ، وعنها خمسة عشر ألف دينار .

فلم يزل الى سابع عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، فأحيط به ، وقبض عليه حسدا له على ما صار اليه ولم يجتمع لغيره فى الدولة التركية . وتولى القيام عليه الأمير صرغتمش لأنه علم أنه من جهة الأمير شيخو ، ويقوم له بجميع ما يختاره ، وأعانه عليه الأمير طاز .

وما زال يدأب فى ذلك الى أن عاد السلطان الملك الصالح من دمشق فى يوم الاثنين خامس عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة الى قلعة الجبل ، وعمل يوم الخميس سماطا مهما فى القلعة ، ولما انفض السماط ، خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء ، وعلى الوزير وسائر المباشرين .

فاتفق — لما قدره الله تعالى — أنه حضر الى الأمير صرغتمش — وهو يومئذ رأس نوبة عشر — تشريف غير تشريفه ، ودون رتبته ، فأخذه ودخل الى الأمير شيخو ، وألقى البقجة قدامه ، وقال : انظر فعل الوزير معى . وكشف الخلعة .

فقال شيخو : هذا غلط .

فقام وقد أخذه من الغضب شبه الجنون ، وقال : هذا شغل الوزير ، وأنا ما أصبر على أن أهان لهذا الحد ، ولا بد لى من القبض عليه ، ومهما شئت أنت افعل بى .

وخرج فاذا الوزير داخل لشيخو وعليه خلعة ، فصاح فى مماليكه : خذوه .

فكشفوا الخلعة عنه ، وسحبوه الى بيت صرغتمش ، وسرح مماليكه فى القبض على جميع حاشية الوزير ، فقبض على سائر من يلوذ به لأنهم كانوا قد اجتمعوا بالقلعة .

وخالطت العامة المماليك فى القبض على الكتاب ، وأخذوا منهم فى ذلك اليوم شيئا كثيرا . حتى ان بعض الغلمان صار اليه فى ذلك اليوم ست عشرة دواة من دوى الكتاب ، فلم يمكن منها أربابها الا بمال يأخذه على كل دواة ما بين عشرين الى خمسين درهما . وأما ما سلبوه من العمائم والثياب والمهاميز الفضة فشىء كثير .

وخرج الأمير قشتمر الحاجب وغيره فى جماعة الى دوره التى بالصوصة من مصر ، فأوقعوا الحوطة على حريمه وأولاده ، وختموا سائر بيوته وبيوت حواشيه — وكانوا قد اجتمعوا وتزينوا لقدوم رجالهم من السفر — وأنزل الوزير فى مكان مظلم من بيت صرغتمش .

فلما أصبح طلب ولد الوزير ، وصار به صرغتمش الى بيت أبيه ، وأحضر أمه ليعاقبه وهى تنظره حتى يدلوه على المال . ففتحوا له خزانة وجد فيها خمسة عشر ألف دينار وخمسين ألف درهم فضة ، وأخرج من بئر صندوق فيه ستة آلاف دينار وشىء من المصالح ، وحضرت أحماله من السفر ، فوجد فيها ستة آلاف دينار ومائة وخمسون ألف درهم وفضة ، وغير ذلك من تحف وثياب وأصناف .

وألزم والى مصر باحضار بناته . فنودى عليهن فى مصر والقاهرة ، وهجمت عدة دور بسببهن . ونال النـاس من نكاية أعدائهم فى هذه الكائنة كل غرض ، فانه كان الرجـل يتوجه الى أحد من جهة صرغتمش ، ويرمى عدوه بأن عنده بعض حواشى ابن زنبـور ، فيؤخذ بمجرد التهمة . ولقى الناس من ذلك بلاء عظيما .

ثم حمل الى داره وعرى ليضرب ، فدل على مكان استخرج منه نحو من خمسة وستين ألف دينار ، فضرب بعد ذلك ، وعريت زوجتـه ، وضرب ولده فوجد له شىء كثير الى الغاية .

قال الصفدى خليل بن أيبك ، الملقب صلاح الدين ، فى كتاب « أعيان العصر » : وأما ما أخذ منه فى المصادرة فى حال حياته ، فنقلت من خط الشيخ بدر الدين الحمصى فى ورقة بخطه ، على ما أملاه القاضى شـمس الدين محمد البهنسى :

أوانى ذهب وفضة ستون قنطارا ، جـوهر ستون رطلا ، لؤلؤ اردبان ، ذهب مصـكوك مائتا ألف وأربعة آلاف دينار ضمن صندوق ، ستة آلاف حياصة ضمن صـناديق ، زركش ستة آلاف كلوتة ، ذخائر عدة ، قماش بدنة ألفان وستمائة فرجية ، بسط ••• ••• آلاف صنجة ، دراهم خمسون ألف درهم ، شاشات ثلثمـائة شاش ، دواب عاملة سـبعة آلاف حلابة ، ستة آلاف خيل وبغال ألف ، دراهم ثلاثة أرادب ، معاصر سكر خمس وعشرون معصرة ، اقطاعات سبعمائة كل اقطاع خمسة وعشرون ألف درهم ، عبيـد مائة ، خـدام ستون ، جوارى سبعمائة ، أملاك القيمة عنها ثلثمائة ألف دينار ، مراكب سبعمائة ، وخام القيمة عنه مائتا ألف درهم ، نحاس قيمتـه أربعة آلاف دينار ، سروج وبدلات خمسمائة ، مخازن ومتاجر أربعمائة ألف دينـار ، نطوع سبعة آلاف ، دواب خمسـمائة ، بسـاتين مائتان ، سواقى ألف وأربعمائة .

وكان فى وقت القبض عليه أشد الناس قياما فى افساد صورته الشريف شرف الدين على بن الحسين نقيب الأشراف ، والشريف أبو العباس الصفراوى ، وبدر الدين ناظر * الخـاص ، وأمين الدين ، والصـواف ، وأستادار الأمير صرغتمش .

فأول ما فتحـوه من أبواب المـكايد أن حسنوا لصرغتمش أن يأمره بالاشهاد عليـه ، أن جميع ما له من الأملاك والبساتين والأراضى الوقف والطلق ، جميعها من مال السلطان دون ماله ، فصير اليه ابن الصدر عمر وشـهود الخزانة ، فأشهد عليه بذلك .

ثم كتبوا فتيا فى رجل يدعى الاسلام ويوجد فى بيته كنيسة وصلبان وشخوص من تصاوير النصارى ولحم الخنزير ، وزوجته نصرانية ، وقد رضى لها بالكفر وكذلك بناته وجواريه ، وانه لا يصلى ولا يصوم ونحو ذلك . وبالغوا فى تحسين قتله حتى قالوا لصرغتمش : والله لو فتحت جزيرة قبرص ، ما كتب لك أجـر من الله بقدر ما يؤجرك الله على ما فعلتـه مع هذا .

فأخرج فى باشا وزنجير ، وضرب فى رحبة قاعة الصاحب من القلعة بالمقارع ، وتوالت

(*) ص٦١ جـ٢ ، ط. بولاق .

عقوبته ، وأسلم لشاد الدواوين لبعاقبه حتى يموت .

فقام الأمير شيخو فى آمره ، فرده صرغتمش الى داره وأكرمه ، وأقام عنده الى سابع عشرى المحرم سنة أربع وخمسين ، فأخرجه من داره ، وتسلمه شاد الدواوين ، وعاقبه عقوبة الموت فى قاعة الصاحب .

فاتفق ركوب الأمير شيخو من داره الى القلعة وابن زنبور يعاقب ، فغضب من ذلك ووقفه ومنع من ضربه . وبلغ الخبر صرغتمش فصعد الى القلعة ، وجرى له مع شيخو عدة مفاوضات كادت تفضى الى فتنة ، وآل الأمر فيها الى تسفير ابن زنبور الى قوص ، فأخرج من ليلته . وكانت مدة شدته ثلاثة أشهر .

وأقام بمدينة قوص الى أن عرض له مرض أقام به أحد عشر يوما ، ومات يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وله بالقاهرة السبيل الذى على يسرة من دخل من باب زويلة بجوار خزانة شمائل ، وقد دخل فى الجامع المؤيدى .

« دار الدوادار » : هذه الدار فيما بين حارة زويلة واصطبل الجميزة ، وهى اليوم من جملة خط السبع قاعات عرفت ... ...

« دار فتح الله » : هذه الدار اليوم بخط سويقة المسعودى . كان موضعها زقاقا يعرف بزقاق البنادة ، وفيه باب قاعة أنشأها سعد الدين ابراهيم بن عبد الوهاب بن النجيب أبى الفضائل الميمونى ، أحد مباشرى ديوان الجيش . وهى قاعة فى غاية الملاحة من جودة رخام وكثرة دهان وحسن ترتيب .

ومات الميمونى فى ثانى ذى الحجة سنة خمس وتسعين وسبعمائة ، فسكنها فتح الله ابن معتصم وهو يومئذ رئيس الأطباء . فلما ولى كتابة السر شره الى العمارة ، فأخذ ما فى الزقاق المذكور من الدور شيئا بعد شىء ، وأخرج منها سكانها وهدمها ، وابتنى قاعة تجاه قاعة الميمونى ، وجعل فيها بئرا وفسقية ماء ، وبنى بها حماما ، ثم أنشأ اصطبلا كبيرا لخيوله .

ولم يقنع بذلك حتى حمل القضاة على الحكم له باستبدال دار الميمونى — وكانت وقفا على أولاد الميمونى ، ومن بعدهم على الحرمين — فعمل له طرق فى جواز الاستبدال بها ، على ما صار القضاة يعتمدونه منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة .

فلما تم حكم القضاة له بتملكها غير بابها ، وزاد فى سعتها ، وأضاف اليها عدة مواضع مما كان بجوارها ، وغرس فى جانبها عدة أشجار ، وزرع كثيرا من الأزهار التى حملت اليه من بلاد الشام ، وبالغ فى تحسين رخام هذه الدار .

وأنشأ دهيشة كيسة الى الغاية ، بوسطها فسقية ماء ينخرط اليها الماء من شاذوران عجيب الصنعة بهج الزى ، وتشرف هذه الدهيشة على هذه الجنينة التى أبدع فيها كل الابداع . وركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة ، وبنى بجوارها عدة مساكن لمماليكه ، ومسجدا معلقا كان يصلى فيه وراء امام راتب قرره له بمعلوم جار . فجاءت هذه الدار من أجل دور القاهرة وأبهجها .

ووقفه ذلك كله مع أشياء غيرها على تربته التى أنشأها خارج باب البرقية ، وعلى عدة جهات من البر . فلما نكب أكره حتى رجع عن وقف هذه الدار على ما عينه فى كتاب وقفه ، وجعلها وقفا على أولاد السلطان الملك المؤيد شيخ ، فلما مات المؤيد عاد ذلك الى وقف فتح الله .

« فتح الله » : ابن معتصم بن نفيس الاسرايلى الدوادى العنانى التبريزى ، رئيس الاطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز فى سنة تسع وخمسين وسبعمائة . وكان قد قدم جده نفيس الى القاهرة فى سنة أربع وخمسين ، فأسلم وعظم بين الناس .

ثم قدم فتح الله مع أبيه ، فنشأ بالقاهرة فى كفالة عمه ، ونظر فى الطب ، وعاشر الفقهاء ، واتصل بصحبة بعض الأمراء ، فعرفه منه أحد مماليكه ، وكان يسمى بشيخ ، فلما تأمر شيخ قربه وأنكحه أمة ، وفوض اليه أمر ديوانه .

ثم مات عمه بديع بن نفيس ، فأقره الملك الظاهر برقوق مكانه فى رياسة الأطباء . فباشرها مباشرة مشكورة ، واختص بالملك الظاهر برقوق اختصاصا كبيرا ، فلما مات بدر الدين محمود الكلستانى قلده وظيفة كتابة السر ، وخلع عليه فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة احدى وثمانمائة ، ومات الظاهر ، وقد جعله أحد أوصيائه . فما زال الى أوائل ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة ، فقبض عليه ، واستقر بدله فى كتابة السر سعد الدين ابراهيم بن غراب ، وضرب حتى حمل مالا ، ثم أفرج عنه ، فلزم داره * الى شهر رمضان ، فحمل الى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب ، وألزم بمال آخر فحمله وأطلق .

فقام الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أمره ، وما زال بالملك الناصر فرج الى أن أعاده الى كتابة السر فى أوائل ذى الحجة . فاستقر فيها وتمكن من أعدائه ، وأراه الله مصارعهم ، واتسعت أحواله ، وانفرد بسلطانه وأنيط به جل الأمور . فأصبح عظيم المصر ، نافذ الأمر ، قائما بتدبير الدولة ، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدا من حسن سفارته ، وأبدى للناس دينا وخيرا وتواضعا وحسن وساطة بين الناس وبين السلطان .

فلما كان من أمر الناصر وهزيمته على اللجون ما كان ، وقع فتح الله مع الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد المتوكل على الله ، وعدة من كتاب الدولة ، فى قبضة الأمير ابن شيخ ونوروز ، وما زال عندهما حتى قتل الناصر ، وأقيم من بعده أمير المؤمنين المستعين بالله ، وهو على حاله من نفوذ الكلمة وتدبير الأمور .

فلما استبد الأمير شيخ بمملكة الديار المصرية ، واعتقل الخليفة ، وتلقب بالملك المؤيد شيخ فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، أقر فتح الله على رتبته . ثم قبض عليه يوم الخميس تاسع شوال ، وعوقب غير مرة ، وأحيط بجميع أمواله وأسبابه وحواشيه ، وبيع عليه بعض ما وجد له ، وحمل ما تحصل منه فبلغ ما ينيف عن أربعين ألف دينار سوى ما أخذ مما لم يبع وهو ما يجاوز ذلك .

(*) ص٦٢ ج٢ ، ط. بولاق .

وما زال في العقوبة الى أن خنق في ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع سنة ست عشرة وثمانمائة ، وحمل من الغد الى تربته فدفن بها .

وكان رحمه من خير أهل زمانه رياضة وديانة ، وطيب مقال وتأله وتنسك ، ومحبة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسن قيام مع السلطان في أمر الناس ، وبه كفى الله عن الناس من شر الناصر فرج شيئا كثيرا . وقد ذكرته بأبسط من هذا في كتابي « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » وفي كتابي « خلاصة التبر في أخبار كتابة السر » .

« دار ابن قرقة » : هذه الدار من الدور القديمة ، وهي بخط سويقة المسعودي الى خط بين السورين ، وقد تغيرت معالمها .

قال ابن عبد الظاهر : دار ابن قرقة هي الآن سكن الأمير صارم الدين المسعودي والي القاهرة ، بأول حارة زويلة من جهة باب الخوخة على يسرة السالك الى داخل الحارة ، وهي معروفة اليوم ، والى جانبها الحمام المعروفة بابن قرقة أيضا .

وهذه الدار والحمام أنشأهما أبو سعيد بن قرقة الحكيم ، وباعهما في حال مصادرته مما خرج عليه ، فابتاعهما منه علم السعداء ، ثم سكنها الكامل بن شاور ، وهما من جهة الخليج . انتهى .

وهذه الدار والحمام قد هدمتا ، وصار موضع الدار الجامع المعروف بجامع ابن المغربي برأس سويقة الصاحب وما يجاوره من دور ابن أبي شاكر ، وآخر ما بقي منها شيء هدمه الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرحيم ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن تاج الدين موسى بن أبي شاكر في رمضان سنة أربع وتسعين وسبعمائة .

و «ابن قرقة» هذا كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح ، وكان ماهرا في علم الطب والهندسة ونحو ذلك من علوم الأوائل . وقتله الخليفة الحافظ لدين الله من أجل أنه دبر السم لابنه حسن بن الحافظ ، عندما ثار الجند وطلبوا من الخليفة قتل ابنه حسن كما تقدم ذكره ، فلما سكنت الدهماء قبض عليه الخليفة ، واعتقله بخزانة البنود ، وقتله في سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

« دار خوند » : هذه الدار من حقوق حارة زويلة . عرفت بالست الجليلة خوند أردوتكين ابنة نوغية السلاح دار الططري . تزوج بها الملك الأشرف خليل بن قلاوون ومات عنها ، فتزوجها من بعده أخوه الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وولدت منه ولدين وماتا ، ثم طلقها ونزلت من القلعة ، فسكنت هذه الدار ، وأنشأت لها تربة بالقرافة تعرف الآن بتربة الست ، وجعلت لها عدة أوقاف .

وكانت من الخير على جانب عظيم ، لها معروف وصدقات واحسان عميم ، وماتت ولها ما ينيف على الألف ما بين جارية وخادم أعتقتهم كلهم ، وخلفت أموالا تخرج عن الحد في الكثرة ، وكانت وفاتها في ليلة السبت ثالث عشرى المحرم سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، ودفنت بتربتها .

فتقدم أمر السلطان للأمراء والقضاة لشهود جنازتها ، وحمل ما تركته من الأموال

والجواهر . وطلب أخوها جمال الدين خضر ابن نوغية ، وصولح على ارثه منهـا بمـائة وعشرين ألف درهم ، عنها يومئذ سبعة آلاف دينار .

ولم تزل هذه الدار الى أن هدمت . فأخذها الأمير صلاح الدين محمد ، أستادار السلطان ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ، فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمـانمائة ، وأدخلها فى داره التى أنشـأها ، فجاءت من أجل دور القاهرة .

« دار الذهب » : هذه الدار خارج القاهرة فيما بين باب الخوخة وباب سـعادة . بناها الأفضل أبو القاسم شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي . وكان فيمـا بين باب القنطرة وباب الخوخة منظرة اللؤلؤة التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء ، ويجـاورها من حيز باب الخوخة دار الفـلك ، وبنـاها فلك الملك * أحد الأستاذين الحاكمية ، ويلاصقها دار الذهب هذه ، ويجاور دار الذهب دار الشابورة .

ودار الذهب عرفت أخيرا بدار الأمير بهادر الأعسر شـاد الدواوين ، ثم الآن عرفت بدار الأمير الوزير المشير الأستادار فخر الدين عبد الغنى ابن الأمير الوزير الأستادار تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأرمني الأصل ، وعنى بها ، وهدم كثيرا من الدور التى كانت تجاهها على بر الخليج الشرقي ، وأنشأ هنـاك دارا يتطرق اليها من هذه الدار بسـاباط ، وأنشأ بجوارها جامعه الآتى ذكره وحمامه .

ثم هدم كثيرا من الدور التى كانت عـلى الخليج ، وما وراءها بتلك الأحكار التى فى الجانب الغربى من الخليج ، وغرس فى أراضى تلك الدور الأشجار ، وجعلها بسـتانا تجـاه داره ، فمات قبـل أن تكمل ، وصـار أكثر مواضع الدور التى خربها هناك كيمانا .

« دار الحاجب » خارج باب النصر تجـاه مصلى الأموات : هذه الدار أنشـأها الأمير سـيف الدين كهرداش المنصـورى ، أحـد المماليك الزراقين ، وهو الذى فتـح جزيرة أرواد فى المراكب المتوجهة الى بلاد الفرنج ، وتولى عمارة مئذنة المدرسـة المنصـورية لما تهدمت فى الزلزلة ، وتقـدم وكثرت أمواله ، ومات بدمشق فى سنة أربع عشرة وسبعمائة .

فاشـترى هذه الدار الأمير سـيف الدين بكتمر الحاجب ، ولم تزل بها ذريته من بعـد الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر والأمير ناصر الدين محمد بن عبـد الله ، وبها الآن ولدا الأمير ناصر الدين ، وهمـا الأمير على وعبد الرحمن . وما برح هذا البيت فيه الامرة والسعادة .

«بكتمر الحاجب» الأمير سيف الدين : كان أميراخور ، ثم ولى شد الدواوين بدمشـق فى نيابة الأفرم ، ولم يكن لأحد معه كلام فى عزل ولا ولاية ، ثم ولى الحجوبية .

وتوجه الى صفد كاشفا على الأمير ناهض الدين عمر بن أبى الخير ، والى الولاة وشـاد الدواوين بها ، ومعه معين الدين بن حشيش ، فحرر الكشف ، ورفعه حتى قال فيـه زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد :

(*) ص٦٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ياقاصدا صفدا فعد عن بلدة
من جور بكتمر الأمير خراب

لا شافع تغنى شفاعته ولا
جان له مما جناه متاب

حشر وميزان ونشر صحائف
وجرائد معروضة وحساب

وبها زبانية تحث على الورى
وسلاسل ومقامع وعقاب

ما فاتهم من كل ما وعدوا به
فى الحشر الا راحم وهاب

ولما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك الى دمشق ولاه الحجوبية ، ودخل فى خدمته الى مصر وهو حاجب ، ثم أخرجه ثانيا نائبا الى غزة فى سنة عشر وسبعمائة فأقام بها قليلا ، وطلبه وولاه الوزارة بالديار المصرية ، عوضا عن الصاحب فخر الدين بن الخليلى ، فى رمضان سنة عشر ، فباشر الوزارة الى أن قبض عليه مستهل ربيع الأول سنة خمس عشرة ، واعتقل مدة سنة ونصف ، وأخذ كثير من ماله .

ثم أفرج عنه وأخرج الى صفد نائبا فى سنة ست عشرة ، وأنعم عليه بمائة ألف درهم : عنها يومئذ خمسة آلاف دينار ، فأقام بها عشرة أشهر ، وطلب الى مصر فصار من الأمراء المشهورة ، فاذا تكلم السلطان فى المشورة لا يرد عليه غيره لما عنده من المعرفة والخبرة ، وتزوج بابنة الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك وأولاده الذين ذكرنا منها .

وسرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار ادعى أنه مبلغ مائتى ألف درهم ، وكان فى الباطن — على ما قيل — سبعمائة ألف درهم ، فما جسر يتفوه خوفا من السلطان .

وكان اذ ذاك والى القاهرة الأمير سيف الدين قدادار ، المنسوب اليه القنطرة على الخليج ، فتقدم أمر السلطان اليه يتتبع من سرق المال .

فدس اليه الأمير بكتمر الساقى والوزير مغلطاى الجمالى والقاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السر ، أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر ، وأخذوا يحتجون لكل من اتهم ، ويقولون للسلطان : لعن الله ساعة هذه العملة ، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدة ، والى متى يقتل المتهم الذى لا ذنب له .

فلما طال الأمر شكا بكتمر الى السلطان فى دار العدل ، فأحضر الوالى ونسبه السلطان ، فقال : ياخوند ، اللصوص الذين أمسكتهم وعاقبتهم أقروا أن سيف الدين بخشى خازنداره اتفق معهم على أخذ المال وجماعة من ألزامه الذين فى بابه .

فقال السلطان للجمالى الوزير : احضر هؤلاء المذكورين وعاقبهم .

فأخذ بخشى وعصره — وكان عزيزا عند بكتمر ، قد زوجه بابنته ، وهو يشق بعقله ودينه وأمانته — فشق ذلك عليه ، واغتم غما شديدا مات منه فجأة فيما بين الظهر الى العصر من يومه سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وكان خبيرا بالأمور ، بصيرا بالحوادث ، طويل الروح فى الكلام ، لا يمل من تطويله ولو قعد فى الحكم الواحد بين الأمير

واليهودى ثلاثة أيام ، ولا يلحقه من ذلك سآمة ألبتة ، مع معرفة تامة وخبرة بالسياسة ... لم ير مثله فى حق أصحابه لكثرة تذكرهم فى غيبتهم ، والفكر فى مصالحهم * ، وتفقد أحوالهم ، ومن جفاه منهم عتب عليه .

وكان سمحا بجاهه ، بخيلا بماله الى الغاية ، ساقط الهمة فى ذلك ، وله متاجر وأملاك وسعادة لا تكاد تنحصر . ومع ذلك فله قدور يكريها لصلاقى الفول والحمص ، وغير ذلك من العدد والآلات ، ويماحك على أجرها مماحكة يستحى من ذكرها ، وأنشأ عدة دور ، واقتنى كثيرا من البساتين .

وولى من بعده ابنه الأمير جمال الدين عبد الله الامرة ، وكان حاجبا ، ولأبيه فى سيرة البخل والحرص الشديد تابعا ومقلدا ، وتولى امرة الحاج غير مرة . وخرج فى سنة ست وثمانين وسبعمائة من القاهرة لولاية كشف الجسور بالغربية ، فورد عليه كتاب السلطان الملك الظاهر برقوق بالانكار وفيه تهديد مهول ، فداخله الخوف ومرض ، فحمل فى محفة الى القاهرة ، فدخلها يوم الأربعاء النصف من جمادى الأولى من تلك السنة ، فمات من يومه ، وأخذ اقطاعه الأمير يودى .

وصار ابنه ناصر الدين أحد الأمراء العشراوات ، سالكا طريق أبيه وجده فى الامساك ، الى أن مات خامس عشرى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة ، ودفن بتربتهم خارج باب النصر .

« دار الجاولى » : هذه الدار من جملة الحجر التى تقدم ذكرها ، وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى .

وعرفت فى زماننا بقاعة البغادة ، لسكنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو وأولاده فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة الى بعد سنة ست عشرة وثمانمائة . وهى من الدور الجليلة ، الا أنها قد تشعثت لطول الزمن .

« دار أمير أحمد » : هذه الدار بجوار دار الجاولى من غربيها . عرفت بأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعرفت فى زماننا بسكن أبو ذقن ناظر المواريث .

وهى من جملة ما اغتصبه جمال الدين يوسف الأستادار من الدور الوقف ، وجعلها لأخيه شمس الدين محمد البيرى قاضى حلب وشيخ الخانقاه البيبرسية ، فغير بابها وشرع فى عمارتها ، فقبض عليه عند القبض على أخيه وهو بها .

« دار اليوسفى » : هذه الدار بجوار باب الجوانية فيما بينها وبين الحوض المعد لشرب الدواب . أنشأها هى والحوض الأمير سيف الدين بهادر اليوسفى السلاح دار الناصرى .

« دار ابن البقرى » : هذه الدار أنشأها الوزير الصاحب سعد الدين سعد الله بن البقرى ، ابن أخت القاضى شمس الدين شاكر ابن غزيل البقرى صاحب المدرسة البقرية . أظهر الاسلام ، وباشر فى الخدم الديوانية الى أن ولاه الملك الظاهر برقوق وظيفة نظر

(*) ص٦٤ جـ٢ ، طـ بولاق .

الديوان المفرد ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس ، فى ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة . فباشر ذلك الى تاسع شهر رمضان سنة خمس وثمانين ، فقبض عليه .

ونزل الأمير يونس الدوادار والأمير قرقماس الخازندار الى داره هذه ، وأحاط بها ، وأخذ جميع ما فيها من المال والثياب والأوانى والحلى والجوارى وغير ذلك ، وحمل الى القلعة ، فبلغ قيمة ما وجد بداره فى هذه النوبة مائتى ألف دينار .

وسلم ابن البقرى لشاد الدواوين بقاعة الصاحب من القلعة ، فضرب بالمقارع نيفا وثلاثين شيبا ، وولى موفق الدين أبو الفرج نظر الخاص .

ثم ان الملك الظاهر لما عاد الى المملكة — بعد ثورة الأمير يلبغا الناصرى والأمير تمربغا منطاش عليه ، وخلعه من الملك وسجنه بالكرك ، ثم قيامه بأهل الكرك ودخوله الى القاهرة ، وعوده الى المملكة — ولى ابن البقرى الوزارة فى يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، عوضا عن موفق الدين أبى الفرج ، ثم صرف فى يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان ، وأعيد الوزير أبو الفرج ، وأحيط بدور ابن البقرى ، وأسلم هو وابنه تاج الدين عبد الله الى الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آض .

فلما استقر الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى فى الوزارة يوم الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة منها ، عوضا عن الوزير أبى الفرج ، اشترط على السلطان أمورا منها استخدام الوزراء المعزولين . فجلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة ، وبعث الى من بالقاهرة من الوزراء المعزولين ، وهم شمس الدين عبد الله المقسى ، وعلم الدين عبد الوهاب بن الطنساوى المعروف بسن ابرة ، وسعد الدين سعد الله بن البقرى ، وموفق الدين أبو الفرج ، وفخر الدين عبد الرحمن ابن عبد الرزاق بن ابراهيم بن مكانس .

فأقر المقسى وسن ابرة معا فى نظر الدولة ، وأقر ابن البقرى ناظر البيوت ومستوفى الدولة ، وقرر أبا الفرج فى استيفاء الصحبة ، وابن مكانس فى استيفاء الدولة شريكا لابن البقرى .

فكانوا يركبون فى خدمته دائما ، ويجلسون بين يديه ، وربما وقف ابن البقرى على قدميه بحضرته ، بعد أن كان ابن الحسام دواداره ، ولا يزال قائما بين يديه . فعد الناس هذا من أعظم المحن التى لم يشاهد فى الدولة التركية مثلها ، وهو أن يصير الرجل خادما لمن كان فى خدمته ، فنعوذ بالله من المحن .

ثم ان الوزير ابن الحسام قبض على ابن البقرى ، وألزمه بحمل سبعين ألف درهم . ثم أعيد الى الوزارة بعد القبض على الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن عبد الله بن موسى ابن أبى بكر بن أبى شاكر فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين ، وقبض عليه وعلى ولده فى حادى عشرى شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ، وسلما مع عدة من الكتاب لشاد الدواوين ، ثم أفرج عنهما على حمل مال .

(*) ص٦٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما ولى الأمير ناصر الدين محمد بن رجب ابن كلفت الوزارة ، بعد الوزير أبى الفرج ، قرر ابن البقرى فى نظر الدولة عوضا عن بدر الدين الأقفهسى ، واستخدم بقية الوزراء كما فعل الوزير ابن الحسام . فلما خلع السلطان على الأمير ناصر الدين محمد بن تنكز ، وجعله أستادار الأملاك فى رجب سنة سبع وتسعين ، قرر ابن البقرى ناظر الأملاك وخلع عليه ، فصار يتحدث فى نظر الدولة ونظر الأملاك .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب سنة ثمان وتسعين ، أعيد الى الوزارة ، وصرف عنها الأمير مبارك شاه ناظر الظاهرى ، واستقر بدر الدين محمد بن محمد الطوخى فى نظر الدولة . ثم قبض عليه فى يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة تسع وتسعين ، وأحيط بسائر ما قدر عليه من موجوده ، وولى الوزارة بعده ابن الطوخى ، وعوقب عقابا شديدا فى دار الأمير علاء الدين على بن الطبلاوى .

ثم أخرج نهارا — وهو عار مكشوف الرأس ، وبيده حبل يجر به ، وثيابه مضمومة بيده الأخرى ، والناس تراه — من درب قراصيا برحبة باب العيد فى السوق الى دار ابن الطبلاوى ، وقد انتهك بدنه من شدة الضرب ، فسجن بدار هناك ، ثم خنق فى ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وسبعمائة .

وكان أحد كتاب الدنيا الذين انتهت اليهم السيادة فى كتابة الرسوم الديوانية ، مع عفة الفرج ، وجودة الرأى ، وحسن التدبير ... الا أنه لم يؤت سعدا فى وزارته ، وما برح ينكب كل قليل ، وكان يظهر الاسلام ، ويكتب بخطه كتب الحديث وغيرها ، ويتهم فى باطن الأمر بالتشدد فى النصرانية .

وولى ابنه تاج الدين عبد الله الوزارة ، ونظر الخاص ، ومات قتيلا تحت العقوبة عند الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى سنة ثمان وثمانمائة .

ودار ابن البقرى هذه من أعظم دور القاهرة ، وهى من جملة خط حارة الجوانية فى أولها .

« دار طولباى » : هذه الدار بجوار حمام الأعسر ، برأس حارة الجوانية ، تجاه درب الرشيدى . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير ، ثم عرفت بخوند طولباى الناصرية جهة الملك الناصر .

« طلنباى » — ويقال دلبية ، ويقال طلوبية — ابنة طفاجى بن هندر بن بكر بن دوشى خان ابن جنكز خان ، ذات الستر الرفيع الحانوتى .

كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد جهز الأمير أيدغدى الخوارزمى فى سنة ست عشرة وسبعمائة ، يخطب الى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية .

فجمع أزبك أمراء التومانات — وهم سبعون أميرا — وكلمهم الرسول فى ذلك ، فنفروا منه . ثم اجتمعوا ثانيا ، بعد ما وصلت اليهم هداياهم ، وأجابوا ثم قالوا : الا أن هذا لا يكون الا بعد أربع سنين : سنة سلام ، وسنة خطبة ، وسنة مهاداة ، وسنة زواج ، واشتطوا فى طلب المهر . فرجع السلطان عن الخطبة .

ثم توجه سيف الدين طوخى بهدية وخلعة لأزبك ، فليسها وقال لطوخى : قد جهزت لأخى الملك الناصر ما كان طلب ، وعينت له بنتا من بيت جنكز خان من نسل الملك باطر خان .

فقال طوخى : لم يرسلنى السلطان فى هذا .

فقال أزبك : أنا أرسلها اليه من جهتى .

وأمر طوخى بحمل مهرها ، فاعتذر بعدم المال ، فقال : نحن نقترض من التجار . فاقترض عشرين ألف دينار وحملها .

ثم قال : لا بد من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين . فاقترض مالا آخر نحو سبعة آلاف دينار ، وعمل الفرح .

وجهزت الخاتون « طلنباى » ومعها جماعة من الرسل ، وهم : بابنجار من كبار المغل ، وطقبغا ، ومنعوش ، وطرحى ، وعثمان ، وبكتمر ، وقرطبا ، والشيخ برهان الدين امام الملك أزبك ، وقاضى حراى .

فساروا فى زمن الخريف ، وأقلعوا فلم يجدوا ريحا تسير بهم ، فأقاموا فى بر الروم على مينا ابن مشتا خمسة أشهر ، وقام بخدمتهم هو والأشكرى ملك قسطنطينية ، وأنفق عليهم الأشكرى ستين ألف دينار ، فوصلوا الى الاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة .

فلما طلعت الخاتون من المراكب ، حملت فى خركاة من الذهب على العجل ، وجرها المماليك الى دار السلطنة بالاسكندرية .

وبعث السلطان الى خدمتها عدة من الحجاب وثمانى عشرة من الحرم ونزلت فى الحراقة ، فوصلت الى القلعة يوم الاثنين خامس عشرى ربيع الأول المذكور ، وفرش لها بالمناظر فى الميدان دهليز أطلس معدنى ، ومد لهم سماط .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه ، أحضر السلطان رسل أزبك ، ووصل رسل ملك الكرج ورسل الأشكرى بتقادمهم . ثم بعث الى الميدان الأمير سيف الدين أرغون النائب والأمير بكتمر الساقى والقاضى كريم الدين ناظر الخاص ، فمشوا فى خدمة الخاتون الى القلعة وهى فى عز .

ثم عقد عليها يوم الاثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار ، حالة المعجل منها عشرون ألفا ، وعقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة ، وقبل عن السلطان * النائب آرغون وبنى عليها .

وأعاد الرسل بعد أن شملهم من الانعام ما أربى على أملهم ، ومعهم هدية جليلة ، فساروا فى شعبان ، وتأخر قاضى حراى حتى حج ، وعاد فى سنة احدى وعشرين .

وماتت فى رابع عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وسبعمائة ، ودفنت بتربتها خارج باب البرقية بجوار تربة خوند طغاى أم أنوك .

« دار حارس الطير » : هذه الدار بداخل درب قراصيا بخط رحبة باب العيد . عرفت بالأمير سيف الدين سنبغا حارس الطير . ترقى فى الخدم الى أن صار نائب السلطنة بديار

(*) ص٦٦ ج٢ ، ط. بولاق .

مصر فى أيام السلطان حسن بن محمد بن قلاوون بعد يلبغا روس .

ثم عزل بالأمير قبلاى ، وجهز الى نيابة غزة فأقام بها شهرا ، وقبض عليه وحضر مقيدا الى الاسكندرية فى شعبان سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ، فسجن بها مدة . ثم أخرج الى القدس ، فأقام بطالا مدة ، ثم نقل الى نيابة غزة فى شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة .

« الدار القردمية » : هذه الدار خارج باب زويلة بخط الموازيين من الشارع المسلوك فيه الى رأس المنجبية . بناها الأمير ألجاى الناصرى مملوك السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

وكان من أمره أنه ترقى فى الخدم السلطانية حتى صار دوادار السلطان بغير امرة ، رفيقا للأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار . فلما مات بهاء الدين ، استقر مكانه بامرة عشرة مدة ثلاث سنين ، ثم أعطى امرة طبلخاناه .

وكان فقيها حنفيا ، يكتب الخط المليح ، ونسخ بخطه القرآن الكريم فى ربعة ، وكان عفيفا عن الفواحش ، حليما لا يكاد يغضب ، مكبا على الاشتغال بالعلم ، محبا لاقتناء الكتب ، مواظبا على مجالسة أهل العلم .

وبالغ فى اتقان عمارة هذه الدار بحيث انه أنفق على بوابتها خاصة مائة ألف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الخمسة آلاف مثقال من الذهب . فلما تم بناؤها لم يمتع بها غير قليل ، ومرض فمات فى أوائل شهر رجب — وقيل فى رمضان — سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وهو كهل ، فدفن بقرافة مصر .

فسكنها من بعده خوند عائشة خاتون — المعروفة بالقردمية — ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون زمانا فعرفت بها . وكانت هذه المرأة ممن يضرب بغناها وسعادتها المثل ، الا أنها عمرت طويلا ، وتصرفت فى مالها تصرفا غير مرضى ، فتلف فى اللهو حتى صارت تعد من جملة المساكين . وماتت فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، ومخدتها من ليف .

ثم سكن هذه الدار الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار مدة ، وأنشأ تجاهها مدرسة .

« دار الصالح » : هذه الدار بحارة الديلم قريبا من السجن ، وكانت دار الصالح طلائع ابن رزيك يسكنها وهو أمير قبل أن يلى الوزارة ، بناها فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة . وما زالت باقية الى أن خربها الأمير الوزير ركن الدين عمر بن محمد بن قايماز فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وبناها على ما هى عليه الآن .

« دار بهادر » : هذه الدار بالقاهرة جوار المشهد الحسينى ، فى درب جرجى المقابل للأبارين المسلوك منه الى دار الضرب وغيره . أنشأها الأمير بهادر رأس نوبة ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، واتفق أنه كان ممن مالأ الأمير بدر الدين بيدرا على قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون . فلما قدر الله بانتقاض أمر بيدرا ، وقتله ، واقامة الملك

الناصر محمد بن قلاوون بعد أخيه الأشرف خليل ، قبض على جماعة ممن وافق على قتل الملك الأشرف خليل .

وقد تجمعت المماليك الأشرفية مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وهو يومئذ وزيرا لديار مصر ، فى دار النيابة من قلعة الجبل عند الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة ، واذا بالأمير بهادر المذكور قد حضر هو والأمير جمال الدين آقوش الموصلى الحاجب المعروف بنميلة — وكانا قد اختفيا فرقا من سطوة الأشرفية حتى دبر أمرهما النائب ، وأذن لهما فى طلوع القلعة — فما هو الا أن أبصرهما الأشرفية حتى سلوا سيوفهم ، وضربوا رقبتيهما فى أسرع وقت . فدهش الحاضرون ، وما استطاعوا أن يتكلموا خوفا من الأشرفية .

واتفق فى بناء هذه الدار ما فيه عبرة لمن اعتبر . وذلك أن بهادر هذا لما حفر أساسها وجد هناك قبورا كثيرة ، فأخرج تلك العظام ورماها . فبلغ ذلك قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد ، فبعث اليه ينهاه عن نبش القبور ورمى العظام ، ويخوفه عاقبة ذلك .

فقال : اذا مت يجروا رجلى ويرمونى .

فقال القاضى لما أعيد عليه هذا الجواب : وقد يكون ذلك .

فقدر الله أنه لما ضربت رقبته ورقبة أقوش ، ربط فى رجليهما حبل ، وجرا من دار النيابة بالقلعة الى المجاير والكيمان . نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء .

ثم عرفت هذه الدار ببيت الأمير جركتمر ابن بهادر المذكور . وكان خصيصا بالأمير قوصون ، فبعثه لقتل السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لما نفاه الى مدينة قوص بعد خلعه ، فتولى قتله . فلما قبض على قوصون ، قبض على جركتمر فى ثانى شعبان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وقتل بالاسكندرية هو وقوصون فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شوال ... تولى قتلهما الأمير ابن طشتمر طلبة وأحمد بن صبيح .

وكان جركتمر هذا فيه أدب * وحشمة . وأول أمره كان من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكيرى ، فقدمه وأعطاه امرة عشرة ، ثم اتصل بالأمير آرغون النائب ، فأعطاه امرة طبلخاناه ، وكان يلعب بالأكرة ، ويجيد فى لعبها الى الغاية .

ثم عرفت هذه الدار بالأمير سيف الدين بهادر المنجكى أستادار الملك الظاهر برقوق ، لسكنه بها وتجديد عمارتها ، وأنشأ بجوارها حماما ، وكانت وفاته يوم الاثنين الثانى من جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة . وهذه الدار باقيه الى اليوم تسكنها الأمراء .

« دار البقر » : هذه الدار خارج القاهرة فيما بين قلعة الجبل وبركة الفيل ، بالخط الذى يقال له اليوم حدرة البقر ، كانت دارا للأبقار التى برسم السواقى السلطانية ، ومنشرا للزبل وفيه ساقية . ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأها دارا واصطبلا ، وغرس بها عدة أشجار .

(*) ص٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وتولى عمارتها القاضى كريم الدين عبد الكريم الكبير ، فبلغ المصروف على عمارتها ألف ألف درهم . وعرفت بالأمير طقتمر الدمشقى ، ثم عرفت بدار الأمير طاش تمر حمص أخضر . وهذه الدار باقية الى وقتنا هذا ينزلها أمراء الدولة .

« قصر بكتمر الساقى » : هذا القصر من أعظم مساكن مصر ، وأجلها قدرا وأحسنها بنيانا ، وموضعه تجاه الكبش على بركة الفيل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون لسكن أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقى ، وأدخل فيه أرض الميدان التى أنشأها الملك العادل كتبغا .

وقصد أن يأخذ قطعة من بركة الفيل ليتسع بها الاصطبل الذى للأمير بكتمر بجوار هذا القصر ، فبعث الى قاضى القضاة شمس الدين الحريرى الحنفى ليحكم باستبدالها على قاعدة مذهبه . فامتنع من ذلك تنزها وتورعا ، واجتمع بالسلطان وحدثه فى ذلك . فلما رأى كثرة ميل السلطان الى أخذ الأرض ، نهض من المجلس مغضبا ، وصار الى منزله .

فأرسل القاضى كريم الدين الكبير ، ناظر الخواص ، الى سراج الدين الحنفى عن أمر السلطان ، وقلده قضاء مصر منفردا عن القاهرة ، فحكم باستبدال الأرض فى غرة رجب سنة سبع عشرة وسبعمائة ، فلم يلبث سوى مدة شهرين ، ومات فى أول شهر رمضان . فاستدعى السلطان قاضى القضاة شمس الدين الحريرى ، وأعاده الى ولايته .

وكمل القصر والاصطبل على هيئة قل ما رأت الأعين مثلها . بلغت النفقة على العمارة فى كل يوم مبلغ ألف وخمسمائة درهم فضة ، مع جاه العمل ... لأن العجل التى تحمل الحجارة من عند السلطان ، والحجارة أيضا من عند السلطان ، والفعلة فى العمارة أهل السجون المقيدون من المحابيس .

وقدر لو لم يكن فى هذه العمارة جاه ولا سخرة ، لكان مصروفها فى كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم فضة . وأقاموا فى عمارته مدة عشرة أشهر ، فتجاوزت النفقة على عمارته مبلغ ألف ألف درهم فضة ، عنها زيادة على خمسين ألف دينار ، سوى ما حمل وسوى من سخر فى العمل وهو بنحو ذلك .

فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقى ، وكان له فى اصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس ، كل سائس على ستة أرؤس خيل ، سوى ما كان له فى الحشارات والنواحى من الخيل ، وكان من المغرب يغلق باب اصطبله ، فلا يصير لأحد به حس .

ولما تزوج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بابنة الأمير بكتمر الساقى ، فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، خرج شوارها من هذا القصر .

وكان عدة الحمالين ثمانمائة حمال : المساند الزركش على أربعين حمالا عدتها عشرة مساند ، والمدورات ستة عشر حمالا ، والكراسى اثنا عشر حمالا ، وكراسى لطاف أربعة حمالين ، وفضيات تسعة وعشرون حمالا ، وسلم الدكك أربعة حمالين ، والدكك والتخوت الأبنوس المفضضة والموشقة مائة واثنين وستين حمالا ، والنحاس الكفت ثمانية

وأربعين حمالا ، والصينى ثلاثة وثلاثين حمالا ، والزجاج المذهب اثنى عشر حمالا ، والنحاس الشامى اثنين وعشرين حمالا ، والبعلبكى المدهون اثنى عشر حمالا ، والخونجات والمحافى والزبادى والنحاس تسعة وعشرين حمالا ، وصناديق الحوائج خاناه ستة حمالين ، وغير ذلك تتمة العدة ، والبغال المحملة الفرش واللحف والبسط والصناديق التى فيها المصاغ تسعة وتسعين بغلا .

قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى : قال لى المهذب الكاتب : الزركش والمصاغ ثمانون قنطارا بالمصرى ذهب .

ولما مات بكتمر هذا صار هذا الوقف من بعده من جملة أوقافه ، فتولى أمره وأمر سائر أوقافه أولاده حتى انقرض أولاده وأولاد أولاده ، فصار أمر الأوقاف الى ابن ابنته ، وهو أحمد بن محمد بن قرطاى المعروف بأحمد ابن بنت بكتمر .

وهذا القصر فى غاية من الحسن ، ولاينزله الا أعيان الأمراء ... الى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة ، وكان العسكر غائبا عن مصر مع الملك المؤيد شيخ فى محاربة الأمير نوروز الحافظى بدمشق ، عمد هذا المذكور الى القصر ، فأخذ رخامه وشبابيكه وكثيرا من سقوفه وأبوابه وغير ذلك ، وباع الجميع ، وعمل بدل ذلك الرخام البلاط ، وبدل الشبابيك الحديد بالخشب . وفطن به أعيان الناس فقصدوه ، وأخذوا منه أصنافا عظيمة بثمن وبغير ثمن ، وهو الآن * قائم البناء يسكنه الأمراء .

(*) ص٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

« الدار البيسرية » : هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة . كانت فى آخر الدولة الفاطمية ، لما قويت شوكة الفرنج ، قد أعدت لمن يجلس فيها من قصاد الفرنج عندما تقرر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج ، فصار يجلس فى هذه الدار قاصد معتبر عند الفرنج يقبض المال .

فلما زالت الدولة بالغز ، ثم زالت دولة بنى أيوب ، وولى سلطنة مصر الملوك من الترك ... الى أن كانت أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، شرع الأمير ركن الدين بيسرى الشمسى الصالحى النجمى فى عمارتها فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وتأنق فى عمارتها ، وبالغ فى كثرة المصروف عليها .

فأنكر الملك الظاهر ذلك من فعله ، وقال له : ياأمير بدر الدين أى شىء خليت للغزاة والترك ؟

فقال : صدقات السلطان ، والله ياخوند ما بنيت هذه الدار الا حتى يصل خبرها الى بلاد العدو ، ويقال بعض مماليك السلطان عمر دارا غرم عليها مالا عظيما .

فأعجب من قوله ذلك السلطان ، وأنعم عليه بألف دينار عينا . وعد هذا من أعظم انعام السلطان .

فجاء سعة هذه الدار باصطبلها وبستانها والحمام بجانبها نحو فدانين ، ورخامها من أبهج رخام عمل فى القاهرة وأحسنه صنعة ، فكثر تعجب الناس اذ ذاك من عظمها لما كان فيه أمراء الدولة ورجالها حينئذ من الاقتصاد ،

حتى ان الواحد منهم اذا صار أميرا لا يتغير عن داره التى كان يسكنها وهو من الأجناد .

وعندما كملت عمارة هذه الدار وقفها ، وأشهد عليه بوقفها اثنين وتسعين عدلا : من جملتهم قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد ، وقاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز ، وقاضى القضاة تقى الدين بن رزين ، قبل ولايتهم القضاة فى حال تحملهم الشهادة .

وما زالت بيد ورثة بيسرى الى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . فشرهت نفس الأمير قوصون الى أخذها ، وسأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذلك ، فأذن له فى التحدث مع ورثة بيسرى ، فأرسل اليهم ووعدهم ومناهم وأرضاهم حتى أذعنوا له .

فبعث السلطان الى قاضى القضاة شرف الدين الحرانى الحنبلى . يلتمس منه الحكم باستبدالها ، كما حكم باستبدال بيت قتال السبع وحمامه الذى أنشأ جامعه بخط خارج الباب الجديد من الشارع ، فأجاب الى ذلك .

ونزل اليها علاء الدين بن هلال الدولة شاد الدواوين ومعه شهود القيمة . فقومت بمائة ألف درهم وتسعين ألف درهم نقرة ، وتكون الغبطة للأيتام عشرة آلاف درهم نقرة لتتم الجملة مائتى ألف درهم نقرة . وحكم قاضى القضاة شرف الدين الحرانى ببيعها ، وكان هذا الحكم مما شنع عليه فيه .

ثم اختلفت الأيدى فى الاستيلاء على هذه الدار ، واقتدى القضاة بعضهم ببعض فى الحكم باستبدالها . وآخر ما حكم به من استبدالها فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق ، وهى الآن بيد ابنة بيرم .

وكان لها باب بوابته من أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة ، ويتوصل الى هذه الدار من هذا الباب ، وهو بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين ، وقد بنى تجاه هذا الباب حوانيت حتى خفى ، وصار يدخل الى هذه الدار من باب آخر بخط الخرشتف .

« بيسرى » : الأمير شمس الدين الشمسى الصالحى النجمى ، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية ، تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة .

وكانت له عدة مماليك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم ، وفيهم من له عليه فى اليوم مبلغ ستين عليقة لخيله ، وبلغ عليق خيله وخيل مماليكه فى كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال ، وكان ينعم بالألف دينار وبالخمسمائة غير مرة .

ولما فرق الملك العادل كتبغا المماليك على الأمراء ، بعث اليه بستين مملوكا ، فأخرج اليهم فى يومهم لكل واحد فرسين وبغلا .

وشكا اليه أستاداره كثرة خرجه ، وحسن له الاقتصاد فى النفقة ، فحنق عليه وعزله وأقام غيره ، وقال : لا يرنى وجهه أبدا . ولم يعرف عنه أنه شرب الماء فى كوز واحد مرتين ، وانما يشرب كل مرة فى كوز جديد ، ثم لا يعاود الشرب منه .

وتنكر عليه الملك المنصور قلاوون فسجنه فى سنة ثمانين وستمائة ، وما زال فى سجنه الى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل ، فأفرج عنه فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، بعد عوده من دمشق بشفاعة الأمير بيدرا والأمير سنجر الشجاعى ، أمر أن يحمل اليه تشريف كامل ، ويكتب له منشور بامرة مائة فارس ، وأنه يلبس التشريف من السجن .

فجهز التشريف ، وحمل اليه المنشور فى كيس حرير أطلس ، وعظم فيه تعظيما زائدا ، وأثنى عليه ثناء جما ، وسار اليه بيدرا والشجاعي والدوادار والأفرم الى السجن ليمشوا فى خدمته الى أن يقف بين يدى السلطان . فامتنع من لبس التشريف ، والتزم بأيمان مغلظة أنه لا يدخل على السلطان الا بقيده ولباسه الذى كان عليه فى السجن .

وتسامعت الأمراء وأهل القلعة بخروجه ، فهرعوا اليه . وكان لخروجه نهار عظيم ، ودخل على السلطان * بقيده ، فأمر به ففك بين يديه ، وأفيض عليه التشريف ، فقبل الأرض ، وأكرمه السلطان وأمره . فنزل الى داره ، وخرج الناس الى رؤيته ، وسروا بخلاصه .

فبعث اليه السلطان عشرين فرسا وعشرين أكديشا وعشرين بغلا ، وأمر جميع الأمراء أن يبعثوا اليه ، فلم يبق أحد حتى سير اليه ما يقدر عليه من التحف والسلاح ، وبعث اليه أمير سلاح ألفى دينار عينا . وكانت مدة سجنه احدى عشرة سنة وأشهرا ، فصار يكتب بعد خروجه من السجن بيسرى الأشرفى بعدما كان يكتب بيسرى الشمسى .

وما زال الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فأخذ الأمير منكوتمر يغريه بالأمير بيسرى ويخوفه منه ، وأنه قد تعين للسلطنة . فعمله كاشف الجيزة ، وأمره أن يحضر الخدمة يومى الاثنين والخميس بالقلعة ، ويجلس رأس الميمنة تحت الطواشى حسام الدين بلال المغيثى لأجل كبره وتقدمه .

ثم زاد منكوتمر فى الاغراء به والسلطنة تستمهله ، الى أن قبض عليه وسجنه فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وأحاط بسائر موجوده ، وحبس عدة من مماليكه . فسر منكوتمر بمسكه سرورا عظيما .

واستمر فى السجن الى أن مات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة وعليه ديون كثيرة ، ودفن بتربته خارج باب النصر رحمه الله تعالى .

« قصر بشتاك » : هذا القصر هو الآن تجاه الدار البيسرية . وهو من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان مسكنا للخلفاء الفاطميين ، ويسلك اليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر ، وهو يعرف اليوم بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية .

وما زال الى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى — المعروف بأمير سلاح — وأنشأ دورا واصطبلات ومساكن له ولحواشيه

(*) ص٦٩ ، ج٢ ، ط. بولاق .

وصار ينزل اليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد الحشمة ، ويدخل كل منهما الى داره . وكان موضع هذا القصر عدة مساجد ، فلم يتعرض لهدمها ، وأبقاها على ما هى عليه .

فلما مات أمير سلاح ، وأخذ الأميرقوصون الدار البيسرية كما تقدم ذكره ... أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضا دار بالقاهرة . وذلك أن قوصون وبشتاك كانا يتناظران فى الأمور ، ويتضادان فى سائر الأحوال ، ويقصد كل منهما أن يسامى الآخر ويزيد عليه فى التجمل .

فأخذ بشتاك يعمل فى الاستيلاء على قصر أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته ، فأخذ من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال ، وهدم دارا كانت قد أنشئت هناك عرفت بدار قطوان الساقى ، وهدم أحد عشر مسجدا وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء ، وأدخل ذلك فى البناء الا مسجدا منها فانه عمره ، ويعرف اليوم بمسجد الفجل .

فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة ، فان ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعا ، ونزول أساسه فى الأرض مثل ذلك ، والماء يجرى بأعلاه ، وله شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة ، وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل والبساتين . وهو مشرق جليل ، مع حسن بنائه ، وتأنق زخرفته ، والمبالغة فى تزويقه وترخيمه .

وأنشأ أيضا فى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى وغيرها ، فصار الأمر أخيرا كما كان أولا بتسمية الشارع بين القصرين . فانه كان أولا — كما تقدم — بالقاهرة القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته ، وتجاهه القصر الغربى الذى الخرشتف من جملته ، فصار قصر بشتاك وقصر بيسرى وما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين .

ومن لا علم له يظن أنما قيل لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر بيسرى وقصر بشتاك ، وليس هذا بصحيح ، وانما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة ، فانه كان بين القصرين : القصر الكبير الشرقى ، والقصر الصغير الغربى . وقد تقدم ذلك مشروحا مبينا .

ولما أكمل بشتاك بناء هذا القصر والحوانيت التى فى أسفله ، والخان المجاور له فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، لم يبارك له فيه ولا تمتع به ، وكان اذا نزل اليه ينقبض صدره ، ولا تنبسط نفسه ما دام فيه حتى يخرج منه فترك المجىء اليه ، فصار يتعاهده أحيانا فيعتريه ما تقدم ذكره ، فكرهه وباعه لزوجة بكتمر الساقى .

وتداوله ورثتها الى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاستقر بيد أولاده الى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الأستادار فى مصر ، أقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضر بالجار والمار ، وأنه مستحق للازالة والهدم كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة .

فحكم له باستبداله ، وصار من جملة أملاكه . فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق ، استولى على سائر ما تركه ، وجعل هذا القصر قيما عينه للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر .

فاستمر فى جملة أوقاف التربة المذكورة الى أن قتل الملك الناصر بدمشق فى حرب الأمير * شيخ والأمير نوروز ، وقدم الأمير شيخ الى مصر هو والخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد ، وقف له من بقى من أولاد جمال الدين وأقاربه — وكان لأهل الدولة يومئذ بهم عناية — فحكم قاضى القضاة صدر الدين على بن الآدمى الحنفى بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ما كانت عليه ، فتسلمها أخوه ، وصار هذا القصر اليهم ، وهو الآن بيدهم .

« قصر الحجازية » : هذا القصر بخط رحبة باب العيد بجوار المدرسة الحجازية . كان يعرف أولا بقصر الزمرذ ، فى أيام الخلفاء الفاطميين ، من أجل أن باب القصر الذى كان يعرف بباب الزمرذ كان هناك ... كما تقدم ذكره فى هذا الكتاب عند ذكر القصور .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، صار من جملة ما صار بيد ملوك بنى أيوب ، واختلفت عليه الأيدى الى أن اشتراه الأمير بدر الدين أمير مسعود بن خطير الحاجب من أولاد الملوك بنى أيوب ، واستمر بيده الى أن رسم بتسفيره من مصر الى مدينة غزة ، واستقر نائب السلطنة بها فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وكاتب الأمير سيف الدين قوصون عليه وملكه اياه . فشرع فى عمارة سبع قاعات ، لكل قاعة اصطبل ومنافع ومرافق ، وكانت مساحة ذلك عشرة أفدنة ، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك .

فصار يعرف بقصر قوصون الى أن اشترته خوند تتر الحجازية ، ابنة الملك الناصر محمد ابن قلاوون وزوج الأمير ملكتمر الحجازى ، فعمرته عمارة ملوكية ، وتأنقت فيه تأنقا زائدا ، وأجرت الماء الى أعلاه ، وعملت تحت القصر اصطبلا كبيرا لخيول خدامها ، وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد ، فجاء شيئا عجيبا حسنه . وأنشأت بجواره مدرستها التى تعرف الى اليوم بالمدرسة الحجازية ، وجعلت هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها

فلما ماتت سكنه الأمراء بالأجرة الى أن عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار داره المجاورة للمدرسة السابقية ، وتولى أستادارية الملك الناصر فرج ، صار يجلس برحبة هذا القصر والمقعد الذى كان بها ، وعمل القصر سجنا يحبس فيه من يعاقبه من الوزراء والأعيان . فصار موحشا يروع النفوس ذكره ، لما قتل فيه من الناس خنقا وتحت العقوبة ، من بعد ما أقام دهرا وهو مغنى صبابات ، وملعب أتراب ، وموطن أفراح ، ودارعز ، ومنزل لهو ، ومحل أمانى النفوس ولذاتها .

ثم لما فحش كلَبُ جمال الدين ، وشنع شرهه فى اغتصاب الأوقاف ، أخذ هذا القصر

(*) ص٧٠ جـ٢ ، طـ بولاق .

يتشعث شيء من زخارفه ، وحكم له قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفي باستبداله — كما تقدم الحكم فى نظائره — فقلع رخامه ، فلما قتل صار معطلا مدة ، وهم الملك الناصر فرج ببنائه رباطا ، ثم انثنى عزمه عن ذلك .

فلما عزم على المسير الى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، نزل اليه الوزير الصاحب سعد الدين ابراهيم بن البشيرى ، وقلع شبابيكه الحديد لتعمل آلات حرب .

وهو الآن بغير رخام ولا شبابيك ، قائم على أصوله لا يكاد ينتفع به . الا أن الأمير المشير بدر الدين حسن بن محمد الأستادار ، لما سكن فى بيت الأمير جمال الدين ، جعل ساحة هذا القصر اصطبلا لخيوله ، وصار يحبس فى هذا القصر من يصادره أحيانا .

وفى رمضان سنة عشرين وثمانمائة ذكر الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الأستادار ، ما يجده المسجونون فى السجن المستجد عند باب الفتوح بعد هدم خزانة شمائل ، من شدة الضيق وكثرة الغم ، فعين هذا القصر ليكون سجنا لأرباب الجرائم ، وأنعم على جهة وقف جمال الدين بعشرة آلاف درهم فلوسا عن أجرة سنتين ، فشرعوا فى عمله سجنا ، وأزالوا كثيرا من معالمه ، ثم ترك على ما بقى فيه ولم يتخذ سجنا .

« قصر يلبغا اليحياوى » : هذا القصر موضعه الآن مدرسة السلطان حسن المطلة على الرميلة تحت قلعة الجبل . وكان قصرا عظيما أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ببنائه لسكن الأمير يلبغا اليحياوى ، وأن يبنى أيضا قصر يقابله برسم سكنى الأمير الطنبغا الماردينى ، لتزايد رغبته فيهما وعظيم محبته لهما ، حتى يكونا تجاهه ، وينظر اليهما من قلعة الجبل . فركب بنفسه الى حيث سوق الخيل من الرميلة تحت القلعة ، وسار الى حمام الملك السعيد ، وعين اصطبل الأمير أيدغمش أميراخور — وكان تجاهها — ليعمره هو وما يقابله قصرين متقابلين ، ويضاف اليه اصطبل الأمير طاشتمر الساقى واصطبل الجوق ، وأمر الأمير قوصون أن يشترى ما يجاور اصطبله من الأملاك ، ويوسع فى اصطبله ، وجعل أمر هذه العمارة الى الأمير أقبغا عبد الواحد . فوقع الهدم فيما كان بجوار بيت الأمير قوصون ، وزيد فى الاصطبل ، وجعل باب هذا الاصطبل من تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، وأمر السلطان بالنفقة على العمارة من مال السلطان على يد النشو .

وكان للملك الناصر رغبة كبيرة فى العمارة بحيث انه أفرد لها ديوانا ، وبلغ مصروفها فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم نقرة . وأقل ما كان يصرف من ديوان العمارة فى اليوم ، برسم العمارة ، مبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة .

فلما كثر الاهتمام فى بناء القصرين المذكورين (*) ، وعظم الاجتهاد فى عمارتهما ، صار السلطان ينزل من القلعة لكشف العمل ، ويستحث على فراغهما .

وأول ما بدىء به قصر يلبغا اليحياوى ، فعمل أساسه حضيرة واحدة انصرف عليهما

(*) ص٧١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وحدها مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة ، ولم يبق في القاهرة ومصر صانع له تعلق فى العمارة الا وعمل فيها حتى كمل القصر . فجاء فى غاية الحسن ، وبلغت النفقة عليه مبلغ أربعمائة ألف ألف وستين ألف درهم نقرة : منها ثمن لازورد خاصة مائة ألف درهم . فلما كملت العمارة نزل السلطان لرؤيتها .

وحضر يومئذ من عند الأمير سيف الدين طرغاى نائب حلب تقدمة ، من جملتها عشرة أزواج بسط أحدها حرير ، وعدة أوانى من بلور ونحوه وخيل وبخاتى ، فأنعم بالجميع على الأمير يلبغا اليحياوى ، وأمر الأمير أقبغا عبد الواحد أن ينزل الى هذا القصر ، ومعه اخوان سلار برفقته وسائر أرباب الوظائف ، لعمل مهم . فبات النشو ناظر الخاص هناك لتعبية ما يحتاج اليه من اللحوم والتوابل ونحوها .

فلما تهيأ ذلك حضر سائر أمراء الدولة من أول النهار ، وأقاموا بقصر يلبغا اليحياوى فى أكل وشرب ولهو . وفى آخر النهار حضرت اليهم التشاريف السلطانية — وعدتها أحد عشر تشريفا — برسم أرباب الوظائف ، وهم الأمير أقبغا عبد الواحد ، والأستادار ، والأمير قوصون الساقى ، والأمير بشتاك ، والأمير طقوزدمر أمير مجلس فى آخرين . وحضر لبقية الأمراء خلع وأقبية على قدر مراتبهم .

فلبس الجميع التشاريف والخلع والأقبية ، وأركبوا الخيول المحضرة اليهم من الاصطبل السلطانى بسروج وكنابيش ما بين ذهب وفضة بحسب مراتبهم ، وساروا الى منازلهم .

وذبح فى هذا المهم ستمائة رأس غنم وأربعون بقرة وعشرون فرسا ، وعمل فيه ثلثمائة قنطار سكر برسم المشروب ... فان القوم يومئذ لم يكونوا يتظاهرون بشرب الخمر ولا شىء من المسكرات ألبتة ، ولا يجسر أحد على عمله فى مهم ألبتة .

وما زالت هذه الدار باقية الى أن هدمها السلطان الملك الناصر حسن ، وأنشأ موضعها مدرسته الموجودة الآن .

« اصطبل قوصون » : هذا الاصطبل بجوار مدرسة السلطان حسن ، وله بابان : باب من الشارع بجوار حدرة البقر ، وبابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه الى الاصطبل السلطانى وقلعة الجبل . أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار ، فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون ، وصرف له ثمنه من بيت المال ، فزاد فيه قوصون اصطبل الأمير سنقر الطويل .

وأمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الاصطبل ، فبنى فيه كثيرا ، وأدخل فيه عدة عمائر ما بين دور واصطبلات ، فجاء قصرا عظيما الى الغاية ، وسكنه الأمير قوصون مدة حياة الملك الناصر .

فلما مات السلطان ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر ، عمل عليه قوصون وخلعه ، وأقام بعده بدله الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد . فلما كان فى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، حدث فى شهر رجب منها فتنة بين الأمير قوصون وبين الأمراء وكبيرهم أيدغمش أميراخور ، فنادى

أيدغمش فى العامة : ياكسابة ، عليكم باصطبل قوصون انهبوه ... هذا وقوصون محصور بقلعة الجبل .

فأقبلت العامة من السؤال والغلمان والجند الى اصطبل قوصون ، فمنعهم المماليك الذين كانوا فيه ، ورموهم بالنشاب ، وأتلفوا منهم عدة . فثارت مماليك الأمير يلبغا اليحياوى من أعلى قصر يلبغا — وكان بجوار قصر قوصون حيث مدرسة السلطان حسن — ورموا مماليك قوصون بالنشاب حتى انكفوا عن رمى النهابة .

فاقتحم غوغاء الناس اصطبل قوصون ، وانتهبوا ما كان بركاب خاناته وحواصله ، وكسروا باب القصر بالفوس ، وصعدوا اليه بعد ما تسلقوا الى القصر من خارجه . فخرجت مماليك قوصون من الاصطبل يدا واحدة بالسلاح ، وشقوا القاهرة ، وخرجوا الى ظاهر باب النصر يريدون الأمراء الواصلين من الشام .

فأتت النهابة على جميع ما فى اصطبل قوصون من الخيل والسروج وحواصل المال التى كانت بالقصر ، وكانت تشتمل من أنواع المال والقماش والأوانى الذهب والفضة على ما لايحد ولايعد كثرة . وعندما خرجت العامة بما نهبته ، وجدت مماليك الأمراء والأجناد قد وقفوا على باب الاصطبل فى الرميلة لانتظار من يخرج ، وكان اذا خرج أحد بشىء من النهب أخذه منه أقوى منه ، فان امتنع من اعطائه قتل .

واحتمل النهابة أكياس الذهب ، ونثروها فى الدهاليز والطرق ، وظفروا بجواهر نفيسة وذخائر ملوكية وأمتعة جليلة القدر وأسلحة عظيمة وأقمشة مثمنة ، وجروا البسط الرومية والآمدية وما هو من عمل الشريف ، وتقاتلوا عليها ، وقطعوها قطعا بالسكاكين وتقاسموها ، وكسروا أوانى البلور والصينى ، وقطعوا سلاسل الخيل الفضة والسروج الذهب والفضة وفكوا اللجم ، وقطعوا الخيم وكسروا الخركاوات ، وأتلفوا سترها وأغشيتها الأطلس والزركفت .

وذكر عن كاتب قوصون أنه قال : أما الذهب المكيس والفضة فكان ينيف على أربعمائة ألف دينار . وأما الزركش والحوايص والمعصبات ، ما بين خوانجات وأطباق فضة وذهب ، فانه فوق * المائة ألف دينار ، والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فانه لا يحصر . وكان هناك ثلاثة أكياس أطلس فيها جوهر قد جمعه فى طول أيامه لكثرة شغفه بالجوهر لم يجمع مثله ملك ، كان ثمنه نحو المائة ألف دينار .

وكان فى حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما طوله من أربعين ذراعا الى ثلاثين ذراعا عمل البلاد ، وستة عشر زوج من عمل الشريف بمصر ، ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقرة ، منها أربعة أزواج بسط من حرير . وكان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس معدنى قصب ... جميع ذلك نهب وكسر وقطع . وانحط سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون ، حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس ، بعدما كان سعر المثقال عشرين درهما *

(*) ص٧٠٢ جـ٢ ، طـ بولاق *

ومن حينئذ تلاشى أمر هذا القصر لزوال رخامه فى النهب ، وما برح مسكنا لأكابر الأمراء ، وقد اشتهر أنه من الدور المشئومة ، وقد أدركت فى عمرى غير واحد من الأمراء سكنه ، وآل أمره الى ما لا خير فيه . وممن سكنه الأمير بركة الزينبى ، ونهب نهبة فاحشة ، وأقام عدة أعوام خرابا لا يسكنه أحد ثم أصلح ، وهو الآن من أجل دور القاهرة .

« دار أرغون الكاملى » : هذه الدار بالجسر الأعظم على بركة الفيل . أنشأها الأمير أرغون الكاملى فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وأدخل فيها من أرض بركة الفيل عشرين ذراعا .

« أرغون الكاملى » : الأمير سيف الدين نائب حلب ودمشق . تبناه الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون ، وزوجه أخته من أمه ، بنت الأمير أرغون العلائى ، فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، وكان يعرف أولا بأرغون الصغير .

فلما مات الملك الصالح ، وقام من بعده فى مملكة مصر أخوه الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، أعطاه امرة مائة وتقدمة ألف ، ونهى أن يدعى أرغون الصغير ، وتسمى أرغون الكاملى .

فلما مات الأمير قطليجا الحموى فى نيابة حلب ، رسم له الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون بنيابة حلب ، فوصل اليها يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة خمسين وسبعمائة ، وعمل النيابة بها على أحسن ما يكون من الحرمة والمهابة ، وهابه التركمان والعرب ، ومشت الأحوال به .

ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب ، فخرج فى نفر يسير الى دمشق ، فوصلها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة احدى وخمسين ، فأكرمه الأمير أيتمش الناصرى نائب دمشق ، وجهزه الى مصر ، فأنعم عليه السلطان وأعاده الى نيابة حلب .

فأقام بها الى أن عزل أيتمش من نيابة دمشق فى أول سلطنة الملك الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون ، فنقل من نيابة حلب الى نيابة دمشق ، فدخلها فى حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وأقام بها ، فلم يصف له بها عيش ، فاستعفى فلم يجب ، وما زال بها الى أن خرج يلبغا روس وحضر الى دمشق ، فخرج الى لد ، واستولى يلبغا روس على دمشق .

فلما خرج الملك الصالح من مصر ، وسار الى بلاد الشام بسبب حركة يلبغا روس ، تلقاه أرغون وسار بالعساكر الى دمشق ، ودخل السلطان بعده وقد فر يلبغا روس ، فقلده نيابة حلب فى خامس عشرى شهر رمضان ، وعاد السلطان الى مصر .

فلم يزل الأمير أرغون بحلب ، وخرج منها الى الابلستين فى طلب ابن دلغادر ، وحرقها وحرق قراها ، ودخل الى قيصرية ، وعاد الى حلب فى رجب سنة أربع وخمسين .

فلما خلع الملك الصالح بأخيه الملك الناصر حسن فى شوال سنة خمس وخمسين ، طلب الأمير أرغون من حلب فى آخر شوال . فحضر

الى مصر ، وعمل أمير مائة مقدم ألف الى تاسع صفر سنة ست وخمسين ، فأمسك وحمل الى الاسكندرية ، واعتقل فيها وعنده زوجته . ثم نقل من الاسكندرية الى القدس ، فأقام بها بطالا ، وبنى هناك تربة ، ومات بها يوم الخميس لخمس بقين من شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة .

« دار طاز » : هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقانى ، على يمنة من سلك من الصليبية يريد حدرة البقر وباب زويلة . أنشأها الأمير سيف الدين طاز فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضى أربابها وبغير رضاهم ، وتولى الأمير منجك عمارتها ، وصار يقف عليها بنفسه حتى كملت ، فجاءت قصرا مشيدا واصطبلا كبيرا ، وهى باقية الى يومنا هذا يسكنها الأمراء .

وفى يوم السبت سابع عشرى جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ، عمل الأمير طاز فى هذه الدار وليمة عظيمة حضرها السلطان الملك الصالح صالح وجميع الأمراء . فلما كان وقت انصرافهم قدم الأمير طاز للسلطان أربعة أفراس بسروج ذهب وكنابيش ذهب ، وقدم للأمير سنجر فرسين كذلك ، وللأمير صرغتمش فرسين ، ولكل واحد من أمراء الألوف فرسا كذلك . ولم يعهد قبل هذا أن أحدا من ملوك الأتراك نزل الى بيت أمير قبل الصالح هذا . وكان يوما مذكورا .

« طاز » : الأمير سيف الدين أمير مجلس . اشتهر ذكره فى أيام الملك الصالح اسماعيل ، ولم يزل أميرا الى أن خلع الملك الكامل شعبان وأقيم المظفر حاجى ، وهو أحد الأمراء الستة أرباب الحل والعقد . فلما خلع الملك * المظفر ، وأقيم الملك الناصر حسن ، زادت وجاهته وحرمته .

وهو الذى أمسك الأمير يلبغا روس فى طريق الحجاز ، وأمسك أيضا الملك المجاهد سيف الاسلام على بن المؤيد صاحب بلاد اليمن بمكة ، وأحضره الى مصر . وهو الذى قام فى نوبة السلطان حسن لما خلع ، وأجلس الملك الصالح صالح على كرسى الملك .

وكان يلبس فى درب الحجاز عباءة وسرقولا ويخفى نفسه ليتجسس على أخبار يلبغا روس . ولم يزل على حاله الى ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، فخلع الصالح وأعيد الناصر حسن ، فأخرج طاز الى نيابة حلب وأقام بها .

« دار صرغتمش » : هذه الدار بخط بئر الوطاويط ، بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد بن طولون من شارع الصليبية . كان موضعها مساكن ، فاشتراها الأمير صرغتمش ، وبناها قصرا واصطبلا فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وحمل اليه الوزراء والكتاب والأعيان من الرخام وغيره شيئا كثيرا . وقد ذكر التعريف به عند ذكر المدرسة الصرغتشمية من هذا الكتاب فى ذكر المدارس .

وهذه الدار عامرة الى يومنا هذا ، يسكنها الأمراء ، ووقع الهدم فى القصر خاصة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

(*) ص٧٣ جـ٢ ، ط.بولاق .

«دار ألماس» : هذه الدار بخط حوض ابن هنس ، فيما بينه وبين حدرة البقر ، بجوار جامع ألماس . أنشأها الأمير ألماس الحاجب ، واعتنى برخامها عناية كبيرة ، واستدعى به من البلاد .

فلما قتل فى صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، أمر السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون بقلع ما فى هذه الدار من الرخام ، فقلع جميعه ونقل الى القلعة . وهذه الدار باقية الى يومنا هذا ينزلها الأمراء .

« دار بهادر المقدم » : هذه الدار بخط الباطلية من القاهرة . أنشأها الأمير الطواشى سيف الدين بهادر ، مقدم المماليك السلطانية فى أيام الملك الظاهر برقوق .

وبهادر هذا من مماليك الأمير يلبغا ، وأقام فى تقدمة المماليك جميع الأيام الظاهرية ، وكثر ماله ، وطال عمره حتى هرم ، ومات فى أيام الملك الناصر فرج ، وهو على امرته وفى وظيفته تقدمة المماليك السلطانية ، يوم الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتين وثمانمائة .

وموضع هذه الدار من جملة ما كان احترق من الباطلية فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، كما تقدم فى ذكر حارة الباطلية عند ذكر الحارات من هذا الكتاب . ولما مات المقدم بهادر استقرت من بعده منزلا لأمراء الدولة ، وهى باقية على ذلك الى يومنا هذا .

« دار الست شقراء » : هذه الدار من جملة حارة كتامة ، وهى اليوم بالقرب من مدرسة الوزير الصاحب كريم الدين بن غنام بجوار حمام كراى ، وهى من الدور الجليلة . عرفت بخوند الست شقراء ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، وتزوجها الأمير روس ، ثم انحط قدرها واتضعت فى نفسها الى أن ماتت فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى جمادى الأولى سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

« دار ابن عنان » : هذه الدار بخط الجامع الأزهر . أنشأها نور الدين على بن عنان التاجر بقيسارية جهاركس من القاهرة ، وتاجر الخاص الشريف السلطانى فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون .

كان ذا ثروة ، ونعمة كبيرة ، ومال متسع . فلما زالت دولة الأشرف أجمع وداخله وهم ، أظهر فاقة ، وتذكر أنه دفن مبلغا كبيرا من الألف مثقال ذهب فى هذه الدار ، ولم يعلم به أحد سوى زوجته أم أولاده . فاتفق أنه مرض وخرس ، ومرضت زوجته أيضا ، فمات يوم الجمعة ثامن عشر شوال سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، وماتت زوجته أيضا .

فأسف أولاده على فقد ماله ، وحفروا مواضع من هذه الدار فلم يظفروا بشىء ألبتة ، وأقامت مدة بأيديهم وهى من وقف أبيهم ، ومات ولده شمس الدين محمد بن على ابن عنان يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث وثمانمائة، ثم باعوها سنة سبع عشرة وثمانمائة كما بيع غيرها من الأوقاف .

« دار بهادر الأعسر » : هذه الدار بخط بين السورين ، فيما بين سويقة المسعودى من القاهرة وبين الخليج الكبير الذى يعرف اليوم بخليج اللؤلؤة . كان مكانها من جملة دار

الذهب التى تقدم ذكرها فى ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب ، والى يومنا هذا بجوار هذه الدار قبو ، فيما بينها وبين الخليج ، يعرف بقبو الذهب من جملة أقباء دار الذهب ، ويمر الناس من تحت هذا القبو .

بهادر هذا هو الأمير سيف الدين بهادر الأعسر اليحياوى . كان مشرفا بمطبخ الأمير سيف الدين فجا الأمير شكار ، ثم صار زردكاش الأمير الكبير يلبغا الخاصكى ، وولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة ، وولى وظيفة شد الدواوين .

الى أن قدم الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بعساكر الشام الى مصر ، وأزال دولة الملك الظاهر برقوق فى جمادى سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، قبض عليه ونفاه من القاهرة الى غزة ، ثم عاد بعد ذلك الى القاهرة ، وأقام بها الى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد الفطر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، وحصرت تركته وكان فيها عدة كتب فى أنواع من العلوم .

وهذه الدار باقية الى يومنا هذا ، وعلى بابها بئر بجانبها حوض * يملأ لشرب الدواب منه .

« دار ابن رجب » : هذه الدار من جملة اراضى البستان الذى يقال له اليوم الكافورى كان اصطبلا للأمير علاء الدين على بن كلفت التركمانى شاد الدواوين فيما بين داره ودار الأمير تنكز نائب الشام . فلما استقر ناصر الدين محمد بن رجب فى الوزارة ، أنشأ هذا الاصطبل مقعدا صار يجلس فيه وقصر كبيرا ، واستولى من بعده على ذلك كله أولاده .

فلما عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار مدرسته بخط رحبة باب العيد ، أخذ هذا القصر والاصطبل فى جملة ما أخذ من أملاك الناس وأوقافهم . فلما قتله الملك الناصر فرج ، واستولى على جميع ما خلفه ، أفرد هذا القصر والاصطبل فيما أفرده للمدرسة المذكورة ، فلم يزل من جملة أوقافها الى أن قتل الملك الناصر فرج ، وقدم الأمير شيخ نائب الشام الى مصر .

فلما جلس على تخت الملك ، وتلقب بالملك المؤيد فى غرة شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وقف اليه من بقى من أولاد علاء الدين على بن كلفت ، وهما امرأتان كانت احداهما تحت الملك المؤيد قبل أن يلى نيابة طرابلس ، وهو من جملة أمراء مصر فى أيام الملك الظاهر برقوق ، وذكرتا أن الأمير جمال الدين الأستادار أخذ وقف أبيهما بغير حق ، وأخرجتا كتاب وقف أبيهما .

ففوض أمر ذلك لقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى الشافعى ، فلم يجد بيد أولاد جمال الدين مستندا ، فقضى بهذا المكان لورثة ابن كلفت ، وبقائه على ما وقفه حسبما تضمنه كتاب وقفه . فتسلم مستحقو وقف ابن كلفت القصر والاصطبل ، وهو الآن بأيديهم ، وبينهم وبين أولاد ابن رجب نزاع فى القصر فقط .

(*) ص٧٤ ج٢ ، ط. بولاق

« محمد بن رجب » بن محمد بن كلفت : الأمير الوزير ناصر الدين . نشأ بالقاهرة على طريقة مشكورة ، فلما استقر ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى شاد الدواوين ، بعد انتقال الأمير جمال الدين محمود بن على من شد الدواوين الى أستادارية السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة ، أقام ابن رجب هذا أستادارا عند الأمير سودون باق ، وكانت أول مباشراته .

ثم ولى شد الدواوين بعد الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص فى ثامن شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ، فباشر ذلك الى أن صرف بابن أقبغا آص فى سابع عشرى ذى الحجة ، وعوض فى شد الدواوين بشد دواليب الخاص عوضا عن خاله الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام عند انتقاله الى الوزارة .

فلم يزل الى أن توجه الملك الظاهر برقوق الى الشام ، وأقام الأمير محمود الأستادار . فقدم عليه ابن رجب بكتاب السلطان وهو مختوم ، فاذا فيه أن يقبض على ابن رجب ، ويلزمه بحمل مبلغ مائة وستين ألف درهم نقرة . فقبض عليه فى رابع شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وأخذ منه مبلغ سبعين ألف درهم نقرة .

فلما كان فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ، صرف السلطان عن الوزارة الصاحب موفق الدين أبا الفرج ، واستقر بابن رجب فى منصب الوزارة وخلع عليه . فلم يغير زى الأمراء ، وباشر الوزارة على قالب ضخم وناموس مهاب ، وصار أميرا وزيرا مدبر الممالك .

وسلك سيرة خاله الوزير ناصر الدين محمد ابن الحسام فى استخدام كل من باشر الوزارة ، فأقام الصاحب سعد الدين بن نصر الله بن البقرى ناظر الدولة ، والصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الغنام ناظر البيوت ، والصاحب علم الدين عبد الوهاب سن ابرة مستوفى الدولة ، والصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر رفيقا له فى استيفاء الدولة .

وأنعم عليه بامرة عشرين فارسا فى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين . فلم يزل على ذلك ، الى أن مات من مرض طويل فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وهو وزير من غير نكبة ، فكانت جنازته من الجنائز المذكورة . وقد ذكرته فى كتاب « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » .

« دار القليجى » : هذه الدار من جملة خط قصر بشتاك ، كانت أولا من بعض دور القصر الكبير الشرقى ، الذى تقدم ذكره عند ذكر قصور الخلفاء ، ثم عرفت بدار جمال الكفاة .

وهو القاضى جمال الدين ابراهيم ، المعروف بجمال الكفاة ، ابن خالة النشو ناظر الخاص . كان أولا من جملة الكتاب النصارى فأسلم ، وخدم فى بستان الملك الناصر محمد بن قلاوون — الذى كان ميدانا للملك الظاهر بيبرس بأرض اللوق — ثم خدم فى ديوان الأمير بيدمر البدرى .

فلما عرض السلطان دواوين الأمراء ، واختار منهم جماعة ، كان من جملة من اختاره السلطان جمال الكفاة هذا ، فجعله مستوفيا الى أن مات المهذب كاتب الأمير يكتمر الساقي ، فولاه السلطان مكانه في ديوان الأمير بكتمر ، فخدمه الى أن مات ، فخدم بديوان الأمير بشتاك . الى أن قبض الملك الناصر على النشو ناظر الخاص ، ولاه وظيفة نظر الخاص بعد النشو ، ثم أضاف اليه وظيفة نظر الجيش بعد المكين بن قزوينة عند غضبه عليه ومصادرته .

فباشر الوظيفتين الى أن مات الملك الناصر ، فاستمر في أيام الملك المنصور أبي بكر والملك الأشرف كجك والملك الناصر أحمد . فلما ولي * الملك الصالح اسماعيل ، جعله مشير الدولة مع ما بيده من نظر الخاص والجيش — وكان الوزير اذ ذاك الأمير نجم الدين محمود وزير بغداد — وكتب له توقيع باستقراره في وظيفة الاشارة .

فعظم أمره ، وكثر حساده الى أن قبض عليه وضرب بالمقارع ، وخنق ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، ودفن بجوار زاوية ابن عبود من القرافة ، وكانت مدة نظره في الخاص خمس سنين وشهرين تنقص أياما . وكان مليح الوجه ، حسن العبارة ، كثير التصرف ذكيا ، يعرف باللسان التركي ويتكلم به ، ويعرف باللسان النوبي والتكروري .

ولم تزل هذه الدار بغير تكملة الى أن ترأس القاضي شمس الدين محمد بن أحمد القليجي الحنفي . كان أولا يكتب على مبيضة الغزل وهي يومئذ مضمنة لديوان السلطان ، ثم اتصل بقاضي القضاة سراج الدين عمر بن اسحاق الهندي وخدمه ، فرفع من شأنه واستنابه في الحكم .

فعيب ذلك على الهندي ، وقال فيه شمس الدين محمد بن محمد الصائغ الحنفي :

ولما رأينا كاتب المكس قاضيا
علمنا بأن الدهر عاد الى ورا
فقلت لصحبي ليس هذا تعجبا
وهل يجلب الهندي شيئا سوى الخرا

وولي افتاء دار العلم ، ونايب عن القضاة في الحكم بعد مباشرة توقيع الحكم عدة سنين . فعظم ذكره ، وبعد صيته ، وصار يتوسط بين القضاة والأمراء في حوائجهم ، ويخدم أهل الدولة فيما يعن لهم من الأمور الشرعية .

فصار كثير من أمور القضاة لا يقوم به غيره . حتى لقد كان شيخنا الأستاذ قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون يسميه دريد بن الصمة ... يعني أنه صاحب رأي القضاة ، كما أن دريد بن الصمة كان صاحب رأي هوازن يوم حنين .

فلما فخم أمره أخذ هذه الدار ، وقد تم بناء جدرانها ، فرخمها وزخرفها وبيضها ، فجاءت في أعظم قالب وأحسن هندام وأبهج زي ، وسكنها الى أن مات يوم الثلاثاء لعشرين من شهر رجب سنة سبع وتسعين وسبعمائة بعدما وقفها ، فاستمرت في يد أولاده مدة الى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار كما أخذ غيرها من الدور .

(*) ص٧٥ ج٢ ، ط. بولاق .

« دار بهادر المعزى » : هذه الدار بدرب راشد المجاور لخزانة البنود من القاهرة . عمرها الأمير سيف الدين بهادر المعزى .

كان أصله من أولاد مدينة حلب من أبنـاء التركمان ، واشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنة مصر وهو فى نيـابة السلطنة بدمشق ، فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف الى أن مات فى يوم الجمعة تاسع شعبان سنة تسع وثلاثين وسبعمائة عن ابنتين : احداهما تحت الأمير أسدمر المعزى ، والأخرى تحت مملوكه أقتمر .

وترك مالا كثيرا : منه ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وستمائة ألف درهم نقرة ، وأربعمائة فرس ، وثلثمائة جمـل ، ومبلغ خمسين ألف اردب غلة ، وثمان حـوايص ذهب ، وثلاث كلوتات زركش ، واثنى عشر طـراز زركش وعقـارا كثيرا . فأخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما خلفه .

وكان جميل الصورة ، معروفا بالفروسية ، ورمى فى القبق النشاب بيمينه ويساره ، ولعب الرمح لعبا جيدا . وكان لين الجـانب ، حلو الكلام ، جميل العشرة ... الا أنه كان مقترا على نفسه فى مأكله وسائر أحـواله لـكثرة شحه ، بحيث انه اعتقل مرة فجمع من راتبـه الذى كان يجرى عليه وهو فى السجن مبلغ اثنى عشر ألف درهم نقرة ، أخرجها معه من الاعتقال .

« دار طينال » : هذه الدار بخط الخراطين ، فى داخل الدرب الذى كان يعـرف بخـربة صـالح ، كان موضـعها وما حولها فى الدولة سنين وشهرين تنقص الذى كان يعرف بخربة صالح ، كان موضعها وما حولهـا فى الدولة الفاطمية مارستانا .

وأنشأ هذه الدار الأمير طينال أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . أقامه ساقيا ، ثم عمله حاجبا صغيرا ، ثم أعطاه امرة دكتمر ، وجعله أمير مائة مقدم ألف . فباشر ذلك مدة .

ثم أخرجه لنيابة طرابلس فأقام بها زمانا ، ثم نقله الى نيابة صفد ، فمات بها فى ثالث شهر ربيع سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

وكان تترى الجنس ، قصيرا الى الغاية ، مليح الوجه ، مشكورا فى أحكامه ، محبـا لجمع المال شحيحا . وهذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين ، وهى من الدور الجليلة . ولطينال أيضا قيسارية بسويقة أمير الجيوش .

« دار الهـرماس » : هـذه الداو كانت بجوار الجامع الحاكمى من قبليه ، شارعة فى رحبـة الجامع ، على يسرة من يمر الى باب النصر . عمرها الشيخ قطب الدين محمد بن المقدسى ، المعروف بالهرماس ، وسكنها مدة .

وكان أثيرا عنـد السلطان الملك النـاصر الحسن بن محمد بن قلاوون ، له فيه اعتقاد كبير . فعظم عند الناس قدره ، واشتهر فيما بينهم ذكره . الى أن دبت بينه وبين الشـيخ شمس الدين محمد بن النقاش عقارب الحسد ، فسعى به عنـد السلطان الى أن تغير عليـه وأبعده .

ثم ركب فى يوم ، سـنة احدى وسـتين وسبعمائة ، من قلعة الجبل بعساكره الى باب زويلة . فعندما وصل اليه ترجل الأمراء كلهم

عن خيولهم ، ودخلوا مشاة من باب زويلة كما هي العادة ، وصار السلطان راكبا بمفرده وابن النقاش أيضا راكب بجانبه ، وسائر الأمراء والمماليك مشاة في ركابه على ترتيبهم * ، الى أن وصل السلطان الى المارستان المنصورى بين القصرين ، فنزل اليه ودخل القبة ، وزار قبر أبيه وجده واخوته ، وجلس .

وقد حضر هناك مشايخ العلم والفضلاة ، فتذاكروا بين يديه مسائل علمية ، ثم قام الى النظر في أمور المرضى بالمارستان ، فدار عليهم حتى انتهى غرضه من ذلك ، وخرج فركب وسار نحو باب النصر ، والناس مشاة في ركابه الا ابن النقاش فانه راكب بجانبه ، الى أن وصل الى رحبة الجامع الحاكمى ، فوقف تجاه دار الهرماس وأمر بهدمها ، فهدمت وهو واقف ، وقبض على الهرماس وابنه ، وضرب بالمقارع عدة شيوب ، ونفى من القاهرة الى مصياف .

فقال الامام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى في ذلك :

قد ذاق هرماس الخساره
من بعد عز وجساره
حسب البهتان يبقى
أخرب الله دياره

فلما قتل السلطان في سنة اثنتين وستين ، عاد الهرماس الى القاهرة ، وأعاد بعض داره .

فلما كانت سنة ثمانين وسبعمائة ، صارت هذه الدار الى الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب ، فأنشأها قاعة وعدة حوانيت وربعا علو ذلك ، وانتقل من بعده الى أولاده ، وهو بأيديهم الى اليوم .

« دار أوحد الدين » : هذه الدار بداخل درب السلامى ، في رحبة باب العيد مقابل قصر الشوك ، والى جانب المارستان العتيق الصلاحى . كان موضعها من حقوق القصر الكبير ، وصار أخيرا طاحونا ، فهدمها القاضى أوحد الدين عبد الواحد أيام كان يباشر توقيع الأمير الكبير برقوق بعد سنة ثمانين وسبعمائة .

فلما حفر أساس هذه الدار ، وجد فيه هيئة قبة معقودة من لبن ، وفى داخلها انسان ميت قد بليت أكفانه ، وصار عظما نخرا ، وهو فى غاية طول القامة يكون قدر خمسة أذرع ، وعظام ساقيه خلاف ما عهد من الكبر ، ودماغه عظيم جدا .

فلما كملت هذه الدار سكنها أيام مباشرته وظيفة كتابة السر الى أن مات بها ، وقد حبسها على أولاده ، فاستمرت بأيديهم الى أن أخذها منهم الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، كما أخذ غيرها من الأوقاف ، فاستمرت في جملة ما بيده الى أن قتله الملك الناصر فرج ، فقبضها فيما قبض مما خلفه جمال الدين .

فلما قتل الملك الناصر فرج ، واستقل الملك المؤيد شيخ بمملكة مصر ، استرجع أولاد جمال الدين ما كان أخذه الناصر من أملاك جمال الدين ، وصارت بأيديهم الى أن وقف له أولاد أوحد الدين فى طلب دار أبيهم ، فعقد لذلك مجلس اجتمع فيه القضاة ، فتبين

(*) ص٧٦ جـ٢ ، طبعة بولاق .

أن الحق بيد أولاد أوحد الدين ، فقضى باعادة الدار الى ما وقفها عليه أوحد الدين ، فتسلمها أولاد أوحد الدين من ورثة جمال الدين ، وهى الآن بأيديهم .

« عبد الواحد » بن اسماعيل بن ياسين الحنفى ، أوحد الدين كاتب السر ، ولد بالقاهرة ، ونشأ بها فى كنف قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن على التركمانى الحنفى لصهارة كانت بين أبيه وبين التركمانية ، وباشر توقيع الحكم مدة .

واتفق أن أميرا من أمراء الملك الأشرف شعبان بن حسين ، يعرف بيونس الرماح ، مات . فادعى برقوق العثمانى ، أحد المماليك اليلبغاوية ، أنه ابن عم يونس هذا ، وأنه يستحق ارثه لموته عن غير ولد ، وحضر الى المدرسة الصالحية بين القصرين — حيث يجلس القضاة للحكم بين الناس — حتى يثبت ما ادعاه .

فلما أراد الله من اسعاد جد أوحد الدين ، لم يقف برقوق على أحد من موقعى الحكم الا عليه ، وأخبره بما يريد . فبادر الى توريق سؤال باسم برقوق ، وانهائه أنه ابن عم يونس الرماح ، وأن عنده بينة تشهد بذلك ، ودخل بهذا السؤال الى قاضى القضاة ، وأنهى العمل حتى ثبت أن برقوق ابن عم يونس يستحق ارثه .

فلما فرغ من ذلك دفع برقوق الى أوحد الدين مبلغ دراهم أجرة توريقه ، كما هى عادة أهل مصر فى هذا ، فامتنع من أخذها ، وألحف برقوق فى سؤاله وهو يمتنع . فتقلد له برقوق المنة بذلك ، واعتقد أمانته وخيره ، وصار — لكثرة ركونه اليه — اذا قدم فلاحو اقطاعه يبعثهم اليه حتى يحاسبهم عما حملوه من الخراج .

فلما قتل الملك الأشرف ، وثارت المماليك وكان من أمرهم ما كان ... الى أن تغلب برقوق ، وصار من جملة الأمراء ، واستولى على الاصطبل السلطانى فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة ، وصار أميراخور أقام أوحد الدين موقعا عنده .

وما زال أمر برقوق يزداد قوة حتى آنيطت به أمور المملكة كلها ، فصار أوحد الدين صاحب الحل والعقد ، وكاتب السر بدر الدين محمد بن على بن فضل الله اسما لا معنى له ... الى أن جلس الأمير برقوق على تخت المملكة فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فقرر القاضى أوحد الدين فى وظيفة كتابة السر عوضا عن ابن فضل الله ، وخلع عليه فى يوم السبت ثانى عشر شوال من السنة المذكورة . فباشر كتابة السر على القالب الجائز ، وضبط الأمور أحسن ضبط ، وعكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه .

وكان الأمير يونس الدوادار يرى أنه أكثر الناس من الأمراء تمكينا من السلطان ، وجرت العادة * بانتماء كاتب السر الى الدوادار ، فأحب أوحد الدين الاستبداد على الأمير يونس الدوادار ، فقال للسلطان سرا فى غيبة يونس : ان السلطان يرسم بكتابة مهمات الدولة وأسرار المملكة الى البلاد الشامية

(*) ص٧٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وغيرها ، والأمير الدوادار يريد من المملوك أن يطلع على ذلك ، فلم يقدر المملوك على مخالفته ، ولا أمكنه اعلامه الا باذن .

فأنف السلطان من ذلك ، وقال : الحذر أن يطلع على شيء من مهمات السلطان أو أسراره .

فقال : أخاف منه ان سأل ولم أعلمه .

فقال السلطان : ما عليك منه .

فرأى أنه قد تمكن حينئذ فأمسك أياما .

ثم أراد الازدياد من الاستبداد ، فقال للسلطان سرا : قد رسم السلطان ألا يطلع أحد على سر السلطان ، ولا يعرف بما يكتب من المهمات ، وطائفة البريدية كلهم يمشون في خدمة الدوادار ، فاذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد منهم في مهم ، يحتاج المملوك الى استدعائه من خدمة الأمير الدوادار ، فاذا التمس منى أنى أخبره بالمعنى الذى توجه فيه البريدى لا أقدر على اعلامه بذلك ، ولا آمن ان كتمته . وانصرف .

فلما كان من الغد ، وطلع الأمراء الى الخدمة على العادة ، قال السلطان للأمير يونس الدوادار : أرسل البريدية كلهم الى كاتب السر ليمشوا ويركبوا معه . فلم يجد بدا من ارسالهم ، وحصل عنده من ارسالهم المقيم المقعد .

فصار البريدية يركبون نوبا فى خدمة أوحد الدين ، ويتصرف فى أمور الدولة وحده مع سلطانه . فانفرد بالكلمة ، وخضع له الخاص والعام . الا أنه نغص عليه فى نفسه ، ومرض مرضا طويلا سقطت معه شهوة الطعام بحيث انه لم يكن يشتهى شيئا من الغذاء ، وتنوع له المآكل بين يديه لكى تميل نفسه الى شيء منها ، ومتى تناول غذاء تقيأه فى الحال .

وما زال على ذلك الى أن مات عن سبع وثلاثين سنة ، فى يوم السبت ثانى ذى الحجة سنة ست وثمانين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر . فلم يتأخر أحد من الأمراء والأعيان عن جنازته .

وكان حسن السياسة ، رضى الخلق ، عاقلا ، كثير السكون ، جيد السيرة ، جميل الصورة ، حسن الهيئة ، عارفا بأمر دنياه ، محبا للمداراة ، صاحب باطن ، قليل العلم . رحمه الله .

« ربع الزيتى » : هذا الربع كان بجوار قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى ، وكان يشتمل على عدة مساكن ينزلها أهل الخلاعة للقصف . فانه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين .

ففى شرقيه غيط الزيتى وقد خرب وموضعه اليوم بركة ماء . وفى غربيه غيط الحاجب بيبرس — وأدركته عامرا ، وهو اليوم مزارع بعد ما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل ، وعليه سياج من طين دائر به — ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنينة التى بأرض الطبالة . ومن بحريه بساتين تتصل بالبعل وكوم الريش .

وما زال هذا الربع معمورا باللذات ، آهلا بكثرة المسرات ... الى أن كانت سنة الغرقة

— وهي سنة خمس وخمسين وسبعمائة — فخربت دور كوم الريش وغيرها ، ووصل ماء النيل الى قنطرة الحاجب ، فخرب ربع الزيتى ، وأهمل أمره ، حتى صار كوما عظيما ، تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب . وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه .

وكانت العامة تقول فى هزلها : ستى أين كنتى وأين رحتى واين جيتى . قالت : من ربع الزيتى .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

« الدار التى فى أول البرقية من القاهرة التى حيطانها حجارة بيض منحوتة » : هذه الدار بقى منها جدار على يمين من سلك من المشهد الحسينى يريد باب البرقية ، ويقى منها أيضا جدار على يمين من سلك من رحبة الأيدمرى الى باب البرقية . وهى دار الأمير صبيح بن شاهنشاه ، أحد أمراء الدولة الفاطمية فى أيام الصالح طلائع بن رزيك ، وكانت فى غاية الكبر والتحسين .

قال بعض أصحاب الصالح : يامولانا أبقاك الله حتى تتم دار ابن شاهنشاه .

وكان الضرغام ، قبل أن يلى وزارة مصر ، قد فرس العادل أبا شجاع رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك ، فظهر منه فارسا فى غاية الفروسية ، بحيث انه قد حضر فى يوم عيد الحلقة ، وأخذ رمحا وحربة وقوسا وسهما ، فأخذ الحلقة بالرمح ، ورمى بالسهم فأصاب الغرض ، وحذف بالحربة فأثبتها فى المرمى ، ولعب بالرمح فى غاية الحسن . ثم دخل صبيح ابن شاهنشاه ، فعمل مثل ذلك .

فتحرك الضرغام — وكان يلبس عمامة بعذبة وأكمام واسعة على زى المصريين يومئذ — فتلثم بعذبته ، ولف أكمامه ، وأخذ رمحه ، ولعب به فى غاية الحسن ، وطرد كذلك ، ودخل فى الحلقة وأخذها .

فعجب منه كل من فى العسكر ، فأخذ عند ذلك الأمير صبيح بن شاهنشاه المبخرة ، وأتى اليه وقال : يامولاى كفاك الله أمر العين ، فان هذا شىء ما يقدر عليه أحد . وجعل يدور حول فرسه ويبخره ، والضرغام يتبسم ويعجبه ذلك .

وبعد هذا كان قتل ابن شاهنشاه على يده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ولم تكمل هذه الدار .

« دار ألتمر » : هذه الدار بمدينة مصر من خارجها ، فيما انحسر * عنه ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، وتعرف اليوم بصناعة ألتمر ، تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج ، ومن جملتها بيت برهان الدين ابراهيم الحلى ومدرسته . وهذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن على البيسانى على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج .

قال القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى كتاب « الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم » : ومن جملة بنائه دار ألتمر بمصر المحروسة ، ولها دخل عظيم يجمع ويشترى به الأسرى من بلاد

(*) ص٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

الفرنج ، وذلك مستمر الى هذا الوقت . وفى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون ويطوفون ويدعون له ، وسمعتهم مرارا يقولون : « ياألله يارحمن يارحيم ، ارحم القاضى الفاضل عبد الرحيم » .

وقال القاضى جمال الدين بن شيث : كان للقاضى الفاضل ربع عظيم يؤجره بمبلغ كبير ، فلما عزم على الحج ركب ، ومر به ووقف عليه ، وقال : « اللهم انك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب الى منه (أو قال أعز على منه) ، اللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج » .

وقال ابن المتوج : ومن جملة الأوقاف الوقف الفاضلى . وهو الدار المشهورة بصناعة ألتمر ، الوقف على فكاك الأسرى من يد العدو ، المشتملة على مخازن وأخصاص وشون ومنازل علوية وحوانيت بمجازها وظاهرها ، وهى اثنا عشر حانوتا ، وخمسة مقاعد ، وثمانية وخمسون مخزنا ، وخمسة عشر خصا ، وست قاعات وساحة ، وست شون ، وخمسة وسبعون منزلا ، وخمسة مقاعد علوية ... الأجرة عن ذلك جميعه ، الى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وستمائة ، فى كل شهر ألف ومائة وستة ثلاثون درهما نقرة . واستجد بها القاضى جمال الدين الوجيزى خليفة الحكم بمصر ، حين كان ينظر فى الأوقاف ، دارا من ربع الوقف فأكلها البحر ، فأمر ببناء زريبة أمامها من مال الوقف .

« عمارة أم السلطان » : هذه العمارة من جملة المنحر . كانت دارا تعرف بالأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، ولها باب من الدرب الأصفر الذى هو الآن تجاه خانقاه بيبرس ، وباب من المحايريين تجاه الجامع الأقمر . عرفت هذه الدار بالأمير مظفر الدين موسى الصالح على بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى ، ثم خربت فأنشأتها خوند أم الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وجعلت منها قيسارية بخط الركن المخلق يباع بها الجلود ، ويعلوها ربع جليل لسكن العامة يشتمل على عدة طباق ، ووقفت ذلك على مدرستها بخط التبانة خارج باب زويلة .

فلم تزل جارية فى وقفها الى أن اغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما أخذ من الأوقاف ، وجعلها وقفا على مدرسته بخط رحبة باب العيد من القاهرة .

وجعلت خوند بركة من جملة هذه الدار قاعة لم يعمر فيها سوى بوابتها لا غير ، وهى أجل بوابات الدور ، وقد دخلت أيضا فيما أخذه جمال الدين ، وصارت بيد مباشرى مدرسته الى أن أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيز برسباى الدقماقى الظاهرى ، وابتدأ بعملها وكالة فى شوال سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فكملت فى رجب سنة ست وعشرين ، وغير من الطراز المنقوش فى الحجارة بجانبى باب الدخول اسم شعبان بن حسين وكتب برسباى ، فجاءت من أحسن المبانى ، ويعلوها طباق للسكنى .

ولم يسخر فى عمارتها أحد من الناس كما أحدثه ولاة السوء فى عمائرهم ، بل كان العمال من البنايين والفعلة ونحوهم يوفون أجورهم من غير عنف ولا عسف ، فانه كان

القائم على عمارتها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش ، وهذه عادته فى أعماله ألا يكلف فيها العمال غير طاقتهم ، ويدفع اليهم أجورهم . والله أعلم .

ذكر الحمامات

قال ابن سيده : الحمام والحميم والحميمة جميعا الماء الحار ، والحميمة أيضا المخض اذا سخن ، وقد أحمه وحمه ، وكلما سخن فقد حم .

قال ابن الأعرابى : والحمائم جمع الحميم الذى هو الماء الحار . وهذا خطأ لأن فعيلا لا يجمع على فعائل ، وانما هو جمع الحميمة الذى هو الماء الحار لغة فى الحميم مذكر ، وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعال نحو القذاف والجبان ، والجمع حمامات .

قال سيبويه : جمعوه بالألف والتاء وان كان مذكرا حيث لم يكسر ... جعلوا ذلك عوضا من التكسير .

والاستحمام الاغتسال بالماء الحار ، وقيل هو الاغتسال بأى ماء كان ، والحميم العرق ، واستحم الرجل عرق .

وأما قولهم لداخل الحمام اذا خرج « طاب حميمك » فقد يعنى به العرق ، أى طاب عرقك . واذا دعى له بطيب العرق فقد دعى له بالصحة ، لأن الصحيح يطيب عرقه .

وروى عن سفيان الثورى أنه قال : مادرهم ينفقه المؤمن هو فيه أعظم أجرا من درهم يعطيه صاحب حمام ليخليه له . قال محمد بن اسحاق فى كتاب « المبتدى » : ان أول من اتخذ الحمامات والطلاء بالنورة سليمان بن داود عليهما السلام ، وانه لما دخل ووجد حميمه قال : « أواه من عذاب الله أواه » .

وذكر المسيحى فى تاريخه أن العزيز * بالله نزار بن المعز لدين الله أول من بنى الحمامات بالقاهرة .

وذكر الشريف أسعد الجوانى ، عن القاضى القضاعى ، أنه كان فى مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما .

وقال ابن المتوج : ان عدة حمامات مصر فى زمنه بضع وسبعون حماما .

وذكر ابن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة الى آخر سنة خمس وثمانين وستمائة تقرب من ثمانين حماما . وأقل ما كانت الحمامات ببغداد ، فى أيام الخليفة الناصر أحمد بن المستنصر ، نحو الألفى حمام .

« حماما السيدة العمة » : قال ابن عبد الظاهر : حماما الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة ، وانتقلتا الى الكامل بن شاور ، ثم الى ورثة الشريف بن ثعلب ، وهما الآن بأيديهم ، ولا تدور الا الواحدة .

وهاتان الحمامان كانتا على يمنة من يدخل من أول حارة الروم ، تجاه ربع الحاجب ، المعروف الآن بربع الزياتين ، علو الفندق الذى بابه بسوق الشوايين . وكانت احداهما برسم الرجال ، والأخرى برسم النساء ، وقد خربتا ولم يبق لهما أثر ألبتة .

(*) ص٧٩ جـ٢ ، ط . بولاق .

« حمام الساباط » : قال ابن عبد الظاهر : كان فى القصر الصغير باب يعرف بباب الساباط . كان الخليفة فى العيد يخرج منه الى الميدان — وهو الخرشتف الآن — الى المنحر لينحر فيه الضحايا .

قلت : حمام الساباط هذا يعرف فى زمننا بحمام المارستان المنصورى ، وهو برسم دخول النساء عند باب سر المارستان المنصورى . وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربى ، ويعرف أيضا بحمام الصنيمة .

فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين من القاهرة ، باعها القاضى مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنذر بن محمد العدل الأنصارى الشافعى ، وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، للأمير عز الدين أيبك العزيزى ، هى وساحات تحاذيها ، بألف ومائتى دينار فى ذى الحجة سنة تسعين وخمسمائة .

ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الدين قيمار بن عبد الله الحموى التاجر بألف وستمائة دينار ، فورثها من بعده من استحق ارثه ، ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى العادلى فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وانتقلت أيضا منها حصة الى ملك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى ، أستادار الملك الظاهر بيبرس ، فى سنة ثمان وسبعين وستمائة .

فلما تملك الملك المنصور قلاوون الألفى ، وأنشأ المارستان الكبير المنصورى ، صارت فيما هو موقوف عليه ، وهى الآن فى أوقافه ، ولها شهرة فى حمامات القاهرة .

« حمام لؤلؤ » : هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السنانى . أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى أيام ...

« حمام الصنيمة » : هذه الحمام كانت بالقرب من خزانة البنود ، على يسرة من سلك فى رحبة باب العيد الى قصر الشوك ، وقد خربت وعمل فى موضعها مبيضة للغزل بالقرب من الجمالية .

« حمام تتر » : هذه الحمام كانت بخط دار الوزارة الكبرى ، وقد خربت وصار مكانها دارا عرفت بالأمير الشيخ على ، وهى الدار المجاورة للمدرسة النابلسية فى الزقاق المقابل للخانقاه الصلاحية سعيد السعداء .

و « تتر » هذا — بتاءين مفتوحتين كل منهما منقوط بنقطتين من فوق — أحد مماليك أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . استولى على هذه الحمام ، وكانت معدة لدار الوزارة فى مدة الدولة الفاطمية ، فعرفت به وما حولها . والى الآن يعرف ذلك الخط بخط خرائب تتر ، والعامة تقول : خرائب التتر بالتعريف ، وهو خطأ .

« حمام كرجى » : هذه الحمام كانت بخط خرائب تتر أيضا ، فى جوار المدرسة النابلسية تجاه باب الخانقاه الصلاحية . عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدى ، أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف

ابن أيوب . وقد خربت هذه الحمام ، وبنى فى مكانها هذا البناء الذى تجاه باب الخانقاه بأول الزقاق .

« حمام كتيلة » : هذه الحمام كانت داخل باب الخوخة برأس سويقة الصاحب . عرفت أخيرا بالأمير صارم الدين ساروج شاد الدواوين ، ثم خربت فى أيام ... ... ومكانها الآن مسمط يذبح فيه الغنم وتسمط .

« حمام ابن أبى الدم » : هذه الحمام كانت فيما بين سويقة المسعودى وباب الخوخة . أنشأها ابن أبى الدم اليهودى ، أحد كتاب الانشاء فى أيام الخليفة الحاكم ، وتولى ابن خيران الديوان ، ونقل عنه أنه وسع بين السطور فى كتاب كتبه الى الخليفة ... ... وهذه مكاتبة الأعلى الى الأدنى . فلما حضر وأنكر عليه ، ألحق بين السطر والسطر سطرا مناسبا للفظ والمعنى من غير أن يظهر ذلك ، فعفا عنه .

وقد خربت ، وصار مكانها دربا فيه دور يعرف بسكن القاضى بدر الدين حسن البردينى أحد خلفاء الحاكم العزيزى الشافعى . وأدركت بعض آثار هذه الحمام .

« حمام الحصينية » : هذه الحمام كانت فى سويقة الصاحب من داخل درب الحصينية ، الذى يعرف اليوم بدرب ابن عرب ، وقد خربت .

« حمام الذهب » : هذه الحمام كانت بدار الذهب ، احدى مناظر الخلفاء الفاطميين التى ذكرت فى المناظر من هذا الكتاب ، وقد خربت هذه الحمام ولم يبق لها أثر * .

(*) ص٨٠ جـ٢ ، ط . بولاق .

« حمام ابن قرقة » : هذه الحمام كانت بخط سويقة المسعودى من حارة زويلة . أنشأها أبو سعيد بن قرقة الحكيم ، متولى الاستعمالات بدار الدبياج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية ، بجوار داره التى تقدمت فى الدور من هذا الكتاب .

ثم عرفت هذه الحمام فى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة ، المنسوب اليه سويقة المسعودى المذكورة فى الأسواق من هذا الكتاب .

ثم خربت هذه الحمام ، وعمل فى موضعها فندق عرف أخيرا بفندق عمار الحمامى بجوار جامع ابن المغربى من جانبه الغربى ، وأخذت بئر هذه الحمام فعملت للحمام التى تعرف اليوم بحمام السلطان .

« حمام السلطان » : هذه الحمام يتوصل اليها الآن من سويقة المسعودى ومن قنطرة الموسكى ، وهى من الحمامات القديمة . عرفت فى الدولة الفاطمية بحمام الأوحد ، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية بحمام ابن يحيى ، وهو القاضى المفضل هبة الله بن يحيى العدل ، ثم عرفت بحمام الطيبرسى ، ثم هى الآن تعرف بحمام السلطان .

« حمام خوند » : هذه الحمام بجوار رحبة خوند المذكورة فى الرحاب من هذا الكتاب . وكانت برسم الدار التى تعرف الآن بدار خوند أردتكين ، ثم أفردت وصارت الى الآن حماما يدخله عامة الرجال فى أوائل النهار ، ثم تعقبهم النساء من بعد ... الى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد أستادار السلطان ابن الأمير

الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله في شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وعمل موضعها من جملة داره التي هناك .

« حمام ابن عبود » : هذه الحمام موضعها فيما بين اصطبل الجميزة ، المذكور في اصطبلات الخلفاء من هذا الكتاب ، وبين رأس حارة زويلة ، وهي من الحمامات القديمة . عرفت بحمام الفلك ، وهو القاضي فلك الملك العادل ، ثم عرفت بالأمير على بن أبي الفوارس .

ثم عرفت بابن عبود . وهو الشيخ نجم الدين أبو علي الحسين بن محمد بن اسماعيل ابن عبود القرشي الصوفي ، مات في يوم الجمعة ثالث عشرى شوال سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، بعد ما عظم قدره ، ونفذ في أرباب الدولة نهيه وأمره . وهو صاحب الزاوية المعروفة بزاوية ابن عبود بلحف الجبل قريبا من الدينوري من القرافة ، فانظرها في الزوايا من هذا الكتاب .

ولم تزل هذه الحمام جارية في أوقاف التربة المذكورة الى أن تسلط الأمير جمال الدين على أموال أهل مصر . فاغتصب ابن أخته الأمير شهاب الدين أحمد ، المعروف بسيدى أحمد ابن أخت جمال الدين ، هذه الحمام ، واغتصب دار ابن فضل الله التي تجاه هذه الحمام ، واغتصب آدرا أخر بجوارها ، وعمر هناك دارا عظيمة كما قد ذكر في الدور من هذا الكتاب .

« حمام الصاحب » : هذه الحمام بسويقة الصاحب . عرفت بالصاحب الوزير صفي الدين عبد الله بن شكر الدمرى ، صاحب المدرسة الصاحبية التي بسويقة الصاحب ، ثم تعطلت مدة سنين . فلما ولى الأمير تاج الدين الشوبكي ولاية القاهرة في أيام الملك المؤيد شيخ جددها ، وأدار بها الماء في سنة سبع عشرة وثمانمائة .

« حمام السلطان » : هذه الحمام كان موضعها قديما من جملة دار الديباج ، وهي الآن بخط بين العواميد من البندقانيين ، بجوار خوخة سوق الجوار ومدرسة سيف الاسلام . أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار السلطان الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب ، وتنقلت الى أن صارت في أوقاف الملك الناصر محمد بن قلاوون .

« حماما طغريك » : هاتان الحمامان بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية . أنشأهما الأمير حسام الدين طغربك المهراني أحد الأمراء الأيوبية .

« حمام السوباشي » : هذه الحمام كانت بدرب طلائع بخط الخروقيين الذي يعرف اليوم بسوق الفرايين . عرفت بالأمير الفارس همام الدين أبو سعيد برغش السوباشي ، واسمه عمرو بن كحت بن شيرك العزيزي ، والي القاهرة .

« حمام عجينة » : هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين . أنشأها الأمير فخر الدين ، أخو الأمير عز الدين موسك ، في الدولة الأيوبية ، وتنقلت حتى صارت بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري مما أوقف عليهم ، وعرفت

أخيرا بحمام عجينة ، ثم خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة ، وموضعها الآن خربة بجوار الفندق الكبير المعد لديوان المواريث .

« حمام درى » : هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين الآن . عرفت بشهاب الدولة درى الصغير غلام المظفر بن أمير الجيوش .

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « النقط لمعجم ما أشكل من الخطط » : شهاب الدولة درى — المعروف بالصغير المظفرى — غلام المظفر أمير الجيوش . كان أرمنيا وأسلم ، وكان من المشددين فى مذهب الامامية ، وقرأ الجمل فى النحو للزجاجى ، وكتاب اللمع لابن جنى .

وكانت له خرائط من القطن الأبيض فى يديه ورجليه ، وكان يتولى خزائن الكسوة ، ولا يدخل على بسط السلطان ولا بسط الخليفة الحافظ لدين الله ، ولا يدخل مجلسه الا بتلك الخرائط فى رجليه ، ولا يأخذ من أحد * شيئا الا وفى يديه خريطة .

يظن أن كل من لمسه نجسه ... وسوسة منه . فاذا اتفق أنه صافح أحدا ، أو مس رقعة بيده من غير خريطة ، لا يمس ثوبه بها أبدا حتى يغسلها ، فان لمس ثوبه بها غسل الثوب . وكان الأستاذون المحنكون يرمون له فى بساط الخليفة الحافظ العنب ، فاذا مشى عليه وانفجر ووصل ماؤه الى رجليه سبهم وحرد . فيعجب

الخليفة من ذلك ويضحك ، ولا يؤاخذه بما صدر منه . ومات بعد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

وقد خربت هذه الحمام ، ولم يبق لها أثر يعرف .

« حمام الرصاصى » : هذه الحمام كانت بحارة الديلم . أنشأها الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء المروانى ، حامل السيف المنصور ، وأوقفها هي وجميع الآدر المجاورة لها على أولاده وذريته . فلما زالت الدولة الفاطمية ، عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى ، ولم تزل باقية الى بعد سنة أربعين وسبعمائة ثم خربت .

« حمام الجيوشى » : هذه الحمام كانت بحارة برجوان ، على يمنة من دخل من رأس الحارة ، وكانت من حقوق دار المظفر ابن أمير الجيوش ، ثم صارت بعد زوال الدولة الفاطمية من جملة ما أوقفه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب على رباطه الذى كان بخط النخالين من فسطاط مصر . ثم وضع بنو الكويك ، أصهار قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة ، أيديهم عليها فى جملة ما وضعوا أيديهم عليه من الأوقاف بحارة ابن جماعة ، وانتفعوا بريعها مدة سنين ، ثم خربوها بعد سنة أربعين وسبعمائة .

وموضعها الآن بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى ، وبعضها داخل فى الدار المذكورة ، وبئرها بجوار القبو الذى يسلك من تحته الى حمام الرومى داخل حارة برجوان ، ويعلو هذا العقد حاصل الماء الذى

(*) ص٨١ ج٢ ، ط. بولاق

للحمام ، ويمر على مجراه من حجرة مركبة على جدار بجوار القبو الى الحمام المذكورة ، وآثار هذا الجدار باقية الى اليوم .

وكان قد استأجر هذه البئر والقبو بعد تعطل الحمام القاضى أبو الفداء تاج الدين اسماعيل بن أحمد بن الخطباء المخزومى ، من مباشرى أوقاف رباط العادل ، وبنى على البئر وبجوارها دارا سكنها مدة أعوام ، وأنشأ بأعلى حاصل الماء المركب على القبو مشرفا عاليا تأنق فى ترخيمه ودهانه ، وكتب بدائره :

مشترف كم شبهوه الأدبا
لحسنه اذ جاء شيئا عجبا

فقال قوم قلعة مبنية
وآخرون شبهوه مرقبا

وشاعر أعجبه ترخيمه
فقال تلك روضة فوق الربا

وقائل ماذا ترى تشبيهه
فقلت هذا منبر ابن الخطبا

ثم خربت هذه الدار بعد موت ابن الخطباء واحترقت فى سنة تسع وثمانمائة ، وآثارها باقية . وما زال ابن الخطباء يدفع حكر هذه البئر وهذا القبو لجهة الرباط العادلى حتى خرب ، وعفى أثره وجهل مكانه . وقد رأيته فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة عامرا .

« حمام الرومى » : هذه الحمام بجوار حارة برجوان . عرفت بالأمير سنقر الرومى الصالحى ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، أنشأها بجوار اصطبله الذى يعرف اليوم باصطبل ابن الكويك ، وذلك تجاه رحبة داره التى عرفت بدار مازان ، ووقف هذه الدار والاصطبل والحمام المذكورة فى سنة اثنتين وستين وستمائة .

فأما الدار فانها صارت أخيرا بيد رجل من عامة الناس يعرف بعيسى البناء ، فباعها أنقاضا بعدما خربها فى سنة سبع وثمانمائة لرجل من المباشرين ، فهدمها ليعمرها عمارة جليلة ، فلم يمهل وعاجله القضاء فمات وصارت خربة ، فابتاعها بعض الناس من ورثة المذكور ، وشرع فى عمارة شيء منها .

وأما الاصطبل والحمام ، فوضع بنو الكويك أيديهم عليهما مدة أعوام حتى صارا ملكا لهم يورثان ، وهما الآن بيد شرف الدين محمد بن محمد بن الكويك ، وقد جعل ما يخصه من الحمام وقفا على نفسه ثم على أناس من بعده .

وفى هذه الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين ابراهيم الشامى الضرير على أمته وهى بيدها .

« سنقر الرومى » الصالحى النجمى : أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية . ترقى عنده فى الخدم حتى صار جامدار ، وكان من خوشداشية بيبرس البندقدارى وأصدقائه .

فلما قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك التركمانى ، وخرج البحرية من القاهرة الى بلاد الشام ، كان سنقر ممن خرج ورافق

بيبرس ، وارتفق بصحبته ونال منه مالا وثيابا وغير ذلك ، وتنقل معه فى الكرك ... الى أن كان من أمره فى الصيد مع صاحب الكرك ، فطلب سنقر من بيبرس شيئا فلم يجبه ، وامتنع من اعطائه ، فحنق وفارقه الى مصر فأقام بها .

ثم ان بيبرس قدم الى مصر بعد ذلك وقد صار أميرا ، فلم يعبأ سنقر به ، ولا قدم اليه شيئا كعادة الخوشداشية . فلما صار الأمر الى بيبرس ، وملك بعد قطز ، قدم سنقر وأعطاه * الاقطاعات الجليلة ونوه بقدره فلم يرض ، فصار اذا ورد عليه الانعام السلطانى لا يأخذه بقبول ، ويخلو كل وقت بجماعة بعد جماعة ، ويفرق فيهم المال ، فيبلغ ذلك السلطان ويغضى عنه ، وربما بعث اليه وحذره مع الأمير قلاوون وغيره فلم ينته .

ثم انه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب ، فعز قتلهما على السلطان ، فطلبه فى رابع عشرى ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة واعتقله . فقال : أريد أعرف ذنبى .

فبعث اليه السلطان يعدد ذنوبه ، فتحسر وقال : أواه لو كنت حاضرا قتل الملك المظفر قطز حتى أعاند فى الذى جرى .

وكان كثيرا ما يقول ذلك . وبلغ هذا القول منه السلطان فى حال امرته ، فقال : أنت أخى ، وتتحسر كونك ما قدرت أن تعين على .

« حماما سويد » : هاتان الحمامان بآخر سويقة أمير الجيوش . عرفتا بالأمير عز الدين معالى بن سويد . وقد خربت احداهما — ويقال انها غارت فى الأرض ، وهلك فيها جماعة — وبقيت الأخرى ، وهى الآن بيد الخليفة أبى الفضل العباسى بن محمد المتوكل .

« حمام طغلق » : هذا الحمام بجوار درب المنصورى من خط حارة الصالحية . صارت أخيرا بيد ورثة الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين . وكانت معدة لدخول الرجال ، ثم تعطلت بعد سنة تسعين وسبعمائة وأخذ حاصلها . وعهدى بها بعد سنة ثمانمائة أطلالا واهية .

« حمام ابن علكان » : هذه الحمام كانت بحارة الجودرية . أنشأها الأمير شجاع الدين عثمان ابن علكان ، صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل ، ثم انتقلت الى الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى النجمى ، وما زالت الى أن خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة ، فعمر مكانها الأمير أزدمر الكاشف اصطبلا بعد سنة خمسين وسبعمائة .

« حمام الصاحب » : هذه الحمام بخط طواحين الملحيين .

« حمام كتبغا الأسدى » : هذه الحمام موضعها الآن المدرسة الناصرية بخط بين القصرين .

« حمام ألتطمش خان » : هذه الحمام كانت بجوار ميضأة الملك ركن الدين الظاهر بيبرس المجاورة للمدرسة الظاهرية بخط بين [القصرين] . أنشأتها الخاتون ألطتمش خان ،

(*) ص٨٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

زوجـة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، ثم خربت وصار موضعها زقاقا .

فلما ولى كمال الدين عمر بن العديم قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية فى سلطنة الملك الناصر فرج ، شرع فى عمارة هذا الزقاق فمات ولم يكمله ، فوضع الأمير جمال الدين يده فى العمارة ، وأنشأها فندقا جعله وقفا فيما وقفه على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد .

فلما قتله الملك الناصر فرج ، واستولى على جميع ما تركه ، جعل هذا الفندق من جملة ما أرصده للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر .

« حمام القاضى » : هذه الحمام من جملة خط درب الأسوانى ، وهى من الحمامات القديمة . كانت تعرف بانشاء شهاب الدولة بدر الخاص أحد رجال الدولة الفاطمية .

ثم انتقلت الى ملك القاضى رضى الدين عبد الناصر بن تقى الدين فعرفت به ، ثم صارت الى ملك القاضى السعيد أبى المعالى هبة الله ابن فارس ، وصارت بعده الى ملك القاضى كمال الدين أبى حامد محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى ، فعرفت بحمام القاضى الى اليوم .

ثم باع ورثة أبى حامد منها حصة للأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وصارت منها حصة الى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى ، فجعلها وقفا على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر .

« حمام الخراطين » : هذه الحمام أنشأها الأمير نور الدين أبو الحسن على بن نجا بن راجح بن طلائع ، فعرفت بحمام ابن طلائع . وكان بجوارها ثم حمام أخرى تعرف بحمام السوباشى فخربت . ومستوقد حمام ابن طلائع هذه الى الآن من درب ابن طلائع الشارع بسوق الفرايين الآن ، ولها منه أيضا باب .

وصارت أخيرا فى وقف الأمير علم الدين سنجر السرورى ، المعروف بالخياط ، والى القاهرة وتوفى فى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فاغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى جملة ما اغتصب من الأوقاف والأملاك وغيرها ، وجعلها وقفا على مدرسته برحبة باب العيد ، وهى الآن موقوفة عليها .

« حمام الخشيبة » : هذه الحمام بجوار درب السلسلة . كانت تعرف بحمام قوام الدولة خير ، ثم صارت حماما لدار الوزير المأمون ابن البطائحى . فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله ، وعملت خشيبة تمنع الراكب أن يمر من تجاه المشهد الذى بنى هناك ، عرفت هذه الحمام بخشيبة (تصغير خشبة) ، وقد تقدم ذلك مبسوطا عند ذكر الأخطاط من هذا الكتاب .

قال ابن عبد الظاهر : مدرسة السيوفيين وقفها الأمير عز الدين فرج شاه على الحنفية . وكانت هذه الدار قديما تعرف بدار المأمون بن البطائحى وحمام الخشيبة كانت لها فبيعت . وهذه الحمام هى الآن فى أوقاف خوند طغاى أم أنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون

على تربتها التى فى الصحراء خارج باب البرقية .

« حمام الكويك » : هذه الحمام فيما بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة . أنشأها الوزير عباس أحد * وزراء الدولة الفاطمية ، لداره التي موضعها الآن درب شمس الدولة ، ثم جددها شخص من التجار يعرفه بنور الدين على بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربعي التكريتى ، فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فعرفت به الى اليوم .

« حمام الجوينى » : هذه الحمام بجوار حمام ابن الكويك فيما بينها وبين البندقانيين . عرفت بالأمير عز الدين ابراهيم بن محمد بن الجوينى ، والى القاهرة فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، توفى سلخ جمادى الأولى سنة احدى وستمائة ، فانه أنشأها بجوار داره . والعامة تقول : حمام الجهينى ، بهاء ، وهو خطأ .

وتنقلت الى أن اشتراها القاضي أوحد الدين عبد الواحد بن ياسين ، كاتب السر الشريف فى أيام الملك الظاهر برقوق ، بطريق الوكالة عن الملك الظاهر ، وجعلها وقفا على مدرسته العظمى بخط بين القصرين ، وهي الآن فى جملة الموقوف عليها .

« حمام القفاصين » : هذه الحمام بالقرب من رأس حارة الديلم . أنشأها نجم الدين يوسف بن المجاور ، وزير الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(*) ص٨٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

« حمام الصغيرة » : هذه الحمام على يمنة من سلك من رأس حارة بهاء الدين ، وهى تجاه دار قراسنقر . أنشأها الأمير فخر الدين ابن رسول التركمانى . ورسول هذا جد ملوك اليمن الآن . وقد تعطلت هذه الحمام منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة .

« حمام الأعسر » : هذه الحمام موضعها من جملة دار الوزارة ، وهى الآن بجوار باب الجوانية . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر المعزى الظاهرى المنصورى .

« سنقر الأعسر » : كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام ، وجعله دواداره ، فباشر الدوادارية لأستاذه بدمشق ونفسه تكبر عنها .

فلما عزل أيدمر من نيابة الشام فى أيام الملك المنصور قلاوون وحضر الى قلعة الجبل ، اختار السلطان عدة من مماليكه منهم سنقر الأعسر هذا ، فاشتراه وولاه نيابة الأستادارية ثم سيره فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة الى دمشق وأعطاه امرة ، وولاه شد الدواوين بها وأستادارا .

فصارت له بالشام سمعة زائدة الى أن مات قلاوون ، وقام من بعده الأشرف خليل ، واستوزر الوزير شمس الدين السلعوس ... طلب سنقر الى القاهرة وعاقبه وصادره . فتوصل حتى تزوج بابنة الوزير على صداق مبلغه ألف وخمسمائة دينار فأعاده الى حالته .

ولم يزل الى أن تسلطن الملك العادل كتبغا ، واستوزر الصاحب فخر الدين بن خليل ،

وقبض على سنقر وعلى سيف الدين أستدمر وصادرهما ، وأخذ من سنقر خمسمائة ألف درهم ، وعزله عن شد الدواوين ، وأحضره الى القاهرة .

فلما وثب الأمير حسام الدين لاجين على كتبغا وتسلطن ، ولى سنقر الوزارة عوضا عن ابن خليل فى جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة ، ثم قبض عليه فى ذى الحجة منها . وذلك أنه تعاظم فى وزارته ، وقام بحق المنصب يريد أن يتشبه بالشجاعى ، وصار لا يقبل شفاعة أحد من الأمراء ويخرق بنوابهم .

وكان فى نفسه متعاظما ، وعنده شمم الى الغاية ، مع سكون فى كلامه بحيث أنه اذا فاوض السلطان فى مهمات الدولة — كما هى عادة الوزراء — لا يجيب السلطان بجواب شاف . وصار يتبين منه للسلطان قلة الاكتراث به ، فأخذ فى ذمه ، وعيبه بما عنده من الكبر ، وصادفه الغرض من الأمراء ، وشرعوا فى الحط عليه حتى صرف وقيد .

فأرسل يسأل السلطان عن الذنب الذى أوجب هذه العقوبة ، فقال : ما له عندى ذنب غير كبره ، فانى كنت اذا دخل الى أحسب أنه هو السلطان وأنا الأعسر ، فصدره منقام ، وحديثى معه كأنى أحدث أستاذى . وقرر من بعده فى الوزارة ابن الخليلى .

فلما قتل لاجين ، وأعيد الملك الناصر محمد ابن قلاوون الى الملك ثانيا ، أفرج عن سنقر الأعسر وعن جماعة من الأمراء ، وأعاد الأعسر الى الوزارة فى جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة .

وفى وزارته هذه كانت هزيمة الملك الناصر بعساكره من غازان . فتولى ناصر الدين الشيخى ، والى القاهرة ، جباية الأموال من التجار وأرباب الأموال لأجل النفقة على العساكر .

وقرر فى وزارته على كل اردب غلة خروبة اذا طلع الى الطحان ، وقرر أيضا نصف الشمسرة — ومعناها أنه كان للمنادى على الثياب أجرة دلالته على كل ما مبلغه مائة درهم درهمين ، فيؤخذ منه درهم منهما ويفضل له درهم — واستخدم على هاتين الجهتين نحو مائتين من الأجناد البطالين ، وتحصل فى بيت المال من أموال المصادرات مبلغ عظيم .

ثم خرج الوزير بمائة من مماليك السلطان ، وتوجه الى بلاد الصعيد — وقد وقعت له فى النفوس مهابة عظيمة — فكبس البلاد ، وأتلف كثيرا من المفسدين ، من أجل أنه لما حصلت وقعة غازان كثر طمع العربان فى المُغْل ، ومنعوا كثيرا من الخراج ، وعصوا الولاة ، وقطعوا الطريق .

وما زال يسير الى الأعمال القوصية ، فلم يدع فرسا لفلاح ولا قاض ولا متعمم حتى أخذه ، وتتبع السلاح ، ثم حضر بألف وستين فرسا وثمانمائة وسبعين جملا وألف وستمائة رمح وألف ومائتى سيف وتسعمائة درقة وستة آلاف رأس غنم ، وقتل عدة من الناس ، فتمهدت البلاد ، وقبض الناس مغلهم بتمامه . (*)

(*) ص ٨٤ جـ ٢ ، ط ، بولاق .

واتفقت واقعة النصارى — التى ذكرت عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب — فى أيامه . فأمر بالتاج ابن سعيد الدولة أحد مستوفى الدولة — وكان فيه زهو وحمق عظيم ، وله اختصاص بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى — فعرى وضرب بالمقارع ضربا مبرحا ، فأظهر الاسلام وهو فى العقوبة ، فأمسك عنه ، وألزمه بحمل مال ، فالتجأ الى زاوية الشيخ نصر المنبجى وترامى على الشيخ ، فقام فى أمره حتى عفى عنه .

فكره الأمراء الأعسر لكثرة شممه وتعاظمه ، فكلموا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى — واليه أمر الدولة — فى ولاية الأمير عز الدين أيبك البغدادى الوزارة ، وساعدهم على ذلك الأمير سلار . فولى الأعسر كشف القلاع الشامية واصلاح أمورها وترتيب رجالها وسائر ما يحتاج اليه ، وخلع على الأمير أيبك خلع الوزارة فى آخر سنة سبعمائة .

فلما عاد استقر أحد أمراء الألوف ، وحج فى صحبة الأمير سلار ، ومات بالقاهرة بعد أمراض فى سنة تسع وسبعمائة . وكان عارفا خيرا مهيبا له سعادات طائلة ومكارم مشهورة ، ولحاشيته ثروة متسعة ، وغالب ممالیكه تأمروا بعده ، وممن مدحه الوداعى وابن الوكيل .

« حمام الحسام » : هذه الحمام بداخل باب الجوانية .

« حمام الصوفية » : هذه الحمام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء . أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه ، وهى الى الآن جارية فى أوقافهم ، ولا يدخلها يهودى ولا نصرانى .

« حمام بهادر » : هذه الحمام موضعها من جملة القصر ، وهى بجوار دار جرجى . أنشأها الأمير بهادر أستادار الملك الظاهر برقوق ، وقد تعطلت .

« حمام ألدود » : هذه الحمام خارج باب زويلة ، فى الشارع تجاه زقاق خان حلب ، بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس . عرفت بالأمير سيف الدين ألدود الجاشنكيرى أحد أمراء الملك المعز أيبك التركمانى ، وخال ولده الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز أيبك .

فلما وثب الأمير سيف الدين قطز ، نائب السلطنة بديار مصر ، على الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك واعتقله ، وجلس على سرير المملكة ، قبض على الأمير ألدود فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة واعتقله .

وهذه الحمام الى اليوم بيد ذرية ألدود من قبل بناته موقوفة عليهم .

« حمام ابن أبى الجوافر » : هذه الحمام خارج مدينة مصر بجوار الجامع الجديد الناصرى . كان موضعها وما حولها عامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه الماء وصار جزيرة ، فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، كما ذكر عند ذكر ساحل مصر من هذا الكتاب .

وعرفت هذه الحمام بالقاضي فتح الدين أبي العباس أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل ابن محمد بن أبي الحوافر ، رئيس الأطباء بديار مصر ، ومات ليلة الخميس الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة ، ودفن بالقرافة .

« حمام قتال السبع » : هذه الحمام خارج باب القوس من ظاهر القاهرة ، فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة الى صليبة جامع ابن طولون ، وموضعها اليوم بجوار جامع قوصون . عمرها الأمير جمال الدين أقوش المنصورى ، المعروف بقتال السبع ، الموصلى بجانب داره التى هى اليوم جامع قوصون .

فلما أخذ قوصون الدار المذكورة ، وهدمها وعمر مكانها هذا الجامع ، أراد أخذ الحمام — وكانت وقفا — فبعث الى قاضي القضاة شرف الدين الحنبلي الحراني يلتمس منه حل وقفها ، فأخرب منها جانبا ، وأحضر شهود القيمة ، فكتبوا محضرا يتضمن أن الحمام المذكورة خراب .

وكان فيهم شاهد امتنع من الكتابة فى المحضر ، وقال : ما يسعنى من الله أن أدخل بكرة النهار فى هذا الحمام وأطهر فيها ، ثم أخرج منها وهى عامرة وأشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم أنها خراب . فشهد غيره ، وأثبت القاضي الحنبلي المحضر المذكور ، وحكم ببيعها . فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع ، وهى اليوم عامرة بعمارة ما حولها .

« حمام لؤلؤ » : هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السنانى من القاهرة . أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب .

« لؤلؤ الحاجب » : كان أرمنى الأصل ومن جملة أجناد مصر فى أيام الخلفاء الفاطميين . فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر ، خدم تقدمة الأسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم . ثم ترك الجندية وزوج بناته — وكن أربعا — بجهاز كاف ، وأعطى ابنيه ما يكفيهما ، ثم شرع يتصدق بما بقى معه على الفقراء بترتيب لا خلل فيه ، ودواما لا سآمة معه .

وكان يفرق فى كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام ، واذا دخل شهر رمضان أضعف ذلك ، وتبتل للتفرقة من الظهر فى كل يوم الى نحو صلاة العشاء الآخرة ، ويضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد وعشرون ذراعا مملوءة طعاما ، ويدخل الفقراء أفواجا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم ، وفى يده مغرفة وفى الأخرى جرة سمن ، وهو يصلح صفوف الفقراء ، ويقرب اليهم الطعام والودك ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء * ثم بالصبيان .

وكان الفقراء مع كثرتهم لا يزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم . فاذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله .

(*) ص٨٥ جـ٢ ، ط. بولاق (٥)

وكان له مع ذلك على الاسلام منة توجب أن يترحم عليه المسلمون كلهم . وهى أن فرنج الشوبك والكرك توجهوا نحو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينبشوا قبره صلى الله عليه وسلم ، وينقلوا جسده الشريف المقدس الى بلادهم ، ويدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل .

فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفنا حملها على البر الى بحر القلزم ، وأركب فيها الرجال ، وأوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استقاء الماء . فسارت الفرنج نحو عيذاب ، فقتلوا وأسروا ، ومضوا يريدون المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، وذلك فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران . فلما بلغه ذلك بعث الى سيف الدولة ابن منقذ ، نائبه على مصر ، يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ خلف العدو . فاستعد لذلك ، وأخذ معه قيودا ، وسار فى طلبهم الى القلزم ، وعمر هناك مراكب ، وسار الى أيلة فوجد مراكب للفرنج فحرقها وأسر من فيها .

وسار الى عيذاب ، وتبع الفرنج حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، الا مسافة يوم — وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وقد انضم اليهم عدة من العربان المرتدة — فعندما لحقهم لؤلؤ ، فرت العربان فرقا من سطوته ، ورغبة فى عطيته ، فانه كان قد بذل الأموال حتى انه علق أكياس الفضة على رؤوس الرماح .

فلما فرت العربان التجأ الفرنج الى رأس جبل صعب المرتقى ، فصعد اليهم فى عشرة أنفس وضايقهم فيه ، فخارت قواهم بعدما كانوا معدودين من الشجعان ، واستسلموا ، فقبض عليهم وقيدهم ، وحملهم الى القاهرة . فكان لدخولهم يوم مشهود ، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة ، بعدما ساق رجلين من أعيان الفرنج الى منى ، ونحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا الى الكعبة .

ولم يزل على فعل المعروف الى أن مات رحمه الله فى صميم الفلا ، وقد قرب منتهاه ، فى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ودفن بتربته من القرافة ، وهى التى حفر فيها البئر ، ووجد فى قعرها عند الماء أسطام مركب .

وهذه الحمام تفتح تارة وتغلق كثيرا ، وهى باقية الى يومنا هذا من جملة أوقاف الملك ، والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر القياسر

ذكر ابن المتوج قياسر مصر ، وهى : قيسارية المحلى ، وقيسارية الضيافة وقف المارستان المنصورى ، وقيسارية شبل الدولة ، وقيسارية ابن الأرسوفى ، وقيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس ، وقيساريتا ابن ميسر . وقد خربت كلها .

« قيسارية ابن قريش » : هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين ، ويسلك اليها من الجملون ومن سـوق الأخفـافيين المسلوك اليـه من البندقانيين . وبعضها الآن سكن الأرمنيين ، وبعضها سكن البزازين .

قال ابن عبد الظاهر : استجدها القـاضي المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية وكان مكانها اصطبلا . انتهى .

وهو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتاب الانشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، قتل شهيدا على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالقـدس . ومولده فى سـنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسمع السلفى وغيره .

« قيسارية الشرب » : هـذه القيسـارية بشارع القاهرة تجاه قيسارية جهاركس .

قال ابن عبد الظاهر : وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بن أيوب على الجماعة الصوفيـة (يعنى بخانقـاه سعيـد السعداء) وكانت اصطبلا . انتهى .

وما برحت هذه القيسارية مرعيـة الجانب اكراما للصوفية ... الى أن كانت أيام الملك النـاصر فرج ، وحـدثت الفتن ، وكثـرت مصادرات التجـار ، انخرق ذاك السـياج ، وعومل سكانها بأنواع من العسـف . وهى اليوم من أعمر أسواق القاهرة .

«قيسارية ابن أبى أسامة» : هذه القيسارية بجوار الجملون الكبير ، على يسرة من سلك الى بين القصرين ، يسكنها الآن الخردفوشية . وقفها الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أحمد ابن الحسن بن أبى أسامة ، صـاحب ديوان الانشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله .

وكانت له رتبة خطيرة ، ومنزلة رفيعـة ، وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم يـكن أحد يشاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه . وكان وقفه هذه القيسارية فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتوفى فى شوال سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

« قيسارية سنقر الأشقر » : هذه القيسارية على يسرة من يدخل من باب زويلة ، فيما بين خزانة شمائل ودرب الصغيرة ، تجاه قيسارية الفاضل . أنشأها الأمير شمس الدين سنـقر الأشـقر الصالحى النجمى ، أحد المماليـك البحرية ، ولم تزل الى أن هدمت وأدخلت * فى الجامع المؤيدى لأيام من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وثمانمائة .

« قيسارية أمير على » : هذه القيسـارية بشارع القاهرة تجاه الجملون الكبير بجوار قيسارية جهاركس يفصل بينهما درب قيطون . عرفت بالأمير على ابن الملك المنصور قلاوون الذى عهد له بالملك ولقبه بالملك الصالح ، ومات فى حياة أبيه ... كما قد ذكر فى فند الملك الصالح .

(*) ص٨٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

« قيسارية رسلان » : هذه القيسارية فيما بين درب الصغيرة والحجارين . أنشأها الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار ، وجعلها وقفا على خانقاه له بمنشاة المهرانى ، وكانت من أحسن القياسر . فلما عزم الملك المؤيد شيخ على بناء مدرسته ، هدمها فى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وعوض أهل الخانقاه عنهـا خمسمائة دينار .

« قيسارية جهـاركس » : قال ابن عبـد الظاهر : بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ ، ولم تزل فى يد ورثته ، وانتقل الى الأمير علم الدين أيتمش منها جزء بالميراث عن زوجته والى بنت شومان من أهل دمشق ، ثم اشـتريت لوالدة خليل — المسماة بشجرة الدر الصالحية — فى سنة خمس وخمسين وستمائة . وهى مع حسنها واتقان بنائها كلها ، تجرد من الغصب جميع ما فيها .

وذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت ، فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين اسماعيل ابن ثعلب ، وقال لصاحبها : أنا أنقدك ثمنها أى نقد شئت ، ان شئت ذهبا ، وان شـئت فضة ، وان شئت عروض تجارة .

وقيسارية جهـاركس تجرى الآن فى وقف الأمير بكتمر الجوكندار ، نائب السلطنة بعد سلار ، على ورثته .

وقال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان : « جهاركس » بن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الناصرى الصلاحى ، كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية ، وكان كريما نبيل القدر على الهمة .

بنى بالقـاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة اليه ... رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها واحـكام بنائهـا . وبنى بأعلاها مسجدا كبيرا وربعا معلقا . وتوفى فى بعض شهور سنة ثمان وستمائة بدمشـق ، ودفن فى جبـل الصالحيـة ، وتربته مشهورة هناك ، رحمه الله .

وجهاركس ، بفتح الجيم والهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة ، ومعنـاه بالعربى أربعة أنفس ، وهو لفظ عجمى .

وقال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود اليغمورى : سمعت الأمير الكبير الفاضل شرف الدين أبا الفتح عيسى ابن الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد بن أحمد الهـكارى البحترى الطائى المقـدسى بالقاهرة — ومولده سـنة ثلاث وتسـعين وخمسمائة بالبيت المقدس ، شرفه الله تعالى ، وتوفى بدمشق فى ليلة الأحد تاسع عشرى ربيع الآخر سنة تسع وستمائة ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، رحمه الله — قال :

حدثنى الأمير صارم الدين خطلبا التبنينى ، صاحب الأمير فخـر الدين أبى المنصـور جهاركس بن عبد الله الناصرى الصلاحى رحمه الله ، قال : بلغ الأمير فخـر الدين أن بعض الأجناد عنده فرس قد دفع له فيه ألف دينار ولم يسمح ببيعه ، وهو فى غاية الحسن .

فقال لى الأمير : ياخطلبا اذا ركبنا ورأيت فى الموكب هذا الفرس نبهنى عليه حتى أبصره .

فقلت : السمع والطاعة .

فلما ركبنا فى الموكب مع الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر ، رحمه الله ، رأيت الجندى على فرسه ، فتقدمت الى الأمير فخر الدين ، وقلت له : هذا الجندى وهذا الفرس راكبه .

فنظر اليه وقال : اذا خرجنا من سماط السلطان ، فانظر أين الفرس وعرفنى به .

فلما دخلنا الى سماط الملك العزيز ، عجل الأمير فخر الدين وخرج قبل الناس ، فلما بلغ الى الباب قال لى : أين الفرس ؟

قلت : ها هو مع الركاب دار .

فقال لى : ادعه .

فدعوته اليه . فلما وقف بين يديه والفرس معه ، أمره الأمير بأخذ الغاشية ، ووضع الأمير رجله فى ركابه وركبه ، ومضى به الى داره وأخذ الفرس .

فلما خرج صاحبه ، عرفه الركاب دار بما فعله الأمير فخر الدين ، فسكت ومضى الى بيته ، وبقى أياما ولم يطلب الفرس .

فقال لى الأمير فخر الدين : ياخطلبا ، ماجاء صاحب الفرس ولا طلبه ، اطلب لى صاحبه .

قال : فاجتمعت به ، وأخبرته بأن الأمير يطلب الاجتماع به . فسارع الى الحضور .

فلما دخل عليه ، أكرمه الأمير ورفع مكانه ، وحدثه وآنسه وبسطه ، وحضر سماطه فقربه وخصصه من طعامه . فلما فرغ من الأكل ، قال له الأمير : يافلان ما بالك ما طلبت فرسك وله عندنا مدة ؟

فقال : ياخوند وما عسى أن يكون من هذا الفرس ، وما ركبه الأمير الا وهو قد صلح له ، وكلما صلح للمولى فهو على العبد حرام . ولقد شرفنى مولانا بأن جعلنى أهلا أن يتصرف فى عبده ، والمملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات . وأما الآن فقد وقع فى محله وعند أهله ، ومولانا أحق به ، وما أسعد المملوك اذا صلح لمولانا عنده شىء .

فقال له الأمير : بلغنى أنك أعطيت فيه ألف دينار .

قال : كذلك كان .

قال : فلم لم تبعه ؟

فقال : يامولانا ، هذا الفرس * جعلته للجهاد ، وأحسن ما جاهد الانسان على فرس يعرفه ويثق به ، وما مقدار هذا الفرس له أسوة .

فاستحسن الأمير همته وشكره ، ثم أشار الى ، فتقدمت اليه فقال لى فى أذنى : اذا خرج هذا الرجل ، فاخلع عليه الخلعة الفلانية من أفخر ملبوس الأمير ، وأعطه ألف دينار وفرسه .

(*) ص٨٧ جـ٢ ، طـ.بولاق .

فلما نهض الرجل أخذته الى الفرش خاناه ، وخلعت عليه الخلعة ، ودفعت اليه الكيس وفيه ألف دينار .

فخـدم وشكر وخرج ، فقـدم اليه فرسه وعليه سرج خاص من سروج الأمير وعدة فى غاية الجودة ، فقيل اركب فرسك ، فقـال : كيف أركبه وقد أخذت ثمنه ، وهذه الخلعة زيادة على ثمنه ؟

ثم رجع الى الأمير فقبل الأرض ، وقال : ياخـوند تشريف مولانا لا يرد ، وهذا ثمن الفرس قد أحضره المملوك .

فقال له الأمير فخر الدين : ياهـذا نحن جربناك فوجدناك رجلا جيدا ولك همة ، وأنت أحق بفرسك ، خذ هذا ثمنه ولا تبعه لأحد .

فخدمه وشكره ، ودعا له ، وأخذ الفرس والخلعة والألف دينار وانصرف .

وأخبرني أيضا الأمير شرف الدين بن أبى القاسم ، قال : أخبرني صارم الدين التبنينى أيضا أن الأمير فخر الدين خدم عنده بعض الأجناد ، فعرض عليه فأعجبه شكله ، وقال لديوانه : استخدموا هذا الرجل .

فتكلموا معه ، وقدروا له فى السـنة اثنى عشر ألف درهم ، فرضى الرجل ، وانتقل الى حلقة الأمير قوصون ، وضرب خيمته وأحضر بركه .

فلما كان بعض الأيام رجع الأميـر من الخدمة ، فعبر فى جنب خيمة هذا الرجل ، فرأى خيمة حسـنة ، وخيلا جيـادا وجمالا وبغالا وبركا فى غاية الجودة ، فقـال : هذا البرك لمن ؟

فقيل : هذا برك فلان الذى خدم عنـد الأمير فى هذه الأيام .

فقال : قولوا له ما لك عندنا شغل تمضى فى حال سبيلك .

فلما قيـل للرجل ذلك ، أمر بأن تحط خيمته ، وأتى الى وقال : يامولانا أنا رائح ، وهاأنا قد حملت بركى ، ولكن أشتهى منك ان تسأل الأمير : ما ذنبى ؟

قال : فدخلت الى الأمير ، وأخبرته بمـا قال الرجل .

فقال : والله ما له عندى ذنب ، الا أن هذا البرك وهـذه الهمة يستحق بها أضعاف ما أعطى ، فأنكرت عليه كيف رضى بهذا القدر اليسير ، وهو يستحق أن تكون أربعين ألف درهم ، وتكون قليلة فى حقه ، فاذا خـدم بثلاثين ألف درهم يكون قد ترك لنا عشرة آلاف درهم . فهذا ذنبه عندى .

فرجعت الى الرجـل فأعلمتـه بمـا قال الأمير . فقـال : انمـا خدمت عند الأمير ، ورضيت بهذا القدر لعلمى أن الأمير اذا عرف حالى فيما بعد لا يقنع لى بهذا الجارى ، فكنت على ثقة من احسان الأمير أبقـاه الله ، وأما الآن فلا أرضى أن أخـدم الا بثـلاثين ألف درهم كما قال الأمير .

فرجعت الى الأميـر وأخبـرته بمـا قال الرجل ، فقال : يجـرى له ما طلب ، وخلع عليه ، وأحسن اليه .

وكان الأمير فخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ، والحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الى أن مات العزيز . فمال الأمير فخر الدين جهاركس الى ولاية ابن الملك العزيز ، وفاوض فى ذلك الأمير سيف الدين يازكوج الأسدى ، وهو يومئذ مقدم الطائفة الأسدية — وكان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده محمد ، وأن يكون الأمير الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى مدبر أمره — فأشار يازكوج باقامة الملك الأفضل على بن صلاح الدين فى تدبير أمر ابن العزيز . فكره جهاركس ذلك .

ثم انهم أقاموا ابن العزيز ، ولقبوه بالملك المنصور ، وعمره نحو تسع سنين ، ونصبوا قراقوش أتابكا وهم فى الباطن يختلقون عليه ، وما زالوا يسعون عليه فى ابطال أمر قراقوش حتى اتفقوا على مكاتبة الأفضل المتقدم ذكره وحضوره الى مصر ، ويعمل أتابكية المنصور مدة سبع سنين حتى يتأهل بالاستبداد بالملك ، بشرط ألا يرفع فوق رأسه سنجق الملك ، ولا يذكر اسمه فى خطبة ولا سكة .

فلما سار القاصد الى الأفضل بكتب الأمراء ، بعث جهاركس فى الباطن قاصدا ، على لسانه ولسان الطائفة الصلاحية ، بكتبهم الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وكتب الى الأمير ميمون القصرى صاحب نابلس يأمره بألا يطيع الملك الأفضل ، ولا يحلف له .

فاتفق خروج الملك الأفضل من صرخد ، ولقاء قاصد فخر الدين جهاركس ، فأخذ منه الكتب وقال له : ارجع فقد قضيت الحاجة .

وسار الى القاهرة ومعه القاصد . فلما خرج الأمراء من القاهرة الى لقائه ببلبيس ، فعمل له فخر الدين سماطا احتفل فيه احتفالا زائدا لينزل عنده ، فنزل عند أخيه الملك المؤيد نجم الدين مسعود ، فشق ذلك على جهاركس ، وجاء الى خدمته .

فلما فرغ من طعام أخيه ، صار الى خيمة جهاركس وقعد ليأكل ، فرأى جهاركس قاصده الذى سيره فى خدمة الأفضل ، فدهش وأيقن بالشر ، فللحال استأذن الأفضل أن يتوجه الى العرب المختلفين بأرض مصر ليصلح بينهم ، فأذن له .

وقام من فوره ، واجتمع بالأمير زين الدين قراجا والأمير أسد الدين قراسنقر ، وحسن لهما مفارقة الأفضل ، فسارا معه الى القدس وغلبوا عليه ، ووافقهم الأمير عز الدين أسامة ، والأمير ميمون القصرى ، فقدم عليهم فى سبعمائة فارس . ولما صاروا كلمة واحدة ، كتبوا الى الملك العادل يستدعونه للقيام بأتابكية الملك ★ المنصور محمد بن العزيز بمصر * .

وأما الأفضل فانه لما دخل من بلبيس الى القاهرة ، قام بتدبير الدولة وأمر الملك ، بحيث لم يبق للمنصور معه سوى مجرد الاسم فقط ، وشرع فى القبض على الطائفة الصلاحية أصحاب جهاركس ، ففروا منه الى جهاركس بالقدس ، فقبض على من قدر عليه منهم ونهب أموالهم .

(*) ص٨٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

فلما زالت دولة الأفضل من مصر بقدوم الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، استولى فخر الدين جهاركس علي بانياس بأمر العادل ، ثم انحرف عنه ، وكانت له أنباء الى أن مات . فانقضى أمر الطائفة الصلاحية بموته وموت الأمير قراجا وموت الأمير أسامة ، كما انقضى أمر غيرهم .

« قيسارية الفاضل » : هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة . عرفت بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، وهى الآن فى أوقات المارستان المنصورى .

أخبرنى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد العزيز العذرى البشبيشى ، رحمه الله ، قال : أخبرنى القاضى بدر الدين أبو اسحاق ابراهيم ابن القاضى صدر الدين أبى البركات أحمد بن فخر الدين أبى الروح عيسى بن عمر بن خالد ابن عبد المحسن ، المعروف بابن الخشاب ، أن قيسارية الفاضل وقفت بضع عشرة مرة ، منها مرتين أو أكثر زف كتاب وقفها بالأغانى فى شارع القاهرة .

وهى الآن تشتمل على قيسارية ذات بحرة ماء للوضوء بوسطها ، وأخرى بجانبها يباع فيها جهاز النساء وشوارهن ، ويعلوها ربع فيه عدة مساكن .

« قيسارية بيبرس » : هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة ، كان موضعها دارا تعرف بدار الأنماط اشتراها وما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل ولايته السلطنة وهدمها ، وعمر موضعها هذه القيسارية والربع فوقها ، وتولى عمارة ذلك مجد الدين بن سالم الموقع .

فلما كملت طلب سائر تجار قيسارية جهاركس وقيسارية الفاضل ، وألزمهم باخلاء حوانيتهم من القيساريتين وسكناهم بهذه القيسارية ، وأكرههم على ذلك ، وجعل أجرة كل حانوت منها مائة وعشرين درهما نقرة .

فلم يسع التجار الا استئجار حوانيتها ، وصار كثير منهم يقوم بأجرة الحانوت الذى ألزم به فى هذه القيسارية من غير أن يترك حانوته الذى هو معه باحدى القيساريتين المذكورتين . ونقل أيضا صناع الأخفاف ، وأسكنهم فى الحوانيت التى خارجها ، فعمرت من داخلها وخارجها بالناس فى يومين .

وجاء الى مخدومه الأمير بيبرس — وكان قد ولى السلطنة ، وتلقب بالملك المظفر — وقال : بسعادة السلطان أسكنت القيسارية فى يوم واحد .

فنظر اليه طويلا ، وقال : ياقاضى ان كنت أسكنتها فى يوم واحد ، فهى تخلو فى ساعة واحدة .

فجاء الأمر كما قال . وذلك أنه لما فر بيبرس من قلعة الجبل ، لم يبت فى هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش ، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها ، وخلت حوانيتها مدة طويلة ، ثم سكنها صناع الأخفاف كل حانوت بعشرة دراهم ، وفى حوانيتها ما أجرته ثمانية دراهم .

وهى الآن جارية فى أوقاف الخانقاه الركنية بيبرس ، ويسكنها صناع الأخفاف ، وأكثر

حوانيتها غير مسكون لخرابها ولقلة الأخفافيين ويعرف الخط الذى هى فيه اليوم بالأخفافيين رأس الجودرية .

« القيسارية الطويلة » : هذه القيسارية فى شارع القاهرة بسوق الخردفوشيين ، فيما بين سوق المهامزيين وسوق الجوخيين ، ولها باب آخر عند باب سر حمام الخراطين . كانت تعرف قديما بقيسارية السروج . بناها *** ***

« قيسارية*** » : هذه القيسارية تجاه قيسارية السروج ، المعروفة الآن بالقيسارية الطويلة . بعضها وقفه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى على ملء الصهريج بدرب ملوخيا ، وبعضها وقف الصالح طلائع بن رزيك الوزير .

وقد هدمت هذه القيسارية . وبناها الأمير جانى بك داودار السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى الظاهرى ، فى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، تربيعة تتصل بالوراقين ، ولها باب من الشارع ، وجعل علوها طباقا وعلى بابها حوانيت ، فجاءت من أحسن المبانى .

« قيسارية العصفر » : هذه القيسارية بشارع القاهرة ، لها باب من سوق المهامزيين وباب من سوق الوراقين ، عرفت بذلك من أجل أن العصفر كان يدق بها . أنشأها علم الدين سنجر المسرورى المعروف الخياط ، والى القاهرة ، ووقفها فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة . ولم تزل باقية بيد ورثته الى أن ولى القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى كتابة السر فى أيام المؤيد شيخ ، فاستأجرها مدة أعوام من مستحقيها ، ونقل اليها العنبريين فصارت قيسارية عنبر ، وذلك فى سنة ست عشرة وثمانمائة ، ثم انتقل منها أهل العنبر الى سوقهم فى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة .

« قيسارية العنبر » : قد تقدم فى ذكر الأسواق أنها كانت سجنا ، وأن الملك المنصور قلاوون عمرها فى سنة ثمانين وستمائة ، وجعلها سوق عنبر .

« قيسارية الفائزى » : هذه القيسارية كانت بأول الخراطين مما يلى المهامزيين ، لها باب من المهامزيين وباب من الخراطين .

أنشأها الوزير * الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد بن وهيب الفارسى . كان من جملة نصارى صعيد مصر ، وكتب على مبايض ناحية سيوط بدرهم وثلث فى كل يوم ، ثم قدم الى القاهرة وأسلم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وخدم عند الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل فنسب اليه ، وتولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة يسيرة .

ثم ولى بعض أعمال ديار مصر ، فنقل عنه ما أوجب الكشف عليه ، فندب موفق الدين الآمدى لذلك ، فاستقر عوضه ، وسجنه مدة ثم أفرج عنه . وسافر الى دمشق ، وخدم بها الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق .

(*) ص٨٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

فلما قدم الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب من حصن كتبغا الى دمشق ، بعد موت أبيه ليأخذ مملكة مصر، سار معه الى مصر فى شوال سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما قامت شجرة الدر بتدبير المملكة بعد قتل المعظم ، تعلق بخدمة الأمير عز الدين أيبك التركمانى مقدم العساكر ، الى أن تسلطن وتلقب بالملك المعز ، فولاه الوزارة فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

فأحدث مظالم كثيرة ، وقرر على التجار وذوى اليسار أموالا تجبى منهم ، وأحدث التقويم والتصقيع على سائر الأملاك ، وجبى منها مالا جزيلا ، ورتب مكوسا على الدواب من الخيل والجمال والحمير وغيرها ، وعلى الرقيق من العبيد والجوارى ، وعلى سائر المبيعات ، وضمن المنكرات من الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزوانى بأموال ، وسمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية .

وتمكن من الدولة تمكنا زائدا الى الغاية ، بحيث أنه سار الى بلاد الصعيد بعساكر لمحاربة بعض الأمراء ، وكان الملك المعز أيبك يكاتبه بالمملوك ، وكثر ماله وعقاره حتى انه لم يبلغ صاحب قلم فى هذه الدول ما بلغه من ذلك ، واقتنى عدة مماليك منهم من بلغ ثمنه ألف دينار مصرية .

وكان يركب فى سبعين مملوكا من مماليكه سوى أرباب الأقلام والأتباع ، وخرج بنفسه الى أعمال مصر ، واستخرج أموالها . وكان ينوب عنه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير ، وكان فاضلا يعرف اللسان التركى ، فصار يضبط له مجالس الأمراء ، ويعرفه ما يدور بينهم من الكلام .

فلم يزل على تمكنه وبسط يده وعظم شأنه الى أن قتل الملك المعز ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وهو صغير ، فاستقر على عادته ... حتى شهد عليه الأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى والأمير ناصر الدين محمد ابن الأطروش الكردى أمير جاندار أنه قال : المملكة لا تقوم بالصبيان الصغار ، والرأى أن يكون الملك الناصر صاحب الشام ملك مصر ، وأنه قد عزم على أن يسير اليه يستدعيه الى مصر ويساعده على أخذ المملكة .

فخافت أم السلطان منه ، وقبضت عليه وحبسته عندها بقلعة الجبل ، ووكلت بعذابه الصارم أحمر عينه العمادى الصالحى ، فعاقبه عقوبة عظيمة ، ووقعت الحوطة على سائر أمواله وأسبابه وحواشيه ، وأخذ خطه بمائة ألف دينار ، ثم خنق لليال مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وستمائة ، ولف فى نخ ودفن بالقرافة . واستقر من بعده فى الوزارة قاضى القضاة بدر الدين السنجارى مع ما بيده من قضاء القضاة .

ولم تزل هذه القيسارية باقية — وكانت تعرف بقيسارية النشاب — الى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار ، هى والحوانيت على يمنة من سلك من الخراطين يريد الجامع الأزهر — وفيما بينهما كان باب هذه القيسارية ، وكانت هذه الحوانيت تعرف بوقف تمرتاش — وهدم الجميع وشرع

فى بنائه ، فقتل قبل أن يكمل ، وأخذه الملك الناصر فرج .

فبنيت الحوانيت التى هى على الشارع بسوق المهامزيين ، وصار ما بقى ساحة عمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش قيسارية يعلوها ربع ، وبنى أيضا على حوانيت جمال الدين ربعا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة .

وقال الامام عفيف الدين أبو الحسن على بن عدلان يمدح الأسعد الفائزى ، رحمه الله ، ابن صاعد وابنه المرتضى :

مذ تولى أمورنا لم أزل منه ذا هبه
وهو ان دام أمره شدة العيش ذاهبه

« قيسارية بكتمر » : هذه القيسارية بسوق الحريريين بالقرب من سوق الوراقين . كانت تعرف قديما بالصاغة ، ثم صارت فندقا يقال له فندق حكم . وأصلها من جملة الدار العظمى التى تعرف بدار المأمون بن البطائحى ، وبعضها المدرسة السيوفية . أنشأ هذه القيسارية الأمير بكتمر الساقى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون .

« قيسارية ابن يحيى » : هذه القيسارية كانت تجاه باب قيسارية جهاركس حيث سوق الطيور وقاعات الحلوى .

أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى المعدل . كان موثقا كاتبا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين وخمسمائة فى الدولة الفاطمية ، ثم صار من جملة العدول ، وبقى الى سنة ثمانين .

وله ابن يقال له كمال الدين عبد المجيد * ابن القاضى المفضل . ولكمال الدين ابن يقال له جلال الدين محمد بن كمال الدين عبد المجيد ابن القاضى المفضل هبة الله بن يحيى . مات فى آخر سنة ستين وسبعمائة .

وقد خربت هذه القيسارية ، ولم يبق لها أثر .

« قيسارية طاشتمر » : هذه القيسارية بجوار الوراقين ، لها باب كبير من سوق الحريريين على يسرة من سلك الى الزجاجين وباب من الوراقين .

أنشأها الأمير طاشتمر فى أعوام بضع وثلاثين وسبعمائة . وسكنها عقادو الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها وكثرة حوانيتها ، وكان لهم منظر بهيج فان أكثرهم من بياض الناس ، وتحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم . فطالما مررت منها الى سوق الوراقين ، وداخلنى حياء من كثرة من أمر به هناك .

ثم لما حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة ، تلاشى أمرها ، وخرب الربع الذى كان علوها وبيعت أنقاضه ، وبقيت فيها اليوم بقية يسيرة .

« قيسارية الفقراء » : هذه القيسارية خارج باب زويلة بخط تحت الربع . أنشأها ....

« قيسارية بشتاك » : خارج باب زويلة بخط تحت الربع . أنشأها الأمير بشتاك الناصرى ، وهى الآن ... ...

(*) ص ٩٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

« قيسارية المحسنى » : خارج باب زويلة تحت الربع ، أنشأها الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى والى الاسكندرية ، ثم والى القاهرة . كان شجاعا مقداما ، فأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الشام ، وبها مات فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة . فأخذ ابنه الأمير ناصر الدين محمد بن بيلبك المحسنى امرته .

فلما مات الملك الناصر قدم الى القاهرة ، وولاه الأمير قوصون ولاية القاهرة فى سابع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما قبض على قوصون فى يوم الثلاثاء آخر شهر رجب منها ، أمسك ابن المحسنى ، وأعيد نجم الدين الى ولاية القاهرة ، ثم عزل من يومه وولى الأمير جمال الدين يوسف والى الجيزة ، فأقام أربعة أيام ، وعزل بطلب العامة عزله ورجمه ، فأعيد نجم الدين .

« قيسارية الجامع الطولونى » : هذه القيسارية كان موضعها فى القديم من جملة قصر الامارة الذى بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون ، وكان يخرج منه الى الجامع من باب فى جداره القبلى . فلما خرب صار ساحة أرض ، فعمر فيها القاضى تاج الدين المناوى ، خليفة الحكم عن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة ، قيسارية فى سنة خمسين وسبعمائة من فائض مال الجامع الطولونى ، فكمل فيها ثلاثون حانوتا .

فلما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة ، رأى شخص من أهل الخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، وقد وقف على باب هذه القيسارية وهو يقول : « بارك الله لمن يسكن هذه القيسارية » ، وكرر هذا القول ثلاث مرات . فلما قص هذه الرؤيا رغب الناس فى سكناها ، وصارت الى اليوم هى وجميع ذلك السوق فى غاية العمارة .

وفى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ، أنشأها قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى ، من مال الجامع المذكور ، قيسارية أخرى . فرغب الناس فى سكناها لوفور العمارة بذلك الخط .

« قيسارية ابن ميسر الكبرى » : هذه القيسارية أدركتها بمدينة مصر فى خط سويقة وردان وهى عامرة يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وتمضى تجار القاهرة اليها فى يومى الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة .

وذكر ابن المتوج أن لها خمسة أبواب وأنها وقف ، ثم وقعت الحوطة عليها فجرت فى الديوان السلطانى ، وقصدوا بيعها مرارا فلم يقدر أحد على شرائها ، وكان بها عمد رخام فأخذها الديوان وعوضت بعمد كدان ، وأنه شاهدها مسكونة جميعها عامرة . انتهى .

وقد خرب ما حولها بعد سنة ستين وسبعمائة ، وتزايد الخراب حتى لم يبق حولها سوى كيمان ، فعمل لها باب واحد ، وتردد الناس اليها فى اليومين المذكورين لا غير . فلما كانت الحوادث منذ سنة ست وثمانمائة ، واستولى الخراب على اقليم مصر ، تعطلت هذه القيسارية ، ثم هدمت فى سنة ست عشرة وثمانمائة .

« قيسارية عبد الباسط » : هذه القيسارية برأس الخراطين من القاهرة . كان موضعها يعرف قديما بعقبة الصباغين ، ثم عرف بالقشاشين ، ثم عرف بالخراطين .

وكان هناك مارستان ووكالة فى الدولة الفاطمية ، وأدركنا بها حوانيت تعرف بوقف تمرتاش المعظمى ، فأخذها الأمير جمال الدين الأستادار فيما أخذ من الأوقاف . فلما قتل أخذ الناصر فرج جانبا منها ، وجدد عمارتها ، ووقفها على تربة أبيه الظاهر برقوق .

ثم أخذها زين الدين عبد الباسط بن خليل فى أيام المؤيد شيخ ، وعمل فى بعضها هذه القيسارية وعلوها ، ووقفها على مدرسته وجامعه . ثم أخذ السلطان الملك الأشرف برسباى بقية الحوانيت من وقف جمال الدين ، وجدد عمارتها فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

ذكر الخانات والفنادق *

« خان مسرور » : خان مسرور مكانان : أحدهما كبير ، والآخر صغير . فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة الى الحريريين ، كان موضعه خزانة الدرق التى تقدم ذكرها فى خزائن القصر . والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة الى الجامع الأزهر ، كان ساحة يباع فيها الرقيق بعدما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق .

قال ابن الطوير : خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور ، وهى برسم استعمالات الأساطيل من الكبورة الخرجية والخود الجلودية وغير ذلك .

وقال ابن عبد الظاهر : فندق مسرور : مسرور هذا من خدام القصر . خدم الدولة المصرية ، واختص بالسلطان صلاح الدين رحمه الله ، وقدمه على حلقته . ولم يزل مقدما فى كل وقت ، وله بر واحسان ومعروف ، ويقصد فى كل حسنة وأجر وبر ، وبطل الخدمة فى الأيام الكاملية ، وانقطع الى الله تعالى ولزم داره .

ثم بنى الفندق الصغير الى جانبه ، وكان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق ، اشترى ثلثها من والدى رحمه الله والثلثين من ورثة ابن عنتر . وكان قد ملك الفندق الكبير لغلامه ريحان وحبسه عليه ، ثم من بعده على الأسرى والفقراء بالحرمين ، وهو مائة بيت الا بيتا ، وبه مسجد تقام فيه الجماعة والجمع .

ولمسرور المذكور بر كثير بالشام وبمصر . وكان قد وصى أن تعمل داره — وهى بخط حارة الأمراء — مدرسة ، ويوقف الفندق الصغير عليها . وكانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبى الحسن القيمرى بجملة كبيرة ، وعمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته . انتهى .

وقد أدركت فندق مسرور الكبير فى غاية العمارة تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم وكان فيه أيضا مودع الحكم الذى فيه أموال اليتامى والغياب ، وكان من أجل الخانات وأعظمها .

(*) ص٩١ ج٢ ، ط. بولاق .

فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك ، وتلاشت أحوال اقليم مصر ، قل التجار وبطل مودع الحكم ، فقلت مهابة هذا الخان ، وزالت حرمته ، وتهدمت عدة أماكن منه . وهو الآن بيد القضاء .

« فندق بلال المغيثى » : هذا الفندق فيما بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية . أنشأه الأمير الطواشى أبو المناقب حسام الدين بلال المغيثى ، أحد خدام الملك المغيث صاحب الكرك ، كان حبشى الجنس حالك السواد ، خدم عدة من الملوك ، واستقر لالا الملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون ، وكان معظما الى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة .

وكان الملك المنصور قلاوون اذا رآه يقول : رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب . أنا كنت أحمل شارموزة هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل الى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له .

وكان كثير البر والصدقات ، وله أموال جزيلة ، ومدحه عدة من الشعراء ، وأجاز على المديح ، وتجاوز عمره ثمانين سنة .

فلما خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون لقتال التتر ، فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، سافر معه فمات بالسوادة ودفن بها ، ثم نقل منها بعد وقعة شقحب الى تربته بالقرافة فدفن هناك .

وما برح هذا الفندق يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه فاذا بدائره صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفضل عنها من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه ، وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه .

فلما أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الزمام الفندق بالقرب منه ، وأنشأ الأمير قلمطاى الفندق بالزجاجين ، وأخذ الأمير يلبغا السالمى أموال الناس فى واقعة تيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة ، تلاشى أمر هذا الفندق ، وفيه الى الآن بقية .

« فندق الصالح » : هذا الفندق بجوار باب القوس الذى كان أحد بابى زويلة ، فمن سلك اليوم من المسجد المعروف بسام بن نوح يريد باب زويلة ، صار هذا الفندق على يساره . وأنشأه ، هو وما يعلوه من الربع ، الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور قلاوون .

وكان أبوه لما عزم على المسير الى محاربة التتر ببلاد الشام ، سلطنه وأركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وستمائة ، وشق به شارع القاهرة من باب النصر الى أن عاد الى قلعة الجبل ، وأجلسه على مرتبته وجلس الى جانبه ، فمرض عقيب ذلك ، ومات ليلة الجمعة الرابع من شعبان .

فأظهر السلطان لموته جزعا مفرطا وحزنا زائدا ، وصرخ بأعلى صوته « واولداه » ، ورمى كلوتته عن رأسه الى الأرض ، وبقى مكشوف الرأس الى أن دخل الأمراء اليه وهو مكشوف الرأس يصرخ « واولداه » ، فعندما

عاينوه كذلك ألقوا كلوتاتهم عن رؤوسهم وبكوا ساعة .

ثم أخذ الأمير طرنطاى النائب شاش السلطان من الأرض ، وناوله للأمير سنقر الأشقر ، فأخذه ومشي وهو مكشوف الرأس ، وباس الأرض وناول الشاش للسلطان ، فدفعه وقال : ايش أعمل بالملك بعد ولدى .

وامتنع من لبسه . فقبل الأمراء الأرض يسألون السلطان فى لبس شاشه ، ويخضعون له فى السؤال ساعة ، حتى أجابهم وغطى رأسه .

فلما أصبح خرجت جنازته من القلعة ، ومعها الأمراء من غير حضور السلطان * ، وساروا بها الى تربة أمه المعروفة بتربة خاتون ، قريبا من المشهد النفيسى ، فواروه وانصرفوا .

فلما كان يوم السبت ثانيه ، نزل السلطان من القلعة وعليه البياض تحزنا على ولده ، وسار ومعه الأمراء بثياب الحزن الى قبر ابنه ، وأقيم العزاء لموته عدة أيام .

« خان السبيل » : هذا الخان خارج باب الفتوح .

قال ابن عبد الظاهر : خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، خادم أسد الدين شيركوه وعتيقه ، لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة ، وبه بئر ساقية وحوض .

وقراقوش هذا هو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام ، وعمر بالمقس رباطا ، وآسره الفرنج فى عكا وهو واليها ، فافتكه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعشرة آلاف دينار ، وتوفى مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ودفن بسفح الجبل المقطم من القرافة .

« خان منكورش » : هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر .

قال ابن عبد الظاهر : خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد ابن العادل ، ثم انتقل الى ورثته ، ثم انتقل الى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأربلى فوقفه ، ثم تحيل ولده فى ابطال وقفه ، فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية ، وجعله مرصدا لوالدة خليل ، ثم انتقل عنها . انتهى .

قال مؤلفه : ومنكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتقدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية وعرف بالشجاعة والنجدة واصابة الرأى وجودة الرمى وثبات الجأش . فلما مات فى شوال سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، أخذ اقطاعه الأمير ياركوج الأسدى .

وهذا الخان الآن يعرف بخان النشارين على يسرة من سلك من الخراطين الى الخيميين ، وهو وقف على جهات بر .

« فندق ابن قريش » : هذا الفندق ... قال ابن عبد الظاهر : فندق ابن قريش استجده القاضى شرف الدين ابراهيم بن قريش كاتب الانشاء ، وانتقل الى ورثته . انتهى .

(*) ص٩٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

« ابراهيم بن عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش » : أبو اسحاق القرشي المخزومى المصرى الكاتب شرف الدين ، أحد الكتاب المجيدين خطا وانشاء ، خدم في دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وفي دولة ابنه الملك الكامل محمد ، بديوان الانشاء ، وسمع الحديث بمكة ومصر ، وحدث .

وكانت ولادته بالقاهرة فى أول يوم من ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وقرأ القرآن ، وحفظ كثيرا من كتاب «المهذب» فى الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وبرع فى الأدب ، وكتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد ، ومات فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

« وكالة قوصون » : هذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات . ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء .

كانت أخيرا دارا تعرف بدار تعويل البوعانى ، فأخربها وما جاورها الأمير قوصون ، وجعلها فندقا كبيرا الى الغاية وبدائره عدة مخازن ، وشرط ألا يؤجر كل مخزن الا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك ، ولا يخرج أحد من مخزنه ، فصارت هذه المخازن تتوارث لقلة أجرتها وكثرة فوائدها .

وقد أدركنا هذه الوكالة ، وان رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش ، لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة على يد تيمورلنك ، وفيها الى الآن بقية .

ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة وستين بيتا أدركناها عامرة كلها ، ويحزر أنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير . فلما كانت هذه المحن فى سنة ست وثمانمائة ، خرب كثير من هذه البيوت ، وكثير منها عامر آهل .

« فندق دار التفاح » : هذه الدار هى فندق تجاه باب زويلة . يرد اليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية انما يباع فى وكالة قوصون اذا قدم ، ومنها ينقل الى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما . وكان موضع دار التفاح هذه فى القديم من جملة حارة السودان التى عملت بستانا فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وأنشأ هذه الدار الأمير طقوزدمر بعد سنة أربعين وسبعمائة، ووقفها على خانقاه بالقرافة . وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة لطيبها وحسن منظرها ، وتأنق الباعة فى تنضيضها ، واحتفافها بالرياحين والأزهار . وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس .

ولا يزال ذلك الموضع غضا طريا ، الا أنه قد اختل منذ سنة ست وثمانمائة ، وفيه بقية ليست بذاك ، ولم تزل الى أن هدم علو الفندق وما بظاهره من الحوانيت فى يوم السبت سادس عشر شعبان سنة * احدى وعشرين وثمانمائة .

وذلك أن الجامع المؤيدى جاء شبابيكه الغربية من جهة دار التفاح ، فعمل فيها كما صار يعمل فى الأوقاف ، وحكم باستبدالها ، ودفع فى ثمن نقضها ألف دينار افريقية عنها مبلغ ثلاثين ألف مؤيدى فضة .

ويتحصل من أجرتها الى أن ابتدىء بهدمها فى كل شهر سبعة آلاف درهم فلوسا : عنها ألف مؤيدى . فاستنشنع هذا الفعل . ومات الملك المؤيد ولم تكمل عمارة الفندق .

« وكالة باب الجوانية » : هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة ، فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون . كان موضعها عدة مساكن ، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وبناها فندقا وربعا بأعلاه .

فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد اليها مايصل الى القاهرة ، وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس ، ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته الى وكالة قوصون ، وجعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين ، فاستمر الأمر على ذلك الى اليوم .

« خان الخليلى » : هذا الخان بخط الزراكشة العتيق . كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، المعروفة بتربة الزعفران ، وقد تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب .

أنشأه الأمير جهاركس الخليلى ، أميراخور الملك الظاهر برقوق ، وأخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير ، وألقاها بكيمان البرقية هوانا بها . فانه كان يلوذ به شمس الدين محمد بن أحمد القليجى ، الذى تقدم ذكره فى ذكر الدور من هذا الكتاب ، وقال له : ان هذه عظام الفاطميين ، وكانوا كفارا رفضة .

فاتفق للخليلى فى موته أمر فيه عبرة لأولى الألباب ، وهو أنه لما ورد الخبر بخروج الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ، ومجىء الأمير منطاش نائب ملطية اليه ومسيرهما بالعساكر الى دمشق ، أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك ، وتقدم لعدة من الأمراء بالمسير بهم .

فخرج الأمير الكبير أيتمش الناصرى والأمير جهاركس الخليلى هذا والأمير يونس الدوادار والأمير أحمد بن يلبغا الخاصكى والأمير ندكار الحاجب ، وساروا الى دمشق ، فلقيهم الناصرى ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر السلطان لمخامرة ابن يلبغا وندكار ، وفر أيتمش الى قلعة دمشق .

(*) ص ٩٣ ج ٣ ، ط . بولاق .

وقتل الخليلى فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين وسبعمائة وترك على الأرض عاريا وسوآته مكشوفة ، وقد انتفخ — وكان طويلا عريضا — الى أن تمزق وبلى ، عقوبة من الله تعالى بما هتك من رمم الأئمة وأبنائهم .

ولقد كان — عفا الله عنه — عارفا خبيرا بأمر دنياه كثير الصدقة ، ووقف هذا الخان وغيره على عمل خبز يفرق بمكة على كل فقير منه فى اليوم رغيفان ، فعمل ذلك مدة سنين . ثم لما عظمت الأسعار بمصر ، وتغيرت نقودها من سنة ست وثمانمائة ، صار يحمل الى مكة مال ويفرق بها على الفقراء .

« فندق طرنطاى » : هذا الفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس ، وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، وكان فيه ستة عشر عمودا من رخام ، طول كل عمود ستة أذرع بذراع العمل فى دور ذراعين ، ويعلوه ربع كبير .

فلما كان فى واقعة هدم الكنائس ، وحريق القاهرة ومصر فى سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، قدم تاجر بعد العصر بزيت وزن فى مكسه عشرين ألف درهم نقرة ، سوى أصناف أخر قيمتها مبلغ تسعين ألف درهم نقرة ، فلم يتهيأ له الفراغ من نقل الزيت الى داخل هذا الفندق الا بعد العشاء الآخرة .

فلما كان نصف الليل ، وقع الحريق بهذا الفندق فى ليلة من شهر ربيع الآخر منها ، كما كان يقع فى غير موضع من فعل النصارى ، فأصبح وقد احترق جميعه حتى الحجارة التى كان مبنيا بها ، وحتى الأعمدة المذكورة ، وصارت كلها جيرا ، واحترق علوه ، وأصبح التاجر يستعطى الناس . وموضع هذا الفندق ... ...

ذكر الاسواق

قال ابن سيده : والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث ، والجمع أسواق . وفى التنزيل « الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » . والسوقة لغة فيها . والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان ، الذكر والأنثى فى ذلك سواء .

وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جدا قد باد أكثرها ، وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق ، فيما بين آراضى اللوق الى باب البحر بالمقس ، اثنان وخمسون سوقا أدركناها عامرة ، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا . وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر .

وسأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا الى ذكره ان شاء الله تعالى .

« القصبة » : قال ابن سيده : قصبة البلد مدينته ، وقيل معظمه .

والقصبة هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت * غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول : ان القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت . كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية

(*) ص٩٤ جـ٢ ، ط . بولاق .

مما يلى الرمل الى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر .

وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الأشخاص . وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون : يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل .

يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق الفوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها . فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق ، وأخذ ما فيها ، ألقيت الى المزابل .

ومن أدرك الناس قبل هذه المحن ، وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف ، لم يستنكر ما ذكرناه . وقد اختل حال القصبة وخرب ، وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت ... بعدما كانت مع سعتها تضيق بالباعة ، فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعايش ، ويقال لهم أصحاب المقاعد ، وكل قليل يتعرض الحكام لمنعهم واقامتهم من الأسواق ، لما يحصل بهم من تضييق الشوارع ، وقلة بيع أرباب الحوانيت . وقد ذهب والله ما هناك ، ولم يبق الا القليل .

وفى القصبة عدة أسواق منها ما خرب ، ومنها ما هو باق . وسأذكر منها ما يتيسر ان شاء الله تعالى .

« سوق باب الفتوح » : هذا السوق فى داخل باب الفتوح ، من حد باب الفتوح الآن الى رأس حارة بهاء الدين ، معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين والفاميين والشرايحية وغيرهم ، وهو من أجل أسواق القاهرة وأعمرها . يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز ، ولشراء أصناف الخضراوات .

وليس هو من الأسواق القديمة ، وانما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عندما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين ، وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث ، وفيه الى الآن بقية صالحة .

« سوق المرحلين » : هذا السوق أدركته ، من رأس حارة بهاء الدين الى بحرى المدرسة الصيرمية ، معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج اليه ، يقصد من سائر اقليم مصر خصوصا فى مواسم الحج . فلو أراد الانسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك ، لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن .

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق الى محاربة الأمير شـيخ والأمير نوروز بالبـلاد الشامية ، صار الوزراء يستدعون ما يحتـاج اليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها ، فاما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشيء اليسير من الثمن . فاختل من ذلك حال المرحلين ، وقلت أموالهم بعد ما كانوا مشتهرين بالغناء الوافي والسعادة الطائلة ، وخرب معظم حوانيت هذا السوق ، وتعطل أكثر ما بقى منها ولم يتأخر فيه سوى القليل .

« سوق خان الرواسين » : هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش . قيل له ذلك من أجل أن هنـاك خانا تعمـل فيـه الرؤوس المغمومة . وكان من أحسن أسواق القاهرة : فيه عدة من البياعين ، ويشـتمل على نحـو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل . وقد اختل وتلاشى أمره .

«سوق حارة برجوان » : هذا السوق من الأسواق القديمة ، وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش . وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمـالى لما قدم الى مصر فى زمن الخليفة المستنصر — وقد كانت الشدة العظمى — بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر ، وأقام هذا السـوق برأس حارة برجوان .

قال ابن عبد الظاهر : والسويقـة المعروفة بأمير الجيـوش معروفة بأمير الجيـوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر ، وهى من باب حارة برجوان الى قريب الجامع الحاكمى . وهـكذا تشـهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة ، فان فيها « والحد القبلى ينتهى الى سويقة أمير الجيوش ، وسوق حارة برجوان هو فى الحد القبلى من حارة برجوان » .

وأدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة . ما برحنا ونحن شـباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة ، فنقول : بحارة برجوان حمامات (يعنى حمامى الرومى وحمام سويد ، فانه كان يدخل اليها من داخل الحارة) وبها فرنان ، ولها السـوق الذى لا يحتاج ساكنها الى غيره .

وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين الى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعـدة الوافرة من بيـاعى لحم الضـأن السليخ ، وبيـاعى اللحم * السميط ، وبيـاعى اللحم البقرى . وبه عدة كثيرة من الزياتين ، وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطبـاخين والشوايين والبواردية والعطارين والخضريين ، وكثير من بياعى الأمتعة .

حتى انه كان به حانوت لا يباع فيـه الا حـوائج المائدة ، وهى البقـل والـكرات والشمار والنعناع ، وحانوت لا يباع فيه الا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القنـاديل التى تسرج فى الليل . وسمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحـانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة ، عنها يومئذ دينار ونصف . وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النىء والمطبوخ الى ثلث الليـل الأول ومن قبـل طلوع الفجر بساعة .

(*) ص٩٥ جـ٢ ، ط.بولاق .

وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق ولم يبق لها أثر ، وتعطل بأسره بعد سنة ست وثمانمائة ، وصار أوحش من وتد فى قاع ، بعد أن كان الانسان لا يستطيع أن يمر فيسه من ازدحام الناس ليلا ونهارا الا بمشقة . وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لا يتفرغ من الوزن ، ولا يزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له .

فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة ، أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة ، وعمر ربعا وحواليت ، فتحايى بعض الشيء ، وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة ولم تكمل عمارة السوق ، وفيه الآن بقية يسيرة .

« سوق الشماعين » : هذا السوق من الجامع الأقمر الى سوق الدجاجين . كان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين ، وعنده بنى المأمون بن البطائحى الجامع الأقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام الله ، وبنى تحت الجامع دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح .

وأدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات ، لا تزال حوانيته مفتحة الى نصف الليل . وكان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهن « زعيرات الشماعين » ، لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس الملاءات الطرح ، وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر . وكن يعانين الزعارة ، ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم ، وفيهن من تحمل الحديد معها .

وكان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وقد خرب ولم يبق به الا نحو الخمس حوانيت ، بعدما أدركتها تزيد على عشرين حانوتا ، وذلك لقلة ترف الناس ، وتركهم استعمال الشمع . وكان يعلق بهذا السوق الفوانيس فى موسم الغطاس ، فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء .

وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم ، لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، ومن المزهرات العجيبة الزى المليحة الصنعة ، ومن الشمع الذى يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه ... كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح ، فيمر فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه ، وقد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس وعجزهم .

«سوق الدجاجين» : هذا السوق كان مما يلى سوق الشماعين الى سوق قبو الخرشنف . كان يباع فيه من الدجاج والأوز شيء كثير جليل الى الغاية ، وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها ، فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدا ، ويباع العصفور منها بفلس ، ويخدع الصبى بأنه يسبح فمن أعتقه دخل الجنة ، ولكل واحد حينئذ رغبة فى فعل الخير . وكان يوجد فى كل وقت بهذه الحوانيت من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف ، ويباع بهذا السوق عدة أنواع من الطير ، وفى كل يوم جمعة

يباع فيه بكرة أصناف القمارى والهزارات والشحارير والببغا والسمان .

وكنا نسمع أن من السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم ، وكذلك بقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف ، لتنافس الناس فيها وتوفر عدد المعتنين بها ، وكان يقال لهم غواة طيور المسموع ... سيما الطواشية ، فانه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السمان ، ويتأنقوا فى أقفاصه ، ويتغالوا فى أثمانه ، حتى بلغنا أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة ، عنها يومئذ نحو الخمسين دينارا من الذهب . كل ذلك لاعجابهم بصوته ، وكان صوته على وزن قول القائل : طقطلق وعوع ، وكلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه .

فاعتبر بما قصصته عليك حال الترف الذى كان فيه أهل مصر ، ولا تتخذ حكاية ذلك هزؤا تسخر به ، فتكون ممن لا تنفعه المواعظ بل يمر بالآيات معرضا غافلا ، فتحرم الخير .

وكان بهذا السوق قيسارية عملت مرة سوقا للكتبيين ، ولها باب من وسط سوق الدجاجين ، وباب من الشارع الذى يسلك فيه من بين القصرين الى الركن المخلق . فاتفق أن ولى نيابة النظر فى المارستان المنصورى ، عن الأمير الكبير أيتمش النحاسى الظاهرى ، أمير يعرف بالأمير خضر ابن التنكزية ، فهدم هذا السوق والقيسارية وما يعلوها ، وأنشأ هذه الحوانيت والرباع التى فوقها تجاه ربع الكامل ، الذى يعلو ما بين درب الخضيرى وقبو الخرشتف ، فلما كمل أسكن فى الحوانيت عدة من الزياتين وغيرهم . وبقى من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة .

« سوق بين القصرين » * : هذا السوق أعظم أسواق الدنيا فيما بلغنا . وكان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ، ثم لما زالت الدولة ابتذل ، وصار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه . وقد تقدم ذكره فى الخطط من هذا الكتاب ، وفيه الى الآن بقية تحزننى رؤيتها اذ صارت الى هذه القلة .

« سوق السلاح » : هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك . استجد فيما بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين ، وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح . وكان تجاهه خان يقابل الخان الذى هو الآن بوسط سوق السلاح ، وعلى بابه من الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار .

فاذا كان عصريات كل يوم جلس أرباب المقاعد تجاه حوانيت الصيارف لبيع أنواع من المآكل ، ويقابلهم تجاه حوانيت سوق السلاح أرباب المقاعد أيضا . فاذا أقبل الليل أشعلت السرج من الجانبين ، وأخذ الناس فى التمشى بينهما على سبيل الاسترواح والتنزه ، فيمر هنالك من الخلاعات والمجون ما لا يعبر عنه بوصف .

فلما أنشأ الملك الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية المستجدة ، صارت فى موضع الخان

(*) ص٩٦ جـ٢ ، طـ بولاق .

وحوانيت الصرف تجاه سوق السلاح ، وقل ما كان هناك من المقاعد ، وبقى منها شىء يسير .

« سوق القفيصات » : بصيغة الجمع والتصغير ... هكذا يعرف ، كأنه جمع قفيص . فانه كله معد لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية ، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك ، فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك . وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى هى عليها مباشر المارستان المنصورى .

وأصل هذه الأرض كانت من حقوق أرض موقوفة على جامع المقس ، فدخل بعضها فى القبة المنصورية ، وصار بعضها كما ذكرنا ، والى اليوم يدفع من وقف المارستان حكر هذه الأرض لجامع المقس .

ولما ولى نظر المارستان الأمير جمال الدين أقوش ، المعروف بنائب الكرك ، فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، عمل فيه أشياء من ماله : منها خيمة ذرعها مائة ذراع ، نشرها من أول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية الى آخر حد المدرسة المنصورية بجوار الصاغة ، فصارت فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حر الشمس ، وعمل لها حبالا تمد بها عند الحر وتجمع بها اذا امتد الظل ، وجعلها مرتفعة فى الجو حتى ينحرف الهواء . ثم لما كان شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، نقلت الأقفاص منه الى القيسارية التى استجدت تجاه الصاغة .

« سوق باب الزهومة » : هذا السوق عرف بذلك من أجل أنه كان هناك فى الأيام الفاطمية باب من أبواب القصر ، يقال له باب الزهومة ، تقدم ذكره فى ذكر أبواب القصر من هذا الكتاب .

وكان موضع هذا السوق فى الدولة الفاطمية سوق الصيارف ، ويقابله سوق السيوفيين من حيث الخشيبة الى نحو رأس سوق الحريريين اليوم ، وسوق العنبر الذى كان اذ ذاك سجنا يعرف بالمعونة ، ويقابل السيوفيين اذ ذاك سوق الزجاجين ، وينتهى الى سوق القشاشين الذى يعرف اليوم بالخراطين .

فلما زالت الدولة الفاطمية تغير ذلك كله ، فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة الى درب السلسلة ، وبنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت — مما يلى المدرسة الصالحية — يباع فيها الأمشاط بسوق الأمشاطيين ، وفيه حوانيت — فيما بين الحوانيت التى يباع فيها الأمشاط وبين الصاغة — بعضها سكن الصيارف ، وبعضها سكن النقليين ، وهم الذين يبيعون الفستق واللوز والزبيب ونحوه .

وفى وسط هذا البناء سوق الكتبيين يحيط به سوق الأمشاطيين وسوق النقليين ، وجميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى .

وكان سوق باب الزهومة من أجل أسواق القاهرة وأفخرها ، موصوفا بحسن المآكل وطيبها .

واتفق في هذا السوق أمر يستحسن ذكره لغرابته في زمننا . وهو أنه عبر متولي الحسبة بالقاهرة ، في يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، على رجل بواردي بهذا السوق ، يقال له محمد بن خلف ، عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة لها نحو خمسين يوما ، فكشف عنها فبلغت عدتها أربعة وثلاثين ألفا ومائة وستة وتسعين طائرا : من ذلك حمام ألف ومائة وستة وتسعون ، وزرازير ثلاثة وثلاثون ألفا ، كلها متغيرة اللون والريح ، فأدبه وشهره . وفيه الى الآن بقايا .

« سوق المهامزيين » : هذا السوق مما استجد بعد زوال الدولة الفاطمية ، وكان بأوله حبس المعونة الذي عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر ، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب في الموضع الذي يعرف اليوم بدرب الشمسي وما يحذائه من الحوانيت الى حمام الخراطين وما تجاه ذلك .

وهذا السوق معد لبيع المهاميز . وأدركت الناس وهم يتخذون المهماز كله ، قالبه وسقطه ، من الذهب الخالص ومن الفضة الخالصة ، ولا يترك ذلك الا من يتورع ويتدين ، فيتخذ القالب * من الحديد ويطليه بالذهب أو الفضة ، ويتخذ السقط من الفضة. وقد اضطر الناس الى ترك هذا ، فقل من بقي سقط مهمازه فضة ، ولا يكاد يوجد اليوم مهماز من ذهب .

وكان يباع بهذا السوق البدلات الفضة التي كانت برسم لجم الخيل ، وتعمل تارة من الفضة المجراة بالمينا ، وتارة بالفضة المطلية بالذهب ، فيبلغ زنة ما في البدلة من خمسمائة درهم فضة الى ما دونها . وقد بطل ذلك .

وكان يباع به أيضا سلاسل الفضة ومخاطم الفضة المطلية ، تجعل تحت لجم الحجور من الخيل خاصة ، فيركب بها أعيان الموقعين وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار . وقد بطل ذلك أيضا .

ويباع فيه أيضا الدوى ، والطرف التى فيها الفضة والذهب ، كسكاكين الأقلام ونحوها . وكانت تجار هذا السوق تعد من بياض العامة .

ويتصل بسوق المهامزيين هذا « سوق اللجميين » : ويباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد . وفي هذا السوق أيضا عدة وافرة من الطلائين ، وصناع الكفت برسم اللجم والركب والمهاميز ونحو ذلك ، وعدة من صناع مياتر السروج وقرابيسها .

وأدركت السروج تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ، ومنها ما يعمل من الدبل ، ومنها ما يعمل سيورا من الجلد البلغاري الأسود . ويركب بهذه السروج السود القضاة ومشايخ العلم ، اقتداء بعادة بني العباس في استعمال السواد ، على ما جدده بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية .

وأدركت السروج التي تركب بها الأجناد والكتاب يعمل للسرج في قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب ومعقربات من فضة ، ولا يكاد أحد يركب فرسا بسرج سادج

(*) ص٩٧ ج٢ ، ط. بولاق

الا أن يكون من القضاة ومشايخ العلم وأهل الورع .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق ، اتخذ سائر الأجناد السروج المغرقة ، وهى التى بجميع قرابيسها من ذهب أو فضة اما مطلية أو سادجة ، وكثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس الا وسرجه كما ذكرنا ، وبطل السرج المسقط . فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، غلب على الناس الفقر وكثرت الفتن ، فقلت سروج الذهب والفضة ، وبقى منها الى اليوم بقايا يركب بها أعيان الأمراء وأماثل المماليك .

« سوق الجوخيين » : هذا السوق يلى سوق اللجميين ، وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها .

وأدركت الناس وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ ، وانما يكون من جملة ثياب الأكابر جوخ لا يلبس الا فى يوم المطر ، وانما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب والفرنج وأهل الاسكندرية وبعض عوام مصر ، فأما الرؤساء والأكابر والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه الا فى وقت المطر ، فاذا ارتفع المطر نزع الجوخ .

وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطبا المخزومى ، خال أبى رحمه الله ، قال : كنت أنوب فى حسبة القاهرة عن القاضى ضياء الدين المحتسب ، فدخلت عليه يوما وأنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع ، فقال لى : وكيف ترضى أن تلبس الجوخ ؟ وهل الجوخ الا لأجل البغلة ؟ ثم أقسم على أن أخلعها .

وما زال بى حتى عرفته أنى اشتريتها من بعض تجار قيسارية الفاضل ، فاستدعاه فى الحال ودفعها اليه ، وأمره باحضار ثمنها ، ثم قال لى : لاتعد الى لبس الجوخ استهجانا له .

فلما كانت هذه الحوادث ، وغلت الملابس ، دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه ، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، فتجد الأمير والوزير والقاضى ، ومن دونهم ممن ذكرنا ، لباسهم الجوخ .

ولقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا الى الاصطبل وعليه قمجون من جوخ ، وهو ثوب قصير الكمين والبدن يخاط من الجوخ بغير بطانة من تحته ولا غشاء من فوقه ، فتداول الناس لبسه ، واجتلب الفرنج منه شيئا كثيرا لا توصف كثرته . ومحل بيعه بهذا السوق .

ويلى سوق الجوخيين هذا « سوق الشرابشيين » : وهذا السوق مما أحدث بعد الدولة الفاطمية . ويباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم .

وانما قيل له سوق الشرابشيين ، لأنه كان من الرسم ، فى الدولة التركية ، أن السلطان والأمراء وسائر العساكر انما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريبا عريضا ، ولها كلاليب بغير عمامة فوقها ، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة ، وهى فى

كيس حرير اما أحمر أو أصفر ، وأوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكي مصبوغ عوضا عن الحوائص ، وعليهم أقبية اما بيض أو مشجرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم ، وأخفافهم من جلد بلغاري أسود ، وفي أرجلهم من فوق الخف سقمان وهو خف ثان ، ومن فوق القبا كمران بحلق وأبزيم ، وصوالق بلغاري كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة غلة ، مغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع .

فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك من سنة ثمان وأربعين وستمائة ... الى أن قام في المملكة الملك المنصور قلاوون ، فغير هذا الزى بأحسن منه ، ولبسوا الشاشات * ، وأبطلوا لبس الكم الضيق ، واقترح كل أحد من المنصورية ملابس حسنة .

فلما ملك ابنه الأشرف خليل جمع خاصكيته ومماليكه ، وتخير لهم الملابس الحسنة ، وبدل الكلوتات الجوخ والصفر . ورسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش والطرازات الزركش والكنابيش الزركش والأقبية الأطلس المعدنى حتى يميز الأمير بلبسه عن غيره ، وكذلك في الملبوس الأبيض أن يكون رفيعا ، واتخذ السروج المرصعة والأكوار المرصعة فعرفت بالأشرفية . وكانت قبل ذلك سروجهم بقرابيس كبار شنعة ، وركب كبار بشعة .

فلما ملك ديار مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، استجد العمائم المصرية ، وهي صغار .

فلما قام الأمير يلبغا العمرى الخاصكى ، عمل الكلوتات اليلبغاوية ، وكانت كبارا . واستجد الأمير سلار ، في أيام الملك الناصر محمد ، القباء الذى يعرف بالسلارى ، وكان قبل ذلك يعرف ببلغوطاق .

فلما تملك الملك الظاهر برقوق ، عمل هذه الكلوتات الجركسية ، وهي أكبر من اليلبغاوية وفيها عوج .

وأما الخلع فان السلطان كان اذا أمّر أحدا من الأتراك ألبسه الشربوش ، وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث : يجعل على الرأس بغير عمامة ، ويلبس معه على قدر رتبته اما ثوب بخ أو طرد وحش أو غيره . فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة الى الشرابيش المذكورة . وقد بطل الشربوش في الدولة الجركسية .

وكان بهذا السوق عدة تجار لشراء التشاريف والخلع ، وبيعها على السلطان في ديوان الخاص وعلى الأمراء ، وينال الناس من ذلك فوائد جليلة ، ويقتنون بالمتجر في هذا الصنف سعادات طائلة .

فلما كانت هذه الحوادث منع الناس من بيع هذا الصنف الا للسلطان ، وصار يجلس به قوم من عمال ناظر الخاص لشراء سائر ما يحتاج اليه ، ومن اشترى من ذلك شيئا سوى عمال السلطان فله من العقاب ما قدر عليه . والأمر على هذا الى يومنا الذى نحن فيه .

وأول من علمته خلع عليه من أهل الدول جعفر بن يحيى البرمكى . وذلك أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قال في اليوم الذى

(*) ص٩٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

انعقد له فيه الملك : ياأخي ياجعفر ، قد أمرت لك بمقصورة في داري وما تصلح لها من الفراش ، وعشر جوار تكن فيها ليلة مبيتك عندنا .

فقال : ياأمير المؤمنين ما من نعمة متواترة ولا فضل متظاهر ، الا ورأى أمير المؤمنين أجمل وأتم .

ثم انصرف وقد خلع عليه الرشيد ، وحمل بين يديه مائة بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه ، وأعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد . فبلغ بذلك صيته أقطار الأرض ، ووصل الى ما لم يصل اليه كاتب بعده . فاقتدى بالرشيد من بعده ، وخلعوا على أولياء دولتهم وولاة أعمالهم . واستمر ذلك الى اليوم .

وأول ما عرف شد السيوف فى أوساط الجند ، أن سيف الدين غازى ابن عماد الدين أتابك زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل ، أمر الأجناد ألا يركبوا الا بالسيوف فى أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم . فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف . وهو أيضا أول من حمل على رأسه الصنجق فى ركوبه .

وغازى هذا هو أخو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، ومات فى آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وولى الموصل بعده أخوه قطب الدين مودود .

« سوق الحوائصيين » : هذا السوق يتصل بسوق الشرابشيين ، وتباع فيه الحوائص — وهى التى كانت تعرف بالمنطقة فى القديم — فكانت حوائص الأجناد أولا أربعمائة درهم فضة ونحوها . ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار ثلثمائة دينار ، وأمراء الطبلخانات مائتى دينار ، ومقدمى الحلقة من مائة وسبعين الى مائة وخمسين دينارا .

ثم صار الأمراء والخاصكية ، فى الأيام الناصرية وما بعدها ، يتخذون الحياصة من الذهب ، ومنها ما هو مرصع بالجوهر . ويفرق السلطان فى كل سنة على المماليك من حوائص الذهب والفضة شيئا كثيرا ، وما زال الأمر على ذلك الى أن ولى الناصر فرج . فلما كان فى أيام الملك المؤيد شيخ ، قل ذلك .

ووجد فى تركة الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور لما قبض عليه ستة آلاف حياصة ، وستة آلاف كلوتة جهاركس .

وما برح تجار هذا السوق من بياض العامة ، وقد قل تجار هذا السوق فى زمننا ، وصار أكثر حوانيته يباع فيها الطواقى التى يلبسها الصبيان ، وصارت الآن من ملابس الأجناد .

«سوق الحلاويين» : هذا السوق معد لبيع ما يتخذ من السكر حلوى ، وانما يعرف اليوم بحلاوة منوعة . وكان من أبهج الأسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة ، ومن الحلاوات المصنعة عدة ألوان وتسمى المجمعة ، وشاهدت بهذا

السوق السكر ينادى عليه كل قنطار بمائة وسبعين درهما .

فلما حدثت المحن ، وغلا السكر لخراب الدواليب التى كانت بالوجه القبلى ، وخراب مطابخ السكر التى كانت بمدينة مصر ... قل عمل الحلوى ، ومات أكثر صناعتها . ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل ، وعدة شقاف من خزف أحمر فى بعضها لبن * وفى بعضها أنواع الأجبان ، وفيما بين الشقاف الخيار والموز ، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة . وكانت أيضا لهم عدة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها .

وكان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا ، فانه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق — واحدها علاقة — ترفع بخيوط على الحوانيت ، فمنها ما يزن عشرة أرطال الى ربع رطل ، تشترى للأطفال . فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلىء أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف ، وكذلك يعمل فى موسم نصف شعبان . وقد بقى من ذلك الى اليوم بقية غير طائلة .

وكذلك كانت تروق رؤية هذا السوق فى موسم عيد الفطر ، لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج وقطع البسندود والمشاش ، ويشرع فى عمل ذلك من نصف شهر رمضان ، فتملأ منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف ، ولم ير فى موسم سنة سبع عشرة وثمانمائة

(*) ص٩٩ ج٢ ، ط . بولاق .

من ذلك شىء بالأسواق ألبتة . فسبحان محيل الأحوال لا اله الا هو .

« سوق الشوايين » : هذا السوق أول سوق وضع بالقاهرة ، وكان يعرف بسوق الشرايحيين ، وهو من باب حارة الروم الى سوق الحلاويين . وما زال يعرف بسوق الشرايحيين الى أن سكن فيه عدة من بياعى الشواء فى حدود السبعمائة من سنى الهجرة ، فزالت عنه النسبة الى الشرايحيين وعرف بالشوايين ، وهو الآن سكن المتعيشين . وانتقل سوق الشرايحيين فى زماننا الى خارج باب زويلة ، وعرفه بالبسطيين كما سيأتى ذكره ان شاء الله تعالى .

قال ابن زولاق فى كتاب « سيرة المعز » : وفى شهر صفر من سنة خمس وستين وثلثمائة أنشىء سوق الشرايحيين بالقاهرة . وذكر ذلك ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » .

وكان فى القديم باب زويلة الذى وضعه القائد جوهر عند رأس حارة الروم ، حيث العقد المجاور الآن للمسجد الذى عرف اليوم بسام بن نوح ، وكان بجواره باب آخر موضعه الآن سوق الماطيين .

فلما نقل أمير الجيوش باب زويلة الى حيث هو الآن ، اتسع ما بين سوق الشرايحيين المذكور وبين باب زويلة الكبير ، وصار الآن فيه سوق الغرابليين ، وفيه عدة حوانيت تعمل مناخل الدقيق والغرابيل ، ويقابلهم عدة حوانيت يصنع فيها الأغلاق المعروفة بالضبب ، وما بعد ذلك الى باب زويلة فيه كثير من

الحوانيت يجلس ببعضها عدة من الجبانين لبيع أنواع الجبن المجلوب من البلاد الشامية . وأدركنا هناك الى أن حدثت المحن من ذلك شيئا كثيرا يتجاوز الحد فى الكثرة .

وفى بعض تلك الحوانيت قوم يجلسون لعلاج من عساه ينصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح ، يعرفون بالمجبرين . وهناك منهم بقية الى يومنا هذا . وبقية الحوانيت ما بين صيارفة وبياعى طرف ومتعيشين فى المآكل وغيرها .

فهذه قصبة القاهرة ، وما فى ظاهر باب زويلة فإنه خارج القاهرة ، والله تعالى أعلم .

الشارع خارج باب زويلة

هذا الشارع هو تجاه من خرج من باب زويلة ، ويمتد فيما بين الطريق السالك ذات اليمين الى الخليج ، وبين الطريق المسلوك فيه ذات اليسار الى قلعة الجبل .

ولم يكن هذا الشارع موجودا على ما هو عليه الآن عند وضع القاهرة ، وانما حدث بعد وضعها بعدة أعوام على غير هذه الهيئة . فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة ، بعد سنة سبعمائة من سنى الهجرة ، صار على ما هو عليه الآن .

فأما أول أمره فان الخليفة الحاكم بأمر الله أنشأ الباب الجديد على يسرة الخارج من باب زويلة على شاطىء بركة الفيل ، وهذا الباب أدركت عقده عند رأس المنجبية بجوار سوق الطيور . ثم لما اختطت حارة اليانسية وحارة الهلالية ، صار ساحل بركة الفيل قبالتها ، واتصلت العمائر من الباب الجديد الى الفضاء الذى هو الآن خارج المشهد النفيسى .

فلما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر ، صارت مواضعها خرابا الى خلافة الآمر بأحكام الله . فعمر الناس حتى صارت مصر والقاهرة لا يتخللهما خراب ، وبنى الناس فى الشارع من الباب الجديد الى الجبل عرضا حيث قلعة الجبل الآن ، وبنى حائط يستر خراب القطائع والعسكر .

فعمر من الباب الجديد طولا الى باب الصفا بمدينة مصر ... حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة، ويتوجهون الى سكنهم فى مصر ، ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود من الباب الجديد خارج باب زويلة الى باب الصفا حيث الآن كوم الجارح ، والمعاش مستمر فى الليل والنهار .

ووقف القاضى الرئيس المختار العدل زكى الدين أبو العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف حصة من البستان الكبير ، المعروف يومئذ بالمخاريق الكبرى الكائن فيما بين * القاهرة ومصر بعدوة الخليج ، على القربات ، وشرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء من قماش الكتان الخام أو القطن ما يراه ، ويعمل ذلك جبانا وبغالطيقا محشوة قطنا ، وتفرق على الأيتام الذكور والاناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة ، فيدفع لكل واحد جبة واحدة أو بغلطاقا ، فان تعذر ذلك كان

(*) ص١٠٠ ج٢ ، ط.بولاق .

علی الأیتام المتصفین بالصفات المذکورة بالقاهرة ومصر وقرافتیهما . وکان هذا الوقف فی سنة ستین وستمائة .

فلما کثرت العمائر خارج باب زویلة ، فی أیام الملک الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة سبعمائة ، صار هذا الشارع أوله تجاه باب زویلة وآخره فی الطول الصلیبة التی تنتهی الی جامع ابن طولون وغیره . لکنهم لا یریدون بالشارع سوی الی باب القوس الذی بسوق الطیوریین ، وهو الباب الجدید .

وبعد باب القوس سوق الطیوریین ، ثم سوق جامع قوصون ، وسوق حوض ابن هنس ، وسوق ربع طفجی . وهذه أسواق بها عدة حوانیت ، لکنها لا تنتهی الی عظم أسواق القاهرة ، بل تکون أبدا دونها بکثیر ... فهذا حال القصبة والشارع خارج باب زویلة .

وقد بقیت عدة أسواق فی جانبی القصبة ولها أبواب شارعة ، وفیها أسواق أخر فی نواحی القاهرة ومسالکها سیأتی ذکرها بحسب القدرة ان شاء الله تعالی .

« سویقة أمیر الجیوش » : هذه السویقة الآن ، فیما بین حارة برجوان وحارة بهاء الدین ، کانت تعرف بسوق الخروقیین فیما بعد زوال الدولة الفاطمیة . وفی هذا السوق عمر الأمیر مازکوج الأسدی مدرسته المعروفة الآن بالأزکجیة .

وأدرکت الناس الی هذا الزمن الذی نحن فیه لا یعرفون هذا السوق الا بسوق أمیر الجیوش ، ویعبرون عنه بصیغة التصغیر ، ولا أعرف لهم مستندا فی ذلک . والذی تشهد به الأخبار أن سوق أمیر الجیوش هو السوق الذی برأس حارة برجوان ، ویمتد الی رأس سویقة أمیر الجیوش الآن .

وهذه السویقة من أکبر أسواق القاهرة ، بها عدة حوانیت فیها الرفاؤون والحباکون ، وعدة حوانیت للرسامین ، وعدة حوانیت للفرایین وعدة حوانیت للخیاطین ، ومعظمها لسکن البزازین والخلعیین ، وفیها عدة من بیاعی الأقباع .

ویباع فی هذا السوق سائر الثیاب المخیطة والأمتعة من الفرش ونحوها . وهو شارع من شوارع القاهرة یسلک فیه من باب الفتوح وبین القصرین وباب النصر الی باب القنطرة وشاطیء النیل وغیره .

وکان ما بعد هذا السوق الی باب القنطرة معمور الجانبین بالحوانیت ، المعدة لبیع الظرائف والمغازل والکتان والأنواع من المأکل والعطر وغیره ، وقد خرب أکثر هذه الحوانیت فی سنی المحنة وما بعدها . ولسویقة أمیر الجیوش عدة قیاسر وفنادق ، والله أعلم .

« سوق الجملون الصغیر » : هذا السوق یسلک فیه من رأس سویقة أمیر الجیوش الی باب الجوانیة وباب النصر ورحبة باب العید . وهو مجاور لدرب الفرحیة ، وفیه المدرسة الصیرمیة ، وباب زیادة الجامع الحاکمی . وکان أولا یعرف بالأمراء القرشیین بنی النوری ، ثم عرف بالجملون الصغیر ، ویجملون ابن صیرم . وهو الأمیر جمال الدین شویخ ابن صیرم أحد الأمراء فی أیام الملک

الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، واليه تنسب المدرسة الصيرمية ، والخط المعروف خارج باب الفتوح ببستان ابن صيرم .

وأدركت هذا الجملون معمور الجانبين من أوله الى آخره بالحوانيت : ففى أوله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام والأزرق وأنواع الطرح وأصناف ثياب القطن ، وينادى فيه على الثياب بحراج حراج ، وفيه عدة من الخياطين ، وعدة من البابية المعدين لغسل الثياب وصقالها . وبآخره كثير من الضببيين ، بحيث لو أراد أحد أن يشترى منه ألف ضبة فى يوم لما عسر عليه ذلك .

فلما حدثت المحن خرب هذا السوق بخلو حوانيته ، وصار مقفرا من ساكنيه ، ثم انه عمر بعد سنة عشر وثمانمائة ، وفيه الآن نفر من البزازين وقليل ممن سواهم .

« سوق المحايريين » : هذا السوق فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون بن صيرم . يسلك فيه من سوق حارة برجوان ومن سوق الشماعين الى الركن المخلق ورحبة باب العيد ، وهو من شوارع القاهرة المسلوكة ، وفيه عدة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها الى الحجاز وغيره ، وكان فيه تاجران قد تراضيا على ما يشتريانه من المحاير المعرضة للبيع . ولهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج ، وعند سفر الناس الى القدس .

وبلغنى عن شيخ كان بهذا السوق أنه أوصى بعض صبيانه فقال له : يابنى لا تراع أحدا فى بيع فانه لا يحتاج اليك الا مرة فى عمره ، فخذ عدلك فى ثمن المحارة فانك لا تخشى من عوده مرة أخرى اليك ، وسوف اذا عاد من سفره اما الى الحجاز أو القدس فانه يحتاج الى بيعها ، فتراقد عليه فى ثمنها ، واشترها بالرخيص .

وكذلك يفعل أهل هذا السوق الى اليوم ، فانهم لا يراعون بائعا ولا مشتريا . الا أن سوقهم لم يبق كما أدركناه ، فانه حدث سوق آخر يباع فيه المحاير بسوق الجامع الطولونى ، وصار بسوق الخيميين أيضا صناع * للمحاير .

وبلغنى أن بالمحايريين هذه أوقفه أهل مصر امرأة من جريد مؤتزرة ، بيدها ورقة فيها سب الخليفة الحاكم بأمر الله ولعنه ، عندما منع النساء من الخروج فى الطرقات . فعندما مر من هناك حسبها امرأة تسأله حاجة ، فأمر بأخذ الورقة منها ، فاذا فيها من السب ما أغضبه ، فأمر بها أن تؤخذ فاذا هى من جريد قد ألبس ثيابا ، وعمل كهيئة امرأة . فاشتد عند ذلك غضبه ، وأمر العبيد باحراق مدينة مصر ، فأضرموا فيها النار .

ولم أقف على هذا الخبر مسطورا . وقد ذكر المسيحى حريق الحاكم بأمر الله لمصر ، ولم يذكر قصة المرأة .

« الصاغة » : هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخط بين القصرين .

قال ابن عبد الظاهر : الصاغة بالقاهرة كانت مطبخا للقصر يخرج اليه من باب الزهومة ،

(*) ص١٠١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وهو الباب الذى هدم وبنى مكانه قاعة شيخ الحنابلة من المدارس الصالحية .

وكان يخرج من المطبخ المذكور مدة شهر رمضان ألف ومائتا قدر من جميع الألوان فى كل يوم تفرق على أرباب الرسوم والضعفاء ، وسمى باب الزهومة — أى باب الزفر — لأنه لا يدخل باللحم وغيره الا منه فاختص بذلك . انتهى .

والصاغة الآن وقف على المدارس الصالحية وقفها الملك السعيد بركة خان ، المسمى بناصر الدين محمد ، ولد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، على الفقهاء المقررين بالمدارس الصالحية .

« سوق الكتبيين » : هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية . أحدث فيما أظن بعد سنة سبعمائة ، وهو جار فى أوقاف المارستان المنصورى .

وكان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصر تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص ، فى أول زقاق القناديل بجوار دار عمرو ، وأدركته وفيه بقية بعد سنة ثمانين وسبعمائة ، وقد دثر الآن فلا يعرف موضعه .

وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه الآن بالقاهرة الى قيسارية كانت فيما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الأقمر وبين سوق الحصريين المجاور للركن المخلق . وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه عدة مساكن ، فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت وفسد بعضها ، فعادوا الى سوق الكتب الأول حيث هو الآن .

وما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يترددون اليه . وقد أنشدت قديما لبعضهم :

مجالسة السوق مذمومة
ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد
وسوق السلاح وسوق الكتب
فهاتيك آلة أهل الوغى
وهاتيك آلة أهل الأدب

« سوق الصنادقيين » : هذا السوق تجاه المدرسة السيوفية . كان موضعه فى القديم من جملة المارستان ، ثم عرف بفندق الدبابليين ، وقيل له الآن سوق الصنادقيين . وفيه تباع الصناديق والخزائن والأسرة مما يعمل من الخشب .

وكان ما بظاهرها قديما يعرف بسكن الدجاجين ، وأدركناه يعرف بسوق السيوفيين ، وكان فيه عدة طباخين لا يزال دخان كوانينهم منعقدا لكثرته ... حتى قال لى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل ابن ابراهيم الحنفى : ان قاضى القضاة جلال الدين جاد الله قال له : هذا السوق قطب دائرة الدخان .

وفى سوق الصنادقيين الى الآن بقية .

« سوق الحريريين » : هذا السوق من باب قيسارية العنبر الى خط البندقانيين . كان يعرف قديما بسقيفة العداس ، ثم عمل صاغة القاهرة ، ثم سكن هناك الأساكفة .

قال ابن عبد الظاهر : وكانت الصاغة قديما فيما تقدم مكان الأساكفة الآن . وهو الى الآن معروف بالصاغة القديمة ، وكان يعرف

بسقيفة العداس ... كذا رأيت فى كتب الأملاك .

وعرف هذا السوق فى زماننا بالحريريين الشراربيين ، وعرف بعضه بسوق الزجاجين ، وكان يسكن فيه أيضا الأساكفة . فلما أنشأ الأمير يونس الدوادار القيسارية على بئر زويلة بخط البندقانيين ، فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، نقل الأساكفة من هذا الخط ، ونقل منه أيضا بياعى أخفاف النساء الى قيساريته وحوانيته المذكورة .

« سوق العنبريين » : هذا السوق فيما بين سوق الحريريين الشراربيين وبين قيسارية العصفر ، وهو تجاه الخراطين . كان فى الدولة الفاطمية مكانه سجنا لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة ، وكان شنيع المنظر ضيقا ، لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة .

فلما كان فى الدولة التركية ، وصار قلاوون من جملة الأمراء الظاهرية بيبرس ، صار يمر من داره الى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا ، فيشم منه رائحة رديئة ، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل ، فجعل على نفسه ان الله تعالى جعل له من الأمر شيئا أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا . فلما صار اليه ملك ديار مصر والشام ، هدم حبس المعونة ، وبناه سوقا أسكنه بياعى العنبر .

وكان للعنبر اذ ذاك بديار مصر نفاق ، وللناس فيه رغبة زائدة ، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت * الا ولها قلادة من عنبر ، وكان يتخذ منه المخاد والكلل والستور وغيرها . وتجار العنبر يعدون من بياض الناس ، ولهم أموال جزيلة ، وفيهم رؤساء وأجلاء .

فلما صار الملك الى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جعل هذا السوق وما فوقه من المساكن وقفا على الجامع الذى أنشأه بظاهر مصر جوار موردة الخلفاء ، المعروف بالجامع الجديد الناصرى ، وهو جار فى أوقافه الى يومنا هذا ... الا أن العنبر من بعد سنة سبعين وسبعمائة كثر فيه الغش حتى صار اسما لا معنى له ، وقلت رغبة الناس فى استعماله ، فتلاشى أمر هذا السوق بالنسبة لما كان .

ثم لما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، قل ترفه أهل مصر عن استعمال الكثير من العنبر ، فطرق هذا السوق ما طرق غيره من أسواق البلد ، وبقيت فيه بقية يسيرة ... الى أن خلع الخليفة المستعين بالله العباسى بن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة — وكان نظر الجامع الجديد بيده وبيد أبيه الخليفة المتوكل على الله محمد — فقصد بعض سفهاء العامة بكاتبه بتعطيل هذا السوق ، فاستأجر قيسارية العصفر ، ونقل سوق العنبر اليها ، وصار معطلا نحو سنتين ، ثم عاد أهل العنبر الى هذا السوق على عادتهم فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة .

« سوق الخراطين » : هذا السوق يسلك فيه من سوق المهامزيين الى الجامع الأزهر وغيره ، وكان قديما يعرف بعقبة الصباغين ، ثم عرف بسوق القشاشين ، وكان فيما بين دار

(*) ص ١٠٢ ج ٢ ، ط بولاق .

الضرب والوكالة الآمرية وبين المارستان ، ثم عرف الآن بسوق الخراطين .

وكان سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال ، وحوانيت الخراطين ، وحوانيت صناع السكاكين وصناع الدوى ... يشتمل على نحو الخمسين حانوتا .

فلما حدثت المحن تلاشى هذا السوق ، واغتصب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار منه عدة حوانيت ، من أوله الى الحمام التى تعرف بحمام الخراطين ، وشرع فى عمارتها . فعوجل بالقتل قبل اتمامها ، وقبض عليها الملك الناصر فرج فيما أحاط به من أمواله ، وأدخلها فى الديوان .

فقام بعمارة الحوانيت التى تجاه قيسارية العصفر من درب الشمسى الى أول الخراطين ، القاضى الرئيس تقى الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر .

فلما كملت جعلها الملك الناصر فيما هو موقوف على تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر ، وأفرد الحمام وبعض الحوانيت القديمة للمدرسة التى أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار برحبة باب العيد ، وما يقابل هذه الحوانيت هو وما فوقه وقف على المدرسة القراسنقرية وغيرها ، وهو متخرب متهدم .

« سوق الجملون الكبير » : هذا السوق بوسط سوق الشرابشيين ، يتوصل منه الى البندقانيين والى حارة الجودرية وغيرها ، أنشىء فيه حوانيت سكنها البزازون . وقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربة مملوكة يلبغا التركمانى عندما مات فى سنة سبع وسبعمائة ، ثم عمل عليه بابان بطرفيه بعد سنة تسعين وسبعمائة ، فصارت تغلق فى الليل .

وكان فيما أدركناه شارعا مسلوكا طول الليل يجلس تجاهه صاحب العسس — الذى عرفته العامة فى زماننا بوالى الطوف — من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة ، وينصب قدامه مشعل يشعل بالنار طول الليل ، وحوله عدة من الأعوان وكثير من السقائين والنجارين والقصارين والهدادين ، بنوبت مقررة لهم ، خوفا من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون اطفاءه .

ومن حدث منه بالليل خصومة ، أو وجد سكران ، أو قبض عليه من السراق ، تولى أمره والى الطوف ، وحكم فيه بما يقتضيه الحال . فلما كانت هذه الحوادث بطل هذا الرسم فى جملة ما بطل .

وهذا السوق الآن جار فى وقف .....

« سوق الفرايين » : هذا السوق يسلك فيه من سوق الشرابشيين الى الأكفانيين والجامع الأزهر وغير ذلك . كان قديما يعرف بسوق الخروقيين ، ثم سكن فيه صناع الفراء وتجاره فعرف بهم .

وصار بهذا السوق ، فى أيام الملك الظاهر برقوق ، من أنواع الفراء ما يجل أثمانها وتتضاعف قيمها ، لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك لبس السمور والوشق والقماقم والسنجاب ، بعد ما كان ذلك فى

الدولة التركية من أعز الأشياء التي لا يستطيع أحد أن يلبسها .

ولقد أخبرني الطواشي الفقيه الكاتب الحاسب الصوفي زين الدين مقبل ، الرومي الجنس المعروف بالشامي ، عتيق السلطان الملك الناصر الحسين بن محمد بن قلاوون : أنه وجد في تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفرو قاقم ، فاستكثر ذلك عليه وتعجب منه ، وصار يحكي ذلك مدة لعزة هذا الصنف واحترامه ، لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه .

ثم تبذلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام ، ولا تكاد امرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور ونحوه ، والى الآن عند الناس من هذا الصنف وغيره من الفرو شيء كثير .

« سوق البخانقيين » : هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير وبين قيسارية الشرب الآتي ذكرها ان شاء الله * تعالى عند ذكر القياسر . وباب هذا السوق شارع من القصبة ، ويعرف بسوق الخشيبة (تصغير خشبة) فانه عمل على بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل اليه .

ويسلك من هذا السوق الى قيسارية الشرب وغيرها ، وهو معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع الكوافي والطواقي التي تلبسها الصبيان والبنات . وبظاهر هذا السوق أيضا في القصبة عدة حوانيت لبيع الطواقي وعملها .

وقد كثر لبس رجال الدولة ، من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم ، للطواقي في الدولة الجركسية ، وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة ، ويمرون كذلك في الشوارع والأسواق والجوامع والمواكب ... لا يرون بذلك بأسا بعدما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة ، ونوعوا هذه الطواقي ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان .

وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ، ويعمل أعلاها مدورا مسطحا . فحدث في أيام الملك الناصر فرج منها شيء ، عرف بالطواقي الجركسية ، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع ، وأعلاها مدور مقبب . وبالغوا في تبطين الطاقية بالورق والكثيرة فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس ، وجعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس ، في عرض نحو ثمن ذراع ، يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه . وهم على استعمال هذا الزى الى اليوم ، وهو من أسمج ما عانوه .

ويشبه الرجال في لبس ذلك بالنساء لمعنيين : أحدهما أنه فشا في أهل الدولة محبة الذكران ، فقصد نساؤهم التشبه بالذكران ليستملن قلوب رجالهن ، فاقتدى بفعلهن في ذلك عامة نساء البلد .

وثانيهما ما حدث بالناس من الفقر ، ونزل بهم من الفاقة ، فاضطر حال نساء أهل مصر الى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ، حتى ليسن

(*) ص١٠٢ ج٢ ، ط. بولاق .

هذه الطواقى ، وبالغن فى عملهـا من الذهب والحرير وغيره ، وتواصين على لبسها .

ومن تأمل أحوال الوجود ، عرف كيف تنشأ أمور الناس فى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم .

«سوق الخلعيين » : هذا السوق فيما بين قيسارية الفاضل ، الآتي ذكرها ان شـاء الله تعالى ، وبين باب زويلة الكبير . وكان يعرف قديما بالخشـابين ، وعرف اليـوم بالزقيق — تصغير زقاق — وعرف أيضـا بسـوق الخلعيين ، كأنه جمـع خلعى . والخلـعى فى زماننا هو الذى يتعاطى بيع الثيـاب الخليع ، وهى التى قد لبست .

وهذا السـوق اليـوم من أعمر أسـواق القاهرة لكثرة ما يباع فيـه من ملابس أهل الدولة وغيرهم ، وأكثر ما يباع فيـه الثياب المخيطة ، وهو معمور الجوانب بالحوانيت ، ويسلك فيه من القصبة ليلا ونهارا الى حـارة الباطلية وخوخة أيدغمش وغير ذلك . وفى داخل القاهرة أيضا عدة أسواق ، وقد خرب الآن أكثرها .

« سويقة الصاحب » : هذه السويقة يسلك اليها من خط البندقانيين ومن باب الخـوخة وغير ذلك ، وهى من الأسواق القديمة . كانت فى الدولة الفاطميـة تعرف بسويقـة الوزير — يعنى أبا الفرج يعقوب بن كلس ، وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز ، الذى تنسب اليه حارة الوزيرية — فانها كانت على باب داره التى عرفت بعده فى الدولة الفاطمية بدار الديباج .

وصار موضعها الآن المدرسة الصاحبية ، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج — يعنى دار الطراز — ينسج فيها الديباج الذى هو الحرير ، وقيل لذلك الموضع كله خط دار الديباج ، ثم عرف هذا السوق بالسوق الكبير فى أخريات الدولة الفاطمية .

فلما ولى صفى الدين عبد الله بن شـكر الدميرى وزارة الملك العـادل أبى بـكر بن أيوب ، سكن فى هـذا الخط ، وأنشـأ به مدرسـته التى تعرف الى اليـوم بالمدرسـة الصاحبية ، وأنشأ به أيضـا رباطه وحمـامه المجاورين للمدرسـة المذكورة ... عرفت من حينئـذ هذه السويقـة بسويقـة الصـاحب المذكور ، واستمرت تعرف بذلك الى يومنـا هذا .

ولم تزل من الأسواق المعتبرة . يوجد فيها أكثر ما يحتاج اليه من المآكل ، لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء وأعيان الكتاب . فلمـا حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة ، فاختلت عما كانت ، وفيهـا بقية .

« سوق البندقانيين » : هذا السوق يسلك اليه من سوق الزجاجين ومن سويقة الصاحب ومن سوق الابزاريين وغيره . وكان يعـرف قديما بسوق بئر زويلة .

وكان هناك بئر قديمة تعرف ببئر زويلة ، برسم اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الخلفـاء الفاطميين ، وصـار موضعـه خط البندقانيين بعد ذلك ، كما ذكر عند اصطبلات الخلفاء الفاطميين من هذه الكتاب . وموضع هذه البئر اليوم قيسارية يونس والربع الذى يعلوها ، وبقى منها موضع ركب عليه حجر ، وأعدت لملء السقائين منها .

فلما زالت الدولة ، واختط موضع اصطبل الجميزة الدور وغيرها ، وعرف موضع الاصطبل بالبندقانيين ... قيل لهذا السوق سوق البندقانيين . وأدركته سوقا كبيرا ، معمور الجانبين بالحوانيت التى قد تهدم أعلاها منذ كان الحريق بالبندقانيين فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، كما ذكر فى خط البندقانيين عند ذكر الأخطاط من هذا الكتاب .

وفى هذا * السوق كثير من أرباب المعاش المعدين لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان والألبان والبوارد والخبز والفواكه ، وعدة كثيرة من صناع قسى البندق ، وكثير من الرسامين ، وكثير من بياعى الفقاع . فلما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة ، اختل هذا السوق خللا كبيرا وتلاشى أمره .

« سوق الأخفافيين » : هذا السوق بجوار سوق البندقانيين ، يباع فيه الآن خفاف النسوان ونعالهن . وهو سوق مستجد أنشأه الأمير يونس النوروزى ، دوادار الملك الظاهر برقوق ، فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، ونقل اليه الأخفافيين بياعى أخفاف النساء من خط الحريريين والزجاجين .

وكان مكانه مما خرب فى حريق البندقانيين فركب بعض القيسارية على بئر زويلة ، وجعل بابها تجاه درب الأنجب ، وبنى بأعلاها ربعا كبيرا فيه عدة مساكن ، وجعل الحوانيت بظاهرها وبظاهر درب الأنجب ، وبنى فوقها أيضا عدة مساكن . فعمر ذلك الخط بعمارة هذه الأماكن ، وبه الى الآن سكن بياعى أخفاف النساء ونعالهن التى يقال للنعل منها « سرموزة » ، وهو لفظ فارسى معناه « رأس الخف » ، فان سر رأس ، وموزة خف .

« سوق الكفتيين » : هذا السوق يسلك اليه من البندقانيين ومن حارة الجودرية ومن الجملون الكبير وغيره ، ويشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة .

وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ... أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته ، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت .

والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل بعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس ، أو من خشب مدهون . وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراها ما يسع نحو الاردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين ، ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المناير والسرج وأحقاق الأشنان والطشت والابريق والمبخرة . فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا .

وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار ، تجهز فى

(*) ص١٠٤ جـ٢ - ط . بولاق .

شورتها ، عند بناء الزوج عليها ، سبع دكك : دكة من فضة ، ودكة من كفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة كداهى ، وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا . وقد عدم هذا الصنف من مصر الا شيئا يسيرا .

حدثنى القاضى الفاضل الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، رحمه الله ، قال : تزوج القاضى علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة بامرأة من بنات التجار تعرف بست العمائم ، فلما قارب البناء عليها والدخول بها ، حضر اليه فى يوم وكيلها وأنا عنده ، فبلغه سلامها عليه وأخبره أنها بعثت اليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عساه اختل من الدكة الفضة .

فأجابه الى ما سأل وأمره باحضار الفضة . فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة فى الحال ، وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها ، فأحضروا وشرعوا فى اصلاح ما أرسلته ست العمائم من أوانى الفضة واعادة طلائها بالذهب ... فشاهدنا من ذلك منظرا بديعا .

وأخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون — وقد حمل فى القاهرة — عندما زفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، فكان شيئا عظيما : من جملته دكة من بلور تشتمل على عجائب ، منها زير من بلور قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش والطيور ، وقدر هذا الزير ما يسع قربة ماء .

وقد قل استعمال الناس فى زمننا هذا للنحاس المكفت وعز وجوده ، فان قوما لهم عدة سنين قد تصدوا لشراء ما يباع منه ، وتنحية الكفت عنه طلبا للفائدة .

وبقى بهذا السوق الى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة .

« سوق الأقباعيين » : بخط تحت الربع خارج باب زويلة مما يلى الشارع المسلوك فيه الى قنطرة الخرق .

ما كان منه على يمنة السالك الى قنطرة الخرق ، فانه جار فى وقف الملك الظاهر بيبرس هو وما فوقه على المدرسة الظاهرية بخط بين القصرين وعلى أولاده ، ولم يزل الى يوم السبت خامس شهر رمضان سنة عشرين وثمانمائة ، فوقع الهدم فيه ليضاف الى عمارة الملك المؤيد شيخ المجاورة لباب زويلة .

وما كان من هذا السوق على يسرة من سلك الى القنطرة ، فانه جار فى وقف أقبغا عبد * الواحد على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر ، وبعضه وقف امرأة تعرف بدنيا .

« سوق السقطيين » : هذا السوق خارج باب زويلة بجوار دار التفاح . أنشأه الأمير أقبغا عبد الواحد ، وهو جار فى وقفه .

« سويقة خزانة البنود » : هذه السويقة على باب درب راشد وتمتد الى خزانة البنود ، وكانت تعرف أولا بسويقة ريدان الصقلبى المنسوب اليه الريدانية خارج باب النصر .

(*) ص١٠٥ ج٢ ، ط. بولاق .

« سويقة المسعودى » : هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة . تنسب الى الأمير صارم الدين قايماز المسعودى ، مملوك الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل .

وولى المسعودى هذا ولاية القاهرة — وكان ظالما غاشما جبارا — من أجل أنه كان فى دار ابن قرقة التى من جملتها جامع ابن المغربى وبيت الوزير ابن أبى شاكر . ثم ان فتح الدين بن معتصم الداودى التبريزى كاتب السر جددها فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، لأنه كان يسكن هناك .

ومات المسعودى فى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة . ضربه شخص فى دار العدل بسكين كان يريد أن يقتل بها الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة ، فوقعت فى فؤاد المسعودى فمات لوقته .

« سويقة طغلق » : هذه السويقة على رأس الحارة الصالحية مما يلى الجامع الأزهر . عرفت بالأمير سيف الدين طغلق السلاح دار ، صاحب حمام طغلق التى بالقرب من الجامع الأزهر على باب درب المنصورى ، وصاحب دار طغلق التى عرفت اليوم بدار المنصورى فى الدرب المذكور .

وأول ما عمرت هذه السويقة لم يكن فيها غير أربع حوانيت ، ثم عمرت عمارة كبيرة لما خربت سويقة الصالحية التى كانت مما يلى باب البرقية فى حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، ثم تلاشت من سنة ست وثمانمائة كما تلاشى غيرها من الأسواق ، وبقى فيها يسير جدا .

« سويقة الصوانى » : هذه السويقة خارج باب النصر وباب الفتوح بخط بستان ابن صيرم . عرفت بالأمير علاء الدين أبى الحسن على بن مسعود الصوانى ، مشد الدواوين فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقيل بل قراجا الصوانى أحد مقدمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، وكان فى حدود سنة احدى وثمانين وستمائة موجودا ، وكانت داره هناك .

وكان أيضا فى أيام الملك المنصور قلاوون الأمير زين الدين أبو المعالى أحمد بن شرف الدين أبى المفاخر محمد الصوانى ، شاد الدواوين ، وكان يسكن بمدينة مصر . والأمير علم الدين سنجر الصوانى أحد الأمراء المقدمين الألوف فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك المظفر بيبرس ، وهو صاحب البئر التى بالباطلية المعروفة ببئر الدرابزين . وعز الدين أيبك الصوانى .

« سويقة البلشون » : هذه السويقة خارج باب الفتوح . عرفت بسابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وسلاح درايته ، وكان له أيضا بستان بالمقس خارج القاهرة من جوار الدكة يعرف ببستان البلشون .

« سويقة اللفت » : هذه السويقة كانت خارج باب النصر من ظاهر القاهرة حيث البئر التى فى شمالى مصلى الأموات ، المعروف ببئر اللفت ، تجاه دار ابن الحاجب . كانت تشتمل على عدة حوانيت يباع فيها اللفت والكرنب ، ويحمل منها الى سائر أسواق القاهرة ، ويباع اليوم فى بعض هذه الحوانيت الدريس لعلف الدواب .

« سويقة زاوية الخدام » : هذه السويقة خارج باب النصر بجرى سويقة اللفت . كان فيها عدة حوانيت يباع فيها أنواع المآكل ، فلما كانت سنة ست وثمانمائة خربت ، ولم يبق فيها سوى حوانيت لا طائل بها .

« سويقة الرملة » : هذه السويقة كانت فيما بين سويقة زاوية الخدام وجامع آل ملك حيث مصلى الأموات التى هناك . كان فيها عدة حوانيت مملوءة بأصناف المآكل قد خرب سائرها ، ولم يبق لها أثر ألبتة .

« سويقة جامع آل ملك » : أدركتها الى سنة ست وثمانمائة ، وهى من الأسواق الكبار ، فيها غالب ما يحتاج اليه من الأدام . وقد خربت لخراب ما يجاورها .

« سويقة أبى ظهير » : كانت تلى سويقة جامع آل ملك . أدركتها عامرة .

« سويقة السنابطة » : كانت هناك . عرفت بقوم من أهل سنباط سكنوا بها . أدركتها أيضا عامرة .

« سويقة العرب » : هذه السويقة كانت تتصل بالريدانية ، خربت فى الغلاء الكائن فى سنة ست وسبعين وسبعمائة . وأدركت حوانيت هذه السويقة وهى خالية من السكان الا يسيرا وعقودها من اللبن . ويقال له وما وراءه خراب الحسينية .

وكانت فى غاية العمارة . وكان بأولها مما يلى الحسينية فرن ، أدركته عامرا الى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة . بلغنى أنه كان قبل ذلك فى أعوام ستين وسبعمائة يخبز فيه كل يوم نحو سبعة آلاف رغيف لكثرة من حوله من السكان . وتلك الأماكن اليوم لا ساكن فيها الا البوم ، ولا يسمع بها الا الصدى .

« سويقة العزى » : هذه السويقة خارج باب زويلة قريبا من قلعة الجبل . كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة فيما بين الباب الجديد والحارات وبركة الفيل وبين الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل * . فلما اختطت هذه الجهة ، كما تقدم ذكره عند ذكر ظواهر القاهرة ، عرفت هذه السويقة بالأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش ، واستشهد على عكا عندما فتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . وهذه السويقة عامرة بعمارة ما حولها .

« سويقة العياطين » : هذه السويقة بخط المقس بالقرب من باب البحر . عرف بالفقير المعتقد مسعود بن محمد بن سالم العياط لسكنه بالقرب منها ، وله هناك مسجد بناه فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسن ابن عمر الشهرزورى ، وكيل أبى رحمه الله ، أن النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، طرح على أهل هذه السويقة عدة أمطار عسل قصب ، وألزمهم فى ثمن كل قنطار بعشرين درهما . فوقفوا الى السلطان وعيطوا حتى أعفاهم من ذلك ، فقيل لها من حينئذ سويقة العياطين .

ولفظة عياط عند أهل مصر بمعنى صياح ، والعياط الصياح . وأصل ذلك فى اللغة أن العطعطة تتابع الأصوات واختلافها فى الحرب ،

(*) ص١٠٦ ج٢ ، ط. بولاق .

وهى أيضا حكاية أصوات المجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوما ، وقد عطعطوا وعطعط بالذئب اذا قال له عاط عاط . فحرف عامة مصر ذلك ، وجعلوا العياط الصياح ، واشتقوا منه الفعل . فاعرف ذلك .

« سويقة العراقيين » : هذه السويقة بمدينة مصر الفسطاط . وانما عرفت بذلك لأن قريبا الأزدى وزحافا الطائى — وكانا من الخوارج — خرجا على زياد بن أمية بالبصرة ، فاتهم زياد بهما جماعة من الأزد ، وكتب الى معاوية ابن أبى سفيان يستأذنه فى قتلهم ، فأمر بتغريبهم عن أوطانهم .

فسيرهم الى مصر ، وأميرها مسلمة بن مخلد ، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين ، وكان عددهم نحوا من مائتين وثلاثين ، فأنزلوا بالظاهر أحد خطط مصر — وكان اذ ذاك طرقا — أراد أن يسد بهم ذلك الموضع . فنزلوا فى الموضع المعروف بكوم سراج ، وكان فضاء ، فبنوا لهم مسجدا ، واتخذوا سوقا لأنفسهم ، فسمى سويقة العراقيين .

ذكر العوايد التى كانت بقصبة القاهرة

اعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة ، بحيث انه كان فى الدولة الفاطمية اذا قدم رسول متملك الروم ينزل من باب الفتوح ، ويقبل الأرض وهو ماش ، الى أن يصل الى القصر . وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة ، فانه يخرج الى باب الفتوح ، ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير الى القصر .

وكان لها عوايد : منها أن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك ، لا بد اذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل اليها راكبا والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل الى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، الى أن يخرج من باب زويلة . فاذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر .

ومنها أنه لا يمر بقصبة القاهرة حمل تبن ولا حمل حطب ، ولا يسوق أحد فرسا بها ، ولا يمر بها سقاء الا وراويته مغطاة .

ومن رسم أرباب الحوانيت أن يعدوا عند كل حانوت زيرا مملوءا بالماء ، مخافة أن يحدث الحريق فى مكان فيطفأ بسرعة ، ويلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج الى الصباح .

ويقام فى القصبة قوم يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها ، ويرشون كل يوم ، ويجعل فى القصبة طول الليل عدة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها ، ويتعاهد كل قليل بقطع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لا تعلو الشوارع .

وأول من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : تاسع شهر رجب

وصلت الخلع التى كانت تنفذت الى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الخليفة ببغداد ، وهى جبة سوداء وطوق ذهب ، فلبسها نور الدين بدمشق اظهارا لشعارها ، وسيرها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها . وكانت أنفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستزراها واستصغرها دون قدره .

واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية . فلما كان العاشر منه ، خرج قاضى القضاة والشهود والمقرئون والخطباء الى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة — وهو من الأصحاب النجمية — وزينت البلد ابتهاجا بها .

وفيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النورى فى كل يوم . فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم ، لأن الأتابكية لها قواعد ورسوم * مستقرة بينهم فى بلادهم .

وفى حادى عشره ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة . ولما بلغ باب زويلة نزع الخلع ، وأعادها الى داره ، ثم شمر للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك عادة ملوك بنى أيوب .

الى أن قام فى مملكة مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله — وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد — وقدم على الملك الظاهر أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله ابن الخليفة الناصر ، فى شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة ، فتلقاه وأكرمه وبايعه ، ولقبه بالخليفة المستنصر بالله ، وخطب باسمه على المنابر ونقش السكة باسمه .

فلما كان فى يوم الاثنين الرابع من شعبان ، ركب السلطان الى خيمة ضربت له بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة ، ولبس خلعة الخليفة وهى جبة سوداء ، وعمامة بنفسجية ، وطوق من ذهب ، وسيف بداوى . وجلس مجلسا عاما ، حضر فيه الخليفة والوزير والقضاة والأمراء والشهود ، وصعد القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب السر منبرا نصب له ، وقرأ تقليد السلطان الذى عهد به اليه الخليفة ، وكان بخط ابن لقمان ومن انشائه .

ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ، ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة وقد زينت له ، وعمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان والأمراء ، ومن دونهم مشاة بين يديه ، حتى خرج من باب زويلة الى قلعة الجبل . فكان يوما مشهودا .

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين وستمائة ، سلطن الملك الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ، وأركبه بشعار السلطنة ، ومشى قدامه وشق القاهرة كما تقدم ، وسائر الأمراء مشاة من باب النصر الى قلعة الجبل ، وقد زينت القاهرة .

(*) ص١٠٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

وآخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة والتقليد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، عند دخوله الى القاهرة من البلاد الشامية ، بعد قتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، واستيلائه على المملكة فى ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة .

وقال المسيحى فى حوادث سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة : نودى فى السقائين أن يغطوا روايا الجمال والبغال لئلا تصيب ثياب الناس .

وقال فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة : أمر العزيز بالله أمير المؤمنين بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت ، ووقود المصابيح على الدور ، وفى الأسواق . وفى ثالث ذى الحجة سنة احدى وتسعين وثلثمائة ، أمر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله الناس بأن يقدوا القناديل فى سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، ففعل ذلك . ولازم الحاكم بأمر الله الركوب فى الليل ، وكان ينزل كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق .

وكان قد ألزم الناس بالوقيد . فتناظروا فيه ، واستكثروا منه فى الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس فى القاهرة ومصر طول الليل فى بيع وشراء ، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة ، وأنفقوا فى ذلك أموالا عظيمة جليلة لأجل التلاهى ، وتبسطوا فى المآكل والمشارب وسماع الأغانى .

ومنع الحاكم الرجال المشاة بين يديه من المشى بقربه ، وزجرهم وانتهرهم ، وقال : لا تمنعوا أحدا منى . فأحدق الناس به ، وأكثروا من الدعاء له . وزينت الصاغة وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل ، وعظم الازدحام فى الشوارع والطرقات ، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات فى الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة احدى وتسعين وثلثمائة . وكان معظم ذلك من ليلة الأربعاء تاسع عشره الى ليلة الاثنين رابع عشريه .

فلما تزايد الأمر وشنع ، أمر الحاكم بأمر الله ألا تخرج امرأة من العشاء ، ومتى ظهرت امرأة بعد العشاء نكل بها ، ثم منع الناس من الجلوس فى الحوانيت ، فامتنعوا .

ولم يزل الحاكم على الركوب فى الليل الى آخر شهر رجب . ثم نودى فى شهر رجب سنة خمس وتسعين وثلثمائة : ألا يخرج أحد بعد عشاء الآخرة ، ولا يظهر لبيع ولا شراء . فامتنع الناس .

وفى سنة خمس وأربعمائة تزايد فى المحرم منها وقوع النار فى البلد ، وكثر الحريق فى عدة أماكن . فأمر الحاكم بأمر الله الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة ماء ، وبطرح السقائف التى على أبواب الحوانيت والرواشن التى تظل الباعة . فأزيل جميع ذلك من مصر والقاهرة .

ذكر ظواهر القاهرة المعزية

اعلم أن القاهرة المعزية يحصرها أربع جهات وهى : الجهة الشرقية ، والجهة الغربية ، والجهة الشمالية التى تسميها أهل مصر البحرية والجهة الجنوبية التى تعرف فى أرض مصر بالقبلية .

فأما الجهة الشرقية فانها من سور القاهرة * الذى فيه الآن باب البرقية والباب الجديد والباب المحروق ، وتنتهى هذه الجهة الى الجبل المقطم .

وأما الجهة الغربية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة ، وتنتهى هذه الجهة الى شاطىء النيل .

وأما الجهة القبلية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب زويلة ، وتنتهى هذه الجهة الى حد مدينة مصر .

وأما الجهة البحرية فانها من سور القاهرة الذى فيه باب النصر وباب الفتوح ، وتنتهى هذه الجهة الى بركة الجب التى تعرف اليوم ببركة الحاج .

وقد كانت هذه الجهة الشرقية ، عندما وضعت القاهرة ، فضاء فيما بين السور وبين الجبل لا بنيان فيه ألبتة ، وما زال على هذا الى أن كانت الدولة التركية ، فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود وميدان القبق — وسيرد ذكر هذا الميدان ان شاء الله تعالى — فلما كانت سلطنة الملك الناصر

(*) ص١٠٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

محمد بن قلاوون ، عمل هذا الميدان مقبرة لأموات المسلمين ، وبنيت فيه الترب الموجودة الآن كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب .

وكانت الجهة الغربية تنقسم قسمين : أحدهما بر الخليج الشرقى ، والآخر بر الخليج الغربى .

فأما بر الخليج الشرقى فكان عليه بستان الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد وميدانه ، وعرف هذا البستان بالكافورى . فلما اختط القائد جوهر القاهرة ، أدخل هذا البستان فى سور القاهرة ، وعمل بجانبه الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف ، فصارت القاهرة تشرف من غربيها على الخليج . وبنيت على هذا الخليج مناظر ، وهى منظرة اللؤلؤة ومنظرة دار الذهب ومنظرة غزالة ، كما ذكر عند ذكر المناظر من هذا الكتاب .

وكان فيما بين البستان الكافورى والمناظر المذكورة وبين الخليج شارع تجلس فيه عامة الناس للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك ، ويقال لهذا الشارع اليوم بين السورين ، ويتصل بالبستان الكافورى وميدان الاخشيد بركة الفيل وبركة قارون ، ويشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر ... كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، عند ذكر البرك وعند ذكر العسكر .

وأما بر الخليج الغربى فان أوله الآن من موردة الخلفاء ، فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر وبين منشاة المهرانى ، وآخره أرض التاج والخمس وجوه وما بعدها من بحرى

القاهرة . وكان أول هذا الخليج عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات ، وكان ما بين خط السبع سقايات وبين المعاريج بمدينة مصر غامرا بماء النيل ، كما ذكر فى ساحل مصر من هذا الكتاب .

وكانت القنطرة التى يفتح سدها عند وفاء النيل ست عشرة ذراعا خلف السبع سقايات ، كما ذكر عند ذكر القناطر من هذا الكتاب . وكان هناك منظرة السكرة التى يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج ، ولها بستان عظيم ، ويعرف موضعه اليوم بالمريس .

ويتصل ببستان منظرة السكرة جنان الزهرى ، وهى من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات الى أراضى اللوق ، ويتصل بالزهرى عدة بساتين الى المقس . وقد صار موضع الزهرى ، وما كان بجواره على بر الخليج من البساتين ، يعرف بالحكورة من أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون الى وقتنا هذا ، كما ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب .

وكان الزهرى وما بجواره من البساتين التى على بر الخليج الغربى والمقس ، كل ذلك مطل على النيل ، وليس لبر الخليج الغربى كبير عرض ، وانما يمر النيل فى غربى البساتين على الموضع الذى يعرف اليوم باللوق الى المقس ، فيصير المقس هو ساحل القاهرة ، وتنتهى المراكب الى موضع جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع المقسى ، فكان ما بين الجامع المذكور ومنية عقبة التى ببر الجيزة بحر النيل .

ولم يزل الأمر على ذلك الى ما بعد سنة سبعمائة . الا أنه كان قد انحسر ماء النيل ، بعد الخمسمائة من سنى الهجرة ، عن أرض بالقرب من الزهرى عرفت بمنشاة الفاضل وبستان الخشاب ، وهذه المنشأة اليوم يعرف بعضها بالمريس مما يلى منشأة المهرانى ، وانحسر أيضا عن أرض تجاه البعل الذى فى بحرى القاهرة ، عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل .

وما برح ماء النيل ينحسر عن شىء بعد شىء الى ما بعد سنة سبعمائة . فبقيت عدة رمال فيما بين منشاة المهرانى وبين جزيرة الفيل ، وفيما بين المقس وساحل النيل ، عمر الناس فيها الأملاك والمناظر والبساتين من بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصرى ، فصار بر الخليج الغربى بعد ذلك أضعاف ما كان أولا من أجل انطراد ماء النيل عن بر مصر الشرقى .

وعرف هذا البر اليوم بعدة مواضع : وهى فى الجملة خط منشاة المهرانى ، وخط المريس ، وخط منشاة الكتبة ، وخط قناطر السباع ، وخط ميدان السلطان ، وخط البركة الناصرية ، وخط الحكورة ، وخط الجامع الطيبرسى ، وربع بكتمر ، وزريبة السلطان ، وخط باب اللوق ، وقنطرة الخرق ، وخط بستان العدة ، وخط زريبة قوصون ، وخط حكر ابن الأثير ، وقم الخور ، وخط الخليج الناصرى ، وخط * بولاق ، وخط جزيرة الفيل ، وخط الدكة ، وخط المقس ، وخط

(*) ص١٠٩ ، ج٢ ، ط. بولاق .

بركة قرموط ، وخط أرض الطبالة ، وخط الجرف ، وأرض البعل وكوم الريش ، وميدان القمح ، وخط باب القنطرة ، وخط باب الشعرية ، وخط باب البحر وغير ذلك . وسيأتى من ذكر هذه المواضع ما يكفى ويشفى ان شاء الله تعالى .

وكانت جهة القاهرة القبلية من ظاهرها ليس فيها سوى بركة الفيل وبركة قارون ، وهى فضاء : يرى من خرج من باب زويلة عن يمينه الخليج وموردة السقائين ، وكانت تجاه باب الفتوح ، ويرى عن يساره الجبل ، ويرى تجاهه قطائع ابن طولون التى تتصل بالعسكر ويرى جامع ابن طولون وساحل الحمراء الذى يشرف عليه جنان الزهرى ، ويرى بركة الفيل التى كان يشرف عليها الشرف الذى فوقه قبة الهواء . ويعرف اليوم هذا الشرف بقلعة الجبل .

وكان من خرج من مصلى العيد بظاهر مصر يرى بركتى الفيل وقارون والنيل . فلما كانت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، أبى على منصور ابن العزيز بالله أبى منصور نزار ابن الامام المعز لدين الله أبى تميم معد ، عمل خارج باب زويلة بابا عرف بالباب الجديد ، واختط خارج باب زويلة عدة من أصحاب السلطان : فاختطت المصامدة حارة المصامدة ، واختطت اليانسية والمنجبية وغيرهما . كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

فلما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر بالله ، اختلت أحوال مصر ، وخربت خرابا شنيعا . ثم عمر خارج باب زويلة فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون محمد ابن فاتك بن البطائحى بعد سنة خمسمائة .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، هدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حارة المنصورة التى كانت سكن العبيد خارج باب زويلة ، وعملها بستانا . فصار ما خرج عن باب زويلة بساتين الى المشهد النفيسى ، وبجانب البساتين طريق يسلك منها الى قلعة الجبل التى أنشأها السلطان صلاح الدين المذكور على يد الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وصار من يقف على باب جامع ابن طولون يرى باب زويلة .

ثم حدثت العمائر التى هى الآن خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة ، وصار خارج باب زويلة الآن ثلاثة شوارع : أحدها ذات اليمين والآخر ذات الشمال ، والشارع الثالث تجاه من خرج من باب زويلة . وهذه الشوارع الثلاثة تشتمل على عدة أخطاط .

فأما ذات اليمين فان من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يمينه شارعا سالكا ينتهى به فى العرض الى الخليج حيث القنطرة التى تعرف بقنطرة الخرق ، وينتهى به فى الطول من باب زويلة الى خط الجامع الطولونى . وجميع ما فى هذا الطول والعرض من الأماكن كان بساتين الى ما بعد السبعمائة .

وفى هذه الجهة اليمنى خط دار التفاح ، وسوق السقطيين ، وخط تحت الربع ، وخط القشاشين ، وخط قنطرة الخرق ، وخط شق الثعبان ، وخط قنطرة آقسنقر ، وخط الحبانية وبركة الفيل ، وخط قبو الكرمانى ، وخط قنطرة طقزدمر والمسجد المعلق ، وخط قنطرة

عمر شاه ، وخط قناطر السباع ، وخط الجسر الأعظم ، وخط الكبش والجامع الطولوني ، وخط الصليبة ، وخط الشارع ، وما هناك من الحارات التي ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب .

وأما ذات اليسار فان من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يساره شارعا ينتهي به في العرض الى الجبل ، وينتهي به في الطول الى القرافة . وجميع ما في هذه الجهة اليسرى كان فضاء لا عمارة فيه ألبتة الى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة .

فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة ، صار ما وراءه الى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة الى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين ، وأنشأ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة الجبل على رأس الشرف المطل على القطائع ، وصار يسلك الى القلعة من هذه الجهة اليسرى فيما بين المقابر والجبل .

ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هناك شيئا بعد شيء من سنة سبعمائة ، وصار في هذه الشقة خط سوق البسطيين ، وخط الدرب الأحمر ، وخط جامع الماردينى ، وخط سوق الغنم ، وخط التبانة ، وخط باب الوزير وقلعة الجبل والرميلة ، وخط القبيبات ، وخط باب القرافة .

وأما ما هو تجاه من خرج من باب زويلة فيعرف بالشارع — وقد تقدم ذكره عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب — وهو ينتهي بالسالك الى خط الصليبة المذكور آنفا ، والى خط الجامع الطولوني وخط المشهد النفيسي ، والى العسكر وكوم الجارح وغير ذلك من بقية خطط ظواهر القاهرة ومصر .

وكانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهي الى بركة الجب ، والى منية الأصبغ التي عرفت بالخندق ، والى منية مطر التي تعرف بالمطرية ، والى عين شمس وما وراء ذلك ... الا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان ، ويعرف اليوم بالريدانية ، وعند مصلى العيد خارج باب النصر — حيث يصلى الآن على الأموات — كان ينزل هناك من يسافر الى الشام .

فلما كان قبل سنة خمسمائة ، ومات أمير الجيوش بدر الجمالي * في سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، بنى خارج باب النصر له تربة دفن فيها ، وبنى أيضا خارج باب الفتوح منظرة — قد ذكر خبرها عند ذكر المناظر من هذا الكتاب — وصار أيضا فيما بين باب الفتوح والمطرية بساتين قد تقدم خبرها .

ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة ، خارج باب الفتوح ، عدة منازل اتصلت بالخندق ، وصار خارج باب النصر مقبرة الى ما بعد سنة سبعمائة . فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر الى الريدانية ، وبلغت الغاية من العمارة ، ثم تناقصت من بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة الى أن فحش خرابها من حين حدثت المحن في سنة ست وثمانمائة .

(*) ص١١٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

فهذا حال ظواهر القاهرة منذ اختطت والى يومنا هذا ، ويحتاج ما ذكر هنا الى مزيد بيان . والله أعلم .

ذكر ميدان القبق

هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها ، فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل اليها وبين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضا الميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق .

وهو ميدان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي . بنى به مصطبة في المحرم من سنة ست وستين وستمائة ، عندما احتفل برمي النشاب وأمور الحرب ، وحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر ، فلا يركب منها الى العشاء الآخرة ، وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان . فما بقى أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمي النشاب .

وما برح من بعده من أولاده ، والملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي ، والملك الأشرف خليل بن قلاوون ، يركبون في الموكب لهذا الميدان ، وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدامهم ، وتنزل العساكر فيه لرمي القبق .

والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب في براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها ، وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى غرض هناك ، تمرينا لهم على احكام الرمي . ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك .

قال جامع السيرة الظاهرية : وفي سابع عشر المحرم من سنة سبع وستين وستمائة ، حث السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري جميع الناس على رمي النشاب ولعب الرمح ، خصوصا خواصه ومماليكه .

ونزل الى الفضاء بباب النصر ظاهر القاهرة — ويعرف بميدان العيد — وبنى مصطبة هناك ، وأقام ينزل في كل يوم من الظهر ، ويركب منها عشاء الآخرة ، وهو واقف في الشمس يرمي ويحرض الناس على الرمي والرهان . فما بقى أمير ولا مملوك الا وهذا شغله ، واستمر الحال في كل يوم على ذلك حتى صارت تلك الأمكنة لا تسع الناس ، وما بقي لأحد شغل الا لعب الرمح ورمي النشاب .

وفي شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، تقدم السلطان الملك الظاهر الى عساكره بالتأهب للركوب واللعب بالقبق ورمي النشاب . واتفقت نادرة غريبة ، وهو أنه أمر برش الميدان الأسود تحت القلعة لأجل الملعب ، فشرع الناس في ذلك ، وكان يوما شديد الحر ، فأمر السلطان بتبطيل الرش رحمة للناس ، وقال : الناس صيام ، وهذا يوم شديد الحر . فبطل الرش .

وأرسل الله تعالى مطرا جودا استمر ليلتين ويوما حتى كثر الوحل ، وتلبدت الأرض ، وسكن العجاج ، وبرد الجو ، ولطف الهواء . فوكل السلطان من يحفظه من السوق فيه

يوم اللعب — وهو يوم الخميس السادس والعشرون من شهر رمضان — وأمر بركوب جماعة لطيفة من كل عشرة اثنان ، وكذلك من كل أمير ومن كل مقدم لئلا تضيق الدنيا بهم .

فركبوا في أحسن زي وأجمل لباس وأكمل شكل وأبهى منظر ، وركب السلطان ومعه من خواصه ومماليكه ألوف ، ودخلوا في الطعان بالرماح . فكل من أصاب خلع عليه السلطان . ثم ساق في مماليكه الخواص خاصة ، ورتبهم أجمل ترتيب ، واندفق بهم اندفاق البحر ، فشاهد الناس أبهة عظيمة .

ثم أقيم القبق ، ودخل الناس لرمي النشاب ، وجعل لمن أصاب من المفاردة رجال الحلقة البحرية والبحرية الصالحية وغيرهم بغلطاقا بسنجاب ، وللأمراء فرسا من خيله الخاص بتشاهيره ومراواته الفضية والذهبية ومزاخمه .

وما زال في هذه الأيام على هذه الصورة يتنوع في دخوله وخروجه : تارة بالرماح ، وتارة بالنشاب ، وتارة بالدبابيس ، وتارة بالسيوف مسلولة . وذلك أنه ساق على عادته في اللعب ، وسل سيفه ، وسل مماليكه سيوفهم ، وحمل هو ومماليكه حملة رجل واحد . فرأى الناس منظرا عجيبا .

وأقام على ذلك كل يوم من بكرة النهار الى قريب المغرب ، وقد ضربت الخيام للنزول للوضوء والصلاة ، وتنوع الناس في تبديل العدد والآلات وتفاخروا وتكاثروا . فكانت هذه الأيام من الأيام المشهودة .

ولم يبق أحد من أبناء الملوك ، ولا وزير ، ولا أمير كبير ولا صغير ، ولا مفردي ، ولا مقدم من مقدمي الحلقة ، ومقدمي البحرية الصالحية ، ومقدمي * المماليك الظاهرية البحرية ، ولا صاحب شغل ، ولا حامل عصا في خدمة السلطان على بابه ، ولا حامل طير في ركاب السلطان ، ولا أحد من خواص كتاب السلطان ... الا وشرف بما يليق به على قدر منصبه . ثم تعدى احسان السلطان لقضاة الاسلام والأئمة وشهود خزانة السلطان ، فشرفهم جميعهم ، ثم الولاة كلهم .

وأصبحوا بكرة يوم الأحد ، ثامن عشري شهر رمضان ، لابسين الخلع . جميعهم في أحسن صورة وأبهج زي وأبهى شكل وأجمل زينة ، بالكلوتات الزركش بالذهب والملابس التي ما سمع بأن أحدا جاد بمثلها ، وهي ألوف . وخدم الناس جميعهم ، وقبلوا الأرض وعليهم الخلع ، وركبوا ولعبوا نهارهم على العادة . والأموال تفرق ، والأسمطة تصف ، والصدقات تنفق ، والرقاب تعتق .

وما زال الى أن أهل هلال شوال . فقام الناس وطلعوا للهناء ، فجلس لهم وعليهم خلعه . ثم ركب يوم العيد الى مصلاه ، في خيمة بشعار السلطنة وأبهة الملك ، فصلى . ثم طلع قلعة الجبل ، وجلس على الأسمطة — وكان الاحتفال بها كبيرا — وأكل الناس ، ثم انتهبه الفقراء . وقام الى مقر سلطانه بالقبة السعيدة ، وقد غلقت وفرشت بأنواع الستور والكلل والفرش .

(*) ص١١١ جـ٢ ، ط. بولاق .

وكان قد تقدم الى الأمراء باحضار أولادهم ، فأحضروا وخلع عليهم الخلع المفصلة على قدرهم . فلما كان هذا اليوم أحضروا ، وختنوا بأجمعهم بين يدى السلطان ، وأخرجوا فحملوا فى المحفات الى بيوتهم ، وعم الهناء كل دار . ثم أحضر الأمير نجم الدين خضر ولد السلطان فختن ، ورمى للناس جملة من الأموال ، اجتمع منها خزانة ملك كبير ، فرقت على من باشر الختان من الحكماء والمزينين وغيرهم .

وانقضت هذه الأيام . وجرى السلطان فيها على عادته كما كان ، من كونه لم يكلف أحدا من خلق الله تعالى بهدية يهديها ولا تحفة يتحفه بها فى مثل هذه المسرة ، كما جرت عادة من تقدمه من الملوك . ولم يبق من لا شمله احسانه غير أرباب الملاهى والأغانى ، فانه كان فى أيامه لم ينفق لهم مبلغ ألبتة .

وممن لعب بهذا الميدان القبق السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وعمل فيه المهم الذى لم يعمل فى دولة ملوك الترك بمصر مثله . وذلك أن خوند أردوتكين ابنة نوكية — ويقال نوغية — السلحدارية اشتملت من السلطان الملك الأشرف على حمل ، فظن أنها تلد ابنا ذكرا يرث الملك من بعده .

فأخذ عندما قاربت الوضع فى الاحتفال ، ورسم لوزيره الصاحب شمس الدين محمد ابن السلعوس أن يكتب الى دمشق بعمل مائة شمعدان نحاس مكفت بألقاب السلطان ، ومائة شمعدان أخر ، منها خمسون من ذهب وخمسون من فضة ، وخمسين سرجا من سروج الزركش ، ومائة وخمسين سرجا من المخيش ، وألف شمعة ، وأشياء كثيرة غير ذلك .

فقدر الله تعالى أنها ولدت بنتا ، فانقبض لذلك ، وكره ابطال ما قد اشتهر عنه عمله . فأظهر أنه يريد ختان أخيه محمد وابن أخيه مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح على بن قلاوون ، فرسم لنقيب الجيش والحجاب بأعلام الأمراء والعسكر أن يلبسوا كلهم آلة الحرب من السلاح الكامل هم وخيولهم ، ويصيروا بأجمعهم كذلك فى الميدان الأسود خارج باب النصر .

فاهتم الأمراء والعسكر اهتماما كبيرا لذلك ، وأخذوا فى تحسين العدد ، وبالغوا فى التأنق ، وتنافسوا فى اظهار التجمل الزائد . وخرج فى اليوم الرابع من اعلام الأمراء ، السوقة ونصبوا عدة صواوين فيها سائر البقول والمآكل ، فصار بالميدان سوق عظيم .

ونزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره وعليهم لامة الحرب ، وقد خرج سائر من فى القاهرة ومصر من الرجال والنساء ، الا من خلفه العذر ، لرؤية السلطان . فأقام السلطان يومه ، وحصل فى ذلك اليوم للناس بهذا الاجتماع من السرور ما يعز وجود مثله .

وأصبح السلطان وقد استعد العسكر بأجمعه لرمى القبق ، ورسم للحجاب بألا يمنعوا أحدا من الجند ولا من المماليك ولا من غيرهم من الرمى ، ورسم للأمير بيسرى والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح أن يتقدما الناس فى الرمى . فاستقبل الأمير بيسرى القبق وتحته سرج قد صنع

قربوسه الذى من خلفه وطيئا ، فصار مستلقيا على قفاه وهو يرمى ويصيب يمنة ويسرة ، والناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء .

فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده ، وتلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا فرموا ، ثم دخل بعد الأمراء مقدمو الحلقة ، ثم الأجناد — والسلطان يعجب برميهم ، وتزايد سروره — حتى فرغ الرمى فعاد الى مخيمه ، ودار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبلور يسقون السكر المذاب ، وشرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك — وكانت عدتها مائة حوض — فشربوا ولهوا ، واستمروا على ذلك يومين .

وفى اليوم الثالث ركب السلطان ، واستدعى الأمير بيسرى وأمره بالرمى . فسأل السلطان أن يعفيه من الرمى ، ويمن عليه بالتفرج فى رمى النشاب من الأمراء وغيرهم . فأعفاه .

ووقف مع السلطان فى منزلته . وتقدم طغج وعين الغزال وأمير عمر وكيلكدى وقشتمر العجمى وبرلغى وأعناق الحسامى وبكتوت ، ونحو الخمسين * من أمراء السلطان الشبان الذين أنشأهم من خاصكيته ، وعليهم تتريات حرير أطلس بطرازات زركش ، وكلوتات زركش وحوائص ذهب — وكانوا من الجمال البارع بحيث يذهل حسنهم الناظر ، ويدهش جمالهم الخاطر — فتعاظمت مسرة السلطان برؤيتهم ، وكثر اعجابه ، وداخله العجب ، واستخفه الطرب ، وارتجت الدنيا بكثرة من حضر هناك من أرباب الملاهى والأغانى وأصحاب الملعوب .

فلما انقضى اللعب عاد السلطان الى دهليزه فى زينته ، ومرح فى مشيته تيها وصلفا . فما هو الا أن عبر الدهليز ، والناس من الطرب والسرور فى أحسن شىء يقع فى العالم ، واذا بالجو قد أظلم ، وثار ريح عاصف أسود الى أن طبق الأرض والسماء ، وقلع سائر تلك الخيم ، وألقى الدهليز السلطانى ، وتزايد حتى ان الرجل لا يرى من بجانبه .

فاختلط الناس وماجوا ، ولم يعرف الأمير من الحقير ، وأقبلت السوقة والعامة تنهب ، وركب السلطان يريد النجاة بنفسه الى القلعة ، وتلاحق العسكر به ، واختلفوا فى الطرق لشدة الهول ، فلم يعبر الى القلعة حتى أشرف على التلف . وحصل فى هذا اليوم من نهب الأموال وانتهاك الحرم والنساء ما لا يمكن وصفه ، وما ظن كل أحد الا أن الساعة قد قامت . فتنغص سرور الناس ، وذهب ما كان هناك .

وما استقر السلطان بالقلعة حتى سكن الريح ، وظهرت الشمس ، وكأن ما كان لم يكن . فأصبح السلطان وطلب أرباب الملاهى بأجمعهم ، وحضر الأمراء لختان أخيه وابن أخيه ، وعمل مهم عظيم فى القاعة التى أنشأها بالقلعة وعرفت بالأشرفية . وقد ذكر خبر هذا المهم عند ذكر القلعة من هذا الكتاب .

وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان ، وللملوك فيه من الأعمال ما تقدم ذكره ... الى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . فترك

(*) ص ١١٢ جـ ٢ ، ط . بولاق .

النزول اليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش ، وصار ينزل هنالك .

ثم ترك تلك المصطبة فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعاد الى ميدان القبق هذا ، وركب اليه على عادة من تقدمه من الملوك ، الى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شيء حتى انسدت طريقه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية . وبطل السباق منه ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب .

وأنا أدركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة . وما برحت قائمة هنالك الى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة ، فهدمت عند ما عمر الأمير يونس الدوادار الظاهرى تربته تجاه قبة النصر ، ثم عمر أيضا الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق تربة هناك ، وتتابع الناس فى البنيان الى أن صار كما هو الآن . والله أعلم .

ذكر بر الخليج الغربى

قد تقدم أن هذا الخليج حفر قبل الاسلام بدهر ، وأن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، جدد حفره فى عام الرمادة ، باشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى صب ماء النيل فى بحر القلزم ، وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها حتى عبرت منه الى البحر الملح ، وأنه ما برح على ذلك الى سنة خمسين ومائة فطم ، ولم يبق منه الا ما هو موجود الآن .

الا أن فم هذا الخليج ، الذى يصب فيه الماء من بحر النيل ، لم يكن عند حفره هذا الفم الموجود الآن . ولست أدرى أين كان فمه عند ابتداء حفره فى الجاهلية ، فان مصر فتحت وماء النيل عند الموضع الذى فيه الآن جامع عمرو ابن العاص بمصر ، وجميع ما بين الجامع وساحل النيل الآن انحسر عنه الماء بعد الفتح .

وآخر ما كان ساحل مصر من عند سوق المعاريج الذى هو الآن بمصر الى تجاه الكبش من غربيه . وجميع ما هو الآن موجود من الأرض ، التى فيما بين خط السبع سقايات الى سوق المعاريج ، انحسر عنه الماء شيئا بعد شيء ، وغرس بساتين . فعمل عبد العزيز ابن مروان أمير مصر قنطرة على فم هذا الخليج فى سنة تسع وستين من الهجرة ، بأوله عند ساحل الحمراء ، ليتوصل من فوق هذه القنطرة الى جنان الزهرى الآتى ذكرها ان شاء الله تعالى . وموضع هذه القنطرة بداخل حكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات .

وما برحت هذه القنطرة عندها السد الذى يفتح عند الوفاء الى ما بعد الخمسمائة من الهجرة ، فانحسر ماء النيل عن الأرض ، وغرست بساتين . فعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى هذه القنطرة — التى تعرف اليوم بقنطرة السد — خارج مصر ، ليتوصل من فوقها الى بستان الخشاب ، وزيد فى طول الخليج ما بين قنطرة السباع الآن

وبين قنطرة السد المذكورة ، وصار ما فى شرقيه — مما انحسر عنه الماء — بستانا عرف ببستان الحارة ، وما فى غربيه يعرف ببستان المحلى .

وكان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحمراء وعدة كنائس أخر ، بعضها الآن بحكر أقبغا تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى ، لسكناه بها * عندما هدمت بعد سنة عشرين وسبعمائة .

وما برحت هذه البساتين موجودة الى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد ، أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقلع أخشابها ، وأذن للناس فى عمارتها . فحكرها الناس ، وبنوا فيها الآدر وغيرها ، فعرفت بحكر أقبغا .

ويأول هذا الخليج الآن من غربيه منشأة المهرانى — وقد تقدم خبرها فى هذا الكتاب عند ذكر مدينة مصر — ويجاور منشأة المهرانى بستان الخشاب ، وبعضه الآن يعرف بالمريس ، وبعضه عمله الملك الناصر محمد بن قلاوون ميدانا يشرف على النيل مر غربيه . ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس ، كما ذكر عند ذكر الميادين فى هذا الكتاب ... ويجاور بستان الخشاب جنان الزهرى .

وهذه المواضع التى ذكرت ، كلها مما انحسر عنه النيل ما خلا جنان الزهرى فانها من قبل ذلك . وستقف على خبرها وخبر ما يجاورها من الأحكار ان شاء الله تعالى .

(*) ص١١٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر الأحكار التى فى غربى الخليج

قال ابن سيده : الاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل ، واحتباسه انتظار وقت الغلاء به . والحكرة والحكر جميعا ما احتكر ، وحكره يحكره حكرا ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته . انتهى .

فالتحكير على هذا المنع . فقول أهل مصر : حكر فلان أرض فلان ، يعنون منع غيره من البناء عليها .

« حكر الزهرى » : هذا الحكر يدخل فيه جميع بر ابن التبان الآتى ذكره ان شاء الله تعالى ، وشق الثعبان ، وبطن البقرة ، وسويقة القيمرى ، وسويقة صفية ، وبركة الشقاف ، وبركة السباعين ، وقنطرة الخرق ، وحدرة المرادنيين ، وحكر الحلبى ، وحكر البواشقى ، وحكر كرجى ، وما بجانبه الى قناطر السباع ، وميدان المهارى الى الميدان الكبير السلطانى بموردة الجبس . وكان هذا قديما يعرف بجنان الزهرى ، ثم عرف ببستان الزهرى .

قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ الغرباء » : عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن ابن عوف الزهرى يكنى أبا العباس ، وأمه أم عثمان بنت عثمان بن العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . مدنى قدم مصر ، وولى الشرط بفسطاط مصر ، وحدث يروى عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة . روى عنه من أهل مصر أصبغ بن الفرج ، وسعيد بن أبى مريم ، وعثمان بن صالح ، وسعيد بن عفير وغيرهم .

وهو صاحب الجنان التي بالقنطرة — قنطرة عبد العزيز بن مروان — تعرف بجنان الزهري ، وهو حبس على ولده الى اليوم . وكان كتاب حبس الجنان عند جدي يونس بن عبد الأعلى وديعة عليه مكتوب « وديعة لولد ابن العباس الزهري ، لا يدفع لأحد الا أن يغري به سلطان » . الكتاب عندي الى الآن . توفي عبد الوهاب بن موسى بمصر في رمضان سنة عشرة ومائتين .

وقال القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة ابن جعفر القضاعي في كتاب « معرفة الخطط والآثار » : حبس الزهري هو الجنان التي عند القنطرة بالحمراء ، وهو عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز الزهري ، قدم مصر وولي الشرط بها . والجنان حبس على ولده .

وقال القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج في كتاب « ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » : حبس الزهري ... فذكره ، ثم قال : وهذا الحبس أكثره الآن احكار ما بين بركة الشقاف وخليج شق الثعبان ، وقد استولى وكيل بيت المال على بعضه ، وباع من أرضه وآجر منها ، واجتمع هو ومحبسه بين يدي الله عز وجل . انتهى .

ولما طال الأمد صار للزهري عدة بساتين : منها بستان أبي اليمان ، وبستان السراج ، وبستان الحبانية ، وبستان عزز ، وبستان تاج الدولة قيماز ، وبستان الفرغاني ، وبستان أرض الطيلسان ، وبستان البطرك ، وغيط الكردي ، وغيط الصفار . ثم عرف ببير ابن التبان بعد ذلك .

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في كتاب « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة » : شاطىء الخليج المعروف ببير التبان : « ابن التبان » المذكور هو رئيس المراكب ، الدولة المصرية ، وكان له قدر وأبهة في الأيام الآمرية وغيرها .

ولما كان في الأيام الآمرية ، تقدم الى الناس بالعمارة قبالة الخرق غربي الخليج . فأول من ابتدأ وعمر الرئيس ابن التبان ، فانه أنشأ مسجدا وبستانا ودارا ، فعرفت تلك الخطة به الى الآن . ثم بنى سعد الدولة والى القاهرة ، وناهض الدولة علي ، وعدي الدلة أبو البركات محمد بن عثمان ، وجماعة من فراشي الخاص . واتصلت العمارة ، بالآجر والسقوف النقية والأبواب المنظومة ، من باب البستان المعروف بالعدة على شاطىء الخليج الغربي ، الى البستان المعروف بأبي اليمن .

ثم ابتنى جماعة غيرهم ممن يرغب في الأجرة والفرجة ، على التراع التي تتصرف من الخليج الى الزهري والبساتين ، من المنازل والدكاكين شيئا كثيرا ، وهي الناحية المعروفة الآن بشق الثعبان وسويقة القيمري ، الى أن وصل البناء الى قبالة البستان المعروف بنور الدولة الربعي . وهذا البستان * معروف في هذا الوقت بالخطة المذكورة ، وهو متلاشي الحال بسبب ملوحة بئره .

وبستان نور الدولة هو الآن الميدان الظاهري والمناظر به ، وتفرقت الشوارع والطرق ، وسكنت الدكاكين والدور ، وكثر المترددون اليه والمعاش فيه الى أن استناب

(*) ص١١٤ جـ٢ ، ط.بولاق .

والى القاهرة بها نائبا عنه . ثم تلاشت تلك الأحوال ، وتغيرت الى أن صارت أطلالا ، وعفت تلك الآثار . ثم بعد ذلك حكر آدرا وبساتين ، وبنى على غير تلك الصفة المقدم ذكرها ، وبنى على ما هو عليه .

ثم حكر بستان الزهرى آدرا ، ولم يبق منه الا قطعة كبيرة بستانا ، وهو الآن أحكار تعرف بالزهرى ، ويعرف البر جميعه بير ابن التبان الى هذا الوقت ، وولايته تعرف بولاية الحكر . وبنى به حمام الشيخ نجم الدين بن الرفعة ، وحمام تعرف بالقيمرى ، وحمام تعرف بحمام الداية على شاطىء الخليج . انتهى .

وبستان أبى اليمان يعرف اليوم مكانه بحكر أقبغا ، وفيه جامع الست منسكة ، وسويقة السباعين . وبستان السراج فى أرض باب اللوق يعرف موضعه الآن بحكر الخليلى . ويأتى ذكرهما ان شاء الله تعالى .

وقيماز هو تاج الدولة ، صهر الأمير بهرام الأرمنى وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، وقتل عند دخول الصالح طلائع بن رزيك الى القاهرة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وعزاز هو غلام الوزير شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله .

« حكر الخليلى » : هذا الحكر هو الخط الذى بقرب سويقة السباعين وجامع الست مسكة ، وهو بجوار حكر الزهرى . وكان بستانا يعرف ببستان أبى اليمان ، ومنهم من يكتب بستان أبى اليمن بغير ألف بعد الميم ، ثم عرف ببستان ابن جن حلوان . وهو الجمال محمد بن الزكى يحيى بن عبد المنعم بن منصور ، التاجر فى ثسرة البساتين ، عرف بابن جن حلوان ، مات فى سنة احدى وتسعين وستمائة .

وحد هذا البستان القبلى الى الخليج ، وكان فيه بابه والهماليا ، والحد البحرى ينتهى الى غيط قيماز ، والشرقى الى الآدر المحتكرة ، والغربى ينتهى الى قطعة تعرف قديما بابن أبى التاج . ثم عرف ببستان ابن السراج ، واستأجره ابن جن حلوان من الشيخ نجم الدين بن الرفعة الفقيه المشهور ، فى سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فعرف به . ثم ان هذا البستان حكر بعد ذلك ، فعرف بحكر الخليلى وهو *** *** **

« حكر قوصون » : هذا الحكر مجاور لقناطر السباع . كان بستانين : أحدهما يعرف بالمخاريق الكبرى ، والآخر يعرف بالمخاريق الصغرى .

فأما المخاريق الكبرى فان القاضى الرئيس الأجل المختار العدل الأمين ، زكى الدين أبا العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف ، وقف حصة من جميع البستان المذكور الكبير — المعروف بالمخاريق الكبرى — الذى بين القاهرة ومصر ، بعدوة الخليج ، فيما بين البستانين المعروف أحدهما بالمخاريق الصغرى — ويعرف قديما بالشيخ الأجل ابن أبى أسامة ، ثم عرف بغيره — والبستان الذى يعرف بدويرة دينار ... يفصل بينهما الطريق بخط بستان الزهرى ، وبستان أبى اليمن ، وكنائس النصارى قبالة جماميز السعدية والسبع سقايات .

ولهذا البستان حدود أربعة : القبلي ينتهي الى الخليج الفاصل بينه وبين المواضع المعروفة بجماميز السعدية والسبع سقايات ، والحد الشرقي ينتهي الى البستان المعروف بالمخاريق الصغرى المقابل للمجنونة ، والبحري ينتهي الى البستان المعروف قديما بابن أبي أسامة ، الفاصل بينه وبين بستان أبي اليمن المجاور للزهري ، والحد الغربي ينتهي الى الطريق .

وجعل هذا البستان على القربات بعد عمارته ، وشرط أن الناظر يشتري في كل فصل من فصول الشتاء ما يراه من قماش الكتان الخام أو القطن ، ويصنع ذلك جبابا وبغالطيق محشوة قطنا ، ويفرقها على الأيتام الذكور والاناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة ... لكل واحد جبة أو بغلطاق . فان تعذر ذلك كان على الأيتام المتضفين بالصفة المذكورة بالقاهرة ومصر وقرافتيهما ، فان تعذر ذلك كان للفقراء والمساكين أينما وجدوا .

وتاريخ كتاب هذا الوقف في ذي الحجة سنة ستين وستمائة .

وأما المخاريق الصغرى فانه بعدوة الخليج قبالة المجنونة بالقرب من بستان أبي اليمن ، ثم عرف أخيرا ببستان بهادر رأس نوبة ، ومساحته خمسة عشر فدانا . فاشتراه الأمير قوصون ، وقلع غروسه ، وأذن للناس في البناء عليه ، فحكروه وبنوا فيه الآدر وغيرها ، وعرف بحكر قوصون .

« حكر الحلبي » : هذا الحكر الآن يعرف بحكر بيبرس الحاجب ، وهو مجاور للزهري ولبركة الشقاف من غربيها ، وأصله من جملة أراضي الزهري اقتطع منه ، وباعه القاضي مجد الدين بن الخشاب وكيل بيت المال لابنتي السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون في سنة أربع وتسعين وستمائة ، وكان يعرف حين هذا البيع ببستان الجمال بن جن حلوان وبغيط الكردي وببستان الطيلسان وبستان الفرغاني .

وحد هذه القطعة القبلي الى بركة الطوابين ، والى الهدير الصغير . والحد البحري ينتهي الى بستان الفرغاني ، والى بستان البواشقي . والحد الشرقي الى بركة الشقاف ، والى الطريق الموصلة الى الهدير الصغير . والحد الغربي * الى بستان الفرغاني .

ثم انتقل هذا البستان الى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، في أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وحكره فعرف به .

« حكر البواشقي » : عرف بالأمير أزدمر البواشقي مملوك الرشيدي الكبير ، أحد المماليك البحرية الصالحية ، وممن قام على الملك المعز أيبك عندما قتل الأمير فارس الدين أقطاي في ذي القعدة سنة احدى وخمسين وستمائة ، وخرج الى بلاد الروم . ثم عرف الآن بحكر كرجي ، وهو بجوار حكر الحلبي المعروف بحكر بيبرس .

« حكر أقبغا » : هذا الحكر بجوار السبع سقايات ، بعضه بجانب الخليج الغربي ، وبعضه بجانب الخليج الشرقي . كان بستانا يعرف قديما بجنان الحارة ، ويسلك اليه من خط قناطر السباع على يمنة السالك طالبا

(*) ص١١٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

السبع سقايات بالقرب من كنيسة الحمراء . وكان بعضه بستانا ، يعرف ببستان المحلى ، وهو الذى فى غربى الخليج .

وكان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون ، وينتهى الى حوض الدمياطى الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات الى قنطرة السد . فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، وأذن للناس فى تحكيره . فحكر وبنى فيه عدة مساكن ، والى يومنا هذا يجبى حكره ويصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة .

وأول من عمر فى حكر أقبغا هذا أستادار الأمير جنكل بن البابا ، فتبعه الناس . وفى موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التى هدمها العامة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما ذكر عند ذكر الكنائس من هذا الكتاب ، وهى اليوم زاوية تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى ، وقد ذكرت فى الزوايا أيضا . وهذا الحكر لما بنى الناس فيه عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر والوافدية من أصحاب الأمير جنكل بن البابا .

وعمر تجاه هذا الحكر الأمير جنكل حمامين هما هنالك الى اليوم ، وانتشأ بعمارة هذا الحكر بظاهره سوق وجامع ، وعمر ما على البركة أيضا ، واتصلت العمارة منه فى الجانبين الى مدينة مصر .

واتصلت به عمائر أيضا ظاهر القاهرة ، بعدما كان موضع هذا الحكر مخوفا يقطع فيه الزعار الطريق على المارة من القاهرة الى مصر ، وكان والى مصر يحتاج الى أن يركز جماعة من أعوانه بهذا المكان لحفظ من يمر من المفسدين . فصار لما حكر كأنه مدينة كبيرة ، وهو الى الآن عامر ، وأكثر من يسكنه الأمراء والأجناد .

وهذا الحكر كان يعرف قديما بالحمراء الدنيا — وقد ذكر خبر الحمراوات الثلاث عند ذكر خطط مدينة فسطاط مصر من هذا الكتاب — وفى هذا الحكر أيضا كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان التى بناها على الخليج ليتوصل منها الى جنان الزهرى ، وبعض هذا الحكر مما انحسر عنه النيل ، وهى القطعة التى تلى قنطرة السد .

« حكر الست حدق » : هذا الحكر يعرف اليوم بالمريس ، وكان بساتين من بعضها بستان الخشاب ، فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظرة السكرة ، فبنى الناس حوله .

وأكثر من كان يسكن هناك السودان . وبه يتخذ المزر ومأوى أهل الفواحش والقاذورات وصار به عدة مساكن ، وسوق كبير يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش .

وقد أدركنا المريس على غاية من العمارة ، الا أنه قد اختل منذ حدثت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، وبه الى الآن بقية من فساد كبير .

« حكر الست مسكة » : هذا الحكر بسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست حدق . عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا . وهذا الحكر كان من جملة الزهرى ، ثم أفرد وصار بستانا تنقل الى جماعة كثيرة .

فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع ، بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته ، وسكنه الأمراء والأعيان ، وأنشأوا به الحمامات والأسواق وغير ذلك .

وكانت حدق ومسكة من جوارى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . نشأتا فى داره ، وصارتا قهرمانتين لبيت السلطان يقتدى برأيهما فى عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد والمواسم وترتيب شئون الحريم السلطانى وتربية أولاد السلطان . وطال عمرهما ، وصار لهما من الأموال الكثيرة والسعادات العظيمة ما يجل وصفه ، وصنعا برا ومعروفا كبيرا ، واشتهرا وبعد صيتهما وانتشر ذكرهما .

« حكر طقزدمر » : هذا الحكر كان بستانا مساحته نحو الثلاثين فدانا ، فاشتراه الأمير طقزدمر الحموى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق ، وقلع أخشابه ، وأذن للناس فى البناء عليه فحكروه ، وأنشأوا به الدور الجليلة ، واتصلت عمارة الناس فيه بسائر العمائر من جهاته . وأنشأ الأمير طقزدمر فيه أيضا على الخليج قنطرة ليمر عليها من خط المسجد المعلق الى هذا الحكر .

وصار هذا الحكر مسكن الأمراء والأجناد ، وبه السوق والحمامات والمساجد وغيرها ، وهو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . ومات طقزدمر فى ليلة الخميس مستهل جمادى الآخرة * سنة ست وأربعين وسبعمائة .

(*) ص١١٦ جـ٢ ، ط. بولاق (ه)

« اللوق » : يقال لاق الشىء يلوقه لوقا ولوقه لينه . وفى الحديث الشريف « لا آكل الا ما لوق لى » . ولواق أرض معروفة ... قاله ابن سيده .

فكأن هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة . والى الآن فى أراضى مصر ما اذا نزل عنها ماء النيل ، لا تحتاج الى الحرث للينها ، بل تلاق لوقا .

فصواب هذا المكان أن يقال فيه أراضى اللوق بفتح اللام . الا أن الناس انما عهدناهم يقولون قديما : باب اللوق ، وأراضى باب اللوق بضم اللام . ويجوز أن يكون من اللق بضم اللام وتشديد القاف .

قال ابن سيده : واللق كل أرض ضيقة مستطيلة ، واللق الأرض المرتفعة ، ومنه كتاب عبد الملك بن مروان الى الحجاج « لا تدع خقا ولا لقا الا زرعته » ... حكاه الهروى فى الغريبين . انتهى .

والخق — بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف — الغدير اذا جف . وقيل الخق ما اطمأن من الأرض ، واللق ما ارتفع منها .

وأراضى اللوق هذه كانت بساتين ومزدرعات ، ولم يكن بها فى القديم بناء ألبتة ، ثم لما انحسر الماء عن منشأة الفاضل عمر فيها كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب .

ويطلق اللوق فى زمننا على المكان الذى يعرف اليوم بباب اللوق ، المجاور لجامع

الطباخ المطل على بركة الشقاف ، وما يسامته الى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور . وينتهى اللوق من الجانب الغربى الى منشأة المهرانى ، ومن الجانب الشرقى الى الدكة بجوار المقس .

وكان القاضى الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضى اللوق هذه من بيت المال وغيره بجملة كبيرة من المال ، ووقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ، وعرفت هذه الأرض ببستان ابن قريش ، وبعضها دخل فى الميدان الظاهرى ، وعوض عنها أراض بأكثر من قيمتها . وكان متحصل هذا الوقف يحمل فى كل سنة الى المدينة لتنظيف العين وتنظيف مجاريها .

وأما الجانب الغربى من خليج فم الخور — المعروف اليوم بحكر ابن الأثير ، وبسويقة الموفق وموردة الملح — وساحل بولاق كله ، فانه محدث عمر بعد سنة سبعمائة كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى قريبا . فان النيل كان يمر من ساحل الحمراء بغربى الزهرى على الأراضى التى لما انحسر عنها عرفت بأراضى اللوق ، الى أن ينتهى الى ساحل المقس .

وكانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل الأعظم ، ولا يحول بينها وبين رؤية بر الجيزة شىء ، ويمر النيل من الدكة الى المقس ، ويمتد الى زريبة جامع المقس الذى هو الآن على الخليج الناصرى .

فلما انحسر ماء النيل عن أراضى اللوق ، اتصلت بالمقس ، وصارت عدة أماكن تعرف بظاهر اللوق ، وهى : بستان ابن ثعلب ، ومنشأة ابن ثعلب ، وباب اللوق ، وحكر قردمية ، وحكر كريم الدين ، ورحبة التبن ، وبستان السعيدى ، وبركة قرموط ، وخور الصعبى .

وصار بين اللوق وبين منشأة المهرانى ، التى هى بأول بر الخليج الغربى ، منشأة الفاضل ، والمنشأة المستجدة ، وحكر الخليلى ، وحكر الساباط — ويعرف بحكر بستان القاصد — وحكر كريم الدين الصغير ، وحكر المطوع ، وحكر العين الزرقاء .

وفى غربى هذه المواضع على شاطىء النيل زريبة قوصون ، وموردة البلاط ، وموردة الجبس ، وخط الجامع الطيبرسى ، وزريبة السلطان ، وربع بكتمر .

وأول ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى . وذلك أنه جهز كشافة من خواصه ، مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار والأمير علاء الدين آق سنقر الناصرى ، ليعرف أخبار هولاكو ، ومعهم عدة من العربان . فوجدوا طائفة من التتر مستأمنين وقد عزموا على قصد السلطان بمصر .

وذلك أن الملك بركة خان ملك التتر كان قد بعثهم نجدة لهولاكو . فلما وقع بينهما كتب اليهم بركة يأمرهم بمفارقة هولاكو والمصير اليه ، فان تعذر عليهم ذلك صاروا الى عسكر مصر ، فانه كان قد ركن الى الملك الظاهر ، وترددت القصاد بينهم بعد واقعة بغداد ورحيل هولاكو عن حلب ، فاختلف هولاكو مع ابن

عمه بركة خان وتواقعا ، فقتل ولد هولاكو فى المصاف ، وانهزم عسكره ، وفر الى قلعة فى بحيرة أذربيجان .

فلما وردت الأخبار بذلك الى مصر ، كتب السلطان الى نواب الشام باكرامهم وتجهيز الاقامات لهم ، وبعث اليهم بالخلع والانعامات . فوصلوا الى ظاهر القاهرة — وهم نيف على مائتى فارس بنسائهم وأولادهم — فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين وستمائة .

فخرج السلطان يوم السبت سادس عشريه الى لقائهم بنفسه ومعه العساكر ، فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم ، فاجتمع عالم عظيم تبهر رؤيتهم العقول ، وكان يوما مشهودا . فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من أجلهم فى أراضى اللوق ، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك ، وحمل اليهم الخلع والخيول والأموال .

وركب السلطان الى الميدان ، وأركبهم معه للعب الأكرة ، وأعطى كبراءهم أمريات : فمنهم من عمله أمير مائة ، ومنهم دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية ، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وكثرت نعمهم ، وتظاهروا بدين الاسلام .

فلما * بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء ، وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة ، وهو يقابلهم بمزيد الاحسان . فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر فى اللوق وما حوله ، وصار هناك عدة أحكار عامرة آهلة ، الى أن خربت شيئا بعد شيء وصارت كيمانا ، وفيها ما هو عامر الى يومنا هذا .

ولما قدمت رسل القان بركة فى سنة احدى وستين وسبعمائة ، أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق ، وعمل لهم فيه مهما ، وصار يركب فى كل سبت وثلاثاء للعب الأكرة باللوق فى الميدان .

وفى سادس ذى الحجة من سنة احدى وستين ، قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلثمائة فارس ، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم . وفى شهر رجب سنة احدى وستين وسبعمائة قدمت رسل الملك بركة ورسل الأشكرى ، فعملت لهم دعوة عظيمة باللوق .

فأما بستان ابن ثعلب فانه كان بستانا عظيم القدر مساحته خمسة وسبعون فدانا ، فيه سائر الفواكه بأسرها ، وجميع ما يزدرع من الأشجار والنخل والكروم والنرجس والهليون والورد والنسرين والياسمين والخوخ والكمثرى والنارنج والليمون التفاحى والليمون الراكب والمختن والجميز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والمرسين والتامرحنا والبان وغير ذلك ، وبه الآبار المعينة ، وله الهماليات ، وفيه منظرة عظيمة وعدة دور .

ومن حقوق هذا البستان الأرض التى تعرف اليوم ببركة قرموط ، والأرض التى تعرف اليوم بالخور قبالة الأرض المعروفة بالبيضاء بجوار بستان السراج ، وبستان

(*) ص١١٧ جـ٢ ، طـ بولاق .

الزهرى ، وبستان البورجى فيما بين هذه البساتين وبين خليج الدكة والمقس .

وكان على بستان ابن ثعلب سور مبنى ، وله باب جليل . وحده القبلى الى منشأة ابن ثعلب . وحده البحرى الى الأرض المجاورة للميدان السلطانى الصالحى والى أرض الجزائر ، وفى هذا الحد أرض الخور وهى من حقوقه . وحده الشرقى الى بستان الدكة وبستان الأمير قراقوش . وحده الغربى الى الطريق المسلوك فيها الى موردة السقائين قبالة بستان السراج . وموردة السقائين هذه موضع قنطرة الخرق الآن .

وابن ثعلب هذا هو الشريف الأمير الكبير فخر الدين اسماعيل بن ثعلب الجعفرى الزينبى ، أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وغيره ، وصاحب المدرسة الشريفية بجوار درب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة .

وانتقل من بعده الى ابنه الأمير حصن الدين ثعلب ، فاشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، بثلاثة آلاف دينار مصرية ، فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة . وكان باب هذا البستان فى الموضع الذى يقال له اليوم باب اللوق .

وكان هذا البستان ينتهى الى خليج الخور ، وآخره من المشرق ينتهى الى الدكة بجوار المقس . ثم انقسم بعد ذلك قطعا ، وحكرت أكثر أرضه وبنى الناس عليها الدور وغيرها . وبقيت منه الى الآن قطعة عرفت ببستان الأمير أرغون النائب بديار مصر أيام الملك الناصر ، ثم عرف بعد ذلك ببستان ابن غراب .

وهو الآن على شاطىء الخليج الناصرى ، على يمنة من سلك من قنطرة قدادار بشاطىء الخليج من جانبه الشرقى الى بركة قرموط ، وبقيت من بستان ابن ثعلب قطعة تعرف ببستان بنت الأمير بيبرس الى الآن ، وهو وقف . ومن جملة بستان ابن ثعلب أيضا الموضع الذى يعرف ببركة قرموط ، والموضع المعروف بفم الخور .

وأما « منشأة ابن ثعلب » فانها بالقرب من باب اللوق ، وحكرت فى أيام الشريف فخر الدين بن ثعلب المذكور فعرفت به ، وهى تعرف اليوم بمنشأة الجوانية لأن جوانية الفم كانوا يسكنون فيها فعرفت بهم . وأدركتها فى غاية العمارة بالناس والمساكن والحوانيت وغيرها ، وقد اختلت بعد سنة ست وثمانمائة ، وأكثرها الآن زرائب للبقر .

وأما « باب اللوق » فانه كان هنالك ، الى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة بمدة ، باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة ، على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة وأبواب القلعة وأبواب بيوت الأمراء ، وكان يقال له باب اللوق .

فلما أنشأ القاضى صلاح الدين بن المغربى قيساريته التى بباب اللوق ، وجعلها لبيع غزل الكتان ، هدم هذا الباب ، وجعله فى الركن من جدار القيسارية القبلى مما يلى الغربى . وهذا هو باب الميدان الذى أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لما

اشترى بستان ابن ثعلب . وقد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر الميادين من هذا الكتاب .

وأما « حكر قردميه » فانه على يمنة من سلك من باب اللوق المذكور الى قنطرة قدادار ، وكان من جملة بستان ابن ثعلب فحكر ، وصار أخيرا بيد ورثة الأمير قوصون .

وكان حكرا عامرا الى ما بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فخرب عند وقوع الوباء الكبير بمصر ، وحفرت أراضيه وأخذ طينها ، فصارت بركة ماء عليها كيمان خلف الدور التى على الشارع المسلوك فيه الى قنطرة قدادار .

وأما « حكر كريم الدين » فانه على يسرة من سلك من باب اللوق الى رحبة التبن والى الدكة * ، وكان يعرف قبل كريم الدين بحكر الصهيونى . وهذا الحكر الآن آئل الى الدثور .

وأما « رحبة التبن » فانها فى بحرى منشأة الجوانية ، شارعة فى الطريق العظمى التى يسلك فيها الى قنطرة الدكة من رحبة باب اللوق . عرفت بذلك لأنه كانت أحمال التبن تقف بها لتباع هناك ، فان القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن والحطب ونحوهما بها . ثم اختطت من جملة ما اختط فى غربى الخليج ، وصار بها عدة مساكن وسوق كبير ، وقد أدركته غاصا بالعمارة ، وانما اختل حال هذا الخط من سنة ست وثمانمائة .

وأما « بستان السعيدى » فانه يشرف على الخليج الناصرى فى هذا الوقت ، وأدركنا ما حوله عامرا . وقد خربت الدور التى كانت هناك من جهة الطريق الشارع من باب اللوق الى الدكة ، وبها بقية آئلة الى الدثور .

وأما « بركة قرموط » فانها من حقوق بستان ابن ثعلب . ولما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى رمى فيها ما خرج عند حفره من الطين ، وأدركناها من أعمر بقعة فى أرض مصر ، وهى الآن خراب كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب .

وأما « الخور » فان الخور فى اللغة مصب الماء ، وهو هنا اسم للأرض التى ما بين الخليج الناصرى والخليج الذى يعرف بفم الخور ، وجميع هذه الأرض من جملة بستان ابن ثعلب .

وكان يعرف بالخور الصعبى ، لأنه كانت به مناظر ، تعرف بمناظر الصعبى ، تشرف على النيل . وكان على شاطىء الخليج الكبير ، فى هذا الجانب الغربى الذى نحن فى ذكره ، بجوار بستان الخشاب الذى كان يتوصل اليه من قنطرة السد ، وبعضه الآن الميدان السلطانى ، بستان يعرف بالجزيرة ... يعنى بستان الجزيرة المعروفه بالصعبى ، وكان من البساتين الجليلة .

وهذا الصعبى هو الشيخ كريم الدولة عبد الواحد بن محمد بن على الصعبى . مات فى شهر رمضان سنة ثلاث وستمائة بمصر . وكان له أخ يعرف بعبد العظيم بن محمد الصعبى .

(*) ص١١٨ ج٢ ، ط. بولاق .

. لما انحسر ماء النيل عن الرملة التى قيل لها منية بولاق تجاه المقس ، وعمرت هنالك الدور ، اتصلت من قبليها بالخور ، وأنشىء بشاطىء النيل الذى بالخور دور تجل عن الوصف ، وانتظمت صفا واحدا من بولاق الى منشأة المهرانى ومورودة الحلفاء ، ومن موردة الحلفاء على ساحل مصر الجديد الى دير الطين غربى بركة الحبش ... لو أحصى ما أنفق على بناء هذه الدور لقام بخراج مصر أيام كانت عامرة ، وقد خرب معظمها من سنة ست وثمانمائة . وقد تقدم ذكر منشأة الفاضل .

وأما حكر الساباط وحكر كريم الدين الصغير وحكر المطوع وحكر العين الزرقاء ، فانها بالقرب من الميدان الكبير السلطانى ، وقد خربت بعدما كانت عامرة بالدور والمتنزهات .

« بستان العدة » : هذا المكان من جملة الأحكار التى فى غربى الخليج ، وهو بجوار قنطرة الخرق وبجوار حكر النوبى ، قريب من باب اللوق تجاه الدور المطلة على الخليج من شرقيه ، المقابلة لباب سعادة وحارة الوزيرية

كان بستانا جليلا . وقفه الأمير فارس المسلمين بدر بن رزيك أخو الصالح طلائع بن رزيك ، صاحب جامع الصالح خارج باب زويلة ، ثم انه خرب ، فحكر ، وبنى عليه عدة مساكن . وحكره يتعاطاه ورثة فارس المسلمين .

« حكر جوهر النوبى » : هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربى فى شرقى بستان العدة ، ويسلك منه الى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أمير حسين الذى تعلوه المئذنة . وما زال بستانا الى نحو سنة ستين وستمائة ، فحكر وبنى فيه الدور فى أيام الظاهر بيبرس .

وعرف بجوهر النوبى أحد الأمراء فى الأيام الكاملية ، وقد تقدم بديار مصر تقدما زائدا ، وكان خصيا ، وهو ممن ثار على الملك العادل أبى بكر بن الكامل وخلعه . فلما ملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بعد أخيه العادل ، قبض على جوهر فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

« حكر خزائن السلاح » : هذا الحكر كان يعرف قديما بحكر الأوسية ، وهو فيما بين الدكة وقنطرة الموسكى . وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح ، هو وعدة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها ، فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وستمائة . وظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد خرب أكثر هذا الحكر وصار كيمانا .

« حكر تكان » : هذا الحكر بجوار سويقة العجمى الفاصلة بينه وبين حكر خزائن السلاح ، وكان يعرف قديما بحكر كونج . وحده القبلى ينتهى الى حكر ابن الأسد جفريل ، والحد البحرى ينتهى الى حكر العلائى ، والحد الشرقى ينتهى الى حكر البغدادية ، والحد الغربى ينتهى الى حكر خزائن السلاح وسويقة العجمى .

وتكان هو الأمير سيف الدين تكان ، ويقال « تكام » بالميم عوضا عن النون .

وهذا الحكر استقر أخيرا فى أوقاف خوند أردوتكين ابنة نوكيه السلاح دار ، زوجة الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، على تربتها التى أنشأتها خارج باب القرافة التى تعرف اليوم بتربة الست . وقد خرب هذا الحكر ، وبيعت أنقاضه فى أعوام بضع * وتسعين وسبعمائة ، وجعل بعضه بستانا فى سنة ست وتسعين وسبعمائة .

« حكر ابن الأسد جفريل » : هذا الحكر فى قبلى حكر تكان . كان بستانا فحكر . وعرف بالأمير شمس الدين موسى ابن الأمير أسد الدين جفريل ، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمصر .

« حكر البغدادية » : هذا الحكر بجوار خليج الذكر . كان من أعظم البساتين فى الدولة الفاطمية ، فأزال الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب أشجاره ونخله وجعله ميدانا ، ثم حكر وصارت فيه عدة مساكن . وهو الآن خراب يباب لا يأويه الا البوم والرخم .

« حكر خطلبا » : هذا الحكر حده القبلى الى الخليج ، وحده البحرى الى الكوم الفاصل بينه وبين حكر الأوسية المعروف بالجاولى ، وحده الشرقى الى بستان الجليس الذى عرف بابن منقذ ، والحد الغربى الى زقاق هنالك .

وكان هذا الحكر بستانا اشتراه جمال الدين الطواشى ، من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن اسماعيل الملكى الكاملى ، فى سنة ست عشرة وستمائة . ثم ابتاعه منه

(*) ص ١١٩ جـ ٢ ، ط . بولاق .

الطواشى محيى الدين صندل الكاملى فى سنة عشرين وستمائة ، وباعه للأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى فى سنة احدى وعشرين وستمائة ، فعرف به .

وهو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسى التبتى الموصلى الكاملى . استقر فى ولاية القاهرة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم أضيفت له ولاية الفيوم فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ثم صرف عنها ، وسار متسلمه الى اليمن ليتسلمها ، فتسلمها فى جمادى الأولى .

وسار هو فى سادس شوال منها واليا على مدينة زبيد باليمن ، ومعه خمسمائة رجل ورفيقه الأمير ياخل ، فبلغت النفقة عليه عشرين ألف دينار ، وكتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن . فأقام باليمن مدة ، ثم قدم الى القاهرة وصار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس ، وتأخر الى أيام الملك الكامل ، وصار من أمرائه بالقاهرة الى أن مات فى ثالث شعبان سنة خمس وثلاثين وستمائة .

« حكر ابن منقذ » : هذا الحكر خارج باب القنطرة بعدوة خليج الذكر ، وكان بستانا يعرف ببستان الشريف الجليس ، ويعرف أيضا بالبطائحى ، ثم عرف بالأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائب الملك المعز سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى على مملكة اليمن .

وانتقل بعد ابن منقذ الى الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز بن على المخزومى ،

المعروف بابن الصيرفى ، فوقفه على جهات تؤول أخيرا الى الفقراء والمساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة ، والفقراء والمساكين المعتقلين فى حبوس القاهرة ، فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة . ثم أزيلت أنشاب هذا البستان ، وحكرت أرضه ، وبنيت الدور والمساكن عليها . وهو الآن خراب .

« حكر فارس المسلمين بدر بن رزيك » : هذا الحكر تجاه منظرة اللؤلؤة . كان من جملة البركة المعروفة ببطن البقرة ، ثم حكر وبنى فيه ، وأكثره الآن خراب .

« حكر شمس الخواص مسرور » : هذا الحكر فيما بين خليج الذكر وحكر ابن منقذ . كان بستانا لشمس الخواص مسرور الطواشى ، أحد الخدام الصالحية ، مات فى نصف شوال سنة سبع رأربعين وستمائة بالقاهرة . ثم حكر وبنى فيه الدور ، وموضعه الآن كيمان .

« حكر العلائى » : هذا الحكر يجاور « حكر تكان » من بحريه . وكان بستانا جليل القدر ثم حكر ، وصار بعضه وقف تذكار بى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس ، وقفته فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على نفسها ، ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس — وهو الرباط المعروف برواق البغدادية — وعلى المسجد الذى بحكر سيف الاسلام خارج باب زويلة ، وعلى تربتها التى بجوار جامع ابن عبد الظاهر بالقرافة .

وصار بعض هذا الحكر فى وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائى متولى البهنساء ، وكان وقفه فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فعرف بالحكر العلائى المذكور .

وأدركت هذا الحكر وهو من أعمر الأحكار وفيه درب الأمير عز الدين أيدمر الزراق ، أمير جاندار ووالى القاهرة ، وداره العظيمة ومساكنه الكثيرة . فلما حدثت المحن منذ سنة ست وثمانمائة خرب هذا الحكر ، وأخذت أنقاضه ، وبقيت دار الزراق الى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فشرع فى الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة .

« حكر الحريرى » : هذا الحكر بجوار حكر العلائى المذكور من حده البحرى ، وهو من جملة الأرض المعروفة بالأرض البيضاء ، وكان بستانا ثم حكر وصار فى وقف خزائن السلاح . وأدركناه عامرا ، وفيه سوق يعرف بالسويقة البيضاء كانت بها عدة حوانيت وقد خرب هذا الحكر . وهذا الحريرى هو الصاحب محيى الدين .

« حكر المساح » : عرف بالأمير شمس الدين سنقر المساح ، أحد أمراء الظاهر بيبرس ، قبض عليه فى عدة من الأمراء فى ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة .

« الدكة » : هذا المكان كان بستانا من أعظم بساتين القاهرة ، فيما بين أراضى اللوق والمقس * وبه منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم ، ولا يحول بينها وبين بر الجيزة شىء .

فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان وخرب ، فحكر موضعه وبنى الناس

(*) ص ١٢٠ ج ٢ ، طـ بولاق .

فيه ، فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل ، وصار به سوق عظيم ، وسكنه الكتاب وغيرهم من الناس ، وأدركته عامرا . ثم انه خرب منذ سنة ست وثمانمائة ، وبه الآن بقية عما قليل تدثر كما دثر ما هنالك وصار كيمانا .

ذكر المقس وفيه الكلام على المكس وكيف كان أصله فى أول الاسلام

اعلم أن المقس قديم ، وكان فى الجاهلية قرية تعرف بأم دنين ، وهى الآن محلة بظاهر القاهرة فى بر الخليج الغربى . وكان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل ، وبه أنشأ الامام المعز لدين الله أبو تميم معد الصناعة التى ذكرت عند ذكر الصناعات من هذا الكتاب ، وبه أيضا أنشأ الامام الحاكم بأمر الله أبو على منصور جامع المقس الذى تسميه عامة أهل مصر فى زمننا بجامع المقسى ، وهو الآن يطل على الخليج الناصرى .

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » وقد ذكر مسير عمرو بن العاص رضى الله عنه الى فتح مصر : فتقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه ، لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس ، فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله سبحانه وتعالى عليه . ثم مضى لا يدافع الا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين ، فقاتلوه بها قتالا شديدا ، وأبطأ عليه الفتح فكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يستمده ، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف . فقاتلهم ... وذكر تمام الخبر .

وقال القاضى أبو عبد الله القضاعى : المقس كانت ضيعة تعرف بأم دنين ، وانما سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس . فقيل المكس ، فقلب فقيل المقس .

قال المؤلف رحمه الله : الماكس هو العشار ، وأصل المكس فى اللغة الجباية .

قال ابن سيده فى كتاب « المحكم » : المكس الجباية ، مكسه يمكسه مكسا . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية ، ويقال للعشار صاحب مكس ، والمكس انتقاض الثمن فى البياعة .

قال الشاعر :

أفى كل أسواق العراق اتاوة
وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

ألا ينتهى عنا رجال وتتقى
محارمنا .. لا يدرأ الدم بالدم

الاتاوة الخراج ، ومكس درهم أى نقص درهم فى بيع ونحوه .

قال : وعشر القوم يعشرهم عشرا وعشورا ، وعشرهم أخذ عشر أموالهم ، وعشر المال نفسه وعشره كذلك ، والعشار قابض العشر ، ومنه قول عيسى بن عمرو لابن هبيرة وهو يضرب بين يديه بالسياط : تالله ان كانت الا ثيابا فى أسفاط قبضها عشاروك .

وقال الجاحظ : ترك الناس مما كان مستعملا فى الجاهلية أمورا كثيرة . فمن ذلك تسميتهم للاتاوة بالخراج ، وتسميتهم لما يأخذه السلطان من الحلوان والمكس بالرشوة .

وقال الخارجي : أفي كل أسواق العراق اتاوة ... البيت .

وكما قال العبدي في الجارود :

آكابن المعلى خلتنا أم حسبتنا
صواري نعطي الماكسين مكوسا

الصواري الملاحون ، والمكس ما يأخذه العشار . انتهى .

ويقال ان قوم شعيب عليه السلام كانوا مكاسين لا يدعون شيئا الا مكسوه ، ومنه قيل للمكس البخس ، لقوله تعالى : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

وذكر أحمد بن يحيي البلاذري ، عن سفيان الثوري ، عن ابراهيم بن مهاجر ، قال : سمعت زياد بن جرير يقول : أنا أول من عشر في الاسلام .

وعن سفيان ، عن عبد الله بن خالد ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : سألت زياد بن جرير من كنتم تعشرون ؟

فقال : ما كنا نعشر مسلما ولا معاهدا ، بل كنا نعشر تجار أهل الحرب كما كانوا يعشروننا اذا أتيناهم .

وقال عبد الملك بن حبيب السلمي في كتاب « سيرة الامام » : العدل في مال الله ، عن السائب بن يزيد أنه قال : كنت على سوق المدينة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكنا نأخذ من القبط العشر .

وقال ابن شهاب : كان ذلك يؤخذ منهم في الجاهلية ، فألزمهم ذلك عمر بن الخطاب .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأخذ بالمدينة من القبط من الحنطة والزبيب نصف العشر ، يريد بذلك أن يكثر الحمل الى المدينة من الحنطة والزبيب ، وكان يأخذ من القطنية العشر .

وقال مالك رحمه الله : والسنة أن ما أقام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها الا الجزية . الا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها ، فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة . وان اختلفوا في العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين ، فعليهم كلما اختلفوا العشر . واذا اتجر الذمي في بلاده من أعلاها الى أسفلها ، ولم يخرج منها الى غيرها ، فليس عليه شيء ... مثل أن يتجر الذمي الشامي في جميع الشام * ، أو الذمي المصري في جميع مصر ، أو الذمي العراقي في جميع العراق .

وليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز لزريق بن حيان : « واكتب لهم بما يؤخذ منهم كتابا الى مثله من الحول ، ومن مر بك من أهل الذمة فخذ مما يديرون من التجارات من كل عشرين دينارا دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، فان نقص منها ثلث دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئا » . والعمل على أن يؤخذ منهم العشر ، وان خرجوا في السنة مرارا من كل ما اتجروا به قل أو كثر . وهذا قول ربيعة وابن هرمز .

وقال القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الحضرمي ، أحد أصحاب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، في كتاب « الرسالة » الى أمير

(*) ص ١٢١ ج ٢ ، ط . بولاق .

المؤمنين هارون الرشيد ، وهو كتاب جليل القدر : حدثنا اسماعيل بن ابراهيم بن المهاجر ، قال : سمعت أبى يذكر ، قال : سمعت زياد ابن جرير ، قال : أول من بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه منا على العشور أنا ، فأمرنى ألا أفتش أحدا ، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما درهما من المسلمين ، وأخذت من أهل الذمة من عشرين واحدا ، وممن لا ذمة له العشر ، وأمرنى أن أغلظ على نصارى بنى تغلب قال : انهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب ، فلعلهم يسلمون .

قال : وكان عمر رضى الله عنه قد اشترط على نصارى بنى تغلب ألا ينصروا أولادهم .

وحدثنا أبو حنيفة عن الهيثم ، عن أنس بن سيرين ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : بعثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على العشور ، وكتب لى عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا به لتجاراتهم ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر .

وحدثنا عاصم بن سليمان الأحول عن الحسن ، قال : كتب أبو موسى الأشعرى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : « ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الحرب فيأخذون منهم العشر » .

فكتب اليه عمر رضى الله عنه : « فخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس فيما دون المائتين شيء ، فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، فما زاد فبحسابه » .

وحدثنا عبد الملك بن جريج ، عن عمرو بن شعيب ، قال : ان أهل منبج — قوما من أهل الشرك وراء البحر — كتبوا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » .

قال : فشاور عمر رضى الله عنه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فأشاروا عليه به . فكانوا أول من عشره من أهل الحرب .

وحدثنا السدى بن اسماعيل ، عن عامر الشعبى ، عن زياد بن جرير الأسدى ، قال : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعثه على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر .

فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس ، فقوموها بعشرين ألفا ، فقال : أمسك الفرس وأعطنى ألفا ، أو خذ منى تسعة عشر ألفا وأعطنى الفرس ... قال : فأعطاه ألفا وأمسك الفرس .

قال : ثم مر عليه راجعا فى سنته ، فقال : أعطنى ألفا أخرى . فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟!

قال : نعم .

فرجع التغلبى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فوافاه بمكة وهو فى بيت له ، فاستأذن عليه ، فقال : من أنت ؟

فقال : أنا رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته .

فقال له عمر رضي الله عنه : كفيت . ولم يزده على ذلك .

قال : فرجع الرجل الى زياد بن جرير ، وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا ، فوجد كتاب عمر رضي الله عنه قد سبق اليه « من مر عليك فأخذت منه صدقة ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل ... الا أن تجد فضلا » .

قال : فقال الرجل : قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفا ، واني أشهد الله تعالى أني بريء من النصرانية ، وأني على دين الرجل الذي كتب اليك هذا الكتاب .

وحدثني يحيى بن سعيد ، عن زريق بن حيان — وكان على مكس مصر — فذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب اليه « أن انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر لك من التجارات ، من كل أربعين دينارا دينارا ، فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت فدعها ولا تأخذ منها . واذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دعها لا تأخذ منها شيئا ، واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول » .

وحدثني أبو حنيفة ، عن حماد عن ابراهيم ، أنه قال : اذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر ، ولا يقبل قول الذمي في قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه ، فيؤخذ نصف العشر من الذمي .

وحدثنا قيس بن الربيع ، عن أبي فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، أنه قال : ان هذه المعاصر والقناطر سحت لا يحل أخذها .

فبعث عمالا الى اليمن ، ونهاهم أن يأخذوا من عاصر أو قنطرة أو طريق شيئا . فقدموا ، فاستقل المال ، فقالوا : نهيتنا . فقال : خذوا كما كنتم تأخذون .

وحدثنا محمد بن عبيد الله ، عن أنس بن سيرين ، قال : أرادوا أن يستعملوني * على عشور الأبلة فأبيت ، فلقيني أنس بن مالك رضي الله عنه فقال : ما يمنعك ؟

قلت : العشور أخبث ما عمل عليه الناس .

قال : فقال لي : لم لا تفعل ؟ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صنعه : فجعل على أهل الاسلام ربع العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ، وعلى أهل المنزل ممن ليس له ذمة العشر .

وقال أبو الحسن المسعودي : ان كيقباذ ، أحد ملوك الفرس ، أول من أخذ العشر من الأرض ، وعمر بابل ومملكة الفرس . ورأيت في التوراة التي في يد اليهود أن أول من أخرج العشر من مواشيه وزروعه وجميع ماله خليل الله ابراهيم عليه السلام ، وكان يدفع ذلك الى ملك أورشليم التي هي أرض القدس واسمه ملكي صادق .

(*) ص١٢٢ ، جـ٢ ، ط. بولاق .

قلما مات الخليل ابراهيم ، صلوات الله عليه وسلامه ، اقتدى به بنوه فى ذلك من بعده ، وصاروا يدفعون العشر من أموالهم ... الى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام . فأوجب على بنى اسرائيل اخراج العشر فى كل ما ملكت أيمانهم من جميع أموالهم بأنواعها ، وجعل ذلك حقا لسبط لاوى الذين هم قرابة موسى عليه السلام .

وقال ابن يونس فى « تاريخ مصر » : كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه — أحد من شهد فتح مصر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — واليا لعمرو ابن العاص رضى الله عنه على المكس [1] . وكان زريق بن حيان على مكس أيلة فى خلافة عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه .

قال مؤلفه رحمه الله : ومع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل . روى ابن قتيبة فى كتاب « الغريب » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله سهيلا ، كان عشارا باليمن ، فمسخهُ الله شهابا » . وروى ابن لهيعة ، عن عبد الرحمن بن ميمون، عن أبى ابراهيم المعافرى ، عن خالد بن ثابت ، أن كعبا أوصاه ، وتقدم اليه حين مخرجه مع عمرو بن العاص ألا يقرب المكس .

فهذا — أعزك الله — معنى المكس عند أهل الاسلام . لا ما أحدثه الظالم هبة الله بن صاعد الفائزى ، وزير الملك المعز أيبك التركمانى — أول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل — من المظالم التى سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية ، وتعرف اليوم بالمكوس .

فذلك الرجس النجس الذى هو أقبح المعاصى والذنوب الموبقات ، لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده ، وتكرر ذلك منه ، وانتهاكه للناس ، وأخذ أموالهم بغير حقها ، وصرفها فى غير وجهها . وذلك الذى لا يقربه متق ، وعلى آخذه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

ولنرجع الى الكلام فى المقس فنقول : من الناس من يسميه المقسم — بالميم بعد السين — قال ابن عبد الظاهر فى كتاب « خطط القاهرة » : وسمعت من يقول انه المقسم ، قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به ، ولم أره مسطورا .

وقال العماد محمد بن أبى الفرج محمد ابن حامد الكاتب الأصفهانى فى كتاب « سنا البرق الشامى » : وجلس الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فى البرج الذى بجوار جامع المقسم ، فى السابع والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وهذا المقسم على شاطىء النيل يزار ، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار ، وهو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر . فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بادارة السور على مصر والقاهرة ، تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش ، وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم ، وبنى فيه برجا مشرفا على

---

(١) ينافى ما تقدم عن يحيى بن سعيد من انه كان على مكس مصر ، فلعله ولى المحلين ، وليحرر ا هـ .

النيل ، وبنى مسجدا جامعا ، واتصلت العمارة منه الى البلد ، وجامعه تقام فيه الجمعة والجماعات .

وهذا البرج عرف بقلعة قراقوش . وما برح هنالك الى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسي ، وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، في سنة بضع وسبعين وسبعمائة عندما جدد جامع المقس الذي أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله ، فصار يعرف بجامع المقسي هذا الى اليوم . وما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم الى ما بعد سنة سبعمائة بعدة أعوام .

قال جامع السيرة الطولونية : وركب أحمد ابن طولون في غداة باردة الى المقس ، فأصاب بشاطىء النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شيء ، ومعه صبي له في مثل حاله ، وقد ألقى شبكته في البحر . فلما رآه رق لحاله ، وقال : يانسيم ادفع الى هذا عشرين دينارا . فدفعها اليه ولحق ابن طولون .

فسار أحمد بن طولون ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه ، وسأل الصبي عن أبيه ، فقال له : هذا الغلام (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى أبي شيئا ، فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا .

فقال : فتشه يانسيم .

فنزل وفتشه ، فوجد الدنانير معه بحالها ، فحرض الصبي أن يأخذها . فأبى وقال : هذه قتلت أبي ، وان أخذتها قتلتني .

فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبي دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة ، وأن تحبس عليه ، وكتب اسمه في أصحاب الجرايات وقال : أنا قتلت أباه لأن الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا * كان يجب أن يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه .

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله في تعليق المتجددات لسنة سبع وسبعين وخمسمائة : وفيه (يعني يوم الثلاثاء لست بقين من المحرم) ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أعز الله نصره ، لمشاهدة ساحل النيل — وكان قد انحسر وتشمر عن المقس وما يليه ، وبعد عن السور والقلعة المستجدين بالمقس — وأحضر أرباب الخبرة ، واستشارهم . فأشير عليه باقامة الجراريف لرفع الرمال التي قد عارضت جزائرها طريق الماء ، وسدته ووقفت فيه .

وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما تربى قدام دار الملك جزيرة رمل ، كما هي اليوم ، أراد أن يقرب البحر وينقل الجزيرة . فأشير عليه بأن يبنى مما يلي الجزيرة أنفا خارجا في البحر ليلقى التيار وينقل الرمل . فعسر هذا ، وعظمت غرامته .

فأشار عليه ابن سيد بأن يأخذ قصاري فخار ، تثقب ويعمل تحتها رؤوس برابخ وتلطخ بالزفت ، وتكب القصاري عليها وتدفن في الرمل . فاذا زاد النيل وركبها ، نزل من

(*) ص١٢٣ جـ٢ ، طبع بولاق .

خروق القصارى الى الرؤوس فأدارها الماء ، ومنعتها القصارى أن تنحدر ، ودامت حركة الرمل بتحريك الماء للرؤوس ، فانتقل الرمل . وذكر أن للزفت خاصية فى تحويل الرمل .

قال : وفى هذا الوقت احترق النيل ، وصار البحر مخايض يقطعها الراجل ، وتوحل فيه المراكب ، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر ، وربى جزائر رملية أشفق منها على المقياس لئلا يتقلص النيل عنه ويحتاج الى عمل غيره ، وخشى منها أيضا على ساحل المقس لكون بنيان الصور كان اتصل بالماء ، وقد تباعد الآن عن السور ، وصار المد قوته من بر الغرب . ووقع النظر فى اقامة جراريف لقطع الجزائر التى رباها البحر ، وعمل أنوف خارجة فى بر الجيزة ليميل بها الماء الى هذا الجانب ، ولم يتم شىء من ذلك .

وقال ابن المتوج : فى سنة خمسين وستمائة انتهى النيل فى احتراقه الى أربعة أذرع وسبعة عشر أصبعا ، وانتهى فى زيادته الى ثمانية عشر ذراعا ، وكان مثل ذلك فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نيلا عظيما سد فيه باب المقس ... يعنى الباب الذى يعرف اليوم بباب البحر عند المقس . وفى سنة اثنتين وستين وستمائة ، أحضر الى الملك الظاهر بيبرس طفل وجد ميتا بساحل المقس ، له رأسان وأربعة أعين وأربعة أرجل وأربعة أيد .

وأخبرنى وكيل أبى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر السهروردى رحمه الله ، ومولده سنة اثنتين وسبعمائة بالمقس ، أنه يعرف باب البحر هذا : اذا خرج منه الانسان فانه يرى بر الجيزة لا يحول بينه وبينها حائل ، فاذا زاد ماء النيل صار الماء عند الوكالة التى هى الآن خارج باب البحر ، المعروفة بوكالة الجبن ، واذا كان أيام احتراق النيل بقيت الرمال تجاه باب البحر ، وذلك قبل أن يحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى . فلما حفر الخليج المذكور ، أنشأ الناس البساتين والدور ، كما يجىء ان شاء الله تعالى ذكره .

وأدركنا المقس خطة فى غاية العمارة بها عدة أسواق ، ويسكنها أمم من الأكراد والأجناد والكتاب وغيرهم . وقد تلاشت من بعد سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، عند حدوث الغلاء بمصر ، فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين . فلما كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة ، خربت الأحكار والمقس وغيره . وفيه الى الآن بقية صالحة ، وبه خمسة جوامع تقام بها الجمعة وعدة أسواق ، ومعظمه خراب .

ذكر ميدان القمح

هذا المكان خارج باب القنطرة . يتصل من شرقيه بعدوة الخليج ، ومن غربيه بالمقس ، وبعضهم يسميه ميدان الغلة . وكان موضعا للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة . وكانت صبر القمح وغيره من الغلال توضع من جانب المقس الى باب القنطرة عرضا ، وتقف المراكب من جانب المقس الى منية الشيرج طولا ، ويصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله .

قال ابن عبد الظاهر : المكان المعروف بميدان الغلة وما جاوره الى ما وراء الخليج ،

لما ضعف أمر الخلافة ، وهجرت الرسوم القديمة من التفرج فى اللؤلؤة وغيرها ، بنت الطائفة الفرحية الساكنون بالمقس لأنهم ضاق بهم المقس ، قبالة اللؤلؤة ، حارة سميت بحارة اللصوص ، بسبب تعديهم فيها مع غيرهم ، الى أن غيروا تلك المعالم . وقد كان ذلك قديما بستانا سلطانيا ، يسمى بالمقسى ، أمر الظاهر بن الحاكم بنقل أنشابه ، وحفره وجعله بركة قدام اللؤلؤة مختلطة بالخليج .

وكان للبستان المقدم ذكره ترعة من البحر يدخل منها الماء اليه — وهو خليج الذكر الآن — فأمر بابقائها على حالها مسلطة على البركة والخليج يستنقع الماء فيها . فلما نسى ذلك على ما ذكرناه ، عمد المذكورون وغيرهم الى اقتطاع البركة من الخليج ، وجعلوا بينها وبين الخليج جسرا ، وصار الماء يصل اليها من الترعة دون الخليج ، وصارت متنزها للسودان المذكورين فى أيام النيل * والربيع .

ولما كانت الأيام الآمرية أحب اعادة النزهة . فتقدم وزيره المأمون بن البطائحى باحضار عرفاء السودان المذكورين ، وأنكر عليهم ذلك ، فاعتذروا بكثر الرمال ، فأمر بنقل ذلك وأعطاهم انعاما ، فبنوا حارة بالقرب من دار كافور التى أسكنت بها الطائفة المأمونية ، قبالة بستان الوزير ، ومن المساجد الثلاثة المعلقة فى شرقيها . ثم أحضر الأبقار من البساتين والعدد والآلات ، ونقض الجسر الذى بين البركة والخليج ، وعمق البركة الى أن صار الخليج مسلطا عليها .

(*) ص١٢٤ ج٢ ، ط بولاق .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : هذه البركة عرفت ببطن البقرة ، وقد ذكر خبرها عند ذكر البرك من هذا الكتاب . وقد صار هذا الميدان اليوم سوقا تباع فيه القشة من النحاس العتيق والحصر وغير ذلك ، وفى بعضه سوق الغزل ، وبه جامع يشرف على الخليج ، وسكن هنالك طائفة من المشارقة الحياك ، وفيه سوق عامر بالمعايش .

ذكر أرض الطبالة

هذه الأرض ، على جانب الخليج الغربى بجوار المقس ، كانت من أحسن متنزهات القاهرة . يمر النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس — حيث جامع المقس الآن — الى أن ينتهى الى الموضع الذى يعرف بالجرف ، على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى .

ويمر من الجرف الى غربى البعل ، فتصير أرض الطبالة نقطة وسط : من غربيها النيل الأعظم ، ومن شرقيها الخليج ، ومن قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة ، والبساتين التى آخرها حيث الآن باب مصر بجوار الكبارة ، وحيث المشهد النفيسى ، ومن بحريها أرض البعل ومنظرة البعل ومنظرة التاج والخمس وجوه وقبة الهواء .

فكانت رؤية هذه الأرض شيئا عجيبا فى أيام الربيع ، وفيها يقول سيف الدين على بن قزل المشد :

الى طبالة يعزون أرضا
لها من سندس الريحان بسط

وقد كتب الشقيق بها سطورا
وأحسن شكلها للطل نقط

رياض كالعرائس حين تجلى
يزين وجهها تاج وقرط

وانما قيل لها أرض الطبالة . لأن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى ، لما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى ، وخرج من بغداد يريد الانتماء الى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمده الخليفة المستنصر بالله ووزيره الناصر لدين الله عبد الرحمن البازورى ، حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة ، وأزال دولة بنى العباس منها ، وأقام الدولة الفاطمية هناك ، وسير عمامة القائم وثيابه وشباكه الذى كان اذا جلس يستند اليه ، وغير ذلك من الأموال والتحف الى القاهرة فى سنة خمسين وأربعمائة .

فلما وصل ذلك الى القاهرة ، سر الخليفة المستنصر سرورا عظيما ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة . فوقفت « نسب » طبّالة المستنصر — وكانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم والأعياد ، وتسير أيام الموكب وحولها طائفتها وهى تضرب بالطبل وتنشد — فأنشدت وهى واقفة تحت القصر :

يابنى العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم ملك معار والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر ذلك منها ، وقال لها : تمنَّى .

فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس . فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها من حينئذ : « أرض الطبالة » . وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى تعرف بتربة نسب .

قال ابن عبد الظاهر : أرض الطبالة منسوبة الى امرأة مغنية تعرف بسبب — وقيل بطرب — مغنية المستنصر ... قال : فوهبها هذه الأرض المعروفة بأرض الطبالة ، وحكرت وبنيت آدرا وبيوتا ، وكانت من ملح القاهرة وبهجتها . انتهى .

ثم ان أرض الطبالة خربت فى سنة ست وتسعين وستمائة ، عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا ، حتى لم يبق فيها انسان يلوح ، وبقيت خرابا الى ما بعد سنة احدى عشرة وسبعمائة ، فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا .

فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب . فما زال بالمهندسين حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين — التى تعرف اليوم ببركة الحاجب وببركة الرطلى — فمروا به من هناك حتى صب فى الخليج الكبير من آخر أرض الطبالة .

فعمر الأمير بكتمر المذكور هناك القنطرة ، التى تعرف بقنطرة الحاجب ، على الخليج الناصرى ، وأقام جسرا من القنطرة المذكورة الى قريب من الجرف . فصار هذا الجسر فاصلا بين بركة الحاجب والخليج الناصرى ،

وأذن للناس فى تحكيره * ، فبنوا عليه وعلى البركة الدور .

وعمرت بسبب ذلك أرض الطبالة ، وصار بها عدة حارات : منها حارة العرب ، وحارة الأكراد ، وحارة البزازوة ، وحارة العياطين وغير ذلك . وبقى فيها عدة أسواق وحمام وجوامع تقام بها الجمعة ، وأقبل الناس على التنزه بها أيام النيل والربيع ، وكثرت الرغبات فيها لقربها من القاهرة .

وما برحت على غاية من العمارة . الى أن حدث الغلاء فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، أيام الأشرف شعبان بن حسين ، فخرب كثير من حارات أرض الطبالة ، وبقيت منها بقية الى أن دثرت منذ سنة ست وثمانمائة ، وصارت كيمانا .

وبقى فيها من العامر الآن الأملاك المطلة على البركة ، التى ذكرت عند ذكر البرك من هذا الكتاب ، وفيها بقعة تعرف بالجنينة — تصغير جنة — من أخبث بقاع الأرض . يعمل فيها بمعاصى الله عز وجل ، وتعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس .

وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا زائدا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام ... بعدما أدركناها تعد من أرذل الخبائث ، وأقبح القاذورات ، وما شىء فى الحقيقة أفسد لطباع البشر منها . ولاشتهارها فى وقتنا هذا عند الخاص والعام ، بمصر والشام والعراق والروم ، تعين ذكرها . والله تعالى أعلم .

(*) ص١٢٥ جـ٢ ، طـ بولاق .

ذكر حشيشة الفقراء

قال الحسن بن محمد فى كتاب « السوانح الأدبية فى مدائح القنبية » : سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازى الحيدرى ببلدة تستر ، فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، عن السبب فى الوقوف على هذا العقار ، ووصوله الى الفقراء خاصة ، وتعديه الى العوام عامة .

فذكر لى أن شيخه ، شيخ الشيوخ حيدرا رحمه الله ، كان كثير الرياضة والمجاهدة ، قليل الاستعمال للغذاء ، قد فاق فى الزهادة ، وبرز فى العبادة . وكان مولده بنشاور من بلاد خراسان ، ومقامه بجبل بين نشاور ومارماه ، وكان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية وفى صحبته جماعة من الفقراء ، وانقطع فى موضع منها ، ومكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها ، ولا يدخل عليه أحد غيرى للقيام بخدمته .

قال : ثم ان الشيخ طلع ذات يوم ، وقد اشتد الحر وقت القائلة ، منفردا بنفسه الى الصحراء ، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل ، وأذن لأصحابه فى الدخول عليه ، وأخذ يحادثهم .

فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة ، بعد اقامته تلك المدة الطويلة فى الخلوة والعزلة ، سألناه عن ذلك فقال : بينما أنا فى خلوتى اذ خطر ببالى الخروج الى الصحراء منفردا ، فخرجت فوجدت كل شىء من النبات ساكنا لا يتحرك لعدم الريح وشدة

القيظ ، ومررت بنبات له ورق ، فرأيته فى تلك الحال يميس بلطف ، ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان ، فجعلت أقطف منه أوراقا وآكلها ، فحدث عندى من الارتياح ما شاهدتموه ، وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله .

قال : فخرجنا الى الصحراء ، فأوقفنا على النبات ، فلما رأيناه قلنا : هذا نبات يعرف بالقنب . فأمرنا أن نأخذ من ورقه ونأكله ، ففعلنا . ثم عدنا الى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه .

فلما رآنا الشيخ على الحالة التى وصفنا أمرنا بصيانة هذا العقار ، وأخذ علينا الأيمان ألا نعلم به أحدا من عوام الناس ، وأوصانا ألا نخفيه عن الفقراء ، وقال : ان الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ، ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة . فراقبوه فيما أودعكم ، وراعوه فيما استرعاكم .

قال الشيخ جعفر : فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن وقفنا على هذا السر فى حياته ، وأمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته . وعاش الشيخ حيدرا بعد ذلك عشر سنين وأنا فى خدمته ، لم أره يقطع أكلها فى كل يوم ، وكان يأمرنا بتقليل الغذاء وأكل هذه الحشيشة .

وتوفى الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته فى الجبل ، وعمل على ضريحه قبة عظيمة ، وأتته النذور الوافرة من أهل خراسان ، وعظموا قدره وزاروا قبره ، واحترموا أصحابه . وكان قد أوصى أصحابه عند وفاته أن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره ، فاستعملوه .

قال : ولم تزل الحشيشة شائعة ذائعة فى بلاد خراسان ومعاملات فارس . ولم يكن يعرف أكلها أهل العراق ، حتى ورد اليها صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين — وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس — فى أيام الملك الامام المستنصر بالله ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فحملها أصحابهما معهم ، وأظهروا للناس أكلها . فاشتهرت بالعراق ، ووصل خبرها الى أهل الشام ومصر والروم ، فاستعملوها .

قال : وفى هذه السنة ظهرت الدراهم ببغداد ، وكان الناس ينفقون القراضة .

وقد نسب اظهار الحشيشة الى الشيخ حيدر الأديب محمد بن على بن الأعمى الدمشقى فى أبيات ، وهى * :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجد

يعاطيكها ظبى من الترك أغيد
يميس على غصن من البان أملد

فتحسبها فى كفه اذ يديرها
كرقم عذار فوق خد مورد

يرنحها أدنى نسيم تنسمت
فتهفو الى برد النسيم المردد

وتشدو على أغصانها الورق فى الضحى
فيطربها سجع الحمام المغرد

(*) ص ١٢١ ج ٤ ، ط . بولاق .

وفيها معان ليس فى الخمر مثلها
فلا تستمع فيها مقال مفند

هى البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوما برجل ولا يد

ولا عبث القسيس يوما بكأسها
ولا قربوا من دنها كل مقعد

ولا نص فى تحريمها عند مالك
ولا حد عند الشافعى وأحمد

ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخذها بحد المشرق المهند

وكف أكف الهم بالكف واسترح
ولا تطرح يوم السرور الى غد

وكذلك نسب اظهارها الى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسام الحلبى فقال :

ومهفهف بادى النفار عهدته
لا ألتقيه قط غير معبس

فرأيته بعض الليالى ضاحكا
سهل العريكة ريضا فى المجلس

فقضيت منه مآربى وشكرته
اذ صار من بعد التنافر مؤنسى

فأجابنى لا تشكرن خلائقى
واشكر شفيعك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأفراح تشفع عندنا
للعاشقين ببسطها للأنفس

واذا هممت بصيد ظبى نافر
فاجهد بأن يرعى حشيش القنبس

واشكر عصابة حيدر اذ أظهروا
لذوى الخلاعة مذهب المتخمس

ودع المعطل للسرور وخلنى
من حسن ظن الناس بالمتنمس

وقد حدثنى الشيخ محمد الشيرازى القلندرى : أن الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة فى عمره ألبتة ، وانما عامة أهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار أصحابه بها ، وأن اظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل . وذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو أول من أظهر لأهل الهند أكلها ، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن ، ثم فشا الى أهل فارس ، ثم ورد خبرها الى أهل العراق والروم والشام ومصر فى السنة التى قدمت ذكرها .

قال : وكان بيررطن فى زمن الأكاسرة ، وأدرك الاسلام وأسلم ، وان الناس من ذلك الوقت يستعملونها .

وقد نسب اظهارها الى أهل الهند على بن مكى فى أبيات أنشدنيها من لفظه ، وهى :

ألا فاكفف الأحزان عنى مع الضر
بعذراء زفت فى ملاحفها الخضر

تجلت لنا لما تحلت بسندس
فجلت عن التشبيه فى النظم والنثر

بدت تملأ الأبصار نورا بحسنها
فأخجل نورالروض والزهر بالزهر

عروس يسر النفس مكنون سرها
وتصبح فى كل الحواس اذا تسرى

فالذوق منها مطعم الشهد رائقا
وللشم منها فائق المسك بالنشر

وفى لونها المطرف أحسن نزهة
يميل الى رؤياه من سائر الزهر

تركب من قان وأبيض فانثنت
تتيه على الأزهار عالية القدر

فيكسف نور الشمس حمرة لونها
وتخجل من مبيضه طلعة البدر

علت رتبة فى حسنها وكأنها
زبرجد روض جاده وابل القطر

تبدت فأبدت ما أجن من الهوى
وجاءت فولت جند همى والفكر

جميلة أوصاف جميلة رتبة
تغالت فغالى فى مدائحها شعرى

فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا
بهندية أمضى من البيض والسمر

بهندية فى أصل اظهار أكلها
الى الناس لا هندية اللون كالسمر *

تزيل لهيب الهم عنا بأكلها
وتهدى لنا الأفراح فى السر والجهر

قال : وأنا أقول انه قديم معروف منذ أوجد الله تعالى الدنيا ، وقد كان على عهد اليونانيين . والدليل على ذلك ما نقله الأطباء فى كتبهم ، عن بقراط وجالينوس ، من مزاج هذا العقار وخواصه ومنافعه ومضاره .

قال ابن جزلة فى كتاب « منهاج البيان » : القنب الذى هو ورق الشهدانج : منه بستانى ومنه برى . والبستانى أجوده ، وهو حار يابس فى الدرجة الثالثة ، وقيل حرارته فى الدرجة الأولى ، ويقال انه بارد يابس فى الدرجة الأولى . والبرى منه حار يابس فى الدرجة الرابعة .

قال : ويسمى بالكف . أنشدنى تقى الدين الموصلى :

كف كف الهموم بالكف فالكف
ـف شفاء للعاشق المهموم

بابنة القنب الكريمة لا باب
ـنة كرم بعدا لبنت الكروم

قال : والفقراء انما يقصدون استعماله — مع ما يجدون من اللذة — تجفيفا للمنى ، وفى ابطاله قطع لشهوة الجماع كى لا تميل نفوسهم الى ما يوقع فى الزنا .

وقال بعض الأطباء : ينبغى لمن يأكل الشهدانج أو ورقه أن يأكله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل أو الخشخاش ، ويشرب بعده السكنجبين ليدفع ضرره ، واذا قلى كان أقل لضرره ، ولذلك جرت العادة قبل أكله أن يقلى ، واذا أكل غير مقلى كان كثير الضرر .

وأمزجة الناس تختلف فى أكله : فمنهم من لا يقدر أن يأكله مضافا الى غيره ، ومنهم من يضيف اليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات .

وقرأت فى بعض الكتب أن جالينوس قال : انها تبرىء من التخمة ، وهى جيدة للهضم .

(*) ص١٢٧ جـ٢ ط. بولاق .

وذكر ابن جزلة فى كتاب « المنهاج » أن بزر شجر القنب البستانى هو الشهدانج ، وثمره يشبه حب السمنة ، وهو حب يعصر منه الدهن .

وحكى عن حنين بن اسحاق أن شجرة البرى تخرج فى القفار المنقطعة على قدر ذراع ، وورقه يغلب عليه البياض .

وقال يحيى بن ماسويه فى كتاب « تدبير أبدان الأصحاء » : ان من غلب على بدنه البلغم ينبغى أن تكون أغذيته مسخنة مجففة ، كالزبيب والشهدانج .

وقال صاحب كتاب « اصلاح الأدوية » : ان الشهدانج يدر البول ، وهو عسر الانهضام ردىء الخلط للمعدة .

قال : ولم أجد لازالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة ، ورأيت من خواصها أن كثيرا من ذوات السموم — كالحية ونحوها — اذا شمت ريحها هربت ، ورأيت أن الانسان اذا أكلها ووجد فعلها فى نفسه ، وأحب أن يفارقه فعلها قطر فى منخريه شيئا من الزيت ، وأكل من اللبن الحامض . ومما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة فى الماء الجارى ، والنوم يبطله .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : دع نزاهة القوم ، فما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم . ولقد حدثنى القاضى الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، قبل اختلاطه ، عن الرئيس علاء الدين بن نفيس ، أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال : اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة . وكذلك جربنا فى طول عمرنا من عاناها ، فانه ينحط فى سائر أخلاقه الى ما لا يكاد أن يبقى له من الانسانية شىء ألبتة .

وقد قال ابن البيطار فى كتاب المفردات : ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندى ، ولم أره بغير مصر ، ويزرع فى البساتين ، ويقال له الحشيشة عندهم أيضا ، وهو يسكر جدا اذا تناول منه الانسان قدر درهم أو درهمين ، حتى ان من أكثر منه يخرجه الى حد الرعونة ، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم ، وأدى بهم الحال الى الجنون ، وربما قتلت .

ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى . فمنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا ، ويدعكه باليد دعكا جيدا حتى يتعجن ، ويعمل منه أقراصا . ومنهم من يجففه قليلا ، ثم يحمصه ويفركه باليد ، ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه . فانهم يطربون عليه ، ويفرحون كثيرا ، وربما أسكرهم فيخرجون به الى الجنون أو قريب منه . وهذا ما شاهدته من فعلها .

واذا خيف من الاكثار منه ، فليبادر الى القىء بسمن وماء سخن حتى تنقى منه المعدة ، وشراب الحماض لهم فى غاية النفع .

فانظر كلام العارف فيها ، واحذر من افساد بشريتك وتلاف أخلاقك باستعمالها . ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الا أراذل الناس ، ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة .

وكان قد تتبع الأمير سودون الشيخونى رحمه الله الموضع الذى يعرف بالجنينة ، من أرض الطبالة وباب اللوق ، وحكر واصل ببولاق ، وأتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة ، وقبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس ورذلائهم ، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس ، فقلع أضراس كثير من العامة فى نحو سنة ثمانين وسبعمائة .

وما برحت هذه الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس ، فارا من تيمورلنك ، الى القاهرة فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة . فتظاهر أصحابه بأكلها ، وشنع الناس عليهم ، واستقبحوا ذلك من فعلهم ، وعابوه عليهم . فلما سافر * من القاهرة الى بغداد ، وخرج منها ثانيا وأقام بدمشق مدة ، تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها .

وقدم الى القاهرة شخص من ملاحدة العجم . صنع الحشيشة بعسل خلط فيها عدة أجزاء مجففة كعرق اللفاح ونحوه ، وسماها العقدة ، وباعها بخفية . فشاع أكلها ، وفشا فى كثير من الناس مدة أعوام .

فلما كان فى سنة خمس عشرة وثمانمائة ، شنع التجاهر بالشجرة الملعونة ، فظهر أمرها واشتهر أكلها ، وارتفع الاحتشام من الكلام بها ، حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين .

وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق ، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس ، وجهروا بالسوء من القول ، وتفاخروا بالمعايب ، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة ، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة ... فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية ، ولولا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية . وقد بدا المسخ فى الشمائل والأخلاق ، المنذر بظهوره على الصور والذوات ، عافانا الله تبارك وتعالى من بلائه .

وأرض الطبالة الآن بيد ورثة الحاجب .

ذكرى ارض البعل والتاج

قال ابن سيده : البعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر الا مرة واحدة فى السنة ، وقيل البعل كل شجر أو زرع لا يسقى ، وقيل البعل ما سقته السماء ، وقد استبعل الموضع . والبعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى ولا ماء سماء ، وقيل هو ما اكتفى بماء السماء ، والبعل ما أعطى من الأتاوة على سقى النخل ، واستبعل الموضع والنخل صار بعلا .

وأرض البعل هذه بجانب الخليج تتصل بأرض الطبالة . كانت بستانا يعرف بالبعل وفيه منظرة ، أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وجعل على هذا البستان سورا . والى جانب بستان البعل هذا بستان التاج ، وبستان الخمس وجوه . وقد ذكرت مناظر هذه البساتين ، وما كان فيها للخلفاء الفاطميين من الرسوم ، عند ذكر المناظر من هذا الكتاب .

وأرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الاوز التى على الخليج . يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل وأيام الربيع .

(*) ص١٢٨ جـ٢ ، ط . بولاق .

وكذلك أرض التاج فانها اليوم قد زالت منها الأشجار ، واستقرت من أراضي المنية الخراجية . وفي أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين ، له ساق طويل وزهره شبه اللينوفر ، واذا أشرقت الشمس انفتح فصار متظرا أنيقا ، واذا غربت الشمس انضم .

ويذكر أن من العصافير نوعا صغيرا يجلس العصفور منه في داخل البشنينة . فاذا أقبل الليل انضمت عليه وغطست في الماء ، فبات في جوفها آمنا الى أن تشرق الشمس ، فتصعد البشنينة وتنفتح فيطير العصفور . وهو شيء ما برحنا تسمعه .

وهذا البشنين يصنع من زهره دهن يعالج به في البرسام وترطيب الدماغ فينجع ، وأصله يعرف بالبيارون ، يجمعه الأعراب ويأكلونه نيئا ومطبوخا ، وهو يميل الى الحرارة يسيرا ، ويزيد في الباه ، ويسخن المعدة ويقويها ويقطع الزحير ... ذكر ذلك ابن البيطار في كتاب « المفردات » .

وفي أيام الربيع تزرع هذه الأراضي ، فتذكر بحسنها ونضارتها جنة الخلد التي وعد المتقون . وأدركت بهذه الأرض بقايا نخل وأشجار ، وقد تلفت .

ذكر ضواحي القاهرة

قال ابن سيده : ضواحي كل شيء نواحيه البارزة للشمس ، والضواحي من النخل ما كان خارج السور على صفة عالية ، لأنها تضحى للشمس .

وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل بدر « لكم الصامتة من النخل ، ولنا الضاحية من البعل » ... يعني بالصامتة ما أطاف به سور المدينة .

وضواحي الروم ما ظهر من بلادهم وبرز . ويقال في زماننا لما خرج عن القاهرة ، مما هو في جنبتي الخليج من القرى ، ضواحي القاهرة . وقد عرفت أصل ذلك من اللغة .

وتعرف البلاد التي من الضواحي في غربي الخليج بالحبس الجيوشي ، وهي بهتين والأميرية والمنية . وكان أيضا بناحية الجيزة ، من جملة الحبس الجيوشي ، ناحية سفط ونهيا ووسيم ... حبس هذه البلاد أمير الجيوش بدر الجمالي على عقبه .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، جعل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه العادل أبي بكر بن أيوب ، وسلمه له في سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وأفرد لديوان الأسطول من الأبواب الديوانية الزكاة التي كانت تجبى من الناس بمصر ، والحبس الجيوشي بالبرين ، والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرظ ، وساحل السنط والمراكب الديوانية ، واشنا وطنتدى . وأحيل ورثة أمير الجيوش على غير الحبس الذي لهم . ثم أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، وقبضت النواحي ، وصارت من جملة أموال الخراج ، فعرفت ببلاد الملك .

وهذه الضواحي الآن منها ما هو وقف ، ومنها ما هو في الديوان السلطاني ، وخراجها

يتميز على غيرها من النواحى ، ويزرع أكثرها من الكتان والمقاثى وغيرها * .

ذكر منية الأمراء

قال ياقوت فى كتاب « المشترك » : المنية ثلاثة وأربعون موضعا ، وجميعها بمصر غير واحدة ، وبمصر من القرى المسماة بهذا الاسم ما يقارب المائتين .

قال : ومنية الشيرج — ويقال لها منية الأمير ، ومنية الأمراء — بليدة فيها أسواق على فرسخ من القاهرة فى طريق الاسكندرية .

وذكر الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة ، أن قتلى أهل الشام الذين قتلوا فى وقعة الخندق بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن جحدم أمير مصر ، فى سنة خمس وستين من الهجرة ، دفنوا حيث موضع منية الشيرج هذه ، وكانوا نحوا من الثمانمائة .

وقال ابن عبد الظاهر : منية الأمراء من الحبس الجيوشى الشرقى الذى كان حبسه أمير الجيوش ثم ارتجع . وفى كل سنة يأكل البحر منها جانبا ، ويجدد جامعها ودورها حتى صار جامعها القديم ودورها فى بر الجيزة ، وغلب البحر عليها .

وهذه المنية من محاسن متنزهات القاهرة . وكانت قد كثرت العمائر بها ، واتخذها الناس منزل قصف ودار لعب ولهو ومغنى صبابات ، وبها كان يعمل عيد الشهيد — الذى تقدم ذكره عند ذكر النيل من هذا الكتاب — لقربها من ناحية شبرا ، وبها سوق فى كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال ، وهو من أسواق مصر المشهورة ، وأكثر من كان يسكن بها النصارى .

وكانت تعرف بعصر الخمر وبيعه . حتى انه لما عظمت زيادة ماء النيل فى سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وكانت الغرقة المشهورة وغرقت شبرا والمنية ، تلف فيها من جرار الخمر ماينيف على ثمانين ألف جرة مملوءة بالخمر ، وباع نصرانى واحد مرة فى يوم عيد الشهيد بها خمرا باثنى عشر ألف درهم فضة : عنها يومئذ نحو الستمائة دينار ، وكسر منها الأمير يلبغا السالمى فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة ما ينيف على أربعين ألف جرة مملوءة بالخمر .

وما برحت تغرق فى الأنيال العالية الى أن عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، الجسر من بولاق الى المنية — كما ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب — فأمن أهلها من الغرق . وأدركناها عامرة بكثرة المساكن والناس والأسواق والمناظر ، وتقصد للنزهة بها أيام النيل والربيع ، لا سيما فى يومى الجمعة والأحد ، فانه كان للناس بها فى هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير .

ثم لما حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، ألح المناسر بالهجوم عليها فى الليل ، وقتلوا من أهلها عدة . فارتحل الناس منها ، وخلت أكثر دورها ، وتعطلت حتى لم يبق بها سوى طاحون واحدة لطحن القمح بعد ما كان بها ما ينيف على ثمانين طاحونة ، وبها الآن بقية . وهى جارية فى الديوان السلطانى المعروف بالمفرد .

(*) ص١٢٩ جـ٢ ، ط . بولاق .

ذكر كوم الريش

هذا اسم لبلد فيما بين أرض البعل ومنية الشيرج ، كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل ، وأدركت آثار الجروف باقية من غربى البعل وغربى كوم الريش الى أطراف المنية . حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة ، ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة ، ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة الى المنية ، فانقطع هذا الدرب وترك الناس سلوكه .

وكان كوم الريش من أجل متنزهات القاهرة ، ورغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها .

وأخبرنى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم الحنفى ، وخال أبى تاج الدين اسماعيل بن أحمد بن الخطباء ، أنهما أدركا بكوم الريش عدة أمراء يسكنون فيها دائما ، وأنه كان من جملة من يسكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السلطانى .

وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل ، لا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المآكل . وأدركت بها حماما وجامعين تقام بهما الجمعة ، وموقف مكارية ، ومنارة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهج .

وما برحت على ذلك الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة . فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع ، وجهلت طرقها ، وتغيرت معاهدها ، ونزل بها من الوحشة ما أبكانى ، وأنشدت فى رؤيتها عندما شاهدتها خرابا :

فقرا كأنك لم تكن تلهو بها
فى نعمة وأوانس أتراب

« وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد » .

ذكر بولاق

قد تقدم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس ، وأن الماء انحسر بعد سنة سبعين * وخمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل ، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى الى المقس ، وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة الا وهى تكثر ، حتى بقى ماء النيل لا يمر بها الا أيام الزيادة فقط ، وفى طول السنة ينبت هناك البوص والحلفاء ، وتنزل المماليك السلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال الرمل .

فلما كان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، رغب الناس فى العمارة بديار مصر ، لشغف السلطان الملك الناصر بها ومواظبته عليها ، فكأنما نودى فى القاهرة ومصر ألا يتأخر أحد من الناس عن انشاء عمارة ، وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء ، وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور ، يزرع فيها القصب والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل حيث جامع الخطيرى الآن .

فعمر هناك رجل من التجار منظرة ، وأحاط جدارا على قطعة أرض غرس فيها عدة أشجار وتردد اليها للنزهة . فلما مات انتقلت الى ناصر الدين محمد بن الجوكندار ، فعمر الناس

(*) ص ١٣٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

بجانبها دورا على النيل ، وسكنوا ورغبوا فى السكنى هناك ، فامتدت المناظر على النيل من الدار المذكورة الى جزيرة الفيل ، وتفاخروا فى انشاء القصور العظيمة هناك ، وغرسوا من ورائها البساتين العظيمة . وأنشأ القاضى ابن المغربى رئيس الأطباء بستانا ، اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو مائة ألف درهم فضة .

وكثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية ، وعمروها حتى انتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل من منية الشيرج الى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر ، وعمر فى العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق بحرى القاهرة الى منشاة المهرانى ، وبقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكارا عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها ، وبلغت بساتين جزيرة الفيل خاصة ما ينيف على مائة وخمسين بستانا بعد ما كانت فى سنة احدى عشرة وسبعمائة نحو العشرين بستانا .

وأنشأ القاضى الفاضل جلال الدين القزوينى وولده عبد الله دارا عظيمة على شاطىء النيل بجزيرة الفيل عند بستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، وأنشأ الأمير عز الدين الخطيرى جامعه ببولاق على النيل ، وأنشأ بجواره ربعين ، وأنشأ القاضى شرف الدين بن زنبور بستانا ، وأنشأ القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ناظر الجيش بستانا ، وحكر الناس حول هذه البساتين وسكنوا هناك .

ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فعمر الناس على جانبى هذا الخليج . وكان أول من عمر ، بعد حفر الخليج الناصرى ، المهاميزى أنشأ بستانا ومسجدا هما موجودان الى اليوم ، وتبعه الناس فى العمارة حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة ، وبقى من يمر بها يتعجب ، اذ ما بالعهد من قدم بينا هى تلال رمل وحلافى ، اذ صارت بساتين ومناظر وقصورا ومساجد وأسواقا وحمامات وأزقة وشوارع .

وفى ناحية بولاق هذه كان خص الكيالة الذى يؤخذ فيه مكس الغلة ، الى أن أبطله الملك الناصر محمد بن قلاوون كما ذكر فى الروك الناصرى من هذا الكتاب . ولما كانت سنة ست وثمانمائة انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ، ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن .

وناحية بولاق الآن عامرة ، وتزايدت العمائر بها ، وتجدد فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها .

ذكر ما بين بولاق ومنشاة المهرانى

وكان فيما بين بولاق ومنشاة المهرانى خط فم الخور ، وخط حكر ابن الأثير ، وخط زريبة قوصون ، وخط الميدان السلطانى بموردة الملح ، وخط منشاة الكتبة .

فأما فم الخور فكان فيه من المناظر الجليلة الوصف عدة تشرف على النيل ، ومن ورائها البساتين ، ويفصل بين البساتين والدور المطلة

على النيل شارع مسلوك ، وأنشىء هناك حمام وجامع وسوق . وقد تقدم ذكر الخور .

وأنشأ هناك القاضى علاء الدين بن الأثير دارا على النيل ، وكان اذ ذاك كاتب السر ، وبنى الناس بجواره ، فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير ، واتصلت العمارة من بولاق الى فم الخور ، ومن فم الخور الى حكر ابن الأثير . وما برح فيه من مساكن الأكابر من الوزراء والأعيان ومن الدور العظيمة مايتجاوز الوصف .

وأما الزريبة فان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لما وهب البستان الذى كان بالميدان الظاهرى للأمير قوصون ، أنشأ قدامه على النيل زريبة ووقفها . فعمر الناس هناك حتى انتظمت العمارة من حكر ابن الأثير الى الزريبة ، وعمر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق .

وأما زريبة السلطان فان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، لما عمر ميدان المهارى المجاور لقناطر السباع الآن ، أنشأ زريبة فى قبلى الجامع الطيبرسى * ، وحفر لأجل بناء هذه الزريبة البركة المعروفة الآن بالبركة الناصرية حتى استعمل طينها فى البناء ، وأنشأ فوق هذه الزيبة دار وكالة وربعين عظيمين : جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس ، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى ، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين : احداهما برسم الرجال ، والأخرى برسم النساء .

فكثر بناء الناس فيما هناك حتى اتصلت العمارة من بحرى الجامع الطيبرسى بزريبة قوصون ، وصار هناك أزقة وشوارع ودروب ومساكن من وراء المناظر المطلة على النيل تتصل بالخليج ، وأكثر الناس من البناء فى طريق الميدان السلطانى ، فصارت العمائر منتظمة من قناطر السباع الى الميدان من جهاته كلها ، وتنافس الناس فى تلك الأماكن ، وتغالوا فى أجرها .

وعمر المكين ابراهيم بن قزوينة ناظر الجيش فى قبلى زريبة السلطان — حيث كان بستان الخشاب — دارا جليلة ، وعمر أيضا صلاح الدين الكحال ، والصاحب أمين الدين عبد الله ابن الغنام ، وعدة من الكتاب ، فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب ، وأنشأ فيها الصاحب أمين الدين خانقاه بجوار داره ، وعمر أيضا كريم الدين الصغير حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهرانى .

فصار ساحل النيل من خط دير الطين قبلى مدينة مصر الى منية الشيرج بحرى القاهرة : مسافة لا تقصر عن أزيد من نصف بريد بكثير ... كلها منتظمة بالمناظر العظيمة ، والمساكن الجليلة ، والجوامع والمساجد ، والخوانك والحمامات ، وغيرها من البساتين . لا تجد فيما بين ذلك خرابا ألبتة .

وانتظمت العمارة من وراء الدور المطلة على النيل حتى أشرفت على الخليج . فبلغ هذا البر الغربى من وفور العمارة ، وكثرة الناس ، وتنافسهم فى الاقبال على اللذات ، وتأنقهم فى الانهماك فى المسرات ، ما لا يمكن وصفه ولا يتأتى شرحه .

(*) ص١٣١ جـ٢ ، ط. بولاق (٥)

حتى اذا بلغ الكتاب أجله ، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، وتقلص ماء النيل عن البر الشرقى ، وكثرت حاجات الناس وضروراتهم ، وتساهل قضاة المسلمين فى الاستبدال فى الأوقاف وبيع نقضها ... اشترى شخص الربعين والحمامين ودار الوكالة التى ذكرت على زربية السلطان بجوار الجامع الطيبرسى فى سنة سبع وثمانمائة ، وهدم ذلك كله ، وباع أنقاضه ، وحفر الأساسات ، واستخرج ما فيها من الحجر وعمله جيرا ، فنال من ذلك ربحا كثيرا .

وتتابع الهدم فى شاطىء النيل ، وباع الناس أنقاض الدور ، فرغب فى شرائها الأمراء والأعيان وطلاب الفوائد من العامة . حتى زال جميع ما هنالك من الدور العظيمة والمناظر الجليلة ، وصار الساحل — من منشأة المهرانى الى قريب من بولاق — كيمانا موحشة وخرائب مقفرة . كأن له تكن مغنى صبابات ، وموطن أفراح ، وملعب أتراب ، ومرتع غزلان تفتن النساك هناك ، وتعيد الحليم سفيها ... « سنة الله فى الذين خلوا من قبل »

وانى اذا تذكرت ما صارت اليه ، آنشد قول عبد الله بن المعتز :

سلام على تلك المعاهد والربا
سلام وداع لا سلام قدوم

وصار بهذا العهد ما بين أول بولاق من قبليه الى أطراف جزيرة الفيل عامرا : من غربيه المفضى الى النيل ، ومن شرقيه الذى ينتهى الى الخليج . الا أن النيل قد نشأت فيه جزائر ورمال بعد بها الماء عن البر الشرقى ، وكثر العناء لبعده ، وفى كل عام تكثر الرمال ويبعد الماء عن البر . ولله عاقبة الأمور .

فهذا حال الجهة الغربية من ظواهر القاهرة فى ابتداء وضعها والى وقتنا هذا ، وبقى من ظواهر القاهرة الجهة القبلية والجهة البحرية ، وفيهما أيضا عدة أخطاط تحتاج الى شرح وتبيان . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خارج باب زويلة

اعلم أن خارج باب زويلة جهتان : جهة تلى الخليج ، وجهة تلى الجبل . فأما الجهة التى تلى الخليج فقد كانت عند وضع القاهرة بساتين كلها فيما بين القاهرة الى مصر . وعندى فيما ظهر لى آن هذه الجهة كانت فى القديم غامرة بماء النيل ، وذلك أنه لا خلاف بين أهل مصر قاطبة أن الأراضى التى هى من طين ابليز لا تكون الا من أرض ماء النيل .

فان أرض مصر تربة رملة سبخة ، وما فيها من الطين طرح بعلوها عند زيادة مائة النيل ، مما يحمله من البلاد الجنوبية من مسيل الأودية ، فلذلك يكون لون الماء عند الزيادة متغيرا ، فاذا مكث على الأرض قعد ما كان فى الماء من الطين على الأرض ، فسماه أهل مصر ابليز ، وعليه تزرع الغلال وغيرها ، وما لا يشمله ماء النيل من الأرض لا يوجد فيه هذا الطين ألبتة .

وأنت ان عرفت أخبار مصر بتأملك ما تضمنه هذا الكتاب ، ظهر لك أن موضع جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه كان كروما مشرفة على النيل ، وأن النيل انحسر بعد

الفتح عما كان تجاه الحصن الذى يقال له قصر الشمع وعما هو الآن تجاه الجامع . وما زال ينحسر شيئا بعد شيء حتى صار الساحل بمصر من عند سوق * المعاريج الآن الى قريب من السبع سقايات . وجميع الأراضى التى فيها الآن المراغة خارج مصر الى نحو السبع سقايات ، وما يقابل ذلك من بر الخليج الغربى ، كان غامرا بالماء كما تقدم .

وكان فى الموضع الذى تجاه المشهد المعروف بزيد — وتسميه العامة الآن مشهد زين العابدين — بساتين شرقيها عند المشهد النفيسى ، وغربيها عند السبع سقايات : منها بساتين عرفت بجنان بنى مسكين ، وعندها بنى كافور الاخشيدى داره على البركة التى تجاه الكبش ، وتعرف اليوم ببركة قارون . ومنها بستان يعرف ببستان ابن كيسان ، ثم صار صاغة ، وهو الآن يعرف ببستان الطواشى . ومنها بستان عرف آخرا بجنان الحارة ، وهو من حوض الدمياطى الذى بقرب قنطرة السد الآن الى السبع سقايات ، وبقرب السبع سقايات بركة الفيل .

ويشرف على بركة الفيل بساتين من دائرها ، والى وقتنا هذا عليها بستان يعرف بالحبانية ، وهم بطن من درما بن عمرو بن عوف بن ثعلبة ابن سلامان بن يعل بن عمرو بن الغوث بن طى ، فدرما فخذ من طى ، والحبانيون بطن من درما . وبستان الحبانية فصل الناس بينه وبين البركة بطريق تسلك فيها المارة .

وكان من شرقى بركة الفيل أيضا بساتين . منها بستان سيف الاسلام فيما بين البركة والجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل ، وموضعه الآن المساكن التى من جملتها درب ابن البابا الى زقاق حلب وحوض ابن هنس . وعدة بساتين أخر الى باب زويلة .

وكذلك شقة القاهرة الغربية كانت أيضا بساتين . فموضع حارة الوزيرية الى الكافورى كان ميدان الاخشيد ، وبجانب الميدان بستانه الذى يقال له اليوم الكافورى . وما خرج عن باب الفتوح الى منية الاصبغ ، الذى يعرف اليوم بالخندق ، كان ذلك كله بساتين على حافة الخليج الشرقية . وقد ذكرت هذه المواضع فى هذا الكتاب مبينة .

وعند التأمل يظهر أن الخليج الكبير ، عند ابتداء حفره ، كان أوله اما عند مدينة عين شمس أو من بحريها ، لأجل أن القطعة التى بجانب هذا الخليج من غربيه ، والقطعة التى هى بشرقيه — فيما بين عين شمس وموردة الحلفاء خارج مدينة فسطاط مصر — جميعها طين ابليز .

والطين المذكور لا يكون الا من حيث يمر ماء النيل ، فتعين أن ماء النيل كان فى القديم على هذه الأرض التى بجانبى الخليج ، فينتج أن أول الخليج كان عند آخر النيل من الجهة البحرية . وينتهى الطين الى نحو مدينة عين شمس من الجانب الشرقى ، ويصير ما بعد الخندق فى الجهة البحرية رملا لا طين فيه . وهذا بين لمن تأمله وتدبره .

وفى هذه الجهة التى تلى الخليج ، خارج باب زويلة ، حارات قد ذكرت عند ذكر

(*) ص١٣٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

الحارات من هذا الكتاب ، وبقيت هناك أشياء نحتاج أن نعرف بها وهي :

« حوض ابن هنس » : وهو حوض ترده الدواب ، وينقل اليه الماء من بئر ، وبه صارت تلك الخطة تعرف . وهي تلي حارة حلب ، ويسلك اليها من جانبه .

وهو وقف الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس بن عبد الله ، أحد الحجاب الخاص في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، في سلخ شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة ، وعمل بأعلاه مسجدا مرتفعا وساقية ماء على بئر معين . ومات يوم السبت عاشر شوال سنة سبع وأربعين وستمائة ، ودفن بجوار الحوض .

وكان هذا الحوض قد تعطل في عصرنا . فجدده الأمير تتر ، أحد الأمراء الكبار في الدولة المؤيدية ، في سنة احدى وعشرين وثمانمائة . ومات هنس أمير جندار السلطان الملك العزيز عثمان في سنة احدى وتسعين وخمسمائة .

« مناظر الكبش » : هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر ، بجوار الجامع الطولوني ، مشرفة على البركة ، التي تعرف اليوم ببركة قارون ، عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون . أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في أعوام بضع وأربعين وستمائة .

وكان حينئذ ليس على بركة الفيل بناء ، ولا في المواضع التي في بر الخليج الغربي من قنطرة السباع الى المقس سوى البساتين ، وكانت الأرض التي من صليبة جامع ابن طولون الى باب زويلة بساتين ، وكذلك الأرض التي من قناطر السباع الى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها الا البساتين .

وهذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر ، وترى باب زويلة والقاهرة ، وترى باب مصر ومدينة مصر ، وترى قلعة الروضة وجزيرة الروضة ، وترى بحر النيل الأعظم وبر الجيزة . فكانت من أجل متنزهات مصر ، وتأنق في بنائها وسماها الكبش ، فعرفت بذلك الى اليوم .

وما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملوكية ، وبها أنزل الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي لما وصل من بغداد الى قلعة الجبل ، وبايعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالخلافة ، فأقام بها مدة ، ثم تحول منها الى قلعة الجبل . وسكن بمناظر الكبش أيضا الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان في أول خلافته .

وفيها أيضا كانت ملوك حماه من بني أيوب تنزل عند قدومهم الى الديار المصرية . وأول من نزل منهم فيها الملك المنصور * لما قدم على الملك الظاهر بيبرس في المحرم سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، ومعه ابنه الملك الأفضل نور الدين علي ، وابنه الملك المظفر تقي الدين محمود . فعندما حل بالكبش أتاه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني بالسماط ، فمده بين يديه ، ووقف كما يفعل بين يدي الملك

(*) ص١٣٢ جـ٢ ، ط. بولاق .

الظاهر . فامتنع الملك المنصور من الرضا بقيامه على السماط وما زال به حتى جلس . ثم وصلت الخلع والمواهب اليه والى ولده وخواصه .

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، أنزل بهذه المناظر نحو ثلثمائة من مماليك الأشرف خليل ابن قلاوون ، عندما قبض عليهم بعد قتل الأشرف المذكور .

ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون هدم هذه المناظر المذكورة فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، وبناها بناء آخر ، وأجرى الماء اليها ، وجدد بها عدة مواضع ، وزاد فى سعتها ، وأنشأ بها اصطبلا تربط فيه الخيول .

وعمل زفاف ابنته على ولد الأمير أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، بعد ما جهزها جهازا عظيما : منه بشخاناه ، وداير بيت ، وستارات ... طرز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى ، سوى ما فيه من الحرير وأجرة الصناع . وعمل سائر الأوانى من ذهب وفضة ، فبلغت زنة الأوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب . وتناهى فى هذا الجهاز ، وبالغ فى الانفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة ، فانها كانت أول بناته .

ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل ، وصعد الى الكبش وعاينه ورتبه بنفسه ، واهتم فى عمل العرس اهتماما ملوكيا ، وألزم الأمراء بحضوره . فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور ، ونقط الأمراء الأغانى على مراتبهم من أربعمائة دينار كل أمير الى مائتى دينار ، سوى الشقق الحرير .

واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها . فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه ، حتى حصل لكل جوقة من جوق الأغانى اللاتى كن فيه خمسمائة دينار مصرية ، ومائة وخمسون شقة حرير . وكان عدة جوق الأغانى التى قسم عليهن ثمان جوق من أغانى القاهرة ، سوى جوق الأغانى السلطانية وأغانى الأمراء ، وعدتهن عشرون جوقة ، لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقة من كثرة ما حصل .

ولما انقضت أيام العرس ، أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها ، وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والكتاب وغيرهم . فكان مهما عظيما تجاوز المصروف فيه حد الكثرة .

وسكن هذه المناظر أيضا الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون ، وعمر الباب الذى هو موجود الآن وبدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة .

ثم ان الأمير يلبغا العمرى ، المعروف بالخاصكى ، سكنه الى أن قتل فى سنة ثمان وستين وسبعمائة . فسكنه من بعده الأمير استدمر ، الى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وأمر بهدم الكبش . فهدم وأقام خرابا لا ساكن فيه الى سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، فحكره الناس ، وبنوا فيه مساكن ، وهو على ذلك الى اليوم .

« خطب درب ابن البــابا » : هذا الخط يتوصل اليه من تجاه المدرســة البندقدارية بجوار حمام الفارقانى ، ويسلك فيه الى خط واسع يشــتمل على عدة مســاكن جليــلة ، ويتوصل منه الى الجــامع الطولونى وقناطر السباع وغير ذلك .

وكان هذا الخط بســتانا يعرف ببســتان أبى الحســين بن مرشــد الطائى ، ثم عرف ببستان نامش ، ثم عرف أخيرا ببستان سيف الاسلام طفتكين بن أيوب . وكان يشرف على بركة الفيل ، وله دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر الى الجهات الأربع .

ويقابله — حيث الدرب الآن ، المدرســة البندقدارية وما فى صفها الى الصليبــة — بستان يعرف ببســتان الوزير ابن المغربى ، وفيه حمام مليحة . ويتصل ببستان ابن المغربى بستان عرف أخيرا ببستان شجر الدر ، وهو حيث الآن سكن الخلفاء بالقرب من المشــهد النفيسى . ويتصل ببستان شجر الدر بساتين الى حيث الموضع المعروف اليوم بالكبارة من مصر .

ثم ان بستان سيف الاسلام حــكره أمير يعرف بعلم الدين الغنمى . فبنى الناس فيــه الدور فى الدولة التركية ، وصار يعرف بحكر الغنمى ، وهو الآن يعرف بدرب ابن البابا .

وهو الأمير الجليل الكبير جنكلى بن محمد ابن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد الله بدر الدين العجلى ، رأس الميمنة ، وكبير الأمراء الناصرية — محمد بن قلاوون — بعد الأمير جمال الدين نائب الكرك . قدم الى مصر فى أوائل سنة أربع وسبعمائة ، بعدما طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ورغبه فى الحضور الى الديار المصرية ، وكتب له منشور باقطاع جيد ، وجهزه اليه . فلم يتفق حضوره الا فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان مقامه بالقرب من آمد ، فأكرمه وعظمه وأعطاه امرة .

ولم يزل مكرما معظما . وفى آخر وقتــه — بعــد خروج الأمير أرغون النــائب من مصر — كان السلطان يبعث اليه الذهب مع الأمير بكتمر الســاقى وغيره ، ويقول له : لا تبس الأرض على هذا ، ولا تنــزله فى ديوانك . وكان أولا يجلس رأس الميمنة ... ثانى نائب الكرك . فلما ســار نائب الكرك لنيابة طرابلس ، جلس الأمير جنكلى رأس * الميمنة ، وزوج السلطان ابنــه ابراهيم بن محمد بن قلاوون بابنة الأمير بدر الدين .

وما زال معظما فى كل دولة . بحيث أن الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون كتب له عنه « الأتابكى الوالدى البدرى » ، وزادت وجاهته فى أيامه الى أن مات يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة ســنة ســت وأربعين وسبعمائة .

وكان شكلا مليحا حليما ، كثير المعروف والجود ، عفيفــا لا يســتخدم مملوكا أمرد ألبتة ، واقتصر من النســاء على امرأته التى قدمت معه الى مصر ومنها أولاده . وكان يحب العلم وأهله ، ويطارح بمسائل علمية ، ويعرف ربع العبادات ويجيده ، ويتكلم على الخلاف فيه ، ويميل الى الشيخ تقى الدين أحمد بن

(*) ص ١٣٤ ، جـ٢ ، ط.بولاق .

تيمية ، ويعادى من يعاديه ، ويكرم أصحابه ويكتب كلامه ، مع كثرة الاحسان الى الناس بماله وجاهه . وكان يتنسب الى ابراهيم بن أدهم ، وهو من محاسن الدولة التركية ، رحمه الله .

« حكر الخازن » : هذا المكان ، فيما بين بركة الفيل وخط الجامع الطولونى ، كان من جملة البساتين ، ثم صار اصطبلا للجوق الذى فيه خيول المماليك السلطانية . فلما تسلطن الملك العادل كتبغا أخرج منه الخيول ، وعمله ميدانا يشرف على بركة الفيل فى سنة خمس وتسعين وستمائة ، ونزل اليه ولعب فيه بالأكرة أيام سلطنته كلها ... الى أن خلعه الملك المنصور لاجين ، وقام فى الملك من بعده ، فأهمل أمره..

وعمر فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة بيتا ، فعرف من حينئذ بحكر الخازن ، وتبعه الناس فى البناء هناك ، وأنشأوا فيه الدور الجليلة . فصار من أجل الأخطاط وأعمرها ، وأكثر من يسكن به الأمراء والمماليك .

« سنجر الخازن » : الأمير علم الدين الأشرفى ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، وتنقل فى أيام ابنه الملك الأشرف خليل ، وصار أحد الخزان فعرف بالخازن . ثم ولى شد الدواوين مع الصاحب أمين الدين ، وانتقل منها الى ولاية البهنسا ، ثم الى ولاية القاهرة وشد الجهات . فباشر ذلك بعقل وسياسة وحسن خلق ، وقلة ظلم ومحبة للستر وتغافل عن مساوىء الناس ، واقالة عثرات ذوى الهيئات ، مع العصبية والمعرفة وكثرة المال وسعة الحال واقتناء الأملاك الكثيرة .

ثم انه صرف عن ولاية القاهرة بالأمير قدادار فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، فوجد الناس من عزله بقدادار شدة . وما زال بالقاهرة الى أن مات ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، فوجد له أربعة عشر ألف اردب غلة عتيقة وأموال كثيرة ، وله من الآثار مسجد بناه فوق درب استجده بحكر الخازن ، وخانقاه بالقرافة دفن فيها ، عفا الله عنه .

« ربع البزادرة » : هذا الربع تحت قلعة الجبل بسوق الخيل . عمر بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان مكانه لا عمارة فيه ، فبنى الأجناد بجواره عدة مساكن ، واستجدوا حكرين من جواره . فامتدت العمائر الى تربة شجر الدر — حيث كان البستان المعروف بشجر الدر — وهناك الآن سكن الخلفاء . وامتدت العمائر من تربة شجر الدر الى المشهد النفيسى ، ومروا من تجاه المشهد بالعمائر الى أن اتصلت بعمائر مصر وباب القرافة .

« خط قناطر السباع » : كان هذا الخط فى أول الاسلام يعرف بالحمراء ، نزل فيه طائفة تعرف ببنى الأزرق وبنى روبيل . ثم دثرت هذه الخطة ، وبقيت صحراء فيها ديارات وكنائس للنصارى تعرف بكنائس الحمراء . فلما زالت دولة بنى أمية ، ودخل أصحاب بنى العباس الى مصر فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، نزلوا فى هذه الخطة ، وعمروا

بها فصارت تتصل بالعسكر . وقد تقدم خبر العسكر فى هذا الكتاب .

فلما خرب العسكر ، وصار هذا المكان بساتين وغيرها . الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية ، وأنشأ ميدان المهارى والزريبة والربعين بجوار الجامع الطيبرسى على شاطىء النيل ، بنى الناس فى حكر أقبغا ، واتصلت العمائر من خط السبع سقايات وخط قناطر السباع حتى اتصلت بالقاهرة ومصر والقرافة ، وذلك كله من بعد سنة عشرين وسبعمائة .

« بئر الوطاويط » : هذه البئر أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر ابن الفرات — المعروف بابن خترابة — لينقل منها الماء الى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء ، وكتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الشكر وله الحمد ، ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات ، وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها الى السبع سقايات التى أنشأها ، وحبسها لجميع المسلمين ، وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشىء من مائه ، ولا ينقل ولا يبطل ، ولا يساق الا الى حيث مجراه الى السقايات المسبلة ، فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم . وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » *

فلما طال الأمر خربت السقايات ، والى اليوم يعرف موضعها بخط السبع سقايات ، وبنى فوق البئر المذكورة ، وتولد فيها كثير من الوطاويط ، فعرفت ببئر الوطاويط * .
ولما أكثر الناس من بناء الأماكا ، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، عمر هذا المكان ، وعرف الى اليوم بخط بئر الوطاويط . وهو خط عامر ...

فهذا ما فى جهة الخليج مما خرج عن باب زويلة .

وأما جهة الجبل فانها كانت عند وضع القاهرة صحراء . وأول من أعلم أنه عمر خارج باب زويلة من هذه الجهة الصالح طلائع بن رزيك ، فانه أنشأ الجامع الذى يقال له جامع الصالح ، ولم يكن بين هذا الجامع وبين هذا الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل بناء ألبتة .

الا أن هذا الموضع الآن عمل الناس فيه مقبرة ، فيما بين جامع الصالح وبين هذا الشرف ، من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة . فلما عمرت قلعة الجبل ، عمر الناس بهذه الجهة شيئا بعد شىء ، وما برح من بنى هناك يجد عند الحفر رمم الأموات .

وقد صارت هذه الجهة فى الدولة التركية — لا سيما بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة — من أعمر الأخطاط ، وأنشأ فيها الأمراء الجوامع والدور الملوكية ، وتجددت هناك عدة أسواق ، وصار الشارع خارج باب زويلة يفصل بين هذه الجهة وبين الجهة التى من حد الخليج . وكلتا هاتين الجهتين الآن عامرة .

(*) ص١٣٥ جـ٢ ، طـ بولاق *

وفي جهة الجبل خط البسطيين ، وخط الدرب الأحمر ، وخط سوق الغنم ، وخط جامع الماردينى ، وخط التبانة ، وخط باب الوزير ، وخط المصنع ، وخط سويقة العزى ، وخط مدرسة الجابى ، وخط الرميلة ، وخط القبيبات ، وخط باب القرافة .

ذكر خارج باب الفتوح

اعلم أن خارج باب الفتوح الى الخندق كان كله بساتين ، وتمتد البساتين من الخندق بحافتى الخليج الى عين شمس . فيقابل باب الفتوح من خارجه المنظرة ، المقدم ذكرها عند ذكر المناظر التى كانت للخلفاء من هذا الكتاب ، ويلى هذه المنظرة بستان كبير عرف بالبستان الجيوشى ، أوله من عند زقاق الكحل الى المطرية . ويقابله فى بر الخليج الغربى بستان آخر يتوصل اليه من باب القنطرة ، وينتهى الى الخندق . وقد ذكر خبر هذين البساتين عند ذكر مناظر الخلفاء .

وكان بين هذين البستانين بستان الخندق ، وكان على حافة الخليج من شرقيه ، فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة — حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق وبالكداسين — الى قريب من حارة بهاء الدين حارة ، تعرف بحارة البيازرة ، اختطت فى نحو من سنة عشرين وخمسمائة ، وكانت مناظرها تشرف على الخليج ، وبجوارها بستان مختار الصقلبى ، وعرف بعد ذلك ببستان ابن صيرم الذى حكر ، وبنيت فيه المساكن الكثيرة بعد ذلك .

وكان أيضا خارج باب الفتوح حارة الحسينية ، وهم الريحانية احدى طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين ، وهذه الحارة اختطت بعد الشدة العظمى التى كانت بمصر فى خلافة المستنصر ، فصارت على يمين من خرج من باب الفتوح الى صحراء الهليلج . ويقابلها حارة أخرى تنتهى الى بركة الأرمن التى عند الخندق ، وتعرف اليوم ببركة قراجا ، وقد ذكرت هذه الحارات عند ذكر حارات القاهرة وظواهرها من هذا الكتاب .

ذكر الخندق

هذا الموضع قرية خارج باب الفتوح كانت تعرف أولا بمنية الأصبغ . ثم لما اختط القائد جوهر القاهرة أمر المغاربة أن يحفروا خندقا ، من جهة الشام من الجبل الى الابليز ، عرضه عشرة أذرع فى عمق مثلها . فبدىء به يوم السبت حادى عشرى شعبان سنة ستين وثلثمائة ، وفرغ فى أيام يسيرة .

وحفر خندقا آخر قدامه وعمقه ، ونصب عليه بابا يدخل منه — وهو الباب الذى كان على ميدان البستان الذى للاخشيد — وقصد أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق ، فقيل له من حينئذ الخندق ، وخندق العبيد ، والحفرة . ثم صار بستانا جليلا من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وأدركناها من متنزهات القاهرة البهجة الى أن خربت .

قال ابن عبد الحكم : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقطع ابن سندر منية الأصبغ ،

فحاز لنفسه منها ألف فدان . كما حدثنا يحيى بن خالد ، عن الليث بن سعد رضى الله عنه ، ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر ، الا ابن سندر فانه أقطعه منية الأصبغ ، فلم تزل له حتى مات ، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز من ورثته ، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل .

وكان سبب اقطاع عمر رضى الله عنه ما أقطعه من ذلك — كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده — أنه كان لزنباع بن روح الجذامى غلام يقال له سندر ، فوجده يقبل جارية له ، فجبه وجدع أنفه وأذنه .

فأتى سندر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى زنباع فقال : « لا تحملوهم من العمل ما لا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، فان رضيتم * فأمسكوا ، وان كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله . ومن مثل به أو أحرق بالنار فهو حر ، وهو مولى الله ورسوله » .

فأعتق سندر ، فقال : أوص بى يارسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصى بك كل مسلم » .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى سندر أبابكر رضى الله عنه فقال : احفظ فىَّ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعاله أبو بكر رضى الله عنه حتى توفى .

(*) ص١٣٦ جـ٢ ، طـ بولاق .

ثم أتى عمر رضى الله عنه فقال : احفظ فىَّ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر رضى الله عنه : نعم ان رضيت أن تقيم عندى أجريت عليك ما كان يجرى عليك أبو بكر رضى الله عنه ، والا فانظر أى موضع أكتب لك .

فقال سندر : مصر لأنها أرض ريف .

فكتب له الى عمرو بن العاص « احفظ فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فلما قدم الى عمرو رضى الله عنه ، أقطع له أرضا واسعة ودارا . فجعل سندر يعيش فيها ، فلما مات قبضت فى مال الله تعالى .

قال عمرو بن شعيب : ثم أقطعها عبد العزيز ابن مروان الأصبغ بعد ، فهى من خير أموالهم ... قال : ويقال سندر وابن سندر .

وقال ابن يونس : مسروح بن سندر الخصى مولى زنباع بن روح بن سلامة الجذامى ، يكنى أبا الأسود ، له صحبة . قدم مصر بعد الفتح بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالوصاة ، فأقطع منية الأصبغ بن عبد العزيز . روى عنه أهل مصر حديثين ، روى عنه مزيد ابن عبد الله البرنى ، وربيعة بن لقيط التجيبى .

ويقال سندر الخصى ، وابن سندر أثبت ، توفى بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان . ويقال كان مولاه وجده يقبل جارية له ، فجبه وجدع أنفه وأذنيه ، فأتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا ذلك اليه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زنباع فقال : « لا تحملوهم (يعنى العبيد) ما لا يطيقون ،

وأطعموهم مما تأكلون ... » فذكر الحديث بطوله .

وذكر عن عثمان بن سويد بن سندر ، أنه أدرك مسروح بن سندر الذى جدعه زنباع بن روح — وكان جده لأمه — فقال : كان ربما تغدى معى بموضع من قرية عثمان ، واسمها سمسم . وكان لابن سندر الى جانبها قرية يقال لها « قلون » قطيعة ، وكان له مال كثير من رقيق وغير ذلك ، وكان ذا دهاء منكرا جسيما ، وعمر حتى أدرك زمان عبد الملك بن مروان ، وكان لروح[1] بن سلامة أبى زنباع ، فورثه أهل التعدد بروح يوم مات .

وقال القضاعى : مسروح بن سندر الخصى — ويكنى أبا الأسود — له صحبة ، ويقال له سندر ، دخل مصر بعد الفتح سنة اثنتين وعشرين .

وقال الكندى فى كتاب « الموالى » ، قال : أقبل عمرو بن العاص رضى الله عنه يوما يسير وابن سندر معه ، فكان ابن سندر ونفر معه يسيرون بين عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وأثاروا الغبار . فجعل عمرو عمامته على طرف أنفه ، ثم قال : اتقوا الغبار فانه أوشك شىء دخولا وأبعده خروجا ، واذا وقع على الرئة صار نسمة .

فقال بعضهم لأولئك النفر : تنحوا . ففعلوا الا ابن سندر ، فقيل له : ألا تتنحى يا ابن سندر ؟ فقال عمرو : دعوه ، فان غبار الخصى لا يضر .

فسمعها ابن سندر فغضب ، وقال : أما والله لو كنت من المؤمنين ما آذيتنى .

فقال عمرو : يغفر الله لك ، أنا بحمد الله من المؤمنين .

فقال ابن سندر : لقد علمت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوصى بى ، فقال أوصى بك كل مؤمن .

وقال ابن يونس : أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يكنى أبا ريان . حكى عنه أبو حبرة عبد الله بن عباد المغافرى ، وعون ابن عبد الله وغيره . توفى ليلة الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين قبل أبيه .

وقال أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى فى كتاب « الأغانى الكبير » : عن الرياشى قال عن سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام : ان أبا عذرتها عبد الله بن الحسن بن على ، ثم خلفه عليها العثمانى ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان .

قال : وكان يتولى مصر ، فكتبت اليه سكينة « ان مصر أرض وخمة » ، فبنى لها مدينة تسمى بمدينة الأصبغ . وبلغ عبد الملك تزوجه اياها ، فنفس بها عليه ، وكتب اليه « اختر مصر أو سكينة » ، فبعث اليه بطلاقها ، ولم يدخل بها ، ومتعها بعشرين ألف دينار .

قلت فى هذا الخبر أوهام : منها أن الأصبغ لم يل مصر ، وانما كان مع أبيه عبد العزيز ابن مروان . ومنها أن الذى بناه الأصبغ لسكينة منية الأصبغ هذه وليست مدينة .

(١) قوله « وكان لروح .. الخ » هكذا فى النسخ ، وفى بعضها « أهل البعدد » بالتحية . وانظر مامعنى هذه العبارة . اهـ .

ومنها ان الاصبغ لم يطلق سكينة ، وانما مات عنها قبل أن يدخل عليها .

وقال ابن زولاق فى كتاب « اتمام كتاب الكندى فى أخبار أمراء مصر » : وفى شوال (يعنى من سنة ستين وثلثمائة) كثر الارجاف بوصول القرامطة الى الشام ورئيسهم الحسن ابن محمد الأعسم .

وفى هذا الوقت ورد الخبر بقتل جعفر بن فلاح ... قتله القرامطة بدمشق . ولما قتل ملكت القرامطة دمشق ، وصاروا الى الرملة ، فانحاز معاذ بن حيان الى يافا متحصنا بها .

وفى هذا الوقت تأهب جوهر القائد لقتال القرامطة ، وحفر خندقا وعمل عليه بابا ، ونصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الاخشيد ، وبنى القنطرة على الخليج ، وحفر خندق السرى بن * الحكم ، وفرق السلاح على رجال المغاربة والمصريين ، ووكل بأبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات خادما يبيت معه في داره ويركب معه حيث كان ، وأنفذ الى ناحية الحجاز فتعرف خبر القرامطة .

وفى ذى الحجة كبس القرامطة القلزم ، وأخذوا واليها .

ثم دخلت سنة احدى وستين وثلثمائة ، وفى المحرم بلغت القرامطة عين شمس . فاستعد جوهر للقتال لعشر بقين من صفر ، وغلق أبواب الطابية ، وضبط الداخل والخارج ، وأمر الناس بالخروج اليه ، وأن يخرج الأشراف كلهم ، فخرج اليه أبو جعفر مسلم وغيره بالمضارب .

(*) ص١٣٧ جـ٢ ، طـ بولاق .

وفى مستهل ربيع الأول التحم القتال مع القرامطة على باب القاهرة وكان يوم جمعة ، فقتل من الفريقين جماعة وأسر جماعة ، وأصبحوا يوم السبت متكافئين . ثم غدوا يوم الأحد للقتال ، وسار الحسن الأعسم بجميع عساكره ، ومشى للقتال على الخندق والباب مغلق . فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل خلق كثير ، ثم ولى الأعسم منهزما ، ولم يتبعه القائد جوهر . ونهب سواد الأعسم بالجب ، ووجدت صناديقه وكتبه ، وانصرف فى الليل على طريق القلزم ، ونهب بنو عقيل وبنو طى كثيرا من سواده وهو مشغول بالقتال .

وكان جميع ما جرى على القرمطى بتدبير جوهر وجوائز أنفذها ، ولو أراد أخذ الأعسم فى انهزامه لأخذه ، ولكن الليل حجز فكره جوهر اتباعه خوفا من الحيلة والمكيدة ، وحضر القتال خلق من رعية مصر ، وأمر جوهر بالنداء فى المدينة : من جاء بالقرمطى أو برأسه فله ثلثمائة ألف درهم ، وخمسون خلعة ، وخمسون سرجا محلى على دوابها ، وثلاث جوائز .

ومدح بعضهم القائد جوهرا بأبيات منها :

كأن طراز النصر فوق جبينه
يلوح ، وأرواح الورى بيمينه

ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة . ومنها فارقهم من كان قد اجتمع اليهم من الكافورية والاخشيدية ، فقبض جوهر على نحو الألف منهم وسجنهم مقيدين .

وقال ابن زولاق فى كتاب « سيرة الامام المعز لدين الله » ومن خطه نقلت : وفى هذا الشهر (يعنى المحرم سنة ثلاث وستين وثلثمائة) تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة والمغاير وما قاربها ، فنزلوا فى الدور ، وأخرجوا الناس من دورهم ، ونقلوا السكان ، وشرعوا فى السكنى فى المدينة ، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة . فخرج الناس واستغاثوا بالمعز ، فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس .

وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع التى ينزلون فيها ، وأمر لهم بمال يبنون به — وهو الموضع الذى يعرف اليوم بالخندق والحفرة وخندق العبيد — وجعل لهم واليا وقاضيا ، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر . ولم يكن القائد جوهر يبيحهم سكنى المدينة ولا المبيت بها ، وحظر ذلك عليهم ، وكان مناديه ينادى كل عشية : لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة .

وقال ياقوت : منية الأصبغ تنسب الى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولا يعرف اليوم بمصر موضع يعرف بهذا الاسم ، وزعموا أنها القرية المعروفة بالخندق قريبا من شرق القاهرة .

وقال ابن عبد الظاهر : الخندق هو منية الأصبغ . وهو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

قال مؤلفه رحمه الله : وقد وهم ابن عبد الظاهر فجعل أن الخندق احتفره العزيز بالله ، وانما احتفره جوهر كما تقدم . وأدركت الخندق قرية لطيفة يبرز الناس من القاهرة اليها ليتنزهوا بها فى أيام النيل والربيع ، ويسكنها طائفة كبيرة ، وفيها بساتين عامرة بالنخيل الفخر والثمار ، وبها سوق وجامع تقام به الجمعة وعليه قطعة أرض من أرض الخندق يتولاها خطيبه .

فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة خربت قرية الخندق ، ورحل أهلها منها ، ونقلت الخطبة من جامعه الى جامع بالحسينية ، وبقى معطلا من ذكر الله تعالى واقامة الصلاة مدة . ثم فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة هدمه الأمير طوغان الدوادار ، وأخذ عمده وخشبه ، فلم يبق الا بقية أطلاله . وكانت قرية الخندق كأنها من حسنها ضرة لكوم الريش ، وكانت تجاهها من شرقيها ، فخربتا جميعا .

« صحراء الأهليلج » : هذه البقعة شرقى الخندق فى الرمل ، واليها كانت تنتهى عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الأهليلج الهندى فعرفت بذلك . وأظن أن هذا الأهليلج كان من جملة بستان ريدان الذى يعرف اليوم بالريدانية .

ذكر خارج باب النصر

أما خارج القاهرة من جهة باب النصر فانه ، عندما وضع القائد جوهر القاهرة ، كان فضاء ليس فيه سوى مصلى العيد الذى بناه جوهر . وهذا المصلى اليوم يصلى على من مات فيه .

وما برح ما بين هذا المصلى وبستان ريدان ، الذى يعرف اليوم بالريدانية ، لا عمارة فيه ... الى أن مات أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة سبع وثمانين * وأربعمائة ، فدفن خارج باب النصر بحرى المصلى ، وبنى على قبره تربة جليلة وهى باقية الى اليوم هناك . فتتابع بناء الترب من حينئذ خارج باب النصر فيما بين التربة الجيوشية والريدانية ، وقبر الناس موتاهم هناك ، لا سيما أهل الحارات التى عرفت خارج باب الفتوح بالحسينية ، وهى الريدانية وحارة البزادرة وغيرها .

ولم تزل هذه الجهة مقبرة الى ما بعد السبعمائة بمدة . فرغب الأمير سيف الدين الحاج آل ملك فى البناء هناك ، وأنشأ الجامع المعروف به فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وعمر دارا وحماما ، فاقتدى الناس به وعمروا هناك . وكان قد بنى تجاه المصلى قبل ذلك الأمير سيف الدين كهرداس المنصورى دارا تعرف اليوم بدار الحاجب ، فسكن فى هذه الجهة أمراء الدولة ، وعملوا فيما بين الريدانية والخندق مناخات الجمال ، وهى باقية هناك .

فصارت هذه الجهة فى غاية العمارة ، وفيها من باب النصر الى الريدانية سبعة أسواق جليلة يشتمل كل سوق منها على عدة حوانيت كثيرة : فمنها سوق اللفت ، وهو تجاه باب بيت الحاجب الآن عند البئر ، كان فيه من جانبيه حوانيت يباع فيها اللفت ، ومن هذا السوق يشترى أهل القاهرة هذا الصنف والكرنب . وتعرف هذه البئر الى اليوم ببئر اللفت .

ويليها سويقة زاوية الخدام ، وأدركت بهذه السويقة بقية صالحة ، ويلى ذلك سوق جامع آل ملك ، وكان سوقا عامرا ، فيه غالب ما يحتاج اليه من المآكل والأدوية والفواكه والخضر وغيرها ، وأدركته عامرا . ويليه سويقة السنابطة ، عرفت بقوم من أهل ناحية سنباط سكنوا بها ، وكانت سوقا كبيرا ، وأدركته عامرا . ويليها سويقة أبى ظهير ، وأدركتها عامرة . ويليها سويقة العرب ، وكانت تتصل بالريدانية ، وتشتمل على حوانيت كثيرة جدا أدركتها عامرة وليس فيها سكان ، وكانت كلها من لبن معقود عقودا .

وكان بأول سويقة العرب هذه فرن أدركته عامرا آهلا . بلغنى أنه كان يخبز فيه ، أيام عمارة هذا السوق وما حوله ، كل يوم نحو السبعة آلاف رغيف . وكان من وراء هذا السوق أحواش فيها قباب معقودة من لبن ، أدركتها قائمة وليس فيها سكان ، وكان من جملة هذه الأحواش حوش فيه أربعمائة قبة يسكن فيها البزادرة والمكارية ، أجرة كل قبة درهمان فى كل شهر ، فيتحصل من هذا الحوش فى كل شهر مبلغ ثمانمائة درهم فضة ، وكان يعرف بحوش الأحمدى .

فلما كان الغلاء فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين ، سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، خرب كثير مما كان بالقرب من الريدانية ، واختلت أحوال هذه الجهة ... الى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة ،

(*) ص١٣٨ ج٢ ، ط.بولاق .

فتلاشت وهدمت دورها وبيعت أنقاضها ، وفيها بقية آئلة الى الدثور .

الريدانية

كانت بستانا لريدان الصقلبى أحد خدام العزيز بالله نزار بن المعز . كان يحمل المظلة على رأس الخليفة ، واختص بالحاكم ، ثم قتله فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

وريدان ان كان اسما عربيا ، فانه من قولهم : ريح ريدة ورادة وريدانة ، أى لينة الهبوب . وقيل ريح ريدة كثيرة الهبوب .

ذكر الخلجان التى بظاهر القاهرة

اعلم أن الخليج جمعه خلجان ، وهو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر . وأصل الخلج الانتزاع ، خلجت الشىء من الشىء اذا انتزعته .

وبأرض مصر عدة خلجان : منها بظاهر القاهرة خليج مصر ، وخليج فم الخور ، وخليج الذكر ، والخليج الناصرى ، وخليج قنطرة الفخر . وسترى من أخبارها ما فيه كفاية ان شاء الله تعالى .

ذكر خليج مصر

هذا الخليج بظاهر مدينة فسطاط مصر ، ويمر من غربى القاهرة . وهو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر بسبب هاجر أم اسماعيل بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله وسلامه عليهما ، حين أسكنها وابنها اسماعيل خليل الله ابراهيم عليهما الصلاة والسلام بمكة . ثم تمادت الدهور والأعوام ، فجدد حفره ثانيا بعض من ملك مصر من ملوك الروم بعد الاسكندر .

فلما جاء الله سبحانه بالاسلام — وله الحمد والمنة — وفتحت أرض مصر على يد عمرو بن العاص ... جدد حفره ، باشارة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى عام الرمادة . وكان يصب فى بحر القلزم ، فتسير فيه السفن الى البحر الملح ، وتمر فى البحر الى الحجاز واليمن والهند .

ولم يزل على ذلك الى أن قدم محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب بالمدينة النبوية ، والخليفة حينئذ بالعراق أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور ، فكتب الى عامله على مصر يأمره بطم خليج القلزم حتى لا تحمل الميرة من مصر الى المدينة . فطمه ، وانقطع * من حينئذ اتصاله ببحر القلزم ، وصار على ما هو عليه الآن .

وكان هذا الخليج أولا يعرف بخليج مصر ، فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه ، صار يعرف بخليج القاهرة . وكان يقال له أيضا خليج أمير المؤمنين — يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — لأنه الذى أشار بتجديد حفره . والآن تسميه العامة بالخليج الحاكمى ، وتزعم أن الحاكم بأمر الله أبا على منصورا احتفره . وليس هذا بصحيح ، فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة . ومن العامة من يسميه خليج اللؤلؤة أيضا .

(*) ص١٣٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

وسأقص عليك من أخبار هذا الخليج ما وقفت عليه من الأنبياء .

قال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ، فى أخبار طيطوس بن ماليا بن كلكن بن خربتا ابن ماليق بن تدراس بن صا بن مرقونس بن صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح : وجلس على سرير الملك بعد أبيه ماليا ، وكان جبارا جريئا شديد البأس مهيبا ، فدخل عليه الأشراف وهنوه ودعوا له ، فأمرهم بالاقبال على مصالحهم وما يعنيهم ، ووعدهم بالاحسان . والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر ، وهو فرعون ابراهيم عليه السلام ، وأن الفراعنة سبعة هو أولهم ، وأنه استخف بأمر الهياكل والكهنة .

وكان من خبر ابراهيم عليه السلام معه : أن ابراهيم لما فارق قومه ، أشفق من المقام بالشام ، لئلا يتبعه قومه ويردوه الى النمرود ، لأنه كان من أهل كوثا من سواد العراق ، فخرج الى مصر ومعه سارة امرأته ، وترك لوطا بالشام وسار الى مصر . وكانت سارة أحسن نساء وقتها ، ويقال ان يوسف عليه السلام ورث جزءا من جمالها .

فلما سار الى مصر رأى الحرس المقيمون على أبواب المدينة سارة ، فعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها الى طيطوس الملك ، وقالوا : دخل الى البلد رجل من أهل الشرق معه امرأة لم ير أحسن منها ولا أجمل .

فوجه الملك الى وزيره ، فأحضر ابراهيم صلوات الله عليه ، وسأله عن بلده فأخبره ، وقال : ما هذه المرأة منك ؟

فقال : أختى .

فعرف الملك بذلك ، فقال : مره أن يجئنى بالمرأة حتى أراها .

فعرفه ذلك ، فامتغص منه ولم تمكنه مخالفته ، وعلم أن الله تعالى لا يسوءه فى أهله ، فقال لسارة : قومى الى الملك فانه قد طلبك منى .

قالت : وما يصنع بى الملك وما رآنى قبل ؟

قال : أرجو أن يكون لخير .

فقامت معه حتى أتوا قصر الملك ، فأدخلت عليه ، فنظر منها منظرا راعه وفتنته ، فأمر باخراج ابراهيم عليه السلام ، فأخرج وندم على قوله انها أخته ، وانما أراد أنها أخته فى الدين .

ووقع فى قلب ابراهيم عليه السلام ما يقع فى قلب الرجل على أهله ، وتمنى أنه لم يدخل مصر ، فقال : اللهم لا تفضح نبيك فى أهله .

فراودها الملك عن نفسها ، فامتنعت عليه ، فذهب ليمد يده اليها فقالت : انك ان وضعت يدك على أهلكت نفسك لأن لى ربا يمنعنى منك .

فلم يلتفت الى قولها ، ومد يده اليها فجفت يده ، وبقى حائرا فقال لها : أزيلى عنى ما قد أصابنى .

فقالت : على ألا تعاود مثل ما أتيت .

قال : نعم .

فدعت الله سبحانه وتعالى ، فزال عنه ورجعت يده الى حالها .

قلما وثق بالصحة راودها ومناها ووعدها بالاحسان ، فامتنعت وقالت : قد عرفت ما جرى .

ثم مد يده اليها فجفت ، وضربت عليه أعضاؤه وعصبه ، فاستغاث بها وأقسم بالآلهة انها ان أزالت عنه ذلك فانه لا يعاودها ، فسألت الله تعالى فزال عنه ذلك ، ورجع الى حاله .

فقال : ان لك لربا عظيما لا يضيعك .

فأعظم قدرها وسألها عن ابراهيم ، فقالت : هو قريبي وزوجي .

قال : فانه قد ذكر أنك أخته .

قالت : صدق أنا أخته فى الدين ، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا .

قال : نعم الدين دينكم .

ووجه بها الى ابنته جوريا — وكانت من الكمال والعقل بمكان كبير — فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها . فكانت تعظمها وأضافتها أحسن ضيافة ، ووهبت لها جوهرا ومالا . فأتت به ابراهيم عليه السلام ، فقال لها : رديه فلا حاجة لنا به ، فردته .

وذكرت ذلك جوريا لأبيها ، فعجب منهما وقال : هذا كريم من أهل بيت الطهارة ، فتحيلى فى برها بكل حيلة .

فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجوارى يقال لها آجر ، وهى هاجر أم اسماعيل عليه السلام ، وجعلت لها سلالا من الجلود ، وجعلت فيها زادا وحلوى ، وقالت : يكون هذا الزاد معك ، وجعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا وحليا مكللا .

فقالت سارة : أشاور صاحبى .

فأتت ابراهيم عليه السلام واستأذنته ، فقال : اذا كان مأكولا فخذيه . فقبلته منها .

وخرج ابراهيم . فلما مضى وأمعنوا فى السير ، أخرجت سارة بعض تلك السلال ، فأصابت الجوهر والحلى ، فعرفت ابراهيم عليه السلام ذلك ، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التى جعلها للسبيل ، وفرق بعضه فى وجوه البر ، وكان يضيف كل من مر به .

وعاش طيطوس الى أن وجهت هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه . فأمر بحفر نهر فى شرقى مصر بسفح الجبل حتى ينتهى الى مرقى السفن فى البحر الملح ، فكان يحمل اليها الحنطة وأصناف الغلات فتصل الى جدة ، وتحمل من هناك على المطايا . فأحيى بلد الحجاز مدة .

ويقال انما حليت الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر * . وقيل انه لكثرة ما كان يحمله طيطوس الى الحجاز سمته العرب وجرهم « الصادوق » ، ويقال انه سأل ابراهيم عليه السلام أن يبارك له فى بلده ، فدعا بالبركة لمصر ، وعرفه أن ولده سيملكها ، ويصير أمرها اليهم قرنا بعد قرن .

وطيطوس أول فرعون كان بمصر . وذلك أنه أكثر من القتل حتى قتل قراباته وأهل بيته وبنى عمه وخدمه ونساءه وكثيرا من الكهنة

(*) ص ١٤٠ جـ ٢ ، ط . بولاق .

والحكماء ، وكان حريصا على الولد فلم يرزق ولدا غير ابنته جوريا أو جـورياق . وكانت حكيمة عاقلة تأخـذ على يده كثيرا ، وتمنعه من سفك الدماء ، فأبغضته ابنته ، وأبغضه جميع الخاصة والعامة ، فلما رأت أمره يزيد خافت على ذهاب ملكهم فسمته ، وهلك .

وكان ملكه سبعين سنة . واختلفوا فيمن يملك بعده ، وأرادوا أن يقيموا واحدا من ولد أتـريب ، فقـام بعض الوزراء ودعـا لجورياق ، فتم لها الأمر ، وملكت .

فهذا كان أول أمر هذا الخليج . ثم حفره مرة ثانية أدريان قيصر ، أحد ملوك الروم ، ومن الناس من يسميه أندرويانوس ، ومنهم من يقول هوريانوس .

قال فى تاريخ مدينـة رومة : وولى الملك أدريان قيصر أحد ملوك الروم ، وكانت ولايته احدى وعشرين سنة ، وهو الذى درس اليهود مرة ثانية اذ كانوا راموا النفاق عليه ، وهـو الذى جدد مدينة يروشـالم (يعنى مدينـة القدس) ، وأمر بتبديل اسمها وأن تسـمى ايليا .

وقال علماء أهل الكتاب عن أدريان هذا : وغزا القدس وأخربه فى الثانية من ملـكه ، وكان ملكه فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة من سنى الاسكندر ، وقتل عامة أهل القدس ، وبنى على باب مدينة القدس منارا ، وكتب عليه « هذه مدينة ايليا » — ويسمى موضع هذا العمود الآن محراب داود — ثم سار من القدس الى بابل فحارب ملكها وهزمه ، وعاد الى مصر فحفر خليجـا من النيـل الى بحر القلزم ، وسارت فيه السفن ، وبقى رسـمه عند الفتح الاسلامى فحفره عمرو بن العاص ، وأصاب أهل مصر منـه شـدائد ، وألزمهم بعبادة الأصنام .

ثم عاد الى بلاده بممالك الروم ، فابتـلى بمرض أعيى الأطباء ، فخرج يسير فى البلاد يبتـغى من يداويه ، فمر على بيت المقـدس — وكان خرابا ليس فيه غير كنيسة للنصارى — فأمر ببناء المدينة وحصنها ، وأعاد اليهـا اليهود ، فأقاموا بها وملـكوا عليهم رجلا منهم . فبلغ ذلك أدريان قيصر ، فبعث اليهم جيشا لم يزل يحـاصرهم حتى مات أكثرهم جوعا وعطشا وأخذها عنوة ، فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة ، وأخـرب المدينـة حتى صارت تلالا لا عامر فيها ألبتة .

وتتبع اليهود يريد ألا يدع منهم على وجه الأرض أحدا ، ثم أمر طائفة من اليونانيين فتحولوا الى مدينة القدس وسـكنوا فيها . فكان بين خراب القدس الخراب الثانى على يد طيطوس وبين هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة ، فعمرت القـدس باليـونان . ولم يزل قيصر هذا ملكا حتى مات .

فهذا خبر حفر هذا الخليج فى المرة الثانية ، فلما جاء الاسـلام جـدد عمرو بن العاص حفره .

قال ابن عبد الحكم « ذكر حفر خليـج أمير المؤمنين رضى الله عنه » : حدثنا عبد الله ابن صالح ، عن الليث بن سعـد ، قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهـد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى

سنة الرمادة ، فكتب رضى الله عنه الى عمرو ابن العاص وهو بمصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى العاصى بن العاصى ... سلام . أما بعد ، فلعمرى ياعمرو ما تبالى اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه ... » يردد ذلك .

فكتب اليه عمرو : « من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين . أما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . فبعث اليه بعير عظيمة . فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضا .

فلما قدمت على عمر رضى الله عنه ، وسع بها على الناس ، ودفع الى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام ، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يقسمونها على الناس ، فدفعوا الى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ، ويأتدموا بلحمه ، ويحتذوا بجلده ، وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره ... فوسع الله بذلك على الناس .

فلما رأى ذلك عمر رضى الله عنه حمد الله ، وكتب الى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه ، فقدموا عليه . فقال عمر : ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر ، وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى — لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم ، حين فتح الله عليهم مصر ، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين — أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر ، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة ، فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ ما نريد ، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم .

فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر ، فثقل ذلك عليهم وقالوا : نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر ، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ، وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ، ولا نجد اليه سبيلا .

فرجع عمرو بذلك الى عمر .

فضحك عمر رضى الله عنه حين رآه ، وقال ★ : والذى نفسى بيده لكأنى أنظر اليك ياعمرو ، والى أصحابك ، حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج ، فثقل ذلك عليهم ، وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر ، فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين ، وتقول له ان هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ، ولانجد اليه سبيلا .

فعجب عمرو من قول عمر ، وقال : صدقت والله ياأمير المؤمنين ، لقد كان الأمر على ما ذكرت .

فقال له عمر رضى الله عنه : انطلق بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى .

فانصرف عمرو ، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج فى حاشية الفسطاط ، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول

(★) ص١٤١ جـ٢ ، ط. بولاق .

حتى جرت فيه السفن ، فحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين ، وسمى خليج أمير المؤمنين .

ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز ، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك ، فترك وغلب عليه الرمل فانقطع ، فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

قال : ويقال ان عمر رضى الله عنه قال لعمرو حين قدم عليه : ياعمرو ، ان العرب قد تشاءمت بى ، وكادت أن تغلب على رحلى ، وقد عرفت الذى أصابها ، وليس جند من الأجناد أرجى عندى أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك ، فان استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى .

فقال عمرو : ما شئت ياأمير المؤمنين . قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الاسلام ، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار ، فان شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا يحمل فيها الطعام الى الحجاز ، فعلته .

فقال عمر رضى الله عنه : نعم ، فافعل .

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر ، فقالوا له : ماذا جئت به أصلح الأمير ؟ تريد أن تخرج طعام أرضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه ، فان استطعت فاستقل من ذلك .

فلما ودع عمر رضى الله عنه قال له : ياعمرو انظر الى ذلك الخليج ، ولا تنسين حفره .

فقال له : ياأمير المؤمنين انه قد انسد ، وتدخل فيه نفقات عظيمة .

فقال له : أما والذى نفسى بيده انى لأظنك حين خرجت من عندى حدثت بذلك أهل أرضك ، فعظموه عليك وكرهوا ذلك . أعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفنا .

فقال عمرو : ياأمير المؤمنين انه متى مايجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد .

قال : فانى سأجعل من ذلك أمرا ، لا يحمل فى هذا البحر الا رزق أهل المدينة وأهل مكة .

فحفره عمرو وعالجه ، وجعل فيه السفن .

قال : ويقال ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص « الى العاصى ابن العاصى ، فانك لعمرى لا تبالى اذا سمنت أنت ومن معك أن أعجف أنا ومن معى ، فياغوثاه وياغوثاه » .

فكتب اليه عمرو : « أما بعد ، فياليبيك ثم يالبيك ، أتتك عير أولها عندك وآخرها عندى ، مع أنى أرجو أن أجد السبيل الى أن أحمل اليك فى البحر » .

ثم ان عمرا ندم على كتابه فى الحمل الى المدينة فى البحر ، وقال : ان أمكنت عمر من هذا خرب مصر ، ونقلها الى المدينة . فكتب اليه : « انى نظرت فى أمر البحر ، فاذا هو عسر ولا يلتام ولا يستطاع » .

فكتب اليه عمر رضى الله عنه : « الى العاصى بن العاصى ، قد بلغنى كتابك تعتل

فى الذى كنت كتبت الى به من أمر البحر ، وأيم الله لتفعلن أو لأقلعن بأذنك ، ولأبعثن من يفعل ذلك » .

فعرف عمرو أنه الجد من عمر رضى الله عنه ، ففعل .

فبعث اليه عمر رضى الله عنه « ألا تدع بمصر شيئا من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها الا بعثت الينا منه » .

قال : ويقال ان الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط ، فقال لعمرو : أرأيت ان دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى الى مكة والمدينة ، أتضع عنى الجزية وعن أهل بيتى ؟

قال : نعم .

فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب اليه أن افعل .

فلما قدمت السفن خرج عمر رضى الله عنه حاجا أو معتمرا ، فقال للناس : سيروا بنا ننظر الى السفن التى سيرها الله تعالى الينا من أرض فرعون حتى أتتنا . فأتى الجار ، وقال : اغتسلوا من ماء البحر فانه مبارك .

فلما قدمت السفن الجار وفيها الطعام ، صك عمر رضى الله عنه للناس بذلك الطعام صكوكا ، فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل أن يقبضوها ، فلقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه العلاء بن الأسود رضى الله عنه فقال : كم ربح حكيم بن حزام ؟

فقال : ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم ، وربح عليها مائة ألف .

فلقيه عمر رضى الله عنه فقال له : ياحكيم كم ربحت ؟

فأخبره بمثل خبر العلاء . قال عمر : رضى الله عنه : فبعته قبل أن تقبضه ؟

قال : نعم .

قال عمر رضى الله عنه : فان هذا بيع لا يصح ، فاردده .

فقال حكيم : ما علمت أن هذا بيع لا يصح ، وما أقدر على رده .

فقال عمر رضى الله عنه : لابد .

فقال حكيم : والله ما أقدر على ذلك وقد تفرق وذهب ، ولكن رأس مالى وربحى صدقة .

وقال القضاعى فى ذكر الخليج : أمر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص عام الرمادة بحفر الخليج الذى بحاشية الفسطاس ، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين * ، فساقه من النيل الى القلزم . فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن ، وحمل فيه ما أراد من الطعام الى المدينة ومكة ، فنفع الله تعالى بذلك أهل الحرمين ، فسمى خليج أمير المؤمنين .

وذكر الكندى فى كتاب « الجند العربى » أن عمرا حفره فى سنة ثلاث وعشرين ، وفرغ منه فى ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ووصلت الى الحجاز فى الشهر السابع ، ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر .

(*) ص١٤٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

قال : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل ، فانقطع وصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم .

وقال ابن قديد : أمر أبو جعفر المنصور بسد الخليج ، حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ، ليقطع عنه الطعام ، فسد الى الآن .

وذكر البلاذرى أن أبا جعفر المنصور ، لما ورد عليه قيام بن عبد الله ، قال : يكتب الساعة الى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين ، فانهم فى مثل الحرجة اذا لم تأتهم الميرة من مصر .

وقال ابن الطوير ، وقد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج : وهذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر ، فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، من بحر فسطاط مصر الحلو ، وألحقه بالقلزم بشاطىء البحر الملح ، فكانت مسافته خمسة أيام ، لتقرب معونة الحجاز من ديار مصر فى أيام النيل . فالمراكب النيلية تفرغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم ، فاذا فرغت حملت ما فى القلزم مما وصل من الحجاز وغيره الى مصر . وكان مسلكا للتجار وغيرهم فى وقته المعلوم .

وكان أول هذا الخليج من مصر يشق الطريق الشارع المسلوك منه اليوم الى القاهرة ، حافا بالقربوص الذى على البستان المعروف بابن كيسان مادا . وآثاره اليوم مادة باقية الى الحوض المعروف بسيف الدين حسين ، صهر ابن رزيك ، والبستان المعروف بالمشتهى . وفيه آثار المنظرة التى كانت معدة لجلوس الخليفة لفتح الخليج من هذا الطريق ، ولم تكن الآدر المبنية على الخليج ولا شىء منها هناك .

وما برح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصرى .

قال المسيحى : وفى هذا الشهر (يعنى المحرم سنة احدى وأربعمائة) منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى القوارب الى القاهرة فى الخليج ، وشدد فى المنع . وسدت أبواب القاهرة التى يتطرق منها الى الخليج ، وأبواب الطاقات من الدوراتى تشرف على الخليج ، وكذلك أبواب الدور والخوخ التى على الخليج .

قال القاضى الفاضل فى متجددات حوادث سنة أربع وتسعين وخمسمائة : ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب فى الخليج ، وعن اظهار المنكر ، وعن ركوب النساء مع الرجال ، وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم .

قال : وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان ، ظهر فى هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات ، ومن الفواحش ما خرج من الدور الى الطرقات ، وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر .

فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان ، ومعهم النساء الفواجر ،

وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة ، وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب : لا يمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئا من أسباب الانكار ، وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة .

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفى سنة ست وسبعمائة ، رسم الأميران بيبرس وسلار : بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى والتفرج فيه ، بسبب ما يحصل من الفساد ، والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى ، والنساء المكشوفات الوجوه ، المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنابيز والحلى العظيم ، ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ، ويقتل فيه جماعة عديدة .

ورسم الأميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر : أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور ، الا ما كان فيه غلة أو متجرا وما ناسب ذلك ... فكان هذا معدودا من حسناتهما ، ومسطورا فى صحائفهما .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : أخبرنى شيخ معمر ولد بعد سنة سبعمائة ، يعرف بمحمد المسعودى ، أنه أدرك هذا الخليج والمراكب تمر فيه بالناس للنزهة ، وأنها كانت تعبر من تحت باب القنطرة غادية ورائحة . والآن لا يمر بهذا الخليج من المراكب الا ما يحمل متاعا من متجر أو نحوه ، وصارت مراكب النزهة والتفرج انما تمر فى الخليج الناصرى فقط .

وعلى هذا الخليج الكبير فى زماننا هذا أربع عشرة قنطرة يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى فى القناطر ، وحافتا هذا الخليج الآن معمورتان بالدور . وسيأتى ان شاء الله ذكر ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب .

وقال ابن سعد : وفيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى * :

ما زالت الأنحاء تأخذه
حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نور الكتان الذى على جانبى هذا الخليج :

انظر الى النهر والكتان يرمقه
من جانبيه بأجفان لها حدق
قد سل سيفا عليه للصبا شطب
فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها
حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فقم نزرها ووجه الأرض متضح
أو عند صفرته ان كنت تغتبق

قال وقد ذكر مصر : ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها . وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك فى بعض الأحيان .

(*) ص١٤٣ ج٢ ، ط.بولاق .

وهو ضيق ، وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمجانة . حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب ، وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان ، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر . وفى ذلك أقول :

لا تركبن فى خليج مصر
الا اذا يسدلُ الظلام

فقد علمت الذى عليه
من عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظلا
سلاح ما بينهم كلام

ياسيدى لا تسر اليه
الا اذا هوم النيام

والليل ستر على التصابى
عليه من فضله لثام

والسرج قد بددت عليه
منها دنانير لا ترام

وهو قد امتد والمبانى
عليه فى خدمة قيام

لله كم دوحة جنينا
هناك أثمارها الأثام

وقال ابن عبد الظاهر عن مختصر تاريخ ابن المأمون : ان أول من رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحى ، وكذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

ولله در الأسعد بن خطير المماتى حيث يقول :

خليج كالحسام له صقال
ولكن فيه للرائى مسره

رأيت به الملاح تجيد عوما
كأنهم نجوم فى مجره

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج :

ان يوم الخليج يوم من الحسـ
ـن بديع المرئىّ والمسموع

كم لديه من ليث غاب صؤول
ومهاة مثل الغزال المروع

وعلى السد عزة قبل أن تم
لكه ذلة المحب الخضوع

كسروا جسره هناك فحاكى
كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر خليج فم الخور وخليج الذكر

قال ابن سيده فى كتاب « المحكم فى اللغة » : الخور مصب الماء فى البحر ، وقيل هو خليج من البحر ، والخور المطمئن من الأرض .

وخليج فم الخور يخرج الآن من بحر النيل ويصب فى الخليج الناصرى ليقوى جرى الماء فيه ويغزره . وكان قبل أن يحفر الخليج الناصرى يمد خليج الذكر ، وكان أصله ترعة يدخل منها ماء النيل للبستان الذى عرف بالمقسى ، ثم وسع .

قال ابن عبد الظاهر : وكان يخرج من البحر للمقسى الماء فى البرابخ ، فوسعه الملك الكامل وهو خليج الذكر . ويقال ان خليج الذكر حفره كافور الاخشيدى . فلما زال البستان المقسى فى أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم ، وجعله بركة قدام المنظرة المعروفة باللؤلؤة ، صار يدخل الماء اليها من هذا الخليج . وكان يفتح هذا الخليج قبل الخليج الكبير .

ولم يزل حتى أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، بحفره فحفر ، وأوصل بالخليج الكبير . وشرع الأمراء والجند فى حفره من أخريات جمادى الآخرة ، فلما فتح كادت القاهرة * أن تغرق ، فسدت القنطرة التى عليه فهدمها الماء . ومن حينئذ عزم السلطان على حفر الخليج الناصرى . وأنا أدركت آثاره ، وفيه ينبت القصب المسمى بالفارسى .

وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين ابن عمر الشهرزورى أنه يعرف خليج الذكر هذا وفيه الماء ، وسبح فيه غير مرة ، وأرانى آثاره . وكان الماء يدخل اليه من تحت قنطرة الدكة — الآتى ذكرها فى القناطر ان شاء الله تعالى — وعلى خليج فم الخور الآن قنطرة ، وعلى خليج الذكر قنطرة ... يأتى ذكرهما ان شاء الله تعالى عند ذكر القناطر .

وانما قيل له خليج الذكر لأن بعض أمراء الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — كان يعرف بشمس الدين الذكر الكركى — كان له فيه أثر من حفره فعرف به . وكان للناس عند هذا الخليج مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم .

(*) ص١٤٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

قال المسيحى : وفى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه (يعنى المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة) كان ثالث الفتح . فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين ، فى الخيام المنصوبة وغيرها ، خلق كثير للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك الى أن انقضى ذلك اليوم .

وركب أمير المؤمنين (يعنى الظاهر لاعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله) فى مركبه الى المقس ، وعليه عمامة شرب مفوطة بسواد وثوب ديبقى من شكل العمامة ، ودار هناك طويلا ، وعاد الى قصره سالما . وشوهد من سكر النساء وتهتكهن ، وحملهن فى قفاف الحمالين سكارى ، واجتماعهن مع الرجال ، أمر يقبح ذكره .

ذكر الخليج الناصرى

هذا الخليج يخرج من بحر النيل ، ويصب فى الخليج الكبير .

وكان سبب حفره أن الملك الناصر محمد ابن قلاوون لما أنشأ القصور والخانقاه بناحية سرياقوس ، وجعل هناك ميدانا يسرح اليه ، وأبطل ميدان القبق المعروف بالميدان الأسود ظاهر باب النصر من القاهرة ، وترك المسطبة التى بناها بالقرب من بركة الحبش لمطعم الطيور والجوارح ... اختار أن يحفر خليجا من بحر النيل ، لتمر فيه المراكب الى ناحية سرياقوس ، لحمل ما يحتاج اليه من الغلال وغيرها .

فتقدم الى الأمير سيف الدين أرغون ، نائب السلطنة بديار مصر ، بالكشف عن عمل ذلك . فنزل من قلعة الجبل بالمهندسين وأرباب الخبرة الى شاطىء النيل ، وركب النيل . فلم يزل القوم فى فحص وتفتيش الى أن وصلوا بالمراكب الى موردة البلاط ، من أراضى بستان الخشاب ، فوجدوا ذلك الموضع أوطأ مكان يمكن أن يحفر الا أن فيه عدة دور . فاعتبروا فم الخليج من موردة البلاط ، وقدروا أنه اذا حفر مر الماء فيه من موردة البلاط الى الميدان الظاهرى الذى أنشأه الملك الناصر بستانا ، ويمر من البستان الى بركة قرموط حتى ينتهى الى ظاهر باب البحر ، ويمر من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير .

فلما تعين لهم ذلك عاد النائب الى القلعة وطالعه بما تقرر . فبرز أمره لسائر أمراء الدولة باحضار الفلاحين من البلاد الجارية فى اقطاعاتهم ، وكتب الى ولاة الأعمال بجمع الرجال لحفر الخليج . فلم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر الرجال من الأعمال ، وتقدم الى النائب بالنزول للحفر ومعه الحجاب . فنزل لعمل ذلك ، وقاس المهندسون طول الحفر من موردة البلاط — حيث تعين فم الخليج — الى أن يصب فى الخليج الكبير ، وألزم كل أمير من الأمراء بعمل أقصاب فرضت له .

فلما أهل شهر جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وقع الشروع فى العمل . فبدأوا بهدم ما كان هناك من الأملاك التى من جهة باب اللوق الى بركة قرموط ، وحصل الحفر فى البستان الذى كان للنائب ، فأخذوا منه قطعة ، ورسم أن يعطى أرباب الأملاك أثمانها : فمنهم من باع ملكه وأخذ ثمنه من مال السلطان ، ومنهم من هدم داره ونقل أنقاضها . فهدمت عدة دور ومساكن جليلة ، وحفر فى عدة بساتين . فانتهى العمل فى سلخ جمادى الآخرة على رأس شهرين ، وجرى الماء فيه عند زيادة النيل .

فأنشأ الناس عدة سواق ، وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها . فسر السلطان بذلك ، وحصل للناس رفق ، وقويت رغبتهم فيه ، فاشتروا عدة أراض من بيت المال غرست فيها الأشجار ، وصارت بساتين جليلة . وأخذ الناس فى العمارة على حافتى الخليج ، فعمر ما بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط الى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة ، وصارت البساتين من وراء الأملاك المطلة على الخليج .

وتنافس الناس فى السكنى هناك ، وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق . وصار هذا الخليج مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب ، ومحل تيه وقصف فيما يمر فيه من المراكب ، وفيما عليه من الدور . وما برحت مراكب النزهة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو ، الى أن منعت المراكب منه بعد قتل الأشرف ، كما يرد عند ذكر القناطر ان شاء الله تعالى * .

(*) ص١٤٥ جـ٢ ، ط. بولاق .

ذكر خليج قنطرة الفخر

هذا الخليج يبتدىء من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق ، وينتهى الى حيث يصب فى الخليج الناصرى ، ويصب أيضا فى خليج لطيف تسقى منه عدة بساتين . وكل من هذين الخليجين معمور الجانبين بالأملاك المطلة والبساتين . وجميع المواضع التى يمر فيها الخليج الناصرى ، وأرض هذين الخليجين ، كانت غامرة بالماء ، ثم انحسر عنها الماء شيئا بعد شيء كما ذكر فى ظواهر القاهرة . وهذا الخليج حفر بعد الخليج الناصرى .

ذكر القناطر

اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة ، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة ، وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وعلى بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة ، وبالجيزة عدة قناطر .

ذكر قناطر الخليج الكبير

قال القضاعى : القنطرتان اللتان على هذا الخليج (يعنى خليج مصر الكبير) . أما التى فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى ، فان عبد العزيز بن مروان بن الحكم بناها فى سنة تسع وستين وكتب عليها اسمه ، وابتنى قناطر غيرها .

وكتب على هذه القنطرة المذكورة « هذه القنطرة آمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير . اللهم بارك له فى أمره كله ، وثبت سلطانه على ما ترضى ، وأقر عينه فى نفسه وحشمه ، آمين » . وقام ببنائها سعد أبو عثمان .

وكتب عبد الرحمن فى صفر سنة تسع وستين : ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة ثمان عشرة وثلثمائة ورفع سمكها ، ثم زاد عليها الاخشيد فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ، ثم عمرت فى أيام العزيز بالله .

وقال ابن عبد الظاهر : وهذه القنطرة ليس لها أثر فى هذا الزمان .

قلت : موضعها الآن خلف خط السبع سقايات . وهذه القنطرة هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء . فلما انحسر النيل عن ساحل مصر اليوم ، أهملت هذه القنطرة ، وعملت قنطرة السد عند فم بحر النيل . فان النيل كان قد ربى الجرف حيث غيط الجرف الذى على يمنة من سلك من المراغة الى باب مصر بجوار الكبارة .

« قنطرة السد » : هذه القنطرة موضعها مما كان غامرا بماء النيل قديما ، وهى الآن يتوصل من فوقها الى منشأة المهرانى وغيرها من بر الخليج الغربى . وكان النيل عند انشائها يصل الى الكوم الأحمر ، الذى هو جانب الخليج الغربى الآن ، تجاه خط بين الزقاقين . فان النيل كان قد ربى جرفا قدام الساحل القديم ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، فأهملت القنطرة الأولى لبعد النيل ،

وقدمت هـذه القنطرة الى حيث كان النيل ينتهى ، وصار يتوصل منها الى بستان الخشاب الذى موضعه اليوم يعرف بالمريس وما حوله . وكان الذى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة ، ولها قوسان .

وعرفت الآن بقنطرة السد من أجل أن النيل لما انحسر عن الجانب الشرقى ، وانكشفت الأراضى التى عليها الآن خط بين الزقاقين الى موردة الحلفاء ، وموضع الجامع الجديد الى دار النحاس ، وما وراء هذه الأماكن الى المراغة وباب مصر بجوار الكبارة وانكشف من أراضى النيل أيضا الموضع الذى يعرف اليوم بمنشأة المهرانى ... صار ماء النيل اذا بدت زيادته يجعل عند هذه القنطرة سد من التراب حتى يسند الماء اليه الى أن تنتهى الزيادة الى ست عشرة ذراعا ، فيفتح السد حينئذ ، ويمر الماء فى الخليج الكبير ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب ، والأمر على هذا الى اليوم .

« قناطر السباع » : هذه القناطر جانبها الذى يلى خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى ، وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى . وأول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ونصب عليها سباعا من الحجارة — فان رنكه كان على شكل سبع — فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك ، وكانت عالية مرتفعة .

فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى ، فى موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط ، وتردد اليه كثيرا ، صار لا يمر اليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع . فتضرر من علوها وقال للأمراء : ان هذه القنطرة حين أركب الى الميدان وأركب عليها يتألم ظهرى من علوها .

ويقال انه أشاع هذا . والقصد انما هو كراهته لنظر أثر أحد من الملوك قبله ، وبغضه أن يذكر لأحد غيره شىء يعرف به ، وهو كلما يمر بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر ، فأحب أن يزيلها لتبقى القنطرة منسوبة اليه ومعروفة به ، كما كان يفعل دائما فى محو آثار من تقدمه ، وتخليد ذكره ومعرفة الآثار به ونسبتها له .

فاستدعى الأمير * علاء الدين على بن حسن المروانى ، والى القاهرة وشاد الجهات ، وأمره بهدم قناطر السباع وعمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول . فنزل ابن المروانى وأحضر الصناع ، ووقف بنفسه حتى انتهت ، فى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، فى أحسن قالب على ماهى عليه الآن ، ولم يضع سباع الحجر عليها .

وكان الأمير الطنبغا الماردينى قد مرض ، ونزل الى الميدان السلطانى فأقام به ، ونزل اليه السلطان مرارا . فبلغ الماردينى ما يتحدث به العامة من أن السلطان لم يخرب قناطر السباع الا حتى تبقى باسمه ، وأنه رسم لابن المروانى أن يكسر سباع الحجر ويرميها فى البحر .

واتفق أنه عوفى عقيب الفراغ من بناء القنطرة وركب الى القلعة . فسر به السلطان

(*) ص١٤٦ جـ٢ ، طـ. بولاق .

ــ وكان قد شغفه حبا ــ فسأله عن حاله ، وحادثه الى أن جرى ذكر القنطرة ، فقال له السلطان . أعجبتك عمارتها ؟

فقال : والله ياخوند لم يعمل مثلها ، ولكن ما كملت .

فقال : كيف ؟

قال : السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها ، والناس يتحدثون أن السلطان له غرض فى ازالتها لكونها رنك سلطان غيره .

فامتعض لذلك ، وأمر فى الحال باحضار ابن المروانى ، وألزمه باعادة السباع على ما كانت عليه . فبادر الى تركيبها فى أماكنها ، وهى باقية هنالك الى يومنا هذا . الا أن الشيخ محمدا ، المعروف بصائم الدهر ، شوه صورها كما فعل بوجه أبى الهول ، ظنا منه أن هذا الفعل من جملة القربات . ولله در القائل :

وانما غاية كل من وصلْ
صيد بنى الدنيا بأنواع الحيلْ

« قنطرة عمر شاه » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل منها الى بر الخليج العربى .

« قنطرة طقزدمر » : هذه القنطرة على الخليج الكبير ، بخط المسجد المعلق ، يتوصل منها الى بر الخليج الغربى وحكر قوصون وغيره .

« قنطرة آق سنقر » : هذه القنطرة على الخليج الكبير : يتوصل اليها من خط قبو الكرمانى ومن حارة البديعيين ، التى تعرف اليوم بالحبانية ، ويمر من فوقها الى بر الخليج الغربى . وعرفت بالأمير آق سنقر ، شاد العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية ، ومات بدمشق سنة أربعين وسبعمائة .

« قنطرة باب الخرق » : يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها الخرق ، وهذه القنطرة على الخليج الكبير . كان موضعها ساحلا وموردة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين . فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانى بأرض اللوق ، وعمر به المناظر فى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها الى الميدان المذكور . وقيل لها قنطرة باب الخرق .

« قنطرة الموسكى » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من باب الخوخة وباب القنطرة ، ويمر فوقها الى بر الخليج الغربى . أنشأها الأمير عز الدين موسك ، قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكان خيرا يحفظ القرآن الكريم ، ويواظب على تلاوته ، ويحب أهل العلم والصلاح ويؤثرهم . ومات بدمشق يوم الأربعاء ثامن عشرى شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

« قنطرة الأمير حسين » : هذه القنطرة على الخليج الكبير ، ويتوصل منها الى بر الخليج العربى . فلما أنشأ الأمير سيف الدين حسين ابن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدر بك الرومى الجامع المعروف بجامع الأمير حسين فى حكر

جوهر النوبى ، أنشأ هذه القنطرة ليصل من فوقها الى الجامع المذكور .

وكان يتوصل اليها من باب القنطرة ، فثقل عليه ذلك ، واحتاج الى أن فتح فى السور الخوخة المعروفة بخوخة الأمير حسين من الوزيرية ، فصارت تجاه هذه القنطرة . وقد ذكر خبرها عند ذكر الخوخ من هذا الكتاب ، والله تعالى أعلم .

« قنطرة باب القنطرة » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من القاهرة ، ويمر فوقها الى المقس وأرض الطبالة . وأول من بناها القائد جوهر لما نزل بمناخه وأدار السور عليه وبنى القاهرة . ثم قدم عليه القرمطى ، فاحتاج الى الاستعداد لمحاربته ، فحفر الخندق ، وبنى هذه القنطرة على الخليج عند باب جنان أبى المسك كافور الاخشيدى ، الملاصق للميدان والبستان الذى للأمير أبى بكر محمد الاخشيد ، ليتوصل من القاهرة الى المقس ، وذلك فى سنة ثنتين وستين وثلثمائة ، وبها تسمى باب القنطرة .

وكانت مرتفعة بحيث تمر المراكب من تحتها ، وقد صارت فى هذا الوقت قريبة من أرض الخليج لا يمكن المراكب العبور من تحتها ، وتسد بأبواب خوفا من دخول الزعار الى القاهرة .

« قنطرة باب الشعرية » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يسلك اليها من باب الفتوح ، ويمشى من فوقها الى أرض الطبالة ، وتعرف اليوم بقنطرة الخروبى .

« القنطرة الجديدة » : هذه القنطرة على الخليج الكبير . يتوصل اليها من زقاق الكحل وخط جامع الظاهر ، ويتوصل منها الى أرض الطبالة والى منية الشيرج وغير ذلك . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة خمس وعشرين * وسبعمائة ، عندما انتهى حفر الخليج الناصرى .

وكان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه الى قناطر الاوز عامرا بالأملاك ، ثم خربت شيئا بعد شىء من حين حدث فصل البارحة بعد سنة ستين وسبعمائة ، وفحش الخراب هناك منذ كانت سنة الشراقى فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى ، خربت المساكن التى كانت فى شرقى الخليج ما بين القنطرة الجديدة وقناطر الاوز ، وأخذت أنقاضها ، وصارت هذه البرك الموجودة الآن .

« قناطر الاوز » : هذه القناطر على الخليج الكبير . يتوصل اليها من الحسينية ، ويسلك من فوقها الى أراضى البعل وغيرها . وهى أيضا مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة . وأدركت هناك أملاكا مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة .

وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة أيام الخليج لما يصير فيه من الماء ، ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة ، الا أنها الآن قد خربت . وتجاه هذه القنطرة

(*) ص١٤٧ جـ٢ ، ط.بولاق .

منظرة البعل» التي تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء، وبقيت آثارها الى الآن. أدركناها يعطن فيها الكتان، وبها عرفت الأرض التي هناك، فسميت الى الآن بأرض البعل.

وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد من تجاه قناطر الاوز الى منظرة البعل، وصار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته في يومي الأحد والجمعة للنزهة، فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ما لا يقع عليه حصر، ويباع هناك مآكل كثيرة.

وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك. أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم في السنة، عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب. على أنه لا يباع فيها السمك الا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك.

ولم يزل هذا السنط الى نحو سنة تسعين وسبعمائة فقطع. والى اليوم تجتمع الناس هناك، ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن. وقيل لها قناطر الاوز.

« قناطر بني وائل » : هذه القناطر على الخليج الكبير تجاه التاج. أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة. وعرفت بقناطر بني وائل من أجل أنه كان بجانبها عدة منازل يسكنها عرب ضعاف بالجانب الشرقي، يقال لهم بنو وائل، ولم يزالوا هناك الى نحو سنة تسعين وسبعمائة.

وكان بجانب هذه القناطر، من الجانب الغربي، مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقري لأخذ المكوس، واستمر مدة ثم خرب. ولم ير أحسن منظرا من هذه القنطرة في أيام النيل وزمن الربيع.

« قنطرة الأميرية » : هذه القنطرة هي آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحي القاهرة، وهي تجاه الناحية المعروفة بالأميرية فيما بينها وبين المطرية. أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

وعند هذه القنطرة ينسد ماء النيل اذا فتح الخليج عند وفاء زيادة النيل ست عشرة ذراعا، فلا يزال الماء عند سد الأميرية هذا الى يوم النوروز، فيخرج والي القاهرة اليه، ويشهد على مشايخ أهل الضواحي بتغليق أراضي نواحيهم بالري. ثم يفتح هذا السد، فيمر الماء الى جسر شيبين القصر، ويسد عليه حتى يروى ما على جانبي الخليج من البلاد. فلا يزال الماء واقفا عند سد شيبين الى يوم عيد الصليب — وهو اليوم السابع عشر من النوروز — فيفتح حينئذ بعد شمول الري جميع تلك الأراضي.

وليس بعد قنطرة الأميرية هذه قنطرة سوى قنطرة ناحية سرياقوس، وهي أيضا انشاء الملك الناصر محمد بن قلاوون. وبعد قنطرة سرياقوس جسر شيبين القصر، وسيأتي ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

« قنطرة الفخر » : هذه القنطرة بجوار موردة البلاط، من أراضي بستان الخشاب برأس الميدان، وهي أول قنطرة عمرت على

الخليج الناصرى على فمه . أنشأها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله بن خروف القبطى — المعروف بالفخر ناظر الجيش — فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة عند انتهاء حفر الخليج الناصرى . ومات فى رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، وقد أناف على السبعين سنة ، وتمكن فى الرياسة تمكنا كبيرا .

« قنطرة قدادار » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من اللوق ، ويمشى فوقها الى بر الخليج الناصرى مما يلى الفيل . وأول ما وضعت كانت تجاه البستان الذى كان ميدانا فى زمن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ... الى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان الموجود الآن بموردة البلاط ، من جملة أراضى بستان الخشاب ، فغرس فى الميدان الظاهرى الأشجار وصار بستانا عظيما كما ذكر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب .

وعرفت هذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار ، مملوك الأمير برلغى ، وكان خبره أنه تنقل فى الخدم حتى ولى الغربية من أراضى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ، فلقى أهل البلاد منه شرا كثيرا ، ثم انتقل الى ولاية البحيرة .

فلما كان فى سنة أربع وعشرين * ، كثرت الشناعة فى القاهرة بسبب الفلوس ، وتعنت الناس فيها ، وامتنعوا من أخذها حتى وقف الحال وتحسن السعر . وكان حينئذ يتقلد الوزارة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى ، ويتقلد ولاية القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن .

فلما توجه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل الى السرحة بناحية سرياقوس ، بلغه توقف الحال ، وطمع السوقة فى الناس ، وأن متولى القاهرة فيه لين ، وأنه قليل الحرمة على السوقة . وكان السلطان كثير النفور من العامة شديد البغض لهم ، ويريد كل وقت من الخازن أن يبطش بالحرافيش ويؤثر فيهم آثارا قبيحة ، ويشهر منهم جماعة ، فلم يبلغ من ذلك غرضه ... فكرهه ، واستدعى الأمير أرغون نائب السلطنة ، وتقدم اليه بالاغلاظ فى القول على الخازن بسبب فساد حال الناس ، وهم ببروز أمره بالقبض عليه وأخذ ماله .

فما زال به النائب حتى عفا عنه ، وقال : السلطان يعزله ويولى من ينفع فى مثل هذا الأمر . فاختار ولاية قدادار عوضه لما يعرف من يقظته وشهامته وجراءته على سفك الدماء ، فاستدعاه من البحيرة ، وولاه ولاية القاهرة فى أول شهر رمضان من السنة المذكورة .

فأول ما بدأ به أن أحضر الخبازين والباعة ، وضرب كثيرا منهم بالمقارع ضربا مبرحا ، وسمر عدة منهم فى دراريب حوانيتهم ، ونادى فى البلد « من رد فلسا سمر » ، ثم عرض أهل السجن ، ووسط جماعة من المفسدين عند باب زويلة ... فهابته العامة ، وذعروا منه .

وأخذ يتتبع من عصر خمرا ، وأحضر عريف الحمالين وألزمه باحضار من كان يحمل العنب . فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب ومواضع مساكنهم ، ثم

(*) ص١٤٨ جـ٢ ، طـ بولاق .

أحضر خفراء الحارات والأخطاط ، ولم يزلْ بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمر .

فاشتهر ذلك بين الناس وخافوه . فحول أهل حارة زويلة ، وأهل حارتي الروم والديلم وغير ذلك من الأماكن ، ما عندهم من الخمر ، وصبوها فى البلاليع والأفنية ، وألقوها فى الأزقة ، وبذلوا المال لمن يأخذها منهم .

فحصل لكثير من العامة والأطراف منها شيء كثير ، حتى صارت تباع كل جرة خمر بدرهم ، ويمر الناس بأبواب الدور والأزقة فترى من جرار الخمر شيئا كثيرا ، ولا يقدر أحد أن يتعرض لشيء منها .

ثم ركب وكبس خط باب اللوق ، وأخذ منه شيئا كثيرا من الحشيش وأحرقه عند باب زويلة ، واستمر الحال مدة شهر ... ما من يوم الا ويهرق فيه خمر عند باب زويلة ، ويحرق حشيش . فطهر الله به البلد من ذلك جميعه ، وتتبع الزعار وأهل الفساد ، فخافوه وفروا من البلد .

فصار السلطان يشكره ، ويثنى عليه لما يبلغه من ذلك ، وأما العامة فانه ثقل عليها وكرهته . حتى انه لما تأمر ابن الأمير بكتمر الساقى ، وركب الى القبة المنصورية على العادة . ومعه أبوه والنائب وسائر الأمراء ... صاحت العامة للأمير بكتمر الساقى : ياأمير بكتمر بحياة ولدك اعزل هذا الظالم ، ورد علينا والينا (يعنون الخازن) .

فلما عرف بكتمر السلطان ذلك أعجبه ، وقال : ياأمير ما تخشى العامة والسوقة الا ظالما مثل هذا ما يخاف الله تعالى .

وزاد اعجاب السلطان به حتى قال له : لا تشاور فى أمر المفسدين .

فلم يغتر بذلك ، ورفع اليه جميع ما يتفق له ، وشاوره فى كل جليل وحقير ، وقال له : ان جماعة من الكتاب والتجار قد عصروا الخمر ، واستأذنه فى طلبهم ومصادرتهم . فتقدم له بمشاورة النائب فى ذلك ، واعلامه أن السلطان قد رسم بالكشف عمن عصر من الكتاب والتجار الخمر .

فلما صار الى النائب وعرفه الخبر ، أهانه وقال : ان السلطان لا يرضى بكبس بيوت الناس ، وهتك حرمهم وسترهم واقامة الشناعات .

وقام من فوره الى السلطان ، وعرفه ما يكون فى فعل ذلك من الفساد الكبير ، وما زال به حتى صرف رأيه عما أشار به قدادار من كبس الدور . وأخذ الناس فى مماقتته ، والاخراق به فى كل وقت . فانه كان يعنى بالخازن ، ولم يعجبه عزله عن الولاية .

فكثر جور قدادار ، وزاد تتبعه للناس ، ونادى « ألا يعمل أحد حلقة فيما بين القصرين ولا يسمر هناك » ، وأمر ألا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة ، وأقام عنه نائبا من بطالى الحسينية ضمن المسطبة منه فى كل يوم بثلثمائة درهم . وانحصر الناس منه ، وضاقوا به ذرعا لكثرة ما هتك أستارهم ، وخرق بكثير من المستورين . وتسلطت المستصنعة وأرباب المظالم على الناس ، وكانوا اذا رأوا سكران أو شموا منه رائحة خمر أحضروه اليه .

فتوقى الناس شره ، وشكاه الأمراء غير مرة الى السلطان فلم يلتفت لما يقال فيه . والنائب مستمر على الاخراق به الى أن قبض عليه السلطان ، فخلا الجو لقدادار ، وأكثر من سفك الدماء ، واتلاف النفوس ، والتسلط على العامة لبغضهم اياه . والسلطان يعجبه منه ذلك ... بحيث انه أبرز مرسوما لسائر عماله وولاته أن أحدا منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص ، فى النفس أو القطع ، الا أن يشاور فيه ويطالع بأمره . ما خلا قدادار مستولى القاهرة ، فانه لا يشاور على مفسد ولا غيره ، ويده مطلقة في سائر الناس .

فدهى الناس منه بعظائم ، وشرع فى كبس بيوت السعداء ، ومشت جماعة من المستصنعين فى البلد * ، وكتبوا الأوراق ورموها فى بيوت الناس بالتهديد ، فكثرت أسباب الضرر ، وكثر بلاء الناس به . وتعنت على الباعة ، ونادى : ألا يفتح أحد حانوته بعد عشاء الآخرة . فامتنع الناس من الخروج بالليل حتى كانت المدينة فى الليل موحشة .

واستجد على كل حارة دربا ، وألزم الناس بعمل ذلك . فجبيت بهذا السبب دراهم كثيرة ، وصار الخفراء فى الليل يدورون ومعهم الطبول فى كل خط ، فظفر بانسان قد سرق شيئا من بيت فى الليل وتزيا بزى النساء ، فسمره على باب زويلة . وما زال على ذلك حتى كثرت الشناعة ، فعزله السلطان فى سنة تسع وعشرين بناصر الدين ابن المحسنى . فأقام الى أيام الحج وسافر الى الحجاز ، ورجع وهو ضعيف ، فمات فى سادس عشر صفر سنة ثلاثين وسبعمائة .

« قنطرة الكتبة » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى ، بخط بركة قرموط ، عرفت بذلك لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب . أنشأها القاضى شمس الدين عبد الله ابن أبى سعيد بن أبى السرور — الشهير بغبريال بن سعيد — ناظر الدولة ، وولى نظر الدواوين بدمشق فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ... نقل اليها من نظر البيوت بديار مصر .

ثم استدعى من دمشق ، وقرر فى وظيفة ناظر النظار شريكا للقاضى شهاب الدين الأقفهسى ، واستقر كريم الدين الصغير مكانه ناظرا بدمشق وذلك فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة . ثم صرف غبريال من النظر بديار مصر ، وسفر الى دمشق فى ثامن عشر صفر سنة ست وعشرين ، وطلب كريم الدين الصغير من دمشق ، ثم قرر فى مكان غبريال فى وظيفة النظر بديار مصر الخطير كاتب أرغون أخو الموفق ، وأعيد غبريال الى نظر دمشق . ومات بدمشق ، بعدما صودر وأخذ منه نحو ألفى ألف درهم ، فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة .

وأدركنا الأملاك منتظمة بجانبى هذا الخليج من أوله بموردة البلاط الى هذه القنطرة ، ومن هذه القنطرة الى حيث يصب فى الخليج الكبير .

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج من المناظر البهجة والمساكن الجليلة وبيع أنقاضها ،

(*) ص١٤٩ جـ٢ ، طـ بولاق .

حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخر التى تقدم ذكرها وآخر خط بركة قرموط ، وأصبحت موحشة قفراء بعدما كانت مواطن أفراح ومغنى صبابات ، لا يأويها الا الغربان والبوم ... سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

« قنطرة المقسى » : هذه القنطرة على خليج فم الخور ، وهو الذى يخرج من بحر النيل ، ويلتقى مع الخليج الناصرى عند الدكة ، فيصيران خليجا واحدا يصب فى الخليج الكبير .

كان موضعها جسرا يستند عليه الماء اذا بدت الزيادة الى أن تكمل أربعة عشر ذراعا فيفتح ، ويمر الماء فيه الى الخليج الناصرى وبركة الرطلى ، ويتأخر فتح الخليج الكبير حتى يرقى الماء ستة عشر ذراعا .

فلما انطرد ماء النيل عن البر الشرقى ، بقى تجاه هذا الخليج فى أيام احتراق النيل رملة لا يصل اليها الماء الا عند الزيادة ، وصار يتأخر دخول الماء فى الخليج مدة ، واذا كسر سد الخليج الكبير عند الوفاء مر الماء بهذا الخليج مرورا قليلا .

وما زال موضع هذه القنطرة سدا الى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبى الفرج عبد الله المقسى ، فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضا بجانبى هذا الخليج من حيث يبتدىء الى أن يلتقى مع الخليج الناصرى ، ثم خرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة .

وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصرى فى أيام النيل مرور فى المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحد بكثرة التهتك والتمتع بكل ما يلهى ... الى أن ولى أمر الدولة ، بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين ، الأميران برقوق وبركة . فقام الشيخ محمد ، المعروف بصائم الدهر ، فى منع المراكب من المرور بالمتفرجين فى الخليج .

واستفتى شيخ الاسلام سراج الدين عمر ابن رسلان البلقينى . فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك فى المراكب من الحرمات ، ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات . فبرز مرسوم الأميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول الى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسى هذه فى شهر ربيع الأول سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج الا أن يكون فيها غلة أو متاع . فقلق الناس لذلك ، وشق عليهم .

وقال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرى فى ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه
بقنطرة المقسى قد سار فى الخلق
ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل
يقول لقد أوقفتم الماء فى حلقى

وقال :

تسلسلت قنطرة المقسى مم
ا قد جرى والمنع أضحى شاملا *
وقال أهل طينة فى مجنهم
قوموا بنا نقطع السلاسلا

(*) ص١٥٠ جـ٢ ، ط بولاق .

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج الى أن زالت دولة الظاهر برقوق فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن فى دخولها ، وهى مستمرة الى وقتنا هذا .

« قنطرة باب البحر » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من باب البحر ، ويمر الناس من فوقها الى بولاق وغيره . وهى مما أنشأه الملك الناصر محمد ابن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرى فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

وقد كان موضعها فى القديم غامرا بالماء عندما كان جامع المقس مطلا على النيل . فلما انحسر الماء عن بر القاهرة ، صار ما قدام باب البحر رملة . فاذا وقف الانسان عند باب البحر رأى البر الغربى لا يحول بينه وبين رؤيته بنيان ولا غيره ، فاذا كان أوان زيادة ماء النيل صار الماء الى باب البحر ، وربما جلفط فى بعض السنين خوفا من غرق المقس .

ثم لما طال المدى غرق خارج باب البحر بأرض باطن اللوق ، وغرس فيه الأشجار ، فصار بساتين ومزارع ، وبقى موضع هذه القنطرة جرفا ، ورمى الناس عليه التراب فصار كوما يشنق عليه أرباب الجرائم ، ثم نقل ما هنالك من التراب ، وأنشئت هذه القنطرة ، ونودى فى الناس بالعمارة .

فأول ما بنى فى غربى هذه القنطرة مسجد المهاميزى وبستانه ، ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطىء النيل ببولاق وباب البحر عرضا ، وما بين منشأة المهرانى ومنية الشيرج طولا ، وصار ما بجانبى الخليج معمورا بالدور ، ومن ورائها البساتين والأسواق والحمامات والمساجد ، وتقسمت الطرق ، وتعددت الشوارع ، وصار خارج القاهرة من الجهة الغربية عدة مدائن .

« قنطرة الحاجب » : هذه القنطرة على الخليج الناصرى . يتوصل اليها من أرض الطبالة ، ويسير الناس عليها الى منية الشيرج وغيرها . أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وذلك أنه كانت أرض الطبالة بيده . فلما شرع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج الناصرى التمس بكتمر من المهندسين ، اذا وصلوا بالحفر الى حيث الجرف ، أن يمروا به على بركة الطوابين التى تعرف اليوم ببركة الرطلى ، وينتهوا من هناك الى الخليج الكبير ، ففعلوا ذلك . وكان قصدهم أولا أنه اذا انتهى الحفر الى الجرف مروا فيه الى الخليج الكبير من طرف البعل .

فلما تهيأ لبكتمر ذلك ، عمرت له أراضى الطبالة ، كما يأتى ذكرها ان شاء الله تعالى عند ذكر البرك ، فعمرت هذه القنطرة فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، وأسند اليها جسرا عمله حاجزا بين بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلى وبين الخليج الناصرى ، وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى عند ذكر الجسور .

ولما عمرت هذه القنطرة اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش ، وعمر قبالتها ربع عرف بربع الزيتى . وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت ، وعليها سقيفة تقى حر

الشمس وغيره . فلما غرق كوم الريش فى سنة بضع وستين وسبعمائة ، صار هذا الكوم الذى خارج القنطرة . ومن تحت هذه القنطرة يصب الخليج الناصرى فى الخليج الكبير ، ويمر الى حيث القنطرة الجديدة وقناطر الأوز وغيرها كما تقدم ذكره .

« قنطرة الدكة » : هذه القنطرة كانت تعرف بقنطرة الدكة ، ثم عرفت بقنطرة التركمانى من أجل أن الأمير بدر الدين التركمانى عمرها . وهذه القنطرة كانت على خليج الذكر ، وقد انطم ما تحتها ، وصارت معقودة على التراب لتلاف خليج الذكر .

ولله در ابراهيم المعمار حيث يقول :

ياطالب الدكة نلت المنى
وفزت منها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها دكة
من تحتها تلقى خليج الذكر

« قناطر بحر أبى المنجا » : هذه القناطر من أعظم قناطر مصر وأكبرها . أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة خمس وستين وستمائة ، وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأفرم .

« قناطر الجيزة » : قال فى كتاب « عجائب البنيان » : ان القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ، ومن أعمال الجبارين ، وهى نيف وأربعون قنطرة . عمرها الأمير قراقوش الأسدى — وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة ، وأخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر ، وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل . وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بـ « الفاشوش فى أحكام قراقوش » .

وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده ، فسدها رجاء أن يحبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقت ، ومع ذلك فما روى ما رجا أن يروى .

وفى سنة ثمان وسبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر * ما خرب منها ، وأصلح ما فسد فيها ، فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بازاء مدينة مصر ، كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال ، حتى يتصل بالقناطر .

ذكر البرك

قال ابن سيده : البركة مستنقع الماء ، والبركة شبه حوض يحفر فى الأرض . انتهى .

وقد رأيت بخط معتبر ما مثاله « وملأوا البركة ماء » فنصب الباء وكسر الراء وفتح الكاف والتاء .

« بركة الحبش » : هذه البركة كانت تعرف ببركة المغافر ، وتعرف ببركة حمير ، وتعرف أيضا باصطبل قرة ، وعرفت أيضا باصطبل قامش . وهى من أشهر برك مصر ، وهى فى

(*) ص١٥١ جـ٢ ، ط.بولاق .

ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل .

وكانت من الموات . فاستنبطها قرة بن شريك العنبسي أمير مصر ، وأحياها وغرسها قصبا . فعرفت باصطبل قرة ، وعرفت أيضا باصطبل قامش ، وتنقلت حتى صارت تعرف ببركة الحبش . ودخلت في ملك أبي بكر الماردانی ، فجعلها وقفا ، ثم أرصدت لبنى حسن وبني حسين ابني على بن أبي طالب رضى الله عنهم ، فلم تزل جارية في الأوقاف عليهم الى وقتنا هذا .

قال أبو بكر الكندي في كتاب الأمراء : وقدم قرة بن شريك من وفادته في سنة ثلاث وتسعين ، فاستنبط الاصطبل لنفسه من الموات ، وأحياه وغرسه قصبا . فكان يسمى اصطبل قرة ، ويسمى أيضا اصطبل القامش ، يعنون القصب ، كما يقولون : قامش مروان .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم في كتاب « فتوح مصر » : وكان الاصطبل للأزد ، فاشتراه منهم الحكم ابن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فبناه . وكان يجرى على الذى يقرأ في المصحف الذي وضعوه في المسجد ، الذى يقال له مصحف أسماء ، من كراه في كل شهر ثلاثة دنانير .

فلما حيزت أموالهم (يعنى أموال بنى أمية) ، وضمت الى مال الله ، حيز الاصطبل فيما حيز . وكتب بأمر المصحف الى أمير المؤمنين أبي العباس السفاح ، فكتب « أن أقروا مصحفهم في مسجدهم على حاله ، وأجروا على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير في كل شهر من مال الله تعالى » .

وقال القضاعي : بركة الحبش كانت تعرف ببركة المغافر وحمير ، وتعرف باصطبل قامش . وكانت في ملك أبي بكر محمد بن على الماردانی بجميع ما تشتمل عليه من المزارع والجنان خلا الجنان التى فى شرقيها ، وأظنها الجنان المنسوبة الى وهب بن صدقة وتعرف بالحبش ، فاني رأيت في شرط هذه البركة « أن الحد الشرقي ينتهى الى الفضاء الفاصل بينها وبين الجنان المعروفة بالحبش » . فدل على أن الجنان خارجة عنها .

وذكر ابن يونس في تاريخه أن في قبلى بركة الحبش جنانا تعرف بقتادة بن قيس بن حبشى الصدفى ، شهد فتح مصر ، والجنان تعرف بالحبش ، وبه تعرف بركة الحبش . وذكر بعد هذا الشرط أن الحد البحرى ينتهى الى البئر الطولونية ، والى البئر المعروفة بموسى بن أبي خليد ، وهذه البئر هى البئر المعروفة بالنعش .

ورأيت في كتاب شرط هذه البركة : أنها محبسة على البئرين اللتين استنبطهما أبو بكر الماردانی ، فی بنی وائل ، بحضرة الخليج والقنطرة — المعروفة احداهما بالفندق والأخرى بالعتيق — وعلى السرب الذى يدخل منه الماء الى البئر الحجارة — المعروفة بالروا — التى في بنى وائل ، ذات القناطر التى يجرى فيها الماء الى المصنعة التى بحضرة العقبة التى يصار منها الى يحصب — وهى المصنعة المعروفة بدليلة — وعلى القنوات المتصلة بها التى تصب الى المصنعة ذات العمد

الرخام القائمة فيها ، المعروفة بسمينة ، وهى التى فى وسط يحصب . ويقال ان هناك كانت سوق ليحصب .

وذكر فى هذا الشرط دارا له فى موضع السقاية المعروفة بسقاية زوف ، وشرط أن تنشأ هذه الدار مصنعة على مثل هذه المصنعة المقدم ذكرها المعروفة بسمينة — وهى سقاية زوف اليوم — وعلى القناة التى يجرى فيها الماء الى مصنعة ذكر أنه كان أنشأها عند البئر المعروفة اليوم ببئر القبة ، والحوض الذى هناك بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة . وكانت هذه المصنعة تسمى ريا .

وجعل هذا الحبس أيضا على البئر التى له بالحبانية بحضرة الخندق . وذكر أنها تعرف بالقبانية ، وأن ماءها يجرى الى المصنعة المقابلة للميدان من دار الامارة فى طريق المصلى القديم ، ثم الى المصنعة التى تحت مسجده المقابل لدار عبد العزيز ، ثم الى المصنعة المقابلة لمسجد التربة المجاورة لمسجد الأخضر ... وتاريخ هذا الشرط شهر رمضان سنة سبع وثلثمائة .

وجعل ما يفضل عن جميع ذلك مصروفا فى ابتياع بقر وكباش تذبح ويطبخ لحمها ، ويبتاع أيضا معها خبز بر ودراهم وأكسية وأعبية ، ويتصدق بذلك على الفقراء والمساكين بالمغافر وغيرها من القبائل بمصر . وكان بناؤه السقايتين اللتين بالموقف ، والسقايات التى بالمغافر وبزوف وبيحصب وبنى وائل ، وعمل المجارى فى سنة أربع ، وقيل فى سنة ثلاث وثلثمائة . وقد حبس أبو بكر على الحرمين ضياعا كان ارتفاعها نحو مائة ألف دينار ، منها سيوط وأعمالها وغيرها . انتهى .

وفى تواريخ النصارى أن الأمير أحمد بن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار . فباع * النصارى رباع الكنائس بالاسكندرية ، وأرض الحبش بظاهر مصر ، والكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر لليهود ... قلت : هكذا فى تواريخهم ، ولا أعلم كيف ملكوا أرض الحبش ، فلعل المادرانى هو الذى اشتراها ثم وقفها .

وقال ابن المتوج « بركة الحبش » : هذه البركة مشهورة فى مكانها . وقد اتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاة بدر الدين أبى عبد الله محمد بن سعد الله بن جماعة ، رحمة الله عليه ، على أنها وقف على الأشراف الأقارب والطالبيين نصفين بينهما بالسوية : النصف الأول على الأقارب ، والنصف الآخر على الطالبيين .

وثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى ، أن النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة ، بتاريخ ثالث عشر ربيع الأول سنة أربعين وستمائة — وهم الأقارب الحسينيون ، وهو اذ ذاك قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى — وما مع ذلك من البلاد الشامية المضافة الى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(*) ص١٥٢ جـ٢ ، طـ بولاق .

وثبت عند قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، رحمه الله تعالى — وكان قاضي القضاة بمصر والوجه القبلي وخطيب مصر — بالاستفاضة أيضا أن البركة المذكورة وقف على الأشراف الطالبيين ، بتاريخ التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة . وبعدهما قاضي القضاة وجيه الدين البهنسي في ولايته .

ثم نفذهما بعد تنفيذ وجيه الدين المذكور ، في شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جماعة ، وهو حاكم الديار المصرية ، خلا ثغر الاسكندرية . ويأتي أصل خبر هذه البركة مبينا مشروحا من أصلها في مكانه ان شاء الله تعالى .

قال : فمن جملة الأوقاف بركة الأشراف المشهورة ببركة الحبش . وهذه البركة حدودها أربعة : الحد القبلي ينتهي بعضه الى أرض العدوية يفصل بينهما جسر هنالك ، وباقيه الى غيطان بساتين الوزير . والحد البحري ينتهي بعضه الى أبنية الأدر التي هناك المطلة عليها ، والى الطريق والى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الشعيبية . والحد الشرقي الى حد بساتين الوزير المذكورة . والحد الغربي ينتهي بعضه الى بحر النيل والى أراضي دير الطين ، والى بعض حقوق جزيرة ابن الصابوني وجسر بستان المعشوق الذي هو من حقوق الجزيرة المذكورة .

وهذه البركة وقف الأشراف الأقارب والطالبيين ، نصفين بينهما بالسوية . والذي شاهدته من أمرها أني وقفت على اسجال قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف السنجاري ، رحمة الله تعالى عليه ، تاريخه ثاني عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة — وهو حينذاك حاكم القاهرة والوجه البحري — على محضر شهد فيه بالاستفاضة أن نصف هذه البركة وقف على الأشراف الأقارب الحسينيين ، وثبت ذلك عنده .

ورأيت اسجال الشيخ قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله ، على محضر شهد فيه بالاستفاضة — وهو حين ذلك قاضي مصر والوجه القبلي — وأشهد عليه أنه ثبت عنده أن البركة المذكورة جميعها وقف على الأشراف الطالبيين ، وتاريخ اسجاله التاسع والعشرون من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة . ثم نفذهما جميعا في تاريخ واحد قاضي القضاة وجيه الدين البهنسي ، وهو قاضي القضاة حينذاك ، ثم نفذهما قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جماعة ، وهو قاضي القضاة بالديار المصرية .

واستقر النصف من ريع هذه البركة على الأشراف الأقارب مع قلتهم ، والنصف على الأشراف الطالبيين مع كثرتهم . وتنازعوا غير مرة على أن تكون بينهم الجميع بالسوية فلم يقدروا على ذلك ، وعقد لهم مجلس غير مرة فلم يقدروا على تغييره .

واحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمي أمير مصر ، وقد خرج الى الميدان الذي بطرف المقابر ، فقال لمن معه : أتتأملون الذي أرى ؟

قالوا : وما الذى يرى الأمير ؟

قال : أرى ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكنى ، وذروة جبل ، وجبانة أموات ، ونهرا عجاجا ، وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد نهر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى ابل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبلا ... فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل .

وأين هذه الأوصاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله :

زر وادى القصر ، نعم القصر والوادى
لا بد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شىء يشاكله
من منزل حاضر ان شئت أو بادى
تلقى به السفن والأعياس حاضرة
والضب والنون والملاح والحادى

وقال :

زر وادى القصر ، نعم القصر والوادى
وحبذا أهله من حاضر بادى
تلقى قراقرة والعيس واقفة
والضب والنون والملاح والحادى *

هكذا أنشدهما أبو الفرج الأصبهانى رحمه الله تعالى فى كتاب الأغانى ، ونسبهما لابن عيينة بن المنهال بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة ، شاعر من ساكنى البصرة . وقيل ان اسمه عذرة ، وقيل اسمه أبو عيينة وكنيته أبو المنهال ، وكان بعد المائتين .

وأنشد أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والساحج :

ياصاح ألمم بأهل القصر والوادى
وحبذا أهله من حاضر بادى
ترى قراقرة والعيس واقفة
والضب والنون والملاح والحادى

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى : وفى هذا الوقت من السنة (يعنى أيام النيل) تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، ويتناوبها ذوو الآداب والظرف .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان الى بركة الحبش ، وافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموسا فى خلع بدور ، وجسوم نار فى غلائل نور ... الى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال بعضهم — وهو أمية المذكور — من قوله المشهور :

لله يومى ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم فى يمين مرتعش

(*) ص ١٥٣ ج ٢١ ، ط . بولاق .

ونحن فى روضة مفوفة
دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا
فنحن من نسجها على فرش
فعاطني الراح ان تاركها
من سورة الهم غير منتعش
وأثقل الناس كلهم رجل
دعاه داعى الهوى فلم يطش
فأسقنى بالكبار مترعة
فهن أشفى لشدة العطش

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطرب
وباكر الراح بالبانات والنخب
أما ترى البركة الغناء لابسة
وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد الروض فى حلل
قد أبرز القطر منها كل محتجب
من سوسن شرق بالطل محجره
وأقحوان شهى الظلم والشنب
فانظر الى الورد يحكى خد محتشم
ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب
والنيل من ذهب يطفو على ورق
والراح من ورق يطفو على ذهب
ورب يوم نقعنا فيه غلتنا
بجاحم من فم الابريق ملتهب
شمس من الراح حيانا بها قمر
موف على غصن يهتز فى كثب
أرخى ذوائبه وانهز منعطفا
كصعدة الرمح فى مسودة العذب
فاطرب ودونكها فاشرب فقد بعثت
على التصابى دواعى اللهو والطرب

وقال :

يانزهة الرصد المصرى قد جمعت
من كل شيء حلا فى جانب الوادى
فذا غدير وذا روض وذا جبل
والضب والنون والملاح والحادى

وقال ابراهيم بن الرفيق فى تاريخه : حدثنى محمد الكهينى — وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان المشرق — قال : مارأيت قط أجمل من أيام النوزور والغيطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين ، وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف . وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير الا خرج الى بركة الحبش متنزها ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون .

فاذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة الى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كما ينام الانسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة . ويركب * الأمير تميم فى عشارى ، ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاما ومشروبا ، فان كانت الليالى مقمرة ، والا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا . فاذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم باعادته ، وسألهم عما عز

(*) ص١٥٤ ج٢ ، ط. بولاق .

عليهم ، فيأمر لهم به ، ويأمر لمن يغني لهم ، وينتقل منهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ، ثم ينصرف الى قصوره وبساتينه التي على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي هذه الأيام ويتفرق الناس .

وقال محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي الحنفي ، وتوفي بدمشق سنة احدى وخمسين وستمائة ، يصف بركة الحبش في أيام الربيع :

اذا زين الحسناء قرط فهذه
يزينها من كل ناحية قرط
ترقرق فيها أدمع الطل غدوة
فقلت لآل قد تضمنها قرط

وقال ابن سعيد في كتاب « المغرب » : وخرجت مرة حيث بركة الحبش التي يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي عفا الله عنه :

لله يومي ببركة الحبش
والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب
كصارم في يمين مرتعش

وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر ، ثم زرتها أيام غاض الماء وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر ، وفيها أقول :

يابركة الحبش التي يومي بها
طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة جنة
وكأن دهري كله بك عيد
ياحسن ما يبدو بك الكتان في
نواره أو زره معقود
والماء منك سيوفه مسلولة
والقرط فيك رواقه ممدود
وكأن أبراجا عليك عرائس
جليت وطيرك حولها غريد
ياليت شعري هل زمانك عائد
فالشوق فيه مبدىء ومعيد

وكان ماء النيل يدخل الى بركة الحبش من خليج بني وائل ، وكان خليج بني وائل مما يلي باب مصر من الجهة القبلية ، الذي يعرف الى يومنا هذا بباب القنطرة من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك .

قال ابن المتوج : ورأيت ماء النيل في زمن النيل يدخل من تحته الى خليج بني وائل .

قلت : وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون استولى النشو ناظر الخاص على بركة الحبش ، وصار يدفع الى الأشراف من بيت المال مالا في كل سنة . فلما مات الناصر وقام من بعده ابنه المنصور أبو بكر ، أعيدت لهم .

ذكر الماردانى

هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن رستم بن أحمد ، وقيل محمد بن علي بن أحمد بن عيسى بن رستم ، وقيل محمد بن علي بن أحمد بن ابراهيم بن الحسين بن عيسى ابن رستم الماردانى ، أحد عظماء الدنيا ، ولد بنصيبين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وقدم الى

مصر في سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وخلف آباه علي بن أحمد الماردانى أيام نظره في أمور أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وسنه يومئذ خمس عشرة سنة .

وكان معتدل الكتابة ، ضعيف الحظ من النحو واللغة . ومع ذلك فكان يكتب الكتب الى الخليفة فمن دونه على البديهة من غير نسخة ، فيخرج الكتاب سليما من الخلل . ولما قتل أبوه في سنة ثمانين ومائتين استوزره هارون بن خمارويه ، فدبر أمر مصر ... الى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بغداد الى مصر ، وأزال دولة بني طولون وحمل رجالهم الى العراق . فكان أبو بكر ممن حمله ، فأقام ببغداد الى أن قدم صحبة العساكر لقتال خباسة ، فدبر أمر البلد ، وأمر ونهى ، وحدث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي وغيره بسماعه منهم في بغداد .

وكان قليل الطلب للعلم ، تغلب عليه محبة الملك وطلب السيادة . ومع ذلك كان يلازم تلاوة القرآن الكريم ، ويكثر من الصلاة ، ويواظب على الحج . وملك بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله ، وبلغ ارتفاعه في كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج ، ووهب وأعطى ، وولى وصرف ، وأفضل ومنع ، ورفع ووضع ، وحج سبعا وعشرين حجة أنفق في كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار . وكان تكين أمير مصر يشيعه اذا خرج للحج ، ويتلقاه اذا قدم .

وكان * يحمل الى الحجاز جميع ما يحتاج اليه ، ويفرق بالحرمين الذهب والفضة والثياب والحلوى والطيب والحبوب ، ولا يفارق أهل الحجاز الا وقد أغناهم . وقيل مرة وهو بالمدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام : ما بات في هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالهما الا وهو شبعان من طعام أبي بكر الماردانى .

ولما قدم الأمير محمد بن طغج الاخشيد الى مصر استتر منه ، فانه كان منعه من دخول مصر ، وجمع العساكر لقتاله . فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل ، وحارب بهم بعد موت تكين أمير مصر ، ومرت به خطوب لكثرة فتن مصر اذ ذاك ، وأحرقت دوره ودور أهله ومجاوريه ، وأخذت أمواله ، واستتر لقبض على خليفته وعماله .

فكتب الى بغداد يسأل امارة مصر ، وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك ، فعاد الجواب بامارة ابن تكين ، وأن يكون الماردانى يدبر أمر مصر ويولي من شاء . فظهر عند ذلك من الاستتار ، وأمر ونهى ، ودبر أمر البلد ، وصار الجيش بأسره يغدو الى بابه ، فأنفق في جماعة واصطنع قوما ، وقتل عدة من أصحاب ابن تكين .

وكان محمد بن تكين بالقدس — وأمر مصر كله للماردانى بمفرده — ومعه أحمد ابن كيغلغ ، وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر وولاية أبي بكر الماردانى تدبير الأمور . فاستمال أبو بكر أحمد بن كيغلغ حتى صار معه على ابن تكين وحاربه ، وكان من أمره ما كان ... الى أن قدمت عساكر الاخشيد . فقام أبو بكر لمحاربتهم ، ومنع الاخشيد من مصر ، فكان الاخشيد غالبا له

(*) ص١٥٥ جـ٢ ، طـ. بولاق .

ودخل البلد . فاستتر منه أبو بكر الى أن دل عليه ، فأخذه وسلمه الى الفضل بن جعفر ابن الفرات .

فلما صار الى ابن الفرات قال له : ايش هذا الاستيحاش والتستر ، وأنت تعلم أن الحج قد أظل ويحتاج لاقامة الحج .

فقال له أبو بكر : ان كان الىّ فخمسة عشر ألف دينار .

فقال ابن الفرات : ايش خمسة عشر ألف دينار !

قال : ما عندى غير هذا .

فقال ابن الفرات : بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف ، ومنعت أمير البلد من الدخول . ثم صاح : ياشادن ، خذه اليك .

فأقيم وأدخل الى بيت ، وكان يومئذ صائما ، فامتنع من تناول الطعام والشراب ، ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته وأصبح ، فامتنع ابن الفرات من الأكل اجلالا له . فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية ، امتنع أبو بكر من الفطر كما امتنع فى الليلة الأولى ، فامتنع ابن الفرات أيضا من الأكل ، وقال : لا آكل أبدا ، أو يأكل أبو بكر .

فلما بلغ ذلك أبا بكر أكل .

فأخذ ابن الفرات فى مصادرته ، وقبض على ضياعه التى بالشام ومصر ، وتتبع أسبابه ، ثم خرج به معه الى الشام وعاد به الى مصر ، ثم خرج به ثانيا الى الشام . فمات الفضل بن الفرات بالرملة ورجع أبو بكر الى مصر . فرد اليه الاخشيد أمور مصر كلها ، وخلع على ابنه ، وتقلد السيف ولبس المنطقة ، ولبس أبو بكر الدراعة تنزها .

ثم تنكر عليه الاخشيد ، وقبضه فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ، وجعله فى دار ، وأعد له فيها من الفرش والآلات والأوانى والملبوس والطيب والطرائف وأنواع المآكل والمشارب ما بلغ فيه الغاية ، وتفقدها بنفسه ، وطافها كلها .

فقيل له : عملت هذا كله لمحمد بن على الماردانى .

فقال : نعم هذا ملك ، وأردت ألا يحتقر بشىء لنا ، ولا يحتاج أن يطلب حاجة الا وجدها ، فانه ان فقد عندنا شيئا مما يريده استدعى به من داره ، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك ، فلم يزل معتقلا حتى خرج الاخشيد الى لقاء أمير المؤمنين المتقى لله ، فحمله معه .

ولما مات الاخشيد بدمشق كان أبو بكر بمصر . فقام بأمر أونوجور بن الاخشيد ، وقبض على محمد بن مقاتل وزير الاخشيد ، وأمر ونهى ، وصرف الأمور ... الى أن كانت واقعة غلبون واتصال أبى بكر به . فلما عادت الاخشيدية ، قبض على أبى بكر ، ونهبت دوره ، وأحرق بعضها ، وأخذ ابنه ، وقام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة .

فعندما قدم كافور الاخشيدى من الشام بالعساكر التى كانت مع الاخشيد ، أطلق أبا بكر وأكرمه ، ورد اليه ضياعه وضياع ابنه . فلما ماتت أم ولده ، لحقه كافور ومعه الأمير أونوجور عند المقابر ، وترجلا له

وعزياه ، ثم ركبا معه حتى صليا عليها . فلما مرض مرض موته ، عاده كافور مرارا الى أن مات فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، فدفن بداره ، ثم نقل الى المقابر .

وكانت فضائله جمة : منها أنه أقام أربعين سنة يصوم الدهر كله ، ويركب كل يوم الى المقابر بكرة وعشية ، فيقف له الموكب حتى يمضى الى تربة أولاده وأهله ، فيقرأ عندهم ويدعو لهم ، وينصرف الى المساجد فى الصحراء فيصلى بها والناس وقوف له ... الا أنه كان فى غاية العجلة ، لا يراجع فيما يريده ولو كان ما كان .

ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيرا كتبت رقعة فيها أسماء جماعة ، وأنفذت الى على بن عيسى ليشير بواحد منهم — وكان أبو بكر ممن كتب معهم اسمه — فكتب تحت اسم كل واحد منهم ما يستحقه من الوصف ، وكتب تحت اسم أبى بكر محمد بن على الماردانى « مترف عجول » .

وبنى أبو بكر السقايات والمساجد فى المغافر وفى يحصب وبنى وائل ، وليس لشىء منها اليوم * أثر يعرف . ومرت له فى هذا الكتاب أخبار ، وقد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة وهذا منها ، والله أعلم .

ذكر بساتين الوزير

هذه البساتين فى الجهة القبلية من بركة الحبش . وهى قرية فيها عدة مساكن وبساتين كثيرة ، وبها جامع تقام فيه الجمعة ، وعرفت بالوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن محمد المغربى . وبنو المغربى أصلهم من البصرة ، وصاروا الى بغداد . وكان أبو الحسن على ابن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد ، فنسب به الى المغرب ، وولد ابنه الحسين بن على ببغداد ، فتقلد أعمالا كثيرة ، منها تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد .

وكان خال ولده على — وهو أبو على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى — من أصحاب أبى بكر محمد بن رائق . فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل ، صار الحسين ابن على بن المغربى الى الشام ، ولقى الاخشيد وأقام عنده ، وصار ابنه أبو الحسن على بن الحسين ببغداد ، فأنفذ الاخشيد غلامه فاتك المجنون ، فحمله ومن يليه الى مصر .

ثم خرج ابن المغربى من مصر الى حلب ، ولحق به سائر أهله ، ونزلوا عند سيف الدولة أبى الحسن على بن عبد الله بن حمدان مدة حياته ، وتخصص به الحسين بن على بن محمد المغربى ، ومدحه أبو نصر بن نباتة ، وتخصص أيضا على بن الحسين بسعد الدولة ابن حمدان ، ومدحه أبو العباس النامى .

ثم شجر بينه وبين ابن حمدان ففارقه ، وصار الى بكجور بالرقة ، فحسن له مكاتبة العزيز بالله نزار والتحيز اليه .

فلما وردت على العزيز مكاتبة بكجور قبله واستدعاه ، وخرج من الرقة يريد

(*) ص١٥٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

دمشق ، فوافاه عبد العزيز بولاية دمشق وخلفه ، فتسلمها وخرج لمحاربة ابن حمدان بحلب بمشورة على بن المغربى ، فلم يتم له أمر ، وتأخر عنه من كاتبه ، فقال لابن المغربى : غررتنى فيما أشرت به على ، وتنكر له . ففر منه الى الرقة .

وكانت بين بكجور وبين ابن حمدان خطوب آلت الى قتل ابن بكجور ومسير ابن حمدان الى الرقة . ففر ابن المغربى منها الى السكوفة ، وكاتب العزيز بالله يستأذنه فى القدوم ، فأذن له .

وقدم الى مصر فى جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، وخدم بها وتقدم فى الخدم ، فحرض العزيز على أخذ حلب . فقلد ينجوتكين بلاد الشام ، وضم اليه أبا الحسن بن المغربى ليقوم بكتابته ، ونظر الشام وتدبير الرجال والأموال . فسار الى دمشق فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، وخرج الى حلب ، وحارب أبا الفضائل بن حمدان وغلامه لؤلؤ ، فكاتب لؤلؤ أبا الحسن بن المغربى ، واستماله حتى صرف ينجوتكين عن محاربة حلب ، وعاد الى دمشق .

وبلغ ذلك العزيز بالله . فاشتد حنقه على ابن المغربى ، وصرفه بصالح بن على الروذبادى ، واستقدم ابن المغربى الى مصر . ولم يزل بها حتى مات العزيز بالله ، وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور ، فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه . فلما شرع الحاكم بأمر الله فى قتل رجال الدولة من القواد والكتاب والقضاة ، قبض على على ومحمد ابنى المغربى وقتلهما ، ففر منه أبو القاسم حسين بن على ابن المغربى الى حسان بن مفرج بن الجراح ، فأجاره .

وقلد الحاكم يارجتكين الشام . فخافه ابن جراح لكثرة عساكره ، فحسن له ابن المغربى مهاجمته ، فطرق يارجتكين فى مسيره على غفلة وأسره ، وعاد الى الرملة فشن الغارات على رساتيقها ، وخرج العسكر الذى بالرملة فقاتل العرب قتالا شديدا كادت العرب أن تنهزم لولا ثبتها ابن المغربى ، وأشار عليهم باشهار النداء باباحة النهب والغنيمة فثبتوا ، ونادوا فى الناس ، فاجتمع لهم خلق كثير ، وزحفوا الى الرملة فملكوها ، وبالغوا فى النهب والهتك والقتل .

فانزعج الحاكم لذلك انزعاجا عظيما ، وكتب الى مفرج بن جراح يحذره سوء العاقبة ، ويلزمه باطلاق يارجتكين من يد حسان ابنه وارساله الى القاهرة ، ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار . فبادر ابن المغربى لما بلغه ذلك الى حسان ، وما زال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره وضرب عنقه . فشق ذلك على مفرج ، وعلم أنه فسد ما بينه وبين الحاكم .

فأخذ ابن المغربى يحسن لمفرج خلع طاعة الحاكم والدعاء لغيره الى أن استجاب له . فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوى أمير مكة يدعوه الى الخلافة ، وسهل له الأمر ، وسير اليه بابن المغربى يحثه على المسير ، وجرأه على أخذ مال تركه بعض المياسير ، ونزع المحاريب الذهب والفضة

المنصوبة على الكعبة وضربها دنانير ودراهم وسماها الكعبية .

وخرج ابن المغربى من مكة فدعا العرب من سليم وهلال وعوف بن عامر ، ثم سار به وبمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة . فتلقاه بنو الجراح ، وقبلوا له الأرض ، وسلموا عليه بامرة المؤمنين ، ونادى فى الناس بالأمان ، وصلى بالناس الجمعة .

فامتغص الحاكم لذلك ، وأخذ فى استمالة حسان ومفرج وغيرهما ، وبذل لهم الأموال ، فتنكروا على أبى الفتوح ، وقلد أيضا مكة بعض بنى عم أبى الفتوح . فضعف أمره ، وأحس من حسان بالغدر ، فرجع الى مكة وكاتب الحاكم واعتذر اليه ، فقبل عذره * .

وأما ابن المغربى فانه لما انحل أمر أبى الفتوح ، ورأى ميل بنى الجراح الى الحاكم كتب اليه :

وأنت ، وحسبى أنت تعلم أن لى
لسانا أمام المجد يبنى ويهدم
وليس حليما من تباس يمينه
فيرضى ، ولكن من تعض فيحلم

فسير اليه أمانا بخطه . وتوجه ابن المغربى قبل وصول أمان الحاكم اليه الى بغداد ، وبلغ القادر بالله خبره ، فاتهمه بأنه قدم فى فساد الدولة العباسية ، فخرج الى واسط واستعطف القادر ، فعطف عليه وعاد الى بغداد ، ثم مضى الى قرواش بن المقلد أمير العرب ، وسار معه الى الموصل فأقام بها مدة .

(*) ص١٥٧ ج٢ ، ط بولاق .

وخافه وزير قرواش فأخرجه الى ديار بكر ، فأقام عند أميرها نصير الدولة أبى نصر أحمد ابن مروان الكردى ، وتصرف له ، وكان يلبس فى هذه المدة المرقعة والصوف . فلما تصرف غير لباسه وانكشف حاله ، فصار كمن قيل فيه ، وقد ابتاع غلاما تركيا كان يهواه قبل أن يبتاعه :

تبدل من مرقعة ونسك
بأنواع المسك والشفوف
وعنّ له غزال ليس يحوى
هواه ولا رضاه بلبس صوف
فعاد أشد ما كان انتهاكا
كذاك الدهر مختلف الصروف

وأقام هناك مدة طويلة فى أعلى حال وأجل رتبة وأعظم منزلة ، ثم كوتب بالمسير الى الموصل ليستوزره صاحبها . فسار عن ميافارقين وديار بكر الى الموصل ، فتقلد وزارتها ، وتردد الى بغداد فى الوساطة بين صاحب الموصل وبين السلطان أبى على بن سلطان الدولة أبى شجاع بن بهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة أبى شجاع بن ركن الدولة أبى على بن بويه ، واجتمع برؤساء الديلم والأتراك ، وتحدث فى وزارة الحضرة حتى تقلدها ، بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة ، فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأقام شهورا ، وأغرى رجال الدولة بعضهم ببعض .

وكانت أمور طويلة آلت الى خروجه من الحضرة الى قرواش ، فتجدد للقادر بالله فيه سوء ظن بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة

بالسكوفة ، حتى ذهبت فيها عدة نفوس وأموال . ففر الى أبي نصر بن مروان ، فأكرمه وأقطعه ضياعا وأقام عنده ، فكوتب من بغداد بالعود اليها ، فبرز عن ميافارقين يريد المسير الى بغداد فسم هناك ، وعاد الى المدينة فمات بها لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة . ومولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذي الحجة سنة سبعين وثلثمائة .

وكان أسمر شديد السمرة ، بساطا عالما بليغا مترسلا ، متفننا في كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية ، مشارا اليه في قوة الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبديهة ، عظيم القدر ، صاحب سياسة وتدبير وحيل كثيرة وأمور عظام . دوخ الممالك ، وقلب الدول ، وسمع الحديث ، وروى وصنف عدة تصانيف . وكان ملولا حقودا ، لا تلين كبده ، ولا تنحل عقده ، ولا يحنى عوده ، ولا ترجى وعوده . وله رأى يزين له العقوق ، ويبغض اليه رعاية الحقوق ، كأنه من كبره قد ركب الفلك ، واستولى على ذات الحبك .

وكان بمصر من بنى المغربي أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي ، قد قتل الحاكم جده محمداً مع أبيه علي بن الحسين كما تقدم . فلما نشأ أبو جعفر صار الى العراق وخدم هناك ، وتنقلت به الأحوال ، ثم عاد الى مصر ، واصطنعه الوزير البارزى ، وولاه ديوان الجيش ، وكانت السيدة أم المستنصر تعنى به . فلما مات الوزير البارزى ، وولى بعده الوزير أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى ، قبض عليه في جملة أصحاب البارزى واعتقله . فتقررت له الوزارة وهو في الاعتقال ، وخلع عليه في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة ، ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصته . فما تعرض لأحد ، ولا فعل في البابلى ما فعله البابلى فيه وفي أصحاب البارزى ، فأقام سنتين وشهورا ، وصرف في تاسع شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة .

وكان الوزراء اذا صرفوا لم يتصرفوا . فاقترح أبو الفرج بن المغربي لما صرف أن يتولى بعض الدواوين ، فولى ديوان الانشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر ، وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر ، واستحدث استخدام الوزراء بعد صرفهم عن الوزارة . ولم يزل نابه القدر الى أن توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

« بركة الشعيبية » : هذه البركة موضعها خلف جسر الأفرم ، فيما بينه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد ، وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها ، وقد انقطع عنها الماء ، وصارت بساتين ومزارع وغير ذلك .

قال ابن المتوج : بركة الشعيبية بظاهر مصر . كان يدخل اليها ماء النيل ، وكان لها خليجان : أحدهما من قبليها ، وهو الآن بجوار منظرة الصاحب تاج الدين بن حنا المعروفة بمنظرة المعشوق . والثانى من بحريها * ، ويقال له خليج بنى وائل ، عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر . وكان

(*) ص١٥٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

يجرى فيهما الماء من النيل اليهـا ، فكان الماء يدخل اليها فى كل سنة ويعمها ، ويدخل اليها الشخاتير .

وكان بدائرهـا من جانبهـا الشرقى آدر كثيرة ، وكانت نزهة المصريين . فلما استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم من الناظر عليها من جهة الحكم العزيزى ، حازها بالجسور عن الماء ، وغرس فيها الأشجار والكروم ، وحفر الآبار .

وهذه البركة مساحتها أربعـة وخمسـون فدانا ، ولها حدود أربعة : الحد القبلى ينتهى بعضه الى بعض أرض المعشوق الجـارى فى وقف ابن الصابونى ، والى الجسر الفاصـل بينهـا وبين بركة الحبش ، وفى هـذا الجسر الآن قنطرة يدخل اليها الماء من خليج بركة الأشراف . والحد البحرى كان ينتهى بعضه الى منظرة قاضى القضاة بدر الدين السنجارى والى جسره . والحد الشرقى ينتهى الى الآدر التى كانت مطلة عليها ، وقد خرب أكثرها ، وكانت مسكن أعيان المصريين من القضـاة والكتاب . والحد الغربى ينتهى الى جـرف النيل .

ولما استأجرها الأفرم شرط له خمسة أفدنة يعمر عليها ، ويؤجرها لمن يعمر عليها : منها فدان واحد من بحريها ، وفدانان من غربيها ملاصقان لجدار البساتين ، وفدانان بالجرف الذى من حقوقها . فلما مات الأفرم طمـع الأمير علم الدين الشجاعى فى ورثتـه وفى الوقف وأربابه ، فغصب أرض الجرف وجملتها فدانان ثم تركها . فلمـا كان فى أثنـاء دولة الناصر محمـد بن قلاوون ووزارة الأعسر ، بيعت أرضها لأرباب الأبنية التى عليها وهذه البركة وقفها الخطير بن مماتى ، ودخل معهم بنو الشعيبية لاختلاط أنسابهم بالتناسل .

وقال فى موضع آخر : ومن جملة الأوقاف بركة الخطير بن مماتى المشـهورة ببـركة الشعيبية ، ومساحة أرضها أربعة وخمسـون فدانا وربع ، ولها حدود أربعة : القبلى من البركة الصغرى منها الى الجسر الفاصـل بينها وبين بركة الحبش ، وفيه قنطرة يمر منها الماء الى هذه البركة ، وباقى هذا الحد الى بعض أبنية مناظر المعشوق .

ومن جملة حقـوق هـذا الوقف المجـاز المستطيل المسلوك فيه الى المنظرة المذكورة ، ومنه دهليزها والايوان البحرى . وهذا جميعه وأيته ترعة من تراع هذه البركة المذكورة يمر الماء فيها فى زمن النيل اليها . وكان باقى هذه المنظرة دارا مطلة على بحر النيل من شرقيها ، وعلى هـذه الترعة من بحريها ، ثم ملـكها الصـاحب تاج الدين بن حنـا وهدمها وردم الخليج ، وعمر المنظرة والحمـام والبيـوت الموجودة الآن ، وباقى ذلك كله فى أرض ابن الصابونى .

وحد هـذه البركة من الجهة البحرية الى الطريق الآن ، وكان فيه جسر — يعرف بجسر الحيات — كان يفصل بين هذه البركة وبين بركة شطا ، وكان فيه قنطرة يجرى الماء فيها من هذه البركة الى بركة شـطا ، وكان فى هذا الحـد ترعة أخرى يجرى الماء فيها فى زمن النيل من البحر الى هذه البركة ، ورأيته

يجرى فيها ، ورأيت الشخاتير تدخل فيها الى هذه البركة .

وأما حدها الشرقى فانه كان الى أبنية الآدر المطلة على هذه البركة . وأما حدها الغربى فانه كان الى بحر النيل .

ولم تزل كذلك الى أن استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم ، فردم هذه الترعة ، وبنى حيطان هذا البستان ، وجسر عليه ، وزرع فيه الشتول والحضراوات . وأقام على ذلك عدة سنين ، ثم استأجره اجارة ثانية ، واشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانبه الغربى وفدان فى جانبه البحرى . فعمر الناس واستغنى عن الجسور ، ورخص على الناس حتى رغبوا فى العمارة ، وآجر كل مائة ذراع من ذلك بعشرة دراهم نقرة ، وعمر البئر المشهورة ببئر السواقى فعمرت أحسن عمارة .

فلما توفى الأفرم طمع الشجاعى فى أرباب الوقف وفى ورثته ، ونزع منهم الفدادين المطلة على بحر النيل ، وابتاع ذلك من وكيل بيت المال ، وأعانه عليه قوم آخرون يجتمعون عند الله تعالى .

ذكر المعشوق

اعلم أن المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر مصر ، من جملة خطة راشدة ، عرف أولا بجنان كهمس بن معمر ، ثم عرف بجنان الماردانى ، ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين الله ، ثم جدده الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به . وآخرا صار من وقف ابن الصابونى ، فأخذه الصاحب تاج الدين محمد ابن حنا ، وعمر به مناظر ، وأوصى بعمارة رباط للآثار النبوية وأن توقف عليه .

فلما أنشىء الرباط المذكور ، أرصد لمصالحه ، وهو الآن وقف عليه . وأرض هذا البستان مما وقفه ابن الصابونى على بنيه ، وعلى رباطه المجاور لقبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه بالقرافة . وبنو الصابونى يستأدون من المتحدث على رباط الآثار شيئا فى كل سنة عن حكر أرض بستان المعشوق .

قال القضاعى فى ذكر خطة راشدة : ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة ، والجنان المعروفة . كانت تعرف بكهمس بن معمر ، ثم عرفت بالماردانى ، وهو المعروف الآن بالأمير تميم بن المعز .

هذا وقد بنى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل * فى الجانب الشرقى من « سر من رأى » قصرا سماه المعشوق وأقام به . وبين بغداد وتكريت منزلة فيها آثار بناء وقصور تسمى العاشق والمعشوق . وفيه أنشد الشريف زهرة بن على بن زهرة بن الحسن الحسينى ، وقد اجتاز به يريد الحج :

قد رأيت المعشوق وهو من الهجـ
ـر بحال تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء
قد أدالت يد الحوادث منه

وقال : ابن يونس كهمس بن معمر بن محمد بن معمر بن حبيب ، يكنى أبا القاسم ،

(*) ص١٥٩ جـ٢، ط. بولاق .

كان أبـوه بصريا ، وولد هو بمصر ، وكان عاقلا ، وكانت القضاة تقبله . حدث عن محمد ابن ومح وعيسى بن حماد زغبة وسلمـة بن شبيب ونحوهم . توفى فى يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة احدى عشرة وثلثمائة .

وقال ابن خلـكان : تميـم بن المعز بن المنصور بن القـائم بن المهـدى . كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب ، وهو الذى بنى القاهرة المعزية . وكان تميم فاضلا شاعرا ماهرا لطيفا ظريفا ، ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيـه ، وأشعاره كلها حسنة ، وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وثلثمائة . وقد ذكر كلا من الماردانى وابن حنا والأفضل .

وأما ابن مماتى فانه أسعد بن مهـذب بن زكريا بن قدامة بن نينا ، شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح ، الكاتب المصرى . أصله من نصارى سيوط من صعيد مصر ، واتصل جده أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمـالى ، وزير مصر فى أيام الخليفـة المستنصر بالله ، وكتب فى ديوان مصر ، وولى استيفاء الديوان .

وكان جوادا ممدوحا . انقطـع اليـه أبو الطاهر اسماعيـل بن محمـد ، المعروف بابن مكيسة الشاعر ، فمن قوله فيه لما مات :

طويت سماء المكرما
ت وكورت شمس المديح
وتناثرت شهب العلا
من بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى
ء من الرجال ولاالشحيح
كفر النصـارى بعد ما
عذروا به دون المسيح

ورثاه جماعة من الشعراء . ولما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطميـة . فلمـا قدم الأمير أسـد الدين شـيركوه ، وتقلد وزارة الخليفة العاضد ، شـدد على النصـارى ، وأمرهم بشد الزنانير على أوساطهم ، ومنعهم من ارخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة ، فكتب لأسد الدين :

ياأسـد الدين ومن عـدله
يحفظ فينا سـنة المصـطفى
كفى غيارا شد أوساطنا
فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبتـه ، ولا مكنـه من ارخاء الذؤابة .

وعندما أيس من ذلك أسلم ، فقدم عـلى الدواوين حتى مات . فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد بن مهذب ، الملقب بالخطير ، على ديوان الجيش ، واستمر فى ذلك مدة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيام ابنـه الملك العزيز عثمـان ، وولى نظر الدواوين أيضا ، واختص بالقـاضى الفاضـل وحظى عنده ، وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه .

وصنف عدة مصنفـات : منـها « تلقين اليقين » فيه الكلام على حديث « بنى الاسلام على خمس ... » ، وكتاب « حجة الحق على

الخلق » فى التحذير من سوء عاقبة الظلم ، وهو كبير ، وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وقال فيه القاضى الفاضل : وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدته ، فما رأيت والله كتابا يكون قبالة باب منه ، وانه والله من أهم ما طالعه الملوك . وكتاب « قوانين الدواوين » صنفه للملك العزيز ، فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ، وما يجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف . فان ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ، ومساحة كل ضيعة ، وقانون ريها ، ومتحصلها من عين وغلة . ونظم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف ، ونظم كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر *.

ولم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ووزر له صفى الدين على بن عبد الله بن شكر ، فخافه الأسعد لما كان يصدر منه فى حقه من الاهانة . وشرع الوزير بن شكر فى العمل عليه ، ورتب له مؤامرات ونكبه ، وأحال عليه الأجناد . ففر من القاهرة وسقط فى حلب ، فخدم بها حتى مات فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة عن اثنتين وستين سنة .

وكان سبب تلقيب أبى مليح بمماتى أنه كان عنده ، فى غلاء مصر فى أيام المستنصر ، قمح كثير ، وكان يتصدق على صغار المسلمين وهو اذ ذاك نصرانى ، وكان الصغار اذا رأوه * قالوا : مماتى . فلقب بها .

(*) ص١٦٠ ج٢ ، ط. بولاق .

ومن شعره :

تعاتبنى وتنهى عن أمور
سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عينى
وحقك ما على أضر منها

وقال فى أترجة كانت بين يدى القاضى الفاضل ، وهو معنى بديع :

لله بل للحسن أترجة
تذكر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسها
من هيبة الفاضل عبد الرحيم

« بركة شطا » : هذه البركة موضعها الآن كيمان على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالبا جسر الأفرم ورباط الآثار . كان الماء يعبر اليها من خليج بنى وائل ، وموضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة ، وكان عليه قنطرة بناها العزيز بالله ابن المعز ، وبها سمى باب القنطرة هذا .

قال ابن المتوج : بركة شطا بظاهر مصر على يسرة من مر من باب القنطرة . وكان الماء يدخل اليها من خليج بنى وائل من برابخ بالسور المستجد ، ومن بركة الشعيبية من قنطرة فى وسط الجسر ، المعروف بجسر الحيات ، الذى كان يفصل بين البركتين المذكورتين ، وكان بوسطها مسجد يعرف بمسجد الجلالة بقناطر بوسطها كان يسلك عليها اليه ، وكان يطل على بركة شطا آدر خربت بانقطاع الماء عنها ، وكان الى جانبها بستان فيه منظرة ودراية وطاحون وحمام ،

وبظاهر بابه حوض سبيل وقف ذلك المخلص الموقع ، وقد خرب .

« بركة قارون » : هــذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة ، خلف جامع ابن طولون ، وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل . وعليها الآن عــدة آدر وتعرف ببركة قراجا ، وكان عليها عــدة عمائر جليلة فى قديم الزمان عندما عمر العسكر والقطائع .

فلما خربت العسكر والقطائع — كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب — خرب ما كان من الدور على هذه البركة أيضا ... حتى انه كان من خــرج من مصــلى مصر القــديم — وموضعه الآن الكوم الذى يطل على قبر القاضى بكار بالقرافة الكبرى — يرى بركة الفيل وقارون والنيل .

ولم يزل ما حول هذه البركة خرابا الى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البــركة الناصرية فى أراضى الزهرى . وكانت واقعــة الكنائس فى سنة احدى وعشرين وسبعمائة ، فصار جانب هذه البركة الذى يلى خط السبع سقايات مقطع طريق فيه مركز يقيم فيه ، من جهة متولى مصر ، من يحرس المارة من القاهرة الى مصر .

ولم يكن هناك شىء من الدور ، وانمــا كان هناك بستان بجوار حوض الدميــاطى ، الموجود الآن تجاه كوم الأسارى ، على يمنة من خرج وسلك من السبع سقايات الى قنطرة السـد ، ويشرف هذا البســتان على هذه البركة . فحكر أقبغا عبــد الواحد مكانه ، وصارت فيه الدور الموجودة الآن ، كما ذكر عند حكر أقبغا فى ذكر الأحكار .

قال القضاعى : دار الفيل هى الدار التى على بركة قارون ... ذكر بنو مسكين أنها من حبس جــدهم . وكان كافــور أميــر مصر اشتراها ، وبنى فيها دارا ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار ، ثم سكنها فى رجب ســنة ست وأربعين وثلثمائة .

وذكر اليمنى أنه انتقل اليها فى جمــادى الآخرة من السنة المذكورة ، وأنه كان أدخل فيها عدة مساجد ومواضع اغتصبها من أربابها ولم يقم فيها غير أيام قلائل ، ثم أرسل الى أبى جعفر مسلم الحسينى ليلا فقال له : امض بى الى دارك . فمضى به فمر على دار ، فقال : لمن هذه ؟ فقــال : لغلامك نحرير التربيــة . فدخلهــا وأقام فيها شهورا الى أن عمروا له دار خمارويه ، المعروفة بدار الحرم ، وسكنها . وقيل ان سبب انتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة ، وقيل وباء وقع فى غلمــانه ، وقيل ظهر له بها جان .

وكانت دار الفيــل هذه ينظر منها جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة .

قال أبو عمر الكندى فى « كتاب الموالى » : ومنهم أبو غنيم ، مولى مسلمــة بن مخلد الأنصارى . كان شريفا فى الموالى ، وولاه عبد العزيز بن مروان الجزيرة ثم عزله عنها . وكان يجلس فى داره التى يقــال لها دار الفيــل ، فينظر الى الجزيرة فيقول لاخوانه : أخبرونى

بأعجب شيء في الدنيا . قالوا : منارة الاسكندرية .

قال : ما أصبتم شيئا .

قال : فيقولون له : فقناة قرطاجنة .

فيقول : ما صنعتم شيئا .

قالوا : فما تقول أنت ؟

قال : العجب أنى أنظر الى الجزيرة ولا أقدر أدخلها .

وعلى هذه البركة الآن عدة آدر جليلة ، وجامع وحمام وغير ذلك . والله تعالى أعلم بالصواب .

« بركة الفيل » : هذه البركة فيما بين مصر والقاهرة ، وهى كبيرة جدا ، ولم يكن فى القديم عليها بنيان . ولما وضع جوهر القائد مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة ، ثم حدثت حارة السودان وغيرها خارج باب زويلة . وكان ما بين حارة السودان وحارة اليانسية وبين بركة الفيل فضاء ، ثم عمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر كلها .

قال ابن سعيد وقد ذكر القاهرة : وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل ، لأنها * دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم ، فيكون بذلك لها منظر عجيب ، وفيها أقول :

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها ، وقد قابلتها الشمس بالغدو ، فقلت :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت
لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفا ببهجتها
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

وماء النيل يدخل الى بركة الفيل من الموضع الذى يعرف اليوم بالجسر الأعظم تجاه الكبش . وبلغنى أنه كان هناك قنطرة كبيرة فهدمت ، وعمل مكانها هذه المجاديل الحجر التى يمر عليها الناس .

ويعبر ماء النيل الى هذه البركة أيضا من الخليج الكبير من تحت قنطرة تعرف قديما وحديثا بالمجنونة ، وهى الآن لا تشبه القناطر ، وكأنها سرب يعبر منه الماء ، وفوقه بقية عقد من ناحية الخليج ، كان قد عقده الأمير الطيبرس وبنى فوقه متنزها ، فقال فيه علم الدين بن الصاحب :

ولقد عجبت من الطبرس وصحبه
وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقودا لا تصح لأنهم
عقدوا لمجنون على مجنونة

وكان الطيبرس هذا يعتريه الجنون . واتفق أن هذا العقد لم يصح وهدم ، وآثاره باقية الى اليوم .

« بركة الشقاف » : هذه البركة فى بر الخليج الغربى بجوار اللوق ، وعليها الجامع

(*) ص ١٦١ جـ٢ ، ط . بولاق .

المعروف بجامع الطباخ فى خط باب اللوق .
وكانت هذه البركة من جملة أراضى الزهرى — كما ذكر فى حكر الزهرى عند ذكر الأحكار — وكان عليها فى القديم عدة مناظر منها منظرة الأمير جمال الدين موسى ابن يغمور ، وذلك أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة ، قبل أن تحتكر وتبنى دورا ، وذلك بعد سنة ستمائة . والله تعالى أعلم .

« بركة السباعين » : عرفت بذلك لأنه اتخذ عليها دار للسباع ، وهى موجودة هنالك الى يومنا هذا ، وهى من جملة حكر الزهرى وعليها الآن دور . ولم تحدث بها العمارة الا بعد سنة سبعمائة ، وانما كان جميع ذلك الخط ، وما حوله من منشأة المهرانى الى المقس بساتين ، ثم حكرت .

« بركة الرطلى » : هذه البركة من جملة أرض الطبالة . عرفت ببركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب . فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ، التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف الى أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه ، ويصب من بحرى أرض الطبالة فى الخليج الكبير ، فوافقوه على ذلك ، ومر الخليج من ظاهر هذه البركة كما هو اليوم . فلما جرى ماء النيل فيه روى أرض البركة ، فعرفت ببركة الحاجب ، فانها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب المذكور . وكان فى شرقى هذه البركة زاوية بها نخل كثير ، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة ، فسماها الناس بركة الرطلى نسبة لصانع الأرطال ، وبقيت نخيل الزاوية قائمة بالبركة الى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة .

فلما جرى الماء فى الخليج الناصرى ، ودخل منه الى هذه البركة ، عمل الجسر بين البركة والخليج ، فحكره الناس ، وبنوا فوقه الدور ، ثم تتابعوا فى البناء حول البركة حتى لم يبق بدائرها خلو ، وصارت المراكب تعبر اليها من الخليج الناصرى ، فتدورها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس ، فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف .

وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات ، وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير انكار . فاذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره ، فيجتمع فيها من الناس فى يومى الأحد والجمعة عالم لا يحصى لهم عدد .

وأدركت بهذه البركة ، من بعد سنة سبعين وسبعمائة الى سنة ثمانمائة ، أوقاتا انكفت فيها عمن كان بها أيدى الغير ، ورقدت عن أهاليها أعين الحوادث ، وساعدهم الوقت اذ الناس ناس والزمان زمان . ثم لما تكدر جو المسرات ، وتقلص ظل الرفاهة ، وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانمائة ... تلاشى أمرها .

وفيها الى الآن بقية صبابة ، ومعالم أنس ، وآثار تنبىء عن حسن عهد . ولله در القائل :

فى أرض طبالتنا بركة
مدهشة للعين والعقل

ترجح فى ميـزان عقلى على
كل بحـار الأرض بالرطل *

« البركة المعروفة ببطن البقرة » : هـذه البركة كانت فيما بين أرض الطبالة وأراضى اللوق . يصـل اليها ماء النيـل من الخور ، فيعبر فى خليج الذكر اليها ، وكانت تجـاه قصر اللـؤلؤة ودار الذهب فى بر الخليـج الغربى . وأول ما عرفت من خبر هذه البركة أنها كانت بستانا كبيرا ، فيما بين المقس وجنان الزهرى ، عرف بالبستان المقسى نسـبة الى المقس ، ويشرف على بحر النيل من غربيه ، وعلى الخليج الكبير من شرقيه .

فلما كان فى أيام الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله ، أمر بعد سنة عشر وأربعمائة بازالة أنشـاب هذا البستان ، وأن يعمل بركة قدام المنظرة التى تعرف باللؤلؤة . فلما كانت الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله ، هجرت البركة ، وبنى فى موضعها عدة أماكن عرفت بحـارة اللصوص اذ ذاك .

فلما كان فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأجـل المأمـون محمـد بن فاتك البطائحى ، أزيلت الأبنية ، وعمق حفر الأرض وسلط عليهـا ماء النيـل من خليج الذكر ، فصارت بركة عرفت ببطن البقرة ، وما برحت الى ما بعد سنة سبعمائة .

وكان قد تلاشى أمرها منذ كانت الغلوة ، فى زمن الملك العادل كتبغا سنة سبع وتسعين وستمائة ، فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض الطبالة من جانب الخليج الغربى الى حد المقس ، ويجد بطن البقرة عن يسـاره من جانب الخليج الغربى الى حـد المقس . وبحر النيل الأعظم يجرى فى غربى بطن البقرة على حافة المقس الى غربى أرض الطبالة ، ويمر من حيث الموضع المعروف اليوم بالجرف الى غربى البعل ، ويجرى الى منيـة الشيرج ... فكان خارج القاهرة أحسن متنزه فى مصر من الأمصار .

وموضع بطن البقرة يعرف اليـوم بكوم الجاكى المجاور لميدان القمح وما جاور تلك الكيمان والخـراب الى نحـو باب اللوق . وحـدثنى غير واحد ممن لقيت من شـيوخ المقس عن مشاهدة آثار هذه البركة ، وأخبرنى عمن شاهد فيها الماء . والى زمننا هذا موضع من غربى الخليج فيما يلى ميـدان القمح ، يعرف ببطن البقرة ، بقيـة من تلك البركة يجتمع فيه الناس للنزهة .

« بركة جناق » : هذه البركة خارج باب الفتوح . كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح التى تقدم ذكرها فى المناظر ، وكان ما حولها بساتين ، ولم يكن خارج باب الفتوح شيء من هذه الأبنية ، وانما كان هناك بساتين ، فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبسـتان ابن صيرم . فلما حكر بستان ابن صيرم ، وعمر فى مكانه الآدر وغيرها ، وعمر النـاس خارج باب الفتوح ، عمر ما حول هذه البركة بالدور ، وسـكنها الناس . وهى الى الآن عامرة ، وتعرف ببركة جناق .

(*) ص١٦٢ ج٢ ، ط . بولاق .

« بركة الحجاج » : هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها . عرفت أولا بجب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت الى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم . وبعض من لا معرفة له بأحوال أرض مصر يقول : « جب يوسف عليه السلام » ، وهو خطأ لا أصل له .

وما برحت هذه البركة متنزها لملوك القاهرة .

قال ابن يونس : عميرة بن تميم بن جزء التجيبى ، من بنى القرناء ، صاحب الجب المعروف بجب عميرة ، فى الموضع الذى يبرز اليه الحاج من مصر لخروجهم الى مكة .

وقال أبو عمر الكندى فى كتاب « الخندق » : ان فرسان الخندق من جب عميرة بن تميم بن جزء ، وصاحب جب عميرة من بنى القرناء طعن فى تلك الأيام ، فارتث فمات بعد ذلك .

وقال فى كتاب « الأمراء » : ثم ان أهل الحوف خرجوا على ليث بن الفضل أمير مصر . وكان السبب فى ذلك أن ليثا بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم ، فانتقصوا من القصب أصابع . فتظلم الناس الى ليث فلم يسمع منهم ، فعسكروا وساروا الى الفسطاط .

فخرج اليهم ليث فى أربعة آلاف من جند مصر ليومين بقيا من شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى مع أهل الحوف لثنتى عشرة خلت من شهر رمضان ، فانهزم الجيش عن ليث ، وبقى فى مائتين أو نحوها ، فحمل عليهم من معه فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة . وكان التقاؤهم فى أرض جب عميرة ، وبعث ليث الى الفسطاط بثمانين رأسا ، ورجع الى الفسطاط .

وقال المسيحى : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، عرض أمير المؤمنين العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب ، فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب مفوفة فضة ، ونصبت له فازة مستقلة وقبة مثقلة بالجوهر ، وضرب لابنه المنصور مضرب آخر ، وعرضت العساكر فكانت عدتها مائة عسكر ، وأقبلت أسارى الروم — وعدتهم مائتان وخمسون — فطيف بهم . وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار الى صلاة المغرب .

وقال ابن ميسر : كان من عادة أمير المؤمنين المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة على النجب ، مع النساء والحشم ، الى جب عميرة — وهو موضع نزهة — بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ، ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس .

وقال أبو الخطاب بن دحية : وخطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة ، وذلك (*) للمستنصر بل للبطال المستهتر .

أنشده العقيلى صبيحة يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء
ولا تضحى ضحى الا بصهباء

(*) ص ٦٦٣ ج ٢ ، ط . بولاق .

وادرك حجيـج الندامى قبل نفرهم
الى منى قصفهم مع كل هيفاء

ووصل ألف القطع للضرورة وهو جائز .

فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بها سوق الفسوق على ساق . وفى ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين ، حتى بيع القرص فى أيامه بالثمن الثمين .

وقال القاضى الفاضل فى حوادث المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة : وفيه خرج السلطان (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) الى بركة الجب للصيد ولعب الأكرة ، وعاد الى القاهرة فى سادس يوم من خروجه . وذكر من ذلك كثيرا عن السلطان صلاح الدين وابنه الملك العزيز عثمان .

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون ، وفى حوادث صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة : وفيه ركب السلطان الى بركة الحجاج للرمى على الكراكى ، وطلب كريم الدين ناظر الخاص ، ورسم أن يعمل فيهما أحواشا للخيل والجمال وميدانا ، وللأمير يكتمر الساقى مثله .

فأقام كريم الدين بنفسه فى هذا العمل ، ولم يدع أحدا من جميع الصناع المحتاج اليهم يعمل فى القاهرة عملا ، فكان فيها نحو الألفى رجل ومائة زوج بقر ... حتى تمت المواضع فى مدة قريبة . وركب السلطان اليها ، وأمر بعمل ميدان لنتاج الخيل فعمل . وما برح الملوك يركبون الى هذه البركة لرمى الكراكى ، وهم على ذلك الى هذا الوقت . وقد خربت المبانى التى أنشأها الملك الناصر .

وأدركنا بهذه البركة مراحا عظيما للأغنام ، التى يعلفها التركمانى حب القطن وغيره من العلف ، فتبلغ الغاية فى السمن ... حتى انه يدخل بها الى القاهرة محمولة على العجل لعظم جثتها وثقلها وعجزها عن المشى ، وكان يقال كبش بركاوى نسبة الى هذه البركة . وشاهدت مرة كبشا من كباش هذه البركة وزنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة وسبعين رطلا سوى الالية ، وبلغنى عن كبش انه وزن ما فى بطنه من الشحم خاصة فبلغ أربعين رطلا ، وكانت ألايا تلك الكباش تبلغ الغاية فى الكبر .

وقد بطل هذا من القاهرة ، منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، حتى لا يكاد يعرفه اليوم الا أفراد من الناس . وبركة الحجاج اليوم أرباب دركها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب « الجوهر المكنون فى معرفة القبائل والبطون » : بنو بطيخ بطن من لخم ، وهم ولد بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم ، وفخذها بنو صبرة بن بطيخ ، ولهم حارة مجاورة للخطة المعروفة اليوم بكوم دينار السايس .

وصبرة فى خندف وفى قيس ونزار ويمن : فالتى فى خندف فى بنى جعفر الطيار بنو صبرة

ابن جعفر بن داود بن محمـد بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب فخذ ، والتى فى قيس بنو صبرة ابن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد ابن قيس بن غيلان فخذ ، وأما التى فى نزار ففى شيبان بنو صبرة بن عوف بن محكم بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذ.

وأما التى فى يمن ففى لخم وجذام : فأما التى فى لخم فبنو صبرة بن بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن آراش ابن جديلة بن لخم ، وأما التى فى جذام فبنو صبرة بن نصيرة بن غطفان بن سعد بن اياس ابن حرام بن جذام ، واليه يرجع الصبريون ، وهم بالشام ، والله تعالى أعلم .

« بركة فرموط » : هذه البركة فيما بين اللوق والمقس . كانت من جملة بستان ابن ثعلب . فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى من موردة البلاط ، رمى ما خرج من الطين فى هذه البركة ، وبنى الناس الدور على الخليج ، فصارت البركة من ورائها ، وعرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط .

وأدركنا بها ديارا جليلة تتباهى أربابها فى احكام بنائها وتحسين سقوفها ، وبالغوا فى زخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الأشجار ، وأجروا اليها المياه من الآبار ، فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة . وأكثر من كان يسكنها الكتاب مسلموهم ونصاراهم وهم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة ، فكم حوت تلك الديار من حسن ومستحسن .

وانى لأذكرها وما مررت بها قط الا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم : اما روائح تقالى المطابخ ، أو عبير بخور العود والند ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دق هاون ، ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هى الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل ، وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة * فزالت الطرق ، وجهلت الأزقة ، وانكشف البركة ، وبقى حولها بساتين خراب .

وبلغنى أن المراكب كانت تعبر الى هذه البركة للتنزه ، وما أحسب ذلك كان ، فانها كانت من جملة البستان ، ولم ينقل أنه كان يقربها خليج سوى الخور ، ويبعد أن يصل اليها . والله أعلم .

وقرموط هذا هو أمين الدين قرموط ، مستوفى الخزانة السلطانية .

« بركة قراجا » : هذه البركة خارج الحسينية قريبا من الخندق . عرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى ، أحد أمراء مصر ، أنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون بالامرة فى سنة سبع عشرة وسبعمائة .

« البركة الناصرية » : هذه البركة من جملة جنان الزهرى . فلما خربت جنان

(*) ص١٦٤ جـ٢ ، طـ بولاق .

الزهرى ، صار موضعها كوم تراب . الى أن أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ميدان المهارى فى سنة عشرين وسبعمائة ، وأراد بناء الزريبة بجانب الجامع الطيبرسى ، احتاج فى بنائها الى طين . فركب وعين مكان هذه البركة ، وأمر الفخر ناظر الجيش فكتب أوراقا بأسماء الأمراء ، وانتدب الأمير بيبرس الحاجب . فنزل بالمهندسين ، فقاسوا دور البركة ، ووزع على الأمراء بالأقصاب ، فنزل كل أمير وضرب خيمة لعمل ما يخصه .

فابتدأوا العمل فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى شهر ربيع الأول سنة احدى وعشرين وسبعمائة . فتمادى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى — وكان اذ ذاك فى تلك الأرض عدة كنائس ، ولم يكن هناك شىء من العمائر التى هى اليوم حول البركة الناصرية ، ولا من العمائر التى فى خط قناطر السباع ، ولا فى خط السبع سقايات الى قنطرة السد ، وانما كانت بساتين وكنائس وديورة للنصارى — فاستولى الحفر على ما حول كنيسة الزهرى ، وصارت فى وسط الحفر حتى تعلقت .

وكان القصد أن تسقط من غير تعمد هدمها . فأراد الله تعالى هدمها على يد العامة ، كما ذكر فى خبرها عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب .

فلما تم حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين الى الزريبة ، وأجرى اليها الماء من جوار الميدان السلطانى الكائن بأراضى بستان الخشاب عند موردة البلاط . فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس ما حولها ، وبنوا عليها الدور العظيمة . وما برح خط البركة الناصرية عامرا . الى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور ، فهدم كثير مما كان هناك ، والهدم مستمر الى يومنا هذا .

ذكر الجسور

الجَسر — بفتح الجيم — الذى تسميه العامة جسرا ... عن ابن دريد . وقال الخليل : الجسر والجسر لغتان ، وهو القنطرة ونحوها مما يعبر عليه .

وقال ابن سيده : والجسر الذى يعبر عليه ، والجمع القليل أجسر ... قال :

ان فراخا كفراخ الأوكر
بأرض بغداد وراء الأجسر

والكثير جسور .

« جسر الأفرم » : هذا الجسر بظاهر مدينة مصر ، فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحناء قبلى مصر وبين رباط الآثار النبوية . كان موضعه فى أول الاسلام غامرا بماء النيل ، ثم انحسر عنه الماء فصار فضاء الى بحرى الخليج بنى وائل ، ثم ابتنى الناس فيه مواضع ، وكان هناك الهرى قريبا من الخليج . ثم صار موضع جسر الأفرم هذا ترعة يدخل منها ماء النيل الى البركة الشعيبية .

فلما استأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية ، وجعلها بستانا كما تقدم ذكره

فى البرك ، ردم هـذه الترعة ، وبنى حيطـان البستان وجسر عليه ، فأقام على ذلك سنين . ثم لما استأجر أرض البركة — بعدما غرسـها بالأشجار — اجارة ثانية ، اشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانب البستان الغربى وفدان فى جانبه البحرى ، ونادى فى الناس بتحكيره ، وأرخص سعر الحكر ، وجعل حكر كل مائة ذراع عشرة دراهم .

فهرع الناس اليه ، واحتكروا منه المواضع ، وبنوا فيها الدور المطلة على النيل . فاستغنى بالعمائر عن عمل الجسر فى كل سنة بين البحر والبستان الذى أنشـأه ، وبقى اسم الجسر عليه الى يومنا هذا . الا أن الآدر التى كانت هناك خربت منذ انطرد النيل عن البر الغربى ، بعدما بلغ ذلك الخط الغاية فى العمارة ، وكان سكن الوزراء والأعيان من الكتاب وغيرهم .

« الجسر الأعظم » : هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعا مسلوكا يمشى فيـه من الكبش الى قنـاطر السـباع . وأصله جسر يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل ، وبينهما سرب يدخل منه الماء ، وعليه أحجار يراها من يمر هنـاك ، وبلغنى أنه كان هنـاك قنطرة مرتفعة . فلما أنشأ الملك الناصر محمـد بن قلاوون الميدان السلطانى عند موردة البلاط ، أمر بهدم القنطرة فهدمت ، ولم يكن اذ ذاك على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان ، وانما كانت ظاهرة يراها المار . ثم أمر السلطان بعمل حائط قصير بطولها ، فأقيـم الحائط وصفر بالطين الأصـفر ، ثم حـدثت الدور هناك .

« الجسر بأرض الطبالة » : هـذا الجسر يفصـل بين بركة الرطلى وبين الخليـج * الناصرى . أقامه الأمير الوزير سـيف الدين بكتمـر الحـاجب ، فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة لما انتهى حفر الخليج النـاصرى ، وأذن للناس فى البنـاء عليه . فحكر وبنيت فوقه الدور ، فصارت تشرف على بركة الرطلى وعلى الخليج ، وتجتمع العـامة تحت مناظر الجسر ، وتمر بحـافة الخليج للنزهة . فكثر اغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر الى اليوم . وهو من أنزه فرج القاهرة ، لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة .

« الجسر من بولاق الى منية الشيراج » : كان السبب فى عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة حتى أخرق من ناحية بستان الخشاب ، ودخل الماء الى جهة بولاق ، وفاض الى باب اللوق حتى اتصـل بباب البحر وبساتين الخـور ، فهدمت عدة دور كانت مطلة على البحر وكثير من بيوت الحكورة ، وامتدا الماء الى ناحية منية الشيرج .

فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر ، وعرفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه متى غفل دخل الماء الى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها . فركب السلطان الى البحر ومعـه الأمراء ، فرأى ما هاله ، وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة ، فاقتضى رأيه عمـل جسر عند نزول الماء ، وانصرف .

(*) ص١٦٥ جـ٢ ، ط، بولاق .

فقويت الزيادة ، وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة ، وغرق بساتين بولاق والجزيرة حتى صار ما بين ذلك ملقة واحدة . وركب الناس المراكب للفرجة ، ومروا بها تحت الأشجار ، وصاروا يتناولون الثمار بأيديهم وهم فى المراكب . فتقدم السلطان لمتولى القاهرة ومتولى مصر ببث الأعوان فى القاهرة ومصر لرد الحمير والجمال التى تنقل التراب الى الكيمان ، وألزمهم بالقاء التراب بناحية بولاق . ونودى فى القاهرة ومصر : من كان عنده تراب ، فليرمه بناحية بولاق وفى الأماكن التى قد علا عليها الماء .

فاهتم الناس من جهة زيادة الماء اهتماما كبيرا ، خوفا أن يخرق الماء ويدخل الى القاهرة . وألزم أرباب الأملاك التى ببولاق والخور والمناشىء أن يقف كل واحد على اصلاح مكانه ، ويحترس من عبور الماء على غفلة . فتطلب كل أحد من الناس الفعلة من غوغاء الناس لنقل التراب ، حتى عدمت الحرافيش ، ولم تكن توجد لكثرة ما أخذهم الناس لنقل التراب ورميه . وتضررت الآدر القريبة من البحر بنززها ، وغرقت الأقصاب والقلقاس والنيلة وسائر الدواليب التى بأعمال مصر .

فلما انقضت أيام الزيادة ، ثبت الماء ولم ينزل فى أيام نزوله . ففسدت مطامير الغلات ومخازنها وشونها ، وتحسن سعر السكر والعسل ، وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة ما مكث الماء . فكتب لولاة الأعمال بكسر الترع والجسور كى ينصرف الماء عن أراضى الزرع الى البحر الملح ، واحتاج الناس الى وضع الخراج عن بساتين بولاق والجزيرة ، ومسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق ، وفسدت عدة بساتين الى أن أذن الله تعالى بنزول الماء ، فسقط كثير من الدور .

وأخذ السلطان فى عمل الجسور ، واستدعى المهندسين ، وأمرهم باقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا ، وكتب باحضار خولة البلاد . فلما تكاملوا أمرهم ، فساروا الى النيل وكشفوا الساحل كله ، فوجدوا ناحية الجزيرة مما يلى المنية قد صارت أرضها وطيئة ، ومن هناك يخاف على البلد من الماء .

فلما عرفوا السلطان بذلك ، أمر بالزام من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانى أو منشأة الكتاب أو بولاق ، أن يعمر قدامها على البحر زربية ، وأنه لا يطلب منهم عليها حكر ، ونودى بذلك ، وكتب مرسوم بمسامحتهم من الحكر عن ذلك . فشرع الناس فى عمل الزرابى ، وتقدم الى الأمراء بطلب فلاحى بلادهم ، واحضارهم بالبقر والجراريف لعمل الجسر من بولاق الى منية الشيرج .

ونزل المهندسون فقاسوا الأرض ، وفرضوا لكل أمير أقصابا معينة ، وضرب كل أمير خيمته ، وخرج لمباشرة ما عليه من العمل .

فأقاموا فى عمله عشرين يوما حتى فرغ ، ونصبت عندهم الأسواق . فجاء ارتفاعه من الأرض أربع قصبات فى عرض ثمانى قصبات ، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا .

وقدر الله سبحانه وتعالى أن الزرع فى تلك السنة حسن الى الغاية ، وأفلح فلاحا عجيبا ، وانحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضى وخصب السنة .

وكان قد اتفق فى سنة سبع عشرة وسبعمائة غرق ظاهر القاهرة أيضا . وذلك أن النيل وفى ستة عشر ذراعا فى ثالث عشر جمادى الأولى — وهو التاسع والعشرون من شهر أبيب ، أحد شهور القبط — ولم يعهد مثل ذلك ، فان الأنيال البدرية يكون وفاؤها فى العشر الأول من مسرى .

فلما كسر سد الخليج ، توقفت الزيادة مدة أيام ، ثم زاد وتوقف الى أن دخل تاسع توت والماء على سبعة عشر ذراعا وتسعة أصابع . ثم زاد فى يوم تسعة أصابع ، واستمرت الزيادة حتى صار على ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع . ففاض الماء ، وانقطع طريق الناس فيما بين القاهرة ومصر وفيما بين كوم الريش والمنية ، وخرج من جانب المنية وغرقها . فكتب بفتح جميع الترع والجسور بسائر الوجه القبلى والبحرى ، وكسر بحر أبى المنجا * ، وفتح سد بلبيس وغيره قبل عيد الصليب ، وغرقت الأقصاب والزراعات الصيفية .

وعم الماء ناحية منية الشيرج وناحية شبرا ، فخربت الدور التى هناك ، وتلف للناس مال كثير : من جملته زيادة على ثمانين ألف جرة خمر فارغة تكسرت فى ناحية المنية وشبرا عند هجوم الماء ، وتلفت مطامير الغلة من الماء حتى بيع قدح القمح بفلس — والفلس يومئذ جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم — وصار من بولاق الى شبرا بحرا واحدا تمر فيه المراكب للنزهة فى بساتين الجزيرة الى شبرا ، وتلفت الفواكه والمشمومات ، وقلت الخضر التى يحتاج اليها فى الطعام ، وغرقت منشأة المهرانى .

وفاض الماء من عند خانقاه رسلان ، وأفسد بستان الخشاب ، واتصل الماء بالجزيرة التى تعرف بجزيرة الفيل الى شبرا ، وغرقت الأقصاب التى فى الصعيد ، فان الماء أقام عليها ستة وخمسين يوما ، فعصرت كلها عسلا فقط ، وخربت سائر الجسور وعلاها الماء ، وتأخر هبوطه عن الوقت المعتاد ، فسقطت عدة دور بالقاهرة ومصر ، وفسدت منشأة الكتاب المجاورة لمنشأة المهرانى ... فلذلك عمل السلطان الجسر المذكور خوفا على القاهرة من الغرق .

« الجسر بوسط النيل » : وكان سبب عمل هذا الجسر أن ماء النيل قوى رميه على ناحية بولاق ، وهدم جامع الخطيرى ، ثم جدد وقويت عمارته وتيار البحر لا يزداد من ناحية البر الشرقى الا قوة . فأهم الملك الناصر أمره ، وكتب فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بطلب المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية ، وجمع المهندسين من أعمال مصر كلها قبليها وبحريها .

فلما تكاملوا عنده ، ركب بعساكره من قلعة الجبل الى شاطىء النيل ، ونزل فى

(*) ص١٦٦ جـ٢ ، طـ بولاق .

الحراقة وبين يديه الأمراء وسائر أرباب الخبرة من المهندسين وخولة الجسور ، وكشف أمر شطوط النيل . فاقتضى الحال أن يعمل جسرا فيما بين بولاق وناحية أنبوبة من البر الغربى ، ليرد قوة التيار عن البر الشرقى الى البر الغربى

وعاد الى القلعة . فكتبت مراسيم الى ولاة الأعمال باحضار الرجال صحبة المشدين ، واستدعى شاد العمائر السلطانية ، وأمره بطلب الحجارين وقطع الحجر من الجبل ، وطلب رئيس البحر وشاد الصناعة لاحضار المراكب . فلم يمض سوى عشرة أيام حتى تكامل حضور الرجال مع الشادين من الأقاليم .

وندب السلطان لهذا العمل الأمير أقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب فبرزا لذلك . وأحضر والى القاهرة ووالى مصر ، وأمرا بجمع الناس وتسخير كل أحد للعمل . فركبا وأخذا الحرافيش من الأماكن المعروفة بهم ، وقبضا على من وجد فى الطرقات وفى المساجد والجوامع ، وتتبعاهم فى الأسحار .

ووقع الاهتمام الكبير فى العمل من يوم الأحد عاشر ذى القعدة — وكانت أيام القيظ — فهلك فيه عدة من الناس . والأمير أقبغا فى الحراقة يستحث الناس على انجاز العمل ، والمراكب تحمل الحجر من الفص الكبير الى موضع الجسر .

وفى كل قليل يركب السلطان من القلعة ، ويقف على العمل ، ويهين أقبغا ويسبه ويستحثه ، حتى تم العمل للنصف من ذى الحجة .

وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة اثنى عشر مركبا ، كل مركب منها تحمل ألف اردب غلة . وعدة المراكب التى ملئت بالحجر حتى هدم وصار جسرا ثلاثة وعشرون ألف مركب ، سوى ما عمل فيه من آلات الخشب والسرياقات .

وحفر فى الجزيرة خليج وطىء . فلما جرى النيل فى أيام الزيادة مر فى ذلك الخليج ، ولم يتأثر الجسر من قوة التيار ، وصارت قوة جرى النيل من ناحية أنبوبة بالبر الغربى ومن ناحية التكرورى أيضا . فسر السلطان بذلك ، وأعجبه اعجابا كثيرا . وكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عن بر القاهرة حتى صار الى ما صار اليه الآن .

« الجسر فيما بين الجيزة والروضة » : كان السبب المقتضى لعمل هذا الجسر أن الملك الناصر لما عمل الجسر فيما بين بولاق وناحية أنبوبة وناحية التكرورى ، انطرد ماء النيل عن بر القاهرة ، وانكشفت أراض كثيرة ، وصار الماء يخاض من بر مصر الى المقياس ، وانكشف من قبالة منشأة المهرانى الى جزيرة الفيل والى منية الشيرج ، وصار الناس يجدون مشقة لبعد الماء عن القاهرة ، وغلت روايا الماء حتى بيعت كل راوية بدرهمين بعدما كانت بنصف وربع درهم .

فشكا الناس ذلك الى الأمير أرغون العلائى ، والى السلطان الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون . فطلب المهندسين ورئيس البحر ، وركب السلطان بأمرائه من القلعة الى شاطىء النيل ، فلم

يتهيأ عمل لما كان من ابتداء زيادة النيل ... الا أن الرأى اقتضى نقل التراب والشقاف من مطابخ السكر التى كانت بمصر ، والقاء ذلك بالروضة لعمل الجسر .

فنقل شيء عظيم من التراب فى المراكب الى الروضة ، وعمل جسر من الجيزة الى نحو المقياس فى طول نحو ثلثى ما بينهما من المسافة فعاد الماء الى جهة مصر عودا يسيرا ، وعجزوا عن ايصال الجسر الى المقياس لقلة التراب ، وقويت الزيادة حتى علا الماء الجسر بأسره . واتفق قتل الملك الكامل بعد * ذلك ، وسلطنة أخيه الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون أول جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة .

فلما دخلت سنة ثمان وأربعين ، وقف جماعة من الناس للسلطان فى أمر البحر ، واستغاثوا من بعد الماء وانكشاف الأراضى من تحت البيوت وغلاء الماء فى المدينة ، فأمر بالكشف عن ذلك .

فنزل المهندسون ، واتفقوا على اقامة جسر ليرجع الماء عن بر الجيزة الى بر مصر والقاهرة وكتبوا تقدير ما يصرف فيه مائة وعشرين ألف درهم فضة . فأمر بجبايتها من أرباب الأملاك التى على شط النيل ، وأن يتولى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر المحتسب جبايتها واستخراجها .

فقيست الدور ، وأخذ عن كل ذراع من أراضيها خمسة عشر درهما . وتولى قياسها أيضا المحتسب ووالى الصناعة ، فبلغ قياسها

(*) ص١٦٧ جـ٢ ، ط. بولاق .

سبعة آلاف وستمائة ذراع ، وجبى نحو السبعين ألف درهم . فاتفق عزل الضياء عن الحسبة ونظر المارستان المنصورى ونظر الجوالى ، وولاية ابن الأطروش مكانه ، ثم قتل الملك المظفر وولاية أخيه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر بعده فى شهر رمضان منها .

فلما كان فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وقع الاهتمام بعمل الجسر . فنزل الأمير يلبغا أروس نائب السلطنة ، والأمير منجك الأستادار — وكان قد عزل من الوزارة — والأمير قيلاى الحاجب ، وجماعة من الأمراء ومعهم عدة من المهندسين الى البحر فى الحراريق والمراكب الى بر الجيزة ، وقاسوا ما بين بر الجيزة والمقياس ، وكتب تقدير المصروف : نحو المائة والخمسين ألف درهم ، وألف خشبة من الخشب ، وخمسمائة صار ، وألف حجر فى طول ذراعين وعرض ذراعين ، وخمسة آلاف شنفة ، وغير ذلك من أشياء كثيرة .

فركب النائب والوزير والأمير شيخو والأمراء الى الجيزة ، وأعادوا النظر فى أمر الجسر ومعهم أرباب الخبرة . فالتزم الأمير منجك بعمل الجسر ، وأن يتولى جباية المصروف عليه من سائر الأمراء والأجناد والكتاب وأرباب الأملاك بحيث انه لا يبقى أحد حتى يؤخذ منه .

فرسم لكتاب الجيش بكتابة أسماء الجند ، وقرر على كل مائة دينار من الاقطاعات درهم واحد ، وعلى كل أمير من خمسة آلاف درهم

الى أربعة آلاف درهم ، وعلى كل كاتب أمير ألف مائتا درهم ، وكاتب أمير الطبلخانات مائة درهم ، وعلى كل حانوت من حوانيت التجار درهم ، وعلى كل دار درهمان .

وعلى كل بستان الفدان من عشرين درهما الى عشرة دراهم ، وعلى كل طاحون خمسة دراهم عن الحجر ، وعلى كل صهريج فى تربة بالقرافة أو فى ظاهر القاهرة أو فى مدرسة من عشرة دراهم الى خمسة دراهم ، وعلى كل تربة من ثلاثة دراهم الى درهمين ، وعلى أصحاب المقاعد والمتعيشين فى الطرقات شيء .

وكشفت البساتين والدور التى استجدت من بولاق الى منية الشيرج ، والتى استجدت فى الحكورة ، والتى استجدت على الخليج الناصرى وعلى بركة الحاجب وفى حكر أخى صاروجا . وقيست أراضيها كلها ، وأخذ عن كل ذراع منها خمسة عشر درهما ، وأخذ عن كل قمين من أقمنة الطوب شيء ، وعن كل فاخورة من الفواخير شيء .

وفرض على كل وقف بالقاهرة ومصر والقرافتين ، من الجوامع والمساجد والخوانك والزوايا والربط ، شيء .

وكتب الى ولاة الأعمال بالجباية من ديورة النصارى وكنائسهم من مائتى درهم الى مائة درهم ، وقرر على الفنادق والخانات التى بالقاهرة ومصر شيء . وقرر على ضامنة الأغانى مبلغ خمسين ألف درهم . وأقيم لكل جهة شاد وصيرفى وكتاب وغير ذلك من المستخدمين من الأعوان .

فنزل من ذلك بالناس بلاء كبير وشدة عظيمة . فانه أخذ حتى من الشيخ والعجوز والأرملة ، وجبى المال منهم بالعسف . وأبطل كثير منهم سببه لسعيه فى الغرامة ، ودهى الناس مع الغرامة بتسلط الظلمة من العرفاء والضمان والرسل . فكان بغرم كل أحد للقابض والشاد والصيرفى والشهود — سوى ما قرر عليه — جملة دراهم . فكثر كلام الناس فى الوزير ، حتى صاروا يلهجون بقولهم : هذه سخطة مرصصة نزلت من السماء على أهل مصر . وقاسوا شدة أخرى فى تحصيل الأصناف التى يحتاج اليها .

ونزل الوزير منجك ، وضرب له خيمة على جانب الروضة ، ونادى فى الحرافيش والفعلة « من أراد العمل يحضر ، ويأخذ أجرته درهما ونصفا وثلاثة أرغفة » .

فاجتمع اليه عالم كثير ، وجعل لهم شيئا يستظلون به من حر الشمس ، وأحسن اليهم ، ورتب عدة مراكب لنقل الحجر ، وأقام عدة من الحجارين فى الجبل لقطع الحجر ، وجمالا وحميرا تنقلها من الجبل الى البحر ، ثم تحمل من البر فى المراكب الى بر الجيزة .

وابتدأ بعمل الجسر من الروضة الى ساقية علم الدين بن زنبور ، وعارضه بجسر آخر من بستان التاج اسحاق الى ساقية ابن زنبور ، وأقام أخشابا من الجهتين ، وردم بينهما بالتراب والحجر والحلفاء ، ورتب الجمال السلطانية لقطع الطين من بر الروضة وحمله

الى وسط الجسر ، وأمر ألا يبقى بالقاهرة ومصر صانع الا حضر العمل ، وألزم من كان بالقرب من داره كوم تراب أن ينقله الى الجسر . فغرم كل واحد من الناس فى نقل التراب من ألف * درهم الى خمسمائة درهم . وكان كل ما ينقل فى المراكب من الحجر وغيره يرمى فى وسط جسر المقياس ، وتحمله الجمال الى الجسر .

ثم اقتضى الرأى حفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوة التيار عن الجسر . فأحضرت الأبقار والجراريف والرجال لأجل ذلك ، وابتدأوا حفره من رأس موردة الحلفاء تحت الدور الى بولاق ، وكانت الزيادة قد قرب أوانها ، فما انتهى الحفر حتى زاد ماء النيل وجرى فيه ، فسر الناس به سرورا كبيرا ، وانتهى عمل الجسر فى أربعة أشهر .

الا أن الشناعة قويت على الوزير ، وبلغ الأمراء النائب ما يقال عن منجك من كثرة جباية الأموال . فحدثه فى ذلك ومنعه . فاعتذر بأنه لم يسخر أحدا ، ولا استعمل الناس الا بالأجرة ، وأن فى هذا العمل للناس عدة منافع وما على من قول أصحاب الأغراض الفاسدة ونحو ذلك ، وتمادى على ما هو عليه .

فلما جرى الماء فى الخليج الذى حفر تحت البيوت من موردة الحلفاء الى بولاق ، مرت فيه المراكب بالناس للفرجة ، واحتاج منجك الى نقل خيمته من بر الروضة الى بر الجيزة ، وأحضر المراكب الكبار وملأها بالحجارة ، وغرق منها عشرة مراكب فى البحر ، وردم التراب عليها الى أن كمل نحو ثلثى العمل ، فقويت زيادة الماء ، وبطل العمل .

فلما كثرت الزيادة ، جمع منجك الحرافيش والأسرى ، وردم على الجسر التراب وقواه . فتحامل الماء عن البر الغربى الى البر الشرقى ، ومر من تحت الميدان السلطانى وزريبة قوصون الى بولاق ، فصار معظمه من هذه المواضع ، وحصل الغرض بكون الماء بالقرب من القاهرة . وانتهى طول جسر منجك الى مائتين وتسعين قصبة فى عرض ثمان قصبات وارتفاع أربع قصبات . والجسر الذى من الروضة الى المقياس طوله مائتان وثلاثون قصبة . وعدة ما رمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب وغير ذلك .

وكان ابتداء العمل فى مستهل المحرم ، وانتهاؤه فى سلخ ربيع الآخر . ولم تنحصر الأموال التى جبيت بسببه ، فانه لم يبق بالقاهرة ومصر دار ولا فندق ولا حمام ولا طاحون ولا وقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو زاوية ولا رزقة ولا كنيسة ، الا وجبى منه . فكان الرجل الواحد يغرم العشرة دراهم ، ومن خصه درهمان يحتاج الى غرامة أمثالهما وأضعافهما . وناهيك بمال يجبى من الديار المصرية على هذا الحكم كثرة .

وقد بقيت من جسر منجك هذا بقية ، هى معروفة اليوم فى طرف الجزيرة الوسطى .

« جسر الخليلى » : هذا الجسر فيما بين الروضة من طرفها البحرى وبين جزيرة أروى ،

(*) ص١٦٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

المعروفة بالجزيرة الوسطى ، تجاه الخور . وكان سبب عمله أن النيل لما قوى رمى تياره على بر القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقام فى عمل الجسر ليصير رمى التيار من جهة البر الغربى كما تقدم ذكره ، انطرد الماء عن بر القاهرة ، وانكشف ما تحت الدور من منشأة المهرانى الى منية الشيرج .

وعمل منجك الجسر الذى مر ذكره ليعود الماء فى طول السنة الى بر القاهرة ، فلم يتهيأ كما كان أولا ، وجرى فى الخليج الذى احتفره تحت الدور من موردة الحلفاء بمصر الى بولاق ، وصار تجاه هذا الخليج جزيرة . والماء لا يزال ينطرد فى كل سنة عن بر القاهرة الى أن استبد بتدبير مصر الأمير الكبير برقوق .

فلما دخلت سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، قصد الأمير جهاركس الخليلى عمل جسر ليعود الماء الى بر القاهرة ، ويصير فى طول السنة هناك ويكثر النفع به ، فيرخص الماء المحمول فى الروايا ، ويقرب مرسى المراكب من البلد ، وغير ذلك من وجوه النفع .

فشرع فى العمل أول شهر ربيع الأول ، وأقام الخوازيق من خشب السنط ، طول كل خازوق منها ثمانية أذرع ، وجعلها صفين فى طول ثلثمائة قصبة وعرض عشر قصبات ، وسمر فيها أفلاق النخل الممتدة ، وألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا ، وانتصب هناك بنفسه ومماليكه ، ولم يجب من أحد مالا ألبتة ، فانتهى عمله فى أخريات شهر ربيع الآخر ، وحفر فى وسط البحر خليجا من الجسر الى زريبة قوصون .

وقال شعراء العصر فى ذلك شعرا كثيرا ، منهم عيسى بن حجاج :

جسر الخليلى المقر لقد رسا
كالطود وسط النيل كيف يريد
فاذا سألتم عنهما قلنا لكم
ذا ثابت دهرا ، وذاك يزيد

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

شكت النيل أرضه للخليلى فاحصره
ورأى الماء خائفا أن يطاها فجسره

وقال :

رأى الخليلى قلب الماء حين طغى
بنى على قلبه جسرا وحيره *
رأى ترمل أرضيه ووحدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

ومع ذلك ما ازداد الماء الا انطرادا عن بر القاهرة ومصر . حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شىء كثير من الأراضى التى كانت غامرة بماء النيل ، وبعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الاسلام مثله قط .

« جسر شيبين » : أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، بسبب أن اقليم الشرقية كانت له

(*) ص١٦٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

سدود كلها موقوفة على فتح بحر أبى المنجا ، وفى بعض السنين تشرق ناحية شيبين وناحية مرصفا وغير ذلك من النواحى التى أراضيها عالية ، فشكا الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده التى فى تلك النواحى .

فركب السلطان من قلعة الجبل ، ومعه المهندسون وخولة البلاد — وكانت له معرفة بأمور العمائر ، وحدس جيد ، ونظر سعيد ، ورأى مصيب — فسار لكشف تلك النواحى حتى اتفق الرأى على عمل الجسر من عند شيبين القصر الى بنها العسل . فوقع الشروع فى عمله ، وجمع له من رجال البلاد اثنى عشر ألف رجل ومائتى قطعة جرافة ، وأقام فيه القناطر . فصار محبسا لتلك البلاد ، واذا فتح بحر أبى المنجا امتلأت الاملاق بالماء ، وأسند على هذا الجسر .

وفى أول سنة عمل هذا الجسر أبطل فتح بحر أبى المنجا تلك السنة ، وفتح من جسر شيبين هذا . وحصل بهذا الجسر نفع كبير لبلاد العلو ، واستبحر منه عدة بلاد وطيئة . والعمل على هذا الجسر الى يومنا هذا ، والله أعلم .

« جسرا مصر والجيزة » : اعلم أن الماء فى القديم كان محيطا بجزيرة مصر — التى تعرف اليوم بالروضة — طول السنة . وكان فيما بين ساحل مصر وبين الروضة جسر من خشب ، وكذلك فيما بين الروضة وبر الجيزة جسر من خشب ، يمر عليهما الناس والدواب من مصر الى الروضة ، ومن الروضة الى الجيزة .

وكان هذان الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض وهى موثقة ، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب ، وكان عرض الجسر ثلاث قصبات .

قال القضاعى : وأما الجسر فقال بعضهم : رأيت فى كتاب — ذكر أنه خط أبى عبد الله ابن فضالة — صفة الجسر وتعطيله وازالته ، وأنه لم يزل قائما الى أن قدم المأمون مصر ، وكان غربيا . ثم أحدث المأمون هذا الجسر الموجود اليوم الذى تمر عليه المارة وترجع من الجسر القديم . فبعد أن خرج المأمون عن البلد ، أتت ريح عاصف فقطعت الجسر الغربى ، فصدمت سفنه الجسر المحدث فذهبا جميعا ، فبطل الجسر القديم وأثبت الجديد . ومعالم الجسر القديم معروفة الى هذه الغاية .

وقال ابن زولاق فى كتاب « اتمام أمراء مصر » : ولعشر خلون من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، سارت العساكر لقتال القائد جوهر ، ونزلوا الجزيرة بالرجال والسلاح والعدة ، وضبطوا الجسرين . وذكر ما كان منهم ... الى أن قال : فى عبور جوهر أقبلت العساكر ، فعبرت الجسر أفواجا أفواجا ، وأقبل جوهر فى فرسانه الى المناخ موضع القاهرة .

وقال فى كتاب « سيرة المعز لدين الله » : وفى مستهل رجب سنة أربع وستين وثلثمائة ، أصلح جسر الفسطاط ، ومنع الناس من ركوبه ، وكان قد أقام سنين معطلا .

وقال ابن سعيد فى كتاب « المغرب » : وذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من

الفسطاط الى الجزيرة ، وهو غير طويل . ومن الجانب الآخر الى البر الغربى ، المعروف ببر الجيزة ، جسر آخر من الجزيرة اليه . وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان ... يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان رأس هذا الجسر الذى ذكره ابن سعيد — حيث المدرسة الخروبية — من انشاء البدر أحمد بن محمد الخروبى التاجر على ساحل مصر ، قبلى خط دار النحاس .

وما برح هذا الجسر الى أن خرب الملك المعز أيبك التركمانى قلعة الروضة ، بعد سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فأهمل . ثم عمره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على المراكب ، وعمله من ساحل مصر الى الروضة ، ومن الروضة الى الجيزة ، لأجل عبور العسكر عليه لما بلغه حركة الفرنج ، فعمل ذلك .

« الجسر من قليوب الى دمياط » : هذا الجسر أنشأه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى — المعروف بالجاشنكير — فى أخريات سنة ثمان وسبعمائة . وكان من خبره أنه ورد القصاد بموافقة صاحب قبرس عدة من ملوك الفرنج على غزو دمياط ، وأنهم أخذوا ستين قطعة .

فاجتمع الأمراء ، واتفقوا على انشاء جسر من القاهرة الى دمياط خوفا من حركة الفرنج فى أيام النيل ، فيتعذر الوصول الى دمياط .

وعين لعمل ذلك الأمير أقوش الرومى الحسامى ، وكتب الأمراء الى بلادهم بخروج الرجال والأبقار ، ورسم للولاة بمساعدة أقوش ، وأن يخرج كل وال الى العمل برجال عمله وأبقارهم . فما وصل أقوش الى ناحية فارسكور ، حتى وجد ولاة * الأعمال قد حضروا بالرجال والأبقار ، فرتب الأمور ، فعمل فيه ثلثمائة جرافة بستمائة رأس بقر وثلاثين ألف رجل .

وأقام أقوش الحرمة — وكان عبوسا قليل الكلام مهابا الى الغاية — فجد الناس فى العمل لكثرة من ضربه بالمقارع ، أو خزم أنفه ، أو قطع أذنه ، أو أخرق به ... الى أن فرغ فى نحو شهر واحد . فجاء من قليوب الى دمياط مسافة يومين فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ، ومشى عليه ستة رؤوس من الخيل صفا واحدا . فعم النفع به ، وسلك عليه المسافرون بعدما كان يتعذر السلوك أيام النيل لعموم الماء الأراضى . والله تعالى أعلم .

* ***

(وقد وجد بخط المؤلف رحمه الله فى أصله هنا ما صورته) :

أمراء الغرب ببيروت بيت حشمة ومكارم : مقامهم بجبال الغرب من بلاد بيروت ، ولهم خدم على الناس وتفضيل ، وهم ينسبون الى الحسين بن اسحاق بن محمد التنوخى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى بقوله :

شدوا بابن اسحاق الحسين فصافحت
وقاربها كيزانها والنمارق

(*) ص١٧٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

ثم كان كرامة بن بجير بن على بن ابراهيم ابن الحسين بن اسحاق بن محمد التنوخي . فهاجر الى الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكي ، فأقطعه الغرب وما معه بامرته ، فسمى أمير الغرب . وكان منشوره بخط العماد الأصفهاني الكاتب .

فتحضر الأمير كرامة بعد البداوة ، وسكن حصن بلجمور من نواحى اقطاعه ، ويعلو على تل أعمال بغير بناء . ثم أنشأ أولاده هناك حصنا ، وما زالوا به .

وكان كرامة ثقيلا على صاحب بيروت ، وذلك أيام الفرنج ، فأراد أخذه مرارا فلم يجد اليه سبيلا . فأخذ في الحيلة عليه ، وهادن أولاده وسألهم حتى نزلوا الى الساحل ، وألفوا الصيد بالطير وغيره ، فراسلهم حتى صار يصطاد معهم ، وأكرمهم وحباهم وكساهم ، وما زال يستدرجهم مرة بعد مرة ، ثم أخرج ابنه معه وهو شاب ، وقال : قد عزمت على زواجه .

ثم دعا ملوك الساحل وأولاد كرامة الثلاثة فأتوه ، وتأخر أصغر أولاد كرامة مع أمه بالحصن فى عدة قليلة . فامتلأ الساحل بالشوانى والمدينة بالفرنج ، وتلقوهم بالشمع والأغانى ، فلما صاروا فى القلعة ، وجلسوا مع الملوك ، غدر بهم وأمسكهم وأمسك غلمانهم وغرقهم ، وركب بجموعه ليلا الى الحصن .

فأجفل الفلاحون والحريم والصبيان الى الجبال والشعر والكهوف ، وبلغ من بالحصن أن أولاد كرامة الثلاثة قد غرقوا ففتحوه . وخرجت أمهم ومعها ابنها حجى بن كرامة — وعمره سبع سنين — ولم يبق من بنيهم سواه . فأدرك السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وتوجه اليه لما فتح صيدا وبيروت وباس رجله فى ركابه . فلمس بيده رأسه وقال له : أخذنا ثأرك طيب قلبك أنت مكان أبيك . وأمر له بكتابة أملاك أبيه بستين فارسا .

فلما كانت أيام المنصور قلاوون ، ذكر أولاد تغلب بن مسعر الشجاعى أن بيد الخليفة أملاكا عظيمة بغير استحقاق ومن جملتهم أمراء الغرب . فحملوا الى مصر ، ورسم السلطان باقطاع أملاك الجبلية مع بلاد طرابلس لأمرائها وجندها ، فأقطعت لعشرين فارسا من طرابلس . فلما كانت أيام الأشرف خليل بن قلاوون قدموا مصر ، وسألوا أن يخدموا على أملاكهم بالعدة ، فرسم لهم وأن يزيدوها عشرة أرماح .

فلما كان الروك الناصرى ، ونيابة الأمير تنكز بالشام ، وولاية علاء الدين بن سعيد كشف تلك الجهات ... رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يستمر عليها بستين فارسا ، فاستمرت على ذلك .

ثم كان منهم الأمير ناصر الدين الحسين بن خضر بن محمد بن حجى بن كرامة بن بجير ابن على ، المعروف بابن أمير الغرب ، فكثرت مكارمه واحسانه وخدمته كل من يتوجه الى تلك الناحية . وكانت اقامته بقرية أعبية بالجبل ، وله دار حسنة فى بيروت . واتصلت خدمته الى كل غاد ورائح ، وباد الأكابر والأعيان ، مع رياسة كبيرة ، ومعرفة عدة صنائع يتقنها ، وكتابة جيدة ، وترسل وعدة

قصائد . ومولده في محرم سنة ثمان وستين وستمائة ، وتوفي للنصف من شوال سنة احدى وخمسين وسبعمائة . انتهى .

(ووجد بخطه أيضا من أخبار اليمن ما مثاله) :

كان ابتداء دولة بنى زياد : أن محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن زياد سلمه المأمون ، مع عدة من بنى أمية ، الى الفضل بن سهل ابن ذى الرياستين . فورد على المأمون اختلال اليمن ، فأثنى الفضل على محمد هذا ، فبعثه المأمون أميرا على اليمن ، فحج ومضى الى اليمن ، وفتح بها من بعد محاربته العرب ، وملك اليمن ، وبنى مدينة زبيد فى سنة ثلاث ومائتين ، وبعث مولاه جعفرا بهدية جليلة الى المأمون فى سنة خمس ، وعاد اليه فى سنة ست ومعه من جهة المأمون ألفا فارس .

فقوى ابن زياد وملك جميع اليمن ، وقلد جعفرا الجبال ، وبنى بها مدينة الدمجرة . فظهرت كفاءة جعفر لكثرة دهائه ، فقتله ابن زياد ، ثم مات محمد بن زياد . فملك بعده * ابنه ابراهيم ، ثم ملك بعده ابنه أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم ، وطالت مدته ، ومات سنة احدى وسبعين وثلثمائة ، وترك طفلا اسمه زياد . فأقيم بعده ، وكفلته أخته هند ابنة اسحاق ، وتولى معها رشد عبد أبى الجيش حتى مات .

فولى بعد رشد عبده حسين بن سلامة — وكان عفيفا — فوزر لهند ولأخيها حتى ماتا .

ثم انتقل الملك الى طفل من آل زياد ، وقام بأمره عمته وعبد لحسين بن سلامة اسمه مرجان ، وكان لمرجان عبدان قد تغلبا على أمره — يقال لأحدهما قيس ، وللآخر نجاح — فتنافسا على الوزارة ، وكان قيس عسوفا ونجاح رقيقا ، وكان مرجان سيدهما يميل الى قيس ، وعمة الطفل تميل الى نجاح . فشكا قيس ذلك الى مرجان ، فقبض على الملك الطفل ابراهيم وعلى عمته تملك ، فبنى قيس عليهما جدارا . فكان ابراهيم آخر ملوك اليمن من آل زياد ، وكان القبض عليه وعلى عمته سنة سبع وأربعمائة . فكانت مدة بنى زياد مائتى سنة وأربعا وستين سنة .

فعظم قتل ابراهيم وعمته تملك على نجاح ، وجمع الناس ، وحارب قيسا بزبيد حتى قتل قيس ، وملك نجاح المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتى عشرة ، وقال لسيده مرجان : ما فعلت بمواليك وموالينا .

فقال : هم فى ذلك الجدار .

فأخرجهما وصلى عليهما ودفنهما ، وبنى عليهما مسجدا ، وجعل سيده مرجان موضعهما فى الجدار ، ووضع معه جثة قيس ، وبنى عليهما الجدار .

واستبد نجاح بمملكة اليمن ، وركب بالمظلة ، وضربت السكة باسمه . ونجاح مولى مرجان ، ومرجان مولى حسين بن سلامة ، وحسين مولى رشد ، ورشد مولى بنى زياد . ولم يزل نجاح ملكا حتى مات سنة اثنتين

(*) ص١٧١ جـ٢ ط. بولاق .

وخمسين وأربعمائة ... سمته جارية أهداها اليه الصليحي . وترك من الأولاد عدة ، فملك منهم سعيد الأحول واخوته عدة سنين حتى استولى عليهم الصليحي ، فهربوا الى دهلك .

ثم قدم منهم جياش بن نجاح الى زبيد متنكرا ، وأخذ منها وديعة وعاد الى دهلك . فقدمها أخوه سعيد الأحول بعد ذلك واختفى بها ، واستدعى أخاه جياشا ، وسارا في سبعين رجلا يوم التاسع من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين ، وقصدوا الصليحي وقد سار الى الحج ، فوافوه عند بئر أم معبد ، وقتلوه في ثاني عشري ذي القعدة المذكور ، وقتل معه ابنه عبد الله واحتز سعيد رأسيهما ، واحتاط على امرأته أسماء بنت شهاب ، وعاد الى زبيد ومعه أخوه جياش ، والرأسان بين أيديهما على هودج أسماء ، وملك اليمن .

فجمع المكرم ابن أسماء ، في سنة خمس وسبعين ، وسار من الجبال الى زبيد وقاتل سعيدا ، ففر سعيد ، وملك المكرم — واسمه أحمد — وأنزل رأس الصليحي وأخيه ودفنهما ، وولى زبيد خاله أسعد بن شهاب ، وماتت أسماء أمه بعد ذلك في صنعاء سنة سبع وسبعين . ثم عاد ابنا نجاح الى زبيد ، وملكاها في سنة تسع وسبعين ، ففر أسعد ابن شهاب . ثم غلبهما أحمد المكرم بن علي الصليحي ، وقتل سعيد بن نجاح في سنة احدى وثمانين ، وفر أخوه جياش الى الهند . ثم عاد وملك زبيد في سنة احدى وثمانين المذكورة ، فولدت له جاريته الهندية ابنه الفاتك بن جياش .

وبقي المكرم في الجبال يغير على بلاد جياش ، وجياش يملك تهامة حتى مات آخر سنة ثمان وتسعين . فملك بعده ابنه فاتك . وخالف عليه أخوه ابراهيم ، ومات فاتك سنة ثلاث وخمسمائة . فملك بعده ابنه منصور بن فاتك وهو صغير ، فثار عليه عمه ابراهيم فلم يظفر ، وثار بزبيد عبد الواحد بن جياش وملكها ، فسار اليه عبد فاتك واستعادها .

ثم مات منصور ، وملك بعده ابنه فاتك بن منصور . ثم ملك بعده ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش ، في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، حتى قتل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وهو آخر ملوك بني نجاح . فتغلب على اليمن علي بن مهدي في سنة أربع وخمسين .

وأما « الصليحي » فانه علي ابن القاضي محمد بن علي . كان أبوه في طاعته أربعون ألفا ، فأخذ ابنه التشيع عن عامر بن عبد الله الرواحي ، أحد دعاة المستضيء ، وصحبه حتى مات . وقد أسند اليه أمر الدعوة فقام بها ، وصار دليلا لحاج اليمن عدة سنين ، ثم ترك الدلالة في سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وصعد رأس جبل مسار في ستين رجلا ، وجمع حتى ملك اليمن في سنة خمس وخمسين وأقام على زبيد أسعد بن شهاب بن علي الصليحي — وهو أخو زوجته وابن عمه — ثم انه حج فقتله بنو نجاح في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين .

واستقرت التهائم لبني نجاح ، واستقرت صنعاء لأحمد بن علي الصليحي المقتول ،

وتلقب بالملك المكرم ، ثم جمع وقصد سعيد ابن نجاح بزبيد ، وقاتله وهزمه الى دهلك ، وملك زبيد فى سنة خمس وسبعين . فعاد سعيد وملك زبيد فى سنة تسع وسبعين ، فأتاه المكرم وقتله فى سنة احدى وثمانين . فملك جياش أخو سعيد .

ومات المكرم بصنعاء سنة أربع وثمانين . فملك بعده أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن على الصليحى فى سنة أربع وثمانين ، حتى مات سنة خمس وتسعين . وهو آخر الصليحيين .

فملك بعده على بن ابراهيم بن نجيب الدولة . فقدم من مصر الى جبال اليمن فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقام بأمر الدعوة والمملكة التى كانت بيد سبأ ، ثم قبض * عليه بأمر الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى بعد سنة عشرين وخمسمائة ، وانتقل الملك والدعوة الى الزريع بن عباس المكرم . وآل الزريع من آل عدن ، وهم من حمدان ، ثم من جشم . وبنو المكرم يعرفون بآل الذئب .

وكانت عدن للزريع بن عباس وأحمد بن مسعود بن المكرم ، فقتلا على زبيد ، وولى بعدهما ولداهما أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن مسعود . ثم استولى على الملك والدعوة سبأ بن أبى السعود بن زريع حتى مات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة . فولى بعده ولده الأعز على بن سبأ — وكان مقامه بالرمادة — فمات بالسل ، وملك أخوه المعظم محمد فى سنة ثمان وثلاثين . وولى من الصليحيين أيضا الملكة : السيدة سنة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى ، زوجة أحمد المكرم ، ولقبت بالحرة ، ومولدها سنة أربعين وأربعمائة ، وربتها أسماء بنت شهاب ، وتزوجها الملك المكرم أحمد بن أسماء — وهو ابن على الصليحى — سنة احدى وستين ، وولاها الأمر فى حياته ، فقامت بتدبير المملكة والحروب ، وأقبل زوجها على لذاته حتى مات وتولى ابن عمه سبأ ، فاستمرت فى الملك حتى مات سبأ .

وتولى ابن نجيب الدولة حتى ماتت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وشاركه فى الملك المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرى ، وكان يحكم بين يدى الملكة الحرة وهى من وراء الحجاب . ومات المفضل فى رمضان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وملك بلاده ابنه الملك المنصور منصور بن المفضل ، حتى ابتاع منه محمد بن سبأ بن أبى السعود معاقل الصليحيين ، وعدتها ثمانية وعشرون حصنا ، بمائة ألف دينار ، فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة . وبقى المنصور بعد حتى مات بعدما ملك نحو ثمانين سنة .

وأما « على بن مهدى » فانه حميرى من سواحل زبيد . كان أبوه مهدى رجلا صالحا ، ونشأ ابنه على طريقة حسنة ، وحج ووعظ . وكان فصيحا حسن الصوت ، عالما بالتفسير وغيره ، يتحدث بالمغيبات فتكون كما يقول ، وله عدة أتباع كثيرة وجموع عديدة . ثم قصد الجبال ، وأقام بها الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد الى أملاكه ووعظ .

(*) ص١٧٢ جـ٢ ، ط . بولاق .

ثم عاد الى الجبال ودعا الى نفسه . فأجابه بطن من خولان ، فسماهم الأنصار ، وسمى من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وولى على خولان سبأ ، وعلى المهاجرين رجلا آخر ، وسمى كلا منهما شيخ الاسلام ، وجعلهما نقيبين على طائفتيهما فلا يخاطبه أحد غيرهما ، وهما يوصلان كلامه الى من تحت أيديهما .

وأخذ يغادي الغارات ويراوحها على التهائم حتى أجلى البوادى ، ثم حاصر زبيد حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح ، فحارب ابن مهدى عبيد فاتك حتى غلبهم ، وملك زبيد يوم الجمعة رابع عشر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، فبقى على الملك شهرين وأحدا وعشرين يوما ومات .

فملك بعده ابنه مهدى ، ثم عبد الغنى بن مهدى ، وخرجت المملكة عن عبد الغنى الى أخيه عبد الله ، ثم عادت الى عبد الغنى . واستقر حتى سار اليه توران شاه بن أيوب من مصر ، فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن ، وأسر عبد الغنى . وهو آخر ملوك بنى مهدى : يكفر بالمعاصى ، ويقتل من يخالف اعتقاده ، ويستبيح وطء نسائهم واسترقاق أولادهم . وكان حنفى الفروع ، ولأصحابه فيه غلو زائد ، ومن مذهبه قتل من شرب الخمر ومن سمع الغناء .

ثم ملك توران شاه بن أيوب عدن من ياسر وملك بلاد اليمن كلها ، واستقرت فى ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وعاد شمس الدولة توران شاه بن أيوب الى مصر فى شعبان سنة ست وسبعين ، واستخلف على عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلى ، وعلى زبيد حطان بن كليل بن منقذ الكافى ، فمات شمس الدولة بالاسكندرية ، فاختلف نوابه .

فبعث السلطان صلاح الدين يوسف جيشا فاستولى على اليمن ، ثم بعث فى سنة ثمان وسبعين أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب . فقدم اليها وقبض على حطان بن كليل بن منقذ ، وأخذ أمواله — وفيها سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا — وسجنه ، فكان آخر العهد به ، ونجا عثمان بن الزنجيلى بأمواله الى الشام ، فظفر بها سيف الاسلام ، وصفت له مملكة اليمن حتى مات بها فى شوال سنة ثلاث وتسعين .

فأقيم بعده ابنه الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، فجعظ وادعى أنه أموى ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وعمل طول كمه عشرين ذراعا . فثار عليه مماليكه وقتلوه فى سنة تسع وتسعين ، وأقاموا بعده أخاه الناصر ومات بعد أربع سنين . فقام من بعده زوج أمه غازى بن حزيل أحد الأمراء ، فقتله جماعة من العرب .

وبقى اليمن بغير سلطان ، فتغلبت أم الناصر على زبيد . فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن أيوب الى اليمن ، فعبر يحمل ركوته على كتفه ، فملكته أم الناصر البلاد وتزوجت به ، فاشتد ظلمه وعتوه ... الى أن قدم الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، فقبض عليه وحمله الى مصر * ، فأجرى له الكامل ما يقوم

(*) ص١٧٣ جـ٢ ، ط.بولاق .

به الى أن استشهد على المنصورة سنة سبع وأربعين وستمائة .

وأقام المسعود باليمن ، وحج وملك مكة أيضا فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وستمائة وعاد الى اليمن ، ثم خرج عنها واستخلف عليها أستاداره على بن رسول ، فمات بمكة سنة ست وعشرين .

فقام على بن رسول على ملك اليمن حتى مات فى سنة تسع وعشرين ، واستقر عوضه ابنه عمر بن على بن رسول ، وتلقب بالمنصور حتى قتل سنة ثمان وأربعين . واستقر بعده ابنه المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول ، وصفا له اليمن ، وطالت أيامه .

انتهى ما ذكره المصنف بخطه فى تاريخه ، عفا الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مقره ومثواه .

***

(ووجد بخطه أيضا ما مثاله) :

السلطان محمد بن طغلق شاه ، وطغلق يلقب غياث الدين ، وهو مملوك السلطان علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود ملك الهند . مقر ملكه مدينة دهلى ، وجميع البلاد برا وبحرا بيده الا الجزائر المغلغلة فى البحر ، وأما الساحل فلم يبق منه قيد شبر الا وهو بيده .

وأول ما فتح مملكة تكنك ... عدة قراها مائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد حاجنكيز ، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بنادر على البحر .

ثم فتح بلاد لنكوتى ، وهى كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير ، وبها أربع وثمانون قلعة كلها جليلات المقدار ، وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية . ثم فتح بلاد ورسمند ، وكان بها ستة ملوك . ثم فتح بلاد المعبر ، وهو اقليم جليل له سبعون مدينة بنادر على البحر .

وجملة ما بيده ثلاثة وعشرون اقليما وهى اقليم دهلى ، واقليم الدواكير ، واقليم الملتان ، واقليم كهران ، واقليم سامان ، واقليم سوستان ، واقليم وجا ، واقليم هاسى ، واقليم سرسنى ، واقليم المعبر ، واقليم تكنك كجرات ، واقليم بداون ، واقليم عوض ، واقليم التيوج ، واقليم لنكوتى ، واقليم بهار ، واقليم كرة ، واقليم ملاوة ، واقليم بهادر ، واقليم كلافور ، واقليم حاجنكيز ، واقليم بلبخ ، واقليم ورسمند .

وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة .

ومدينة دهلى دور عمرانها أربعون ميلا ، وجملة ما يطلق عليه اسم دهلى احدى وعشرون مدينة ، وفى دهلى ألف مدرسة كلها للحنفية الا واحدة فانها للشافعية ، ونحو سبعين مارستانا ، وفى بلادها من الخوانك والربط نحو ألفين ، وبها جامع ارتفاع مئذنته ستمائة ذراع فى الهواء .

وللسلطان خدمة مرتين فى كل يوم : بكرة ، وبعد العصر . ورتب الأمراء على هذه الأنواع : أعلاهم قدرا الخانات ، ثم الملوك ، ثم الأمراء ، ثم الاسفهسلارية ، ثم الجند .

وفى خدمته ثمانون خانا ، وعسكره تسعمائة ألف فارس ، وله ثلاثة آلاف فيل تلبس فى الحروب البرك أسطونات الحديد المذهب ، وتلبس فى أيام السلم جلال الديباج وأنواع الحرير ، وتزين بالقصور والأسرة المصفحة ، ويشد عليها بروج الخشب يركب فيها الرجال للحرب ، فيكون على الفيل من عشرة رجال الى ستة .

وله عشرون ألف مملوك أتراك ، وعشرة آلاف خادم خصى ، وألف خازندار ، وألف مشبقدار ، ومائتا ألف عبد ركابية تلبس السلاح وتمشى بركابه وتقاتل رجالة بين يديه . والاسفهسلارية لا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان ، وانما يكون منهم نوع الولاة .

والخان يكون له عشرة آلاف فارس ، وللملك ألف ، وللأمير مائة فارس ، وللاسفهسلار دون ذلك . ولكل خان عبرة لكين — كل لك مائة ألف تنكة ، كل تنكة ثمانية دراهم — ولكل ملك من ستين ألف تنكة الى خمسين ألف تنكة ، ولكل أمير من أربعين ألف تنكة الى ثلاثين ألف تنكة ، ولكل اسفهسلار من عشرين ألف تنكة الى ما حولها ، ولكل جندى من عشرة آلاف تنكة الى ألف تنكة ، ولكل مملوك من خمسة آلاف تنكة الى ألف تنكة ، سوى طعامهم وكساويهم وعليقهم ، ولكل عبد فى الشهر منان من الحنطة والأرز ، وفى كل يوم ثلاثة أستار لحم وما يحتاج اليه ، وفى كل شهر عشر تنكات بيضاء ، وفى كل سنة أربع كساو .

وللسلطان دار طراز فيها أربعة آلاف قزاز لعمل أنواع القماش ، سوى ما يحمل له من الصين والعراق والاسكندرية ، ويفرق كل سنة مائتى ألف كسوة كاملة : فى فصل الربيع مائة ألف ، وفى فصل الخريف مائة ألف . ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الاسكندرية ، وفى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلى وقماش الصين والعراق . ويفرق على الخوانك والربط الكساوى ، وله أربعة آلاف زركشى تعمل الزركش ، ويفرق كل سنة عشرة آلاف فرس مسرجة وغير مسرجة ، سوى ما يعطى الأجناد من البراذين فانه بلا حساب يعطى جشارات ، ومع هذا فالخيل عنده غالية مطلوبة .

وللسلطان نائب من الخانات — يسمى ابريت — اقطاعه قدر اقليم بحر العراق ، ووزير اقطاعه كذلك ، وله أربعة نواب مسمى كل واحد منهم من أربعين ألف تنكة الى عشرين ألف تنكة ، وله أربعة ربيسان — أى كتاب سر — لكل واحد منهم ثلثمائة كاتب ، ولكل كاتب اقليم عشرة آلاف تنكة . ولصدر جهان — وهو قاضى القضاة — قرى يتحصل منها على نحو ستين ألف تنكة ، ولصدر الاسلام — وهو أكبر نواب القاضى — ولشيخ الاسلام — وهو شيخ الشيوخ — مثل ذلك ، وللمحتسب ثمانية آلاف تنكة * .

(*) ص١٧٤ جـ٢ ، ط. بولاق .

وله ألف طبيب ومائتا طبيب ، وعشرة آلاف بزدار تركب الخيل وتحمل طيور الصيد . وله ثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نديم وألفان ومائتان للملاهي ، سوى مماليكه وهم ألف مملوك ، وألف شاعر باللغات العربية والفارسية والهندية يجرى عليهم ديوانه ، ومتى غنى أحد منهم لغيره قتله ، ولكل نديم قريتان أو قرية ، ومن أربعين ألف تنكة الى ثلاثين ألف تنكة الى عشرين ألف تنكة ، سوى الخلع والكساوى والافتقادات .

ويمد في وقت كل خدمة في المرتين من كل يوم سماط يأكل منه عشرون ألفا ، مثل الخانات والملوك والأمراء والاسفهسلارية وأعيان الأجناد . وله طعام خاص يأكل معه الفقهاء — وعدتهم مائتا فقيه — في الغداء والعشاء ، فيأكلون ويتباحثون بين يديه . ويذبح في مطابخه كل يوم ألفان وخمسمائة رأس من البقر ، وألفا رأس من الغنم ، سوى الخيل وأنواع الطير .

ولا يحضر مجلسه من الجند الا الأعيان ومن دعته ضرورة الى الحضور والندماء ، وأرباب الأغاني يحضرون بالنوبة ، وكذلك الربيسان والأطباء ونحوهم لكل طائفة نوبة تحضر فيها للخدمة ، والشعراء تحضر في العيدين والمواسم وأول شهر رمضان ، واذا تجدد نصر على عدو أو فتوح ونحو ذلك مما يهنى به السلطان .

وأمور الجند والعامة مرجعها الى أبريت ، وأمر القضاة كلهم مرجعه الى صدر جهان ، وأمر الفقهاء الى شيخ الاسلام ، وأمر الواردين والوافدين والأدباء والشعراء الى الربيسان وهم كتاب السر .

وجهز هذا السلطان مرة أحد كتاب سره الى السلطان أبي سعيد رسولا ، وبعث معه ألف ألف تنكة ليتصدق بها في مشاهد العراق ، وخمسمائة فرس . فقدم بغداد وقد مات أبو سعيد .

وكان هذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته ، وتزلزل الأرض لموكبه : يجلس بنفسه لانصاف رعيته ولقراءة القصص عليه جلوسا عاما ، ولا يدخل أحد عليه ومعه سلاح ولو السكين ، ويجلس وعنده سلاح كامل لا يفارقه أبدا .

واذا ركب في الحرب فلا يمكن وصف هيبته ، وله أعلام سود في أوساطها تبابين من ذهب تسير عن يمينه ، وأعلام حمر فيها تبابين من ذهب تسير عن يساره ، ومعه مائتا جمل نقارات ، وأربعون جملا كوسات كبارا ، وعشرون بوقا ، وعشرة صنوج ، ويدق له خمس نوب كل يوم .

واذا خرج الى الصيد كان في جف ، وعدة من معه زيادة على مائة ألف فارس ومائتي فيل ، وأربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل ، كل قصر منها على مائتي جمل كلها ملبسة حريرا مذهبا ، كل قصر طبقتان سوى الخيم والجركاوات .

واذا انتقل من مكان الى مكان للنزهة ، يكون معه نحو ثلاثين ألف فارس ، وألف جنيب مسرجة ملجمة بالذهب المرصع بالجوهر والياقوت . واذا خرج في قصره من موضع الى آخر ، يمر راكبا وعلى رأسه الجبر ،

والســلاح دارية وراءه بأيديهم الســلاح ، وحوله نحو اثنا عشر ألف مملوك مشاة ، لا يركب منهم الا حامل الحبر والســلاح دارية والجمدارية حملة القماش .

واذا خرج للحرب أو سفر طويل ، حمــل على رأسه سبع حبورة ، منها اثنان مرصعان ليس لهما قيمة ، وله فخامة عظيمة وقوانين وأوضاع جليلة . والخــانات والملوك والأمراء لا يركب أحد منهــم في الســفر والحضر الا بالأعلام ، وأكثر ما يحمل الخان سبعة أعلام ، وأكثر ما يحمل الأمير ثلاثة ، وأكثر ما يجره الخان في الحضر عشرة جنــائب ، وأكثر ما يجــر الأمير في الحضر جنيبــان ، وأما في السفر فحسبما يختار .

وكان للسلطان بر واحسان ، وفيه تواضع . ولقد مات عنده رجل فقير فشــهد جنازته ، وحمل نعشه على عنقه . وكان يحفظ القرآن العزيز العظيم والهــداية في فقه الحنفيــة ، ويجيد علم المعقول ، ويكتب خطا حســنا ، ولذته في الرياضة وتأديب النفس ، ويقــول الشعر ويباحث العلماء ، ويؤاخذ الشعراء ، ويأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء عنده . والعلماء تحضر عنده ، وتفطر في رمضان معه بتعيين صدر جهان لهم في كل ليلة .

وكان لا يترخص في محــذور ، ولا يقر على منكر ، ولا يتجــاسر أحد في بلاده أن يتظاهر بمحــرم . وكان يشــدد في الخمر ، ويبالغ في العقوبة على من يتعاطاه من المقربين منه . وعاقب بعض أكابر الخانات على شرب الخمر ، وقبض عليه ، وأخذ أمواله . وجملتها أربعمائة ألف ألف مثقال وسبعة وثلاثين ألف ألف مثقال ذهبا أحمر ، زنتها ألف وسبعمائة قنطار بالمصري .

وله وجوه بر كثيرة : منها أنه يتصدق في كل يوم بلكين : عنهما من نقد مصر ألف ألف وستمائة ألف درهم ، وربما بلغت صدقته في يوم واحد خمسين لكا ، ويتصدق عند كل رؤية هلال شهر بلكين دائما ، وعليــه راتب لأربعين ألف فقير ، كل واحد منهم درهم في كل يوم ، وخمسة أرطال بر وأرز ، وقرر ألف فقيــه في مكاتب لتعليم الأطفــال القرآن ، وأجرى عليهم الأرزاق .

وكان لا يدع بدهلي ســائلا ، بل يجري على الجميع الأرزاق ، ويبالغ في الاحسان الى الغرباء .

وقدم عليه رســول من أبي سعيــد مرة بالسلام والتودد ، فخلع عليه وأعطاه حمــلا من المال . فلما أراد الانصراف أمره أن يدخل الخزانة ويأخــذ * ما يختار ، فلم يأخذ غير مصحف ، فسأله عن ذلك فقال : قد أغناني السلطان بفضله ، ولم أجد أشرف من كتــاب الله . فزاد اعجــابه به ، وأعطاه مالا جملتــه ثمانمائة تومان . والتوما عشرة آلاف دينار ، وكل دينار ســتة دراهم ، تكون جملة ذلك ثمانية آلاف ألف دينار ، عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم .

(*) ص١٧٥ جـ٢ ، ط. بولاق *

وقصده شخص من بلاد فارس ، وقدم له كتبا فى الحكمة ، منها كتاب « الشفاء » لابن سينا ، فأعطاه جوهرا بعشرين ألف مثقال من الذهب . وقصده آخر من بخارى بحملى بطيخ أصفر ، فتلف غالبه حتى لم يبق منه الا اثنتان وعشرون بطيخة ، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال ذهبا . وكان قد التزم ألا ينطق فى اطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال ذهبا .

وبعث ثلاث لكوك ذهبا الى بلاد ما وراء النهر ليفرق على العلماء لك ، وعلى الفقراء لك ، ويبتاع له حوائج بلك . وبعث للبرهان الضياء عزهجى ، شيخ سمرقند ، بأربعين ألف تنكة .

وكان لا يفارق العلماء سفرا وحضرا . ومنار الشرع فى أيامه قائم ، والجهاد مستمر . فبلغ مبلغا عظيما فى اعلاء كلمة الايمان ، فنشر الاسلام فى تلك الأقطار ، وهدم بيوت النيران ، وكسر الندود والأصنام ، واتصل به الاسلام الى أقصى الشرق ، وعمر الجوامع والمساجد ، وأبطل التثويب فى الاذان ، ولم يخل له يوم من الأيام من بيع آلاف من الرقيق لكثرة السبى . حتى ان الجارية لا يتعدى ثمنها بمدينة دهلى ثمان تنكات ، والسرية خمس عشرة تنكة ، والعبد المراهق أربعة دراهم .

ومع رخص قيمة الرقيق فانه تبلغ قيمة الجارية الهندية عشرين ألف تنكة لحسنها ولطف خلقها ، وحفظها القرآن وكتابتها الخط ، وروايتها الأشعار والأخبار ، وجودة غنائها ، وضربها بالعود ، ولعبها بالشطرنج . وهن يتفاخرن فتقول الواحدة : آخذ قلب سيدى فى ثلاثة أيام ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى يوم ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى ساعة ، فتقول الأخرى : أنا آخذ قلبه فى طرفة عين .

وكان ينعم على جميع من فى خدمته ، من أرباب السيوف والأقلام ، بكل جليل من البلاد والأموال والجواهر والخيول المجللة بالذهب وغير ذلك . الا الفيلة فانه لا يشاركه فيها أحد ، وللثلاثة آلاف فيل راتب عظيم ، فأكثرها مؤنة له فى كل يوم أربعون رطلا من أرز ، وستون رطلا من شعير ، وعشرون رطلا من سمن ، ونصف حمل من حشيش : وقيمها جليل القدر اقطاعه مثل اقليم العراق .

واذا وقف السلطان للحرب ، كان أهل العلم حوله ، والرماة قدامه ، وخلفه وأمامه الفيلة كما تقدم عليها الفيالة وقدامها العبيد المشاة ، والخيل فى الميمنة والميسرة . فتهيأ له من النصر ما لا تهيأ لأحد ممن تقدمه ، ففتح الممالك ، وهدم قواعد الكفار ، ومحا صور معابدهم ، وأبطل فخرهم .

وكان يجلس كل يوم ثلاثاء جلوسا عاما على تخت مصفح بالذهب ، وعلى رأسه حبر فى موكب عظيم ، وينادى مناديه : من له شكوى فى شخص ... فينظر فى ظلامات الناس . وكان لا يوجد بدهلى فى أيامه خمر ألبتة .

وأول من ملك مدينة دهلى قطب الدين أيبك . وذلك أن شهاب الدين محمد بن سالم بن الحسين ، أحد الملوك الغورية ، فتح

الهند بعد عدة حروب ، وأقطع مملوكه أيبك هذا مدينة دهلي . فبعث أيبك عسكرا عليه محمد بن بختيار ، فأخذ الى تخوم الصين ، وذلك كله في سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولي بعده أيتمش بن أيبك أربعين سنة ، فقام بعده ابنه علاء الدين على بن أيتمش بن أيبك ، ثم أخوه معز الدين بن أيتمش ، ثم أخته رضية خاتون فأقامت ثلاث سنين ، ثم أخوها ناصر الدين بن أيتمش ، فأقام أربعا وعشرين سنة ، ثم قام بعده مملوكه غياث الدين بليان سبعا وعشرين سنة ، ثم بعده معز الدين نيأبا خمس سنين ، ثم ابنه شمس الدين كيمورس سبعة أشهر .

ثم خرج الملك عن بيت السلطان شمس الدين أيتمش ، وقويت التركمان العلجية — وكانوا أمراء يقال للواحد منهم خان — واستبد كبيرهم جلال الدين فيروز سبع سنين . ثم ابن أخيه علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود اثنتين وعشرين سنة ، ومات سنة خمس عشرة وسبعمائة . ثم ابنه شهاب الدين عمر بن محمود بن مسعود سنة واحدة ، ولقب غياث الدين . ثم أخوه قطب الدين مبارك بن محمود أربع سنين ، وقتل سنة عشرين وسبعمائة . ثم علاء الدين خسرو ، مملوك علاء الدين محمود ، سبعة أشهر . وملك غياث الدين طغلق شاه ، مملوك السلطان علاء الدين محمود بن مسعود ، في أول شعبان سنة عشرين وسبعمائة . ثم ملك بعده ابنه محمد بن طغلق شاه صاحب الترجمة .

هذا آخر ما وجد بخطه رحمه الله تعالى .

(ووجد بخطه أيضا رحمه الله تعالى) :

ما أحسن قول الأديب محمد بن حسن بن شاور النقيب :

مشت أيامكم لا بل نراها
جرت جريا على غير اعتياد
وما عقدت نواصيها بخير
، ولا كانت تعد من الجياد

« بدخشان » : مدينة فيما وراء النهر . بها معدن اللعل البدخشاني — وهو المسمى بالبلخش — وبها معدن اللازورد الفائق * ، وهما في جبل بها يحفر عليهما في معادنهما ، فيوجد اللازورد بسهولة ، ولا يوجد اللعل الا بتعب كبير وانفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد والنفقة الكثيرة ، ولهذا عز وجوده وغلت قيمته .

وأقصر ليل بلغار بالبحرين أربع ساعات ونصف . وأقصر ليل أفتكون ثلاث ساعات ونصف ، فهو أقصر من ليل بلغار بساعة واحدة . وبين بلغار وأفتكون مسافة عشرين يوما بالسير المعتاد . انتهى .

« السلطانية » : من عراق العجم . بناها السلطان محمد خدابنده أوكانيق بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو . وخدابنده ملك بعد أخيه محمود غازان ، وملك بعد خدابنده ابنه السلطان أبو سعيد بهادر خان ، وكان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع قائد السلطان محمد بن طشتمر بن استيمر بن عترجي . ومذ مات أبو سعيد لم يجمع بعده على طاعة ملك ، بل تفرقوا ، وقام في كل ناحية قائم . انتهى .

(*) ص١٧٦ جـ٢ ، ط. بولاق .

(ووجد بخطه أيضا ما نصه) :

ولله در أبى اسحاق الأديب حيث قال :

اذا كنت قد أيقنت أنك هالك
فمالك مما دون ذلك تشفق
ومما يشين المرء ذا الحلم أنه
يرى الأمر حتما واقعا ثم يقلق

وحيث يقول :

ومن طوى الخمسين من عمره
لاقى أمورا فيه مستنكره
وان تخطاها رأى بعدها
من حادثات الدهر ما لم يره

انتهى ما وجد بخطه فى أصله .

ذكر الجزائر

اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الملة الاسلامية ، ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر . فان العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص الى مصر وحاصروا الحصن — الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر — حتى فتحه الله تعالى عنوة على المسلمين ، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر . ولم يبلغنى الى الآن متى حدثت ، وأما غيرها من الجزائر فكلها قد تجددت بعد فتح مصر .

ويقال — والله أعلم — ان بلهيب ، الذى يعرف اليوم بأبى الهول ، طلسم وضعه القدماء لقلب الرمل عن بر مصر الغربى الذى يعرف اليوم ببر الجيزة . وانه كان فى البر الشرقى ، بجوار قصر الشمع ، صنم من حجارة على مسامتة أبى الهول — بحيث لو امتد خيط من رأس أبى الهول وخرج على استواء لسقط على رأس هذا الصنم — وكان مستقبل المشرق ، وانه وضع أيضا لقلب الرمل عن البر الشرقى .

فقدر الله سبحانه وتعالى أن كسر هذا الصنم على يد بعض أمراء الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى سنة احدى عشرة وسبعمائة ، وحفر تحته حتى بلغ الحفر الى الماء ظنا أنه يكون هناك كنز ، فلم يوجد شىء ، وكان هذا الصنم يعرف عند أهل مصر بسرية أبى الهول . فكان عقيب ذلك غلبة النيل على البر الشرقى ، وصارت هذه الجزائر الموجودة اليوم .

وكذلك قام شخص من صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر ، فى تغيير المنكر أعوام بضع وثمانين وسبعمائة . فشوه وجوه سباع الحجر التى على قناطر السباع خارج القاهرة وشوه وجه أبى الهول ، فغلب الرمل على أراضى الجيزة . ولا ينكر ذلك ، فلله فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاء من عباده ، والكل بخلقه وتقديره .

وقد ذكر الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه ، فى كتاب « أخبار مصر » فى خبر الواحات الداخلة ، أن فى تلك الصحارى كانت أكثر مدن ملوك مصر العجيبة وكنوزهم ، الا أن الرمال غلبت عليها ... قال : ولم يبق بمصر

ملك الا وقد عمل للرمال طلسما لدفعها ، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان .

وذكر ابن يونس ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر .

قال ابن سالم ، فقلت له : ما يخرجنا منها ياأبا محمد ، أعدو ؟

قال : لا ، ولكنكم يخرجكم منها نيلكم هذا ... يغور فلا تبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكثبان من الرمل ، وتأكل سباع الأرض حيتانه .

وقال الليث عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير قال : ان الصحابى حدثه أنه سمع كعبا يقول : ستعرك العراق عرك الأديم ، وتفت مصر فت البعرة .

قال الليث ، وحدثنى رجل عن وهب المعافرى أنه قال : وتشق الشام شق الشعرة .

وسأذكر من خبر هذه الجزائر المشهورة ما وصلت الى معرفته ان شاء الله تعالى .

ذكر الروضة

اعلم أن الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة . وعرفت فى أول الاسلام * بالجزيرة وبجزيرة مصر ، ثم قيل لها جزيرة الحصن ، وعرفت الى اليوم بالروضة . والى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح الله تعالى على المسلمين القصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط .

وبها أيضا بنى أحمد بن طولون الحصن ، وبها كانت الصناعة — يعنى صناعة السفن الحربية ، أى كانت بها دار الصناعة — وبها كان الجنان والمختار ، وبها كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية ، وبها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية ، وبها الى اليوم مقياس النيل .

وسأورد من أخبار الروضة هنا مالا تجده مجتمعا فى غير هذا الكتاب .

قال ابن عبد الحكم — وقد ذكر محاصرة المسلمين للحصن — : فلما رأى القوم الجد من المسلمين على فتح الحصن والحرص ، ورأوا صبرهم على القتال ورغبتهم فيه ، خافوا أن يظهروا عليهم . فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا من باب الحصن القبلى — ودونهم جماعة يقاتلون العرب — فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم ، وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل .

وتخلف فى الحصن بعد المقوقس الأعرج ، فلما خاف فتح باب الحصن ، خرج هو وأهل القوة والشرف — وكانت سفنهم ملصقة بالحصن — ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة .

قال : وكان بالجزيرة (يعنى بعد فتح مصر) فى أيام عبد العزيز بن مروان ، أمير مصر ،

(*) ص ١٧٧ جـ ٢ ، ط . بولاق .

خمسمائة فاعل معدة لحريق يكون فى البلد أو هدم .

وقال القضاعى : جزيرة فسطاط مصر ... قال الكندى : بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع وخمسين ، وحصن الجزيرة بناه أحمد ابن طولون فى سنة ثلاث ومائتين ليحرز فيه حرمه وماله . وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقى من العراق واليا على مصر وجميع أعمال ابن طولون ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله . فلما بلغ أحمد بن طولون مسيره ، استعد لحربه ومنعه من دخول أعماله .

فلما بلغ موسى بن بغا الى الرقة ، تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته . ثم عرضت لموسى علة طالت به وكان بها موته ، وثاوره الغلمان وطلبوا منه الأرزاق ، وكان ذلك سبب تركه المسير . فلم يلبث موسى بن بغا أن مات ، وكفى ابن طولون أمره . ولم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئا بعد شىء ، وقد بقيت منه بقايا متقطعة الى الآن .

وقد اختصر القاضى القضاعى رحمه الله فى ذكر سبب بناء ابن طولون حصن الجزيرة .

وقد ذكر جامع « سيرة ابن طولون » أن صاحب الزنج لما قدم البصرة ، فى سنة أربع وخمسين ومائتين ، واستعجل أمره ... أنفذ اليه أمير المؤمنين المعتمد على الله تعالى ، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد ، رسولا فى حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحة من مكة اليه — وكان الخليفة المهتدى بالله محمد ابن الواثق بن المعتصم نفاه اليها — فلما وصل اليه ، جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوض ، وبعد المفوض تكون الخلافة للموفق طلحة ، وجعل غرب الممالك الاسلامية للمفوض وشرقها للموفق ، وكتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه أيمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط .

وكان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه أهلا لها . فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده ، شق ذلك عليه ، وزاد فى حقده .

وكان المعتمد متشاغلا بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه ، فضاعت الأمور ، وفسد تدبير الأحوال ، وفاز كل من كان متقلدا عملا بما تقلده .

وكان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوض والموفق : أنه ما حدث فى عمل كل واحد منهما من حدث ، كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه .

واستخلف على قسم ابنه المفوض موسى بن بغا ، فاستكتب موسى بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق ، وتقدم الى كل منهما ألا ينظر فى عمل الآخر ، وخلد كتاب الشروط بالكعبة وأفرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج ، وأخرجه اليه وضم معه الجيوش .

فلما كبر أمره ، وطالت محاربته اياه ، وانقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق ، وتقاعد الناس عن حمل المال الذى كان يحمل

فى كل عـام ، واحتجـوا بأشـياء ... دعت الضرورة الموفق الى آن كتب الى أحمد بن طولون — وهو يومئـذ أمير مصر — فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج .

وكانت مصر فى قسـم المفـوض لأنها من الممالك الغربيـة . الا أن الموفق شـكا فى كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو بسـبيله ، وأنفـذ مع الكتاب تحريرا خادم المتوكل ليقبض منـه المال . فما هو الا أن ورد تحرير على ابن طولون بمصر ، واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيـه بحمـل المال اليه على رسمه ، مع ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك ، وكتب أيضا الى أحمد بن طولون كتابا فى السر « ان الموفق انما أنفذ تحريرا اليك عينا ومستقصيا على أخبارك ، وانه قد كاتب بعض أصحابك ، فاحترس منه ، واحمل المال الينا ، وعجـل انفاذه » .

وكان تحرير لما قدم الى مصر أنزله أحمد ابن طولون معه فى داره بالميدان * ومنعه من الركوب ، ولم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر ، وتلطف فى الكتب التى أجاب بها الموفق . ولم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق الى مصر ، وبعث معـه الى الموفق ألف ألف دينار ومائتى ألف دينـار ، وما جرى الرسم بحمله من مصر ، وأخرج معه العدول ، وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش ، وأرسل الى ماخور متولى الشام ، فقدم عليه بالعريش ، وسلمه اليه هو والمال ، وأشهد عليه بتسليم ذلك . ورجع الى مصر ، ونظر فى الكتب التى أخذها من تحرير ، فاذا هى الى جمـاعة من قواده باسـتمالتهم الى الموفق ، فقبض عـلى أربابها ، وعاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته .

فلما وصـل جواب ابن طولون الى الموفق ومعه المال ، كتب اليه كتابا ثانيا يستقل فيـه المال ، ويقول : ان الحساب يوجب أضعاف ما حملت . وبسط لسـانه بالقول ، والتمس فيمن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضا عن ابن طولون ، فلم يجـد أحدا عوضه لما كان من كيس أحمد بن طولون وملاطفتـه وجوه الدولة .

فلما ورد كتـاب الموفق على ابن طـولون قال : وأى حساب بينى وبينه ، أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره ؟

وكتب اليه بعد البسملة : « وصل كتاب الأمير ، أيده الله تعالى ، وفهمتـه . وكان ، أسعـده الله ، حقيقـا بحسن التخير لمثلى ، وتصييره اياى عمدته التى يعتمـد عليهـا ، وسيفه الذى يصول به ، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده ، لأنى دائب فى ذلك ، وجعلته وكدى ، واحتملت الكلف العظـام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصـوف بشـجاعة ، واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية ، بالتوسعة عليهم ، وتواصـل الصـلات والمعاون لهم : صيانة لهذه الدولة ، وذبا عنهـا ، وحسـما لأطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها ...

(*) ص١٧٨ جـ٢ ، ط. بولاق .

« ومن كانت هذه سبيله في الموالاة ، ومنهجه في المناصحة ، فهو حرى أن يعرف له حقه ، ويوفر من الاعظام قدره ، ومن كل حال جليلة حظه ومنزلته ...

« فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به ، والجفاء في المخاطبة بغير حال توجب ذلك ، ثم أكلف على الطاعة جعلا ، وألزم في المناصحة ثمنا . وعهدي بمن استدعى ما استدعاه الأمير من طاعته أن يستدعيه بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا أن يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلا ...

« واني لا أعرف السبب الذي يوجب الوحشة ، ويوقعها بيني وبين الأمير — أيده الله تعالى — ولا ثم معاملة تقتضى معاملة أو تحدث منافرة ، لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره ، والمكاتبة في أموره الى من سواه ، ولا أنا من قبله . فانه والأمير جعفرا المفوض — أيده الله تعالى — قد اقتسما الأعمال ، وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه ، وأخذت عليه البيعة فيه أنه من نقض عهده ، أو أخفر ذمته ولم يف لصاحبه بما أكد على نفسه ، فالأمة بريئة منه ومن بيعته ، وفي حل وسعة من خلفه ...

« والذى عاملني به الأمير من محاولة صرفي مرة ، واسقاط رسمي أخرى ، وما يأتيه ويسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده . وقد التمس أوليائي ، وأكثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة رسمه ، فآثرت الابقاء وان لم يؤثره ، واستعملت الأناة اذ لم تستعمل معي ، ورأيت الاحتمال والكظم أشبه بذوى المعرفة والفهم ، فصبرت نفسي على أجر من الجمر وأمر من الصبر ، وعلى ما لا يتسع به الصدر ...

« والأمير ، أيده الله تعالى ، أولى من أعانني على ما أوثره من لزوم عهده ، وأتوخاه من تأكيد عقده ، بحسن العشرة والانصاف ، وكف الأذى والمضرة ، وألا يضطرني الى ما يعلم الله عز وجل كرهى له : أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة ، والعساكر المتضاعفة التى قد ضرست رجالها من الحروب ، وجرت عليهم محن الخطوب ، مصروفا الى نقضها ...

« فعندنا وفي حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر وأولى من الأمير ، ولو أمنوني على أنفسهم — فضلا عن أن يعثروا منى على ميل أو قيام بنصرتهم — لاشتدت شوكتهم ، ولصعب على السلطان معاركتهم . والأمير يعلم أن بازائه منهم واحدا قد كبر عليه ، وفض كل جيش أنهضه اليه ، على أنه لا ناصر له الا لفيف البصرة وأوباش عامتها ، فكيف من يجد ركنا منيعا وناصرا مطيعا ؟..

« وما مثل الأمير في أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له ، فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك . فان يكن من الأمير اعتاب أو رجوع الى ما هو أشبه به وأولى ، والا رجوت من الله عز وجل كفاية أمره ، وحسم مادة شره ، واجراءنا في الحياطة على أجمل عادته عندنا . والسلام » .

فلما وصل الكتاب الى الموفق أقلقه ، وبلغ منه مبلغا عظيما ، وأغاظه غيظا شديدا . وأحضر موسى بن بغا — وكان عون الدولة

وأشد أهلها بأسا واقداما — فتقدم اليه فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور . فامتثل ذلك ، وكتب الى ماخور كتاب التقليد وأنفذه اليه . فلما وصل اليه الكتاب ، توقف عن ارساله الى أحمد بن طولون لعجزه عن مناهضته .

وخرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدرا أنه يدور عمل المفوض ليحمل الأموال منه ، وكتب الى ماخور أمير الشام والى أحمد بن طولون أمير مصر — لما بلغه * من توقف ماخور عن مناهضته — يأمرهما بحمل الأموال ، وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون ، واستخلاف ماخور عليها ، فسار الى الرقة .

وبلغ ذلك ابن طولون فأقلقه وغمه ، لا لأنه يقصر عن موسى بن بغا ، لكن لتحمله هتك الدولة ، وأن يأتى سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه . الا أنه لم يجد بدا من المحاربة ليدفع عن نفسه ، وتأمل مدينة فسطاط مصر ، فوجدها لا تؤخذ الا من جهة النيل . فأراد — لكبر همته ، وكثرة فكره فى عواقب الأمور — أن يبنى حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ليكون معقلا لحرمه وذخائره ، ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتى من البر .

وقد زاد فكره فيمن يقدم من النيل . فأمر ببناء الحصن على الجزيرة ، واتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلاييات والحمائم والعشاريات والسنابيك وقوارب الخدمة . وعمد الى سد وجه البحر الكبير ، وأن يمنع ما يجىء اليه من مراكب طرسوس ، وغيرها من البحر الملح الى النيل ، بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفا مما سيجىء من مراكب طرسون — كما فعل محمد بن سليمان من بعده بأولاده ، كأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق — وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة ، وأنفذ الى الصعيد والى أسفل الأرض بمنع من يحمل الغلال الى البلاد ، ليمنع من يأتى من البر الميرة .

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر ، وقد اضطربت عليه الأتراك ، وطالبوه بأرزاقهم مطالبة شديدة ، بحيث استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم . فخاف موسى بن بغا عند ذلك ، ودعته ضرورة الحال الى الرجوع ، فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ، ومات من علة فى صفر سنة أربع وستين ومائتين * .

هذا وأحمد بن طولون يجد فى بناء الحصن على الجزيرة ، وقد ألزم قواده وثقاته أمر الحصن ، وفرقه عليهم قطعا قام كل واحد بما لزمه من ذلك ، وكد نفسه فيه . وكان يتعاهدهم بنفسه فى كل يوم ، وهو فى غفلة عما صنعه الله تعالى له من الكفاية والغنى عما يعانيه . ومن كثرة ما بذل فى هذا العمل قدر أن كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح .

(*) ص١٧٩ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولما تواترت الأخبار بموت موسى بن بغا ، كفّ عن العمل ، وتصدق بمال كثير شكرا لله تعالى على ما منّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه الأحدوثة .

وما رأى الناس شيئا كان أعظم من عظيم الجد فى بناء هذا الحصن ، ومباكرة الصناع له فى الأسحار حتى فرغوا منه ، فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم فى كل بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث ، لكثرة ما سخا به من بذل المال . فلما انقطع البناء لم ير أحد من الصناع التى كانت فيه مع كثرتها ، كأنما هى نار صب عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصناع مالا جزيلا ، وترك لهم جميع ما كان سلفا معهم . وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهبا .

وكان مما حمل أحمد بن طولون على بناء الحصن أن الموفق أراد أن يشغل قلبه ، فسرقت نعله من بيت حظية لا يدخلها الا ثقاته ، وبعثها الموفق اليه ، فقال له الرسول : من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه ، أليس هو بقادر على أخذ روحك ؟ فوالله أيها الأمير لقد قام عليه أخذ هذه النعل بخمسين ألف دينار . فعند ذلك أمر ببناء الحصن .

وقال أبو عمر الكندى فى كتاب « أمراء مصر » : وتقدم أبو أحمد الموفق الى موسى ابن بغا فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور التركى . فكتب موسى بن بغا بذلك الى ماخور — وهو والى دمشق يومئذ — فتوقف لعجزه عن مقاومة أحمد بن طولون ، فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة .

وبلغ ابن طولون أنه سائر اليه ، ولم يجد بدا من محاربته . فأخذ أحمد بن طولون فى الحذر منه ، وابتدأ فى ابتناء الحصن الذى بالجزيرة التى بين الجسرين ، ورأى أن يجعله معقلا لماله وحرمه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومائتين . واجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية ، وأطافها بالجزيرة ، وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه .

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر ، وأحمد بن طولون فى احكام أموره ، واضطربت أصحاب موسى بن بغا عليه ، وضاق بهم منزلهم ، وطالبوا موسى بالمسير أو الرجوع الى العراق ... فبينا هو كذلك توفى موسى بن بغا فى سنة أربع وستين ومائتين .

وقال محمد بن داود لأحمد بن طولون وفيه تحامل :

لما ثوى بن بغا بالرقتين ملا
ساقيه زرقا الى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به
بالعسف والضرب والصناع فى تعب
وراقب الجيزة القصوى فخندقها
وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب

ترى عليها لباس الذلّ مذ بنيت
بالشط ممنوعة من عزة الطلب *
فما بناها لغزو الروم محتسبا
لكن بناها غداة الروع والعطب

وقال سعيد بن القاضي من أبيات :

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملا
الى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر
ترى أثرا لم يبق من يستطيعه
من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد أهلها
ومجد يؤدى وارثيه الى الفخر

وما زال حصن الجزيرة هذا عامرا أيام بنى طولون ، وعملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية . فاستمر صناعة الى أن تقلد الأمير محمد بن طغج الاخشيد امارة مصر من قبل أمير المؤمنين الراضى بالله ، وسير مراكب من الشام عليها صاعد بن الكلكم ، فدخل تنيس ، وصارت مقدمته فى البر ، ودخل صاعد دمياط ، وسار فهزم جيش مصر الذى جهزه أحمد بن كيغلغ اليه بتدبير محمد ابن على الماردانى على بحيرة نوسا ، وأقبل فى مراكبه الى الفسطاط فكان بالجزيرة .

وقدم محمد بن طغج ، وتسلم البلد لست بقين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وفر منه جماعة الى الفيوم . فخرج اليهم صاعد بن الكلكم فى مراكبه ، وواقعهم بالفيوم فقتل فى عدة من أصحابه ، وقدمت الجماعة فى مراكب ابن كلكم ، فأرسوا

(*) ص١٨٠ جـ٢ ، ط. بولاق .

بجزيرة الصناعة وحرقوها ، ثم مضوا الى الاسكندرية وساروا الى برقة . فقال محمد ابن طغج : الصناعة هنا خطأ . وأمر بعمل صناعة فى بر مصر .

وحكى ابن زولاق فى « سيرة محمد بن طغج » أنه قال : أذكر أنى كنت آكل مع أبى منصور تكين أمير مصر ، وجرى ذكر الصناعة فقال تكين : صناعة يكون بيننا وبينها بحر خطأ . فأشارت الجماعة بنقلها ، فقال : الى أى موضع ؟ فأردت أن أشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، ثم سكت ، وقلت أدع هذا الرأى لنفسى اذا ملكت مصر ، فبلغت ذلك والحمد لله وحده .

ولما أخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردد اليها حتى عملت . فلما ابتدأوا بانشاء المراكب فيها ، صاحت به امرأة ، فقال : خذوها . فساروا بها الى داره ، فأحضرها مساء ، واستخبرها عن أمرها . فقالت : ابعث معى من يحمل المال .

فأرسل معها جماعة الى دار خديجة هذه ، فدلتهم على مكان استخرجوا منه عينا وورقا وحليا وثيابا وعدة ذخائر لم ير مثلها ، وصاروا بها الى محمد بن طغج . فطلب المرأة ليكافئها على ما كان منها ، فلم توجد . فكان هذا أول مال وصل الى محمد بن طغج بمصر .

قال : واستدعى محمد بن طغج الاخشيد صالح بن نافع وقال له : كان فى نفسى اذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة فى دار ابنة الفتح ، وأجعل موضع الصناعة من

الجزيرة بستانا أسميه المختار . فاركب وخط لي بستانا ودارا ، وقدر لي النفقة عليها .

فركب صالح بجماعة ، وخطوا بستانا فيه دار للغلمان ودار للنوبة وخزائن للكسوة وخزائن للطعام ، وصوروه وأتوا به ، فاستحسنه وقال : كم قدرتم النفقة ؟

قالوا : ثلاثين ألف دينار .

فاستكثرها ... فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار . فأذن في عمله . ولما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم ، فقسط على جماعة ، وفرغ من بنائه . فاتخذه الاخشيد متنزها له ، وصار يفاخر به أهل العراق .

وكان نقل الصناعة من الجزيرة الى ساحل النيل بمصر في شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة .

فلم يزل البستان المختار متنزها الى أن زالت الدولة الاخشيدية والكافورية ، وقدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر . فكان يتنزه فيه المعز لدين الله معد وابنه العزيز بالله نزار ، وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس لها وال وقاض ، وكان يقال القاهرة ومصر والجزيرة .

فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وحجره على الخلفاء ، أنشأ في بحرى الجزيرة مكانا نزها سماه الروضة ، وتردد اليها ترددا كثيرا ، فكان يسير في العشاريات الموكبيات من دار الملك التي كانت سكنه بمصر الى الروضة ، ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة . فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش ، واستبد الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلي بالله ، أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة ، مكانا لمحبوبته العالية البدوية سماه الهودج .

« الهودج » : قال ابن سعيد في كتاب « المحلى بالأشعار » عن تاريخ القرطبي : قد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بني عمها ، وما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام الله ، حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك .

والاختصار منه أن يقال ان الخليفة الآمر كان قد ابتلى بعشق الجواري العربيات ، وصارت له عيون في البوادي . فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم شاعرة جميلة .

فيقال انه تزيا بزي بداة الأعراب ، وصار يجول في الأحياء الى أن انتهى الى حيها ، وبات هنالك * في ضائفة ، وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ، ورجع الى مقر ملكه وسرير خلافته ، فأرسل الى أهلها يخطبها ، فأجابوه الى ذلك وزوجوها منه .

فلما صارت الى القصور ، صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ، ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة . فبنى لها البناء المشهور في جزيرة

(*) ص١٨١ جـ٢ ، ط. بولاق .

الفسطاط المعروف بالهودج ، وكان على شاطىء النيل في شكل غريب .

وكان بالاسكندرية القاضي مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد ، قد استولى على أمورها ، وصار قاضيها وناظرها ، ولم يبق لأحد معه فيها كلام ، وضمن أموالها بجملة يحملها .

وكان ذا مروءة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ، وممن مدحه ظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت ، وجماعة . وكان الأفضل بن أمير الجيوش اذا أراد الاعتناء بأحد كتب معه كتابا الى ابن حديد هذا ، فيغنيه بكثرة عطائه .

وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن كبير من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يجد في نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعم ، ويباهى به أهل عصره . فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة ، فطلبته من الخليفة ، فأنفذ في الحال باحضاره .

فلم يسع ابن حديد الا أن قلعه من مكانه ، وبعث به وفي نفسه حزازة من أخذه منه ، وخدم البدوية ، وخدم جميع من يلوذ بها ، حتى قالت : هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا .

فلما بلغه ذلك عنها قال : ما لى حاجة ، بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها ، غير رد الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها في أيامهم من نعمهم الى مكانه .

فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه ، وأمرت برد الجرن اليه . فقيل له : قد وصلت الى حد أن خيرتك البدوية في جميع المطالب ، فنزلت همتك الى قطعة حجر !

فقال : أنا أعرف بنفسى ... ما كان لها أمل سوى ألا تغلب في أخذ ذلك الجرن من مكانه ، وقد بلغها الله أملها .

وبقيت البدوية متعلقة الخاطر يابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح ، فكتبت اليه وهى بقصر الخليفة الآمر :

يابن مياح اليك المشتكى
مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيى مرأ مطلقا
نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد
لا أرى الا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا
حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى
حيثما شاء طليق سلكا

فأجابها :

بنت عمى والتى غذيتها
بالهوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها
لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الأمر اليه يشتكى
هالك وهو الذى قد هلكا

شأى داود غدا فى عصرنا
مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر ، فقال : لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها الى حيه ، وزوجتها به .

قال القرطبى : وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول .

وكان من عرب طيىء فى عصر الخليفة الآمر طراد بن مهلهل . فلما بلغه قضية الآمر مع العالية البدوية قال :

ألا أبلغوا الآمر المصطفى
مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة
بها سمر الحى بين الرجال
كذا كان آباؤك الأقدمون
سألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الآمر شعره ، قال : جواب السؤال قطع لسانه على فضوله . وأمر بطلبه فى أحياء العرب ، ففر ولم يقدر عليه ، فقالت العرب : ما أخسر صفقة طراد ، باع أبيات الحى بثلاثة أبيات !

ولم يزل الآمر يتردد الى الهودج بالروضة للنزهة فيه . الى أن ركب من القصر بالقاهرة يريد الهودج ، فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، فلما كان برأس الجسر وثب عليه قوم من النزارية ، قد كمنوا له فى فرن تجاه رأس الجسر بالروضة ، وضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه ، وجرحوا جماعة من خدامه ، فحمل الى منظرة اللؤلؤة بشاطىء الخليج وقد مات * .

ذكر قلعة الروضة

اعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة متنزها ملوكيا ومسكنا للناس ، كما تقدم ذكره ، الى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب سلطنة مصر ، فأنشأ القلعة بالروضة . فعرفت بقلعة المقياس ، وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة ، وبالقلعة الصالحية .

وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان ، وابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره .

وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة ، وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها فى القلعة .

وأنفق فى عمارتها أموالا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجا ، وبنى بها جامعا ، وغرس بها جميع الأشجار ، ونقل اليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام ، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب ، وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأقوات ، خشية

(*) ص ١٨٢ ، جـ ٢ ، ط بولاق .

من محاصرة الفرنج فانهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر .

وبالغ في اتقانها مبالغة عظيمة ، حتى قيل انه استقام كل حجر فيها بدينار ، وكل طوبة بدرهم .

وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل ، فصارت تدهش من كثرة زخرفتها ، وتحير الناظر اليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها .

ويقال انه قطع من الموضع الذي أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة ، كان رطبها يهدى الى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه ، وخرب الهودج والبستان المختار ، وهدم ثلاثة وثلاثين مسجدا عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى واقامة الصلوات .

واتفق له في هدم بعض هذه المساجد خبر غريب . قال الحافظ جمال الدين يوسف ابن أحمد بن محمود بن أحمد الأسبدي ، الشهير باليغموري : سمعت الأمير الكبير الجواد جمال الدين أبا الفتح موسى ابن الأمير شرف الدين يغمور بن جلدك بن عبد الله ... قال : ومن عجيب ما شاهدته من الملك الصالح أبي الفتوح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، رحمه الله تعالى ، أنه أمرني أن أهدم مسجدا كان في جوار داره بجزيرة مصر .

فأخرت ذلك ، وكرهت أن يكون هدمه على يدي ، فأعاد الأمر وأنا أكاسر عنه . وكأنه فهم مني ذلك ، فاستدعى بعض خدمه من نوابي وأنا غائب ، وأمره أن يهدم ذلك المسجد ، وأن يبني في مكانه قاعة ، وقدر له صفتها . فهدم ذلك المسجد ، وعمر تلك القاعة مكانه وكملت .

وقدمت الفرنج الى الديار المصرية ، وخرج الملك الصالح مع عساكره اليهم ، ولم يدخل تلك القاعة التي بنيت في المكان الذي كان مسجدا . فتوفي السلطان في المنصورة ، وجعل في مركب ، وأتي به الى الجزيرة ، فجعل في تلك القاعة التي بنيت مكان المسجد مدة الى أن بنيت له التربة التي في جنب مدارسه بالقاهرة في جانب القصر ، عفا الله عنه .

وكان النيل — عندما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة — من الجانب الغربي ، فيما بين الروضة وبر الجيزة ، وقد انطرد عن بر مصر ، ولا يحيط بالروضة الا في أيام الزيادة . فلم يزل يغرق السفن في البر الغربي ، ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال ، حتى عاد ماء النيل الى بر مصر ، واستمر هناك ، فأنشأ جسرا عظيما ممتدا من بر مصر الى الروضة ، وجعل عرضه ثلاث قصبات .

وكان الأمراء اذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة ، يترجلون عن خيولهم عند البر ، ويمشون في طول هذا الجسر الى القلعة ، ولا يمكن أحد من العبور عليه راكبا سوى السلطان فقط .

ولما كملت تحول اليها بأهله وحرمه ، واتخذها دار ملك ، وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

قالَ العلامة على بن سعيد فى « كتـاب المغـرب » وقـد ذكر الروضـة : هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة ، وبها مقياس النيـل ، وكانت متنزها لأهل مصر . فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة ، وبنى بها قلعة مسورة بسور ساطع اللون ، محكم البناء عالى السمك ، لم تر عينى أحسن منه .

وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التى هام فى حبها ، والمختار بستان الاخشيد وقصره ، وله ذكر فى شـعر تميـم بن المعز وغيره . ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار ، منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى :

أرى سرح الجـزيرة من بعيـد
كأحـداق تغـازل فى مغـازل
كأن مجرة الجوزا أحاطت
وأثبتت المنازل فى المنـازل

وكنت أشق فى بعض الليالى بالفسـطاط على ساحلها ، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون . ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سـور هذه القلعة ، وفى داخله من الدور السلطانيـة ما ارتفعت اليه * همـة بانيها ، وهو من أعظـم السلاطين همة فى البناء .

وأبصرت فى هذه الجزيرة ايوانا لجلوسه لم تر عينى مثاله ، ولا أقدر ما أنفق عليـه ، وفيـه من صـفائح الذهب والرخام الأبنوسى والـكافورى والمجـزع ما يذهل الأفكار ، ويستوقف الأبصار .

ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة ، وفى بعضـها حاظر حظـر به على أصـناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان ، وبعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر .

وقد تفرجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى بر القـاهرة ، فقطعت فيـه عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات .

واذا زاد النيلُ فصل ما بينها وبين الفسطاط بالكلية . وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الجسر فيه مراكب .

وركبت مرة هـذا النيـل أيام الزيادة مع الصـاحب المحسن محيى الدين بن ندا وزير الجزيرة ، وصعدنا الى جهـة الصعيـد ، ثم انحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة ، وأبراجهـا تتلألأ والنيل قد انقسم عنها ، فقلت :

تأمل لحسن الصالحيـة اذ بدت
وأبراجها مثـل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا
تفرج صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية
كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شـوق لحسنها
فمد يمينا نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها
من السعـد أعـلاما فزاد دلالا

(*) ص١٨٣ جـ٢ ، ط. بولاق .

ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب . فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى — أول ملوك الترك بمصر — أمر بهدمها ، وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر . وطمع فى القلعة من له جاه ، فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

فلما صارت مملكة مصر الى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، اهتم بعمارة قلعة الروضة ، ورسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى اعادتها كما كانت . فأصلح بعض ما تهدم فيها ، ورتب فيها الجاندراية ، وأعادها الى ما كانت عليه من الحرمة .

وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء ، وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفى والبرج الذى يليه للأمير عز الدين الحلى ، والبرج الثالث من بروج الزاوية للأمير عز الدين أرغان ، وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسى ، وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء ، ورسم أن تكون بيوتات جميع الأمراء واصطبلاتهم فيها ، وسلم المفاتيح لهم .

فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون الألفى ، وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية ، نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج اليه من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى ، وأخذ منها رخاما كثيرا وأعتابا جليلة مما كان فى البرابى وغير ذلك . ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ما احتاج اليه من عمد الصوان فى بناء الايوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر ، وأخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن .

وتأخر منها عقد جليل ، تسميه العامة القوس ، كان مما يلى جانبها الغربى . أدركناه باقيا الى نحو سنة عشرين وثمانمائة ، وبقى من أبراجها عدة قد انقلب أكثرها ، وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل .

قال ابن المتوج : ثم اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة مصر ، المعروفة اليوم بالروضة ، فى شعبان سنة ست وستين وخمسمائة . وانما سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها ، وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والعمائر والثمار مالم يكن فى غيرها .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدة . فلما طال حصارها وهرب الروم منها ، خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرت الى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل .

ثم اشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر المذكور ، وبقيت على ملكه ... الى أن سير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده الملك العزيز عثمان الى مصر ومعه عمه الملك

العادل ، وكتب الى الملك المظفر بأن يسلم لهما البلاد ويقدم عليه الى الشام .

فلما ورد عليه الكتاب ، ووصل ابن عمه الملك العزيز وعمه الملك العادل ، شق عليه خروجه من الديار المصرية ، وتحقق أنه لا عود له اليها أبدا . فوقف هذه المدرسة التى تعرف اليوم فى مصر بالمدرسة التقوية — التى كانت تعرف بمنازل العز — ووقف عليها * الجزيرة بكاملها ، وسافر الى عمه فملكه حماة .

ولم يزل الحال كذلك . الى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد عبد العزيز ابن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد العلي بن عبد القادر السكرى ، مدرس المدرسة المذكورة ، لمدة ستين سنة فى دفعتين ، كل دفعة قطعة : فالقطعة الأولى من جامع غين الي المناظر طولا وعرضا من البحر الى البحر ، واستأجر القطعة الثانية وهي باقي أرض الجزيرة بما فيها من النخل والجميز والغروس .

فانه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة ، قطعت النخيل ودخلت فى العمائر . وأما الجميز فانه كان بشاطىء بحر النيل صف جميز يزيد على أربعين شجرة ، وكان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النيل والربيع ، قطعت جميعها في الدولة الظاهرية ، وعمر بها شواني عوض الشواني التى كان قد سيرها الى جزيرة قبرس .

(*) ص١٨٤ جـ٢ ، ط . بولاق .

ثم سلم لمدرس التقوية القطعة المستأجرة من الجزيرة أولا فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وبقي بيد السلطان القطعة الثانية .

وقد خربت قلعة الروضة ، ولم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها ، وبقى أيضا عقد باب من جهة الغرب يقال له باب الاصطبل . وعادت الروضة بعد هدم القلعة منها متنزها يشتمل على دور كثيرة ، وبساتين عدة ، وجوامع تقام بها الجماعات والأعياد ومساجد . وقد خرب أكثر مساكن الروضة ، وبقي فيها الي اليوم بقايا .

وبطرف الروضة « المقياس » الذى يقاس فيه ماء النيل اليوم ، ويقال له المقياس الهاشمى ، وهو آخر مقياس بنى بديار مصر .

قال أبو عمر الكندى : وورد كتاب المتوكل علي الله بابتناء المقياس الهاشمى للنيل ، وبعزل النصاري عن قياسه . فجعل يزيد بن عبد الله بن دينار ، أمير مصر ، أبا الرداد المعلم . وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج فى كل شهر سبعة دنانير ، وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائتين . وعلامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا أن يسبل أبو الرداد ، قاضي البحر ، الستر الأسود الخليفى علي شباك المقياس ، فاذا شاهد الناس هذا الستر قد أسبل تباشروا بالوفاء ، واجتمعوا على العادة للفرجة من كل صوب .

وما أحسن قول شهاب الدين بن العطار في تهتك الناس يوم تخليق المقياس :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم
ما أحسن الستر ، قالوا العفو مأمول

ستر الاله علينا لا يزال فما
أحلى تهتكنا والستر مسبول

« جزيرة الصابونى » : هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار ، والرباط من جملتهـا . وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى وقطعة من بركة الحبش ، فجعـل نصـف ذلك على الشيخ الصابونى وأولاده ، والنصف الآخر على صوفية بمكان بجوار قبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، يعرف اليوم بالصابونى .

« جزيرة الفيل » : هذه الجزيرة هى الآن بلد كبيـر خارج باب البحر من القـاهرة ، وتتصل بمنية الشيرج من بحريها ، ويمر النيل من غربيها ، وبها جامع تقام به الجمعة وسوق كبير وعدة بساتين جليلة .

وموضـعها كله ممـا كان غامرا بالماء فى الدولة الفاطمية . فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيـل ، وترك فى مكانه ، فربا عليه الرملّ ، وانطرد عنـه الماء . فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل .

وصار الماء يمر من جوانبها : فغربيها تجاه بر مصر الغربى ، وشرقيها تجاه البعل ، والماء فيما بينها وبين البعل — الذى هو الآن قبالة قناطر الأوز — فان الماء كان يمر بالمقس من تحت زربية جامع المقس المـوجود الآن على الخليج الناصرى ، ومن جامع المقس على أرض الطبالة الى غربى المصلى حتى ينتهى من تجاه التاج الى المنية .

وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل ، وما يرحت تتسـع الى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشـافعى رضى الله عنـه ، وكثرت أطيانهـ بانحسار النيل عنها فى كل سنة .

فلما كان فى أيام الملك المنصـور قلاوون الألفى ، تقرب مجد الدين أبو الروح عيسى ابن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن الخشاب ، المتحدث فى الأحباس ، الى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بأن فى أطيان هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه السلطان صلاح الدين .

فأمر بقيـاس ما تجـدد بها من الرمال ، وجعلها لجهة الوقف الصلاحى ، وأقطع الأطيان القديمة التى كانت فى الوقف ، وجعلها هى التى زادت .

فلما أمر الملك المنصـور قلاوون بعمـل المارستان المنصـورى ، وقف بقيـة الجزيرة عليه . فغرس الناس بها الغروس ، وصارت بساتين ، وسكن الناس من المزارعين هناك .

فلما كانت أيام الملك النـاصر محمـد بن قلاوون بعد عوده الى قلعة الجبل من الكرك ، وانحسر النيـل عن جانب المقس الغربى * ، وصـار ما هنـالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ، ومن قبليهـا بأراضى اللوق ... افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر ، فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تُعرف اليوم ببولاق خارج المقس ، وأنشـأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور .

واستجد ابن المغربى الطبيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، للأمير

(*) ص ١٨٥ ، جـ ٢ ، ط . بولاق .

سيف الدين طشتمر الساقى ، بنحو المائة ألف درهم فضة : عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا .

وتتابع الناس فى انشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة . وحكر ما كان منها وقفا على المدرسة المجاورة للشافعى رضى الله عنه ، وما كان فيها من وقف المارستان ، وغرس ذلك كله بساتين ، فصارت تنيف على مائة وخمسين بستانا الى سنة وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ونصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل ، وابتنى الناس بها عدة دور وجامعا ، فبقيت قرية كبيرة .

وما زالت فى زيادة ونمو . فأنشأ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى رحمه الله ، الدار المجاورة لبستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل ، فجاءت فى غاية من الحسن . فلما عزل عن قضاء القضاة وسار الى دمشق ، اشتراها الأمير بشتاك بثلاثين ألف درهم ، وخربها وأخذ منها رخاما وشبابيك وأبوابا ، ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم . فربح الباعة فى ذلك شيئا كثيرا .

ونودى على زربيتها فحكرت ، وعمر عليها الناس عدة أملاك ، واتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزربية الى منية الشيرج . ثم خربت شيئا بعد شىء ، وبقى ما على هذه الزربية من الأملاك ، وهى تعرف اليوم بدار الطنبدى التاجر .

وأما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا ، من حسن المنظر وكثرة المتحصل . الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ، فتلاشت وخرب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن ، وشدة ظلم الدولة ، وتعطل معظم سوقها . وفيها الى الآن بقية صالحة .

« جزيرة أروى » : هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى ، لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة ، لم ينحسر عنها الماء الا بعد سنة سبعمائة .

وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء اسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى ، عن الطبيب الفاضل شمس الدين محمد بن الأكفانى ، أنه كان يمر بهذه الجزيرة أول ما انكشفت ، ويقول : هذه الجزيرة تصير مدينة — أو قال تصير بلدة — على الشك منى . فاتفق ذلك ، وبنى الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن ، وغرسوا فيها البساتين ، وحفروا الآبار ، وصارت من أحسن متنزهات مصر يحف بها الماء .

ثم صار ينكشف ما بينها وبين بر القاهرة ، فاذا كانت أيام زيادة ماء النيل أحاط الماء بها ، وفى بعض السنين يركبها الماء ، فتمر المراكب بين دورها وفى أزقتها . ثم لما كثر الرمل فيما بينها وبين البر الشرقى — حيث كان خط الزربية وفم الخور — قل الماء هناك ، وتلاشت مساكن هذه الجزيرة منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة ، وفيها الى اليوم بقايا حسنة .

« الجزيرة التي عرفت بحليمة » : هذه الجزيرة خرجت ، في سنة سنع رأربعين وسبعمائة ، ما بين بولاق والجزيرة الوسطى . سمتها العامة بحليمة ، ونصبوا فيها عدة أخصاص ، بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة في ثمن رخام ودهان . فكان فيها من هذه الأخصاص عدة وافرة ، وزرع حول كل خص من المقاثي وغيرها ما يستحسن .

وأقام أهل الخلاعة والمجون هناك ، وتهتكوا بأنواع المحرمات ، وتردد الى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة ألا يثبت بها أحد .

وبلغ أجرة كل قصبة بالقياس في هذه الجزيرة ، وفي الجزيرة التي عرفت بالطمية فيما بين مصر والجيزة ، مبلغ عشرين درهما نقرة ، فوقف الفدان هناك بمبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة ، ونصبت في هذه الأفدنة الأخصاص المذكورة ، وكان الانتفاع بها فيما ذكر نحو ستة أشهر من السنة ، فعلى ذلك يكون الفدان فيها بمبلغ ستة عشر ألف درهم نقرة ، وأتلف الناس هناك من الأموال ما يجل وصفه .

فلما كثر تجاهرهم بالقبيح ، قام الأمير أرغون العلائي ، مع الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، في هدم هذه الأخصاص التي بهذه الجزيرة قياما زائدا حتى أذن له في ذلك . فأمر واليي مصر والقاهرة ، فنزلا على حين غفلة ، وكبسا الناس ، وأراقا الخمور ، وحرقا الأخصاص . فتلف للناس في النهب والحريق وغير ذلك شيء كثير الى الغاية والنهاية .

وفي هذه الجزيرة يقول الأديب ابراهيم المعمار :

جزيرة البحر جنت	بها عقول سليمة
لماحوت حسن مغنى	ببسطة مستقيمة
وكم يخوضون فيها	وكم مشوا بنميمة *
ولم تزل ذا احتمال	ما تلك الا حليمة

ذكر السجون

قال ابن سيده : السجن الحبس ، والسجان صاحب السجن ، ورجل سجين مسجون ... قال : وحبسه يحبسه حبسا فهو محبوس وحبيس ، واحتبسه وحبسه أمسكه عن وجهه .

وقال سيبويه : حبسه ضبطه ، واحتبسه اتخذه حبسا ، والمحبس والمحبسة والمحتبس اسم الموضع .

وقال بعضهم : المحبس يكون مصدرا كالحبس ، ونظيره : الى الله مرجعكم ، أي رجوعكم . ويسألونك عن المحيض ، أي الحيض .

وروى الامام أحمد وأبو داود من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، قال : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حَبَس في تهمة .

(*) ص١٨٦ ج٢ ، ط. بولاق *

وفي جامع الجلال عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حبس في تهمة يوما وليلة .

فالحبس الشرعي ليس هو السجن في مكان ضيق ، وانما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه : سواء كان في بيت أو مسجد ، أو كان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه ، وملازمته له . ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم أسيرا .

كما روى أبو داود وابن ماجة ، عن الهرماس بن حبيب عن أبيه رضي الله عنهما ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بغريم لي ، فقال لي : « الزمه » . ثم قال لي : «ياأخا بني تميم ، ما تريد أن تفعل بأسيرك» ، وفي رواية ابن ماجة : ثم مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بي آخر النهار ، فقال : « مافعل أسيرك ياأخا بني تميم » ؟

وهذا كان هو الحبس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولم يكن له محبس معد لحبس الخصوم . ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ابتاع من صفوان بن أمية رضي الله عنه دارا بمكة بأربعة آلاف درهم ، وجعلها سجنا يحبس فيها .

ولهذا تنازع العلماء : هل يتخذ الامام حبسا على قولين : فمن قال لا يتخذ حبسا ، احتج بأنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لخليفته من بعده حبس ، ولكن يعوقه بمكان من الأمكنة ، أو يقيم عليه حافظا — وهو الذي يسمى الترسيم — أو يأمر غريمه بملازمته . ومن قال له أن يتخذ حبسا ، احتج بفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومضت السنة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، أنه لا يحبس على الديون ، ولكن يتلازم الخصمان . وأول من حبس على الدين شريح القاضي .

وأما الحبس الذي هو الآن ، فانه لا يجوز عند أحد من المسلمين . وذلك أنه يجمع الجمع الكثير في موضع يضيق عنهم ، غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم عورة بعض ، ويؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء ، وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له ، وان أصل حبسه على ضمان .

وأما سجون الولاة فلا يوصف ما يحل بأهلها من البلاء ، واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان في الحديد حتى يشحذوا ، وهم يصرخون في الطرقات : الجوع . فما تصدق به عليهم لا ينالهم منه الا ما يدخل بطونهم ، وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالي ، ومن لم يرضهم بالغوا في عقوبته .

وهم مع ذلك يستعملون في الحفر وفي العمائر ، ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ، والأعوان تستحثهم . فاذا انقضى عملهم ردوا الى السجن في حديدهم من غير أن يطعموا شيئا الى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا . وقد قيل ان أول من وضع السجن والحرس معاوية .

وقد كان فى مدينة مصر وفى القاهرة عدة سجون ، وهى : حبس المعونة بمصر ، وحبس الصيار بمصر ، وخزانة البنود بالقاهرة ، وحبس المعونة بالقاهرة ، وخزانة شمائل ، وحبس الديلم ، وحبس الرحبة ، والجب بقلعة الجبل .

« حبس المعونة بمصر » ، ويقال أيضا دار المعونة : كانت أولا تعرف بالشرطة ، وكانت قبلى جامع عمرو بن العاص . وأصله خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضى الله عنهم . اختطها فى أول الاسلام — وقد كان موضعها فضاء — وأوصى فقال : ان كنت بنيت بمصر دارا ، واستعنت فيها بمعونة المسلمين ، فهى للمسلمين ينزلها ولاتهم .

وقيل بل كانت هى ودار الى جانبها لنافع ابن عبد قيس الفهرى ، وأخذها منه قيس بن سعد ، وعوضه دارا بزقاق القناديل . ثم عرفت بدار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخى ، صاحب خراج مصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار — كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك ليهديه الى صاحب الروم — فخزنه فيها ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين تولى الخلافة ، فكتب أن تدفع اليه ، ثم صارت شرطة ودار الصرف .

فلما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من زيادة عبد الله بن طاهر فى الجامع ، بنى شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فى خلافة المأمون ، ونقش فى لوح كبير نصبه على باب الجامع الذى يدخل منه الى الشرطة ما نصه « بركة من الله لعبده عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين ، أمر باقامة هذه الدار الهاشمية المباركة ، على يد * عيسى بن يزيد الجلودى مولى أمير المؤمنين ، سنة ثلاث عشرة ومائتين » .

ولم يزل هذا اللوح على باب الشرطة الى صفر سنة احدى وثمانين وثلثمائة ، فقلعه يانس العزيزى ، وصارت حبسا يعرف بالمعونة ... الى أن ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فجعله مدرسة ، وهى التى تعرفه اليوم بالشريفية .

« حبس الصيار » : هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة بعدما عمل حبس المعونة مدرسة . وكان بأول الزقاق الذى فيه هذا الحبس حانوت يسكنه شخص يقال له منصور الطويل ، ويبيع فيه أصناف السوقة ، ويعرف هذا الرجل بالصيار من أجل أنه كانت له فى هذا الزقاق قاعة يخزن فيها أنواع الصير المعروف بالملوحة ، فقيل لهذا الحبس حبس الصيار .

ونشأ لمنصور الصيار هذا ولد عرفه بين الشهود بمصر بشرف الدين بن منصور الطويل . فلما أحدث الوزير شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى المظالم فى سلطنة الملك المعز أيبك التركمانى ، خدم شرف الدين هذا على المظالم فى جباية التسقيع والتقويم ، ثم خدم بعد ابطال ذلك فى مكس القصب والرمان . فلما تولى قضاء القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز ، تأذى عنده بما باشره من هذه المظالم .

(*) ص١٨٧ جـ٢ ، طـ بولاق .

وما زال هذا الحبس موجودا الى أن خربت مصر فى الزمان الذى ذكرناه فخرب ، وبقى موضعه وما حوله كيمانا .

« خزانة البنود » : هذه الخزانة بالقاهرة هى الآن زقاق ، يعرف بخط خزانة البنود ، على يمنة من سلك من رحبة باب العيد يريد درب ملوخيا وغيره . وكانت أولا فى الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح ... يقال ان الخليفة الظاهر بن الحاكم أمر بها . ثم انها احترقت فى سنة احدى وستين وأربعمائة ، فعملت بعد حريقها سجنا يسجن فيه الأمراء والأعيان الى أن انقرضت الدولة ، فأقرها ملوك بنى أيوب سجنا .

ثم عملت منزلا للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم وأولادهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد حضوره من الكرك . فلم يزالوا بها الى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ، نائب السلطنة بديار مصر ، فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، فاختط الناس موضعها دورا . وقد ذكرت فى هذا الكتاب عند ذكر خزائن القصر .

« حبس المعونة من القاهرة » : هذا المكان بالقاهرة موضعه الآن قيسارية العنبر برأس الحريريين . كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السراق ، وقطاع الطريق ونحوهم فى الدولة الفاطمية .

وكان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة . فلما ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون مملكة مصر ، هدمه وبناه قيسارية للعنبر . وقد ذكر عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب .

« خزانة شمائل » : هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة على يسرة من دخل منه بجوار السور . عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب . وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظرا ، يحبس فيها من وجب عليه القتل ، أو القطع ، من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان اهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة .

وكان السجان بها يوظف عليه والى القاهرة شيئا يحمله من المال له فى كل يوم ، وبلغ ذلك فى أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا . وما زالت هذه الخزانة على ذلك الى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودى ، فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وأدخلها فى جملة ما هدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة .

وشمائل هذا هو الأمير علم الدين . قدم الى القاهرة ، وهو من فلاحى بعض قرى مدينة حماة ، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل ، فخدم جاندار فى الركاب السلطانى . الى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط فى سنة خمس عشرة وستمائة ، وملكوا البر ، وحصروا أهلها وحالوا بينهم وبين من يصل اليهم . فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه ، ويسبح فى الماء بين المراكب ، ويرد على السلطان الخبر .

فتقـدم عنـد السلطان ، وحظي لديه حتى أقامه أمير جاندار ، وجعله من أكبر أمرائه ، ونصبه سيف نقمته ، وولاه ولاية القـاهرة . فباشر ذلك الى أن مات السلطان ، وقام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر . فلمـا خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، نقم على شمائل .

« المقشرة » : هذا السجن بجـوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمي ، كان يقشر فيه القمح . ومن جملته برج من أبراج السور ، على يمنة الخارج من باب الفتوح ، استجد بأعلاه دور لم تزل الى أن هـدمت خزانة شـمائل . فعين هـذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم ، وهدمت الدور التي كانت هنالك في شهر ربيع الأول سنة ثمـان وعشرين وثمانمائة ، وعمـل البرج والمقشرة سجنا ، ونقل اليه أرباب الجرائم .

وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسي فيه المسجونون من الغـم والـكرب ما لا يوصف ... عافانا الله من جميع بلائه .

« الجب بقلعة الجبل » : هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء . وابتـدىء عمله في سنة احدى وثمـانين وستمائة * ، والسلطان حينئذ الملك المنصور قلاوون . ولم يزل الى أن هدمه الملك النـاصر محمـد بن قلاوون في يوم الاثنين سابع عشر جمـادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وذلك أن شاد العمائر نزل اليـه ليصلح عمارته ، فشاهد أمرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة .

واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقي كان عنده شخص يسخر به ويمازحه ، فبعث به الى الجب ودلي فيه ، ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة . فلما حضر الى بكتمر أخبـره بما عاينه من شناعة الجب ، وذكر ما فيه من الروائح المهولة . وكان شاد العمائر في المجلس فوصف ما فيـه الأمـراء الذين بالجب من الشدائد . فتحـدث بكتمر مع السلطان في ذلك ، فأمر باخراج الأمراء منه ، وردم وعمر فوقه أطباق المماليك . وكان الذي ردم به هذا الجب النقض الذي هدم من الايوان الـكبير المجـاور للخزانة الـكبرى . والله أعـلم بالصواب [1] .

(*) ص١٨٨ ج٢ ، ط. بولاق .

(١) تنبيه : لم يذكر المؤلف في النشر جميع السجون التي ذكرها في اللف ، بل أسقط منها اثنين وهما حبس الديلم وحبس الرحبة ، وذكر بدلهما اثنين وهما المقشرة والجب ، فليحرر . أهـ .

تم الجـزء الثـاني من كتـاب « الخطط » للمقـريزي

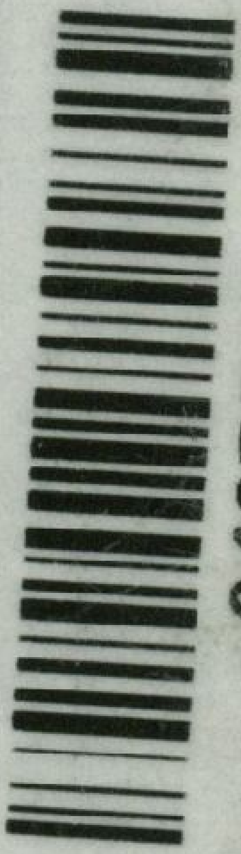
وأول الجزء الثالث « ذكر المواضع المعروفة بالصناعة »

فهرس الجزء الثانى
من كتاب « الخطط » للمقريزى

الموضوع	صفحة




مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر


Bibliotheca Alexandrina
0437541
